المصيبة الراتبة

أصداء المقتل والشعائر الحسينية



تأليف

الدكتور الشيخ محمد جمعة بادي



إسم الكتاب	:	المصيبة الراتبة (أصداء المقتل .. والشعائر الحسينية)
إسم المؤلف	:	الدكتور الشيخ محمد جمعة بادي
عدد النسخ	:	٣٠٠٠ نسخة
عدد الصفحات	:	٦٧٢ صفحة (القطع الوزيري)
الطبعة	:	الثانية ١٤٣٢ هـ ، بعد تصحيحات على الأولى ١٤٢٦ هـ

الموقع الإلكتروني الخاص

لسماحة الدّكتور الشيخ محمّد جمعة بادي

www.m-jumaa.com



الإهداء

..
مولاي الكريم ..
يا صاحب الدار ..
أنا لائذ ببابك.. فتفضّل عليّ بالنظر ..
وخذ بيدي إلى حضرتك.. وألهمني ذكرك ..
واخترني لعزّ خدمتك .. وخصّني بالعلم .. وعلمني سبيل الهُدى ..
وأنر لي دياجي الظلمة .. واعصمني بتوجيهك ..
ولا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ أبدا .. ومهّد لي طريق التوفيق ..
وقوّ جوارحي على الخدمة .. وأشركني في دعائك ..

اللهم اجعلني من أنصاره وأعوانه والذابين عنه والمسارعين إليه في قضاء حوائجه والمحامين عنه، والسابقين إلى إرادته، والمستشهدين بين يديه، اللهم إن حال بيني وبينه الموت الذي جعلته على عبادك حتما فأخرجني من قبري مؤتزرا كفني، شاهرا سيفي، مجرّدا قناتي، ملبّيا دعوة الداعي في الحاضر والبادي، اللهم أرني الطلعة الرشيدة، والغرّة الحميدة، واكحل ناظري بنظرة مني إليه، وعجّل فرجه، وسهّل مخرجه، وأوسع منهجه، واسلك بي محجته.

محمد

توطئة

أقول أولاً

من آلاء الله سبحانه وفضله عليّ أن يرى كتابي " الدّمعة السّاكبة " طريقه إلى النّور، وأرجو أن يُسهم في إثراء المكتبة المذهبيّة الزّاخرة، وخصوصاً تلك الأرفف الحسينيّة المحبّبة إلى نفسي، فهو يعالج موضوع البكاء على الإمام الحسين عليه السلام وفلسفته وجذور المأتم الحسيني.

وقد قفّاه هذا الكتاب " المصيبة الرّاتبة " الذي يندرج في نفس السّياق، إلاّ أنّه يُعالج حقلاً آخر من حقوله المونقة، بل هو توسّع في الفصل الأخير من الكتاب الأوّل، ويُعنى بالشّعائر الحسينيّة والطّقوس المرتبطة بحادثة كربلاء، المعبّرة عن أصداء المقتل الأليم وجوهر المصيبة الرّاتبة الثّابتة الدّائمة، قبل يوم الطّف وبعده، فهو توأم الكتاب الأوّل.

والحقّ أنّ الكتابَين جزءان في كتاب واحدٌ، إلاّ أنّني آثرت أثناء تبييض المسودّات تفريقهما، لأنّني لاحظت كبَر حجم الكتاب إذا كانا معاً، علاوةً على كونهما موضوعين مستقلّين ويمكن فصلهما، وقد نزلت إلى رغبة بعض من لا أرى بدّاً من النّزول إلى رغبتهم، مُستحضراً قول أمير المؤمنين عليه السلام : عرفتُ اللهَ

بفسخ العزائم ونقضِ الهمَم.

ويضمّ الكتاب الأول بحوث البكاء والمأتم الحسيني، في محاولة جادّة لتوضيح التساؤلات وكشف المبهمات التي تلفّ ظاهرة البكاء والمأتم الحسيني، وقد أشرتُ في مقدّمته إلى داعي تصنيفه وصياغته، ومطالبه مُصاغةٌ أساساً لمحاورة أهل السّنة وإن كانت مفيدة مهمّة لغيرهم أيضاً، ومركز ثقله الفصل الرّابع، حيث إثبات كون البكاء على سيّد الشّهداء عليه السلام سنّة نبويّة مؤكّدة، ونهجنا فيه النّقل عن مصادر العامّة، مع استطراد بعض البحوث فيه.

أمّا هذا الكتاب - الذي بين يديك - فإنّه يُعالج مختلفَ البحوث المتّصلة بالشعائر والطقوس الحسينية، وفيه مقدّمة تتتبّع دواعي الحزن على الإمام الحسين عليه السلام، وفيها نُتفٌ من مطالب الكتاب الأوّل ممّا لا بدّ من تقديمه في موضوع الشّعائر.

ويُعنى أصل الكتاب بالأصداء التي شكّلت أحزان واقعة الطّف، سواء كانت قبل الحادثة أم بعدها، إذ تُتابع فصولُه الجذور المأساوية الممتدّة في سالف الزّمن، في عالمنا هذا وفي عالم الملكوت، وتسبر أغوار العهد القديم لتستعرض أصداء المصاب في عالم الحياة منذ وطأة الإنسان الأوّل على هذه الأرض وحتّى رسالة النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله، وقد ساعدت النصوص الواردة على إثراء تلك البحوث.

ثمّ يأتي الكلام في تتبّع أصداء الحزن الملفّعة بالشّجى والأسى والجزع التي توالت بعد الحادث، ونسلّط الأضواء على شعائر المعزّين وطقوسهم الحسينيّة لدراساتها بحسب النّقل والصّناعة الفقهية.

ولا أغالي إن قلت: إنّ مصاباً جلَلاً يحيي الجليل شجاءه ويستجيب له عالم

التكوين طوعاً بحمرة السّماء وبكائها وبتفجّر الدّماء من الصخور الجلاميد.. لحريٌّ أن يحتضنه الخواص في قلوبهم وينشرون أشجانه ببثّ الأحزان وإظهار غاية الجزع، وقد نصّت أخبارُنا على أنّ أوّل من رثاه هو الجليل جلّ وعلا، وقد نعاه إلى الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، ثمّ توالى نزول الوحي على نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله لتأكيد خبر مقتل سبطه عليه السلام قبل ميلاده، حتّى إذا وُلد تزاحمت أفواجُ الملائكة إلى حضرته مهنّأة ومعزّية بولده، فعقد النبيّ صلى الله عليه وآله منذ ذلك الحين مآتمَ مختلفة وفي أماكن عدّة.

حتّى إذا وقعت الواقعة في سنة إحدى وستّين على شطّ كربلاء وقُتل سيّد شباب أهل الجنّة عليه السلام انفجر بركان الأحزان، واشتعلت جذوة اللوعة والمصاب، وارتفعت راية الشّهادة الحسينية وراحت تُؤتي أُكُلَها.

لقد زالت شمس يوم عاشوراء عن سبعة عشر صريع من أهل بيته عليهم السلام ليس لهم شبيه على الأرض، وعن نيّف وسبعين قتيل من أصحابه الأبرار رضي الله عنهم، وبقي بعدهم وحيداً فريداً لا ناصر له ولا معين، فعزم على لقاء الله تعالى بمهجته، حتّى خرّ صريعاً على بوغاء كربلاء كالأسد الجريح، وترادفت عليه الجموع لحزّ رأسه وسلبه، وقد كسَت الظّلمةُ وجهَ النّهار، وما أسرع أن أضاء الأفق بسنا رأس الإمام الحسين عليه السلام على رمح طويل.

يقول مولانا الإمام المنتظر عليه السلام:

"وأنت مقدّمٌ في الهَبَوات، ومُحتَمِلٌ للأذيّات، قد عجبَت من صبرك ملائكةُ السّماوات، فأحدقوا بك في كل الجهات، وأثخنوك بالجراح، وحالوا بينك وبين

الرواح، ولم يبق لك ناصراً، وأنت محتسبٌ صابرٌ، تَذُبُّ عن نسوتك وأولادك.

حتى نكسوك عن جوادك، فهويت إلى الأرض جريحاً، تَطَؤُكَ الخيول بحوافرها، وتعلوك الطغاة ببواترها، قد رشح للموت جبينك، واختلفت بالانقباض والانبساط شمالك ويمينك، تدير طرفاً خفيّاً إلى رحلك وبيتك، وقد شُغلت بنفسك عن ولدك وأهاليك، وأسرع فرسك شارداً، إلى خيامك قاصداً، محمحماً باكياً..

فلمّا رأين النساء جوادك مخزياً، ونظرن سرجك عليه ملوياً، برزن من الخدور، ناشرات الشعور، على الخدود لاطمات، الوجوه سافرات، وبالعويل داعيات، وبعد العز مذلّلات، وإلى مصرعك مبادرات، والشّمر جالس على صدرك، مولعٌ سيفه على نحرك، قابض على شيبتك بيده، ذابح لك بمهنده، قد سكنت حواسّك، وخفيت أنفاسك، ورُفع على القنا رأسك، وسُبي أهلُك كالعبيد، وصُفّدوا في الحديد، فوق أقتاب المطيات، تلفح وجوههم حر الهاجرات، يساقون في البراري والفلوات، أيديهم مغلولة إلى الأعناق، يُطاف بهم في الأسواق، فالويل للعصاة الفسّاق.

لقد قتلوا بقتلك الإسلام، وعطّلوا الصلاة والصيام، ونقضوا السنن والأحكام، وهدموا قواعد الإيمان، وحرفوا آيات القرآن، وهمجوا في البغي والعدوان، لقد أصبح رسول الله ﷺ من أجلك موتوراً، وعاد كتاب الله عز وجل مهجوراً، وغودر الحق إذ قهرت مقهوراً، وفُقد بفقدك التكبير والتهليل، والتحريم والتحليل، والتنزيل والتأويل، وظهر بعدك التغيير والتبديل، والإلحاد والتعطيل، والأهواء والأضاليل، والفتن والأباطيل.

فقام ناعيك عند قبر جدك الرسول ﷺ ، فنعاك إليه بالدمع الهطول ، قائلاً : يا رسول الله ، قُتل سبطك وفتاك ، واستبيح أهلك وحماك ، وسبيت بعدك ذراريك ، ووقع المحذور بعترتك وذويك ، فانزعج الرسول ، وبكى قلبه المهول ، وعزّاه بك الملائكة والأنبياء ، وفُجعت بك أمّك الزهراء ، واختلفت جنود الملائكة المقربين ، تعزّي أباك أمير المؤمنين ، وأقيمت لك المآتم في أعلى عليين ، ولطمت عليك الحور العين ، وبكت السّماء وسكّانها ، والجنانُ وخُزّانها ، والهضاب وأقطارها ، والبحار وحيتانُها ، ومكّة وبنيانها ، والجنان وولدانها ، والبيت والمقام ، والمشعر الحرام ، والحل والإحرام "[1].

لقد هوت تلك المأساة الدّامية على قلوب الآل الكرام عليهم السلام هُوَيَّ الصّاعقة ، وكان وقعها شديداً جدّاً ، وقد واجهوا لواهب جمرتِها بتوازن غريب ، وأسّسوا لتخليدها شعائر خاصّة حثّوا شيعتهم على إحيائها ، وسنأتي على دراستها في هذا الكتاب تفصيلاً .

وتلقّى الشيعة تلك التّعاليم بالقبول ، ونسجوا على منوال أئمتهم الأطهار عليهم السلام ، وحملوا تلك الأمانة الثقيلة ، وفهموا درس الحزن والعزاء بكل ذكاء وأمانة ، ولقّنوه صغارهم وتوارثوه جيلاً بعد جيل ، حتّى امتزج بدمائهم وقلوبهم وعقولهم ، ورسَت الشعائر الحسينيّة في نفوسهم وتطوّرت ونمت ، ولا زالت في نماء مُستمر.

ونهدفُ في هذا الكتاب إلى دراسة ظواهر الحزن الحسينيّة المعبّرة عن أصداء المصاب الأليم ، سواء تلك التي سبقت الحادثة أو التي لحقتها ، ومنهجُنا في البحث

---

(١) بحار الأنوار (٢٤١/٩١).

استعراض النصوص الرّوائية ودراستها ومناقشة بعض الأفكار والشّبه المثارة حول بعض الطّقوس والشعائر الحسينيّة.

وتقوّم البحثُ واعتمد على محاورَ ثلاثة :

أولاً : النّقل، والمقصود به الرّواية والنص الخبري الوارد في الكتب المعتبرة.

ثانياً : الإيمان بالغيب، إذ أنّ الأخبار في كثير من الأحيان تصف وقع المأساة في غير عالمنا الدّنيوي، أو تأريخ الأنبياء السابقين عليهم السلام، فالإيمان بها متفرّع عن الإيمان بالنبوّة والإمامة.

ثالثاً : الصّناعة الفقهية، والأدوات المحكّمة في معالجة النصوص الشّريفة، وهي الفيصل عند الإختلاف وورود الشّبه، لا الأهواء والإعتبارات الشّخصيّة، وبها يُمكن تأسيس المدارك الشّرعية للشعائر الحسينية، والأساس هو قول الحجج الطاهرين عليهم السلام وأفعالهم وتقريراتهم.

وينبغي على الباحث في هذا المجال الإلتزام بالإستدلال المبرهن بحسب المناهج العلمية، وتحكيم النصوص الشّرعية، والإسترشاد بقول العلماء الأمناء، دون تحميل أو تحكّم، والحاجة ملحّة إلى التجرّد والترفّع عن التبعيّات والبعد عن العواطف والتقليد الأعمى.

وكانت هذه المسائل محلّ الأخذ والردّ بين الفقهاء، ولم يتصدّ لنقدها وبحثها من بين علمائنا - بحسب التاريخ المُتاح - أحدٌ في العهود القديمة، إلاّ أنّ هذا القرن الأخير كان حافلاً بالرّموز النّاقدة، ويرجع هذا إلى أسباب كثيرة ليس هذا محلّ ذكرها، إلاّ أنّه من أهمّها طروء بعض المراسم والطّقوس على الشعائر الحسينية.

أمّا بالنسبة للشّعائر الحسينيّة فقد تصدّى الإمام السيّد محسن الأمين رحمه الله لنقد بعض مظاهرها، وتصدّى عدّة من فقهاء عصره لتقويتها والردّ عليه، وكان رأيهم الغالب وحجّتهم الأقوى، وقد عرضنا آراءه وآراء غيره من غير إشارة إلى اسمه ليكون البحث أقرب إلى الموضوعيّة والتجرّد وقمنا بالردّ عليها.

واعتمدتُ في تأسيس الشّعائر الحسينية على كتب ثلاثة، كانت هي المرجع في البحوث الفقهيّة، وأظفتُ عليها الكثير ممّا لم يكن فيها، وهي.

١. الشعائر الحسينية في الميزان الفقهي: للفقيه الآية الشيخ عبد الحسين الحلّي رحمه الله، وعليه تعليقات مهمّة بقلم نزار الحائري.

٢. نجاة الأمّة في إقامة العزاء على الحسين والأئمة عليهم السلام: للعلاّمة المعاصر الحجّة السيّد محمّد رضا الحسيني الحائري.

٣. نصرة المظلوم: للعلاّمة الآية الشّيخ حسن المظفّر رحمه الله.

فوقعت بحوثها في سياق بحوثنا، واستقصينا براهينها المهمّة، وأضفنا عليها الكثير من الأدلّة والفصول، والإنصاف أنّها كتبٌ قيّمة وتعتبر الأساس في هذه المباحث، وساقنا تعريفنا للشعائر الحسينيّة إلى الكثير من الشعائر الحسينيّة التي لم تُصنّف ولم تُعدّ من الشّعائر، كالنياحة والإطعام والسقي والمشي للزيارة وغير ذلك.

وأمّا بالنسبة لمادّة المجالس الحسينيّة ورواية المقتل فإنّ أوّل من تصدّى ـ حسب الظّاهر ـ لنقدها بغرض إصلاحها هو خاتمة المحدّثين الشيخ النوري رحمه الله وتبعه العلاّمة الشهيد المطهّري رحمه الله ولكنّهما وإن أحسنا في بعض الموارد إلاّ أنّ التوفيق لم يحالفهما في بعضها الآخر، ولنا مناقشات معهما في ذلك.

ولابدّ من عرض هذه المسائل ببراهينها على القارئ الكريم، وتأسيس دعاماتها بعيداً عن الذوق والهوى الشخصي وسوء النوايا، وقد وضعتُ قلمي في هذا البحر الخضم وأنا أعرف أني أخوض في ما لا يرضي الكثيرين، إلاّ أنّه البحث والرأي القابل للنّقد، ولا يخامرني شكّ في أنّ العصمة لأهلها.

وأسأل الله العليّ القدير أن يعصمني من الزّلل ويسدّدني إلى الحقّ، وألاّ يجعله آخر العهد من خدمتي لساداتي ومواليّ أهل البيت عليهم السلام، وأن يجعلني وجيهاً بمولاي الإمام الحسين عليه السلام في الدّنيا والآخرة، وأن ينفعني بحبّه وخدمته، ويتمّ لي كلّ الخير بشرف الإنتساب إليه، ويقرّ به عيني ويكشف به كربي وينفّس همّي، إنّه أرحم الرّاحمين.

ﷺﷺﷺ



المقدمة

الأصداء السابقة على المقتل

الأصداء اللاحقة على المقتل

الشّهداء في عين الإنسانية

الإنسانيّة بكلّ أطيافها مُجمعةٌ على معاملة الشّهيد بإجلال واحترام خاصّين، فهو يُعامل معاملة الأحياء وفقَ معايير البشريّة، وسواء كانت هذه الحالة ظاهرة بيّنة أو كانت خفيّة مُضمرة فإنّ الدّراسات التّاريخيّة والفلسفيّة في عقائد الشّعوب قد أثبتتها بكل يُسر ووضوح، وفي كلّ حضارة أو حاضرة بشريّة نمطٌ خاص من التعامل مع هذا الصنف - بالذّات - من الرّاحلين، لكنّما يجمعها مِلاك واحد، وهو إكبار الشّهيد والشّعور الحقيقي بالإمتنان والشّكر له.

ويعبّر ذلك عن الأصداء الطبيعيّة المتوقّعة إزاء عطاءات الشّهداء، وكأنّه قد ابتدأت مع نهاية دقّات قلبه إنطلاقة الحياة الحقيقية له، وقد كان قد حرّكه إلى بذل نفسه الإيمان والهدف والغاية الإنسانية النّبيلة السّامية عند جميع البشر.

فهو يتجاوز جلّ الصعاب والأخطار المحدقة به في طريق تحقيق ذلك القصد الشريف، حاملاً القيَم والإختيار والوعي وقدسيّة الهدف وبطولة العمل والإفتخار شعاراً ودثاراً، يفعل بدمائِه المعاجز الممتنعة، بهدوء وتواضع، وهو شاخصٌ ببصره إلى الفضيلة والكرامة، ناظراً إلى أمّته وهمومها، مفرّغاً غاياته من أيِّ مَيْلٍ ذاتي شخصي أو رغبة مُؤقّتة محدودة ضيّقة الأفق.

فهو يستحق بعطائه الحياة والخلود والذكر عن جدارة، ومن محاسن البشرية ومتّفقاتها تقييم سخاء الشهيد وتعظيم كرمه، فتترجم جميع الأمم تقديرَها له بالإكبار والتّبجيل، مهما اختلفت الملل والنحل أو ابتعدت الأقطار والدول.

ويقول الشّهيد كلمته بدمائه فيجمع بين منطق العاشق لربّه المحب للقائه، وبين

المصلح الذي يتألّم للإنسانية والمجتمع ويعيش هموم أمّته لينهض بأعباء الذبّ عنها، فلو مزجنا نفسية العاشق الهائم في ذات الله تعالى بنفسيّة المصلح الذي يتفاني في أمّته لأفصحت النفسيّتان عن منطق الشّهادة بمفهومها الأروع.

وليس من العجيب بعد ذلك أن تتفق البشرية التي طالما قد اختلفت في ملامح تكريمها له، فهو الرّاحل الوحيد الذي تتفق على التعامل معه تعاملها مع الأحياء، فهو مشرفٌ على عالمنا من خارجه، وراتع في معين الحياة الذي لا ينضب، في دار كريمة قابضٌ بزمامها المطلق.

وقد أكّد الفكر الإسلامي حياة الشّهيد وجزم الخطاب القرآني به، بل ونهى عن اعتبارهم أمواتاً، في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾، حتّى صار ذلك سِمَةً له، كما أنّه قد كان سمة للإنسان المتحضّر، فليس ثمّة أمّة متحضّرة إلاّ وكان في عمق ثقافتها تكريم الشّهيد، كنوعٍ من حفظ الحقِّ والإعتراف بالجميل وتعظيم العطاء، والإنسان بكل أطيافه يتعامل مع مفردة الشّهيد تعاملاً قدسيّاً، ويراها مزيّنة بإطار من نور.

وتعدّدت صور تكريمه وتنوّعت، بين نثر الكلمات الدّافئة، ونظم قصائد التأبين، وصياغة المؤلّفات والمصنّفات، وعقد المنتديات والمحافل، والبكاء عليه، ووضع أكاليل الزهور على قبره، والوقوف على نُصُبٍ يرمز إليه، أو كلّها معاً.

وقد كان الإغريقيون يصنعون لمحاربيهم وأبطالهم المقتولين في الحروب تماثيل في سُوح مُدُنِهم وباحات عواصمِهم، سعياً إلى تخليد ذكرهم وشحذ النفوس لتكريمهم والتغني بأمجادهم الوطنية، وفي تاريخ اليونان وأساطيرها كثير من ذلك، وتاريخ روما مملوءٌ بالأساطير التي حيكت عن الأبطال والمحاربين لتؤكّد مكانتهم،

ونلاحظ هذه السيرة حتّى في الأمم المنكرة للبعث أصلاً !!

ويذهب الباحثون في التاريخ اليوناني إلى أن الآلهة اليونانية أصلها أبطال محاربون، وقد تطوّر الأمر بعد تغنّي الأمة ببطولاتهم شيئاً فشيئاً، ثم نُسجت حولهم الأساطير، وتدرّج الإكبار إلى الغلو، فكان أن عُدّت تلك الشّخصيات المحترمة مع الأيام آلهة ترمز إلى القوة والعطاء[١].

تكريم الرّاحلين في الإسلام

لقد تعرّض القرآن الكريم إلى موضوع تكريم أهل الفضل والعطاء بعد رحيلهم بصورة مباشِرة في موطن معروف، فقد نقل قصّة أصحاب الكهف نقلاً تأريخياً مهمّاً، وأقرّ الوحيُ في سياق القصّة تكريم أبطالها ولم ينكر على مكرميهم ذلك، بل الآيات دالّة على تشريع ذلك وسنِّهِ كخُلُق إنساني رفيع وسيرةٍ طيّبة محبّبة.

لقد أراد المؤمنون الحقيقيون العارفون بالله تعالى تخليد قضية أهل الكهف للتأكيد على المعاد الجسماني من جهة، وتكريم هؤلاء النفر الموحدين المؤمنين من جهة أخرى، فاقترحوا أن يتّخذوا على مكانهم مسجداً، ليتعبّد الناس بجوارِهم ويُتبرّك بآثارِهم، وكان رأيُهُمُ الغالب، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك بلهجةٍ تُنِمُّ عن الموافقة، إذ أنّ بناءَ الأضرحةِ التي تخلّد الكبار أمرٌ شائع بين أمم العالم وشعوبه، وهي سيرة معهودة عبر العصور.

---

(١) راجع التاريخ اليوناني للدكتور عبد اللطيف أحمد علي، ج ١ ص ١٨٢.

وفي قول الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ وفعل الغالبين من أهل المدينة تأكيدٌ واضحٌ على مبدأ تكريم واحترام العظماء والمؤمنين والشّهداء، وذكر القرآن له تأديب منه على احترام العظماء، وكلّ فصول القصة تدلّ على نفس المطلب.

إنّ تكريم الرّاحلين من أهل الفضل من مكارم أخلاق الإنسانيّة، ولا غرابة إن أتمّها النبيّ الكريم ﷺ الذي لم يغادر مكرمة أخلاقية إلاّ وجمعها في نفسه الكبيرة، والتّاريخ زاخرٌ بذكر الحوادث التي أبّن ﷺ فيها الرّاحلين وأسبل عليهم دموعه الغالية، وأصحبَ بكاءه بيان محاسن الفقيد غالباً، فهو الذي يُحزِنُه فُقدان المحاسن بفقدان أصحابها.

ورُوِيَ أنه لما مات عثمان بن مظعون، وهو صاحبه المحبوب الممدوح الخصال، كشف ﷺ الثوب عن وجهه، ثم قبّل ما بين عينيه، ثم بكى طويلاً، فلمّا رفع السرير قال: طوباك يا عثمان، لم تَلبَسْكَ الدُّنيا ولم تَلْبَسْهَا[٢].

وفي مسكّن الفؤاد أنّه لما جاء نعي زيد بن حارثة إلى النبي ﷺ أتى منزل زيد، فخرجت إليه بنية لزيد، فلما رأت رسول الله ﷺ خمشت في وجهها، فبكى رسول الله ﷺ. قال: هاه هاه.

فقيل: يا رسول الله، ما هذا !! قال: شوق الحبيب إلى حبيبه[٣].

---

(٢) راجع المستدرك (٢/٤٦٤)، والبحار (٧٩/٩١)، ومسكّن الفؤاد ص (١٠٥).

(٣) راجع مسكّن الفؤاد ص (١٠٦)، والبحار (١٦/٢٣٥)، ومستدرك الوسائل (٢/٤٦٤)، ومكارم الأخلاق ص (٢٢).

لقد عكس النبيّ ﷺ الإسلام كدين يواكب الإنسانيّة الصّادقة، وصوّر التأريخ له أشجى الوقفات عند أهل الحقّ عليه، فقد وُلد يتيماً إلاّ أنّ الله عطف عليه الحواضن، وكانت سيّدتنا فاطمة بنت أسد عليها السلام من تلك الحجور الطّاهرة التي نهضت حياله بفروض الخدمة إلى جانب زوجها المولى الكريم أبي طالب عليه السلام، فاستحقّت أن تكون أُمّاً له ﷺ، وقد سأل حبيب الله ﷺ ربّه تعالى قائلاً: يا ربّ، أيّ عبادك أحبّ إليك؟ قال: الذي يبكي لفقد الصالحين كما يبكي الصبي لفقد أبويه[٤].

ورَوَى الشيخ الصّدوق في الأمالي بالإسناد إلى عبد الله بن عباس أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام أقبل ذات يوم إلى النبي ﷺ باكياً وهو يسترجع، فقال له رسول الله ﷺ: مه يا علي!! فقال علي: يا رسول الله، ماتت أمي فاطمة بنت أسد.

قال: فبكى النبي ﷺ ثم قال: رحم الله أمك يا علي، أما إنها إن كانت لك أمّاً فقد كانت لي أمّاً، خذ عمامتي هذه وخذ ثوبيّ هذين فكفّنها فيهما، ومر النساء فليحسنّ غسلها، ولا تخرجها حتى أجيء فألِيَ أمرها. وأقبل النبي ﷺ فصلى عليها صلاة لم يصل مثلها على أحد قبلها، وكبّر عليها أربعين تكبيرة، ثم دخل إلى القبر فتمدد فيه، ثم قال: يا علي، أدخل يا حسن أدخل، فدخلا القبر، فلمّا فرغ مما احتاج إليه قال له: يا علي أخرج يا حسن أخرج، فخرجا.

ثم زحف النبي ﷺ حتى صار عند رأسها فقال: يا فاطمة، أنا محمّد سيد ولد آدم ولا فخر، فإن أتاك منكر ونكير فسألاك من ربّك فقولي الله ربي،

---

(٤) راجع مستدرك الوسائل (٢/٤٦٩).

ومحمّد نبيّي، والإسلام ديني، والقرآن كتابي، وابني إمامي ووليي، ثم قال: اللهم ثبّت فاطمة بالقول الثّابت. وخرج من قبرها وحثا عليها حثيات، ثم ضرب بيده اليمنى على اليسرى فنفضهما، ثم قال: والذي نفس محمد بيده لقد سمعت فاطمة تصفيق يميني على شمالي.

فقال له عمار بن ياسر: فداك أبي وأمي يا رسول الله، لقد صليت عليها صلاة لم تصل على أحد قبلها مثل تلك الصلاة!! فقال: يا أبا اليقظان، لقد كان لها من أبي طالب ولد كثير، ولقد كان خيرهم كثيراً وكان خيرُنا قليلاً، فكانت تشبعني وتجيعهم، وتكسوني وتعرّيهم، وتدهنني وتشعثهم. قال: فلم كبرت عليها أربعين تكبيرة يا رسول الله؟ قال: نعم يا عمار، إلتفت عن يميني فنظرت إلى أربعين صفا من الملائكة فكبرت لكل صف تكبيرة.

قال: فتَمَدُّدُك في القبر؟ قال: إن الناس يحشرون يوم القيامة عراة، ولم أزل أطلب إلى ربي عز وجل أن يبعثها ستيرة، والذي نفس محمد بيده ما خرجت من قبرها حتى رأيت مصباحين من نور عند رأسها، ومصباحين من نور عند يديها، ومصباحين من نور عند رجليها، وملكيها الموكلين بقبرها يستغفران لها إلى أن تقوم الساعة[٥].

---

(٥) راجع بحار الأنوار (٣٥/٧٠) عن أمالي الصدوق، وقد أوردناهُ مختصراً.

وروى المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار (٦/٢٤١) عن فضائل ابن شاذان مضيفاً قوله صلى الله عليه وآله: والله لقد كان في دار أبي طالب نخلة فكانت تسابق إليها من الغداة لتلتقط ثم تجنيه رضي الله عنها، فإذا خرجوا - بنو عمّي - تناولني ذلك.

إنّ هذه مقتطفات من تكريمه ﷺ لذوي الفضل أو الحق عليه، ولا مناص من ضمّ الشّهداء إلى قائمة المكرّمين في الإسلام، بل ويُمكننا تقديمُهم على المكرّمين، وكانت لنبيّنا ﷺ وقفات عطفت بسيرة العرب تجاههم، خصوصاً إذا واجهت سيرته حيال الشهداء المقرّبين من أهله كحمزة عمّه عليه السلام وجعفر ابن عمّه عليه السلام.

أما سيّدنا الشّهيد جعفر الطيّار عليه السلام.. فقد روى البرقي في المحاسن: عن العباس بن موسى بن جعفر عليه السلام أنّه قال: سألت أبي عليه السلام عن المأتم، فقال: إن رسول الله ﷺ لما انتهى إليه قتل جعفر بن أبي طالب دخل على أسماء بنت عميس إمرأة جعفر، فقال: أين بَنِيّ؟ فدعت بهم وهم ثلاثة، عبد الله وعون ومحمد، فمسح رسول الله ﷺ رؤوسهم، فقالت: إنك تمسح رؤوسهم كأنهم أيتام، فعجب رسول الله ﷺ من عقلها، فقال: يا أسماء أ لم تعلمي أن جعفراً رضي الله عنه استشهد، فبكت.

فقال لها رسول الله ﷺ: لا تبكي، فإن الله أخبرني أن له جناحين في الجنة من ياقوت أحمر.

فقالت: يا رسول الله، لو جمعت الناس وأخبرتهم بفضل جعفر لا ينسى فضله، فعجب رسول الله ﷺ من عقلها، ثم قال: ابعثوا إلى أهل جعفر طعاماً

←

وفيه أيضاً: وأراد الناس الإنصراف، جعل رسول الله ﷺ يقول لها: إبنك إبنك إبنك، لا جعفر ولا عقيل، إبنك إبنك علي بن أبي طالب. فسئل ﷺ عن ذلك فقال: إنها لما نزل عليها الملكان وسألاها عن ربها، فقالت: الله ربي، وقالا: من نبيّك؟ قالت: محمّد نبيي، فقالا: من وليّك وإمامِك؟ فاستحيت أن تقول ولدي، فقلت لها قولي: ابنك علي بن أبي طالب عليه السلام فأقر الله بذلك عينها.

فجرت السنة(٦).

وقد بكاه ﷺ ورثاه وأبّنه، وكرّمه تكريماً يليق بآله الأبرار عليهم السلام وأمر أعزّ الناس بالبكاء عليه، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال ﷺ لفاطمة: إذهبي فابكي على ابن عمّك، فإن لم تَدْعِي بِثُكل فما قُلْتِ فقد صدقت(٧).

وأمّا حمزة عليه السلام فإنّ النبي ﷺ أظهر حزنه العميق عليه وودّه الكبير له، وأخرج أحمد في المسند وغيره: أنّه ﷺ لّما رجع من أحد سمع نساء الأنصار يبكين على أزواجهن، فقال: لكن حمزة لا بواكي له، فبلغ ذلك نساء الأنصار فجئن يبكين على حمزة.. وسرعان ما انتشر كلامه ﷺ وتحقّقت رغبته بمواساته في عمّه، فهرعت النّساء إلى بيته، فأصبح بكاء الشّهيد منذ ذلك الحين عادة جارية، وكان الباكون هاى الشهداء يقصدون بيت حمزة عليه السلام ليبكونه أوّلاً، إذ كان هو سيّد الشّهداء على الإطلاق وهو من يُندب مع كلّ شهيد في الإسلام.

وبقي الأمر كذلك حتّى جاءت مأساة عاشوراء بتداعياتها فأنْسَت ما قبلها، فاحتل الإمام الحسين عليه السلام مركز الذّروة، وانتقل له لقب سيّد الشّهداء، فإذا أُطلق اللقب عُني به الإمام عليه السلام وانصرف له من غير شكّ، وهو الرّمز الفرد الذي يُبكى عليه عند الحزن على أي شهيد أو قتيل.

وبكى رسول الله ﷺ ولده عليه السلام مرّات وكرّات، ونعاه ورثاه وكرّمه وبارك شهادته قبل أن يُقتل، ونهج الأئمة الطاهرون عليهم السلام هذا النّهج وأظهروا غاية الحزن

---

(٦) راجع بحار الأنوار (٢١/٥٥).

(٧) راجع بحار الأنوار (٢١/٥٧).

على مصابه عليه السلام ، متأسّين بجدّهم الكريم صلى الله عليه وآله في حزنه ، ويتجلّى حزنُ جدّهم الإمام زين العابدين عليه السلام من بينهم ، فقد روى المحدّث النّوري في المستدرك مسنداً أنّه أشرف مولى لعلي بن الحسين عليه السلام وهو في سقيفة له ساجد يبكي ، فقال له : يا علي بن الحسين ، أ ما آن لحزنك أن ينقضي ؟ فرفع رأسه إليه ، فقال : ويلك ، أو ثكلتك أمّك ، والله لقد شكا يعقوب إلى ربه في أقل مما رأيت حين قال : ﴿**يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ**﴾ وإنه فقد إبنا واحداً ، وأنا رأيت أبي وجماعة أهل بيتي يذبحون حولي ، قال : وكان علي بن الحسين عليه السلام يميل إلى ولد عقيل ، فقيل : ما بالك تميل إلى بني عمّك هؤلاء دون آل جعفر ؟ فقال : إني أذكر يومهم مع أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام فأرق لهم(٨).

ورَوَى العلاّمة المجلسي عن الإمام الصادق عليه السلام : أنّه عليه السلام بكى على الحسين عشرين سنة أو أربعين سنة ، وما وضع بين يديه طعام إلاّ بكى ، حتى قال له مولى له : جعلت فداك يا ابن رسول الله ، إني أخاف عليك أن تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ ، قالَ : ﴿**إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ**﴾ إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلاّ خنقتني لذلك عبرة(٩).

الحسين هو سيّد الشّهداء

"الشّهيد" مفردة إسلامية ذات منشأ لغوي أصيل ، وتنتمي إلى مجموعة خاصة من الإصطلاحات الإسلاميّة ، ولا تقابلها بمؤدّاها الدّقيق مفردة في لغة

---

(٨) راجع مستدرك الوسائل (٢/٤٦٦).

(٩) راجع بحار الأنوار (٤٦/١٠٩).

أخرى، لأنّها مُتحدّرة من ثقافة خاصّة لها مقاصد معيّنة، وقد نقلها الدّين من أصلها اللغوي إلى معنىً خاص، فصارت حقيقة شرعيّة فيه.

واختار لسان الشّرع هذا الإسم بالذّات لأنّ ملائكة الرحمة تشهده، فهو شهيد بمعنى مشهود.. وقيل: لأنّ الله وملائكته شهود له في الجنة. وقيل: لأنّه ممن استشهد يوم القيامة مع النبي ﷺ على الأمم الخالية. وقيل: لأنّه لم يمت، فهو شاهد أي حاضر، أو لقيامه بشهادة الحق في الله حتى قُتل، أو لأنّه يشهد ما أعد الله له من الكرامة التي لا يشهدها غيره إلى يوم القيامة، فهو فعيل بمعنى فاعل.

وإذا أجلنا بأبصارنا في النصوص الواردة فاحصين عن زوايا المفردة أسفر لنا نورٌ واحد، وتمخّض نظرنا عن أن هذه المفردة منبسطة على ثلاثة معاني.

١. **القتيل بالمعركة:** يُصطلح الشّهيد على القتيل في سبيل الله تعالى، وهو معنى متداول معروف، ورتّب الفقهاء عليه أحكاماً خاصة دون غيره بالإجماع.

قال المحقّق الحلي ﵀ في شرائع الإسلام: والشهيد الذي قتل بين يدي الإمام، ومات في المعركة، لا يُغسّل ولا يُكفّن، ويُصلّى عليه. وقال: الشهيد يدفن بثيابه، وينزع عنه الفرو والخفّان، أصابهما الدم أو لم يصبهما على الأظهر، ولا فرق بين أن يقتل بحديد أو بغيره.

فلو مات مؤمن في طريق الشهادة مثلاً، أو جُرح في ساحة المعركة ثم نقل إلى خارجها فمات، أو مات خارج المعركة، أو مات في المعركة حتفاً ولم يُقتل، فليس بشهيد على الإصطلاح، والواجب المتعيّن هو تغسيله وتكفينه.

٢. **الشّهيد المقامي:** هو في مقام الشّهيد، إذ نزّله الدين منزلته، وقامت نيّته

بالجهاد والقتل مقام العمل، وقام عمله الصّالح مقام القتل في سبيل الله تعالى، إلاّ أنّ أحكام الشّهيد المتقدّمة لا تشمله، وتتمثّل مصاديقه على صعيدين عام وخاص.

أمّا العام فهو متعلّق بالنوايا الحسنة والتوجّه القلبي الصّادق، فقد روي في بشارة المصطفى بالإسناد إلى عطية العوفي خبر جابر بن عبد الله الأنصاري رحمه الله الذي يزور الإمام الحسين عليه السلام فيه في يوم الأربعين، ثم يقول: "والذي بعث محمّداً بالحق، لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه".

قال عطية: فقلت لجابر: وكيف ولم نهبط وادياً، ولم نعلُ جبلاً، ولم نضرب بسيف، والقوم قد فُرّقَ بين رؤوسهم وأبدانهم، وأوتمت أولادهم وأرملت الأزواج! فقال لي: يا عطية "سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من أحب قوماً حُشر معهم، ومن أحب عمل قوم أُشرك في عملهم، والذي بعث محمّداً بالحقِّ نبيّاً، إنّ نيّتي ونيّة أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه"[١٠].

فهو رحمه الله يرى نفسه شريكاً للشّهداء الذين قُتلوا بين يدي الإمام عليه السلام، ويتسنّم هذا المقام بنيّته الصادقة التي حلّت محلّ العمل، خصوصاً وقد قصدَهم بالزيارة وكابد عناء السّفر إليهم، وهذا عنوان مُستقل يؤهّله لبلوغ هذه المرتبة السّامية، وجاء في الوسائل عن الإمام الصّادق عليه السلام: من بات عند قبر الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء لقيَ الله مُلطّخاً بدمِهِ كأنّما قُتل معَهُ في عرصةِ كربلاء[١١].

---

(١٠) راجع بحار الأنوار (٩٨/٩٥) عن بشارة المصطفى.

(١١) راجع وسائل الشيعة (١٤/٤٧٧).

وأمّا الخاص فقد أفصَحَت النّصوص عن مصاديقَ مختلفة للشهيد تحت عدة عناوين، ومنهم المقتولون ومنهم الميّتون(١٢).

(١٢) أمّا المقتولون فمن قبيل ما رُوي في الكافي الشّريف (٥/٥٢) بالإسناد إلى أبي مريم عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من قُتل دون مظلمته فهو شهيد، ثم قال: يا أبا مريم، هل تدري ما دون مظلمته؟ قلتُ: جُعلت فداك، الرجل يُقتل دون أهله ودون ماله وأشباه ذلك، فقال: يا أبا مريم، إنّ من الفقه عرفان الحق. وروي في الكافي (٥/٥٢): عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال: من اعتُدي عليه في صدقة ماله فقاتل فقُتل فهو شهيد.. وفي تهذيب الأحكام (٦/١٥٧): عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من قُتل دون عياله فهو شهيد.

وأمّا الميّتون فمن قبيل ما روي في بحار الأنوار (٦٥/١٤٠) عن تأويل الآيات الظاهرة: مرفوعاً إلى مولانا علي بن الحسين عليه السلام عن أبيه عليه السلام عن جده أمير المؤمنين عليه السلام قال: المؤمن على أي حال مات وفي أي ساعة قبض فهو شهيد، ولقد سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن المؤمن إذا خرج من الدنيا وعليه مثل ذنوب أهل الأرض لكان الموت كفارة لتلك الذنوب. وما روي في بحار الأنوار (٥٢/١٤٥) عن أمالي الطوسي بالإسناد إلى الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: كل مؤمن شهيد، وإن مات على فراشه فهو شهيد، وهو كمن مات في عسكر القائم عليه السلام، ثم قال: أ يحبس نفسه على الله ثم لا يدخل الجنة.

وما في بحار الأنوار بحار الأنوار (٧٨/٢١١) عن أمالي الطوسي: عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: المريض في سجن الله ما لم يشكُ إلى عوّاده تمحى سيئاته، وأيّما مؤمن مات مريضاً مات شهيداً، وكل مؤمن شهيد، وكل مؤمنة حوراء، وأي ميتة مات بها المؤمن فهو شهيد، وتلا قول الله جل ذكره: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾.

وروي في بحار الأنوار (٧٨/١٦٨) عن دعائم الإسلام عنهم عليهم السلام: من كانت به قروح أو علة يخاف منها على نفسه يتيمم، وكذلك إن خاف أن يقتله البرد إن اغتسل يتيمم، وإن لم يخف اغتسل، فإن مات فهو شهيد.

٣. الشّهيد الحجّة: وهو إمام الشّهداء المقدّم على أصنافهم، ومعنى شهادته يفوق المعاني التي سُقناها للشّهيد، بل هو المِلاك في تحقّق الشّهادة أصلاً، فهو إمام الخلق الذي يقودهم إلى الحق والهدى، ومن يأتي به الله تعالى يوم القيامة شهيداً على أمّته، فالأنبياء عليهم السلام شهداء على أممهم، والأئمة عليهم السلام شهداء على الأمم، ونبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم شاهد على الأمم والأنبياء والأئمة عليهم السلام، قال تبارك وتعالى: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾.

ورُوِيَ في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية أنّه قال: نزلت في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة، في كل قرن منهم إمام منا شاهد عليهم، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم شاهد علينا[١٣].

وفيه: عن بريد العجلي يسأل الإمام الباقر عليه السلام عن الآية، فقال عليه السلام: نحن الأمّة الوسط، ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه وحججه في أرضه. قلت: قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا واعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ**﴾.

قال: إيّانا عنى، ونحن المجتبون، ولم يجعل الله تبارك وتعالى في الدين من حرج، فالحرج أشدّ من الضّيق، ﴿**مِلَّةَ أَبيكُمْ إِبْراهِيمَ**﴾ إيّانا عنى خاصّة، ﴿**وسَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ الله سمّانا المسلمين من قبل في الكتب التي مضت وفي هذا القرآن، ﴿**لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشهيد علينا بما بلّغنا عن الله تبارك وتعالى، ونحن الشهداء على النّاس،

---

(١٣) راجع بحار الأنوار (٢٨٣/٧) عن الكافي.

فمن صدّق يوم القيامة صدّقناه، ومن كذّب كذّبناه[١٤].

وهو ﷺ الحجّة الشّهيد على أعمال النّاس بنصّ الكتاب، قال تعالى: **﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**.

ومن ذلك يُعلم معنى الحديث الوارد في خصوص مولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام من كونها صدّيقة شهيدة، فإنّها عليها السلام شهيدةٌ وإن لم تُقتل في المعركة، فضلاً عن قصر حمل السلاح على الرّجال دون النساء، إلاّ أنّ المراد منزلة فوقَ الشهادة المصطلحة، فهي حجّة شاهدة على الخلق في الدنيا والآخرة.

فأئمتُنا عليهم السلام كذلك شهداءٌ وإن لم يُقتلوا في سوح المعارك ولا تعدل منزلتهم منزلة مهما علت، ولا يسبقهم بالفضل سابق ولا يلحقهم لاحق، وميّتهم شهيدٌ، وشَهيدُهم سيّدُ الشهداء، فما يُصطلح على شهيدهم القتيل في سبيل الله ؟ والمفردات اللغوية على سَعَتها لا تسعف لضمّ حقيقة مقامه السامي قطعاً !!

فأين معنى شهادة الإمام الحسين عليه السلام من شهادة غيره !! ولقد صرّح المصطفى ﷺ في الرؤيا الحق التي رآها الإمام الحسين عليه السلام عند ضريحه بعالي الدّرجات التي لن يبلغها إلاّ بالشهادة، إذ أنّ حكمة الله تعالى اقتضت أن يكرّم بالشّهادة المصطلحة على كونه شهيداً حجّةً، فيبلغ أعلى درجات هذه الشهادة الخاصة.

أمّا إذا أردنا أن نعقد المقارنة بين سيدنا حمزة بن عبد المطّلب عليه السلام ومولانا الإمام الحسين بن علي عليه السلام وهما فارسا حلَبة الشهادة المتقدّمان.. فإنّ النّصوص المُتاحة أغنتنا عن تجشّم عناء الإستدلال بالقرائن واللوازم.

---

(١٤) راجع أصول الكافي (١/ ١٩١).

فحمزة المستشهد في غزوة أُحُد من المؤبّنين في القرآن الكريم تأبيناً خاصاً، وفيه نزلت: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾، وقد حاز لقب سيّد الشّهداء عن جدارة واستحقاق، ولا يزال قبره في مقدمة مزارات الشهداء في المدينة المنوّرة.

وقد أمر النبي ﷺ بالبكاء عليه حتّى صار ذلك سنّة، بعد أن عزّ عليه سماع تصاعد أصوات النّساء على الشّهداء دون رنّة تنعى سيّد الشّهداء عليه السلام فقال ما تقدّم، وانتشر كلامه ﷺ وتحقّقت رغبته بمواساته بتكريم عمّه، فهرعت النّساء إلى بيت عمّه، وأصبح بكاء الشّهيد منذ ذلك الحين عادة جارية، وكان كل من يريد أن يبكي شهيداً يقصد بيت حمزة عليه السلام ليبكيه أوّلاً.

فتفرّد بهذا الوسام حتّى جاءت فاجعة الطّف بآهاتها فاحتل الإمام الحسين عليه السلام مركز السّيادة، وكان تفوّقه واضح المعالم، فعطاؤه يأبى القياس بعطاء الشهداء في تاريخ الدنيا، فانتقل له لقب سيّد الشّهداء تلقائيّاً وانصرف له بما يضمّ من سائر الخصوصيّات الأخرى.

مع امتياز حمزة عليه السلام بالفضائل الخاصّة، فهو المحامي عن النبي ﷺ بما أوتي من هيبة وقوّة، وهو سيّد المقدّمين في مجال التضحية والفداء بين يدي النبي ﷺ، وهو عمّ النبي ﷺ القريب من نفسه، وأخوه من الرضاع، وقد نزل الذّكر في تشييد إيمانه، فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾ أنّها نزلت في رسول الله

ﷺ وعلي وحمزة وجعفر، وجرت في الحسين عليه السلام[١٥].

ورُوي عن الإمام الصّادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِراطِ الْحَمِيدِ﴾ قال: ذاك حمزة وجعفر وعبيدة وسلمان وأبو ذر والمقداد بن الأسود وعمّار، هدوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام[١٦].

وحاز أزكى الأوسمة على لسان أمير المؤمنين عليه السلام، وذكره يوم فتح البصرة لّما ركب بغلة رسول الله ﷺ وقال: أيّها النّاس، ألا أُخبركم بخير الخلق يوم يجمعهم الله !!. حتّى قال: إنّ أفضل الخلق بعد الأوصياء الشهداء، ألا وإنّ أفضلَ الشهداء حمزة بن عبد المطّلب وجعفر بن أبي طالب[١٧].

ورُوي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: لم يدخل الجنة حمية غير حميّةَ حمزة بن عبد المطلب، وذلك حين أسلم غضباً للنبي ﷺ في حديث السَّلَى الذي أُلقي على النبي ﷺ[١٨].

---

(١٥) راجع الكافي (٨/٣٣٧).

(١٦) راجع الكافي (١/٤٢٦).

(١٧) راجع الكافي (١/٤٥٠).

(١٨) راجع الكافي (٢/٣٠٨)، وبحار الأنوار (٢٢/٢٨٣).

وقد روي حديث السَّلى في الكافي (١/٤٤٩) وعنه بحار الأنوار (١٨/٢٣٩)، بالإسناد إلى الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: بينا النبي ﷺ في المسجد الحرام وعليه ثياب له جدد فألقى المشركون عليه سلى ناقة، فملأوا ثيابه بها، فدخله من ذلك ما شاء الله، فذهب إلى أبي طالب، فقال له: يا عم، كيف ترى حسبي فيكم ؟

فقال له: وما ذاك يا ابن أخي ؟ فأخبره الخبر، فدعا أبو طالب حمزة وأخذ السيف، وقال لحمزة: خذ السلى، ثم توجه إلى القوم، والنبي ﷺ معه، فأتى قريشاً وهم حول الكعبة،

وكان قد هوى خبر مصرعه على قلب النبي صلى الله عليه وآله هُوَيَّ الصاعقة، وقد وقف عليه ورآه وقد مُثّل به، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النَّبي صلى الله عليه وآله صلّى عليه وكفّنه لأنّه قد جُرّد، ويظهر من بعض الأخبار أنّه أوّل شهيد صلّى عليه، ثمّ فرضت صلاة الأموات على أموات المسلمين.

وفي الكافي الشريف عن أبي جعفر عليه السلام قال: دفن رسول الله صلى الله عليه وآله عمه حمزة في ثيابه بدمائه التي أصيب فيها، وردّاه النبي صلى الله عليه وآله بردائه فقصر عن رجليه، فدعا له بإذخر فطرحه عليه، فصلى عليه سبعين صلاة، وكبر عليه سبعين تكبيرة[١٩].

وروي في كشف المحجّة عن الرسائل للكليني عن أمير المؤمنين عليه السلام نفسه: قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إليّ عهداً فقال: يا بن أبي طالب لك ولاء أمتي، فإن ولّوك في عافية وأجمعوا عليك بالرّضا فقم بأمرهم، وإن اختلفوا عليك فدعهم وما هم فيه، فإنّ الله سيجعل لك مخرجاً، فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا معي مساعد إلاّ أهل بيتي، فضننتُ بهم عن الهلاك، ولو كان لي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله عمي حمزة وأخي جعفر لم أبايع مكرهاً[٢٠].

وسيظهر الله تعالى كرامته عليه يوم القيامة، ونصّ خبرٌ على مقام الشّفاعة المختصّ بمحبّيه، وجاء في تفسير الإمام العسكري عليه السلام أنّه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه ليرى يوم القيامة إلى جانب الصراط عالم كثير من الناس لا يعرف عددهم إلاّ

← فلما رأوه عرفوا الشر في وجهه، ثم قال لحمزة أَمِرَّ السلى على سبالهم، ففعل ذلك حتى أتى على آخرهم، ثم التفت أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا ابن أخي، هذا حسبك فينا.

(١٩) راجع الكافي (٢١١/٣) وبحار الأنوار (٢٨١/٢٢).

(٢٠) راجع مستدرك الوسائل (٧/١١).

الله تعالى، هم كانوا محبي حمزة، وكثير منهم أصحاب الذنوب والآثام، فتحول حيطان بينهم وبين سلوك الصراط والعبور إلى الجنة، فيقولون: يا حمزة قد ترى ما نحن فيه!! فيقول حمزة لرسول الله ﷺ ولعلي بن أبي طالب عليه السلام: قد تريان أوليائي يستغيثون بي!!

فيقول محمد رسول الله ﷺ لعلي ولي الله عليه السلام: يا علي، أعن عمك على إغاثة أوليائه واستنقاذهم من النار، فيأتي علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الرمح الذي كان يقاتل به حمزة أعداء الله في الدنيا فيناوله إياه، ويقول: يا عم رسول الله ويا عم أخي رسول الله، ذد الجحيم بالرمي عن أوليائك برمحك هذا كما كنت تذود به عن أولياء الله في الدنيا أعداء الله.

فيناول حمزة الرمح بيده، فيضع زجّه في حيطان النار الحائلة بين أوليائه وبين العبور إلى الجنة على الصراط، ويدفعها دفعة فينحيها مسيرة خمسمائة عام، ثم يقول لأوليائه والمحبين الذين كانوا له في الدنيا: أعبروا. فيعبرون على الصراط آمنين سالمين، قد انزاحت عنهم النيران وبعدت عنهم الأهوال، ويردون الجنة غانمين ظافرين[٢١].

وطبيعي أن يثير مصرعُه حزنَ النبيّ ﷺ ويطلق أمره بالبكاء عليه ويقرّ ندبته بعد كلّ ذلك، ليبقى يومه خالداً مهما تجدّدت الأيام.. وفي مسكّن الفؤاد: لما انصرف النبي ﷺ من أحد إلى المدينة لقيته جهينة بنت جحش فنعى لها الناس أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت، ثم نُعي لها خالها فاسترجعت

---

(٢١) راجع بحار الأنوار (٦٨/٨) عن تفسير الإمام العسكري عليه السلام.

واستغفرت، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وتأوهت، فقال رسول الله ﷺ: إن زوج المرأة منها لبمكان، لما رأى صبرها عن أخيها وخالها وصياحها على زوجها.

ثم مرّ رسول الله ﷺ على دار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عيناه وبكى. ثم قال: لكن حمزة لا بواكي له !! فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حصين إلى دار بني عبد الأشهل أمر نساءهم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ﷺ، فلما سمع رسول الله ﷺ بكاءهن على حمزة خرج إليهن وهن على باب مسجده يبكين فقال لهن رسول الله ﷺ: إرجعن يرحمكن الله، قد واسيتن بأنفسكن[٢٢].

ليتضح أنّ البكاء على الشهداء من أهل بيته ﷺ من أجلى صور السّلوة والعزاء له، وبلغ الحال أنّه اعتبر بكاء النساء على عمّه مواساة منهنّ له بالنفس !! وقد جدّد أهل البيت عليهم السلام هذا الإرث المُحزن، واتخذوا مصابه شعاراً لأحزانهم لفترة طويلة جدّاً، وظلّ ذكره حاضراً في مجالسهم، ولم تخلُ قصائد الرثاة من ذكره إلاّ نادراً.

ولهذا وذاك سنّ النبي ﷺ زيارة قبره الشريف تعظيماً له وتخليداً لذكره، وندب إلى زيارته، فقال ﷺ: من زارني ولم يزر عمّي حمزة فقد جفاني[٢٣].

---

(٢٢) راجع مسكن الفؤاد ص (١٠٨)، وعنه بحار الأنوار (٩٢/٧٩).

(٢٣) راجع مستدرك الوسائل (١٩٨/١٠). وروي في بحار الأنوار (٣٧٩/٩٦): عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: ومن المشاهد بالمدينة التي ينبغي أن يُؤتى إليها وتُشاهد ويُصلّى فيها ويُتعاهد مسجد قباء، وهو المسجد الذي أسس على التقوى، ومسجد الفتح، ومشربة أم

وترقّت النصوص إلى تقديس تربته الشريفة، خصوصاً وإنّه قد تقرّبت أم الحجج الطاهرين عليهم السلام إلى الله تعالى بها، ففي رواية أن الزهراء عليها السلام كانت تسبّح الله سبحانه بسبحة صنعتها من تربته الشريفة، ليكون التسبيح مشفوعاً بمعنى العطاء في سبيله، وقد تركّز هذا المفهوم الرّاقي في ذهنية المؤمنين، حتى إذا عرفوا أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو سيّد الشهداء عدَلوا إلى تربته المطهّرة، بتوجيه من الحجج الطاهرين عليهم السلام وتأسيس من سيّدة نساء العالمين عليها السلام.

ففي مكارم الأخلاق والمزار الكبير، عن مولانا الإمام الصّادق عليه السلام: أنّ فاطمة عليها السلام كانت سبحتها من خيط صوف مفتل معقود عليه عدد التكبيرات، فكانت تديرها بيدها تكبر وتسبح، إلى أن قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه سيد الشّهداء فاستعملت تربته، وعملت التسابيح فاستعملها الناس، فلما قتل الحسين صلوات الله عليه عدل بالأمر إليه فاستعملوا تربته لما فيها من الفضل والمزية(٢٤).

وفي رواية أنّه سئل أبو عبد الله عليه السلام عن استعمال التربتين من طين قبر حمزة والحسين والتفاضل بينهما، فقال عليه السلام: السبحة التي من قبر الحسين عليه السلام تسبح بيد الرجل من غير أن يسبّح(٢٥).

إبراهيم، وقبر حمزة، وقبور الشهداء.

وروي في بحار الأنوار (١٦٩/٧٩): عن مولانا الإمام الباقر عليه السلام: كانت فاطمة عليها السلام تزور قبر حمزة، وتقوم عليه، وكانت في كل سنة تأتي قبور الشهداء مع نسوة معها فيدعون ويستغفرون (هكذا الرواية).

(٢٤) بحار الأنوار (٣٣٣/٨٢).

(٢٥) بحار الأنوار (٣٣٣/٨٢).

ورُوي أن الحور العين إذا أبصرن بواحد من الأملاك يهبط إلى الأرض لأمر ما يستهدين منه السبح والتراب من طين قبر الحسين عليه السلام(٢٦).

ورُوي أنّه من سبح بسبحة من طين قبر الحسين عليه السلام تسبيحة كتب الله له أربعمئة حسنة ومحى عنه أربعمئة سيئة، وقضيت له أربعمئة حاجة، ورفع له أربعمئة درجة، ثم قال: وتكون السبحة بخيوط زرق أربعا وثلاثين خرزة، وهي سبحة مولاتنا فاطمة الزهراء، لما قتل حمزة عليه السلام عملت من طين قبره سبحة تسبح بها بعد كل صلاة(٢٧).

وهذه خصوصية لآل محمد صلى الله عليه وآله قد أكّدها أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب إلى معاوية فيه: إن قوما استشهدوا في سبيل الله من المهاجرين، ولِكُلٍّ فَضْلٌ، حتى إذا استُشهِدَ شهيدُنا قيل سيد الشهداء! وخصه رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه !! أو لا ترى أن قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله ؟ ولِكُلٍّ فَضْلٌ، حتى إذا فُعِلَ بوَاحدِنَا كَمَا فُعِلَ بواحدِهِم قيل الطّيّار في الجنة وذو الجناحين !!(٢٨).

ولا يتردّد عالمٌ من بعد ذلك في تقديم الإمام الحسين عليه السلام وتفضيله على عمّه حمزة عليه السلام، فهو إمام عمّه وحجّة الله عليه، ودائرة فضل حمزة عليه السلام لا تشمل أيّ واحد من الحجج الطاهرين عليهم السلام قطعاً..

ورُوي في إكمال الدين عن سلمان قال: قال النبي صلى الله عليه وآله لفاطمة: شهيدنا

---

(٢٦) بحار الأنوار (٣٣٣/٨٢).

(٢٧) بحار الأنوار (٣٤١/٨٢).

(٢٨) راجع الكتاب رقم (٢٨) من نهج البلاغة.

سيد الشهداء وهو حمزة بن عبد المطلب، وهو عم أبيك.

قالت: يا رسول الله، وهو سيّد الشّهداء الذين قتلوا معك؟

قال: لا، بل سيد شهداء الأولين والآخرين، ما خلا الأنبياء والأوصياء، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيار في الجنة مع الملائكة(٢٩).

فإذا كان لا يفضل الأنبياء والأوصياء، فكيف يفضل وصيّ خير الأنبياء! وخامس أصحابِ الكساء! المقتول شَهيداً مظلوماً! المذبوح صبراً عطشاناً غريبا! المستشهد عشيرته وأصحابه في يوم واحد! المُساق أهله سبايا من بعده! الإمام الحجّة على جميع الشّهداء والصدّيقين.

لقد استشهد حمزة عليه السلام بين يدي إمام حجة هو النبي صلى الله عليه وآله، فهو يفضل أقرانه من سائر الشّهداء، إلاّ أنّ شهادته لا توازي شهادة إمامه قطعاً، فالإمام الحسين عليه السلام هو الشّهيد الحُجّة في الدنيا والآخرة، ولا يمكن قياس أحد عليه، ويمكننا الترقّي إلى القول أنّه أحد أسرار عظمة عمّه حمزة عليه السلام!!

والمؤكّد أنّ النبي صلى الله عليه وآله لقّنه إمامة مولانا الحسين وأبيه عليه السلام ليلة شهادته لتتم له بمعرفتها أرفع الدرجات، ويُفهم من فعله صلى الله عليه وآله أنّ من كان في مقام عمّه عليه السلام فهو مكلّف بمعرفة حجج ربّه في زمانه وفي غير زمانه، فهم أئمّته وإن لم يدركهم، كما في آدم عليه السلام وإبراهيم عليه السلام الذَين عُلّما أسماءهم الشّريفة.

فقد روي في كتاب الطُّرَف للسيّد ابن طاوس رحمه الله نقلاً من كتاب الوصيّة، عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: لما هاجر النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة وحضر خروجه إلى بدر دعا الناس إلى البيعة فبايع كلهم على السمع

(٢٩) بحار الأنوار (٢٢/٢٨٠).

والطاعة وكان رسول الله ﷺ إذا خلا دعا عليّاً فأخبره من يفي منهم ومن لا يفي ويسأله كتمان ذلك، ثم دعا رسول الله ﷺ عليّاً وحمزة وفاطمة عليهم السلام فقال لهم: بايعوني بيعة الرضا!

فقال حمزة: بأبي أنت وأمّي، على ما نبايع؟ أ ليس قد بايعنا!!

فقال: يا أسد الله وأسد رسوله، تبايع لله ولرسوله بالوفاء والاستقامة لابن أخيك، إذن تستكمل الإيمان. قال: نعم، سمعاً وطاعة.

وبسط يده، فقال لهم: يد الله فوق أيديكم، علي أمير المؤمنين عليه السلام وحمزة سيد الشهداء، وجعفر الطيار في الجنة، وفاطمة سيدة نساء العالمين، والسبطان الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، هذا شرط من الله على جميع المسلمين من الجن والإنس أجمعين ﴿**فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**﴾ ثم قرأ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللّهَ**﴾.

قال: ولما كانت الليلة التي أصيب حمزة في يومها دعا به رسول الله ﷺ فقال: يا حمزة، يا عم رسول الله، يوشك أن تغيب غيبة بعيدة، فما تقول لو وردت على الله تبارك وتعالى وسألك عن شرائع الإسلام وشروط الإيمان؟ فبكى حمزة، وقال: بأبي أنت وأمي أرشدني وفهّمني؟.

فقال: يا حمزة، تشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً، وإني رسول الله تعالى بالحق. قال حمزة: شهدت. قال: وأن الجنة حق، وأن النار حق، ﴿**وأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها**﴾ وأن الصراط حق، والميزان حق ﴿**ومن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾، ﴿**وفَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**﴾ وأن

عليّاً أمير المؤمنين. قال حمزة: شهدت وأقررت وآمنت وصدّقت.

وقال: الأئمة من ذرّيته، الحسن والحسين وفي ذريته. قال حمزة: آمنت وصدّقت. وقال: فاطمة سيدة نساء العالمين. قال: نعم، صدّقت.

وقال: حمزة سيد الشهداء، وأسد الله وأسد رسوله وعم نبيه. فبكى حمزة حتى سقط على وجهه، وجعل يقبّل عيني رسول الله ﷺ. وقال: جعفر ابن أخيك طيار في الجنة مع الملائكة، وإن محمدا وآله خير البرية، تؤمن يا حمزة بسرهّم وعلانيتهم، وظاهرهم وباطنهم، وتحيا على ذلك وتموت، توالي من والاهم، وتعادي من عاداهم. قال: نعم يا رسول الله، أُشهد الله، وأشهدك ﴿**وكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً**﴾ فقال رسول الله ﷺ: سدّدك الله ووفقك[٣٠].

وعليه فإنّ الإمام الحسين عليه السلام يتربّع على عرش الشهادة من غير شريك، وهو سيّد شهداء الإسلام والإنسانية في الدّنيا والآخرة، ومن هذا المنطلق فإنّ النبي ﷺ قد أبرز فضله في الآخرة ليكون كاشفاً عن مقامه في الدّنيا حيث قال: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة[٣١].

---

(٣٠) راجع بحار الأنوار (٢٢/٢٧٨).

(٣١) وهذا الحديث متواتر جداً، وقد روي بطرق عدّة، وقد أخرجه المتقي الهندي في كنز العمّال (١٢/١١٥ ح ٣٤٢٥٩)، وأخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (٣/١٦٧) وقال: صحيح، بزيادة: وأبوهما خير منهما، وأخرجه البغوي في مصابيح السنة النبوية في كتاب المناقب (٤/١٩٣ ح ٤٨٢٧)، وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/٦٢)، واخرجه الترمذي في السنن (٥/٦٥٦ ح ٣٧٢٨) في مناقب الحسن عليه السلام وقال: حسن صحيح، وأخرجه المزّي في تحفة الأشراف (٣/٣٩٠ ح ٤١٣٤)، وأخرجه الهيثمي في موارد الضمآن ص (٥١١) باب ما جاء في الحسن عليه السلام ح (٢٢٢٨)، وأخرجه ابن عساكر في ترجمة

لقد اجتازت أشعّة مقامه وفضله حيّز الزّمان والمكان حتى أعشت عيون العالمين، وتمكّنت من قلوب ملايين الحسينيّين الذين لا يعرفون غيره سيّداً للشّهداء، وقد دَعَتهم معرفتهم به إلى الحزن العميق على مصرعه، مضافاً إلى الدّواعي التي سوف نستعرضها بعد حين !!

داعي خلود الحزن الحسيني

امتزج شعار الحزن بدماء الشّيعة وتمكّن من قلوبهم، فالأرزاء متجدّدة في كلّ مناسبة بصورة راتبة بشوق وتلهّف، حتّى أسفرت عن ظاهرة تثير السؤال والعجب..

من هو الإمام الحسين عليه السلام ؟ ولماذا قُتل ؟ وما هو سرّ خلود هذه القضية ؟

الأمر في هذه القضيّة يدعو للدّهشة.. فغالباً ما تتشيّد القضايا الإنسانيّة وتستمر بالجهود المضنية، ومع هذا فإنّه لم تصمد أيّ منها أمام معاول الزمن ودواهي النسيان والتحريف والشُّبَه، إلاّ أنّ قضيّتنا تختلف عن سائر القضايا جملةً وتفصيلاً، ولا تُفهم بالقياس مع غيرها، فهي يتيمةٌ ولا يوازيها عظمة إلاّ قضية الإسلام، وقد أشار نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله إلى هذا التوازي قائلاً: حسينٌ مني وأنا من حسين[٣٢].

← الإمام الحسين عليه السلام من تأريخ دمشق ص (٤١ - ٤٢ ح ٦٢ و ٦٣ و ٦٤) بطرق عدّة، وتجده في كشف الغمّة للأربلي (١٧٧/٢).

(٣٢) وهذا حديث مشهور متواتر نقلته جميع كتب الفضائل والمناقب، وذكر في صحاح المسلمين، وأخرجه - على سبيل المثال - الإمام أحمد في مسنده تحت الرقم (١٧٢٣١) والترمذي في سننه (٣٠٥/١٠) ح (٣٩٧٣) وابن ماجة في سننه (٥١/١) ح (١٤٧)، وقد تناول آية الله الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء شرحه بما لا مزيد عليه في كتابه القيّم جنّة المأوى، وذكر الوجوه المتصوّرة في تقريبه، فليراجع.

وبالتّالي فإنّها القضية التي اكتسبت سرّ خلودها من نفسها وكان وقودها من ذاتها، ولم تؤثّر مظاهر الحزن المشهودة على إذكاء حرارتها بقدر ما شكّلت الأثر الطبيعي والإنعكاس الذاتي لهذه القضية الفريدة، وقد تكفّلت المأساة بنفسها بالتأثير على المشاعر إلى حدّ البكاء، حتى بلغ التأثر بها حدّ الجزع!

فالإنسان طبعاً ميّال لاستشعار ألم أخيه مهما تغاير الإنتماء والمعتقد، وقد تضمّنت رزايا الطّف عناصر الإثارة الكافية للحزن بشكل مسلّم، وبديهيٌّ قولنا أن باعث الحُزن الأوّل هو استجابة الإنسان بطبعه لأصداء الظّلامة وتفاعل الأحرار مع صدق القضيّة وأحقّيتها، يدعمه الوازع الذاتي الممزوج بكينونة الإنسان الميّال بطبعه للفضيلة متجرّداً عن كلّ الإنتماءات.

أمّا في دائرة الإنتماء فإنّ الودّ هو الباعث الكبير للحزن الحسيني، وتشتدّ وتضعف خلّة الحبّ بحسب الأسباب، وتقوى المحبّة باشتداد العلائق الدّمويّة تجاه الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال، وتقوى باشتداد العلائق المعنويّة بالعقائد والنظريّات المفضّلة، وحُبّ المعنويّات يتفوّق على حبّ الماديّات في النفوس الرّاقية من غير شك.

ويتربّع على عرش المعنويّات حُبّ العقيدة، ويرقى حبُّ الدّين على حبّ الأبَوَين قطعاً، فالمؤمن يفدي دينه بهما، وتحتلّ الرّموز الدينيّة هذه المكانة، وتنشدّ النفوس إلى حُبِّ الأنبياء والأئمة عليهم السلام بحيث يخرجُها أحياناً عن الجادة المستقيمة، ويقدّمهم النّاس على كلّ نفيس حتّى أنفسهم الغالية.. وطبيعيٌّ أن تتعلّق النفوس الطّيّبة بشغفٍ بنبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله إلى أن يرقى حبّه على حبّ الماديّات والمعنويّات.

إنّ الإحسان هو مغناطيس النّفوس الحرّة، وقد فاق إحسان نبيّنا صلى الله عليه وآله إحسان

المحسنين فطوّق أجياد الخلق وأغرقهم وغمرهم بمعروفه.. حتّى تربّع على عروش القلوب فاحتضنته بالحبّ والمودّة، وقد تعزّز ذلك بواعز الإيمان والقرب الربّاني، فمن أحبّه تعالى شايع نبيّه ﷺ كما قال: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**.

وإنّ وراء هذه العُلقة الوثيقة بنبيّنا ﷺ سر ظاهر، وهو علقته الوثيقة بربّه الكريم، فالمؤمنون يحبّونه تقديراً لعلقته الفريدة مع الله تعالى.. وإن من دواعي الحبّ الكبير له ﷺ حيازته الفضائل التي جمّت عن أن تُستقصى أو تُحصر، ويكفي في شأنه قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾**.

وقال البوصيري:

فاقَ النَّبيّينَ في خَلْقٍ وَفي خُلُقٍ ولم يُدانُوه في علمٍ ولا كَرَمِ

أكْرِمْ بخَلقِ نبيٍّ زانَهُ خُلُقٌ بالحُسنِ مُشتَملٌ بالبِشرِ مُتَّسِمِ

والدّواعي التي تقود لحبّه ومودّته كثيرة، وهي تؤكّد حبّ كلّ ما يمتّ له بصلة، كالتعاليم والآثار، ويتفاوت المسلمون في حبّهم له ﷺ بحسب إيمانهم، وقد قال الإمام القرطبي: كلّ من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنّهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى، كمن كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً في الفضلات في أكثر الأوقات، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ إشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله وولده وماله ووالده، ويبذل

نفسه في الأمور الخطيرة ويجد مخبر ذلك من نفسه وجداناً لا تردّد فيه(٣٣).

وأجمع المسلمون على أنّ من حبّه ﷺ حبّ أهل بيته عليهم السلام، وهم أولاده وعترته الطّيبون الذين أحبهم كثيراً، وجاهر بحبّهم ودعى إليه، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، فوجب التديّن بحبّهم وودّهم والتحلّي بمظاهر حبّهم من اتّباعهم والتأسّي بهم، خصوصاً وقد اتّفقت الكلمةُ على نزاهتِهم وعلوّ مقامهم.

ومن هذا المنطلق فإنّه وجب الفرح لفرحهم والحزن لحزنهم، ولمّا ثبت أنّ التاريخ قد أكّد أحزان أهل البيت عليهم السلام الشديدة على مأساة كربلاء، تأكّد الحزن لحزنهم، فالتاريخ البشري لم ينقل تأثّراً يوازي تأثّر العترة النبويّة أبداً، حتى صارت مأساة الطّف هي المحور الذي تدور عليه جملة قضاياهم وعدّوها شعار مظلوميّتهم.

وقد افترض الجليل في كتابه مودّة الآل عليهم السلام أجراً على النبوّة فقال: ﴿**قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾. وقال: ﴿**قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾.

فطلب النبي ﷺ مودّةَ أهلِهِ أجراً لرسالته بأمر الله سبحانه، لما فيها من صلاح شأنهم وسعادتهم، وقد تشيّد مطلب القرآن بنصوص تحثّ على مودّتهم، ومنها ما ورد في خصوص مودّة أمير المؤمنين عليه السلام، ومنها ما ورد في مودّة عامة أهل بيته عليهم السلام.

---

(٣٣) راجع فتح الباري لإبن حجر (١/ ٥٠).

وأخرج علماء أهل السنة في صحاحهم أن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق[٣٤].

وأمّا علماء الشيعة فقد أورده الشيخ المفيد في الإرشاد والأمالي، و ابن شهراشوب في مناقب آل أبي طالب، والمجلسي في بحار الأنوار، وفرات الكوفي في تفسيره، وفي كثير من المصادر الأخرى.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: بوّروا أولادكم بحبّ علي بن أبي طالب، فمن أحبّه فاعلموا أنّه لرشده، ومن أبغضه فاعلموا أنّه لغيّه[٣٥].

---

(٣٤) وهذا حديث يطول الكلام في شرحه وبيان أبعاده، كما يطول المقام في تعديد مصادره، فهو متواتر مشهور متفق عليه، رواه أهل السنة والشيعة بطرق شتّى وأسانيد عدّة، أمّا ما نقله علماء السنّة: فمنه عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها كما في مسند أحمد (٦/٢٩٢)، وجامع الترمذي (٥/٢٩٩رقم ٣٨٠١) أو (٢/٣٠١)، وسنن النسائي في كتاب الإيمان (رقم ٢٠).

وأما بالإسناد إلى الأعمش فقد أخرجه أحمد في المسند (١/٨٤) والحافظ النسائي في السنن (٨/١١٧رقم ١٩و١٣١) والحافظ الترمذي في السنن (٥/٣٠٦ باب ٩٤) والقزويني في سنن المصطفى (١/٥٥) والخطيب في التاريخ (٢/٢٥٥) والنسائي في الخصائص ص (٢٧) بطرق ثلاث.

كما ورد في كنز العمال (١٢/٥٩٨ ح ٣٢٨٧٨، و ص ٦٢٢ ح ٣٣٠٢٨)، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار (١٧/١٧/١٠٣)، وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء ص ٦٣٤)، ومناقب الإمام علي للشافعي ص (١٩٠).

(٣٥) بوّروا أولادكم أي إختبروهم وامتحنوهم. راجع بحار الأنوار (٣٨/١٨٩) وإعلام الورى (١٦٣).

وورد في حديث عبادة بن الصامت: كنّا نبوّر أولادنا بحب علي بن أبي طالب، فإذا رأينا أحدهم لا يحبّه علمنا أنّه لغير رشده. (راجع مناقب آل أبي طالب (٣/٢٠٧) وفي شرح النهج لإبن أبي الحديد مثله (١/٤٨٩).

وأخرج حفّاظ أهل الحديث في صحاحهم ومجاميعهم عن ابن عباس رضي الله عنه عن النّبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قوله: أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني بحبّ الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي(٣٦).

→

وفي البحار (٢٩٦/٣٩) عن أبي سعيد الخدري، وفي تاريخ دمشق في الترجمة (٢٢٤/٢ح٧٣٥).
ورواه إبن الأثير في النهاية في غريب الحديث مادة بور (١٦١/١).
وفي معنى هذه الأحاديث يقول ابن عبّاس رضي الله عنه:

إذا ما التّبرُ حُكَّ على مِحَكّ ... تبيّن غِشّه من غيرِ شكّ
وفينا التّبرُ والذهبُ المُصفّى ... عليٌّ بيننا شِبهُ المَحكّ

(٣٦) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب أهل البيت، وقال: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه (١٧٣/٩)، والحاكم النيسابوري في المستدرك (١٥٠/٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

وروي في مجمع الزوائد (٨٨/١) باب فيمن حبهم إيمان، ونظم درر السمطين ص (٢٣٣)، وينابيع المودة (٣٦٠/٢ و ٤٥٦)، والمعجم الكبير للطبراني (٧٥/٧)، والأوسط (٥٩/٦)، وإسعاف الراغبين ص (١١٣) أنه قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا يؤمن عبد لله حتى أكون أحبّ إليه من نفسه، وأهلي أحبّ إليه من أهله، وعترتي أحب إليه من عترته، وذاتي أحبّ إليه من ذاته.

وروى الخطيب البغدادي في تاريخه (١٤٦/٢)، والعزيزي في السراج المنير (٣٧٠/٢) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: شفاعتي لأمتي من أحبّ أهل بيتي، وهم شيعتي.

وروي في ذخائر العقبى ص (١٨)، ومقاتل الطالبيين لأبي الفرج الإصفهاني ص (٤٤)، وينابيع المودة (١١٦/٢)، وإسعاف الراغبين ص (١١٣) أنّه قال صلى الله عليه وآله وسلم: يرد الحوض أهل بيتي، ومن أحبّهم من أمتي، كهاتين السبابتين.

وروي في كنز العمال (٢١٢/٧) عن ابن عباس، والهيثمي في مجمعه (٣٤٦/١٠) عن الطبراني في الكبير والأوسط، وفي المناقب لابن المغازلي ص (١١٩) ح (١٥٧)، وينابيع المودة

وروى أحمد بن حنبل عن النبي ﷺ: من أحب هذين - يعني الحسن والحسين - وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة(٣٧).

→ للقندوزي ص (١٣٣و٢٧٠ و٢٧١)، والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص (١٠٩) أنّه قال ﷺ: لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيمَ أفناه، وعن جسده فيمَ أبلاه، وعن ماله فيمَ أنفقه وممَّ اكتسبه، وعن حبّنا أهل البيت.

ورُوي في كنز العمال (٢٧٨/٨) وقال: أخرجه أبو نصر في الفوائد والديلمي في الفردوس وابن النجار عن علي عليه السلام، وفيض القدير للمناوي (٢٢٥/١)، والصواعق المحرقة لابن حجر ص (١٠٣) أنّه قال ﷺ: أدّبوا أولادكم على ثلاث: حبّ نبيكم، وحبّ أهل بيتي، وعلى قراءة القرآن.

وفي الصواعق المحرقة لابن حجر ص (١٥٠)، وينابيع المودّة (٤٦٤/٢) أن النبي ﷺ قال: من أراد التوسل إليّ، وأن يكون له عندي يد أشفع له بها يوم القيامة، فليصل أهل بيتي، ويدخل السرور عليهم.

وفي ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري ص (١٨)، وينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص (١٩٢ و٣٠٤ و٣٩٧)، والصواعق المحرقة ص (١٠٣ و ١٣٩) أنّه قال ﷺ: لا يحبّنا أهل البيت إلا مؤمنٌ تقيّ، ولا يبغضنا إلا منافقٌ شقيّ.

وروى أحمد بن حنبل في كتاب فضائل الصّحابة وفي المسند أيضاً، والطبراني في الكبير (٤١٥/٢٢) واللفظ له، وذكره في شرح النهج (١٦٨/٩) وقال: رواه أحمد في كتاب فضائل علي وفي المسند، وفي كنز العمال (١٤٥/١٣)، ومجمع الهيثمي (١٣٢/٩) أنّه روي عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: خرج علينا رسول الله ﷺ عشيّة عرفة فقال: إنّ الله باهى بكم وغفر لكم عامة ولعليٍّ خاصة، وإنّي رسول الله إليكم، غير محابٍ لقرابتي، هذا جبريل يخبرني: أنّ السعيد حقّ السّعيد من أحبَّ عليّاً في حياته وبعد موته، وإنّ الشّقيّ كلّ الشقي من أبغض عليّاً في حياته وبعد موته.

(٣٧) رواه الإمام أحمد في المسند (٧٧/١) والترمذي في مناقب علي (٢٣٧/١٠).

وقال ﷺ: من أحبّ الحسن والحسين فقد أحبّني ومن أبغضهما فقد أبغضني[٣٨].

وكيف لا تتواتر النُّصوص في تشييد مودّتهم وهم أعدال القرآن الكريم المصرّح بهم في حديث الثقلين، فقد قال ﷺ: إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض[٣٩].

ولا شكّ أنّ لهذا الحبّ آثارٌ تستتبع جملة من الحقوق والإلتزامات الواضحة بالوجدان، منها التولّع بالذّكر والآثار، فقد ذكر الأدباء أن المجنون كان يمرّ بديار ليلى فيقبّل جدران الأبنية حبّاً لمليكة قلبه.. ويقول:

أَمُـرُّ على الـدّيارِ ديارَ ليلى ... أُقبّلُ ذا الجـدارَ وذا الجـدارا
ومـا حُـبُّ الـدّيارِ شَـغَفنَ قلبي ... ولكـن حُـبُّ مـن سَـكَنَ الـدّيارا

وقد تدرّج الثعالبي في فقه اللغة تدرّجاً منطقيّا بحسب شدّة الحب، فبدأ

---

(٣٨) راجع سنن ابن ماجة في فضائل الحسن والحسين عليهما السلام، مسند أحمد بن حنبل (٢/٢٨٨)، وجاء هذا الحديث في مصادر كثيرة منها تاريخ بغداد، وكنوز الحقائق، ومسند أبي داود الطيالسي، وكنز العمال، ومجمع الهيثمي، وذخائرالعقبى.

(٣٩) جاء حديث الثّقلين بطرق مختلفة وألفاظ متنوّعة، وتجد الوصية بالكتاب والعترة وهم أهل البيت عليهم السلام في صحيح مسلم (١٥/١٤٩) ح ٦١٨٧ و ص (١٥١) ح (٦١٨١)، وفي مسند أحمد تحت الأرقام التالية (١٠٩٠١ و ١٠٩٨١ و ١٠٨٧٤ و ١٨٩٠٦)، وفي سنن البيهقي (١٥/٩٠) ح (٢٠٧٧٨) و (٢/٥١١) ح (٢٩٠٩) و (١٠/١٣٣) ح (١٣٤٠٠)، وفي سنن النسائي (٥/٤٨) ح (٨٠٥٤) و ص (١٣٤) ح (٨٣٧٠) و ص (٤٥) ح (٨٠٨١)، وفي سنن الدارمي ح (٣٣١٤).. ولدراسة الحديث بأسانيده ومداليله راجع كتاب "حديث الثقلين" للمحقق السيد علي الميلاني.

بالهوى ثمّ تدرّج حتى خَلُص إلى طغيان الحب الذي يُفقد الإحساس وسمّاه الهيام.. وهي حالة من الإستغراق ينعدم معها الحس، وكثيراً ما يعيش الإنسان الإستغراق في بعض معانيه إذ ينتبه إلى جُرح في يده لا يعلم كيف حدث لاستغراقه في أمر آخر.. وحُكِيَ أن قيساً خرج في الليل يطلب ناراً قاصداً مضارب ليلى، فخرجت له ليلى بقبس من نار فتناوله، واشتد به أوار الحبّ فأطال عندها مسترقاً لحظات الخلوة حتّى وصَلَت النّار إلي يده، فقالت له: النارُ يا قيس !! فقال: والله ما شعرت بها!!

ويصل حبّ الكمّل إلى هذه المرتبة أحياناً تجاه الخالق جلّ وعلا، فقد اشتهر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان إذا دخل في الصّلاة لم يشعر باستخراج السّهام والنبال من نواحي جسمه !! وهكذا يرتقي حبّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام في بعض النّفوس الكبيرة، فالآثار التي يظهرها محبّوهم دون ما يستحقّون قطعاً، ويُفهم من ذلك داعي الحزن والبكاء والجزع وسائر الشّعائر الحسينية.

إن حبّهم يحتّم علينا الإحتفاء بهم والإهتمام بأيّامهم وإحياء أمرهم والتسمية بأسمائهم والتذكير بهم، وعرض محاسن أفعالهم وأقوالهم، وتعريفهم بمختلف المظاهر المتاحة اللائقة بشرفهم ومنزلتهم، والإبتهاج في أيام أفراحهم، والإهتمام في أيّام أتراحهم، والبكاء على مصابهم.

ويتحتّم زيارة قبورهم وتشييدها، فهي محالّ أجلّ الله تعالى قدرها فقال: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ**﴾. وينبغي التبرّك وطلب الرحمة فيها، وينبغي التألّم لمصائبهم، ويختص مولانا

الإمام الحسين عليه‌السلام بالنصيب الأكبر من ذلك، فهو قتيل العبرة وعبرة المؤمنين، والحزن مندوبٌ عليه، وهو من أهم مظاهر حبّه الصّادق.

لقد رُوِيَ في الإختصاص عن الإمام الصادق عليه‌السلام: إن الله تبارك وتعالى أوجب عليكم حبّنا وموالاتنا، وفرض عليكم طاعتنا، ألا فمن كان منّا فليقتدي بنا، فإن من شأننا الورع والإجتهاد وأداء الأمانة إلى البر والفاجر، وصلة الرحم، وإقراء الضيف، والعفو عن المسيء، ومن لم يقتد بنا فليس منّا[٤٠].

وفي الكافي الشريف عن الإمام الصّادق عليه‌السلام: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: الإسلام عريان فلباسه الحياء، وزينته الوفاء، ومروءته العمل الصالح، وعماده الورع، ولكل شيء أساس، وأساس الإسلام حبنا أهل البيت[٤١].

وفي المحاسن عن الإمام الصّادق عليه‌السلام: قال أمير المؤمنين عليه‌السلام: ذِكْرُنَا أهل البيت شفاء من الوعك والأسقام، ووسواس الريب، وحبّنا رضى الرب تبارك وتعالى[٤٢].

وفي بحار الأنوار عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه‌السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه‌السلام للحارث الأعور: لَيَنْفَعَنَّكَ حُبُّنَا عند ثلاث، عند نزول ملك الموت، وعند مساءلتك في قبرِك، وعند موقفك بين يدي الله[٤٣].

---

(٤٠) راجع الإختصاص ص (٢٤١)، وبحار الأنوار (١١٥/٧٢).

(٤١) راجع الكافي (٤٦/٢)، وبحار الأنوار (٢٨٢/٦٥).

(٤٢) راجع المحاسن (٦٢/١)، وبحار الأنوار (١٤٥/٢).

(٤٣) راجع بحار الأنوار (١٦٤/٢٧).

وفي أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أبي بردة الأسلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يزول قدم عبد يوم القيامة حتى يُسْأَلَ عن أربع، عن جسده فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله ممّا إكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبّنا أهل البيت[٤٤].

وفي تفسير العياشي عن بريد بن معاوية العجلي، قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام إذ دخل عليه قادم من خراسان ماشياً، فأخرج رجليه وقد تغلّفتا، وقال: أما والله ما جاء بي من حيث جئت إلاّ حبّكم أهل البيت، فقال أبو جعفر عليه السلام: والله لو أحبّنا حجر حشره الله معنا، وهل الدين إلاّ الحب، إن الله يقول: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾، وقال ﴿**يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ**﴾ وهل الدين إلا الحب!![٤٥].

وفي تفسير العياشي عن أبي عبيدة الحذاء، قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقلت: بأبي أنت، ربّما خلا بي الشيطان فخبثت نفسي، ثم ذكرت حبّي إياكم وانقطاعي إليكم فطابت نفسي. فقال: يا زياد، ويحك، وما الدين إلاّ الحب، أ لا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾[٤٦].

ورُوِيَ في بحار الأنوار عن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نفس المهموم لظلمنا تسبيح، وهمُّه لنا عبادة، وكتمان سرنا جهاد في سبيل الله، ثم قال

---

(٤٤) راجع بحار الأنوار (٢٥٨/٧)، والخصال (١/ ٢٥٣)، وأعلام الدين ص (٤٦١).

(٤٥) راجع بحار الأنوار (٢٧/ ٩٥).

(٤٦) راجع بحار الأنوار (٢٧/ ٩٤).

أبو عبد الله عليه السلام : يجب أن يُكتب هذا الحديث بماء الذهب[٤٧].

وقد أخرج ابن حنبل في المناقب ومحبّ الدين الطبري الشافعي في ذخائر العقبى والحافظ القندوزي الحنفي في ينابيع المودّة عن الربيع بن منذر، عن أبيه، قال: كان الحسين بن علي رضي الله عنه يقول: من دمعت عيناه فينا دمعةً، أو قطرت عيناه فينا قطرةً، آتاه الله عزّ وجلّ الجنّة[٤٨].

وينطلق الحزن الحسيني كذلك من مبدأ مواساة النبي صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام ، وبما أنّ ظلامة الإمام الحسين عليه السلام رمز ظلامتهم فإنّ الحزن عليه حزن عليهم جميعاً، وهذه صورة من صور تكريمهم جميعاً عليهم السلام ، كما أنّ أحزان الشيعة تنطوي على إعلان إستعداد البذل في سبيل الله تعالى تأسّياً بالإمام الشّهيد عليه السلام ، وتعزّز تمسّكها بالدين وأحكامه وتؤكّد تجديد بيعة الولاء بالحب والطاعة لهم عليهم السلام .. فيوم الطّف هو اليومُ الذي أبكى رسول الله صلى الله عليه وآله فوجب علينا مواساته فيه.. وقد قال الشريف الرضي رحمه الله :

لو رسولُ الله يحيى بعدَه جَلَسَ اليومَ عليهِ للعزا

وقد تقرّر أن الحزن على سيد الشهداء عليه السلام سنة نبويّة مؤكّدة، والبكاء عليه أمر يرتكز على فعل النّبي صلى الله عليه وآله القدوة الأسوة الذي نزل الذكر محقّقاً عصمته في قوله: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾، وقوله سبحانه: ﴿**وَمَا**

(٤٧) راجع بحار الأنوار (٢/٦٤) و (٤٤/٢٧٨)، والكافي (٢/٢٢٦)، وأمالي الطوسي ص (١١٥)، وأمالي الشيخ المفيد ص (٣٣٨)، وبشارة المصطفى ص (١٠٥).

(٤٨) أورده المحبّ الطبري في ذخائره ص (١٩)، والقندوزي في ينابيع المودّة (٢/٣٧٣ و ١١٧) باختلاف يسير؛ وكلاهما قال: أخرجه أحمد في المناقب.

آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

والسنّة النبوية هي ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خَلْقِيّة أو خُلُقِيّة، وقد أُتّفق في كتب علوم الحديث على هذا الحد، فالمسلمون مجمعون على حجية فعله ﷺ ووجوب طاعته.

ويمكننا بعد دراسة تحقيقيّة مُتأنّية سبقت في كتابنا " الدّمعة السّاكبة " أن نقول أنّ السنّة النبويّة تلثّمت بلثام الحزن على الإمام الحسين عليه السلام في نصوص زاخرة، بل كأنّ أساه ﷺ وحزنه شاخصان مع نزول كلّ آية دلّت على فضلهم ومنزلتهم عليهم السلام، وربّما يكون ﷺ قد سخى بعبراته عند كلّ منقبة.

ولقد أخرج الحفاظ بأسانيدهم الصّحيحة عن ابن عباس أنّه قال: خرجت أنا والنبيّ ﷺ وعليّ عليه السلام في حيطان المدينة، فمررنا بحديقة، فقال عليّ عليه السلام: ما أحسن هذه الحديقة يا رسول الله !! فقال: حديقتك في الجنة أحسن منها. ثم أومأ بيده إلى رأسه ولحيته، ثم بكى حتى علا بكاؤه. قيل: ما يبكيك ؟! قال: ضغائنُ في صدور قوم، لا يبدونها لك حتى يفقدوني.

وفي لفظ أنس بن مالك: ثم وضع النبي ﷺ رأسه على إحدى منكبي علي فبكى، قال له: ما يبكيك يا رسول الله ؟!

قال: ضغائنٌ في صدور أقوام، لا يبدونها حتى أفارق الدنيا.

وفي لفظٍ أمير المؤمنين: فلمّا خلا له الطريق إعتنقني، ثم أجهش باكياً، قلت: يا رسول الله ما يبكيك! قال: ضغائنُ في صدور أقوام، لا يبدونها لك إلاّ

من بعدي.. فقلت: في سلامة من ديني ؟ قال: في سلامةٍ من دينك[٤٩].

ولك أن تتأمّل في حاله ﷺ يوم ميلاد سبطه عليه السلام لتعجب أو تستغرب! فهو يبكي حين يولد الحسين بن علي! إبن فاطمة الزهراء! يبكي عند ميلاد ريحانته وولده المنتظر وأبي النجوم الزّاهرة من أوصيائه! وتتهافت الملائكة قبيلاً بعد قبيل، وفوجاً بعد فوج، وتهبط إليه مهنّأة معزّية، ينعون ولده إليه، وقد جلب جبريل عليه السلام التّربة الحمراء التي يُقتل عليها، ويُجمع المسلمون على نقل ذلك الحدث المثير، ثم يتسلّم ﷺ تربة ولده ليقلّبها ويقبّلها ويمزجها بدموع عينيه. أ فلا يدعو هذا للعجب! والأعجب أن يحتفظ ﷺ بها في قارورة عند زوجته أم سلمة رضي الله عنها ويأمرها بالإحتفاظ بها فإنّها إذا صارت دماً عبيطاً فإنّ ولده قد قُتل!

وكم تداعت تلك الصور المُفجعة وجالت في خطَرات نفسه! وكم نقل التأريخ الخاص بعض تلك المشاهد التي عبّر فيها عن ألمه لما سيمرّ على أهل بيته عليهم السلام من بعده، وقد تعرّضنا في "**الدّمعة السّاكبة**" إلى شطر من تلك الأخبار[٥٠].

---

(٤٩) أخرجه البزاز في مسنده، والطبراني في المعجم الكبير، وأبو يعلي في المسند، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والهيثمي في مجمع الزوائد.

(٥٠) ومنها ما رواه الشيخ الصّدوق رحمه الله في الأمالي ص (١١٢)، والمجلسي في بحار الأنوار (٣٧/٢٨)، والطبري في بشارة المصطفى ص (١٩٨)، وابن شاذان في الفضائل ص (٨): بإسناد مرفوع إلى ابن عباس: أنّ رسول الله ﷺ كان جالسا ذات يوم، إذا أقبل الحسن عليه السلام فلمّا رآه بكى ثم قال: إليّ إليّ يا بُني، فما زال يدنيه حتى أجلسه على فخذه اليمنى، ثم أقبل الحسين عليه السلام فلمّا رآه بكى، ثم قال: إليّ إليّ يا بُني، فما زال يدنيه حتى أجلسه على فخذه اليسرى، ثم أقبلت فاطمة عليها السلام فلمّا رآها بكى، ثم قال: إليّ إليّ يا بنية، فأجلسها بين يديه،

ثم أقبل أمير المؤمنين عليه السلام فلمّا رآه بكى، ثم قال: إليّ إليّ يا أخي، فما زال يدنيه حتى أجلسه إلى جنبه الأيمن. فقال له أصحابه: يا رسول الله صلى الله عليه وآله: ما ترى واحداً من هؤلاء إلاّ بكيت، أَوَ ما فيهم من تُسَرّ برؤيته؟

فقال صلى الله عليه وآله: والذي بعثني بالنبوة، واصطفاني على جميع البرية، إني وإياهم لأكرم الخلق على الله عز وجل، وما على وجه الأرض نسمة أحب إلي منهم، أمّا علي بن أبي طالب عليه السلام فإنّه أخي وشقيقي وصاحب الأمر بعدي، وصاحب لوائي في الدنيا والآخرة، وصاحب حوضي وشفاعتي، وهو مولى كلّ مسلم، وإمام كل مؤمن، وقائد كل تقي، وهو وصيّي وخليفتي على أهلي وأمتي في حياتي وبعد موتي، محبّه محبي ومبغضه مبغضي، وبولايته صارت أمتي مرحومة، وبعداوته صارت المخالفة له منها ملعونة، وإني بكيت حين أقبل لأني ذكرت غدر الأمة به بعدي، حتى أنه ليزال عن مقعدي، وقد جعله الله له بعدي، ثم لا يزال الأمر به حتى يُضرب على قرنه ضربة تخضب منها لحيته في أفضل الشهور ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقَانِ**﴾. وأما ابنتي فاطمة. فإنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وهي بضعة منّي، وهي نور عيني، وهي ثمرة فؤادي، وهي روحي التي بين جنبي، وهي الحوراء الإنسية، متى قامت في محرابها بين يدي ربّها جل جلاله زهر نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض، ويقول الله عز وجل لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى أَمَتي فاطمة سيدة إمائي قائمة بين يدي، ترتعد فرائصها من خيفتي، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي، أشهدكم أني قد آمنت شيعتها من النار.

وأني لما رأيتها ذكرت ما يصنع بها بعدي، كأني بها وقد دخل الذل بيتها، وانتهكت حرمتها، وغصبت حقّها، ومُنعت إرثها، وكسرت جنبتها، وأسقطت جنينها، وهي تنادي: يا محمداه، فلا تجاب، وتستغيث فلا تغاث، فلا تزال بعدي محزونة مكروبة باكية، تتذكر انقطاع الوحي عن بيتها مرة، وتتذكر فراقي أخرى، وتستوحش إذا جنّها الليل لفقد صوتي الذي كانت تستمع إليه إذا تهجّدتُ بالقرآن، ثم ترى نفسها ذليلة بعد أن كانت في أيام أبيها عزيزة، فعند ذلك يؤنسها الله تعالى ذكره بالملائكة فنادتها بما نادت به مريم بنت عمران،

→

فتقول : يا فاطمة ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِساءِ الْعالَمِينَ﴾ يا فاطمة ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

ثم يبتدئ بها الوجع، فتمرض، فيبعث الله عز وجل إليها مريم بنت عمران تمرّضها وتؤنسها في علّتها، فتقول عند ذلك: يا ربّ، إني سئمت الحياة وتبرّمت بأهل الدنيا، فألحقني بأبي، فيلحقها الله عز وجل بي، فتكون أول من يلحقني من أهل بيتي، فتقدم عليّ محزونة مكروبة مغمومة مغصوبة مقتولة، فأقول عند ذلك: اللهم العن من ظلمها، وعاقب من غصبها، وذلّل من أذلها، وخلّد في نارك من ضرب جنبيها حتى ألقت ولدها، فتقول الملائكة عند ذلك: آمين.

وأما الحسن عليه السلام فإنه ابني وولدي ومنّي، وقرة عيني وضياء قلبي وثمرة فؤادي، وهو سيد شباب أهل الجنة، وحجة الله على الأمة، أمره أمري وقوله قولي، من تبعه فإنه منّي، ومن عصاه فليس مني، وإني لما نظرت إليه تذكرت ما يجري عليه من الذّل بعدي، فلا يزال الأمر به حتى يقتل بالسم ظلماً وعدواناً، فعند ذلك تبكي الملائكة والسبع الشداد لموته، ويبكيه كل شيء، حتى الطّير في جو السماء والحيتان في جوف الماء، فمن بكاه لم تَعْمَ عينه يوم تعمى العيون، ومن حزن عليه لم يحزن قلبه يوم تحزن القلوب، ومن زاره في بقيعه ثبتت قدمه على الصراط يوم تزل فيه الأقدام.

وأما الحسين عليه السلام فإنّه مني، وهو ابني وولدي، وخير الخلق بعد أخيه، وهو إمام المسلمين، ومولى المؤمنين، وخليفة رب العالمين، وغياث المستغيثين، وكهف المستجيرين، وحجّة الله على خلقه أجمعين، وهو سيد شباب أهل الجنة، وباب نجاة الأمة، أمره أمري، وطاعته طاعتي، من تبعه فإنه منّي، ومن عصاه فليس منّي، وإني لما رأيته تذكّرت ما يصنع به بعدي، كأني به وقد استجار بحرمي وقربي فلا يجار، فأضمه في منامي إلى صدري، وآمره بالرحلة عن دار هجرتي، وأبشره بالشهادة، فيرتحل عنها إلى أرض مقتله وموضع مصرعه، أرض كرب وبلاء وقتل وفناء، تنصره عصابة من المسلمين، أولئك من سادة شهداء أمتي يوم القيامة، كأني أنظر إليه وقد رمي بسهم فخرّ عن فرسه صريعاً، ثم يُذبح كما يذبح الكبش مظلوماً، ثم بكى رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى من حوله، وارتفعت أصواتُهم بالضّجيج، ثم قام صلى الله عليه وآله وهو

ولقد رحَلَ النبي ﷺ عن مسرح الحياة ولم يزل يشرف على هموم عترته من العالم الآخر، إذ تواتر نقل بكائه يوم عاشوراء على ولده عليه السلام، فأخرج ابن حنبل في مسنده بإسناد يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: رأيت النّبي ﷺ في ما يرى النّائم بنصف النّهار وهو قائم أشعث أغبر، بيده قارورة فيها دم.. فقلت: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، ما هذا؟ قال: هذا دم الحسين وأصحابه، لم أزل ألتقطه منذ اليوم.. فأحصينا ذلك اليوم فوجدوه قتل في ذلك اليوم(٥١).

وأخرج الترمذي في الجامع الصّحيح بإسناد إلى رزين، قال: حدّثتني سلمى قالت: دخلت عليّ أم سلمة وهي تبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قالت: رأيت

← يقول: اللهم إني أشكو إليك ما يلقى أهل بيتي بعدي، ثم دخل منزله.

(٥١) قد أخرج هذا الحديث عدة من الحفاظ كالطّبراني في المعجم الكبير، والبيهقي في دلائل النبوة، والحاكم النيسابوري في المستدرك، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والعراقي في طرح التثريب، وابن الأثير في أسد الغابة، والزرندي في نظم الدّرر.
كما وأخرجه الكنجي في الكفاية، ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى، وسبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص، والهيثمي في مجمع الزوائد، وابن حجر في الصواعق المحرقة، والسيوطي في الخصائص الكبرى، والقرماني في تاريخه، والشيخاني في الصراط السوي، والشّعراني في مختصر تذكرة القرطبي وقال:
قال الإمام القرطبي: وهذا سند صحيح لا مطعن فيه، قال ابن عباس: وساق القوم حرم رسول الله ﷺ في ذلك اليوم كما تساق الأسارى، حتى إذا بلغوهم إلى الكوفة خرج الناس وجعلوا ينظرون إليهم، وكان في الأسارى يومئذ علي بن الحسين رضي الله عنه وكان شديد المرض، قد جمعت يداه إلى عنقه، وزينب بنت علي من فاطمة الزهراء، وأختها أم كلثوم، وفاطمة وسكينة بنتا الحسين، وساق الفسقة معهم رؤوس القتلى. الخ.

رسول الله ﷺ - تعني في المنام - وعلى رأسه ولحيته التراب، فقلت: ما لك يا رسول الله ؟ قال: شهدت قتل الحسين آنفا[٥٢].

وأخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق مسنداً إلى علي بن زيد بن جدعان، قال: إستيقظ ابن عباس من نومه فاسترجع، وقال: قتل الحسين والله، فقال له أصحابه، كلاّ يا ابن عباس كلا ! قال: رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم، فقال: أ لا تعلم ما صنعت أمتي من بعدي ؟! قتلوا إبني الحسين، وهذا دمه ودم أصحابه، أرفعهما إلى الله عزّ وجل.

قال: فكتب ذلك اليوم الذي قال فيه، وتلك الساعة.. قال: فما لبثوا إلاّ أربعة وعشرين يوماً، حتى جاءهم الخبر بالمدينة أنه قتل في ذلك اليوم وتلك الساعة[٥٣].

---

(٥٢) رواه الترمذي في كتاب المناقب من صحيحه ح (٥) باب مناقب الحسن والحسين (١٣/ ١٩٣)، وروى مثله إبن عساكر في تاريخه، في ترجمة الإمام الحسين ص (٣٨٨) ح (٣٢٨)، ورواه الحاكم في آخر ترجمة أمّ سلمة من المستدرك (٤/ ١٩).

وأخرجه الحافظ الكنجي في الكفاية، وابن حنبل في المسند، والبيهقي في دلائل النبوة، وابن الأثير في جامع الأصول، ومحبّ الدّين الطّبري في ذخائر العقبى، والزّرندي في نظم الدّرر، والأرزنجاني في نزهة الأبرار، وابن طلحة الشافعي في مطالب السؤول، والسّيوطي في تاريخ الخلفاء والخصائص الكبرى، وابن حجر في الصواعق المحرقة، والشّيخاني في الصراط السّوي.

(٥٣) أخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق عند ترجمة الإمام الحسين عليه السلام ص (٣٨٧) ح (٣٢٧)، وقال السيد الشيخاني في الصراط السوي بعد روايته حديث أحمد المذكور: وفي رواية لأحمد: أن ابن عباس كان في قائلة له، فانتبه من قائلته وهو يسترجع، ففزع أهله، فقالوا: ما شأنك، ما لك ؟! قال: رأيت النبي ﷺ وهو يتناول من الأرض شيئاً، فقلت:

أعظم المصائب !!

مصيبةُ الإمام الحسين عليه السلام كارثة إنسانيّة بمختلف المقاييس، ومأساة بشريّة بكافّة الإعتبارات، فمن أيّ زاوية نظرت إليها عُدّت كذلك، ولهذا فإنّ أصداء المصيبة قد سبقتها كما أنّها قد توالت بقوّةٍ بعدها، وتزيدنا الأخبار الصّادقة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بُعداً آخر يزيد وقدة شعلتها، فهي تصف حال العوالم الأخرى وتأثير المصيبة عليها، ولم يكن ثمّة طريق للإشراف على تلك العوالم الغيبيّة إلاّ أخبار الصّادقين عليهم السلام، وسيأتي تفصيل ذلك بحول الله تعالى.

ومن الطبيعي أن تُستبق حادثة كحادثة الطّف بالأحزان من عهد طويل، فإنّها من أعظم المصائب، وبهذا نضع أيدينا على بُعدٍ جديد من أبعاد خلود الحزن الحسيني وبقائه على تصرّم الليالي والأيّام، وقد أورد المحدّثون جملة من روايات أهل البيت عليهم السلام التي يُفسّرون فيها سبب كون هذه المصيبة بالذّات هي أعظم المصائب، وسنحاول دراسة بعضها في هذه المقدّمة.

روى الشّيخ الصّدوق رحمه الله في علل الشرائع بإسناده إلى عبد الله بن الفضل أنّه سأل الإمام الصّادق عليه السلام: يا ابن رسول الله، كيف صار يوم عاشوراء يوم مصيبة وغم وجزع وبكاء دون اليوم الذي قُبض فيه رسول الله صلى الله عليه وآله والیوم الذي ماتت فيه فاطمة عليها السلام واليوم الذي قتل فيه أمير المؤمنين عليه السلام واليوم الذي قُتل فيه الحسن عليه السلام بالسّم؟

فقال عليه السلام: إن يوم قتل الحسين عليه السلام أعظم مصيبة من جميع سائر الأيام،

←

بأبي وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي تصنع؟! قال: دم الحسين، أرفعه إلى السماء.

وذلك أن أصحاب الكساء الذين كانوا أكرم الخلق على الله كانوا خمسة، فلمّا مضى عنهم النبيّ بقي أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فكان فيهم للناس عزاء وسلوة، فلمّا مضت فاطمة عليها السلام كان في أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام للناس عزاء وسلوة، فلمّا مضى منهم أمير المؤمنين كان للناس في الحسن والحسين عليهما السلام عزاء وسلوة، فلمّا مضى الحسن عليه السلام كان للناس في الحسين عزاء وسلوة.

فلما قُتل الحسين (صلى الله عليه) لم يكن بقي من أصحاب الكساء أحد للناس فيه بعده عزاء وسلوة، فكان ذهابه كذهاب جميعهم، كما كان بقاؤه كبقاء جميعهم، فلذلك صار يومه أعظم الأيام مصيبة.

فقلت له: يا ابن رسول الله، فلم لم يكن للناس في علي بن الحسين عليه السلام عزاء وسلوة مثل ما كان لهم في آبائه عليهم السلام؟

فقال: بلى، إن علي بن الحسين كان سيد العابدين وإماماً وحجّة على الخلق بعد آبائه الماضين، ولكنه لم يلقَ رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يسمع منه، وكان علمه وراثة عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله، وكان أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام قد شاهدهم الناس مع رسول الله صلى الله عليه وآله في أحوال تتوالى، فكانوا متى نظروا إلى أحد منهم تذكروا حاله من رسول الله صلى الله عليه وآله وقول رسول الله صلى الله عليه وآله له وفيه، فلمّا مضوا فقد الناس مشاهدة الأكرمين على الله عز وجل، ولم يكن في أحد منهم فقد جميعهم، إلاّ في فقد الحسين عليه السلام لأنّه مضى في آخرهم، فلذلك صار يومه أعظم الأيام مصيبة.

فقلت له: يا ابن رسول الله، فكيف سمت العامة يوم عاشوراء يوم بركة؟

فبكى عليه السلام ثم قال: لما قتل الحسين عليه السلام تقرّب الناس بالشام إلى يزيد فوضعوا له الأخبار وأخذوا عليها الجوائز من الأموال، فكان ممّا وضعوا له أمر هذا اليوم، وأنه يوم بركة، ليعدل الناس فيه من الجزع والبكاء والمصيبة والحزن إلى الفرح والسرور، والتبرك والاستعداد فيه، حكم الله بيننا وبينهم.

ثم قال عليه السلام: يا ابن عم، وإن ذلك لأقل ضرراً على الإسلام وأهله ممّا وضعه قوم انتحلوا مودّتنا وزعموا أنهم يدينون بموالاتنا ويقولون بإمامتنا زعموا أن الحسين عليه السلام لم يقتل وأنه شبه للناس أمره كعيسى بن مريم، فلا لائمة إذا على بني أمية ولا عتب على زعمهم يا ابن عم.

من زعم أن الحسين لم يقتل فقد كذب رسول الله وعليا وكذب من بعده من الأئمة عليهم السلام في إخبارهم بقتله، ومن كذبهم فهو كافر بالله العظيم، ودمه مباح لكل من سمع ذلك منه.

فقلت له: يا ابن رسول الله، فما تقول في قوم من شيعتك يقولون به ؟

فقال عليه السلام: ما هؤلاء من شيعتي، وأنا بريء منهم[٥٤].

ويثير أمامنا هذا النّصّ الخبري أمامنا عدّة نقاط:

أولاً: مرتكزات الشّيعة وموروثاتهم:

إنّ راوي الخبر - عبد الله بن الفضل الهاشمي الذي عدّه المحقّق الآية السيّد الخوئي رحمه الله في أصحاب الإمام الصّادق عليه السلام والذي خلُص في معجم رجاله إلى القول بتوثيقه واتحاده مع عبد الله بن الفضل النوفلي - قد لاحظ باعتبار

---

(٥٤) راجع بحار الأنوار (٤٤/ ٢٧٠) عن علل الشرايع.

قربه وملازمته للإمام عليه السلام مظاهر خاصّة دلّت على اعتبار الأئمة عليه السلام يوم عاشوراء يوم مصيبة وغم وجزع وبكاء دون سائر أيّام مصائبهم.

ولهذا فإنّنا نراه قد انطلق في سؤاله للإمام عليه السلام من هذه المرتكزات المسلّمة التي استطاع أهل البيت عليهم السلام تأصيلها في ذهنيّة أشياعهم وأتباعهم وأصحابهم، عن طريق أفعالهم وأقوالهم وتقريراتهم، وسيأتي بيان ذلك بحول الله تعالى.

حتّى عرف " عبد الله الهاشمي " مسلّماً أنّ يوم عاشوراء أعظم مصيبة عندهم من يوم قبض النبي صلى الله عليه وآله ويوم فقد فاطمة عليها السلام ويوم قتل أمير المؤمنين عليه السلام ويوم سمّ الحسن عليه السلام، وكان سؤاله عن سرّ أهميّة تلك المصيبة على سائر المصائب !!

ولا يزال هذا المرتكز المتوارث شاخصاً في الذهنيّة الشيعيّة، والكلّ مُجمع على أنّ مصيبة سيّد الشهداء عليه السلام أعظم مصائب أهل البيت عليهم السلام من غير تردّد، سواء علم النّاس أم جهلوا سرّ ذلك، ويسوقنا ذلك إلى نتيجة باهرة، وهي وثوق صلة الشّيعة بأئمتهم عليهم السلام، وتحدّر أحاسيسهم عن وجدان الأئمة عليهم السلام وميولهم، فهذه المرتكزات والموروثات من غرسهم عليهم السلام وتأسيسهم، وقد تعاهد الشيعة نقلها جيلاً بعد جيل.

إذا كان هذا هو حال عامّة شيعتهم فكيف يكون حال أصحابهم الملتصقين بهم المتلقّين عنهم، فإنّ مرتكزاتهم الذهنيّة كاشفة من غير شكّ عن أصل أسّسه الأئمة عليهم السلام، وبالتّالي إنّ سيَرهم مُلفتة للنظر، وخصوصاً في ما يتعلّق بمصيبة سيّد الشّهداء عليه السلام، وإن كانت أسماء بعضهم غير لامعة وشخصيّاتهم غير واضحة المعالم.

ومن هذا القبيل ما رواه ابن قولويه بإسناده إلى مسمع بن عبد الملك كردين

البصري في حديث طويل، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: أ فما تذكر ما صنع به - يعني بالحسين عليه السلام - ؟

قلت: نعم. قال: فتجزع؟ قلت: إي والله، وأستعبر لذلك، حتى يرى أهلي أثر ذلك عليّ، فأمتنع من الطعام، حتى يستبين ذلك في وجهي.

قال: رحم الله دمعتك، أما إنك من الذين يعدّون من أهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا ويخافون لخوفنا ويأمنون إذا أمنّا، أما إنك سترى عند موتك حضور آبائي لك ووصيّتهم ملك الموت بك، وما يلقونك به من البشارة أفضل، ولملك الموت أرق عليك وأشد رحمة لك من الأم الشفيقة على ولدها[٥٥].

فإنّ المرتكز عند راوي هذا الحديث هو عظم مصيبة الإمام الحسين عليه السلام والمغروس في وجدانه هو الحزن الشديد على مصيبته التي تصغر عندها جميع المصائب، وقد دلّت سيرته في بيته على ذلك، وهذا هو حال الأعم الأغلب من رواة الحديث وأصحاب الأئمة عليهم السلام.

ثانياً: خصوصيّة أصحاب الكساء:

إنّ أوّل ما نستفيده من فقه هذا الخبر هو تقرير الإمام عليه السلام ذلك المرتكز وتأكيده على أنّ يوم قتل الحسين عليه السلام أعظم مصيبة من سائر الأيام، ولا توازي مصيبته مصيبة من مصائبهم مهما جلّت وعظمت.

ثم شرَع عليه السلام في بيان علّة ذلك، فأكّد أن الخمسة أصحاب الكساء كانوا أكرم الخلق على الله تعالى، والإمام الحسين عليه السلام هو خامس الأطهار في قصّة

---

(٥٥) راجع كامل الزيارات ص (١٠١)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٨٩)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠).

الكساء، وقد حصرَهم النبيّ ﷺ تحت الكساء اليماني أُسوة بآية التّطهير التي حصرتهم في إرادة الجليل بتطهيرهم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ في حدَثٍ مُسلّم اتّفق عليه كافّة أهل القبلة من غير خلاف بينهم فيه، وهي فضيلة تَصْغُرُ عندها الفضائل، وكان يهدف الوحيُ إلى تبريزهم وإشهار خصوصيّتهم على الله سبحانه، فأنزل هذه الآية الشريفة لإثبات حجّيتهم، وقد شرحَهَا النبي ﷺ شرحاً عمليّاً بديعاً كما في الخبر المروي في العوالم.

وقد توهّم بعضٌ تعدّي شمولها إلى غير الخمسة أصحاب الكساء عليهم السلام كزوجات النبي ﷺ أو قرابته، بل واستدلّ بعضهم بالسّياق على أنها خاصة بزوجاته، حيث وردت بين آيات توجّه الخطاب لهنّ، وهو استدلال مردود.

فقد أجمعت الرّوايات التي ذكرت حادثة الكساء وسبب نزول آية التطهير على نزولها مستقلّة، وأنّها لم تنزل ضمن الآيات التي تخاطب زوجات النبي ﷺ، ووجودها بين تلك الآيات لا يثبت كونها فيهنّ، وقد اتّفق المسلمون على أن القرآن الكريم لم يجمع حسب النزول، فكم من آية مدنية وقعت بين آيات مكية، وكم تخلّلت جملة أجنبيّة ضمن خطاب متناسق في جهة أخرى، فتأمّل في قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾ ولاحظ جملة: "يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا" مستعرضة خلال خطاب عزيز مصر الموجّه لزوجته، ويتقرّر بذلك إمكان ورود آية التّطهير أجنبيّة عن السّياق التي تخلّلته.

والقول باختصاص آية التطهير بالزوجات اجتهاد في مقابل النّص الصحيح الصّريح، فقد نصّ الرسول ﷺ على أنّ المراد بأهل البيت في آية التطهير الخمسة أصحاب الكساء فقط، كما أنّه لاشك في اختصاصها بالخمسة أصحاب الكساء عليهم السلام دون غيرهم، والأحاديث الواردة من طرق أهل السنة تثبت هذه الحقيقة.

فقد أخرج الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين بسنده عن واثلة بن الأسقع قال: جئت أريد علياً رضي الله عنه فلم أجده، فقالت فاطمة رضي الله عنها: انطلق إلى رسول الله ﷺ يدعوه فاجلس، فجاء مع رسول الله ﷺ فدخل ودخلت معهما، قال: فدعا رسول الله ﷺ حسناً وحسيناً فأجلس كل واحد منهما على فخذه، وأدنى فاطمة من حجره وزوجها، ثم لفّ عليهم ثوبه، وأنا شاهد، فقال: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ اللهم هؤلاء أهل بيتي[٥٦].

وأخرج أيضا بسنده عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه نفس الحديث بزيادة: هؤلاء أهل بيتي اللهم أهل بيتي أحق[٥٧].

وأخرج الترمذي في صحيحه بسنده عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ في بيت أم سلمة، فدعا فاطمة وحسنا وحسينا فجلّلهم

---

(٥٦) راجع المستدرك على الصحيحين (٢/٤٥١)، ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٥٧) راجع المستدرك على الصحيحين (٣/١٥٩)، ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، قال الذّهبي في التلخيص: على شرط مسلم.

بكساء وعلي خلف ظهره، فجلّلهم بكساء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال أنت على مكانك، وأنت على خير(٥٨).

وروى الطبري في تفسيره بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي، فأخذ عليّاً وابنيه وفاطمة، وأدخلهم تحت ثوبه ثم قال: ربّ هؤلاء أهلي وأهل بيتي(٥٩).

---

(٥٨) راجع صحيح الترمذي (٥/٣٥١)، وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة. وقد صحّحه الشيخ الألباني.

(٥٩) راجع تفسير الطبري (١٠/٢٩٨).والأحاديث المرويّة في كتب أهل السنّة والجماعة في حديث الكساء كثيرة جدّاً، وألفاظها متفاوتة، إلاّ أنّ مؤدّاها واحد، ولابدّ من عرض بعضها تحقيقاً للتأكيد.

فقد أخرج النسائي في السنن الكبرى (٥/١١٢) بسند صحيح عن عمرو بن ميمون قال: إني لجالس إلى ابن عباس إذ أتاه تسعة رهط فقالوا: إما أن تقوم معنا وإما أن تخلو بنا، وهو يومئذ صحيح قبل أن يعمى، قال: أنا أقوم معكم، فتحدّثوا فلا أدري ما قالوا، فجاء هو ينفض ثوبه وهو يقول: أفّ وتفّ، يقعون في رجل له عَشر، وقعوا في رجل قال رسول الله ﷺ: لأبعثن رجلاً يحب الله ورسوله، لا يخزيه الله أبداً، فأشرف من استشرف، فقال: أين علي؟ وهو في الرحا يطحن وما كان أحدكم يطحن، فدعاه وهو أرمد ما يكاد أن يبصر، فنفث في عينيه ثم هزّ الراية ثلاثاً فدفعها إليه، فجاء بصفية بنت حيي، وبعث أبا بكر بسورة التوبة، وبعث علياً خلفه فأخذها منه فقال: لا يذهب بها إلاّ رجل مني وأنا منه، ودعا رسول الله ﷺ الحسن والحسين وعليّاً وفاطمة ومدّ عليهم ثوباً فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرّجس وطهرهم تطهيراً، وكان أوّل من أسلم من الناس بعد خديجة، ولبس ثوب رسول الله ﷺ ونام فجعل المشركون يرمون كما يرمون رسول الله ﷺ وهم يحسبون أنه نبي

الله، فجاء أبو بكر فقال: يا نبي الله، فقال علي: إن نبي الله ﷺ قد ذهب إلى نحو بئر ميمون فاتبعه، فدخل معه الغار، وكان المشركون يرمون عليّاً حتى أصبح.

وخرج بالناس في غزوة تبوك، فقال علي: أخرج معك؟ فقال: لا، فبكى، قال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنك لست بنبي، ثم قال: أنت خليفتي، يعني في كل مؤمن من بعدي، قال: وسدّ أبواب المسجد غير باب علي، فكان يدخل المسجد وهو جنب وهو في طريقه ليس له طريق غيره، وقال: من كنت وليه فعلي وليه.

وأخرج النسائي في خصائص الإمام علي عليه السلام ص (٣٢) بسند صحيح عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر سعداً معاوية، فقال: ما يمنعك أن تسبّ أبا تراب؟ فقال: أنا ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله ﷺ فلن أسبّه، لئن يكون لي واحدة منها أحب إلي من حمر النعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول له وخلّفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله أتخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبوّة بعدي؟ وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فتطاولنا إليهما، فقال: ادعوا لي عليّاً فأتي به أرمد فبصق في عينه ودفع الراية إليه. ولمّا نزلت: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ دعا رسول الله ﷺ عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي.

وأخرج أيضاً في خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ص (٧٠) بسند صحيح عن عامر بن سعد بن أبي وقاص مثله وفيه: ذكرت حين نزل عليه الوحي فأخذ علياً وابنيه وفاطمة، فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال: ربّ هؤلاء أهل بيتي وأهلي.

وأخرج الترمذي في صحيحه (٥/٦٩٩) بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ جلّل الحسن والحسين وعلي وفاطمة كساءً، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي، أذهب عنهم الرّجس وطهرهم تطهيراً، فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: إنك إلى خير.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب، وفي الباب عن عمر ابن أبي سلمة وأنس بن مالك وأبي الحمراء ومعقل بن يسار وعائشة.

وقد صرّح جمع من علماء أهل السّنة باختصاص آية التطهير بأصحاب

→

وأخرج الحاكم في المستدرك (١٤٨/٣) عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال: لّما نظر رسول الله ﷺ إلى الرّحمة هابطة قال: ادعوا لي، فقالت صفيّة: من يا رسول الله؟ قال: أهل بيتي، عليّاً وفاطمة والحسن والحسين، فجيء بهم، فألقى عليهم النبي ﷺ كساءه، ثم رفع يديه ثم قال: اللهم هؤلاء آلي، فصلّ على محمّد وآل محمّد، وأنزل الله عزّ وجل: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأخرج أيضا في المستدرك (٤١٦/٢) عن عطاء بن يسار عن أم سلمة رضي الله عنها أنّه قالت: في بيتي نزلت هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، قالت أم سلمة: يا رسول الله، أنا من أهل البيت؟ قال: إنّك إلى خير، وهؤلاء أهل بيتي، اللهم أهلي أحق. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين وأقرّه الذهبي في تلخيصه.

وفي تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٨٣٤٨٤/٣) عن الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن شداد بن عمّار قال: دخلت على واثلة بن الأسقع رضي الله عنه وعنده قوم فذكروا عليّاً رضي الله عنه فشتموه فشتمته معهم، فلمّا قاموا قال لي: شتمت هذا الرجل؟ قلت: قد شتموه فشتمته معهم، فقال: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: أتيت فاطمة رضي الله عنها أسألها عن علي رضي الله عنه فقالت: توجه إلى رسول الله ﷺ فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين رضي الله عنهما آخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل فأدنى عليّاً وفاطمة رضي الله عنهما وأجلسهما بين يديه وأجلس حسناً وحسيناً (رضي الله عنهما) كل واحد منهما على فخذه ثم لفّ عليهم ثوبه أو قال كساءه ثم تلى ﷺ هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق.

الكساء دون غيرهم، ومنهم الفقيه الحنفي العلامة أبو المحاسن يوسف بن موسى الحنفي، في كتابه معتصر المختصر، فقد أورد بعض الأحاديث ثم قال: وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ استئنافٌ تشريفاً لأهل البيت وترفيعاً لمقدارهم، ألا ترى أنه جاء خطاب المذكر فقال عنكم ولم يقل عنكن، فلا حجة لأحد في إدخال الأزواج في هذه الآية، يدل عليه ما روي أن رسول الله ﷺ كان إذا أصبح أتى باب فاطمة فقال السلام عليكم أهل البيت ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[٦٠].

وقال الإمام الطحاوي في مشكل الآثار (باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ): في المراد بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ من هم؟

فروى مسنداً عن عامر بن سعد عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً عليهم السلام وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي. فكان في هذا الحديث أنّ المراد بما في هذه الآية هم: رسول الله وعلي وفاطمة وحسن وحسين.

وروى مسنداً عن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية في رسول الله وعلي وفاطمة وحسن وحسين عليهم السلام: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾. ففي هذا الحديث الذي في الأوّل.

---

(٦٠) راجع معتصر المختصر (٢/٢٦٦٢٦٧).

وروى أحاديث بأسانيد عدّة عن أم سلمة رضي الله عنها ثم قال: فدّل ما روينا من هذه الآثار مما كان من رسول الله إلى أم سلمة، ممّا ذكرنا فيها لم يرد به أنّها كانت ممّا أريد في الآية المتلوة في هذا الباب، وأنّ المراد بما فيها هم رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين دون من سواهم.

واستدل لذلك بما يقرب من استدلال أبو المحاسن السّابق، ثمّ قال:

وقال العلامة سيدي محمد حبسوس في شرح الشمائل: ثم جاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معهم ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ وفي ذلك إشارة إلى أنّهم المراد بأهل البيت في الآية(٦١).

وقال العلامة أبو بكر الحضرمي في رشفة الصادي:

والذي قال به الجماهير من العلماء وقطع به أكابر الأئمة وقامت به البراهين وتظافرت به الأدلة أن أهل البيت المرادين في الآية هم سيّدنا علي وفاطمة وابناهما، وما تخصيصهم بذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ عن أمر إلهي ووحي سماوي.

وقال: والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وبما أوردته منها يعلم قطعاً أن المراد بأهل البيت في الآية هم علي وفاطمة وابناهما رضي الله عنهم ولا التفات إلى ما ذكره صاحب روح البيان من أن تخصيص الخمسة المذكورين عليهم السلام بكونهم أهل البيت من أقوال الشيعة، لأنّ ذلك محض تهوّر يقتضي بالعجب، وبما سبق من الأحاديث وما في كتب أهل السنة السنية يسفر الصبح لذي عينين(٦٢).

---

(٦١) راجع لوامع أنوار الكوكب الدّري (٢/٨٦).

(٦٢) راجع رشفة الصادي من بحر فضائل بني النبي الهادي ص (١٣١٤) الباب الأول.

وبه قال السّمهودي في جوهر العقدين والشّوكاني في إرشاد الفحول، وغيرهما ممّا لا يبقي مجالاً حتّى لاحتمال دخول الزّوجات في مفهوم أهل البيت عليهم السلام حسب دلالة الآية الكريمة، فضلاً عن إدخال كلّ من ينتسب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والنّصوص الصّريحة كما ترى تأبى ذلك، وتقتصر دلالاتها على أصحاب الكساء عليهم السلام ولو كان يمكن دخولهنّ لما كان لمنعه صلى الله عليه وآله وسلم أم سلمة من الدّخول وجهٌ أصلاً.. هذا.. ولم تدّعِ واحدة منهنّ دخولهنّ في مفهوم آية التّطهير، بل الرّواية عنهنّ بعكس ذلك، وعليه فإنّ الآية الكريمة نازلة في خصوص الخمسة أصحاب الكساء عليهم السلام.

والحاصل أنّ خبر الكساء مجموعاً إلى مدلول آية التّطهير منقبة جليلة وفضيلة عظيمة تتضاءل عندها المناقب والفضائل، خصوصاً إذا ما لاحظنا الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بطرق شيعتهم فإنّها أخصّ دلالة على ذلك، ويظهر منها للخمسة النّجباء عليهم السلام مقامٌ شامخٌ، لا يلحقهم فيه ملكٌ مقرّب ولا نبيّ مرسل، ولا يحتمل فضلهم إلاّ من شرح الله تعالى صدره لقبول أمرهم.

ورَوَى القمّي في تفسير الآية عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: نزلت في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وذلك في بيت أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ثم ألبسهم كساءً له خيبريّاً ودخل معهم فيه.

ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي الذين وعدتني فيهم ما وعدتني، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فنزلت هذه الآية.

فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟

قال: أبشري يا أم سلمة، فإنك إلى خير.

قال أبو الجارود وقال زيد بن علي بن الحسين: إن جهّالا من الناس يزعمون أنها أراد الله بهذه الآية أزواج النبي ﷺ وقد كذبوا وأثموا، وأيم الله لو عنى بها أزواج النبي ﷺ لقال: ليذهب عنكن الرجس ويطهركن تطهيراً، ولكان الكلام مؤنّثاً كما قال: ﴿**وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ ولَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ**﴾[٦٣].

ورَوَى الشيخ الطوسي في الأمالي بإسناد إلي دعبل عن الرضا عن آبائه عن علي بن الحسين عليه السلام عن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي وفي يومي، وكان رسول الله ﷺ عندي، فدعا عليّا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجاء جبرئيل فمدّ عليهم كساء فدكيّاً، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

قال جبرئيل: وأنا منكم يا محمّد؟ فقال النبي ﷺ: وأنت منا يا جبرئيل.

قالت أم سلمة: فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ وجئت لأدخل معهم، فقال: كوني مكانك يا أم سلمة، إنك إلى خير، أنت من أزواج نبي الله، فقال جبرئيل: إقرأ يا محمد ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ في النبيّ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام[٦٤].

والذي يظهر بعد النظر في الحادثة المرتبطة بالكساء هو أنّها متكرّرة بحسب

---

(٦٣) راجع بحار الأنوار (٢٠٧/٣٥).

(٦٤) راجع بحار الأنوار (٢٠٧/٣٥).

الواقع، وهذه الرّوايات ليست حاكية عن موقف واحد بالضّرورة، ولا مانع من تعدّد الأحداث المرتبطة بالكساء، وقد استخدم رسول الله ﷺ أداة الحصر الحسيّة هذه في أكثر من موقف وموطن، ودلّل على فضلهم بالتّحديد في موارد متعدّدة، بل ونترقّى بعد التتبّع إلى القول بأنّه قد استخدم الحصر بالكساء في غير مناسبة آية التطهير أيضاً، فقد دلّت نصوص على تجسيده الأسلوب نفسه يوم المباهلة، مدلّلاً على حصر مضمون آياتها بالخمسة الأطهار عليهم السلام دون غيرهم.

وسنورد باختصار ما رواه السيد ابن طاووس في سعد السعود بإسناد إلى المنكدر أنّ السيّد والعاقب أسقفا نجران وفدا في سبعين راكب إلى النبي ﷺ وجلسوا إليه وناظروه، حتّى تغشى النبي ﷺ الوحي ونزل عليه: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ**﴾ فتلى عليهم القرآن، وقال لهم ﷺ: إن الله قد أمرني بمباهلتكم. فقالوا: إذا كان غداً باهلناك. فقال القوم بعضهم لبعض: حتى ننظر بمن يباهلنا غداً، بكثرة أتباعه من أوباش الناس، أم بأهله من أهل الصفوة والطهارة، فإنهم وشيج الأنبياء وموضع بهلهم؟

فلمّا كان من غد غدا رسول الله ﷺ بيمينه علي وبيساره الحسن والحسين ومن ورائهم فاطمة عليها السلام، عليهم الحلل النجرانية، وعلى كتف رسول الله ﷺ كساء قطواني رقيق خشن ليس بكثيف ولا ليّن، فأمر بشجرتين فكسح ما بينهما، ونشر الكساء عليهما وأدخلهم تحت الكساء، وأدخل منكبه الأيسر معهم تحت الكساء، معتمداً على قوسه النّبع، ورفع يده اليمنى إلى السماء للمباهلة،

وأشرف الناس ينظرون !!

واصفر لونُ السيد والعاقب وزلزلا حتى كاد أن يطيش عقولهما، فقال أحدهما: أ نباهله ؟ قال: ما باهل قومٌ قطّ نبيّاً فنشأ صغيرهم وبقي كبيرهم، ولكن أره أنك غير مكترث وأعطه من المال والسّلاح ما أراد فإن الرجل محارب، وقل له: أ بهؤلاء تباهلنا، لئلاّ يرى أنه قد تقدّمت معرفتنا بفضله وفضل أهل بيته، فلما رفع النبي ﷺ يده إلى السّماء للمباهلة قال أحدهما لصاحبه: أي رهبانيّة، دارك الرجل فإنه إن فاه ببهلة لم نرجع إلى أهل ولا مال !!

فقالا: يا أبا القاسم، أ بهؤلاء تباهلنا ؟

قال: نعم، هؤلاء أوجه من على وجه الأرض بعدي إلى الله وجهة، وأقربهم إليه وسيلة.. قال: فبصبصا، يعني ارتعدا وكرّا، وقالا له: يا أبا القاسم، نعطيك ألف سيف وألف درع وألف حجفة وألف دينار كل عام على أن الدّرع والسيف والحجف عندك إعارة، حتى نأتي من ورائنا من قومنا فنعلمهم بالذي رأينا وشاهدنا فيكون الأمر على ملأ منهم، فإما الإسلام وإما الجزية وإما المقاطعة في كل عام.

فقال النبي ﷺ: قد قبلت منكما، أما والذي بعثني بالكرامة لو باهلتموني بمن تحت الكساء لأضرم الله عليكم الوادي ناراً تأجّج، ثم ساقها إلى من وراءكم في أسرع من طرف العين فحرقتهم تأجّجاً، فهبط عليه جبرئيل الروح الأمين فقال: يا محمّد، إن الله يقرئك السّلام ويقول لك: وعزتي وجلالي، لو باهلت بمن تحت الكساء أهل السّماء وأهل الأرض لتساقطت عليهم السّماء كسَفاً متهافتة ولتقطعت الأرضون زبراً سائحة فلم يستقر عليها بعد ذلك، فرفع النبي ﷺ يديه

حتى رئي بياض إبطيه ثم قال: على من ظلمكم حقّكم وبخسني الأجر الذي افترضه الله عليهم فيكم بهلة الله تتابع إلى يوم القيامة[٦٥].

فتأمّل في منزلة الواحد من هؤلاء الخمسة الأطهار عليهم السلام عند الله تعالى وعظيم كرامته، والأخبار ناطقة مصرّحة بعلوّ مقامهم، لتعلم أنّ مزاياهم فوق مزايا البشر، وتخطر ببالي رواية تناسب المقام قد سمعتها من بعض الكُمّل ولم أعثر عليها في مصدر معتبر، ومؤدّاها أنّ الله سبحانه لمّا أنزل قوله:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا. لِلْطَّاغِينَ مَآبًا. لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا. لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا. إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا. جَزَاءً وِفَاقًا. إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا. وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾.

عزّ على النبي صلى الله عليه وآله ذلك، وعظم عليه عذاب أمّته، فسأل جبرئيل عن مستحقّي هذا العذاب الأليم، فأطرق جبرئيل خجلاً منه، وقال: إنّهم من أمّتك!

فأخرج النبي صلى الله عليه وآله أصحاب الكساء عليهم السلام إلى البقيع حتى يدعوا لأمّته، وجثى الخمسة الطّاهرون على الرّكب، وكشف النبي صلى الله عليه وآله رأسه قائلاً: إلهي أمّتي، وشيعة أخي، فنزلت الرّحمة من السّماء السّابعة إلى السّادسة، وكشف عليّ عليه السلام رأسه قائلاً: إلهي أمّة أخي، وشيعتي، فنزلت الرّحمة من السّماء السّادسة إلى الخامسة، وكشفت الزّهراء عليها السلام مقنعتها قائلة: إلهي أمّة أبي، وشيعة ابن عمّي، فنزلت الرّحمة من السّماء الخامسة إلى الرّابعة، وكشف الحسن عليه السلام رأسه قائلاً: إلهي أمّة جدّي، شيعة أبي، فنزلت الرّحمة من السّماء الرّابعة إلى الثّالثة.

---

(٦٥) راجع بحار الأنوار (٢١/٣٥٢).

ولمّا همّ الحسين عليه السلام كشف رأسه هبط الأمين جبرئيل على النبيّ صلى الله عليه وآله قائلاً : لقد نزلت الرّحمة إلى سماء الدّنيا ، والحسين لا يكشف عن رأسه !!

ويمكننا أن نقول هنا أنّ للإمام الحسين عليه السلام خصوصيّة على سائر الخمسة الطاهرين عليهم السلام من حيث المصيبة ، فمصيبته حاضرة في عالم الغيب ويعرفها أهل السّماء أكثر من أهل الأرض ، وكشفُ رأسه يصوّر مأساته المقبلة في يوم عاشوراء ، والتي أثّرت على الكون والملائكة وما يُرى وما لا يُرى ، ومعلومٌ أنّ كشف رأسه الشريف هو المشهد المفجع الأخير قبل شخوص الشّمر بن ذي الجوشن إلى مصرعه !!

فإنّ الملائكة التي شهدته صغيراً تحتَ الكساء اليماني ، هي التي شهدته مسلوب اللباس على بوغاء كربلاء.. والملائكة التي شهدت رأسه في حجر جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله شهدت رأسه فوق عالي القناة والرّيح تلاعب شيبته.. والتي شهدته مُعتمّاً تحت الكساء شهدته مكشوفَ الرّأس وقد تفجّر جبينُه دماً من ضربة حجر أبي الحتوف الجُعفي !!

وقد ساوى عظيمُ فضله عليه السلام عظيمَ مصيبته ، ولاح حديث الكساء في ذهنيّة المقرّبين عند مقتله ، وذكروه عند ورود خبر مصرعه ، فهي مصيبة خامس أصحاب الكساء عليهم السلام وهو العزاء والسّلوة للخلق ، فكيف يُقتل بهذه الطّريقة من يكون هذا فضله وشرفه ومنزلته ، وكيف تُجْحِفُ الإنسانيّة في فردها الأكمل ونسختها المفردة التي لن تتكرّر !!

وقد روى السيّد ابن طاووس في الطرائف بإسناده إلى سهل أنّ أم سلمة

زوجة النبي ﷺ حين جاء نعي الحسين لعنت أهل العراق، وقالت: قتلوه قتلهم الله، غرّوه وأذلّوه لعنهم الله، فإني رأيت رسول الله ﷺ وقد جاءته فاطمة غداة ببرمة قد صنعت فيها عصيدة تحملها في طبق حتى وضعتها بين يديه، فقال لها: أين ابن عمك؟

قالت: هو في البيت، قال: اذهبي فادعيه فأتيني بابنيه، وجاءت تقود ابنيها كل واحد منهما بيد، وعلي يمشي في أثرها، حتى دخلوا على رسول الله ﷺ فأجلسهما في حجره وجلس علي عن يمينه وجلست فاطمة عن يساره.

قالت أم سلمة: فاجتذب من تحتي كساء خيبريّاً كان بساطاً لنا على المثابة في المدينة، فلفّه رسول الله ﷺ وأخذ بطرفي الكساء، وألوى بيده اليمنى إلى ربه عز وجل، وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، قلت: يا رسول الله، أ لست من أهلك؟

قال: بلى.. فأدخلني في الكساء بعد ما قضى دعاؤه لابن عمه علي وابنته فاطمة وابنيها عليهم السلام[٦٦].

فكان أصحاب الكساء عليهم السلام عصمة الخلق عند الشدائد، وكانوا العزاء والسلوة للنّاس، ولمّا مضى النبيّ ﷺ بقي علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فكانوا العزاء والسّلوة للنّاس، ولمّا مضَت فاطمة عليها السلام كان في علي والحسن والحسين عليهم السلام العزاء والسّلوة للنّاس، ولمّا مضى علي عليه السلام كان في الحسن والحسين عليهما السلام العزاء والسّلوة للنّاس، ولمّا مضى الحسن عليه السلام كان في الحسين العزاء والسّلوة للنّاس،

---

(٦٦) راجع بحار الأنوار (٣٥/٢٢٢).

وبقتل الحسين عليه السلام لم يبق من أصحاب الكساء أحد فيه عزاء وسلوة للنّاس، وكان ذهابه كذهاب الجميع، فصار يومه أعظم الأيام مصيبة.

ثالثاً: خصوصيّة التلقّي المباشر من النبي صلى الله عليه وآله:

ثم شرع الإمام عليه السلام في بيان فضيلة أخرى اختصّ بها الإمام الحسين عليه السلام على الأئمة من ولده عليه السلام كانت وراء تعظيم مصيبته، وهي اختصاصه بلقاء النبي صلى الله عليه وآله والتلقّي عنه والأخذ منه، فإنّها فضيلة في حدّ ذاتها توجب له مقاماً خاصّاً يميّزه على الحجج من بنيه عليهم السلام !!

وطبيعيّ أن يطرق ذهن القارىء الكريم هذا التّساؤل - الذي طرق ذهن الرّاوي أيضاً - عند تعليل عظم مصيبته بكونه خامس أصحاب الكساء عليهم السلام، فلماذا لم يكن الإمام علي بن الحسين عليه السلام العزاء والسّلوة للنّاس كما كان أبوه وعمّه وأمّه وجدّاه عليهم السلام ؟

فإنّنا نقول محاكاةً لجواب الإمام عليه السلام محاولين فقه كلامه الشّريف: أنّ الإمام السجّاد عليه السلام هو الإمام والحجّة بعد آبائه عليهم السلام، إلاّ أنّ آباءه يَفْضُلونَه وأبناءه عليهم السلام بكونهم قد لقوا النبي صلى الله عليه وآله وسمعوا منه ولم يكن له ذلك، ومع أنّ ذلك لا يضرّ بعلمه وفضله وشرف محلّه، إلاّ أنّ ذلك خصوصيّة لآبائه عليهم السلام.

وقد شاهد النّاس قربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وتوالت الآيات في شأنهم خصوصاً، وعزّزت الآيات مقامهم وخاصيّتهم لديه صلى الله عليه وآله، وهذه أحاديث فضائلهم ومناقبهم وأحوالهم قد جاوزت أحاديث العبادات، فهم الأصل لمن يأتي بعدهم من الحجج، والأئمة لمن يتلوهم، وهم الواسطة في العلم، وقد سمعوا رنّة الوحي ونزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله بمحضرهم، وعاصروا الوحي بأسباب

نزوله، وقد شهد النّاس ذلك، ولهم خصوصيّة السّبق والمباشرة عنه صلى الله عليه وآله.

وإذا أردنا أن نؤكّد هذا المطلب فإنّ لأمير المؤمنين عليه السلام كلام قد يكون كاشفاً عن فضيلة أصحاب الكساء عليهم السلام خاصّة، على أنّنا نقرّ بكونه عليه السلام أفضل الخلق بعد النبي صلى الله عليه وآله، فهو يقول: أنا الإمام لمن بعدي، والمؤدّي عمّن كان قبلي، ولا يتقدّمني أحدٌ إلاّ أحمد صلى الله عليه وآله، وإني وإيّاه لعلى سبيل واحد، إلاّ أنه هو المدعو باسمه(٦٧).

ومكمن علومه وعلومهم عليهم السلام القرآن الكريم، فقد اختصّ كما اختصّوا بالتلقّي المباشر منه صلى الله عليه وآله، وفاقوا النّاس في سبر أغوار القرآن وفقه أسراره ومعانيه، وقد روي في الخصال بالإسناد إلى سليم بن قيس الهلالي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: وكنت إذا سألته أجابني، وإذا سكتّ عنه وفنيَت مسائلي ابتدأني، فما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله آية من القرآن إلاّ أقرأنيها وأملاها عليّ، فكتبتُها بخطي وعلّمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها، ودعا الله لي أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعاه.

وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي، كان أو يكون، ولا كتاب منزل على أحد قبله في أمر بطاعة أو نهي عن معصية إلاّ علّمنيه وحفّظنيه، فلم أنس حرفاً واحداً، ثم وضع صلى الله عليه وآله يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً، فقلت: يا نبي الله بأبي أنت وأمي إني منذ دعوت الله عزّ وجل لي بما دعوت لم أنس شيئاً، ولم يفتني شيء لم أكتبه،

---

(٦٧) بحار الأنوار (٢٥/٣٥٤) عن البصائر.

أَفَتتخوّف عليّ النسيان فيما بعد، فقال: لا، لست أخاف عليك النسيان، ولا الجهل(٦٨).

ورُوي في مصادر كثيرة قوله عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله علّمني ألف باب من الحلال والحرام وممّا كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، كل باب منها يفتح ألف ألف باب، حتى عُلّمتُ علم المنايا والبلايا وفصلَ الخطاب(٦٩).

وكما أنّ النّاس يعرفون هذه الصّلة المباشرة من أصحاب الكساء عليهم السلام بالنبي صلى الله عليه وآله ومعين الوحي، فإنّهم يشهدون أنّ الأئمة من ولد الحسين عليه السلام يروون حديث النبي صلى الله عليه وآله بواسطة أصحاب الكساء عليهم السلام، كما في الخبر المتواتر المشهور المروي في عيون أخبار الرضا عليه السلام المعروف بحديث سلسلة الذّهب، وفيه: لّما وافى أبو الحسن الرضا عليه السلام نيسابور وأراد أن يخرج منها إلى المأمون اجتمع عليه أصحاب الحديث فقالوا له: يا ابن رسول الله، ترحل عنا ولا تحدّثنا بحديث فنستفيده منك، وكان قد قعد في العمارية، فأطلع رأسه وقال: سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول: سمعت أبي علي بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن علي بن أبي طالب يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: سمعت جبرئيل يقول: سمعت الله جل جلاله يقول: لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن عذابي، قال: فلمّا مرت

---

(٦٨) راجع بحار الأنوار (٢/ ٢٣٠).

(٦٩) راجع بحار الأنوار (٢٢/ ٤٦١).

الراحلة نادانا: بشروطها وأنا من شروطها[٧٠].

وكذا الحال في سائر أخبارهم المرويّة عن رسول الله ﷺ، وإذا رووا عنه ﷺ مباشرة فإنّهم يعنون هذا الإسناد الشّريف الذي إذا تلي على الصّم والبكم والعمي لبرؤوا بإذن الله تعالى، وربّما روى أحدهم الخبر بغير هذا الإسناد أيضاً لغرضٍ في نفسه، ونجد في الكتب رواية الإمام أبي جعفر عليه السلام الخبر عن بعض صحابة النبي ﷺ الذين عاصرهم، كما في رواية الإختصاص بالإسناد إلى محمّد بن مسلم أنّ أبا جعفر الباقر عليه السلام قال: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: سألت رسول الله ﷺ عن سلمان الفارسي فقال ﷺ: سلمان بحر العلم لا يقدر على نزحه، سلمان مخصوص بالعلم الأول والآخر، أبغض الله من أبغض سلمان، وأحب من أحبه. إلى آخر الخبر[٧١].

وإن سلّمنا أنّه عليه السلام إنّما كان مستغنياً عن هذا السند بواسطته المعهودة بالنّقل إلاّ أنّه ربّما كان يرمي إلى غرض معيّن حين يروي عن جابر رضي الله عنه وأمثاله، كما أنّه عليه السلام يستغني بعلمه الخاص عن أيّ إسناد أصلاً، إلاّ أنّه ليس كلّ النّاس يفقهون ذلك، فيضطر إلى تتويج حديثه بهذا الإسناد لحاجة في نفسه، وبالتّالي فإنّه يتفوّق أصحاب الكساء عليهم السلام على سائر الحجج عليهم السلام بالتلقّي المباشر عن النبي ﷺ ومعاصرة الوحي والتنزيل بشهادة النّاس جميعاً، وقد درج الحسنان عليهما السلام وترعرعا في أحضان جدّهما ﷺ وعاصرا الوحي بكلّ تفاصيله.

وروى أبو السعادات في الفضائل أن الحسن بن علي عليه السلام كان يحضر مجلس

---

(٧٠) راجع بحار الأنوار (٧/٣).

(٧١) بحار الأنوار (٣٤٨/٢٢).

رسول الله ﷺ وهو ابن سبع سنين فيسمع الوحي فيحفظه فيأتي أمّه فيلقي إليها ما حفظه، فلما دخل علي عليه السلام وجد عندها علماً فيسألها عن ذلك، فقالت: من ولدك الحسن، فتخفّى يوماً في الدار وقد دخل الحسن، وقد سمع الوحي فأراد أن يلقيه إليها، فارتُجّ عليه، فعجبت أمّه من ذلك، فقال: لا تعجبين يا أمّاه، فإن كبيراً يسمعني واستماعه قد أوقفني، فخرج علي فقبّله.

وفي رواية: يا أماه، قلّ بياني، وكلّ لساني، لعلّ سيداً يرعاني[٧٢].

وأؤكّد هنا أنّ للأئمة عليهم السلام من ولد الحسين عليه السلام علم مستقل، وقد دلّت الأخبار الصّحيحة على أنّ علمهم غابر ومزبور ونقر في القلوب ونكت في الأسماع، وأنّهم مُلهمون محدّثون ومطّلعون على الغيب إلاّ أنّ أصحاب الكساء عليهم السلام يَفْضُلُونَهُم، فهم الأصل والواسطة لمن بعدهم، وقد شهد النّاس قربهم ومنزلتهم من النبي ﷺ واختصاصهم بالقرآن والتنزيل.

ولا يُتَوهّم أنّ هذه الخصوصيّة مطّردة في كلّ من باشر الأخذ عن النبي ﷺ أو أنّها سيّالة على سائر الصّحابة، فإنّ أصحاب الكساء عليهم السلام حجج الله تعالى ولا يُقاس بهم أحد، وقد دلّت النّصوص المتقدّمة على ذلك، وقد بيّنّا ما يتكفّل بدفع هذا التوهّم بأقل تأمّل ممّا يغني عن الإطالة.

ولذلك فقد أتى كلام الإمام عليه السلام مؤكّداً هذا المبدأ، فهو يقول: " إن علي بن الحسين كان سيّد العابدين وإماماً وحجّة على الخلق بعد آبائه الماضين، ولكنه لم يلقَ رسول الله ﷺ ولم يسمع منه، وكان علمه وراثة عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ، وكان أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام قد شاهدهم الناس مع

---

(٧٢) راجع المناقب (٤/٨)، بحار الأنوار (٣٣٨/٤٣).

رسول الله ﷺ في أحوال تتوالى، فكانوا متى نظروا إلى أحد منهم تذكروا حاله من رسول الله ﷺ وقول رسول الله ﷺ له وفيه، فلمّا مضوا فقد الناس مشاهدة الأكرمين على الله عز وجل، ولم يكن في أحد منهم فقد جميعهم، إلاّ في فقد الحسين عليه السلام لأنّه مضى في آخرهم، فلذلك صار يومه أعظم الأيام مصيبة".

ولّما أن وقع المحذور بقتل سيّد شباب أهل الجنّة وخامس أصحاب الكساء عليهم السلام وهتك حرمة حجّة الله على العالمين، فقد بالغ قاتلوه عليه السلام بالإستهزاء بآيات الله تعالى، فداسوا جسده الشّريف بحوافر خيولهم، واحتزّوا رأسه المقدّس، ورفعوه على عالي السّنان..

فانطلقت حنجرته بقراءة القرآن الكريم، ليؤكّد صلته المباشرة بالنبيّ ﷺ والوحي، بعد أن تنحنح ليلفت الإنتباه كاملاً إلى مراميه السّامية.

وَرَوَى أبو مخنف عن الشّعبي أنه صلب رأس الحسين عليه السلام بالصيارف في الكوفة، فتنحنح الرأس وقرأ سورة الكهف إلى قوله: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً**﴾ فلم يزدهم ذلك إلاّ ضلالاً.

وفي أثر: أنّهم لما صلبوا رأسه على الشّجر سُمع منه: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾..

وسُمع أيضاً صوته بدمشق يقول: ﴿**لا قُوَّةَ إلاّ بِاللّهِ**﴾، وسُمع أيضاً يقرأ: ﴿**أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً**﴾ فقال زيد بن أرقم: أمرك أعجب يا ابن رسول الله!![٧٣]

---

(٧٣) راجع بحار الأنوار (٤٥/٣٠٤).

الإمام الثّالث بالنّص

إنّ من لوازم البحث في حديث الكساء البحث في الإمامة الربّانيّة الثابتة للإمام الحسين عليه السلام بنصّ جلي، وكم كان صلى الله عليه وآله يسعى لتأكيد ريادة أهل بيته عليهم السلام وقيادتهم، وقد افترض الله المودّة لهم عليهم السلام لتأصيل قاعدة إمامتهم عليهم السلام، فنصّ عليهم نصّا صحيحاً لا يقبل الشك، وقد روَت الصّحاح أحاديثاً عامّة يستحيل تطبيقها على غير أهل البيت عليهم السلام، وهي آبية سوى هذا المصداق.

ففي صحيح البخاري بإسنادٍ إلى جابر بن سمرة أنه سمع من النبي صلى الله عليه وآله يقول: يكون بعدي إثنا عشر أميراً[٧٤].

---

(٧٤) راجع لهذا الحديث صحيح البخاري ج (٦) كتاب الأحكام ح (٦٧٩٦)، وتاريخ بغداد (٣٥٣/١٤ح ٧٦٧٣)، وكنز العمّال (١٦٠/٦) مع إختلاف أمير وخليفة، الصواعق المحرقة باب (١١١) فصل (٢)، والبداية والنهاية (١٥٣/١) بنص: يكون إثنا عشر أميراً كلهم من قريش، والكامل لابن عدى (٧٩٤/٢).

وقد فاجأني بل أدهشني حذف هذه الأحاديث وأمثالها من بعض النسخ المطبوعة حديثاً على أيدي بعض المحقّقين، وكأنّهم يوارون بالحذف والتغيير الحقيقة الساطعة المؤدية إلى إمامتهم عليهم السلام بنص عن خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله، علماً أنّ تحقيق أيّ كتاب يعني توثيق نصّه وضبطه ليصل إلينا سليماً كما خطّه ووضعه صاحبه، بكلّ أمانة ودقّة ونزاهة، إلاّ أنّه قد طالت يد العبث العاتية الكثير من المصادر الحديثية المهمة، كصحيح البخاري الذي يعدّه أهل السنّة والجماعة ثاني الوحيين، وقد قال البعض: أنّه أصح كتاب بعد القرآن !! وقد اقتصر الحذف والتغيير - كما رأيت - في أبواب الخلاف والمناقب، مثل طبعة دار الأرقم (١٤٠٧ هـ) لصحيح البخاري بتحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، وهو رئيس دائرة الشؤون الدينية في دار الفتوى اللبنانية!!

وفي مصباح البغوي عن جابر بن سمرة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثني عشر خليفة كلّهم من قريش[٧٥].

وقد حدّ النّبيّ ﷺ الإمامة بحدّ لا ينسجم إلاّ مع القول بإمامة أهل البيت عليهم السلام على مذهب التشيّع، وكم تخبّط شُرّاح هذا الحديث من العامّة وأخذَت بهم المذاهب عند تفسيره، ومن يمكن أن يكون الأئمة من قريش سوى أبناء الرّسول ﷺ !!

قال ابن حجر العسقلاني: كلام القاضي عياض أحسن ما قيل في الحديث وأرجحه، لتأييده بقوله في بعض طرق الحديث الصحيحة: كلّهم يجتمع عليه الناس، وإيضاح ذلك أن المراد بالإجتماع انقيادهم لبيعته، والذي وقع أن الناس اجتمعوا على أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، إلى أن وقع أمر الحَكَمين في صفّين، فتسمَّى معاوية يومئذ بالخلافة، ثم اجتمع الناس على معاوية عند صلح الحسن، ثم اجتمعوا على ولده يزيد، ولم ينتظم للحسين أمر، بل قُتل قبل ذلك، ثم لما مات يزيد وقع الاختلاف إلى أن اجتمعوا على عبد الملك بن مروان بعد قتل ابن الزبير، ثم اجتمعوا على أولاده الأربعة: الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام، وتخلل بين سليمان ويزيد: عمرُ بن عبد العزيز، فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشدين، والثاني عشر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، اجتمع الناس

وهكذا إمتدت هذه الأيادي ذاتها للعبث ببعض كتب الحديث المهمة، حتّى صارت الطبعات القديمة نادرة جدّاً، وباتت تباع بأغلى الأثمان لسلامتها، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

(٧٥) راجع مصباح السنة للبغوي (١٣٧/٤) كتاب المناقب ح (٤٦٨٠)، وهو حديث متفق عليه، أخرجه البخاري أيضاً في الصحيح في كتاب الأحكام ح (٧٢٢٢)، ومسلم في الصحيح (١٤٥٣/٣) في كتاب الإمارة باب الناس تبع لقريش.

عليه لما مات عمّه هشام، فولي نحو أربع سنين، ثم قاموا عليه فقتلوه، وانتشرت الفتن وتغيرت الأحوال من يومئذ، ولم يتفق أن يجتمع الناس على خليفة بعد ذلك[٧٦].

وكلام ابن حجر هذا متهافت يدفعه أدنى نظر، وعليه ردودٌ لا يسعها هذا المقام، فهو يتناقض مع ما صحّ عندهم من حديث سفينة عن النبي ﷺ أنه قال: الخلافة ثلاثون سنة، ثم تكون بعد ذلك ملكاً[٧٧].

ولقد صرّحوا بناءً على صحّة هذا الحديث بانحصار الخلافة في أربعة، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي عليه السلام، وأضاف بعضهم عمر بن عبد العزيز، والحديث واضحٌ في الدّلالة، يدّل على أن ما بعد الثّلاثين لا تكون خلافة أصلاً، بل هو المُلك، وهو حديث ملزمٌ لهم على كلّ التّقادير.

فإن صحّ هذا الحديث فخلافة النبوة لا يراد بها إلاّ الخلافة بالنصّ، فخليفة

---

(٧٦) راجع كشف المشكل (١/ ٤٤٩).

(٧٧) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٢١١ح ٤٦٤٦، ٤٦٤٧)، والترمذي في سننه (٤/ ٥٠٣) وقال: هذا حديث حسن، وأخرجه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٩/ ٤٨)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٧١، ١٤٥)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٢٠، ٢٢١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٣٤٢) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٧٩)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٧٤٢ ح ٤٥٩)، ونقل تصحيحه عن الحاكم والذهبي وابن حبان وابن حجر وابن جرير الطبري وابن تيمية، ونقل عنه اعتماد الإمام أحمد عليه، وأنه متفق عليه بين الفقهاء وعلماء السنة. ورد الالباني على من ضعف الحديث كابن خلدون في تاريخه، وأبي بكر بن العربي في العواصم من القواصم، ثم قال: فقد تبين بوضوح سلامة الحديث من علة قادحة في سنده، وأنه صحيح محتج به.

النبي ﷺ هو المستخلف من قِبَلِهِ، ومَن استخلفه الناس كان خليفتهم، وقد دلّت أحاديث قطعيّة الدّلالة على أنّه ﷺ نصّ على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام واستخلفه، فيكون معنى حديث سفينة: إن خلافة علي عليه السلام تستمر إلى ثلاثين سنة، ثم يتولى الملوك أمور المسلمين، ولا يضرّ بإمامته تقدّم غيره بعد النّص عليه.. وحديث الخلفاء الإثني عشر بيان لعدد الأئمة الخلفاء بالنّص، المنصوبين من الله سبحانه، الذين يكون الإسلام بهم عزيزاً، ولا منافاة بين الحديثين.

ثمّ أنّ أكثر مَن ذكرهم ابن حجر لم يجتمع عليه الناس، فقد اجتمع النّاس على عثمان إلاّ أنّه وثب عليه النّاس حتّى قُتل، ولم يجتمع النّاس على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من أول يوم في خلافته، فأهل الشام لم يبايعوه، وحاربه طلحة والزبير وعائشة والخوارج، حتّى قال ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية: علي رضي الله عنه لم يجتمع الناس في زمانه، بل كانوا مختلفين، لم ينتظم فيه خلافة النبوة ولا المُلك(٧٨).

فيخرج أمير المؤمنين عليه السلام على قولهم من بين الخلفاء!! ويدخل فيهم يزيد بن معاوية الذي لم يبايعه الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام وأهل المدينة، وأخرج أهل المدينة منها عامله وسائر بني أمية، فوقعت بينهم وبينه وقعة الحرة، وخرج عليه ابن الزبير في مكة، حتّى ظفر به الأمويّون في قصّة مشهورة، فكيف يمكن أن يقال بعد ذلك أنّ النّاس اجتمعوا عليه!!

والحقّ أن النّاس لم يجتمعوا على معاوية وسائر ملوك بني أمية، لأنّ الأمّة

---

(٧٨) راجع شرح العقيدة الطحاوية ص (٤٧٣).

كانت مقهورة مغلوبةً على أمرها، وهذا واضحٌ لمن نظر في تأريخهم، وروي عن سعيد بن سويد، قال: صلى بنا معاوية بالنخيلة - يعني خارج الكوفة - الجمعة في الضّحى، ثم خطبنا فقال: ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلّوا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمَّر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون[٧٩].

أمّا أقوال علمائهم في تعيين الخلفاء الإثني عشر وتسميتهم تضحك الثّكلى، وقد أعرضت عنها حذر الإطناب، وهي تدعو إلى التعجّب !! إذ ما يمنع الأمّة أن تدين الله بإمامة أهل البيت عليهم السلام الذين بشَّر بهم النبي صلى الله عليه وآله بعد أن نصَّت الأحاديث على عددهم ووصفهم، ما طابق عدد وصفة أئمة أهل البيت عليهم السلام من دون ضمّ أحد أو إسقاط أحد، فالإسلام لا يكون عزيزاً منيعاً إلاّ بإمامتهم عليهم السلام وقد أجمعت الأمّة على فضلهم وورعهم وتقواهم وعلمهم، وقد حثّت النّصوص الصّحيحة على اتّباعهم والإقتداء بهم، وتعتبر هذه النصوص مبيِّنة للمراد من خلفاء النبي صلى الله عليه وآله.

وقد أقرّ الكلّ بأهليّة الإمام أمير المؤمنين وأبناءه عليهم السلام للإمامة والخلافة.. فلو تقصّينا أقوال مؤرّخ معتمد واحد في الشّهادة لهم بذلك لظفرنا بما يُفحم الخصم العنيد ويدعم المطلب.

قال الذهبي: فمولانا الإمام علي من الخلفاء الراشدين المشهود لهم بالجنة نُحِبّه ونتولاه.. وأبناه الحسن والحسين فسبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وسيدا شباب أهل

---

(٧٩) راجع البداية والنهاية (١٣٤/٨).

الجنة، لو استُخلفا لكانا أهلاً لذلك[٨٠].

وقال في ترجمة الإمام محمّد بن علي عليه السلام: وكان أحد مَن جمع بين العلم والعمل والسؤدد والشرف والثقة والرزانة، وكان أهلاً للخلافة[٨١].

وقال في الإمام جعفر بن محمّد عليه السلام: مناقب جعفر كثيرة، وكان يصلح للخلافة، لسؤدده وفضله وعلمه وشرفه رضي الله عنه[٨٢].

وقال في الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: كبير القدر، جيّد العلم، أولى بالخلافة من هارون[٨٣].

وقال في الإمام علي بن موسى عليه السلام: وقد كان علي الرضا كبير الشأن، أهلاً للخلافة[٨٤].

فقد أجمعت الأمّة على علوّ مقامهم وأهليّتهم للخلافة من غير أدنى شكّ، حتّى أنّ ابن تيمية لم يسعه أن يجحد أهليّتهم للإمامة ولم ينكر فضلهم، فقد قال في ردّه على القائلين بإمامتهم عليهم السلام دون غيرهم لامتيازهم بالفضائل على

---

(٨٠) راجع سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٢٠).

وقال في الإمام علي بن الحسين عليه السلام: وكان له جلالة عجيبة، وحقّ له والله ذلك، فقد كان أهلاً للإمامة العظمى لشرفه وسؤدده وعلمه وتألّهه وكمال عقله؛ راجع سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٩٨)، وذكر أهليته للخلافة أيضاً في (١٣/ ١٢٠).

(٨١) راجع سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٠٢)، وكذلك في (١٣/ ١٢٠).

(٨٢) تاريخ الاسلام، حوادث ووفيات سنة (١٤١ - ١٦٠) هـ ص (٩٣)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٢٠).

(٨٣) سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٢٠).

(٨٤) سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٩٢).

غيرهم: إن تلك الفضائل غايتها أن يكون صاحبها أهلاً أن تُعقد له الإمامة، لكنه لا يصير إماماً بمجرد كونه أهلاً، كما أنه لا يصير الرجل قاضياً بمجرد كونه أهلاً لذلك.. ثم قال: إن أهلية الإمامة ثابتة لآخرين كثبوتها لهؤلاء، وهم أهل أن يتولّوا الإمامة، فلا موجب للتخصيص، ولم يصيروا بذلك أئمة[٨٥].

إلاّ أنّ قياس الإمام عليه‌السلام بالقاضي قياس مع الفارق، فما قول ابن تيمية في قاضٍ قد نصبه النبي عليه‌السلام على الأمّة، فهل يضر جحود النّاس بكونه قاضياً! فإن كان الجواب سلباً وهو كذلك فإنّ جحود النّاس لا يضرّ بإمامة أهل البيت عليهم‌السلام بعد نص النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على خلافتهم، هذا.. وإنّ لتخصيصهم موجبٌ قطعاً، بالنصوص الصحيحة التي أمرت بالتمسك بهم دون غيرهم.

وكيف كان.. فإنّ في كتبنا المعتبرة نصوصٌ كفيلة بتأسيس هذا الأصل بما يوضّح مداليل هذا الحديث حتماً، والنصّ كاشف عن الإختيار الربّاني الذي يلزم منه عصمة المنصوص عليهم، وبما أنّ العصمة ملكة نفسانيّة لا يعلم تحقّقها إلاّ عالم الغيب اقتضت حكمته الجعل والإختيار، والسبيل لمعرفة المختار هو النّص.

ففي كفاية الأثر بإسناد يرفعه إلى حذيفة بن اليمان أنه قال: صلى بنا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ثم أقبل بوجهه الكريم علينا فقال: معاشر أصحابي، أوصيكم بتقوى الله والعمل بطاعته، فمن عمل بها فاز وغنم، ومن أنجح وتركها حلت به الندامة، فالتمسوا بالتقوى السلامة من أهوال يوم القيامة.

فكأني أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي،

---

(٨٥) راجع منهاج السنة النبوية (٤/ ٢١٣).

ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، ومن تمسك بعترتي من بعدي كان من الفائزين، ومن تخلف عنهم كان من الهالكين.

فقلت: يا رسول الله، على من تخلفنا ؟

قال: على من خلف موسى بن عمران قومه ؟

قلت: على وصيه يوشع بن نون.

قال: فإن وصيي وخليفتي من بعدي علي بن أبي طالب عليه السلام قائد البررة وقاتل الكفرة منصور من نصره مخذول من خذله.

قلت: يا رسول الله، فكم يكون الأئمة من بعدك ؟

قال: عدد نقباء بني إسرائيل، تسعة من صلب الحسين عليه السلام أعطاهم الله علمي وفهمي، خزان علم الله ومعادن وحيه.

قلت: يا رسول الله فما لأولاد الحسن ؟

قال: إن الله تبارك وتعالى جعل الإمامة في عقب الحسين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾.

قلت: أ فلا تسميهم لي يا رسول الله ؟

قال: نعم، إنه لما عرج بي إلى السماء ونظرت إلى ساق العرش فرأيت مكتوبا بالنور لا إله إلا الله محمد رسول الله أيدته بعلي ونصرته به، ورأيت أنوار الحسن والحسين وفاطمة، ورأيت في ثلاثة مواضع عليّا عليّا عليّا ومحمّداً ومحمّداً وموسى وجعفراً والحسن والحجة يتلألأ من بينهم كأنه كوكب دري.

فقلت: يا رب من هؤلاء الذين قرنت أسماءهم بإسمك ؟

قال: يا محمد إنهم هم الأوصياء والأئمة بعدك، خلقتهم من طينتك،

فطوبى لمن أحبهم والويل لمن أبغضهم، فبهم أنزل الغيث، وبهم أثيب وأعاقب.

ثم رفع رسول الله ﷺ يده إلى السماء ودعا بدعوات فسمعته فيما يقول: اللهم اجعل العلم والفقه في عقبي، وعقب عقبي، وفي زرعي وزرع زرعي[٨٦].

وفي الإرشاد وكفاية الأثر بالإسناد إلى حذيفة بن أسيد أنّه سمع النبي ﷺ يقول وهو على منبره: يا أيها الناس، إني فَرَطُكُم وأنتم واردون عليّ الحوض، ألا وإني سائلكم عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يلقياني، وسألت ربي ذلك فأعطانيه.

ألا وإني قد تركتهما فيكم كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فلا تسبقوهم فتفرقوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم.

أيها الناس، لا ألفينّكم بعدي ترجعون كفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض، فتلقوني في كتيبة كمجرّ السّيل الجرّار، ألا وإن علي بن أبي طالب أخي ووصيي، يقاتل بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله[٨٧].

وروى الشيخ الصدوق رحمه الله بإسناد إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: معاشر الناس، إني راحلٌ عن قريب، ومنطلق إلى المغيب، أوصيكم في عترتي خيراً، وإياكم والبدع، فإن كل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار.

---

(٨٦) راجع كفاية الأثر ص (١٣٦)، عنه بحار الأنوار (٣٣١/٣٦ ح ١٩١)، وإثبات الهداة (٥٣٥/٢ ح ٥٣٤)، والعوالم ج (٣/١٥) ص (١٨٠) ح (١٥٤).

(٨٧) راجع كفاية الأثر ص (١٢٧)، عنه بحار الأنوار (٣٢٨/٣٦ ح ١٨٥)، والعوالم ج (٣/١٥) ص (١٧٧) ح (١٤٨)، وروى بعضه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٥٥/١).

معاشر الناس، من افتقد الشمس فليتمسك بالقمر، ومن افتقد القمر فليتمسك بالفرقدين، فإذا فقدتم الفرقدين فتمسكوا بالنجوم الزاهرة بعدي، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

قال: فلما نزل عن المنبر تبعته حتى دخل بيت عائشة، فدخلت إليه وقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، سمعتك تقول: إذا افتقدتم الشمس فتمسكوا بالقمر، وإذا افتقدتم القمر فتمسكوا بالفرقدين، وإذا افتقدتم الفرقدين فتمسكوا بالنجوم الزاهرة، فما الشمس وما القمر وما الفرقدان وما النجوم الزاهرة ؟

فقال: أنا الشمس، وعلي القمر، والحسن والحسين الفرقدان، فإذا إفتقدتموني فتمسكوا بعلي بعدي، وإذا افتقدتموه فتمسّكوا بالحسن والحسين، وأما النجوم الزاهرة فهم الأئمة التسعة من صلب الحسين تاسعهم مهديهم.

ثم قال ﷺ: إنهم هم الأوصياء والخلفاء بعدي، أئمة أبرار، عدد أسباط يعقوب وحواري عيسى.

قلت: فسمّهم لي يا رسول الله.

قال: أوّلهم علي بن أبي طالب، وبعده سبطاي، وبعدهما علي زين العابدين، وبعده محمد بن علي الباقر علم النبيين، والصادق جعفر بن محمد، وإبنه الكاظم سمي موسى بن عمران، والذي يقتل بأرض الغربة إبنه علي، ثم إبنه محمد، والصادقان علي والحسن، والحجة القائم المنتظر في غيبته، فإنهم عترتي، من دمي ولحمي، علمهم علمي وحكمهم حكمي، من

آذاني فيهم فلا أناله الله شفاعتي(٨٨).

وفي الصحيحة التي رواها الكليني عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد البرقي عن أبي هاشم داود بن القاسم الجعفري عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: أقبل أمير المؤمنين عليه السلام ومعه الحسن بن علي وهو متكيء على يد سلمان فدخل المسجد الحرام فجلس، إذ أقبل رجل حسن الهيئة واللباس فسلّم على أمير المؤمنين، فرد عليه السلام فجلس، ثم قال: يا أمير المؤمنين أسألك عن ثلاث مسائل إن أخبرتني بهن علمت أن القوم ركبوا من أمرك ما قضي عليهم وأن ليسوا بمأمونين في دنياهم وآخرتهم، وإن تكن الأُخرى علمت أنك وهم شرع سواء!!

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: سلني عما بدا لك.

قال: أخبرني عن الرجل إذا نام أين تذهب روحه؟ وعن الرجل كيف يذكر وينسى؟ وعن الرجل كيف يشبه ولده الأعمام والأخوال؟ فالتفت أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحسن فقال: يا أبا محمد أجبه.

قال: فأجابه الحسن، فقال الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله ولم أزل أشهد بها، وأشهد أن محمداً رسول الله ولم أزل أشهد بها، وأشهد أنك وصي رسول الله والقائم بحجته - أشار إلى أمير المؤمنين - ولم أزل أشهد بها، وأشهد أنك وصيه والقائم بحجته - أشار إلى الحسن - وأشهد أن الحسين بن علي وصي أخيه والقائم بحجته بعده، وأشهد على علي بن الحسين أنه القائم بأمر الحسين بعده،

---

(٨٨) راجع معاني الأخبار ص (١١٤)، وكفاية الأثر ص (٤٠)، وبحار الأنوار (٢٨٩/٣٦ ح ١١١)، وإثبات الهداة (٥١٤/٢ ح ٤٨٧)، والعوالم ج (٣/١٥) ص (١٤٤) ح (٨٣)، والمنتخب ص (٢٤٤).

وأشهد على محمد بن علي أنه القائم بأمر علي بن الحسين، وأشهد على جعفر بن محمد أنه القائم بأمر محمد، وأشهد على موسى أنه القائم بأمر جعفر بن محمد، وأشهد على علي بن موسى أنه القائم بأمر موسى بن جعفر، وأشهد على محمد بن علي أنه القائم بأمر علي بن موسى، وأشهد على علي بن محمد أنه القائم بأمر محمد بن علي، وأشهد على الحسن بن علي أنه القائم بأمر علي بن محمد، وأشهد على رجل من ولد الحسن لا يكنّى ولا يسمّى حتى يظهر أمره فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ثم قام فمضى.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا محمد اتبعه فانظر أين يقصد؟

فخرج الحسين بن علي عليه السلام فقال: ما كان إلاّ أن وضع رجله خارجاً من المسجد فما دريت أين أخذ من أرض الله، فرجعت إلى أمير المؤمنين فأعلمته، فقال: يا أبا محمد أتعرفه؟

قلت: الله ورسوله وأمير المؤمنين أعلم.

قال هو الخضر[٨٩].

وربّما يتساءل البعض بعد مواجهة تلك النّصوص الواضحة في النصّ عليهم عليهم السلام عن سبب خلوّ القرآن من النصّ على أسمائهم الشّريفة!! إذ كان ينبغي ذكر اسم أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام ليرتفع الشك بصورة قاطعة فلا يضل الناس!!

وهو سؤال مشروع، إلاّ أنّ القرآن الكريم قد نزل بأصل وجوب الصلاة والزكاة والحج من غير بيان تفصيل الأحكام فيها، وقد كانت الإمامة من هذا

---

(٨٩) راجع الكافي (١/ ٥٢٥).

القبيل، فقد أوكل تعيين أسمائهم إلى النبي ﷺ كما فصّل سائر الأحكام، وقد سُئل الأئمة عليهم السلام عن هذا السّؤال وأجابوا بمثل ذلك.

وفي الخبر الصحيح الذي رواه الشيخ الكليني رحمه الله عن علي ابن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس، وعلي بن محمد بن سهل بن زياد أبي سعيد عن محمد بن عيسى عن يونس، عن ابن مسكان عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله الله عز وجل ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ فقال: نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام.

فقلت: إن الناس يقولون فما باله لم يسمِّ عليّاً وأهل بيته في كتاب الله عز وجل؟

فقال: قولوا لهم: إن رسول الله ﷺ نزلت عليه الصلاة ولم يسمّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً، حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر ذلك ونزلت الزكاة ولم يسمّ لهم من كل أربعين درهماً درهم، حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر لهم ذلك، ونزل الحج فلم يقل لهم طوفوا أسبوعاً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر لهم ذلك، ونزلت ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ ونزلت في علي والحسن والحسين، فقال رسول الله في علي: من كنت مولاه فعلي مولاه، فقال ﷺ: أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، فإني سألت الله أن لا يفرق بينهما حتى يوردهما عليّ الحوض فأعطاني ذلك، وقال: لا تعلّموهم فهم أعلم منكم، وقال: إنهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم باب ضلالة.

فلو سكت رسول الله فلم يبين من أهل بيته لادعاها آل فلان وآل فلان، لكن الله أنزل في كتابه تصديقاً لنبيه: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فكان علي والحسن والحسين وفاطمة، فأدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء في بيت أم سلمة، ثم قال: اللهم إن كل نبي أهلاً وثقلاً وهؤلاء أهلي وثقلي.

فقالت أم سلمة: ألست من أهلك؟

قال: إنك إلى خير، ولكن هؤلاء أهلي وثقلي، فلمّا قُبض رسول الله ﷺ كان علي أولى الناس بالناس، لكثرة ما بلغ فيه رسول الله ﷺ وإقامته للناس وأخذه بيده، فلمّا مضى عليّ لم يكن يستطيع علي - ولم يكن ليفعل - أن يدخل محمد بن علي ولا العباس بن علي ولا واحداً من ولده، إذن لقال الحسن والحسين: إن الله تبارك وتعالى أنزل فينا كما أنزل فيك فأمر بطاعتنا كما أمر بطاعتك، وبلغ فينا رسول الله كما بلغ فيك، وأذهب عنّا الرجس كما أذهبه عنك.

فلمّا مضى علي، كان الحسن أولى بها لكبره، فلمّا تُوفّي لم يستطع أن يدخل ولده ولم يكن ليفعل ذلك، والله عز وجل يقول: **﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾** فيجعلها في ولده، إذن لقال الحسين: أمر الله بطاعتي كما أمر بطاعتك وطاعة أبيك، وبلغ في رسول الله كما بلغ فيك وفي أبيك، وأذهب الله عني الرجس كما أذهب عنك وعن أبيك، فلمّا صارت إلى الحسين لم يكن أحد من أهل بيته يستطيع أن يدّعي عليه كما كان هو يدعي على أخيه وعلى أبيه، لو أرادا أن يصرفا الأمر عنه، ولم يكونا ليفعلاه، ثم صارت حين أفضت إلى الحسين فجرى تأويل هذه الآية: **﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾** ثم صارت من بعد الحسين لعلي بن الحسين، ثم

صارت من بعد علي بن الحسين إلى محمد بن علي، ثم قال: الرجس هو الشك، والله لا نشك في ربنا أبداً(٩٠).

وفي الصحيح الذي رواه الشيخ الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد ابن عيسى عن إبراهيم بن عمر اليماني وعمر بن أُذينة عن أبان عن سليم بن قيس قال: شهدت وصيّةَ أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى إلى ابنه الحسن وأشهد على وصيته الحسين ومحمداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثم دفع إليه الكتاب والسلاح، وقال لابنه الحسن: يا بني، أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أُوصي إليك، وأن أدفع إليك كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين، ثم أقبل على ابنه الحسين فقال: وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك هذا.

ثم أخذ بيد علي بن الحسين وقال: وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك محمد بن علي واقرأه من رسول الله ومني السلام(٩١).

وقد علّم أهل البيت عليهم السلام شيعتهم على تلقين النّفس بأسمائهم الشّريفة في سجدة الشكر عقيب كل صلاة، حيث يُشهد المصلي ربّه بمجمل اعتقاداته التي ينبغي أن يلقاه بها، ليؤكّد على تولّيهم عليهم السلام والتبرّي من أعدائهم، وفي ذكرهم كمال الصّلاة والعبادات.

ففي الصحيحة التي رواها الصدوق بإسناده عن عبد الله بن جندب عن

---

(٩٠) راجع الكافي (١/٢٨٦).

(٩١) راجع الكافي (١/٢٩٧).

موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: تقول في سجدة الشكر: اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك وأنبياءك ورسلك وجميع خلقك أنك أنت الله ربي والإسلام ومحمداً نبيي وعلياً والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والحجة بن الحسن أئمتي بهم أتولى ومن أعدائهم أتبرأ[٩٢].

ونصّ صلى الله عليه وآله وسلم على الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام نصّاً خاصّاً في أكثر من موطن، وقد نقل المسلمون كافةّ واتفقت كلمتهم على رواية قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا، وقد روي في الروضة بإسناد إلى طارق بن شهاب أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال للحسن والحسين: أنتما إمامان بعقبي، وسيّدا شباب أهل الجنة، والمعصومان حفظكما الله، ولعنة الله على من عاداكما[٩٣].

وهذه النّصوص الشريفة تعزّز مكانة الإمام الحسين عليه السلام وتؤكّد على مقامه الشّامخ، فهو إمام بالنّص الجلي، وحجّة من الله تعالى على عباده، قد نصبه ليكون لهم هادياً من الظلال، وعصمة من العذاب، فهو الإمام ابن الإمام أخو الإمام أبو الأئمة عليهم السلام، والنسخة اليتيمة المُفردة التي لن تتكرّر في تاريخ الدنيا، وقد انتهك الإنسان الظّلوم الجهول حرمته وتعدّى عليه وظلمه رغم منزلته المعروفة، وبالتّالي فإنّ منزلته الكبرى تعدّ من أهم دواعي خلود الحزن عليه، إلى درجة تعدّي الحزن إلى البكاء والنوح وتجديد المأتم.

---

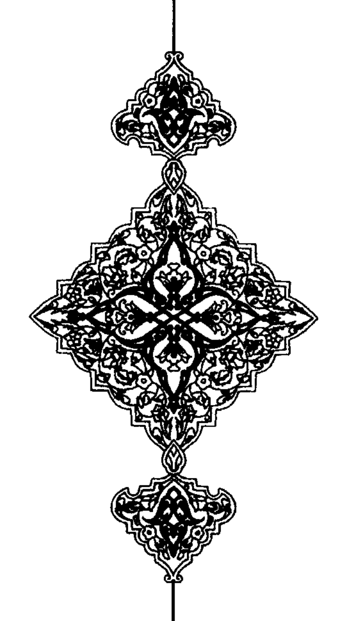
(٩٢) راجع وسائل الشيعة (١٥/٧).

(٩٣) راجع بحار الأنوار (٢٦٥/٤٣).

حتّى أنّ الأئمة عليهم السلام قد ندبوا إلى الجزع عليه، والجزع هو ما خالف الصّبر، ويدخل في باب الجزع ومفهومه كثير من الشّعائر الحسينيّة المتداولة اليوم، والتي ستقف عليها في بحوث هذا الكتاب، بعد التدليل على أهميّة الحادثة وتأثيرها في الكون والمكوّنات، وذكر أصدائها السّابقة عليها في عالم الأنبياء عليهم السلام والأمم السّابقة، وكذلك ذكر أصدائها اللاّحقة.

ଔଔଔ ☙☙☙

الأصداء السابقة على المقتل





الأنبياء عليهم السلام ومصيبة الحسين عليه السلام

اتّسعت دائرة الأصداء المترتّبة على مقتل سيّد شباب أهل الجنة عليه السلام لتسبق زمن الحادث بعهد طويل، بل اقترنت بتاريخ الخلق والأرض والسّماء، وأوحى الله خبرها إلى الأنبياء عليهم السلام فكانت معروفة معهودة عندهم، فكما أنّهم بشّروا بنبوّة النبيّ الخاتم الذي يأتي في آخر الزّمان فإنّهم أخبروا بمصاب ريحانته وبكوا على مصيبته، وقد نبّأهم الجليل تعالى عن مأساة سنة إحدى وستّين قبل عهد الميلاد والتّدوين، وقد نقل الأئمة الصّادقون عليهم السلام أخبار الأنبياء عليهم السلام في هذا الباب إظهاراً لتلك الحقائق وتأكيداً على عظم المصيبة !!

ويمكننا أن نصنّف ما ورَد من تلك الأخبار بحسب الأزمنة على النّهج التّالي، سواء كانت رواياتها مسندة أم مرسلة، فإنّنا نقلناها عن الكتب المعتبرة، وسنكتفي بعرضها دون تعليق حذر الإطالة، ولأنّ إيرادها يكفي لتأكيد المطلوب.

ما ورد في آدم عليه السلام

روي في الدّر الثمين في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ**﴾ أنّه رأى ساق العرش وأسماء النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام فلقّنه جبرئيل: قل يا حميد

بحقّ محمّد، يا عالي بحق علي، يا فاطر بحق فاطمة، يا محسن بحق الحسن والحسين ومنك الإحسان.

فلمّا ذُكر الحسين عليه‌السلام سالت دموعه، وانخشع قلبه وقال: يا أخي جبرئيل في ذكر الخامس ينكسر قلبي وتسيل عبرتي.

قال جبرئيل: ولدك هذا يصاب بمصيبة تصغر عندها المصائب !!

فقال: يا أخي، وما هي ؟

قال: يُقتل عطشاناً غريباً وحيداً فريداً، ليس له ناصر ولا معين، ولو تراه يا آدم وهو يقول وا عطشاه وا قلّة ناصراه، حتى يحول العطش بينه وبين السماء كالدخان، فلم يجبه أحدٌ إلاّ بالسيوف وشرب الحتوف، فيُذبح ذبح الشاة من قفاه، وينهب رحلَه أعداؤُه، وتشهر رؤوسهم هو وأنصاره في البلدان ومعهم النسوان، كذلك سبَق في علم الواحد المنّان، فبكى آدم وجبرئيل بكاء الثكلى[1].

وروي: أن آدم لما هبط إلى الأرض لم ير حواء، فصار يطوف الأرض في طلبها، فمرّ بكربلاء، فاغتم وضاق صدره من غير سبب، وعثر في الموضع الذي قتل فيه الحسين عليه‌السلام حتى سال الدم من رجله، فرفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي، هل حدث مني ذنب آخر فعاقبتني به ؟ فإني طفتُ جميع الأرض وما أصابني سوء مثل ما أصابني في هذه الأرض.

فأوحى الله إليه: يا آدم، ما حدث منك ذنب، ولكن يقتل في هذه الأرض ولدك الحسين ظُلماً، فسال دمُك موافقة لدمه.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٤/٢٤٥).

فقال آدم: يا رب، أ يكون الحسين نبيّاً ؟

قال: لا، ولكنه سبطُ النبيّ محمد.

فقال: ومن القاتل له ؟

قال: قاتله يزيد، لعين أهل السماوات والأرض.

فقال آدم: فأي شيء أصنع يا جبرئيل.

فقال: إلعنه يا آدم، فلعنه أربع مرات، ومشى خطوات إلى جبل عرفات فوجد حواء هناك(٢).

ما ورد في نوح عليه السلام

روي في بحار الأنوار بإسناد مرفوع إلى أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: لما أراد الله أن يهلك قوم نوح أوحى إليه أن شقّ ألواح السّاج، فلمّا شقّها لم يدر ما يصنع بها، فهبط جبرئيل فأراه هيئة السّفينة، ومعه تابوت بها مئة ألف مسمار وتسعة وعشرون ألف مسمار، فسمر بالمسامير كلّها السّفينة، إلى أن بقيت خمسة مسامير، فضرب بيده إلى مسمار فأشرق بيده وأضاء كما يضيىء الكوكب الدري في أفق السماء، فتحيّر نوح، فأنطق الله المسمار بلسان طلق ذلق: أنا على اسم خير الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

فهبط جبرئيل، فقال له: يا جبرئيل ما هذا المسمار الذي ما رأيت مثله ؟

فقال: هذا باسم سيد الأنبياء محمد بن عبد الله، أسمره على أولها على جانب السفينة الأيمن، ثم ضرب بيده إلى مسمار ثان، فأشرق وأنار، فقال نوح:

---

(٢) راجع بحار الأنوار (٤٤/ ٢٤٣).

وما هذا المسمار ؟ فقال : هذا مسمار أخيه وابن عمه سيد الأوصياء علي بن أبي طالب ، فأسمره على جانب السفينة الأيسر في أولها.

ثم ضرب بيده إلى مسمار ثالث ، فزهر وأشرق وأنار ، فقال جبرئيل : هذا مسمار فاطمة ، فأسمره إلى جانب مسمار أبيها ، ثم ضرب بيده إلى مسمار رابع فزهر وأنار ، فقال جبرئيل : هذا مسمار الحسن ، فأسمره إلى جانب مسمار أبيه ، ثم ضرب بيده إلى مسمار خامس ، فزهر وأنار وأظهر النداوة ، فقال جبرئيل هذا مسمار الحسين ، فأسمره إلى جانب مسمار أبيه.

فقال نوح : يا جبرئيل ، ما هذه النداوة ؟

فقال : هذا الدم ، فذكر قصة الحسين عليه السلام وما تعمل الأمة به ، فلعن الله قاتله وظالمه وخاذله.

وروي : أن نوحاً لما ركب في السفينة طافت به جميع الدنيا ، فلما مرت بكربلاء أخذته الأرض وخاف نوح الغرق ، فدعا ربّه وقال : إلهي طفت جميع الدنيا وما أصابني فزع مثل ما أصابني في هذه الأرض ، فنزل جبرئيل وقال : يا نوح في هذا الموضع يقتل الحسين سبط محمّد خاتم الأنبياء وابن خاتم الأوصياء.

فقال : ومن القاتل له يا جبرئيل ؟

قال : قاتله لعين أهل سبع سماوات وسبع أرضين ، فلعنه نوح أربع مرات ، فسارت السّفينة حتى بلغت الجودي واستقرت عليه[٣].

---

(٣) راجع بحار الأنوار (٢٦/٣٣٢) و (٤٤/٢٤٣) ، والأمان ص (١١٨) ، وقصص الأنبياء ص (٧٨).

ما ورد في إبراهيم عليه السلام

روي في عيون أخبار الرضا عليه السلام بالإسناد إلى الفضل قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: لما أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام أن يذبح مكان ابنه إسماعيل الكبش الذي أنزله عليه تمنى إبراهيم أن يكون قد ذبح ابنه إسماعيل بيده وأنه لم يؤمر بذبح الكبش مكانه ليرجع إلى قلبه ما يرجع إلى قلب الوالد الذي يذبح أعز ولده عليه بيده فيستحق بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب.

فأوحى الله عز وجل إليه: يا إبراهيم، من أحب خلقي إليك ؟

فقال: يا رب ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ من حبيبك محمد.

فأوحى الله إليه: أ فهو أحب إليك أم نفسك ؟

قال: بل هو أحبّ إليّ من نفسي.

قال: فولده أحبّ إليك أم ولدك ؟

قال: بل ولده.

قال: فذبح ولده ظلماً على أيدي أعدائه أوجع لقلبك أو ذبح ولدك بيدك في طاعتي؟

قال: يا ربّ، بل ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي.

قال: يا إبراهيم فإن طائفة تزعم أنها من أمة محمّد ستقتل الحسين ابنه من بعده ظلماً وعدواناً كما يُذبح الكبش، ويستوجبون بذلك سخطي.

فجزع إبراهيم لذلك وتوجّع قلبه وأقبل يبكي، فأوحى الله عز وجل: يا إبراهيم، قد فديت جزعك على ابنك إسماعيل لو ذبحته بيدك بجزعك على

الحسين وقتله، وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، وذلك قول الله عز وجل ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾(٤).

وروي: أن إبراهيم عليه السلام مرّ في أرض كربلاء وهو راكب فرساً، فعثرت به وسقط إبراهيم وشجّ رأسه وسال دمه، فأخذ في الإستغفار وقال: إلهي أي شيء

---

(٤) راجع عيون أخبار الرّضا (٢٠٩/١)، عنه بحار الأنوار (١٣٤/١٢) و(٢٢٦/٤٤)، والخصال (٥٨/١)، وقصص الأنبياء للجزائري ص (١٢٩). وقد علّق المرحوم المجلسي رحمه الله على هذا الخبر، إذ يمكن أن يُشكل عليه بأن يُقال: إذا كان المراد بالذبح العظيم المفدي به هو قتل الحسين عليه السلام فكيف يُفدى من هو أدنى رتبة بمن هو أجل رتبة، ولا شكّ في أفضليّة أئمتنا عليهم السلام على أولي العزم عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء، ومعنى الفداء ظاهراً هو التعويض عن الشيء بما دونه في الشرف. وأجاب العُلماء بأنّ إسماعيل عليه السلام لو ذُبح لما وُجد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأئمة عليهم السلام وسائر الأنبياء عليهم السلام من ولد إسماعيل عليه السلام لأنّهم في صلبه، فكأنه عُوض بقتل الحسين عليه السلام عن ذبح الكل، فهو سرّ امتداد هذه الشّجرة الطيّبة، ومعلومٌ أنّ مرتبة كل الشّجرة أجل من مرتبة جزء واحد منها.

وهذا الكلام وإن كان قد صدر عن بعض الأعلام إلاّ أنّ في النّفس منه شيء، فدعوى أنّ الشجرة أجل من جزئها محلّ نظر، والذي يمكن أن يُقال أنّه لم يرد في الخبر أنه فدى إسماعيل عليه السلام بالحسين عليه السلام حتّى يُشكل عليه، بل ورد فيه أنه فدى جزع إبراهيم على إسماعيل بجزعه على الحسين عليه السلام، وعلى هذا فإنّ المراد بالفداء التعويض، ولما أسف إبراهيم عليه السلام على ثواب الجزع الذي فاته على ابنه عوّضه الله بالجزع على الحسين عليه السلام الأجل والأشرف والأكثر ثواباً. ولا ينبغي أن يُشكّ في أن شهادة الحسين عليه السلام أمرٌ مقرّرٌ، قبل رفع قتل إسماعيل عليه السلام فلا يرد الإشكال أصلاً، وعليه فإنّ الآية تحتمل تقدير مضاف في قوله (فديناه)، فيكون المقدّر: فديناه بجزع مذبوح عظيم الشأن، ويمكن حمل الباء على السّببية، أي: فديناه بسبب مذبوح عظيم لجزعه عليه.

حدث منّي، فنزل إليه جبرئيل وقال: يا إبراهيم، ما حدث منك ذنب، ولكن هنا يقتل سبط خاتم الأنبياء، وابن خاتم الأوصياء، فسال دمك موافقة لدمه.

قال: يا جبرئيل، ومن يكون قاتله؟

قال: لعين أهل السماوات والأرضين، والقلم جرى على اللوح بلعنه بغير إذن ربه، فأوحى الله تعالى إلى القلم: أنك استحققت الثناء بهذا اللعن، فرفع إبراهيم عليه السلام يديه ولعن يزيد لعناً كثيراً وأمّن فرسه بلسان فصيح.

فقال إبراهيم لفرسه: أيّ شيء عرفت حتى تؤمّن على دعائي؟

فقال: يا إبراهيم، أنا أفتخر بركوبك عليّ، فلمّا عثرت وسقطت عن ظهري عظمت خجلتي، وكان سبب ذلك من يزيد (لعنه الله)[٥].

ما ورد في إسماعيل عليه السلام

روي: أن إسماعيل عليه السلام كانت أغنامه ترعى بشط الفرات، فأخبره الرّاعي أنها لا تشرب الماء من هذه المشرعة منذ كذا يوماً، فسأل ربّه عن سبب ذلك، فنزل جبرئيل وقال: يا إسماعيل، سل غنمك فإنها تجيبك عن سبب ذلك!!

فقال لها: لم لا تشربين من هذا الماء؟

فقالت بلسان فصيح: قد بلغنا أن ولدك الحسين عليه السلام سبط محمد يقتل هنا عطشاناً، فنحن لا نشرب من هذه المشرعة حزناً عليه.

فسألها عن قاتله، فقالت: يقتله لعين أهل السماوات والأرضين والخلائق

---

(٥) راجع بحار الأنوار (٤٤/٢٤٣).

أجمعين، فقال إسماعيل: اللهم العن قاتل الحسين عليه السلام[٦].

ما ورد في موسى عليه السلام

روي: أن موسى عليه السلام كان ذات يوم سائراً ومعه يوشع بن نون، فلمّا جاء إلى أرض كربلاء انخرق نعله، وانقطع شراكه، ودخل الحسك في رجليه، وسال دمه، فقال: إلهي، أيّ شيء حدث منّي؟

فأوحى إليه أن هنا يقتل الحسين، وهنا يسفك دمه، فسال دمك موافقة لدمه.

فقال: ربّ ومن يكون الحسين؟

فقيل له: هو سبط محمد المصطفى، وابن علي المرتضى.

فقال: ومن يكون قاتله؟

فقيل: هو لعين السّمك في البحار، والوحوش في القفار، والطير في الهواء، فرفع موسى يديه ولعن يزيد ودعا عليه، وأمّن يوشع بن نون على دعائه، ومضى لشأنه[٧].

ما ورد في إسماعيل بن حزقيل عليه السلام

روي في كامل الزيارات بالإسناد إلى بريد العجلي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: يا ابن رسول الله، أخبرني عن إسماعيل الذي ذكره الله في كتابه حيث يقول: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا**﴾ أكان إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام؟ فإن الناس يزعمون أنه إسماعيل بن إبراهيم.

---

(٦) راجع بحار الأنوار (٢٤٣/٤٤).

(٧) راجع بحار الأنوار (٢٤٤/٤٤).

فقال عليه السلام : إن إسماعيل مات قبل إبراهيم ، وإن إبراهيم كان حجّة لله قائداً صاحب شريعة ، فإلى من أرسل إسماعيل إذن ؟

قلت : فمن كان جعلت فداك ؟

قال : ذاك إسماعيل بن حزقيل النبيّ ، بعثه الله إلى قومه فكذبوه وقتلوه وسلخوا وجهه ، فغضب الله عليهم له ، فوجّه إليه سطاطائيل ملك العذاب ، فقال له : يا إسماعيل أنا سطاطائيل ملك العذاب ، وجّهني رب العزة إليك لأعذب قومك بأنواع العذاب إن شئت.

فقال له إسماعيل : لا حاجة لي في ذلك يا سطاطائيل ، فأوحى الله إليه : فما حاجتك يا إسماعيل ؟

فقال إسماعيل : يا ربّ ، إنك أخذت الميثاق لنفسك بالربوبيّة ، ولمحمد بالنبوة ، ولأوصيائه بالولاية ، وأخبرت خلقك بما تفعل أمته بالحسين بن علي عليه السلام من بعد نبيها ، وإنك وعدت الحسين أن تكرّه إلى الدنيا حتى ينتقم بنفسه ممّن فعل ذلك به ، فحاجتي إليك يا رب أن تكرّني إلى الدنيا حتى أنتقم ممن فعل ذلك بي ما فعل كما تكرّ الحسين ، فوعد الله إسماعيل بن حزقيل ذلك ، فهو يكرّ مع الحسين بن علي عليه السلام[٨].

وروي في علل الشرائع بالإسناد إلى أبي عبد الله عليه السلام قال : إن إسماعيل الذي قال الله عز وجل في كتابه : ﴿**واذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ**

---

(٨) راجع كامل الزيارات ص (٦٥)، عنه بحار الأنوار (١٣/٣٩٠) و(٤٤/٢٣٧) و(٥٣/١٠٥)، قصص الأنبياء ص (٣١٦).

﴿الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ لم يكن إسماعيل بن إبراهيم، بل كان نبيّاً من الأنبياء، بعثه الله عز وجل إلى قومه فأخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه، فأتاه ملك فقال: إنّ الله جل جلاله بعثني إليك فمُرني بما شئت، فقال: لي أسوة بما يصنع بالحسين عليه السلام[٩].

وفيه بالإسناد إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: أن إسماعيل كان رسولاً نبياً، سلّط عليه قومه فقشروا جلدة وجهه وفروة رأسه، فأتاه رسول من رب العالمين فقال له: ربّك يقرئك السّلام، ويقول: قد رأيت ما صنع بك، وقد أمرني بطاعتك، فمرني بما شئت، فقال: يكون لي بالحسين بن علي أسوة[١٠].

ما ورد في سليمان عليه السلام

روي أن سليمان كان يجلس على بساطه ويسير في الهواء، فمر ذات يوم وهو سائر في أرض كربلاء، فأدارت الريح بساطه ثلاث دورات حتى خاف السقوط، فسكنت الريح ونزل البساط في أرض كربلاء، فقال سليمان للريح: لم سكنتي ؟

فقالت: إن هنا يقتل الحسين عليه السلام !!

فقال: ومن يكون الحسين ؟

فقالت: هو سبط محمد المختار، وابن علي الكرار.

فقال: ومن قاتله ؟

---

(٩) راجع علل الشرايع (١/٧٧)، وبحار الأنوار (١٣/٣٨٨) و(٤٤/٢٤٣)، وكامل الزيارات ص (٦٤)، ووسائل الشيعة (٣/٢٦٥)، وقصص الأنبياء للجزائري ص (٣١١).

(١٠) راجع بحار الأنوار (٤٤/٢٢٧).

قالت: لعين أهل السّماوات والأرض يزيد، فرفع سليمان يديه ولعنه ودعا عليه، وأمّن على دعائه الإنس والجن، فهبّت الريح وسار البساط(١١).

ما ورد في زكريا عليه السلام

وروي في الإحتجاج عن سعد بن عبد الله، قال: سألت القائم عليه السلام عن تأويل ﴿**كهيعص**﴾ قال عليه السلام: هذه الحروف من أنباء الغيب، أطلع الله عليها عبده زكريا ثم قصها على محمد صلى الله عليه وآله وذلك أن زكريا سأل الله ربّه أن يعلمه أسماء الخمسة، فأهبط عليه جبرئيل عليه السلام فعلّمه إيّاها، فكان زكريّا إذا ذكر محمداً وعليّاً وفاطمة والحسن عليهما السلام سُرّيَ عنه همّه وانجلى كربه، وإذا ذكر اسم الحسين خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة.

فقال عليه السلام ذات يوم: إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعة منهم تسلّيت بأسمائهم من همومي، وإذا ذكرت الحسين تدمع عيني وتثور زفرتي، فأنبأه الله تبارك وتعالى عن قصّته، فقال: كهيعص، فالكاف اسم كربلاء، والهاء هلاك العترة الطاهرة، والياء يزيد وهو ظالم الحسين، والعين عطشه، والصاد صبره.

فلمّا سمع ذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام، ومنع فيهن الناس من الدخول عليه، وأقبل على البكاء والنّحيب، وكان يرثيه: إلهي أ تفجع خير جميع خلقك بولده ! إلهي أ تنزل بلوى هذه الرزية بفنائه ! إلهي أ تلبس عليّاً وفاطمة ثياب هذه المصيبة ! إلهي أ تحل كربة هذه المصيبة بساحتهما !

ثم كان يقول: إلهي ارزقني ولداً تقرّ به عيني على الكبر، فإذا رزقتنيه فافتنّي

---

(١١) راجع بحار الأنوار (٢٤٤/٤٤).

بحبّه، ثم أفجعني به، كما تفجع محمداً حبيبك بولده، فرزقه الله يحيى وفجعه به، وكان حمل يحيى ستة أشهر وحمل الحسين عليه السلام كذلك(١٢).

ما ورد في عيسى عليه السلام

روي: أن عيسى عليه السلام كان سائحاً في البراري ومعه الحواريون، فمرّوا بكربلاء فرأوا أسداً كاسراً قد أخذ الطّريق، فتقدّم عيسى إلى الأسد فقال له: لم جلست في هذا الطريق وقال لا تدعنا نمر فيه، فقال الأسد بلسان فصيح: إني لم أدع لكم الطريق حتى تلعنوا يزيد قاتل الحسين عليه السلام.

فقال عيسى عليه السلام: ومن يكون الحسين؟

قال: هو سبط محمد النبي الأمي، وابن علي الولي.

قال: ومن قاتله؟

قال: قاتله لعين الوحوش والذباب والسّباع أجمع، خصوصاً أيام عاشوراء، فرفع عيسى يديه ولعن يزيد ودعا عليه وأمّن الحواريون على دعائه، فتنحّى الأسد عن طريقهم ومضوا لشأنهم(١٣).

وروي في أمالي الصدوق بالإسناد إلى ابن عباس قال: كنت مع أمير المؤمنين

---

(١٢) راجع الإحتجاج (٢/٤٦٤)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٢٤) و(٥٢/٨٣)، إرشاد القلوب (٢/٤٢١)، دلائل الإمامة ص (٢٧٩)، كمال الدّين (٢/٤٦١)، مناقب ابن شهراشوب (٤/٨٤)، منتخب التواريخ ص (١٥٢)، ومعنى سُرِّي عنه همه: انكشف، والبُهرة: تتابع النفس، وزفر: أخرج نفسه بعد مده إياه.

(١٣) راجع بحار الأنوار (٤٤/٢٤٤)، وظنّي قوّي بأنّ الذباب تصحيف، والصّواب: "الذئاب".

عليه السلام في خروجه إلى صفين، فلمّا نزل نينوى بشط الفرات بكى طويلاً حتى سالت الدموع على صدره، وقال: والذي نفس علي بيده لقد حدثني الصادق المصدق صلى الله عليه وآله وسلم أني سأراها في خروجي إلى أهل البغي علينا، وهذه أرض كرب وبلاء، يدفن فيها الحسين عليه السلام وسبعة عشر رجلاً من ولدي وولد فاطمة، وإنها لفي السماوات معروفة تذكر أرض كرب وبلاء كما تذكر بقعة الحرمين وبقعة بيت المقدس.

ثم قال: يا ابن عباس اطلب في حولها بعر الظباء، فو الله ما كَذِبتُ ولا كُذّبتُ، وهي مصفرة، لونها لون الزعفران.

قال ابن عباس: فطلبتها فوجدتها مجتمعة على الصفة التي وصفها، فقال علي عليه السلام: صدق الله ورسوله، ثم قام عليه السلام يهرول إليها فحملها وشمّها وقال: هي هي بعينها، أ تعلم يا ابن عباس ما هذه الأبعار؟ هذه قد شمّها عيسى بن مريم، وذلك أنه مرّ بها ومعه الحواريون، فرأى هاهنا الظّباء مجتمعة وهي تبكي، فجلس عيسى وجلس الحواريون معه، فبكى وبكى الحواريون وهم لا يدرون لم جلس ولم بكى!!

فقالوا: يا روح الله وكلمته، ما يبكيك؟

قال: أ تعلمون أيّ أرض هذه؟

قالوا: لا.

قال: هذه أرض يقتل فيها فرخ الرّسول أحمد صلى الله عليه وآله وسلم وفرخ الحرّة الطاهرة البتول شبيهة أمي ويلحد، فيها طينة أطيب من المسك، لأنها طينة الفرخ المستشهد، وهكذا يكون طينة الأنبياء وأولاد الأنبياء، فهذه الظّباء تكلّمني وتقول

إنها ترعى في هذه الأرض شوقاً إلى تربة الفرخ المبارك، وزعمت أنها آمنة في هذه الأرض، ثم ضرب بيده إلى هذه الصّيران فشمّها وقال: هذه بعر الظباء على هذه الطيب لمكان حشيشها، اللهم فأبقها أبداً حتى يشمها أبوه فيكون له عزاء وسلوة[١٤].

رواسب الدّيانات السّماوية

خمسة قرون تفصل بين نبوّة عيسى عليه السلام وبعثة نبيّنا صلى الله عليه وآله تقريباً، انمحق فيها جوهر الدّيانات ولم يبقَ إلاّ بعض رسومها، وتطرّقت أيدي التّغيير إلى الكتب والأحكام فيها إلاّ قليلاً من تلك الحقائق التي غرسها الأنبياء عليهم السلام وأكّدها، فقد ظلّت عالقة في ذهنيّة أممهم، وتوارثوها بنحو من الإجمال.

وإنّ قضيّة مثل قضيّة الحسين عليه السلام تحوز عناصر الإلفات والخلود حريّة بأن تسبقها أصداؤها، ولابدّ أنّهم كانوا يستعظمون نبأ قتل ولد نبي آخر الزّمان الموعود ويستفظعون خطبه !! وإنّ بقاء أصداء شهادته إلى عهد قريب من المقتل مع اندثار كثير من الأحكام والتعاليم لدليل على عظم الحادثة !!

وربّما نعثر على أخبار نعتبرها من رواسب الدّيانة النّصرانيّة دون اليهوديّة، فالمسيح عليه السلام هو أقرب الأنبياء إلى نبيّنا عليهما السلام زمنيّاً، وبالتّالي فإن الفرصة في الإحتفاظ بالحقائق في الذّاكرة تكون أكبر، مضافاً إلى تكتّم اليهود على العقائد

---

(١٤) راجع أمالي الشيخ الصّدوق رحمه الله ص (٥٩٩)، وبحار الأنوار (٢٥٢/٤٤) و (٢٠١/٥٢)، والخرايج (١١٤٣/٣ و ١١٤٤)، كمال الدّين (٥٣٢/٢)، وقد أورد مختصراً وسيأتي تمام الخبر.

والحقائق، فهي أمّة تحبس الحق بإحكام حتّى عُدّ ذلك من سماتها، بيد أنّنا نجد في مطاوي كتبنا القيّمة أصول تلك الحقائق، ولابدّ أن يكون موسى عليه السلام قد أكّد لليهود فضلَ البكاء على الإمام الحسين عليه السلام وشرح لهم تفاصيل الحادثة.

فقد ورد في مجمع البحرين: في حديث مناجاة موسى عليه السلام وقد قال: يا ربّ لم فضلت أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم على سائر الأمم ؟

فقال الله تعالى: فضلتهم لعشر خصال.

قال موسى: وما تلك الخصال التي يعملونها حتى آمر بني إسرائيل يعملونها.

قال الله تعالى: الصّلاة، والزكاة، والصّوم، والحج، والجهاد، والجمعة والجماعة، والقرآن، والعلم، والعاشوراء.

قال موسى: يا ربّ وما العاشوراء ؟

قال: البكاء والتباكي على سبط محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمرثيّة والعزاء على مصيبة ولد المصطفى، يا موسى ما من عبد من عبيدي في ذلك الزمان بكى أو تباكى وتعزّى على ولد المصطفى إلاّ وكانت له الجنّة ثابتاً فيها، وما من عبد أنفق من ماله في محبّة ابن بنت نبيه طعاماً وغير ذلك درهماً أو ديناراً إلاّ وباركتُ له في دار الدنيا الدرهم بسبعين وكان معافاً في الجنة وغفرت له ذنوبه، وعزّتي وجلالي ما من رجل أو امرأة سال دمع عينيه في يوم عاشوراء وغيره قطرة واحدة إلاّ وكتب له أجر ماءة شهيد[١٥].

إلاّ أنّه لم يرد في التأريخ اليهودي من ذلك عين ولا أثر، ولم نعثر على واردة

---

(١٥) راجع مجمع البحرين للشيخ الطريحي رحمه الله (٣/٤٠٥).

أو شاردة في هذا المجال، فقد تكتّموا على ما يختصّ بالنبي الخاتم ﷺ وجميع ما يتعلّق به إلاّ النزر اليسير ممّا سندرجه في كلمات كعب الأحبار، إلاّ أنّه ظهرت رواسب الدّيانة النصرانيّة المتعلّقة بكربلاء إلى عهد قريب من الإسلام، وكان بعض كبار الأحبار يعربون عن علمهم بالوقعة، مؤكّدين بذلك أصالة كربلاء في التراث النّصراني وسائر الدّيانات.

وقد روي عن كعب الأحبار حين أسلم في أيام خلافة عمر بن الخطاب وجعل الناس يسألونه عن الملاحم التي تظهر في آخر الزمان، فصار كعب يخبرهم بأنواع الأخبار والملاحم والفتن التي تظهر في العالم، ثم قال: وأعظمها فتنة وأشدّها مصيبة لا تُنسى إلى أبد الآبدين مصيبة الحسين عليه السلام وهي الفساد الذي ذكره الله تعالى في كتابه المجيد حيث قال: ﴿**ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾ وإنما فتح الفساد بقتل هابيل بن آدم وختم بقتل الحسين عليه السلام، أ و لا تعلمون أنه يفتح يوم قتله أبواب السّماوات ويؤذن السماء بالبكاء فتبكي دماً! فإذا رأيتم الحمرة في السّماء قد ارتفعت فاعلموا أن السّماء تبكي حسيناً.

فقيل: يا كعب، لم لا تفعل السماء كذلك ولا تبكي دماً لقتل الأنبياء ممّن كان أفضل من الحسين؟

فقال: ويحكم إن قتل الحسين أمر عظيم، وإنه ابن سيد المرسلين، وإنه يقتل علانية مبارزةً ظلماً وعدواناً، ولا تحفظ فيه وصيّة جده رسول الله ﷺ وهو مزاج مائه وبضعة من لحمه، يذبح بعرصة كربلاء، فو الذي نفس كعب بيده لتبكينه زمرة من الملائكة في السماوات السبع لا يقطعون بكاءهم عليه إلى آخر الدهر، وإن البقعة التي يدفن فيها خير البقاع، وما من نبيّ إلاّ ويأتي إليها

ويزورها ويبكي على مصابه، ولكربلاء في كل يوم زيارة من الملائكة والجن والإنس، فإذا كانت ليلة الجمعة ينزل إليها تسعون ألف ملك يبكون على الحسين ويذكرون فضله.

وإنه يسمى في السّماء حسيناً المذبوح، وفي الأرض أبا عبد الله المقتول، وفي البحار الفرخ الأزهر المظلوم، وإنه يوم قتله تنكسف الشمس بالنهار، ومن الليل ينخسف القمر، وتدوم الظلمة على الناس ثلاثة أيام، وتمطر السماء دماً، وتدكدك الجبال وتغطمط البحار، ولو لا بقيّة من ذريته وطائفة من شيعته الذين يطلبون بدمه ويأخذون بثأره لصب الله عليهم ناراً من السّماء أحرقت الأرض ومن عليها.

ثم قال كعب: يا قوم، كأنكم تتعجبون بما أحدثكم فيه من أمر الحسين عليه‌السلام، وإن الله تعالى لم يترك شيئاً كان أو يكون من أول الدهر إلى آخره إلاّ وقد فسّره لموسى عليه‌السلام، وما من نسمة خلقت إلاّ وقد رفعت إلى آدم في عالم الذّر وعرضت عليه، ولقد عرضت عليه هذه الأمة ونظر إليها وإلى اختلافها وتكالبها على هذه الدنيا الدّنية، فقال آدم: يا رب ما لهذه الأمة الزكيّة وبلاء الدنيا وهم أفضل الأمم؟ فقال له: يا آدم، إنهم اختلفوا فاختلفت قلوبهم، وسيظهرون الفساد في الأرض كفساد قابيل حين قتل هابيل، وإنهم يقتلون فرخ حبيبي محمد المصطفى، ثم مثل لآدم عليه‌السلام مقتل الحسين ومصرعه ووثوب أمة جده عليه، فنظر إليهم فرآهم مسودّة وجوههم، فقال: يا رب ابسط عليهم الإنتقام كما قتلوا فرخ نبيك الكريم عليه‌السلام[١٦].

---

(١٦) راجع بحار الأنوار (٤٥/٣١٥). وروي في أمالي الصدوق ص (١٣١) بإسناده إلى سالم بن

وفيه بإسناده إلى يحيى بن يمان عن إمام لبني سليم عن أشياخ لهم قالوا: غزونا بلاد الرّوم فدخلنا كنيسة من كنائسهم، فوجدنا فيها مكتوباً:

أ يَرجُو مَعشرٌ قتلوا حُسَيناً شفاعَةَ جدِّهِ يومَ الحسابِ

قالوا: فسألنا منذ كم هذا في كنيستكم؟

قالوا: قبل أن يبعث نبيّكم بثلاثمئة عام[١٧].

وذكر في كتاب الياقوت أنّ عبد الله بن الصفار قال: غزونا غزاة وسبينا سبياً وكان فيهم شيخ من عقلاء النصارى فأكرمناه وأحسنّا إليه فقال لنا: أخبرني أبي

أبي جعدة قال: سمعت كعب الأحبار يقول: إن في كتابنا أن رجلاً من ولد محمد رسول الله ﷺ يُقتل، ولا يجفّ عرق دواب أصحابه حتى يدخلوا الجنة فيعانقوا الحور العين، فمرّ بنا الحسن عليه السلام فقلنا هو هذا؟ قال: لا، فمرّ بنا الحسين، فقلنا: هو هذا؟ قال: نعم.

(١٧) راجع أمالي الشيخ الصّدوق رحمه الله ص (١٣١)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٢٤)، وبشارة المصطفى ص (٢٠١).

وروي في مثير الأحزان ص (٩٦)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٢٤) بسند إلى سليمان الأعمش قال: بينا أنا في الطواف أيام الموسم إذا رجل يقول: اللهم اغفر لي، وأنا أعلم أنك لا تغفر، فسألته عن السبب فقال: كنت أحد الأربعين الذين حملوا رأس الحسين عليه السلام إلى يزيد على طريق الشّام، فنزلنا أوّل مرحلة رحلنا من كربلاء على دير للنصارى والرأس مركوز على رمح، فوضعنا الطعام ونحن نأكل، إذا بكف على حائط الدير يكتب عليه بقلم حديد سطرا بدم:

أيرجو معشرٌ قتلوا حسيناً شفاعة جده يوم الحساب

فجزعنا جزعاً شديداً، وأهوى بعضنا إلى الكف ليأخذه فغابت فعاد أصحابي.

وحدّث عبد الرحمن بن مسلم عن أبيه أنه قال: غزونا بلاد الروم فأتينا كنيسة من كنائسهم قريبة من القسطنطينية وعليها شيء مكتوب، فسألنا أناسا من أهل الشام يقرؤون بالرّومية فإذا هو مكتوب هذا البيت.

عن آبائه أنهم حفروا في بلاد الروم حفراً قبل أن يبعث محمد العربي بثلاثمئة سنة، فأصابوا حجراً عليه مكتوب بالمسند هذا البيت:

أيرجو معشرٌ قتلوا حسيناً شفاعةَ جدِّهِ يومَ الحسابِ

والمسند كلام أولاد شيث عليه السلام[١٨].

وبقيَت أصداء خبر المقتل مجلجلة في تاريخ النصارى، وتردّد خبره مع اسم النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام على ألسنة كبّار النّصارى، وقد دوّن التأريخ بعض حالات قس بن ساعدة الأيادي، وهو خطيب جاهلي، يُضرب به المثل في البلاغة والحكمة، والموعظة الحسنة، وهو أوَّل من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأوَّل من توكَّأ على سيف أو عصا في خطابه، ويُقال أنّه عمّر ستّمئة سنة !! وكان يعرف النبي صلى الله عليه وآله باسمه ونسبه ويبشر الناس بخروجه وينتظر ظهوره، وكان يقول لأهل الجاهليّة: إن لله ديناً خير من الدين الذي أنتم عليه، وكان النبي صلى الله عليه وآله إذا ذكره ترحم عليه وقال: " يحشر يوم القيامة أمة وحده ".

وكان يستعمل التقية ويأمر بها في خلال وعظه الناس، ومن أقواله: " البينة على المدَّعي، واليمين على من أنكر " وكان لا يستودع دينه أحداً، وكان يتكلم بما يخفى معناه على العوام، ولا يستدركه إلاّ للخواص.

ويروى إن قس بن ساعدة الأيادى تكلّم بالنّبوة الخاتمة قبل ولادة النبي صلى الله عليه وآله بعشر سنين في عرفات، ودعى به للإستسقاء.

فقد روي في مناقب آل أبي طالب: عن الجارود بن المنذر العبدي، وكان

---

(١٨) راجع مثير الأحزان ص (٩٧)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٢٥).

نصرانيّاً فأسلم عام الحديبية وأنشد شعراً، يقول: يا نبي الهدى أتتك رجال. فقال رسول الله ﷺ: أ فيكم من يعرف قس بن ساعدة الأيادي ؟

فقال: الجارود: كلّنا يا رسول الله نعرفه، غير أني من بينهم عارف بخبره واقف على أثره.

فقال سلمان: أخبرنا.

فقال: يا رسول الله، لقد شهدت قسّاً وقد خرج من ناد من أندية أياد، إلى ضحضح ذي قتاد، وسمر وغياد، وهو مشتمل بنجاد، فوقف في إضحيان ليل كالشمس، رافعاً الى السماء وجهه وإصبعه، فدنوت منه فسمعته يقول: " اللهم ربّ السّماوات الأرفعة، والأرضين الممرعة بحق محمد والثلاثة المحاميد معه، والعليين الأربعة وفاطم والحسنين المسمعة، وجعفر وموسى التبعة، سمي الكليم الضرعة، أولئك النقباء الشفعة، والطريق المهيعة، درسة الأناجيل، ومحاة الأضاليل، ونفاة الأباطيل، الصّادقي القيل، عدد نقباء بني إسرائيل، فهم أوّل البداية، وهم نهاية النهاية، وعليهم تقوم الساعة، وبهم تنال الشّفاعة، ولهم من الله فرض الطاعة. إسقنا غيثا مغيثا ".

ثم قال: ليتني مدركهم ولو بعد لأي من عمري ومحياي، ثم أنشأ يقول:

أقسمَ قسٌّ قَسَماً ليسَ لهُ مُكتّما

لو عاشَ ألفي سنةٍ لم يلقَ منها سأَما

حتّى يُلاقي أحمداً والنُّقباءَ الحُكَما

هُم أصفياءُ أحمدٍ أفضلُ من تحتَ السّما

تعمى العيونُ عنهمُ وهُم ضياءٌ للعَمَى

لســـتُ بنـــاسٍ ذكـــرَهم حتّـــى أحـــلّ الرّجمـــا[١٩]

---

(١٩) راجع مناقب ابن شهراشوب (١/٢٨٧)، عنه البحار (٣٨/٤٣). وقد روت كتب الحديث والتراجم الشيء الكثير عن فضله وأورت أخباره مفصّلة، فراجع على سبيل المثال: كمال الدين (١/١٦٦-١٦٩)، وكنز الفوائد (٢/١٣٤-١٣٩)، وبحار الأنوار (١٨/٢٩٣)، والمنجد، قسم الأعلام، ﷺ (٤١٦) ط سنة ١٩٥٦م، وبلغ من حكمته ومعرفته أن النبي ﷺ كان يسأل من يقدم عليه من أياد عن حكمه، ويصغي إليه سمعه: فعن أبي جعفر عليه السلام قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بفناء الكعبة يوم افتتح مكة، إذ أقبل إليه وفد فسلّموا عليه، فقال رسول الله ﷺ: مَنْ القوم ؟. قالوا: وفد بكر بن وائل. قال: فهل عندكم علم من خبر قس بن ساعدة الأيادي ؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: فما فعل ؟ قالوا: مات.

فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله رب الموت ورب الحياة ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾؛ كأني أنظر إلى قس بن ساعدة الأيادي وهو بسوق عكاظ على جمل له أحمر، وهو يخطب الناس ويقول: " إجتمعوا أيها الناس، فإذا اجتمعتم فأنصتوا، فإذا أنصتّم فاسمعوا، فإذا سمعتم فعوا، فإذا وعيتم فاحفظوا، فإذا حفظتم فاصدقوا، ألا أنه من عاش مات، ومن مات فات، ومن فات فليس بآت؛ إن في السماء خبراً، وفي الأرض عبراً، سقف مرفوع، ومهاد موضوع، ونجوم تمور، وليل يدور، وبحار ماء لا تغور.

يحلف قس ما هذا بلعب، وإن من وراء هذا لعجبا، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟. يحلف قس يميناً غير كاذبه أن لله ديناً هو خير من الدين الذي أنتم عليه ".

ثمّ قال رسول الله ﷺ: " رحم الله قسّاً، يحشر يوم القيامة أمة وحده "، قال ﷺ: هل فيكم أحد يحسن من شعره شيئاً ؟ فقال بعضهم: سمعته يقول:

في الأولـــيـنَ الـــذاهبينَ مـــن القـــرونِ لنـــا بصـــائر
لّمـــا رأيـــتُ مـــوارداً للمـــوت لـــيس لهـــا مصـــادر
و رأيـــتُ قـــومي نحوَهـــا تمضـــي الأكـــابرُ و الأصـــاغر

وتكلّم قس رحمه الله كذلك في بعض الأحداث المهمّة التي كانت بعد وفاة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وذكر الوقائع الحاسمة في تاريخ الإمامة ، كصفّين والجمل.. ويوم الإمام الحسين عليه السلام !! ففي مناقب ابن شهراشوب ، قال سعد بن أبي وقاص : أن قس بن ساعده الأيادي قال قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

تَخلّفَ المقدارَ منهم عُصبةٌ ثاروا بصفّينَ وفي يومِ الجمَلْ
والتزمَ الثأرَ الحسينُ بعدَه واحتشدوا على ابنِه حتّى قُتِل[٢٠]

وتلاحظ أنّه استخدم لفظتي الثّأر والقتل في التعبير عن مجمل حادثة الإمام الحسين عليه السلام ، وهي مفردات تلخّص الحدث بأبعاده الخاصّة في الفكر الشّيعي ، فقد قُتل حتّى لزم الأخذ بثأره من بعده على يد الإمام المهدي عليه السلام من ولده ، والبيتان دالاّن على أنّ حادثة الطّف كانت متداولة معهودة قبل وقوعها بعهد طويل ، وكان يحكي الخواص تفاصيلَها للعامّة ، كتعبير عن أصداء الحادثة التي سبَقت وقوعها ، وفي كتب التأريخ شواهد على ذلك.

←

لا يرجعُ الماضي إليّ ولا من الباقين غابر
أيقنتُ أني لا محالةَ حيثُ صارَ القومُ صائر

(٢٠) راجع مناقب ابن شهراشوب (٤/٦٢)، وعنه بحار الأنوار (٤٤/٢٤٠)، ومعنى تخلف المقدار: جازوا قدرهم وتعدّوا طورهم، أو كثروا حتى لا يحيط بهم مقدار وعدد، وقوله ثاروا: من الثوران أو من الثأر، من قولهم ثأرت القتيل أي قتلت قاتله، فإنهم كانوا يدعون طلب دم عثمان ومن قتل منهم في غزوات الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ويؤيده قوله: والتزم الثأر أي طلبوا الثأر بعد ذلك من الحسين عليه السلام لأجل من قتل منهم في الجمل وصفين وغير ذلك، أو المعنى أنهم قتلوه حتى لزم ثأره.

ولم يكن يوحى لقسّ الأيادي، وربّما يكون قد وجد ذلك مكتوباً في كتب خاصّة قد ورثها عن ثقاته، أو أنّه نقله عن صادقين متّصلاً بالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وقد مرّ بنا خبره في هذا المجال.

مقتل الحسين في القرآن

لقد أثّرت واقعة كربلاء على المكوّنات بما فيها الأرض والسّماء، وما يُرى وما لا يُرى، وتردّدت أصداؤها في عوالم الإمكان، ولّما أن طبّقت أصداؤها كتاب التكوين فقد طفح بذكرها كتاب التّدوين، وكانت حاضرة بتفاصيلها في طوايا القرآن الكريم.

والمتدبّر الحزين يجد آهاتها في كلّ زاوية من المصحف، بل وفي أوّل كلمة نزلت على صدر نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: ﴿**اقْرَأْ**﴾، ولم يتوانى النبي صلى الله عليه وآله في قراءة فضائل الحسين عليه السلام وخبر مصرعه، كما أنّ خبر المقتل حاضرٌ في آيات الفضائل والأحكام والعبر والقصص لمن تأمّل وتدبّر.

وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام الشّيء الكثير في خصوص تحديد الآيات المأوّلة بشهادته عليه السلام والتي سلّطت النّور على جانب المأساة والحادثة، ومن أهمّها.

❖ وجوب القتال معه:

روي في تفسير العياشي بسنده إلى إدريس مولى عبد الله بن جعفر عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال في تفسير هذه الآية: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ**

أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ : إلى خروج القائم عليه السلام فإن معه النصر والظّفر، قال الله : ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى**﴾(٢١).

وفيه أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : ﴿**كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**﴾ قال : نزلت في الحسن بن علي عليه السلام أمره الله بالكف، قلت : ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ**﴾ قال : نزلت في الحسين بن علي، كتب الله عليه وعلى أهل الأرض أن يقاتلوا معه(٢٢).

وفي نوادر علي بن أسباط عن الحسن بن زياد العطّار قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿**أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**﴾ قال : نزلت في الحسن بن علي عليه السلام، أمره الله بالكف.

قلت : ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ**﴾ قال : نزلت في الحسين بن علي عليه السلام

---

(٢١) راجع تفسير العيّاشي (١/٢٥٧)، وبحار الأنوار (٤٤/٢١٧). وفي تفسير العيّاشي أيضاً (١/٢٥٨) و(٢/٢٣٥)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٥ و ٢١٧) و (٥٢/١٣٢)، والكافي (٨/٣٣٠) بسنده إلى محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : والله الذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس، والله لفيه نزلت هذه الآية : ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾ إنما هي طاعة الإمام، فطلبوا القتال ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ**﴾ مع الحسين ﴿**قَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ**﴾ وقوله : ﴿**رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ**﴾ أرادوا تأخير ذلك إلى القائم عليه السلام.

وفيه أيضاً (١/٢٥٨)، وبحار الأنوار (٤٤/٢١٧) : عن الحلبي عنه عليه السلام : ﴿**كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ**﴾ قال : يعني ألسنتكم.

(٢٢) راجع تفسير العيّاشي (١/٢٥٨)، وبحار الأنوار (٤٤/٢١٧ و ٢٢٠).

كتب الله عليه وعلى أهل الأرض أن يقاتلوا معه[٢٣].

❖ النّفس المحرّمة والمقتول ظلماً:

في الآية الكريمة: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا**﴾

رُوِيَ في تفسير العياشي بسنده إلى المعلى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول: قتل النّفس التي حرم الله فقد قتلوا الحسين عليه السلام في أهل بيته.

وفيه بسنده إلى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: نزلت هذه الآية في الحسين: ﴿**وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ**﴾ قاتل الحسين ﴿**إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا**﴾ قال: الحسين عليه السلام[٢٤].

وفيه بسنده إلى سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام في قوله ﴿**وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا**﴾ قال: هو الحسين بن علي عليه السلام، قُتل مظلوماً ونحن أولياؤه، والقائم منّا، إذا قام طلب بثأر الحسين عليه السلام، فيقتل حتى يقال قد أسرف في القتل، وقال: المقتول الحسين، ووليّه القائم، والإسراف في القتل أن يقتل غير قاتله، ﴿**إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا**﴾ فإنه لا يذهب من الدّنيا حتى ينتصر برجل من آل رسول الله عليه السلام يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً[٢٥].

---

(٢٣) راجع بحار الأنوار (٢٢٠/٤٤). وفيه: قال علي بن أسباط ورواه بعض أصحابنا عن أبي جعفر عليه السلام وقال: لو قاتل معه أهل الأرض كلهم لقتلوا كلهم.

(٢٤) راجع تفسير العيّاشي (٢٩٠/٢)، وبحار الأنوار (٢١٨/٤٤).

(٢٥) راجع تفسير العيّاشي (٢٩٠/٢)، وبحار الأنوار (٢١٨/٤٤).

وفي الكافي بسنده إلى الحجّال عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله عز وجل: ﴿**وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ**﴾ قال: نزلت في الحسين عليه السلام لو قتل أهل الأرض به ما كان سرفاً(٢٦).

وفي كامل الزيارات بسنده إلى محمد بن سنان عن رجل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ**﴾ قال: ذلك قائم آل محمد، يخرج فيقتل بدم الحسين بن علي، فلو قتل أهل الأرض لم يكن سرفاً، وقوله تعالى: ﴿**فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ**﴾ لم يكن ليصنع شيئاً يكون سرفاً، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: يقتل والله ذراري قتلة الحسين بفعال آبائها(٢٧).

وفي تفسير العياشي عن الحسن بيّاع الهروي يرفعه عن أحدهما عليهما السلام في قوله: ﴿**فَلا عُدْوانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ قال: إلاّ على ذرية قتلة الحسين عليه السلام(٢٨).

❖ النفس المطمئنّة:

سَمَّى القرآنُ الكريم الإمامَ الحسين عليه السلام النفسَ المطمئنّة في سورة الفجر، وقد سمّى الإمام عليه السلام سورة الفجر سورة الحسين عليه السلام.

إذ رُوِيَ في تفسير القمي بسنده إلى ابن البطائني عن أبيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً**

(٢٦) راجع الكافي (٢٥٥/٨)، وبحار الأنوار (٢١٩/٤٤).

(٢٧) راجع كامل الزيارات ص (٦٣)، وبحار الأنوار (٢٩٨/٤٥).

(٢٨) راجع تفسير العياشي (٨٦/١)، وبحار الأنوار (٢٩٨/٤٥)، ووسائل الشيعة (١٤٢/١٦).

مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ يعني الحسين بن علي عليه السلام[٢٩].

وفي كنز جامع الفوائد بسنده إلى دارم بن فرقد أنّ أبا عبد الله عليه السلام قال: إقرأوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم، فإنّها سورة الحسين بن علي عليه السلام وارغبوا فيها رحمكم الله تعالى.

فقال له أبو أسامة وكان حاضر المجلس: وكيف صارت هذه السورة للحسين عليه السلام خاصة؟

فقال: أ لا تسمع إلى قوله تعالى: **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾** إنما يعني الحسين بن علي عليه السلام فهو ذو النفس المطمئنة الراضية المرضية، وأصحابه من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم هم الراضون عن الله يوم القيامة، وهو راض عنهم، وهذه السورة في الحسين بن علي عليه السلام وشيعته وشيعة آل محمد خاصة، من أدمن قراءة **﴿وَالفَجْرِ﴾** كان مع الحسين بن علي عليه السلام في درجته في الجنة، إنّ الله عزيز حكيم[٣٠].

❖ إخراجه من داره:

روي في تفسير فرات بسنده إلى أبي عبد الله الصّادق عليه السلام في قول الله تعالى: **﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾** قال: نزل في علي وجعفر وحمزة وجرت في الحسين بن علي عليه السلام[٣١].

---

(٢٩) راجع تفسير القمّي (٤٢٢/٢)، وبحار الأنوار (٣٥٠/٢٤) و (٢١٩/٤٤).

(٣٠) راجع بحار الأنوار (٣٩/٢٤) و (٢١٨/٤٤)، تأويل الآيات ص (٧٦٩).

(٣١) راجع تفسير فرات ص (٢٧٣)، وتجد الخبر وأشباهه في كثير من المصادر المعتبرة، منها: بحار الأنوار (٢٢٣/٢٤ و ٢٢٧) و (١٤٦/٣٦) و (٢١٩/٤٤)، وتأويل الآيات ص (٣٣٥)،

❖ سقم إبراهيم عليه السلام حزناً عليه :

روي الشّيخ الكليني في الكافي بسنده إلى علي بن محمد رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿**فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ**﴾ قال: حسب، فرأى ما يحل بالحسين عليه السلام فقال: إني سقيم لما يحل بالحسين عليه السلام[٣٢].

❖ الموؤودة من غير ذنب :

روى ابن قولويه في كامل الزيارات بسنده إلى ابن أبي عمير عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿**وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾ قال: نزلت في الحسين بن علي عليه السلام[٣٣].

❖ نصر الله للحسين عليه السلام :

روي في كامل الزيارات عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: تلى هذه الآية ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾ قال: الحسين بن علي عليه السلام منهم، ولم ينصر بعد، ثم قال: والله لقد قتل قتلة الحسين عليه السلام ولم يُطلب بدمه بعد[٣٤].

أصداء المقتل في السيرة النبويّة

أوردنا في كتابنا " الدّمعة السّاكبة " المآتم التي عقدها النبي صلى الله عليه وآله على ولده

→

وشواهد التنزيل (١/٥٢١)، والكافي (٨/٣٣٧).

(٣٢) راجع الكافي (١/٤٦٥)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٢٠).

(٣٣) راجع كامل الزّيارات ص (٦٣)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٢٠).

(٣٤) راجع كامل الزّيارات ص (٦٣)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٩٨).

الحسين عليه السلام قبل شهادته، وحاولنا أن نتقصّى أكثر الرّوايات الواردة في كتب أهل السنّة، وسنورد هنا بعض الأخبار الواردة في كتبنا المعتبرة مرويّة عن أهل البيت عليهم السلام، فهم أدرى بالبيت وما فيه.

ويمكن لنا القول أنّ الله سبحانه قد شيّد خبر مقتل الحسين عليه السلام وأكّده بشكل متكرّر، حتى صارت قضيّة محتومة لا يتطرّق إليها المحو والإثبات، ونصوص الأخبار تقتضي تكرار نزول جبرئيل عليه السلام بخبر مقتله بتعدّد ظروف الحوادث.

وطبيعي أن تتزايد أصداء المقتل الحسيني في عهد الدّعوة النبويّة وتطفح بها سيرته الطيّبة، لاتصال النبوّة بالإمامة، ولكون مقتله يقوّض بأسس مشروع النبوّة الدّيني الذي بذل له النبي صلى الله عليه وآله الغالي والنّفيس.. ولقرب زمان النبوّة من زمن الحدث المُفجع.

فروى الشّيخ الطّوسي بسنده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: بينا الحسين عند رسول الله صلى الله عليه وآله إذ أتاه جبرئيل فقال: يا محمد، أ تحبّه ؟

قال: نعم.

قال: أما إن أمتك ستقتله، فحزن رسول الله لذلك حزناً شديداً، فقال جبرئيل: أ يسرّك أن أريك التربة التي يُقتل فيها ؟

قال: نعم.

قال: فخسف جبرئيل ما بين مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله إلى كربلاء حتى التقت القطعتان هكذا - وجمع بين السبابتين - فتناول بجناحيه من التربة فناولها رسول الله صلى الله عليه وآله ثم دحيت الأرض أسرع من طرف العين.

فقال رسول الله : طوبى لك من تربة وطوبى لمن يقتل فيك[٣٥].

وفي كامل الزيارات بسنده إلى محمد بن سنان عن سعيد بن يسار أو غيره قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : لما أن هبط جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله بقتل الحسين عليه السلام أخذ بيد علي فخلى به مليّا من النهار فغلبتهما عبرة ، فلم يتفرّقا حتى هبط عليهما جبرئيل - أو قال رسول رب العالمين - فقال لهما : ربّكما يقرئكما السلام ويقول : قد عزمت عليكما لما صبرتما ، قال : فصبرا[٣٦].

وقد يكون نزول جبرئيل عليه السلام وهو صاحب الوحي بخبر مقتل الحسين عليه السلام مفهوماً ، فجبريل هو طريق النبي صلى الله عليه وآله إلى أخبار الغيب وأنباء السّماوات ، إلاّ أنّ نزول عدّة أخرى من الملائكة على النبي صلى الله عليه وآله يحملون إليه أنباء مقتل ولده عليه السلام أمرٌ يدعو إلى التأمّل ، فإنّ منهم من هبط إلى الأرض لمجرّد التشرّف وإلقاء التحيّة عليه صلى الله عليه وآله فحمّلهم الجليل خبر المقتل إليه !! وإنّ هذا كاشف عن عظم المصيبة في السماوات على جميع أهل السماوات ، ويعبّر عن أصداء المقتل في العالم الآخر !!

ففي أمالي الشيخ الطوسي بسنده إلى أنس بن مالك : أن عظيما من عظماء الملائكة استأذن ربه عز وجل في زيارة النبي صلى الله عليه وآله فأذن له ، فبينما هو عنده إذ دخل

---

(٣٥) راجع أمالي الطّوسي ص (٣١٤) ، وبحار الأنوار (٤٤/٢٢٨) ، بشارة المصطفى ص (٢١٤).

(٣٦) راجع كامل الزّيارات ص (٥٥) ، وبحار الأنوار (٤٤/٢٣١). وروي في كامل الزّيارات ص (٦١) ، وبحار الأنوار (٤٤/٢٣٧) عن ابن عباس أنّه قال : الملك الذي جاء إلى محمد صلى الله عليه وآله يخبره بقتل الحسين كان جبرئيل الروح الأمين منشور الأجنحة باكياً صارخاً ، قد حمل من تربته ، وهو يفوح كالمسك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وتفلح أمة تقتل فرخي - أو قال فرخ ابنتي - ؟ قال جبرئيل : يضربها الله بالإختلاف فيختلف قلوبهم.

عليه الحسين عليه‌السلام فقبّله النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وأجلسه في حجره، فقال له الملك: أ تحبه ؟

قال: أجل، أشد الحب، إنه ابني.

قال له إن أمتك ستقتله.

قال: أمّتي تقتل ولدي !!

قال: نعم، وإن شئت أريتك من التربة التي يقتل عليها.

قال: نعم، فأراه تربة حمراء طيّبة الريح، فقال: إذا صارت هذه التربة دماً عبيطاً فهو علامة قتل ابنك هذا، وقيل أن الملك كان ميكائيل عليه‌السلام[٣٧].

وروى الشيخ الصدوق بسنده إلى أنس: أن ملك المطر استأذن أن يأتي رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، فقال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لأم سلمة: املكي علينا الباب لا يدخل علينا أحد، فجاء الحسين عليه‌السلام ليدخل، فمنعته فوثب حتى دخل، فجعل يثب على منكبي رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ويقعد عليهما.

فقال له الملك: أ تحبه ؟

قال: نعم.

قال: فإن أمّتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يُقتل فيه فمدّ يده، فإذا طينة حمراء، فأخذتها أم سلمة فصيرتها إلى طرف خمارها، قال ثابت فبلغنا أنه المكان الذي قتل به بكربلاء[٣٨].

وروي: أن ملكاً من ملائكة الصّفيح الأعلى اشتاق لرؤية النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم

---

(٣٧) راجع أمالي الطّوسي ص (٣١٤)، وبحار الأنوار (٢٢٨/٤٤).

(٣٨) راجع أمالي الطّوسي ص (٣٢٩)، وبحار الأنوار (١٢٤/١٨) و (٢٣١/٤٤)، وأعلام الورى ص (٣٣).

واستأذن ربه بالنزول إلى الأرض لزيارته، وكان ذلك الملك لم ينزل إلى الأرض أبداً منذ خلقت، فلمّا أراد النزول أوحى الله تعالى إليه يقول: أيها الملك، أخبر محمداً أن رجلاً من أمته اسمه يزيد يقتل فرخه الطاهر بن الطاهرة نظيرة البتول مريم بنت عمران، فقال الملك: لقد نزلت إلى الأرض وأنا مسرور برؤية نبيّك محمد، فكيف أخبره بهذا الخبر الفضيح!! وإنني لأستحيي منه أن أفجعه بقتل ولده، فليتني لم أنزل إلى الأرض.

قال: فنودي الملك من فوق رأسه: أن افعل ما أمرت به.

فدخل الملك إلى رسول الله ﷺ ونشر أجنحته بين يديه، وقال: يا رسول الله، إعلم أني استأذنت ربّي في النزول إلى الأرض شوقاً لرؤيتك وزيارتك، فليت ربّي كان حطّم أجنحتي ولم آتك بهذا الخبر، ولكن لا بد من إنفاذ أمر ربي عز وجل، إعلم يا محمد أن رجلاً من أمتك اسمه يزيد زاده الله لعناً في الدنيا وعذاباً في الآخرة يقتل فرخك الطّاهر بن الطّاهرة، ولم يتمتع قاتله في الدنيا من بعده إلاّ قليلاً، ويأخذه الله مقاصّاً له على سوء عمله، ويكون مخلّداً في النار.

فبكى النبي ﷺ بكاءً شديداً وقال: أيها الملك، هل تفلح أمة بقتل ولدي وفرخ ابنتي !!

فقال: لا يا محمد، بل يرميهم الله باختلاف قلوبهم وألسنتهم في دار الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم[٣٩].

ويُعلم من الأخبار علم النبي ﷺ بأشكال المصائب التي سيلاقيها الحسين

---

(٣٩) راجع بحار الأنوار (٤٥/٣١٤).

عليه السلام يوم عاشوراء، وفي الأخبار عرضٌ لتلك الصّور التي تلقّاها صلى الله عليه وآله من الوحي وكانت من دلائل صدق نبوّته فعلاً، وفيها تأكيد حتمي على وقوع الحادثة وتفعيل لأصدائها المفجعة، وكان ذلك مطبوعاً على سيرته صلى الله عليه وآله الطيّبة.

ففي كامل الزيارات بسنده إلى عبد الله بن محمد الصنعاني عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا دخل الحسين عليه السلام اجتذبه إليه ثم يقول لأمير المؤمنين عليه السلام: امسكه، ثم يقع عليه فيقبله ويبكي، فيقول: يا أبة لم تبكي ؟

فيقول: يا بني، أقبّل موضع السيوف منك وأبكي.

قال: يا أبة، وأقتل ؟

قال: إي والله، وأبوك وأخوك وأنت.

قال: يا أبة، فمصارعنا شتى ؟

قال: نعم يا بني.

قال: فمن يزورنا من أمتك ؟

قال: لا يزورني ويزور أباك وأخاك وأنت إلاّ الصدّيقون من أمتي[٤٠].

وكان قد سبَق العلم إلى النبي صلى الله عليه وآله وحياً بتلك الشجرة الخبيثة التي ستثمر البغي على أهل بيته عليهم السلام، إذ أوحي إليه صلى الله عليه وآله: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا**﴾ وروَى المفسّرون في أسباب نزولها أنّه صلى الله عليه وآله رأى في المنام بني أميّة ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك، وروى العامّة

---

(٤٠) راجع كامل الزيارات ص (٧٠)، وبحار الأنوار (٢٦١/٤٤) و (١١٩/٩٧).

عن سهل بن سعد أنّه قال: إنما هذه الرؤيا هي أن رسول الله ﷺ كان يرى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات ﷺ فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملّكهم وصعودهم يجعلها الله فتنة للناس وامتحانا.

ولم يرُق هذا القول للقرطبي فاستبعده في تفسيره، ووجه استبعاده هو أنّه ﷺ ما كان له بمكة منبر !! ثم استدرك قائلاً: ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة !! وفات شيخ المفسّرين أنّها رؤيا !! فإن لم يكن له في مكّة منبر صار المعبّر إلى تأويل ذلك، ومعلومٌ أنّ المنبر يعني محلّ سلطته ﷺ ويرمز لموضع أمره ونهيه، وهذا شائع في الإستعمال، فيُعبّر عن أيّ قناة إعلاميّة بالمنبر.

وأورَد القرطبي بعد ذلك قول مولانا الحسن الزكي عليه السلام لمعاوية في خطبة الصّلح: " وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ".. لكنّ تفسير الإمام عليه السلام لم يرُق للقرطبي أيضاً لأنّه يمسّ الكثيرين ممّن يحب !! فقال: قال ابن عطية: " وفي هذا التأويل نظَر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية " وهذا بيت القصيد !!

وأورد جمهور المفسّرين خبر هذه الرؤيا مقترنة بالآية الشريفة، وعليه فإنّ الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أميّة، وعرف ﷺ أنّهم يتسنّمون منصبه وينزون على منبره كما عرف جرائرهم وجرائمهم، وتأكّد لديه تشخيص قتلة ولده عليه السلام(٤١).

---

(٤١) وروي في مناقب ابن شهراشوب ص (٢٦٣)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٦٤): عن ابن عباس أنّه

ويقطع المتتبّع بشخوص المقتل الحسيني في كلّ نواحي السيرة النبويّة وحضوره في حُلْوِها ومُرِّها، ولهذا فإنّه أصبحت أصداؤه حالة في كثير من أخبار السيرة والفضائل والمناقب، فهي المأساة المرتبطة بكلّ أبعاد حياته ﷺ الدّينيّة والشّخصيّة.

ففي كامل الزّيارات بسنده إلى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: زارنا رسول الله ﷺ وقد أهدت لنا أم أيمن لبناً وزبداً وتمراً، فقدمنا منه فأكل ثم قام إلى زاوية البيت فصلّى ركعات، فلمّا كان في آخر سجوده بكى بكاءً شديداً، فلم يسأله أحد منّا إجلالاً وإعظاما له، فقام الحسين عليه السلام في

→

سألت هند - أم معاوية - عائشة أن تسأل النبي ﷺ تعبير رؤيا، فقال ﷺ: قولي لها فلتقصص رؤياها، فقالت: رأيت كأن الشمس قد طلعت من فوقي، والقمر قد خرج من مخرجي، وكأنّ كوكبا خرج من القمر أسود فشد على شمس خرجت من الشمس أصغر من الشمس، فابتلعها فاسود الأفق لابتلاعها، ثم رأيت كواكب بدت من السّماء، وكواكب مسودّة في الأرض، إلاّ إن المسودّة أحاطت بأفق الأرض من كل مكان، فاكتحلت عين رسول الله ﷺ بدموعه ثم قال: هي هند، أخرجي يا عدوةّ الله مرتين، فقد جددت عليّ أحزاني، ونعيت إليّ أحبابي.

فلمّا خرجت قال: اللهم العنها والعن نسلها !! فسئل عن تفسيرها فقال عليه السلام: أما الشمس التي طلعت عليها فعلي بن أبي طالب عليه السلام، والكوكب الذي خرج كالقمر أسود فهو معاوية، مفتون فاسق جاحد لله وتلك الظلمة التي زعمت، ورأت كوكباً يخرج من القمر أسود، فشدّ على شمس خرجت من الشمس أصغر من الشمس فابتلعها فاسودت، فذلك ابني الحسين عليه السلام يقتله ابن معاوية، فتسود الشمس ويظلم الأفق، وأما الكواكب السّود في الأرض أحاطت بالأرض من كل مكان فتلك بنو أمية.

حجره وقال له: يا أبة، لقد دخلت بيتنا فما سررنا بشيء كسرورنا بدخولك، ثم بكيت بكاءً غمّنا، فما أبكاك ؟

فقال: يا بني، أتاني جبرئيل عليه السلام آنفا فأخبرني أنكم قتلى، وأن مصارعكم شتّى، فقال: يا أبة، فما لمن يزور قبورنا على تشتّتها ؟

فقال: يا بني، أولئك طوائف من أمّتي يزورونكم فيلتمسون بذلك البركة، وحقيقٌ عليّ أن آتيهم يوم القيامة حتى أخلّصهم من أهوال السّاعة من ذنوبهم ويسكنهم الله الجنة(٤٢).

وفيه عن ابن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله في منزل فاطمة والحسين في حجره إذ بكى وخرّ ساجداً، ثم قال: يا فاطمة يا بنت محمّد، إن العليّ الأعلى تراءى لي في بيتك هذا ساعتي هذه في أحسن صورة وأهيأ هيئة، وقال لي: يا محمّد، أ تحب الحسين ؟

فقلت: نعم، قرة عيني وريحانتي وثمرة فؤادي وجلدة ما بين عيني.

فقال لي: يا محمد - ووضع يده على رأس الحسين - بورك من مولود، عليه بركاتي وصلواتي ورحمتي ورضواني، ولعنتي وسخطي وعذابي وخزيي ونكالي على من قتله وناصبه وناواه ونازعه، أما إنه سيد الشهداء من الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة وسيد شباب أهل الجنة من الخلق أجمعين، وأبوه أفضل منه وخير، فأقرأه السلام وبشّره بأنه راية الهدى ومنار أوليائي وحفيظي وشهيدي على خلقي وخازن علمي، وحجّتي على أهل السماوات وأهل

---

(٤٢) راجع كامل الزيارات ص (٥٧)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٣٤) و (٩٧/١١٨).

الأرضين والثقلين الجن والإنس[٤٣].

وفي تفسير فرات بإسناده إلى حذيفة أنّ النبي ﷺ قال: لما أسري بي أخذ جبرئيل بيدي فأدخلني الجنة وأنا مسرور، فإذا أنا بشجرة من نور مكلّلة بالنور، في أصلها ملكان يطويان الحلي والحلل إلى يوم القيامة، ثم تقدّمت أمامي فإذا أنا بتفّاح لم أر تفّاحاً هو أعظم منه، فأخذت واحدة ففلقتها فخرجت عليّ منها حوراء كأنّ أجفانها مقاديم أجنحة النّسور، فقُلت: لمن أنت؟

فبكت وقالت: لابنك المقتول ظلماً، الحسين بن علي بن أبي طالب.

ثم تقدّمت أمامي فإذا أنا برطب ألين من الزبد وأحلى من العسل، فأخذت رطبة فأكلتها وأنا أشتهيها، فتحوّلت الرطبة نطفة في صلبي، فلمّا هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة، ففاطمة حوراء إنسية، فإذا اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رائحة ابنتي فاطمة[٤٤].

ورُوِيَ: أن رسول الله ﷺ كان يَوماً مع جماعة من أصحابه مارّاً في بعض الطريق، وإذا هم بصِبيان يلعبون في ذلك الطريق، فجلس النبي ﷺ عند صبيّ منهم وجعل يقبّل ما بين عينيه ويلاطفه، ثم أقعده على حجره وكان يكثر تقبيله، فسئل عن علة ذلك فقال ﷺ: إني رأيت هذا الصبي يوماً يلعب مع الحسين عليه السلام، ورأيته يرفع التراب من تحت قدميه ويمسح به وجهه وعينيه، فأنا أحبه لحبه لولدي الحسين عليه السلام، ولقد أخبرني جبرئيل أنه يكون من أنصاره

(٤٣) راجع كامل الزيارات ص (٦٧)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٣٨).

(٤٤) راجع تفسير فرات ص (٧٥)، وبحار الأنوار (٨/١٩٠) و (٤٣/٢٩٨) و (٤٤/٢٤٠)، ومناقب ابن شهراشوب (٤/٧٥).

في وقعة كربلاء[٤٥].

وروي: أن الحسن والحسين عليهما السلام دخلا يوم عيد إلى حجرة جدّهما رسول الله صلى الله عليه وآله فقالا: يا جداه، اليوم يوم العيد، وقد تزين أولاد العرب بألوان اللباس ولبسوا جديد الثياب، وليس لنا ثوب جديد، وقد توجّهنا لذلك إليك، فتأمل النبي حالهما وبكى ولم يكن عنده في البيت ثياب يليق بهما، ولا رأى أن يمنعهما فيكسر خاطرهما، فدعا ربه وقال: إلهي اجبر قلبهما وقلب أمّهما.

فنزل جبرئيل ومعه حلتان بيضاوان من حلل الجنة، فسر النبي صلى الله عليه وآله وقال لهما: يا سيدي شباب أهل الجنة، خذا أثواباً خاطها خياط القدرة على قدر طولكما، فلما رأيا الخلع بيضاً قالا: يا جدّاه كيف هذا وجميع صبيان العرب لابسون ألوان الثياب !! فأطرق النبي صلى الله عليه وآله ساعة متفكراً في أمرهما.

فقال جبرئيل: يا محمد، طب نفساً وقر عيناً، إن صابغ صبغة الله عز وجل يقضي لهما هذا الأمر ويفرح قلوبهما بأيّ لون شاءا، فأمر يا محمد بإحضار الطّست والإبريق فأحضرا، فقال جبرئيل: يا رسول الله، أنا أصب الماء على هذه الخلع وأنت تفركهما بيدك فتصبغ لهما بأي لون شاءا، فوضع النبي حلة الحسن في الطست، فأخذ جبرئيل يصب الماء.

ثم أقبل النبي على الحسن وقال له: يا قرة عيني، بأي لون تريد حلتك ؟

فقال: أريدها خضراء، ففركها النبي بيده في ذلك الماء، فأخذت بقدرة الله لوناً أخضر فائقاً كالزبرجد الأخضر، فأخرجها النبي وأعطاها الحسن، فلبسها،

---

(٤٥) راجع بحار الأنوار (٤٤/ ٢٤٢).

ثم وضع حلة الحسين في الطست، وأخذ جبرئيل يصب الماء، فالتفت النبي إلى نحو الحسين وكان له من العمر خمس سنين وقال له: يا قرة عيني، أي لون تريد حلتك؟

فقال الحسين عليه السلام: يا جد، أريدها حمراء، ففركها النبي صلى الله عليه وآله بيده في ذلك الماء فصارت حمراء كالياقوت الأحمر، فلبسها الحسين، فسُرّ النبي صلى الله عليه وآله بذلك وتوجّه الحسن والحسين إلى أمهما فرحين مسرورين، فبكى جبرئيل عليه السلام لما شاهد تلك الحال، فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا أخي جبرئيل، في مثل هذا اليوم الذي فرح فيه ولداي تبكي وتحزن، فبالله عليك إلاّ ما أخبرتني!! فقال جبرئيل عليه السلام: اعلم يا رسول الله أن اختيار ابنيك على اختلاف اللون فلا بد للحسن أن يسقوه السم ويخضر لون جسده من عظم السّم، ولا بد للحسين عليه السلام أن يقتلوه ويذبحوه ويخضب بدنه من دمه، فبكى النبي صلى الله عليه وآله وزاد حزنه لذلك[٤٦].

وفي أمالي الصّدوق عن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من سرّه أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويدخل جنة عدن منزلي ويُمسك قضيباً غرَسه ربّي عز وجل ثم قال له كن فكان فليتولّ علي بن أبي طالب وليأتم بالأوصياء من ولده، فإنهم عترتي خُلقوا من طينتي، إلى الله أشكو أعداءهم من أمّتي، المنكرين لفضلهم، القاطعين فيهم صلتي، وأيم الله ليقتلن ابني بعدي الحسين، لا أنالهم الله شفاعتي[٤٧].

---

(٤٦) راجع بحار الأنوار (٢٤٥/٤٤).

(٤٧) راجع أمالي الصدوق ص (٣٦)، وبحار الأنوار (١٣٨/٢٣) و (٢٢٧/٣٦ و ٢٤٧) (٢٥٧/٤٤ و ٢٥٩)، وبشارة المصطفى ص (١٩١)، وبصائر الدّرجات ص (٤٩ و ٥٢)،

وروي عن بعض الصّحابة أنّه قال: رأيت النبي ﷺ يمصّ لعاب الحسين عليه‌السلام كما يمصّ الرجل السكرة، وهو يقول: حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، وأبغض الله من أبغض حسيناً، حسينٌ سبطٌ من الأسباط، لعن الله قاتله.

فنزل جبرئيل عليه‌السلام وقال: يا محمد، إن الله قتل بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً من المنافقين، وسيقتل بابن ابنتك الحسين سبعين ألفاً وسبعين ألفا من المعتدين، وإن قاتل الحسين في تابوت من نار، ويكون عليه نصف عذاب أهل الدنيا، وقد شدّت يداه ورجلاه بسلاسل من نار، وهو منكس على أم رأسه في قعر جهنم، وله ريح يتعوّذ أهل النار من شدة نتنها، وهو فيها خالد ذائق العذاب الأليم لا يفتر عنه، ويسقى من حميم جهنم(٤٨).

وظلّت أصداء المقتل الحسيني حاضرة في ذاكرة النبيّ ﷺ إلى آخر لحظات حياته، لعلمه بكونها اللحظة التي ينطلق منها الحقد الدفين ليوسع أهل بيته عليهم‌السلام ظلماً وهضماً، وهي لحظةٌ جديرة بتجدّد الحزن على ولده الحسين عليه‌السلام.

ففي مثير الأحزان عن ابن عباس قال: لما اشتد برسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه ضم الحسين عليه‌السلام إلى صدره يسيل من عرقه عليه وهو يجود بنفسه ويقول: ما لي وليزيد !! لا بارك الله فيه، اللهم العن يزيد، ثم غشي عليه طويلاً، وأفاق وجعل يقبّل الحسين عليه‌السلام وعيناه تذرفان ويقول: أما إن لي

وروضة الواعظين (١/ ١٠١).

(٤٨) راجع بحار الأنوار (٤٥/ ٣١٤).

ولقاتلك مقاماً بين يدي الله عز وجل(٤٩).

وكان ينفث النبيّ ﷺ همّ صدره بين أصحابه، ويستثمر الفرص المتاحة لنعي ولده عليه السلام وإظهار الحزن عليه، وكان لأهله النصيب الأوفر من نفثات حزنه، فروَت بعض أهله من أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن أخباراً عدّة في ظروف مختلفة كذلك.. وقد دوّت من بينها أخبار ورَدت عن أمّ سلمة(٥٠).

---

(٤٩) راجع مثير الأحزان ص (٢٢)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٦٦).

(٥٠) وقد وردت أخبار عديدة عن بعض أهله رضي الله عنهن أمّا ما ورد عن أمّ الفضل. ففي الإرشاد (١٢٩/٢)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٣٩)، وإعلام الورى ص (٢١٨)، وكشف الغمة (٧/٢) بالإسناد إلى أم الفضل بنت الحارث أنها دخلت على رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله رأيت الليلة حلما منكراً. قال: وما هو ؟ قالت: إنه شديد !! قال: وما هو ؟ قالت: رأيت كأنّ قطعة من جسدك قد قطعت ووضعت في حجري.فقال رسول الله ﷺ: خيراً رأيتِ، تلد فاطمة غلاماً فيكون في حجرك، فولدت فاطمة عليها السلام الحسين عليه السلام.

قالت: وكان في حجري كما قال رسول الله، فدخلت به يوماً على النبي فوضعته في حجر رسول الله ﷺ ثم حانت منّي التفاتة، فإذا عينا رسول الله ﷺ تهرقان بالدّموع. فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لك ؟ قال: أتاني جبرئيل، فأخبرني أن أمتي تقتل ابني هذا، وأتاني بتربة حمراء من تربته.

وأمّا ما ورد عن زينب بنت جحش. ففي أمالي الطوسي ص (٣١٦)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٢٩) بسند إلى زيد مولى زينب بنت جحش أنّها قالت: كان رسول الله ﷺ ذات يوم عندي نائماً فجاء الحسين عليه السلام، فجعلت أعلّله مخافة أن يوقظ النبي ﷺ، فغفلت عنه، فدخل واتبعته فوجدته وقد قعد على بطن النبي ﷺ، فوضع زبيبته في سرّة النبي فجعل يبول عليه، فأردت أن آخذه عنه فقال رسول الله ﷺ: دعي ابني يا زينب حتى يفرغ من بوله. فلمّا فرغ توضأ النبي ﷺ وقام يصلّي، فلمّا سجد ارتحله الحسين عليه السلام، فلبث النبي ﷺ حتى نزل، فلمّا قام عاد

فقد رُوي أنّها قالت: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم ودخل في أثره الحسن والحسين عليهما السلام وجلسا إلى جانبيه، فأخذ الحسن عليه السلام على ركبته اليمنى والحسين عليه السلام على ركبته اليُسرى، وجعل يقبّل هذا تارة وهذا أخرى، وإذا بجبرئيل قد نزل وقال: يا رسول الله، إنك لتحب الحسن والحسين.

فقال: وكيف لا أحبّهما وهما ريحانتاي من الدنيا وقرّتا عيني !!

فقال جبرئيل: يا نبي الله، إن الله قد حكم عليهما بأمر فاصبر له.

الحسين فحمله حتى فرغ من صلاته، فبسط النبي ﷺ يده وجعل يقول: أرني أرني يا جبرئيل. فقلت: يا رسول الله، لقد رأيتك اليوم صنعت شيئاً ما رأيتك صنعته قط. قال: نعم، جاءني جبرئيل فعزّاني في ابني الحسين وأخبرني أن أمتي تقتله وأتاني بتربة حمراء.

وأمّا ما ورد عن عائشة. فقد روى الشيخ الطوسي في أماليه ص (٣١٦)، وبحار الأنوار (٢٣٠/٤٤) بسنده إلى أبي سلمة عن عائشة أن رسول الله ﷺ أجلس حسيناً عليه السلام على فخذه وجعل يقبّله، فقال جبرئيل: أ تحبّ ابنك هذا ؟ قال: نعم. قال: فإن أمتك ستقتله بعدك، فدمعت عينا رسول الله ﷺ، فقال له: إن شئت أريتك من تربته التي يقتل عليها. قال: نعم، فأراه جبرئيل تراباً من تراب الأرض التي يقتل عليها، وقال تدعى الطف.

وروي في كامل الزيارات ص (٦٨)، وبحار الأنوار (٢٣٩/٤٤) و (٣٥/٩٨)، ومناقب ابن شهراشوب (١٢٨/٤)، ووسائل الشيعة (٤٥٠/١٤) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان الحسين بن علي عليه السلام ذات يوم في حجر النبي ﷺ يلاعبه ويضاحكه، فقالت عائشة: يا رسول الله، ما أشد إعجابك بهذا الصبي !! فقال لها: ويلك، وكيف لا أحبّه ولا أعجب به وهو ثمرة فؤادي وقرة عيني، أما إن أمتي ستقتله، فمن زاره بعد وفاته كتب الله له حجة من حججي. قالت: يا رسول الله، حجة من حججك !! قال: نعم، وحجّتين من حججي. قالت: يا رسول الله، حجّتين من حججك !! قال: نعم، وأربعة. قال: فلم تزل تزاده ويزيد ويضعّف حتى بلغ تسعين حجة من حجج رسول الله ﷺ بأعمارها.

فقال: وما هو يا أخي ؟

فقال: قد حكم على هذا الحسن عليه السلام أن يموت مسموماً، وعلى هذا الحسين عليه السلام أن يموت مذبوحاً، وإن لكل نبي دعوة مستجابة، فإن شئت كانت دعوتك لولديك الحسن والحسين عليهما السلام، فادع الله أن يسلّمهما من السّم والقتل، وإن شئت كانت مصيبتهما ذخيرة في شفاعتك للعصاة من أمّتك يوم القيامة.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل، أنا راض بحكم ربّي، لا أريد إلاّ ما يريده، وقد أحببت أن تكون دعوتي ذخيرة لشفاعتي في العصاة من أمتي، ويقضي الله في ولدي ما يشاء[٥١].

---

(٥١) راجع بحار الأنوار (٢٤١/٤٤). وفي كتب الحديث روايات عديدة عن أم سلمة رضي الله عنها، منها ما روي في أمالي الصدوق ص (١٣٩)، وبحار الأنوار (٢٢٥/٤٤) بسند إلى أبي الجارود عن أبي عبد الله عليه السلام قال كان النبي صلى الله عليه وآله في بيت أم سلمة فقال لها: لا يدخل عليّ أحد، فجاء الحسين عليه السلام وهو طفل، فما ملكت معه شيئاً حتى دخل على النبي صلى الله عليه وآله، فدخلت أم سلمة على أثره، فإذا الحسين على صدره، وإذا النبي يبكي، وإذا في يده شيء يقلّبه، فقال النبي: يا أم سلمة، إن هذا جبرئيل يخبرني أن هذا مقتول، وهذه التربة التي يقتل عليها فضعيه عندك، فإذا صارت دماً فقد قتل حبيبي.

فقالت أم سلمة: يا رسول الله، سل الله أن يدفع ذلك عنه. قال: قد فعلت، فأوحى الله عز وجل إليّ أن له درجة لا ينالها أحد من المخلوقين، وأن له شيعة يشفعون فيشفعون، وأن المهدي من ولده، فطوبى لمن كان من أولياء الحسين عليه السلام وشيعته، هم والله الفائزون يوم القيامة.

وفي كامل الزّيارات ص (٥٩)، وبحار الأنوار (٢٣٦/٤٤) بسند إلى زيد الشّحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نعى جبرئيل عليه السلام الحسين عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في بيت أم سلمة، فدخل عليه الحسين عليه السلام وجبرئيل عنده، فقال: إن هذا تقتله أمتك، فقال رسول الله: أرني من التربة التي يسفك فيها دمه، فتناول جبرئيل قبضة من تلك التربة، فإذا هي تربة حمراء.

وأمّا في يوم عاشوراء، وبعد أن وقعت الواقعة، فقد أشرف رسول الله ﷺ من عالمه الآخر على عالم الدّنيا ليظهر حزنه الكبير، معبّراً عن أصداء المصاب في عوالم الغيب، وكان الرائي له ﷺ أم سلمة.

فقد روي في أمالي الطوسي بسنده إلى ابن عباس قال: بينا أنا راقد في منزلي إذ سمعت صراخاً عظيماً عالياً من بيت أم سلمة زوج النبي ﷺ فخرجت يتوجّه بي قائدي إلى منزلها، وأقبل أهل المدينة إليها الرجال والنساء، فلمّا انتهيت إليها قُلت: يا أم المؤمنين، ما لك تصرخين وتغوثين، فلم تجبني، وأقبلت على النسوة

→

وفي الإرشاد (٢/١٣٠)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٣٩) بسند إلى أم سلمة أنّها قالت: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم جالساً والحسين عليه السلام جالس في حجره، إذ هملت عيناه بالدموع، فقلت له: يا رسول الله، ما لي أراك تبكي جعلت فداك؟ قال: جاءني جبرئيل فعزاني بابني الحسين عليه السلام، وأخبرني أن طائفة من أمتي تقتله، لا أنالها الله شفاعتي.

وفي الإرشاد (٢/١٣٠)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٣٩) بإسناد إلى أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: خرج رسول الله ﷺ من عندنا ذات ليلة فغاب عنا طويلاً، ثم جاءنا وهو أشعث أغبر ويده مضمومة، فقلت له: يا رسول الله ما لي أراك شعثاً مغبرّاً، فقال: أسري بي في هذا الوقت إلى موضع من العراق يقال له كربلاء فأريت فيه مصرع الحسين ابني وجماعة من ولدي وأهل بيتي، فلم أزل ألقط دماءهم، فها هو في يدي، وبسطها إلي، فقال: خذيها فاحفظي بها، فأخذتها فإذا هي شبه تراب أحمر، فوضعته في قارورة وشددت رأسها واحتفظت بها.

فلمّا خرج الحسين عليه السلام من مكة متوجهاً نحو العراق كنت أخرج تلك القارورة في كل يوم وليلة وأشمّها وأنظر إليها ثم أبكي لمصابه، فلمّا كان في اليوم العاشر من المحرم وهو اليوم الذي قتل فيه عليه السلام أخرجتها في أول النهار وهي بحالها ثم عدت إليها آخر النهار فإذا هي دم عبيط، فصحت في بيتي وبكيت وكظمت غيظي مخافة أن يسمع أعداؤهم بالمدينة فيتسرعوا بالشّماتة، فلم أزل حافظة للوقت واليوم حتى جاء الناعي ينعاه فحقّق ما رأيت.

الهاشميات وقالت: يا بنات عبد المطلب، أسعدينني وابكين معي، فقد قُتل والله سيدكنّ، وسيد شباب أهل الجنة، قد والله قُتل سبط رسول الله وريحانته الحسين، فقلت: يا أم المؤمنين، ومن أين علمت ذلك؟

قالت: رأيت رسول الله في المنام الساعة شعثاً مذعوراً، فسألته عن شأنه ذلك، فقال: قُتل ابني الحسين عليه السلام وأهل بيته اليوم فدفنتهم، والسّاعة فرغت من دفنهم، قالت: فقمت حتى دخلت البيت وأنا لا أكاد أن أعقل، فنظرت - فإذا بتربة الحسين عليه السلام التي أتى بها جبرئيل من كربلاء، فقال: إذا صارت هذه التربة دماً فقد قُتل ابنك، وأعطانيها النبي صلى الله عليه وآله فقال: اجعل هذه التربة في زجاجة أو قال في قارورة ولتكن عندك، فإذا صارت دماً عبيطاً فقد قتل الحسين - فرأيت القارورة الآن وقد صارت دماً عبيطاً تفور.

قال: فأخذت أم سلمة من ذلك الدّم فلطخت به وجهها، وجعلت ذلك اليوم مأتماً ومناحة على الحسين عليه السلام، فجاءت الركبان بخبره، وأنه قتل في ذلك اليوم[٥٢].

---

(٥٢) راجع أمالي الطوسي ص (٣١٤)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٣٠). وخبر رؤيا أم سلمة للنبي صلى الله عليه وآله يوم شهادة الحسين عليه السلام في عالم النوم مرويّ عن الفريقين بطرق مختلف وألفاظ عدّة، وروي في أمالي الشّيخ المفيد ص (٣١٩)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٣٠)، وأمالي الطوسي ص (٩٠) بسند إلى غياث بن إبراهيم عن الصّادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: أصبحت يوماً أم سلمة رضي الله عنها تبكي، فقيل لها: ممّ بكاؤك؟ فقالت: لقد قُتل ابني الحسين الليلة، وذلك أنني ما رأيت رسول الله منذ مضى إلاّ الليلة، فرأيته شاحباً كئيباً، فقلت: ما لي أراك يا رسول الله شاحباً كئيباً.قال: ما زالت الليلة أحفر القبور للحسين وأصحابه، عليه وعليهم السلام.

أصداء المقتل في سيرة الزّهراء عليها السلام

لمصرع الحسين عليه السلام أصداءٌ وأنباء، وعجيبٌ أن يقترن نعيه في الأخبار مع مولده، فهوى على قلب أمّه الزّهراء عليها السلام هُوِيَّ الصّاعقة، وأثّر أثره البالغ، وتحسّرت عليه عند فرحة لقائه، فبكت عليه حينها ولم ترقَ لها عبرة.. ولا زالت تبكيه في العالم الآخر.. وتستأثر الأخبار الخاصّة بأحوال أمّه الزّهراء عليها السلام عند مولده، ففيه أحداثٌ تستحقّ التأمّل والدّراسة(٥٣).

← وروي في أكثر من خبر أن ابن عباس رضي الله عنه نفسه قد رأى النبي صلى الله عليه وآله يوم عاشوراء على تلك الصفة، ينعى له ولده الحسين عليه السلام، كما في بحار الأنوار (٢٣٢/٤٥)، وإعلام الورى ص (٢٢٠)، وكشف الغمّة (٥٦/٢)، ومثير الأحزان ص (٨٠) بسند إليه أنّه رأى النبي صلى الله عليه وآله في منامه يوماً بنصف النهار وهو أشعث أغبر، في يده قارورة فيها دم، فقال: يا رسول الله، ما هذا الدّم ؟ قال: دم الحسين عليه السلام، لم أزل ألتقطه منذ اليوم، فأحصي ذلك اليوم فوجد أنه قتل في ذلك اليوم.

(٥٣) وفي ما يخصّ حمل الزّهراء عليها السلام بالحسين عليه السلام وخصوصيته وفضله رواية أحببتُ نقلها، فقد روي في بحار الأنوار (٢٧٢/٤٣) عن الخرايج للراوندي بسنده إلى المقداد بن الأسود الكندي أن النبي صلى الله عليه وآله خرج في طلب الحسن والحسين عليهما السلام وقد خرجا من البيت وأنا معه، فرأيت أفعى على الأرض، فلمّا أحست بوطيء النبي صلى الله عليه وآله قامت ونظرت وكانت أعلى من النخلة وأضخم من البكر، يخرج من فيها النار، فهالني ذلك. فلمّا رأت رسول الله صلى الله عليه وآله صارت كأنها خيط، فالتفت إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أ لا تدري ما تقول هذه يا أخا كندة ؟ قلت: الله ورسوله أعلم !! قال: قالت الحمد لله الذي لم يمتني حتى جعلني حارساً لابني رسول الله، وجرت في الرمل رمل الشعاب، فنظرت إلى شجرة لا أعرفها بذلك الموضع، لأني ما رأيت فيه شجرة قطّ قبل يومي ذلك، ولقد أتيت بعد ذلك اليوم أطلب الشجرة فلم أجدها

→

وكانت الشجرة أظلّتهما بورق وجلس النبي ﷺ بينهما.
فبدأ بالحسين عليه السلام فوضع رأسه على فخذه الأيمن، ثم وضع رأس الحسن عليه السلام على فخذه الأيسر، ثم جعل يرخي لسانه في فم الحسين، فانتبه الحسين فقال: يا أبة، ثم عاد في نومه، فانتبه الحسن وقال: يا أبة، وعاد في نومه، فقلت: كان الحسين أكبر؟ فقال النبي ﷺ: إن للحسين في بواطن المؤمنين معرفة مكتومة، سل أمّه عنه!! فلمّا انتبها حملهما على منكبه.
ثم أتيت فاطمة عليها السلام فوقفت بالباب، فأتت حمامة وقالت: يا أخا كندة، قلت: من أعلمك أني بالباب!! فقالت: أخبرتني سيّدتي أن بالباب رجلاً من كندة من أطيبها إخباراً يسألني عن موضع قرّة عيني، فكبر ذلك عندي. فوليتها ظهري كما كنت أفعل حين أدخل على رسول الله ﷺ في منزل أم سلمة، فقلت لفاطمة: ما منزلة الحسين؟ قالت: إنه لما ولدت الحسن أمرني أبي أن لا ألبس ثوباً أجد فيه اللذة حتى أفطمه، فأتاني أبي زائراً فنظر إلى الحسن وهو يمصّ الثدي، فقال: فطمته؟
قلت: نعم. قال: إذا أحب علي الاشتمال فلا تمنعيه، فإني أرى في مقدّم وجهك ضوءً ونوراً، وذلك إنك ستلدين حجّة لهذا الخلق، فلمّا تمّ شهر من حملي وجدت فيّ سخنة، فقلت لأبي ذلك، فدعا بكوز من ماء فتكلّم عليه وتفل عليه وقال: اشربي، فشربت، فطرد الله عنّي ما كنت أجد.
وصرت في الأربعين من الأيام فوجدت دبيباً في ظهري كدبيب النّمل في بين الجلدة والثّوب، فلم أزل على ذلك حتى تمّ الشهر الثّاني، فوجدت الإضطراب والحركة، فو الله لقد تحرّك وأنا بعيد عن المطعم والمشرب، فعصمني الله كأني شربت لبناً حتى تمّت الثلاثة أشهر، وأنا أجد الزيادة والخير في منزلي، فلمّا صرت في الأربعة آنس الله به وحشتي ولزمت المسجد لا أبرح منه إلا لحاجة تظهر لي، فكنت في الزيادة والخفة في الظاهر والباطن حتى تمّت الخمسة.
فلمّا صارت الستة كنت لا أحتاج في الليلة الظلماء إلى مصباح، وجعلت أسمع إذا خلوت بنفسي في مصلاّي التسبيح والتقديس في باطني، فلمّا مضى فوق ذلك تسع ازددت قوّة فذكرت ذلك لأم سلمة فشدّ الله بها أزري. فلمّا زادت العشر غلبتني عيني وأتاني آت فمسح

ففي أمالي الشيخ الطوسي بإسناد إلى مولانا الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن علي بن الحسين عليه السلام قال: حدثتني أسماء بنت عميس الخثعمية، قالت: قبلت جدتك فاطمة بنت رسول الله بالحسن والحسين، فلمّا ولدت الحسين عليه السلام نفّستها به فجاءني النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: هلم ابني يا أسماء فدفعته إليه في خرقة بيضاء، فأذّن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، وبكى ثم قال: إنه سيكون لك حديث، اللهم العن قاتله، لا تُعلمي فاطمة بذلك.

قالت أسماء: فلمّا كان في يوم سابعه جاءني النبي صلى الله عليه وآله فقال: هلمّي ابني فأتيته به، ففعل به كما فعل بالحسن، وعق عنه كما عق عن الحسن كبشاً أملح، وأعطى القابلة الورك ورجلاً، وحلق رأسه، وتصدّق بوزن الشعر ورقاً، وخلق رأسه بالخلوق، وقال: إنّ الدم من فعل الجاهلية.

قالت: ثم وضعه في حجره، ثم قال: يا أبا عبد الله، عزيز عليّ، ثم بكى، فقلت: بأبي أنت وأمي، فعلت في هذا اليوم وفي اليوم الأول !! فما هو ؟ قال:

→

جناحه على ظهري، فقمت وأسبغت الوضوء وصليت ركعتين، ثم غلبتني عيني، فأتاني آت في منامي وعليه ثياب بيض، فجلس عند رأسي ونفخ في وجهي وفي قفاي، فقمت وأنا خائفة، فأسبغت الوضوء وأدّيت أربعاً، ثم غلبتني عيني فأتاني آت في منامي فأقعدني ورقّاني وعوّذني. فأصبحت وكان يوم أم سلمة فدخلت في ثوب حمامة، ثم أتيت أم سلمة، فنظر النبي صلى الله عليه وآله إلى وجهي، فرأيت أثر السّرور في وجهه، فذهب عنّي ما كنت أجد، وحكيت ذلك للنبي صلى الله عليه وآله فقال: أبشري، أما الأول فخليلي عزرائيل الموكّل بأرحام النساء، وأما الثاني فخليلي ميكائيل الموكّل بأرحام أهل بيتي فنفخ فيك، قلت: نعم، فبكى، ثم ضمني إليه، وقال: وأما الثالث فذاك حبيبي جبرئيل يخدمه الله ولدك، فرجعت فنزل تمام السنة.

أبكي على ابني هذا، تقتله فئة باغية كافرة من بني أمية، لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة، يقتله رجل يثلم الدين، ويكفر بالله العظيم، ثم قال: اللهم إني أسألك فيهما ما سألك إبراهيم في ذريته، اللهم أحبّهما وأحب من يحبّهما والعن من يبغضهما ملأ السماء والأرض(٥٤).

وروي في كامل الزيارات بسنده إلى محمد بن عمرو بن سعيد عن رجل من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام أن جبرئيل نزل على محمد صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد، إن الله يقرأ عليك السلام ويبشرك بمولود يولد من فاطمة عليها السلام تقتله أمتك من بعدك.

فقال: يا جبرئيل وعلى ربي السلام، لا حاجة لي في مولود يولد من فاطمة تقتله أمتي من بعدي، قال: فعرج جبرئيل ثم هبط، فقال له مثل ذلك، فقال: يا جبرئيل وعلى ربي السلام، لا حاجة لي في مولود تقتله أمتي من بعدي، فعرج جبرئيل إلى السماء ثم هبط، فقال له: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويبشرك أنه جاعل في ذريته الإمامة والولاية والوصية.

فقال: قد رضيت، ثم أرسل إلى فاطمة أن الله يبشرّني بمولود يولد منك تقتله أمتي من بعدي، فأرسلت إليه أن لا حاجة لي في مولود يولد منّي تقتله أمتك من بعدك، فأرسل إليها أن الله جاعل في ذريته الإمامة والولاية والوصية، فأرسلت إليه أني قد رضيت، فحملته كرها ﴿**وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ**

---

(٥٤) راجع أمالي الطوسي رحمه الله (٣٦٧)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٥٠).

عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ فلو أنه قال: أصلح لي ذريّتي لكانت ذريّته كلهم أئمة، ولم يرضع الحسين عليه‌السلام من فاطمة ولا من أنثى، ولكنه كان يؤتى به النبي فيضع إبهامه في فيه فيمص منها ما يكفيه اليومين والثلاثة فينبت لحم الحسين من لحم رسول الله ودمه، ولم يولد مولود لستة أشهر إلاّ عيسى بن مريم والحسين بن علي عليه‌السلام(٥٥).

ويبدو أنّ نبأ مصرع الحسين عليه‌السلام الذي تلقّته أمّه الزّهراء عليها‌السلام عند مولده قد سبّب لها علّة ظاهرة، إذ أنّها تلقّته ببالغ الحزن، وربّما يكون السّبب في جفاف لبنها فأرضع النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله الحسين عليه‌السلام من إبهامه الكريم.

كما روي في المناقب أنه اعتلت فاطمة لما ولدت الحسين عليه‌السلام وجفّ لبنها فطلب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله مرضعاً فلم يجد، فكان يأتيه فيلقمه إبهامه فيمصها، فيجعل الله له في إبهام رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله رزقاً يغذوه، ويقال: بل كان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يدخل لسانه في فيه فيغره كما يغر الطير فرخه، فجعل الله له في ذلك رزقاً، ففعل ذلك أربعين يوماً وليلة، فنبت لحمه من لحم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله(٥٦).

---

(٥٥) راجع كامل الزيارات ص (٥٦)، وبحار الأنوار (٢٣٢/٤٤)، والكافي (٤٦٤/١)، وتأويل الآيات ص (٥٦٣). وروي أيضاً في كامل الزّيارات ص (٥٥)، وبحار الأنوار (٢٣٢/٤٤) بسند إلى سالم بن مكرم عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال: لما حملت فاطمة بالحسين عليه‌السلام جاء جبرئيل إلى رسول الله فقال: إن فاطمة ستلد ولدا تقتله أمتك من بعدك، فلمّا حملت فاطمة الحسين كرهت حمله، وحين وضعته كرهت وضعه، ثم قال أبو عبد الله عليه‌السلام: هل رأيتم في الدنيا أمّا تلد غلاما فتكرهه، ولكنها كرهته لأنها علمت أنه سيقتل، قال: وفيه نزلت هذه الآية: **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾**.

(٥٦) راجع المناقب (٥٠/٤)، عنه بحار الأنوار (٢٥٤/٤٣).

وظلّت الزّهراء عليها السلام تتلقّى نبأ ولدها في مواطن عدّة، ويتابع النبي صلى الله عليه وآله بكاءه عليه عليه السلام في مواقف عدّة، وتستشعر الزّهراء عليها السلام آلام أبيها في كل وقفة تستعيد فيها حرارة أحزانها، لكنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يسلّيها بما يخفّف عليها.

وروى الكوفي في تفسيره بسنده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: كان الحسين عليه السلام مع أمه تحمله فأخذه النبي صلى الله عليه وآله وقال: لعن الله قاتلك ولعن الله سالبك، وأهلك الله المتوازرين عليك، وحكم الله بيني وبين من أعان عليك.

قالت فاطمة الزهراء عليها السلام: يا أبت، أي شيء تقول؟

قال: يا بنتاه، ذكرت ما يصيبه بعدي وبعدك من الأذى والظلم والغدر والبغي، وهو يومئذ في عصبة كأنهم نجوم السماء يتهادون إلى القتل، وكأني أنظر إلى معسكرهم وإلى موضع رحالهم وتربتهم.

قالت: يا أبة، وأين هذا الموضع الذي تصف؟ قال: موضع يقال له كربلاء، وهي دار كرب وبلاء علينا وعلى الأمة، يخرج عليهم شرار أمتي، لو أن أحدهم شفع له من في السماوات والأرضين ما شفعوا فيه، وهم المخلدون في النار.

قالت: يا أبة، فيقتل!! قال: نعم يا بنتاه، وما قتل قتلته أحد كان قبله، ويبكيه السّماوات والأرضون والملائكة والوحش والنباتات والبحار والجبال، ولو يؤذن لها ما بقي على الأرض متنفّس، ويأتيه قوم من محبّينا ليس في الأرض أعلم بالله ولا أقوم بحقّنا منهم وليس على ظهر الأرض أحد يلتفت إليه غيرهم، أولئك مصابيح في ظلمات الجور، وهم الشفعاء، وهم واردون حوضي غداً، أعرفهم إذا وردوا عليّ بسيماهم، وكل أهل دين يطلبون أئمتهم وهم يطلبوننا لا يطلبون غيرنا، وهم قوّام الأرض، وبهم ينزل الغيث.

فقالت فاطمة الزهراء عليها السلام : يا أبة ، إنا لله ، وبكت. فقال لها : يا بنتاه ، إن أفضل أهل الجنان هم الشهداء في الدنيا ، بذلوا ﴿**أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا**﴾ فما عند الله خير من الدنيا وما فيها ، قتلة أهون من ميتة ، ومن كتب عليه القتل خرج إلى مضجعه ، ومن لم يقتل فسوف يموت ، يا فاطمة بنت محمد ، أما تحبّين أن تأمرين غداً بأمر فتطاعين في هذا الخلق عند الحساب ؟

أما ترضين أن يكون ابنك من حملة العرش ، أما ترضين أن يكون أبوك يأتونه يسألونه الشّفاعة ؟ أما ترضين أن يكون بعلك يذود الخلق يوم العطش عن الحوض فيسقي منه أولياءه ويذود عنه أعداءه ، أما ترضين أن يكون بعلك قسيم النار ، يأمر النار فتطيعه يخرج منها من يشاء ويترك من يشاء ؟

أما ترضين أن تنظرين إلى الملائكة على أرجاء السّماء ينظرون إليك وإلى ما تأمرين به ، وينظرون إلى بعلك قد حضر الخلائق وهو يخاصمهم عند الله ، فما ترين الله صانع بقاتل ولدك وقاتليك وقاتل بعلك إذا أفلجت حجته على الخلائق وأمرت النار أن تطيعه ؟

أما ترضين أن يكون الملائكة تبكي لابنك وتأسف عليه كل شيء ؟ أما ترضين أن يكون من أتاه زائراً في ضمان الله ، ويكون من أتاه بمنزلة من حج إلى بيت الله واعتمر ولم يخل من الرحمة طرفة عين ، وإذا مات مات شهيداً ، وإن بقي لم تزل الحفظة تدعوا له ما بقي ، ولم يزل في حفظ الله وأمنه حتى يفارق الدنيا ؟

قالت : يا أبة سلّمت ورضيت وتوكلت على الله. فمسح على قلبها ومسح

عينيها، وقال: إني وبعلك وأنت وابنيك في مكان تقر عيناك ويفرح قلبك[٥٧].

أصداء المقتل في السّيرة العلويّة

لمصرع الإمام الحسين عليه السلام صلةٌ وثيقة بإمامة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، فجحود الإمامة في يوم السّقيفة مظلوميّة قد فتحت بوّابة مظلوميّة أهل البيت عليهم السلام جميعاً، وقد علم الأب عليه السلام بمصارع أولاده يوم تقمّصوا قميصه وعلوا منبره، وتوالت أنباء الأهوال وكست قلبه بالهموم، فظلم الأوائل جرّ إلى حرب الأواخر، وكلّما تتَابعت الفتن تجدّد حزنه على عقبه، وبقي مصرع ولده عليه السلام شاخصاً أمامَه في كلّ خُطوة يخطوها في حربه وسلمه.

إنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام محيطٌ بأنباء الغيب مفصّلاً، عالمٌ بتقلّبات الحوادث من بعده حتّى يقوم المهدي عليه السلام بالنصر وإلى ما شاء الله تعالى، فأنبأ عمّا سيجري برُؤَى ثاقبة، وتمثّل مصرع ولده عليه السلام وآهات بناته يوم الطّف.

ففي أمالي الصّدوق بسنده إلى ابن عباس قال: كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام في خرجته إلى صفين فلمّا نزل بنينوى وهو بشط الفرات قال بأعلى صوته: يا ابن عباس، أ تعرف هذا الموضع ؟ قلت له: ما أعرفه يا أمير المؤمنين.

فقال عليه السلام: لو عرفته كمعرفتي لم تكن تجوزه حتى تبكي كبكائي.

---

(٥٧) راجع تفسير فرات ص (١٧١)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٦٤). وروي في كامل الزّيارات، وبحار الأنوار (٤٤/٢٣٤) بسند إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: دخلت فاطمة عليها السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وعيناه تدمع، فسألته ما لك ؟ فقال: إن جبرئيل أخبرني أن أمتي تقتل حسيناً فجزعت وشق عليها، فأخبرها بمن يملك من ولدها فطابت نفسها وسكنت.

قال: فبكى طويلاً حتى أخضلت لحيته وسالت الدّموع على صدره وبكينا معاً، وهو يقول: أوه أوه، ما لي ولآل أبي سفيان !! ما لي ولآل حرب حزب الشيطان وأولياء الكفر !! صبراً يا أبا عبد الله !! فقد لقي أبوك مثل الذي تلقى منهم، ثم دعا بماء فتوضّأ وضوء الصّلاة، فصلى ما شاء الله أن يصلي، ثم ذكر نحو كلامه الأول، إلاّ أنه نعس عند انقضاء صلاته وكلامه ساعة، ثم انتبه فقال: يا ابن عباس ؟

فقلت: ها أنا ذا.

فقال: أ لا أحدثك بما رأيت في منامي آنفاً عند رقدتي ؟

فقلت: نامت عيناك ورأيت خيراً يا أمير المؤمنين.

قال: رأيت كأني برجال قد نزلوا من السماء معهم أعلام بيض، قد تقلدوا سيوفهم وهي بيض تلمع، وقد خطّوا حول هذه الأرض خطّة، ثم رأيت كأن هذه النخيل قد ضربت بأغصانها الأرض تضطرب بدم عبيط، وكأني بالحسين سخلي وفرخي ومضغتي ومخي قد غرق فيه، يستغيث فيه فلا يغاث، وكان الرجال البيض قد نزلوا من السّماء ينادونه ويقولون: صبرا آل الرسول، فإنكم تقتلون على أيدي شرار الناس، وهذه الجنة يا أبا عبد الله إليك مشتاقة، ثم يعزّونني ويقولون: يا أبا الحسن، أبشر فقد أقرّ الله به عينك يوم يقوم النّاس لربّ العالمين. ثم انتبهت هكذا.

والذي نفس علي بيده لقد حدثني الصادق المصدق أبو القاسم ﷺ أني سأراها في خروجي إلى أهل البغي علينا، وهذه أرض كرب وبلاء، يدفن فيها الحسين عليه السلام وسبعة عشر رجلاً من ولدي وولد فاطمة، وإنها لفي السّماوات

معروفة، تذكر أرض كرب وبلاء، كما تُذكر بُقعة الحرمين، وبقعة بيت المقدس.

ثم قال لي: يا ابن عباس، اطلب في حولها بعر الظباء، فو الله ما كذبت ولا كُذّبت، وهي مصفرّة، لونها لون الزعفران.

قال ابن عباس: فطلبتها فوجدتها مجتمعة، فناديته: يا أمير المؤمنين، قد أصبتها على الصّفة التي وصفتها لي.

فقال علي عليه السلام: صدق الله ورسوله، ثم قام عليه السلام يهرول إليها فحملها وشمّها، وقال: هي هي بعينها، أ تعلم يا ابن عباس ما هذه الأبعار؟ هذه قد شمّها عيسى ابن مريم، وذلك أنه مرّ بها ومعه الحواريون، فرأى هاهنا الظباء مجتمعة وهي تبكي، فجلس عيسى وجلس الحواريون معه فبكى وبكى الحواريون وهم لا يدرون لم جلس ولم بكى، فقالوا: يا روح الله وكلمته، ما يبكيك؟ قال: أ تعلمون أي أرض هذه؟ قالوا: لا، قال: هذه أرض يقتل فيها فرخ الرسول أحمد صلى الله عليه وآله وفرخ الحرة الطاهرة البتول شبيهة أمي، ويلحّد فيها طينة أطيب من المسك، لأنها طينة الفرخ المستشهد، وهكذا يكون طينة الأنبياء وأولاد الأنبياء، فهذه الظباء تكلّمني وتقول: إنها ترعى في هذه الأرض شوقاً إلى تربة الفرخ المبارك، وزعمت أنها آمنة في هذه الأرض، ثم ضرب بيده إلى هذه الصيران فشمّها وقال: هذه بعر الظباء على هذه الطيب لمكان حشيشها، اللهم فأبقها أبداً حتى يشمّها أبوه فيكون له عزاء وسلوة.

قال: فبقيت إلى يوم الناس هذا، وقد اصفرت لطول زمنها، وهذه أرض كرب وبلاء، ثم قال بأعلى صوته: يا ربّ عيسى ابن مريم، لا تبارك في قتلته والمعين عليه والخاذل له، ثم بكى بكاءً طويلاً وبكينا معه، حتى سقط لوجهه

وغشي عليه طويلاً، ثم أفاق فأخذ البعر فصرّه في ردائه، وأمرني أن أصرها كذلك، ثم قال: يا ابن عباس، إذا رأيتها تنفجر دماً عبيطاً ويسيل منها دم عبيط فاعلم أن أبا عبد الله قد قُتل بها ودفن.

قال ابن عباس: فو الله لقد كنت أحفظها أشد من حفظي لبعض ما افترض الله عز وجل عليّ، وأنا لا أحلها من طرف كمّي، فبينما أنا نائم في البيت إذا انتبهت فإذا هي تسيل دماً عبيطاً، وكان كمّي قد امتلأ دماً عبيطاً، فجلست وأنا باك وقلت: قد قتل والله الحسين، والله ما كذبني علي قط في حديث حدّثني، ولا أخبرني بشيء قط أنه يكون إلاّ كان كذلك، لأن رسول الله كان يخبره بأشياء لا يخبر بها غيره، ففزعت وخرجت وذلك عند الفجر، فرأيت والله المدينة كأنها ضباب لا يستبين منها أثر عين، ثم طلعت الشمس، ورأيت كأنها منكسفة، ورأيت كأن حيطان المدينة عليها دمٌ عبيط فجلست وأنا باك، فقلت: قد قتل والله الحسين، وسمعت صوتاً من ناحية البيت وهو يقول:

اصبروا آلَ الرّسول ... قُتِلَ الفرخُ النّحول

نزَلَ الرّوحُ الأمين ... ببكاءٍ وعويل

ثم بكى بأعلى صوته وبكيت، فأثبت عندي تلك الساعة، وكان شهر المحرم يوم عاشوراء، لعشر مضين منه، فوجدته قتل يوم ورد علينا خبره وتاريخه كذلك، فحدّثت هذا الحديث أولئك الذين كانوا معه، فقالوا: والله لقد سمعنا ما سمعت ونحن في المعركة ولا ندري ما هو، فكنا نرى أنه الخضر عليه السلام[٥٨].

---

(٥٨) راجع أمالي الشيخ الصّدوق رحمه الله ص (٥٩٩)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٥٢) و (٥٢/٢٠١)،

→
والخرايج (١١٤٣/٣ و ١١٤٤)، كمال الدّين (٥٣٢/٢). وروي في مثير الأحزان ص (١٨)، وبحار الأنوار (٢٤٧/٤٤): عن عبد الله بن يحيى قال: دخلنا مع علي عليه السلام إلى صفين، فلمّا حاذى نينوى نادى: صبراً أبا عبد الله، فقال: دخلت على رسول الله وعيناه تفيضان، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لعينيك تفيضان، أغضبك أحد ؟ قال: لا، بل كان عندي جبرئيل فأخبرني أن الحسين يقتل بشاطئ الفرات، وقال: هل لك أن أشمك من تربته؟ قلت: نعم، فمدّ يده فأخذ قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا، واسم الأرض كربلاء.
فلمّا أتت عليه سنتان خرج النبي إلى سفر فوقف في بعض الطريق واسترجع ودمعت عيناه، فسئل عن ذلك، فقال: هذا جبرئيل يخبرني عن أرض بشط الفرات يقال لها: كربلاء، يقتل فيها ولدي الحسين، وكأني أنظر إليه وإلى مصرعه ومدفنه بها، وكأني أنظر على السبايا على أقتاب المطايا، وقد أهدي رأس ولدي الحسين إلى يزيد (لعنه الله) فو الله ما ينظر أحد إلى رأس الحسين ويفرح إلاّ خالف الله بين قلبه ولسانه وعذّبه الله عذاباً أليماً.
ثم رجع النبي صلى الله عليه وآله من سفره مغموماً مهموماً كئيباً حزيناً فصعد المنبر وأصعد معه الحسن والحسين وخطب ووعظ الناس، فلمّا فرغ من خطبته وضع يده اليمنى على رأس الحسن ويده اليسرى على رأس الحسين وقال: اللهم إن محمداً عبدك ورسولك، وهذان أطائب عترتي وخيار أرومتي وأفضل ذريتي ومن أخلفهما في أمتي، وقد أخبرني جبرئيل أن ولدي هذا مقتول بالسم والآخر شهيد مضرج بالدم، اللهم فبارك له في قتله، واجعله من سادات الشهداء، اللهم ولا تبارك في قاتله وخاذله، وأصله حرّ نارك واحشره في أسفل درك الجحيم، قال: فضج الناس بالبكاء والعويل، فقال لهم النبي: أيّها لناس أ تبكونه ولا تنصرونه، اللهم فكن أنت له ولياً وناصراً، ثم قال: يا قوم إني مخلف فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي وأرومتي ومزاج مائي وثمرة فؤادي ومهجتي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، ألا وإني لا أسألكم في ذلك إلاّ ما أمرني ربّي أن أسألكم عنه أسألكم عن المودة في القربى، واحذروا أن تلقوني غداً على الحوض وقد آذيتم عترتي وقتلتم أهل بيتي وظلمتموهم.

إنّ واقعة كربلاء مستولية بشجائها على مشاعر الوالد العطوف، فهي لم

←

ألا أنه سيرد علي يوم القيامة ثلاث رايات من هذه الأمة، الأولى راية سوداء مظلمة قد فزعت منها الملائكة فتقف علي، فأقول لهم: من أنتم؟ فينسون ذكري ويقولون: نحن أهل التوحيد من العرب، فأقول لهم: أنا أحمد نبي العرب والعجم، فيقولون: نحن من أمتك، فأقول: كيف خلفتموني من بعدي في أهل بيتي وعترتي وكتاب ربي؟ فيقولون: أما الكتاب فضيّعناه، وأما العترة فحرصنا أن نبيدهم عن جديد الأرض، فلمّا أسمع ذلك منهم أعرض عنهم وجهي، فيصدرون عطاشاً مسودّة وجوههم.

ثم ترد عليّ راية أخرى أشد سواداً من الأولى، فأقول لهم: كيف خلفتموني من بعدي في الثقلين كتاب الله وعترتي، فيقولون: أما الأكبر فخالفناه، وأما الأصغر فمزقناهم كل ممزق، فأقول: إليكم عني فيصدرون عطاشاً مسودّة وجوههم. ثم ترد عليّ راية تلمع وجوههم نوراً فأقول لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل كلمة التوحيد والتقوى من أمة محمد المصطفى، ونحن بقية أهل الحق، حملنا كتاب ربنا وحلّلنا حلاله وحرمنا حرامه وأحببنا ذرية نبينا محمد ونصرناهم من كل ما نصرنا به أنفسنا، وقاتلنا معهم من ناواهم، فأقول لهم: أبشروا فأنا نبيكم محمّد، ولقد كنتم في الدنيا كما قلتم، ثم أسقيهم من حوضي، فيصدرون مرويين مستبشرين، ثم يدخلون الجنة خالدين فيها أبد الآبدين.

وروي في بحار الأنوار (٤٤/٢٦٦): عن لوط بن يحيى عن عبد الله بن قيس قال: كنت مع من غزى مع أمير المؤمنين عليه السلام في صفين، وقد أخذ أبو أيوب الأعور السلمي الماء وحرزه عن الناس، فشكى المسلمون العطش، فأرسل فوارس على كشفه فانحرفوا خائبين فضاق صدره، فقال له ولده الحسين عليه السلام: أمضي إليه يا أبتاه؟

فقال: امض يا ولدي، فمضى مع فوارس فهزم أبا أيوب عن الماء وبنى خيمته وحط فوارسه وأتى إلى أبيه وأخبره، فبكى علي عليه السلام، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين وهذا أول فتح ببركة الحسين عليه السلام؟ فقال: ذكرت أنه سيقتل عطشاناً بطف كربلاء حتى ينفر فرسه ويحمحم ويقول: الظّليمة الظّليمة لأمّة قتلت ابن بنت نبيها.

تبارح خاطره في أحلك الظروف، وهي الأليف له في الحزن والفرح والخير والشر والرّخاء والشدّة والسّلم والحرب، ولم يغب يوم مصرع ولده عليه السلام عن ذاكرته في أحداث وقعة صفّين التي يواجه عليه السلام فيها معاوية بن أبي سفيان والد يزيد قاتل الإمام الحسين عليه السلام، كما أنها حاضرة لديه في سائر الظّروف.

ورُوِيَ في كامل الزيارات بسنده إلى أبي عبد الله الجدلي قال: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام والحسين إلى جنبه، فضرب بيده على كتف الحسين ثم قال: إن هذا يقتل ولا ينصره أحد.

فقلت: يا أمير المؤمنين، والله إن تلك لحياة سوء.

قال: إن ذلك لكائن[٥٩].

وفي بصائر الدرجات بسنده إلى سويد بن غفلة، قال: أنا عندَ أمير المؤمنين عليه السلام إذ أتاه رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين، جئتك من وادي القرى وقد مات خالد بن عرفطة، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إنّه لم يمت، فأعادها عليه، فقال له علي عليه السلام: لم يمت، والذي نفسي بيده لا يموت، فأعادها عليه الثالثة، فقال: سبحان الله، أخبرك أنه مات وتقول لم يمت!!

فقال له علي عليه السلام: لم يمت، والذي نفسي بيده لا يموت حتى يقود جيش ضلالة يحمل رايته حبيب بن جمّاز!!

قال: فسمع بذلك حبيب، فأتى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: أناشدك فيّ وإني لك شيعة، وقد ذكرتني بأمر لا والله ما أعرفه من نفسي.

---

(٥٩) راجع كامل الزّيارات ص (٧١)، وبحار الأنوار (٢٦١/٤٤).

فقال له علي عليه السلام : إن كنت حبيب بن جمّاز فتَحْمِلَنَّها ، فولّى حبيب بن جماز وقال : إن كنت حبيب بن جماز لتحملنها !!

قال أبو حمزة : فو الله ما مات حتى بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن علي عليه السلام وجعل خالد بن عرفطة على مقدمته ، وحبيب صاحب رايته[٦٠] .

وسبق العلم إلى أمير المؤمنين عليه السلام بالشّخص الذي يباشر قتل ولده عليه السلام ، وأمير جيش عدوّه ، ولو ضممنا الأخبار المرويّة المعبّرة عن أصداء الحادثة السّابقة عليها لأفصحت عن كلّ أحداثها اللاّحقة بتفاصيلها المشجية !!

وفي أمالي الصدوق بسنده إلى أصبغ بن نباتة قال : بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب الناس وهو يقول : سلوني قبل أن تفقدوني ، فو الله لا تسألوني عن شيء مضى ولا عن شيء يكون إلاّ نبأتكم به ، فقام إليه سعد بن أبي وقاص فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني كم في رأسي ولحيتي من شعرة ؟

فقال له : أما والله لقد سألتني عن مسألة حدثني خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله أنك ستسألني عنها ، وما في رأسك ولحيتك من شعرة إلاّ وفي أصلها شيطان جالس ، وإن في بيتك لسخلاً يقتل الحسين ابني ، وعمر بن سعد يومئذ يدرج بين يديه[٦١] .

---

(٦٠) راجع بصائر الدّرجات ص (٢٩٨) ، وبحار الأنوار (٤١/٢٨٨) و (٤٤/٢٥٩).

(٦١) راجع أمالي الصدوق ص (١٣٣) ، بحار الأنوار (٤٢/١٤٦) و (٤٤/٢٥٦). وقد روي هذا الخبر بألفاظ شبيهة بهذا اللفظ مؤدّية نفس المعنى ، كما في الإرشاد (١/٣٣٠) ، وبحار الأنوار (١٠/١٢٥) و (٤١/٣٢٧) و (٤٤/٢٥٨) ، الإحتجاج (١/٢٦١) ، وإعلام الورى ص (١٧٤) ، وكشف اليقين ص (٧٥) ، ونهج الحق ص (٢٤١) : أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يخطب فقال في خطبته : سلوني قبل أن تفقدوني ، فو الله لا تسألوني عن فئة تضلّ مئة وتهدي

فشاع خبر ابن سعد بين خواصّ أمير المؤمنين عليه السلام، وعدّت الشّيعة جريمته من المسلّمات قبل المقتل، وجاء هذا المعنى في رواية الأربلي رحمه الله عن عبد الله بن شريك العامري أنّه قال: كنت أسمع أصحاب علي عليه السلام إذا دخل عمر بن سعد من باب المسجد يقولون: هذا قاتل الحسين عليه السلام، وذلك قبل أن يقتل بزمان طويل(٦٢).

→ مئة إلاّ أنبأتكم بناعقها وسائقها إلى يوم القيامة، فقام إليه رجل فقال: أخبرني كم في رأسي ولحيتي من طاقة شعر؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: والله لقد حدثني خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله بما سألت عنه، وإن على كل طاقة شعر في رأسك ملك يلعنك، وعلى كل طاقة شعر في لحيتك شيطان يستفزك، وإن في بيتك لسخلاً يقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وآية ذلك مصداق ما خبرتك به، ولو لا أن الذي سألت عنه يعسر برهانه لأخبرتك به، ولكن آية ذلك ما أنبأتك به، من لعنتك وسخلك الملعون. وكان ابنه في ذلك الوقت صبيّاً صغيراً يحبو، فلمّا كان من أمر الحسين عليه السلام ما كان تولى قتله، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام.

(٦٢) راجع كشف الغمّة للأربلي (٢/٩)، وبحار الأنوار (٢٤/٢٦٣). والرّوايات عديدة في هذا الصّدد، وقد نصّ كثير منها على علم نفس مولانا الحسين عليه السلام بقاتله أيضاً، وإليك هذه الرّواية المرويّة في الإرشاد (٢/١٣٢)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٦٣)، وكشف الغمّة (٢/٩): عن سالم بن أبي حفصة، قال: قال عمر بن سعد للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله، إن قبلنا ناساً سفهاء يزعمون أني أقتلك!! فقال له الحسين عليه السلام: إنهم ليسوا سفهاء، ولكنهم حلماء، أما إنه يقر عيني أن لا تأكل برّ العراق بعدي إلاّ قليلاً.

أصداء المقتل في السيرة الحسنيّة

الإمام الحسن بن علي عليه السلام وارث الإمامة الربّانيّة والعلم النبوي، وطبيعيٌّ أن تكون أصداء الطّف حاضرة أمام عينيه شأنه شأن سابقيه من أهل بيت العصمة عليهم السلام، وبما أنّ دوره يختلف عن أدوارهم فقد زاد عليهم ممهّداً لقيام الحسين عليه السلام، فأبلى بلاءً حسناً في نجاح أهداف أخيه، وأدّت هُدنتُه مع معاوية إلى ظفر القضيّة الحسينيّة وبلوغها غاياتها.

فالحسنان عليهما السلام شريكان في إنجازات يوم الطّف، وثمار هُدنته مع عدوّه خالدة كخلود قضيّة الحسين عليه السلام، بل هما بحسب التحقيق قضيّة واحدة، إذ لا يمكن فقه ظروف الطّف دون فقه ظروف الصّلح، والظّرفان ينصبّان في سياسة واحدة.

ثمّ أحكم الحسن عليه السلام ميثاقَ الإمامة لأخيه عليه السلام عند وفاته ونصّ عليه، واستعظم يومه الذي ليس كمثله يوم، واستحضر مشاهد الطّف بأحزانها وآهاتها.

فقد روي في إعلام الورى بإسناده إلى المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما حضرت الحسن عليه السلام الوفاة قال: يا قنبر، أنظر هل ترى وراء بابك مؤمناً من غير آل محمد ؟

فقال: الله ورسوله وابن رسوله أعلم. قال: امض فادع لي محمد بن علي. قال: فأتيته، فلمّا دخلت عليه قال: هل حدث إلاّ خير ؟ قلت: أجب أبا محمّد، فعجّل عن شسع نعله فلم يسوّه، فخرج معي يعدو، فلمّا قام بين يديه سلّم.

فقال له الحسن: اجلس، فليس يغيب مثلك عن سماع كلام يحيا به الأموات

ويموت به الأحياء، كونوا أوعية العلم، ومصابيح الدجى، فإن ضوء النهار بعضه أضوأ من بعض، أما علمت أن الله عز وجل جعل ولد إبراهيم أئمة وفضّل بعضهم على بعض، وآتى داود زبوراً، وقد علمت بما استأثر الله محمدا ﷺ، يا محمد بن علي، إني لا أخاف عليك الحسد، وإنما وصف الله تعالى به الكافرين فقال: ﴿**كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾ ولم يجعل الله للشيطان عليك سلطاناً، يا محمد بن علي، أ لا أخبرك بما سمعت من أبيك عليه السلام فيك؟

قال: بلى.. قال: سمعت أباك يقول يوم البصرة: من أحبّ أن يبرّني في الدنيا والآخرة فليبر محمداً، يا محمد بن علي، لو شئت أن أخبرك وأنت نطفة في ظهر أبيك لأخبرتك، يا محمد بن علي، أما علمت أن الحسين بن علي بعد وفاة نفسي ومفارقه روحي جسمي إمام من بعدي، وعند الله في الكتاب الماضي وراثة النبي أصابها في وراثة أبيه وأمه، علم الله أنكم خير خلقه، فاصطفى منكم محمداً واختار محمّدٌ عليّاً، واختارني عليٌّ للإمامة، واخترت أنا الحسين.

فقال له محمد بن علي: أنت إمامي وسيّدي، وأنت وسيلتي إلى محمد، والله لوددت أن نفسي ذهبت قبل أن أسمع منك هذا الكلام، ألا وإن في رأسي كلاماً لا تنزفه الدلاء ولا تغيره بعد الرياح، كالكتاب المعجم في الرّق المنمنم، أهم بإبدائه فأجدني سبقت إليه سبق الكتاب المنزل وما جاءت به الرسل، وإنه لكلام يكلّ به لسان الناطق ويد الكاتب ولا يبلغ فضلك، وكذلك يجزي الله المحسنين، ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، الحسين أعلمنا علماً، وأثقلنا حلماً، وأقربنا من رسول الله رحماً، كان إماما قبل أن يخلق، وقرأ الوحي قبل أن ينطق، ولو علم الله أن أحداً

خير منّا ما اصطفى محمداً ﷺ، فلمّا اختار محمّداً واختار محمدٌ عليّاً إماماً واختارك عليٌّ بعده واخترت الحسين بعدك سلّمنا ورضينا بمن هو الرضا وبمن نسلم به من المشكلات[٦٣].

وروي في أمالي الصدوق بسنده إلى المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه عن جده عليه السلام: أن الحسين بن علي عليه السلام دخل يوما إلى الحسن عليه السلام فلمّا نظر إليه بكى، فقال له: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟

قال: أبكي لما يُصنع بك!!

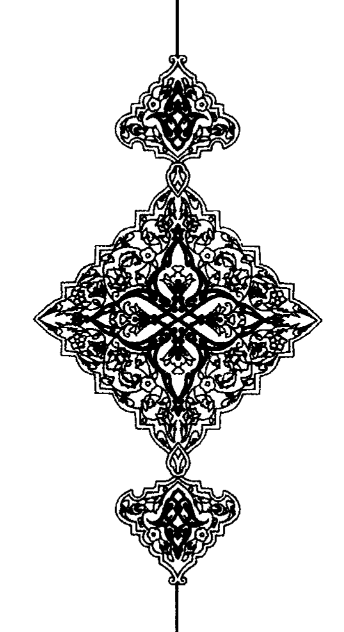
فقال له الحسن عليه السلام: إن الذي يؤتى إليّ سم يدس إليّ فأقتل به، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله، يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل، يدّعون أنهم من أمة جدّنا محمد ﷺ وينتحلون دين الإسلام، فيجتمعون على قتلك وسفك دمك وانتهاك حرمتك وسبي ذراريك ونسائك وانتهاب ثقلك، فعندها تحلّ ببني أمية اللعنة، وتمطر السماء رماداً ودما، ويبكي عليك كل شيء، حتى الوحوش في الفلوات، والحيتان في البحار[٦٤].

ЖЖЖ ЖЖЖ

(٦٣) راجع إعلام الورى ص (٢١٦)، وبحار الأنوار (١٧٤/٤٤)، والكافي (٣٠٠/١).

(٦٤) راجع أمالي الصّدوق ص (١١٥)، بحار الأنوار (٢١٨/٤٥)، اللهوف ص (٢٥)، مثير الأحزان ص (٢٣)، مناقب ابن شهراشوب (٨٦/٤).

الأصداء اللاحقة على المقتل





أصداء المقتل في عالم الغيب

نحتاج في فقهنا للنّصوص الغيبيّة الواردة في حزن المخلوقات على الحسين عليه السلام إلى علم خاص، فهي من أنباء الغيب التي جاد بها أهل البيت عليهم السلام لتعريفنا بمقامه عليه السلام وعظم مصيبته، وفَهْمُهَا يفتقر إلى دراسة معمّقة في الألفاظ والمعاني، إلاّ أنّها تعبّر بوضوح عن جوهر المصيبة وأصدائها في العالم الآخر.

إن الإمام الصّادق عليه السلام وَقَفَ على قبره الشّريف وعبّر عن تلك الأصداء بهذه الكلمات الكبيرة والصّورة الخاشعة التي تستحق الكثير من التأمّل: " **أشهد أنّ دمَك سكَن في الخُلد، واقشعرّت له أظلّة العرش، وبكى له جميع الخلائق، وبكت له السّماوات السّبع والأرضون السّبع وما فيهن وما بينهن، ومَن يَتقلّب في الجنّة والنّار من خلق ربّنا، وما يُرى ومَا لا يُرى**"[1].

أمّا إمام العصر عليه السلام فكلماته جديرة بالتأمّل، فهو يعبّر فيها عن أوّل أصداء المقتل في عالم الغيب، وردّة الفعل التي عقبت سقوط الحسين عليه السلام من جواده، وكان أوّل الأمور انطلاق ناعٍ لقبر النبي صلى الله عليه وآله لنعي ولده إليه، ثمّ تترادف سائر الأصداء المُفجعة.

يقول عليه السلام: " وقام ناعيك عند قبر جدك الرسول صلى الله عليه وآله، فنعاك إليه بالدّمع الهطول، قائلا: يا رسول الله، قتل سبطك وفتاك، واستبيح أهلك وحماك،

---

(١) راجع الكافي (٤/٥٧٦)، ومن لا يحضره الفقيه (٢/٥٩)، وتهذيب الأحكام (٦/٥٥)، ووسائل الشيعة (١٤/٤٩١)، وبحار الأنوار (٩٨/١٥٢ و ٢٦٦)، وكامل الزيارات ص (١٩).

وسُبي بعدك ذراريك، ووقع المحذور بعترتك وبنيك، فنَزَع الرسول الرداء، وعزّاه بك الملائكة والأنبياء، وفُجعت بك أمّك فاطمة الزهراء، واختلفت جنود الملائكة المقربين تعزّى أباك أمير المؤمنين، وأُقيمت عليك المآتم في أعلى علّيين، تلطم عليك فيها الحور العين، وتبكيك السّماوات وسكّانها، والجبال وخزّانها، والسّحاب وأقطارها، والأرض وقيعانها، والبحار وحيتانها، ومكّة وبنيانها، والجنان وولدانها، والبيت والمقام، والمشعر الحرام، والحطيم وزمزم، والمنبر المعظم، والنجوم الطوالع، والبروق اللّوامع، والرّعود القعاقع، والرياح الزعازع، والأفلاك الرّوافع "[1].

وأجابت الملائكة طيّعة لأصداء الحزن النبوي، وراحت الأحزان تنتشر في عالم الإمكان، فرابطت على الحزن وعكفت على الجزع لسيّد الشّهداء عليه السلام.

❖ في أمالي الصّدوق بسنده إلى أبان بن تغلب قال: قال أبو عبد الله الصّادق عليه السلام: إن أربعة آلاف ملك هبطوا يريدون القتال مع الحسين بن علي عليه السلام فلم يؤذن لهم في القتال، فرجعوا في الاستئذان، وهبطوا وقد قتل الحسين عليه السلام فهم عند قبره شعث غبر يبكونه إلى يوم القيامة، ورئيسهم ملك يقال له منصور[2].

---

(١) راجع بحار الأنوار (٩٨/٢٤١ و ٣٢٢).

(٢) راجع أمالي الصّدوق ص (٦٣٨)، والبحار (٤٥/٢٢٠).. تكرّر المؤدّى في رويات أهل البيت عليهم السلام، في كامل الزّيارات ص (٨٥ و ١٨٩)، والبحار (٤٥/٢٢٣) و (٩٨/٥٥)، ووسائل الشّيعة (١٤/٤٢٠)، ومستدرك الوسائل (١٠/٢٤٢)، وثواب الأعمال ص (٨٨): بسند إلى أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: أربعة آلاف ملك شعث غبر يبكون الحسين إلى يوم القيامة، فلا يأتيه أحدٌ إلاّ استقبلوه، ولا يمرض أحدٌ إلاّ عادوه، ولا يموت أحدٌ إلاّ شهدوه.

❖ وفي كامل الزّيارات مسنداً إلى إسحاق بن عمار أنّه قال لأبي عبد الله عليه السلام : إني كنت بالحيرة ليلة عرفة، وكنت أصلّي، وثمّ نحو من خمسين ألفاً من الناس جميلة وجوههم طيبة أرواحهم، وأقبلوا يصلّون بالليل أجمع، فلمّا طلع الفجر سجدت ثم رفعت رأسي فلم أرَ منهم أحداً.

فقال لي أبو عبد الله عليه السلام : إنه مرّ بالحسين بن علي خمسون ألف ملك وهو يُقتل، فعرجوا إلى السماء، فأوحى الله إليهم : مرَرتُم بابن حبيبي وهو يُقتل، فلم تنصروه، فاهبطوا إلى الأرض، فاسكنوا عند قبره شعثاً غُبراً إلى أن تقوم الساعة(١).

❖ ورَوَى المجلسي بإسناده إلى الأعمش عن جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه

← وروي في كامل الزّيارات أيضاً ص (٨٥ و ١٩١)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٢٣) و (٩٨/٥٦)، ومستدرك الوسائل (١٠/٢٤٣): بسنده إلى الثمالي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله وكّل بقبر الحسين أربعة آلاف ملك شعث غبر، يبكونه من طلوع الفجر إلى زوال الشمس، وإذا زالت الشمس هبط أربعة آلاف ملك وصعد أربعة آلاف ملك، فلم يزل يبكونه حتى يطلع الفجر.

وروي في بحار الأنوار (٤٥/٢٢٦)، ومستدرك الوسائل (١٠/٢٤٥) مسنداً إلى أبان بن تغلب قال: قال أبو عبد الله عليه السلام : هبط أربعة آلاف ملك يريدون القتال مع الحسين عليه السلام فلم يؤذن لهم في القتال، فرجعوا في الاستئمار، فهبطوا وقد قتل الحسين (رحمة الله عليه، ولعن قاتله ومن أعان عليه ومن شرك في دمه) فهم عند قبره شعث غبر، يبكونه إلى يوم القيامة، رئيسهم ملك يقال له: منصور، فلا يزوره زائرٌ إلاّ استقبلوه، ولا يودّعه مُودّع إلاّ شيّعوه، ولا يمرض إلاّ عادوه، ولا يموت إلاّ صلّوا على جنازته واستغفروا له بعد موته، فكل هؤلاء في الأرض ينتظرون قيام القائم عليه السلام.

(١) راجع كامل الزّيارات ص (١١٥)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٢٦).

عليه‌السلام عن جده عليه‌السلام قال: قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: ليلة أسري بي إلى السّماء، فبلغت السماء الخامسة، نظرت إلى صورة علي بن أبي طالب، فقلت: حبيبي جبرئيل ما هذه الصورة ؟ فقال جبرئيل: يا محمّد، اشتهت الملائكة أن ينظروا إلى صورة علي فقالوا: ربّنا، إن بني آدم في دنياهم يتمتّعون غدوة وعشيّة بالنظر إلى علي بن أبي طالب حبيب حبيبك محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وخليفته ووصيّه وأمينه، فمتّعنا بصورته قدر ما تمتّع أهل الدنيا به، فصوّر لهم صورته من نور قدسه عز وجل، فعلي عليه‌السلام بين أيديهم ليلاً ونهارا يزورونه وينظرون إليه غدوة وعشية.

قال: فأخبرني الأعمش عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه‌السلام قال: فلمّا ضربه اللعين ابن ملجم على رأسه صارت تلك الضربة في صورته التي في السماء، فالملائكة ينظرون إليه غدوة وعشيّة يلعنون قاتله ابن ملجم، فلمّا قُتل الحسين بن علي عليه‌السلام هبطت الملائكة وحملته حتى أوقفته مع صورة علي في السّماء الخامسة، فكلّما هبطت الملائكة من السّماوات من عُلاً وصعدت ملائكة السماء الدنيا فمن فوقها إلى السماء الخامسة لزيارة صورة علي عليه‌السلام والنظر إليه وإلى الحسين بن علي متشحّطاً بدمه لعنوا يزيد وابن زياد وقاتل الحسين بن علي عليه‌السلام إلى يوم القيامة.

قال الأعمش: قال لي الصادق عليه‌السلام: هذا من مكنون العلم ومخزونة، لا تخرجه إلاّ إلى أهله[1].

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٨/٣٠٤) و (٤٥/٢٢٩) نقله المجلسي رحمه‌الله عن كتاب المعراج للشيخ الصّالح ابن محمّد الحسن رضي‌الله‌عنه.

❖ ورُوِيَ في كامل الزيارات بسنده إلى هشام بن سعد أنّه قال: أخبرني المشيخة أن الملك الذي جاء إلى رسول الله ﷺ وأخبره بقتل الحسين بن علي عليه السلام كان ملك البحار، وذلك أن ملكاً من ملائكة الفردوس نزل على البحر ونشر أجنحته عليها، ثم صاح صيحة وقال: يا أهل البحار، البسوا أثواب الحزن، فإن فرخ الرسول مذبوح، ثم حمل من تربته في أجنحته إلى السماوات، فلم يلق ملكاً فيها إلاّ شمّها وصار عنده لها أثر، ولعن قتلته وأشياعهم وأتباعهم[1].

❖ وفيه بسنده إلى عبد الملك بن مقرن عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا زرتم أبا عبد الله عليه السلام فالزموا الصّمت إلاّ من خير، وإنّ ملائكة الليل والنهار من الحفظة تحضر الملائكة الذين بالحائر فتصافحهم فلا يجيبونها من شدة البكاء فينتظرونهم حتى تزول الشمس وحتى ينور الفجر، ثم يكلمونهم ويسألونهم عن أشياء من أمر السماء، فأمّا ما بين هذين الوقتين فإنهم لا ينطقون ولا يفترون عن البكاء والدعاء، ولا يشغلونهم في هذين الوقتين عن أصحابهم، فإنهم شغلهم بكم إذا نطقتم.

قلت: جعلت فداك، وما الذي يسألونهم عنه، وأيّهم يسأل صاحبه والحفظة أو أهل الحائر؟ قال: أهل الحائر يسألون الحفظة، لأن أهل الحائر من الملائكة لا يبرحون والحفظة تنزل وتصعد.

قلت: فما ترى يسألونهم عنه؟ قال: أنهم يمرون إذا عرجوا بإسماعيل صاحب الهواء، فربما وافقوا النبي ﷺ عنده وفاطمة والحسن والحسين والأئمة

---

(١) راجع كامل الزّيارات ص (٦٧)، وبحار الأنوار (٤٥/ ٢٢١)، ومستدرك الوسائل (٣/ ٢٢٧).

من مضى منهم، فيسألونهم عن أشياء، وعمّن حضر منكم الحائر، ويقولون: بشّروهم بدعائكم، فتقول الحفظة كيف نبشرهم وهم لا يسمعون كلامنا، فيقولون لهم: باركوا عليهم وادعوا لهم عنّا، فهي البشارة منّا، وإذا انصرفوا فحفّوهم بأجنحتكم حتى يحسوا مكانكم، وإنا نستودعهم الذي لا تضيع ودائعه، ولو يعلموا ما في زيارته من الخير ويعلم ذلك الناس لاقتتلوا على زيارته بالسّيوف، ولباعوا أموالهم في إتيانه.

وإن فاطمة عليها السلام إذا نظرت إليهم ومعها ألف نبي وألف صديق وألف شهيد ومن الكرّوبيّين ألف ألف يسعدونها على البكاء، وإنها لتشهق شهقة فلا تبقى في السماوات ملك إلاّ بكى رحمة لصوتها، وما تسكن حتى يأتيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: يا بنية، قد أبكيت أهل السماوات وشغلتهم عن التقديس والتسبيح، فكفى حتى يقدسوا فإن الله بالغ أمره، وإنها لتنظر إلى من حضر منكم فتسأل الله لهم من كل خير، ولا تزهدوا في إتيانه، فإن الخير في إتيانه أكثر من أن يحصى[(١)].

❖ وفي أمالي المفيد النيسابوري: أن زرّة النائحة رأت فاطمة عليها السلام فيما يرى النائم، أنها وقفت على قبر الحسين عليه السلام تبكي، وأمرتها أن تنشد:

أيّها العينانِ فيضا	واستهلا لا تَغيظا
وابكيا بالطفّ ميتاً	تَركَ الصّدرَ رضيضا
لم أمرّضهُ قتيلاً	لا ولا كان مريضا[(٢)]

---

(١) راجع كامل الزّيارات ص (٣٠٤)، وبحار الأنوار (٤٥/ ٢٢٩).

(٢) راجع بحار الأنوار (٤٥/ ٢٢٨)، ومناقب ابن شهراشوب (٤/ ٦٣).

❖ وفي كامل الزيارات بسنده إلى صفوان الجمال عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته في طريق المدينة ونحن نريد مكة فقلت: يا ابن رسول الله، ما لي أراك كئيباً حزيناً منكسراً؟ فقال: لو تسمع ما أسمع لشغلك عن مساءلتي!!

فقلت: وما الذي تسمع؟

قال: ابتهال الملائكة إلى الله جل وعز على قتلة أمير المؤمنين وقتلة الحسين عليه السلام، ونوح الجن وبكاء الملائكة الذين حوله، وشدّة جزعهم، فمن يتهنّأ مع هذا بطعام أو شراب أو نوم[1].

❖ وفي علل الشرائع بسنده إلى الثّمالي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: يا ابن رسول الله، أ لستم كلكم قائمين بالحق؟

قال: بلى. قلت: فلم سمي القائم قائماً؟

قال: لمّا قُتل جدي الحسين عليه السلام ضجّت الملائكة إلى الله عز وجل بالبكاء والنحيب، وقالوا: إلهنا وسيّدنا، أ تغفل عمّن قتل صفوتك وابن صفوتك وخيرتك من خلقك، فأوحى الله عز وجل إليهم: قرّوا ملائكتي فو عزتي وجلالي لأنتقمن منهم ولو بعد حين، ثم كشف الله عز وجل عن الأئمة من ولد الحسين عليه السلام للملائكة فسُرّت الملائكة بذلك، فإذا أحدهم قائمٌ يصلّي، فقال الله عز وجل: بذلك القائم أنتقم منهم[2].

❖ وروي في الكافي بسنده إلى الأصم عن كرام قال: حلفت فيما بيني وبين

---

(١) راجع كامل الزّيارات ص (٩٢ و ٢٩٧)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٢٦) و (٩٤/١٣٤) و (٩٨/١٤).

(٢) راجع علل الشرايع (١/١٦٠)، وبحار الأنوار (٣٧/٢٩٤) و (٤٥/٢٢١) و (٥١/٢٨).

نفسي أن لا آكل طعاماً بنهار أبداً حتى يقوم قائم آل محمّد، فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: رجل من شيعتكم جعل الله عليه أن لا يأكل طعاماً بنهار أبداً حتى يقوم قائم آل محمد.

قال: فصم إذاً يا كرام، ولا تصم العيدين ولا ثلاثة التشريق، ولا إذا كنت مسافراً ولا مريضاً، فإن الحسين عليه السلام لمّا قُتل عجّت السماوات والأرض ومن عليهما والملائكة، فقالوا: يا ربّنا ائذن لنا في هلاك الخلق حتى نجدهم من جديد الأرض بما استحلوا حرمتك وقتلوا صفوتك !!

فأوحى الله إليهم: يا ملائكتي ويا سماواتي ويا أرضي اسكنوا، ثم كشف حجاباً من الحجب، فإذا خلفه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم واثنا عشر وصيّا له عليه السلام، ثم أخذ بيد فلان القائم من بينهم فقال: يا ملائكتي ويا سماواتي ويا أرضي، بهذا أنتصر لهذا، قالها ثلاث مرات[1].

تأثير المصيبة على المكوّنات

النّصوص الصريحة تؤكّد متواتراً تأثّر المكوّنات بمقتل الإمام الحسين عليه السلام، ومداليلها تعزّز مفهوم الحزن في كل أصقاع عالم الإمكان، وقد عزّزت مصادر الشيعة والسنّة بكاء السّماء بالحمرة على الإمام الحسين عليه السلام.

❖ في مستدرك الوسائل بالإسناد إلى زرارة، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا زراره، إنّ السماء بكت على الحسين عليه السلام أربعين صباحاً بالدّم، وإنّ الأرض بكَت أربعينَ صباحاً بالسّواد، وإنّ الشّمس بكَت أربعين صباحاً بالكسوف

---

(١) راجع الكافي (١/٥٣٤)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٢٨).

والحُمرة[١].

❖ وقد نقل الثعالبي في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ**﴾ قول السّدي: لّما قُتل الحسين عليه السلام بكت عليه السماء، بكاؤها حمرتها.

وأسند عن ابن سيرين أنّه قال: أنّ الحمرة التي مع الشفق لم تكن حتّى قُتِل الحسين بن علي عليه السلام. ثمّ أسند كذلك عن سليمان بن القاس أنّه قال: مطرنا دماً أيّام قتل الحسين عليه السلام[٢].

❖ وقال سبط ابن الجوزي: وحكمته أنّ غضباً يؤثّر حمرة الوجه، والحق تنزّه عن الجسميّة، فأظهر تأثير غضبه على من قتل الحسين عليه السلام بحمرة الأفق اظهاراً لعظيم الجناية[٣].

وقد أبدع شاعر أهل البيت عليهم السلام دعبل بن علي الخزاعي في تائيّته العصماء حين مرّ بذكر رزاياهم قائلاً:

رزايا أرتنا خُضرةَ الأُفقِ حُمرةً ... وردّت أُجاجاً طعمَ كلِّ فُراتِ

وقال الشيخ الكوّاز:

كيفَ العزاءُ لها وكلّ عشيةٍ ... دمُكُم بحُمرتِها السماءُ تُريني

وإلى ذلك أشار شاعر الفلاسفة أبو العلاء المعرّي حين أثار وجدانه قرص

---

(١) راجع مستدرك الوسائل (١٠/٣١٣)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٠٦)، في المصدرين عن كامل الزيارات ص (٨١).

(٢) راجع تفسير الثعالبي ص (١٦٤)، وراجع كتاب ما روته العامة من مناقب أهل البيت للمولى حيدر الشيرواني ص (٢٤٧).

(٣) راجع الصواعق المحرقة ص (١٩٤).

الشمس الدّامي في الشروق والغروب، فقال:

وعلى الأفقِ من دماءِ الشّهيـ	ـدَينِ عليٍّ و نجلِهِ شاهدانِ
فهُما في أواخرِ الليلِ فجرا	نِ و في أولَياتِهِ شفَقَانِ
ثَبَتا في قميصِهِ ليجيءَ الـ	ـحشرَ مُستعدِياً إلى الرّحمنِ
يابن مُستعرِض الصّفوفَ ببَدرٍ	و مبيدَ الجموعَ من غَطَفانِ

وانعكست أحزان الغيب على عالم الشّهادة، وتجلّت آيات الحزن الكبرى بعد شهادته عليه السلام، وتواردت أصداء مصابه في المكوّنات، وبكته السّماء والأرض، وانكسفت لرزيّته الشّمس وانخسف القمر.

❖ ففي تفسير القمي مسنداً إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: مرّ عليه رجل عدو لله ولرسوله فقال: ﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ**﴾ ثمّ مرّ عليه الحسين بن علي عليه السلام فقال: لكنّ هذا لتبكينّ عليه السماء والأرض، وقال: وما بكت السماء والأرض إلاّ على يحيى بن زكريّا والحسين ابن علي عليه السلام[1].

❖ وفي كامل الزّيارت بسنده إلى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما بكت السماء على أحد بعد يحيى بن زكريا إلاّ على الحسين بن علي (صلوات الله عليهما) فإنها بكت عليه أربعين يوماً[2].

❖ وفيه بسنده مرفوعاً إلى علي بن الحسين عليه السلام قال: إن السّماء لم تبك منذ

---

(١) راجع تفسير القمّي (٢/٢٩١)، وبحار الأنوار (١٤/١٦٧) و (٤٥/٢٠١).

(٢) راجع كامل الزّيارات ص (٩٠)، وبحار الأنوار (٤٥/٢١١).

وضعت إلاّ على يحيى بن زكريا والحسين بن علي عليه السلام.

قلت: أي شيء بكاؤها ؟ قال: كانت إذا استقبلت بالثوب وقع على الثوب شبه أثر البراغيث من الدّم[١].

❖ وفي مناقب ابن شهراشوب عن أبي نعيم في دلائل النبوة أنّ نصرة الأزدية قالت: لـمّا قتل الحسين عليه السلام أمطرت السّماء دماً، وحبابنا وجرارُنا صارت مملوءة دماً[٢].

❖ وقال قرظة بن عبيد الله: مطرت السّماء يوماً نصف النهار على شملة بيضاء، فنظرت فإذا هو دم، وذهبت الإبل إلى الوادي لتشرب، فإذا هو دم، وإذا هو اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام[٣].

❖ وفيه عن الأسود بن قيس: لمّا قتل الحسين عليه السلام ارتفعت حمرة من قبل المشرق وحمرة من قبل المغرب، فكادتا يلتقيان في كبد السماء ستة أشهر[٤].

❖ وفي تاريخ النسوي: قال أبو قبيل: لما قتل الحسين بن علي عليه السلام كسفت

---

(١) راجع كامل الزّيارات ص (٩٠)، وبحار الأنوار (٤٥/٢١١). وروي في كامل الزّيارات ص (٩١)، وبحار الأنوار (٤٥/٢١٢): عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: كان قاتل يحيى بن زكريا ولد زنا، وقاتل الحسين ولد زنا، ولم تبك السّماء على أحد إلاّ عليهما. قال: قلت: وكيف تبكي ؟ قال: تطلع الشمس في حمرة وتغيب في حمرة.

(٢) راجع مناقب ابن شهراشوب (٤/٥٤)، وبحار الأنوار (٤٥/٢١٥).

(٣) راجع مناقب ابن شهراشوب (٤/٥٤)، وبحار الأنوار (٤٥/٢١٥).

(٤) راجع مناقب ابن شهراشوب (٤/٥٤)، وبحار الأنوار (٤٥/٢١٥).

الشمس كسفة بدت الكواكب نصف النهار، حتى ظننا أنها هي[(١)].

❖ وفي أمالي الشيخ الطوسي بسنده إلى الحسين بن أبي فاختة أنّه قال لأبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: جعلت فداك، إني أذكر الحسين بن علي عليه السلام فأي شيء أقول إذا ذكرته؟

فقال: قل صلى الله عليك يا أبا عبد الله، تكرّرها ثلاثاً.

ثم أقبل علينا وقال: إن أبا عبد الله لّما قتل بكت عليه السماوات السّبع والأرضون السّبع، وما فيهن وما بينهن، ومن يتقلب في الجنة والنار، وما يرى وما لا يُرى، إلاّ ثلاثة أشياء، فإنّها لم تبك عليه.

فقلت: جعلت فداك، وما هذه الثلاثة الأشياء التي لم تبك عليه؟

فقال: البصرة ودمشق وآل الحكم بن أبي العاص[(٢)].

❖ وفي أمالي الصدوق بسنده إلى جبلة المكية أنّها قالت: سمعت ميثم التمار رضي الله عنه يقول: والله لتقتل هذه الأمة ابن نبيها في المحرم لعشر يمضين منه، وليتخذنّ أعداء الله ذلك اليوم يوم بركة، وإن ذلك لكائن، قد سبق في علم الله تعالى ذكره، أعلم ذلك لعهد عهده إليّ مولاي أمير المؤمنين عليه السلام ولقد أخبرني أنه يبكي عليه كل شيء، حتى الوحوش في الفلوات، والحيتان في البحر، والطير في السّماء، ويبكي عليه الشمس والقمر والنجوم والسّماء والأرض، ومؤمنوا

---

(١) راجع مناقب ابن شهراشوب (٤/٥٤)، وبحار الأنوار (٤٥/٢١٦)، وأنها هي أي القيامة.

(٢) راجع أمالي الطّوسي ص (٤٧٢)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٠١) و (٥٧/٢٠٥)، وروي فيهما عن المفضل عن أبي عبد الله عليه السلام: لّما مضى أبو عبد الله الحسين بن علي عليه السلام بكى عليه جميع ما خلق الله إلاّ ثلاثة أشياء البصرة ودمشق وآل عثمان. وسيأتي مثل ذلك.

الإنس والجن، وجميع ملائكة السّماوات والأرضين، ورضوان ومالك، وحملة العرش، وتمطر السماء دماً ورماداً.

ثم قال: وجبت لعنة الله على قتلة الحسين عليه السلام، كما وجبت على المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، وكما وجبت على اليهود والنصارى والمجوس.

فقلت له: يا ميثم، فكيف يتخذ الناس ذلك اليوم الذي قتل فيه الحسين يوم بركة؟ فبكى ميثم رضي الله عنه ثم قال: يزعمون لحديث يضعونه أنه اليوم الذي تاب الله فيه على آدم، وإنما تاب الله على آدم في ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي قبل الله فيه توبة داود، وإنما قبل الله عز وجل توبته في ذي الحجّة، ويزعمون أنه اليوم الذي أخرج الله فيه يونس من بطن الحوت، وإنما أخرج الله عز وجل يونس من بطن الحوت في ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي استوت فيه سفينة نوح على الجودي، وإنما استوت على الجودي في يوم الثامن عشر من ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي فلق الله عز وجل فيه البحر لبني إسرائيل، وإنما كان ذلك في ربيع الأول.

ثم قال ميثم: يا جبلة، إعلمي أن الحسين بن علي سيد الشهداء يوم القيامة، ولأصحابه على سائر الشهداء درجة، يا جبلة - إذا نظرت إلى الشمس حمراء كأنها دم عبيط فاعلمي أن سيّد الشهداء الحسين قد قتل.

قالت جبلة: فخرجت ذات يوم، فرأيت الشمس على الحيطان كأنها الملاحف المعصفرة، فصحت حينئذ وبكيت، وقُلت قد والله قتل سيّدنا الحسين ابن علي عليه السلام[1].

(١) أمالي الصدوق ص(١٢٦)، والعلل(١/٢٢٧)، والبحار(٤٥/٢٠٢)، والدم العبيط: الطري.

❖ وفي كامل الزيارات بسنده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: بعث هشام بن عبد الملك إلى أبي عليه السلام فأشخصه إلى الشام، فلمّا دخل عليه قال له: يا أبا جعفر، أشخصناك لنسألك عن مسألة لم يصلح أن يسألك عنها غيري، ولا أعلم في الأرض خلقاً ينبغي أن يعرف أو عرف هذه المسألة إن كان إلاّ واحد.

فقال أبي: ليسألني أمير المؤمنين عمّا أحب، فإن علمت أجبت ذلك، وإن لم أعلم قلت لا أدري، وكان الصدق أولى بي.

فقال هشام: أخبرني عن الليلة التي قتل فيها علي بن أبي طالب، بما استدل به الغائب عن المصر الذي قتل فيه على قتله؟ وما العلامة فيه للناس؟ فإن علمت ذلك، وأحببت، فأخبرني هل كان تلك العلامة لغير علي عليه السلام في قتله؟

فقال له أبي: يا أمير المؤمنين، إنّه لما كان تلك الليلة التي قتل فيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لم يرفع حجر عن وجه الأرض إلاّ وجد تحته دم عبيط حتى طلع الفجر، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها هارون أخو موسى عليه السلام، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها يوشع بن نون، وكذلك كانت الليلة التي رفع فيها عيسى ابن مريم، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها شمعون بن حمون الصّفا، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها علي بن أبي طالب عليه السلام، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها الحسين بن علي عليه السلام.

قال: فتربّد وجه هشام حتى انتقع لونه وهمّ أن يبطش بأبي.

فقال له أبي: يا أمير المؤمنين، الواجب على العباد الطاعة لإمامهم والصدق له بالنصيحة، وإن الذي دعاني إلى أن أجبت أمير المؤمنين فيما سألني عنه معرفتي

له بما يجب له عليّ من الطاعة، فليحسن أمير المؤمنين الظن.

فقال له هشام: انصرف إلى أهلك إذا شئت.

فخرج فقال له هشام عند خروجه: أعطني عهد الله وميثاقه أن لا توقع هذا الحديث إلى أحد حتى أموت، فأعطاه أبي من ذلك ما أرضاه[١].

❖ وفيه بسنده إلى أبي نضرة عن رجل من أهل بيت المقدس أنه قال: والله لقد عرفنا أهل بيت المقدس ونواحيها عشيّة قتل الحسين بن علي !!

قلت: وكيف ذلك؟

قال: ما رفعنا حجراً ولا مدراً وصخراً إلاّ ورأينا تحتها دماً يغلي، واحمرت الحيطان كالعلق، ومطرنا ثلاثة أيام دماً عبيطاً، وسمعنا مناديا ينادي في جوف الليل يقول:

أ ترجو أمةٌ قتلت حسيناً	شفاعةَ جدّهِ يومَ الحسابِ
معاذَ اللهِ لا نِلتُم يقيناً	شفاعةَ أحمدٍ وأبي تُرابِ
قَتَلتُم خيرَ من ركب المطايا	وخيرَ الشّيبِ طُرّاً والشّبابِ

وانكسفت الشّمس ثلاثاً ثم تجلّت عنها، وانشبكت النّجوم، فلمّا كان من الغد أرجفنا بقتله، فلم يأت علينا كثير شيء حتى نعى إلينا الحسين عليه السلام[٢].

---

(١) راجع كامل الزّيارات ص (٧٥)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٠٣)، وقال الجوهري: تربد وجه فلان أي تغير من الغضب، وانتقع لونه على بناء المجهول أي تغير من حزن أو سرور.

(٢) راجع كامل الزّيارات ص (٧٧)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٠٥)، وفي المصدرين أخبار عدّة في هذا الصّدد، ومنها ما روي عن الزهري أنّه قال: لّما قُتل الحسين بن علي عليه السلام لم يبق ببيت المقدس حصاة إلاّ وجد تحتها دمٌ عبيط.

❖ وفيه بإسناد يرفعه إلى أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: بكت الإنس والجن والطّير والوحش على الحسين بن علي عليه السلام حتى ذرفت دموعها[١].

❖ وفيه مسنداً إلى الحارث الأعور أنّ عليّاً عليه السلام قال: بأبي وأمي الحسين المقتول بظهر الكوفة، والله كأني أنظر إلى الوحش مادة أعناقها على قبره من أنواع الوحش، يبكونه ويرثونه ليلاً حتى الصباح، فإذا كان كذلك فإيّاكم والجفاء[٢].

❖ وفيه بسنده إلى زرارة عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال: يا زرارة، إن السّماء بكت على الحسين أربعين صباحاً بالدّم، وأن الأرض بكت أربعين صباحاً بالسّواد، وإن الشّمس بكت أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة، وإن الجبال تقطّعت وانتثرت، وإن البحار تفجرت، وإن الملائكة بكت أربعين صباحاً على الحسين، وما اختضبت منّا امرأة ولا ادّهنت ولا اكتحلت ولا رجّلت، حتى أتانا رأس عبيد الله بن زياد (لعنه الله) وما زلنا في عبرة بعده.

وكان جدي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه، وإن الملائكة الذين عند قبره ليبكون فيبكي لبكائهم كل من في الهواء والسماء من الملائكة، ولقد خرجت نفسه عليه السلام فزفرت جهنم زفرة كادت الأرض تنشق لزفرتها، ولقد خرجت نفس عبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية (عليه الله) فشهقت جهنم شهقة، لو لا أن الله حبسها بخزّانها لأحرقت من على ظهر الأرض من فورها، ولو يؤذن لها ما بقي شيء إلاّ ابتلعته، ولكنها مأمورة مصفودة، ولقد

---

(١) راجع كامل الزّيارات ص (٧٩)، وبحار الأنوار (٢٠٥/٤٥)، وذرفت أي سالت.

(٢) راجع كامل الزّيارات ص (٢٩١)، وبحار الأنوار (٢٠٥/٤٥) و (٦/٩٨)، مستدرك الوسائل (٢٥٨/١٠).

عتت على الخزان غير مرة، حتّى أتاها جبرئيل فضربها بجناحه فسكنت، وإنّها لتبكيه وتندبه، وإنها لتتلظى على قاتله، ولو لا من على الأرض من حجج الله لنقضت الأرض وأكفأت ما عليها، وما تكثر الزلازل إلاّ عند اقتراب الساعة[١].

❖ وفيه بسنده إلى أبي بصير قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وأحدّثه، فدخل عليه ابنه فقال له: مرحباً، وضمّه وقبّله، وقال: حقّر الله من حقّركم، وانتقم ممّن وتركم، وخذل الله من خذلكم، ولعن الله من قتلكم، وكان الله لكم وليّاً وحافظاً وناصراً، فقد طال بكاء النساء وبكاء الأنبياء والصدّيقين والشّهداء وملائكة السماء.

ثم بكى، وقال: يا أبا بصير، إذا نظرت إلى ولد الحسين أتاني ما لا أملكه بما أتى إلى أبيهم وإليهم، يا أبا بصير، إن فاطمة لتبكيه وتشهق فتزفر جهنم زفرة، لو لا أن الخزنة يسمعون بكاءها وقد استعدوا لذلك مخافة أن يخرج منها عنق أو يشرد دخانها فيحرق أهل الأرض فيكبحونها ما دامت باكية ويزجرونها ويوثقون من أبوابها مخافة على أهل الأرض، فلا تسكن حتى يسكن صوت فاطمة، وإن البحار تكاد أن تنفتق فيدخل بعضها على بعض، وما منها قطرة إلاّ بها ملك موكّل، فإذا سمع الملك صوتها أطفأ نارها بأجنحته وحبس بعضها على بعض مخافة على الدنيا ومن فيها ومن على الأرض، فلا تزال الملائكة مشفقين، يبكون لبكائها ويدعون الله ويتضرعون إليه ويتضرع أهل العرش ومن حوله وترتفع أصوات من الملائكة بالتقديس لله مخافة على أهل الأرض، ولو أن صوتاً

---

(١) راجع كامل الزّيارات ص (٨٠)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٠٦)، ومستدرك الوسائل (١٠/٣١٣).

من أصواتهم يصل إلى الأرض لصعق أهل الأرض وتقلّعت الجبال وزلزلت الأرض بأهلها.

قلت: جعلت فداك، إن هذا الأمر عظيم.

قال: غيره أعظم منه، ما لم تسمعه. ثم قال: يا أبا بصير، أ ما تحب أن تكون فيمن يسعد فاطمة، فبكيت حين قالها، فما قدرت على المنطق، وما قدرت على كلامي من البكاء، ثم قام إلى المصلى يدعو وخرجت من عنده على تلك الحال، فما انتفعت بطعام وما جاءني النوم، وأصبحت صائماً وجلاً حتى أتيته، فلمّا رأيته قد سكن سكنت، وحمدت الله حيث لم تنزل بي عقوبة[1].

❖ وفي أمالي الصدوق بسنده إلى عبد الله بن لطيف التفليسي قال: قال الصادق عليه السلام: لما ضرب الحسين بن علي عليه السلام بالسيف ثم ابتدر ليقطع رأسه نادى مناد من قبل رب العزة تبارك وتعالى من بطنان العرش فقال: ألا أيتها الأمة المتحيرة الظالمة بعد نبيّها، لا وفّقكم الله لأضحى ولا فطر.

قال ثم أبو عبد الله عليه السلام: لا جرم والله، ما وفقوا ولا يوفّقون أبداً حتى يقوم ثائر الحسين عليه السلام[2].

---

(١) راجع كامل الزّيارات ص (٨٢)، وبحار الأنوار (٢٠٨/٤٥).

(٢) راجع أمالي الصّدوق ص (١٦٨)، وبحار الأنوار (٢١٧/٤٥) و (١٣٤/٨٨)، مستدرك الوسائل (٦٥٦/٦)، روضة الواعظين (١٩٣/١)، وفي علل الشرائع عن أبي عبد الله عليه السلام مثله، وفيه أيضاً (٣٨٩/٢) بسنده إلى محمد بن إسماعيل الرازي عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: قلت: جعلت فداك، ما تقول في العامة، فإنه قد روي أنّهم لا يوفقون لصوم ؟ فقال لي: أما إنهم قد أجيبت دعوه الملك فيهم.

❖ وفي كامل الزّيارات بسنده إلى داود بن فرقد قال: كنت جالساً في بيت أبي عبد الله عليه السلام فنظرت إلى الحمام الرّاعبي يقرقر طويلاً، فنظر إليّ أبو عبد الله عليه السلام طويلاً فقال: يا داود، تدري ما يقول هذا الطير؟

قلت: لا والله جعلت فداك.

قال: تدعو على قتلة الحسين عليه السلام فاتخذوه في منازلكم[1].

❖ وفيه بسنده إلى الحسين بن أبي غندر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول في البومة: هل أحدٌ منكم رآها بالنهار؟ قيل له: لا تكاد تظهر بالنهار ولا تظهر إلاّ ليلاً، قال: أما أنها لم تزل تأوي العمران أبداً، فلمّا أن قُتل الحسين عليه السلام آلت على نفسها أن لا تأوي العمران أبداً ولا تأوي إلاّ الخراب، فلا تزال نهارها صائمة حزينة حتى يجنّها الليل، فإذا جنّها الليل فلا تزال ترنّ على الحسين عليه السلام حتى تصبح[2].

قلت: وكيف ذلك جعلت فداك؟ قال: إن الناس لما قتلوا الحسين بن علي عليه السلام أمر الله عز وجل ملكاً ينادي: أيّتها الأمة الظّالمة القاتلة عترة نبيها، لا وفّقكم الله لصوم ولا فطر. وفي حديث آخر لفطر ولا أضحى..

وقال العلاّمة المجلسي رحمه الله: عدم توفّقهم للفطر والأضحى إما لاشتباه الهلال في كثير من الأزمان في هذين الشهرين كما فهمه الأكثر، أو لأنهم لعدم ظهور أئمة الحق وعدم استيلائهم لا يوفّقون للصلاتين، إما كاملة أو مطلقاً، بناء على اشتراط الإمام، أو يخص الحكم بالعامة كما هو الظاهر، والأخير عندي أظهر والله يعلم.

(١) راجع كامل الزّيارات ص (٩٨)، وبحار الأنوار (٤٥/٢١٣) و (٦٢/١٥)، ووسائل الشيعة (١١/٥١٨)، ومستدرك الوسائل (٨/٢٨٤).

(٢) راجع كامل الزّيارات ص (٩٨)، وبحار الأنوار (٤٥/٢١٣) و (٦١/٣٢٩).

❖ وفيه بسنده إلى الحسين بن علي بن صاعد البربري قيّماً لقبر الرضا عليه السلام قال: حدثني أبي، قال: دخلت على الرضا عليه السلام فقال لي: ما يقول الناس؟ قلت: جعلت فداك، جئنا نسألك، فقال لي: ترى هذه البومة، كانت على عهد جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تأوي المنازل والقصور والدور، وكانت إذا أكل الناس الطعام تطير فتقع أمامهم، فيرمى إليها بالطعام، وتسقى ثم ترجع إلى مكانها، ولمّا قُتل الحسين بن علي خرجت من العمران إلى الخراب والجبال والبراري، وقالت: بئس الأمة أنتم، قتلتم ابن نبيّكم، ولا آمنكم على نفسي[(١)].

❖ وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ البومة لتصوم النهار، فإذا أفطرت تدلّهت على الحسين عليه السلام حتى تصبح[(٢)].

الجن وأصداء المقتل

جاء في بعض كتب المقاتل ذكرٌ كثير لنياحة الجن، وأوردت كتب التاريخ والمقاتل بعض أشعارهم في رثاء الإمام الحسين عليه السلام، والذي يهمّنا أنّ الكثير من نعيهم قد روي في كتبنا المعتبرة، ولهذا ينبغي رصد بعض تلك الرّوايات والإشارة إليها ضمن أصداء المقتل الغيبيّة التي لحقت الشهادة.

وإن كان يجيش في نفسي أنّه يمكن العثور على أكثر أشعارهم تلك منسوبة لقائل من بني الإنس، ولكنّه ليس هذا محلّ تحقيق ذلك، وهذا لا يقدح بصحّة هذه الرّوايات، إذ يمكن أن يكون الجن قد حفظتها من الإنس.

(١) راجع كامل الزّيارات ص (٩٩)، وبحار الأنوار (٤٥/٢١٤) و (٦١/٣٢٩).

(٢) راجع كامل الزّيارات ص (٩٩)، وبحار الأنوار (٤٥/٢١٤) و (٦١/٣٣٠).

وكيف كان، فالكتب المعتبرة التي ذكرت مقتل الإمام الحسين عليه السلام تكاد تطفح بنوح الجن عليه في أبواب ما بعد الشّهادة، وفي شعرهم أدبٌ كثير ورقّة تستحقّ الوقوف، وتمتاز غالباً بقصر الأوزان والبحور، وسماتها خاصّة فيها.

❖ رَوَى العلاّمة المجلسي رحمه الله عن بعض كتب المناقب المعتبرة بسند يتّصل بهند بنت الجون أنّها قالت: نزل رسول الله صلى الله عليه وآله بخيمة خالتها أم معبد ومعه أصحاب له، فكان من أمره في الشاة ما قد عرفه الناس، فقال في الخيمة هو وأصحابه حتى أبرد، وكان يوم قائظ شديد حرّه، فلمّا قام من رقدته دعا بماء فغسل يديه، فأنقاهما ثم مضمض فاه ومجه على عوسجة كانت إلى جنب خيمة خالتها ثلاث مرات، واستنشق ثلاثاً وغسل وجهه وذراعيه، ثم مسح برأسه ورجليه، وقال: لهذه العوسجة شأن، ثم فعل من كان معه من أصحابه مثل ذلك.

ثم قام فصلى ركعتين، فعجبت وفتيات الحي من ذلك، وما كان عهدنا ولا رأينا مصلّيا قبله، فلمّا كان من الغد أصبحنا وقد علت العوسجة حتى صارت كأعظم دوحة عادية وأبهى، وخضد الله شوكها، وساخت عروقها، وكثرت أفنانها، واخضر ساقها وورقها.

ثم أثمرت بعد ذلك، وأينعت بثمر كأعظم ما يكون من الكمأة في لون الورس المسحوق، ورائحة العنبر وطعم الشهد، والله ما أكل منها جائع إلاّ شبع ولا ظمآن إلاّ روي، ولا سقيم إلاّ برأ، ولا ذو حاجة وفاقة إلاّ استغنى، ولا أكل من ورقها بعير ولا ناقة ولا شاة إلاّ سمنت ودرّ لبنها، ورأينا النماء والبركة في أموالنا منذ يوم نزل، وأخصبت بلادنا وأمرعت، فكنّا نسمي تلك الشجرة المباركة، وكان ينتابنا من حولنا من أهل البوادي يستظلون بها ويتزودون من ورقها في

الأسفار، ويحملون معهم في الأرض القفار، فيقوم لهم مقام الطعام والشراب.

فلم تزل كذلك، وعلى ذلك أصبحنا ذات يوم وقد تساقط ثمارها واصفر ورقها، فأحزننا ذلك وفرقنا له، فما كان إلاّ قليل حتى جاء نعي رسول الله ﷺ، فإذا هو قد قبض ذلك اليوم، فكانت بعد ذلك تثمر ثمراً دون ذلك في العظم والطعم والرائحة، فأقامت على ذلك ثلاثين سنة.

فلمّا كانت ذات يوم أصبحنا وإذا بها قد تشوّكت من أولها إلى آخرها، فذهبت نضارة عيدانها وتساقط جميع ثمرها، فما كان إلاّ يسيراً حتى وافى مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فما أثمرت بعد ذلك لا قليلاً ولا كثيراً، وانقطع ثمرها ولم نزل ومن حولنا نأخذ من ورقها ونداوي مرضانا بها ونستشفي به من أسقامنا، فأقامت على ذلك برهة طويلة، ثم أصبحنا ذات يوم فإذا بها قد انبعثت من ساقها دماً عبيطاً جارياً، وورقها ذابلة تقطر دماً كماء اللّحم!! فقلنا أن قد حدث عظيمة، فبتنا ليلتنا فزعين مهمومين نتوقع الداهية، فلمّا أظلم الليل علينا سمعنا بكاءً وعويلاً من تحتها، وجلبة شديدة ورجّة، وسمعنا صوت باكية تقول:

أيا ابن النّبيِّ ويا ابن الوصي ويا من بقيةُ ساداتنا الأكرمينا

ثم كثرت الرنّات والأصوات، فلم نفهم كثيراً ممّا كانوا يقولون، فأتانا بعد ذلك قتل الحسين عليه السلام، ويبست الشجرة وجفّت، فكسرتها الرياح والأمطار بعد ذلك فذهبت واندرس أثرها[1].

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/٢٣٣)، وفيه: قال عبد الله بن محمد الأنصاري: فلقيت دعبل بن علي الخزاعي بمدينة الرسول ﷺ فحدثته بهذا الحديث فلم ينكره.

❖ وقال عبد الله بن محمّد الأنصاري: حدّثني أبي عن جدي، عن أمه سعيدة بنت مالك الخزاعية: أنها أدركت تلك الشجرة، فأكلت من ثمرها على عهد علي بن أبي طالب عليه السلام وأنّها سمعت تلك الليلة نوح الجن، فحفظت من جنية منهن:

يا ابنَ الشّهيدِ ويا شهيداً عمُّهُ ... خيرُ العمومةِ جعفرُ الطّيارُ
عجباً لمصقولٍ أصابك حدُّهُ ... في الوجهِ منكَ وقد علاهُ غبارُ

قال دعبل فقلت في قصيدتي:

زر خيرَ قبرٍ بالعراقِ يُزارُ ... واعصِ الحمارَ فمن نهاكَ حمارُ
لم لا أزورُك يا حسينُ لك الفدا ... قومي و من عطَفَت عليه نَزَارُ
و لك المودّةُ في قلوبِ ذوي النُّهى ... وعلى عدوّكَ مَقتَةٌ ودَمارُ
يا ابن الشّهيدِ ويا شهيداً عمُّهُ ... خيرُ العمومةِ جعفرُ الطيارُ[1].

❖ وقال ابن نما رحمه الله: ناحت عليه الجن، وكان نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم المسور بن مخرمة ورجال يستمعون النوح ويبكون[2].

❖ وذكر صاحب الذخيرة عن عكرمة أنه سمع ليلة قتله بالمدينة مناد يسمعونه ولا يرون شخصه:

أيها القاتلون جهلاً حسيناً ... أبشروا بالعذابِ والتّنكيلِ
كلُّ أهلِ السماءِ يدعوا عليكم ... من نبيٍّ وملائكٍ وقبيلِ

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/٢٣٣).

(٢) راجع مثير الأحزان ص (١٠٧)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٣٥).

قد لُعنتم على لسانِ ابنِ داودٍ ... وموسى وصاحبِ الإنجيلِ[(١)]

❖ ورُوي أن هاتفا سُمع بالبصرة ينشد ليلاً:

إن الرّماحَ الواردات صدورُها ... نحوَ الحسينِ تُقاتلُ التّنزيلا

ويُهلّلونَ بأن قُتلتَ وإنما ... قتلوا بكَ التّكبيرَ و التّهليلا

فكأنما قتلوا أباكَ محمّداً ... صلى عليه اللهُ أو جبريلا[(٢)]

❖ ويُروى أنّ الجن قالت:

نساءُ الجنِّ يبكينَ ... من الحُزنِ شجيّاتِ

ويُسعِدنَ بنوحٍ ... للنّساءِ الهاشميّاتِ

ويَندُبنَ حُسيناً ... عَظُمَت تلكَ الرزيّاتِ

ويَلطمنَ خدوداً ... كالدّنانيرِ نقيّاتِ

ويَلبسنَ ثيابَ السُّودِ ... بعدَ القَصبيّاتِ[(٣)]

---

(١) راجع مثير الأحزان ص (١٠٧)، وبحار الأنوار (٤٥/ ٢٣٥)، ورويت الأبيات في كامل الزيارات بسند إلى عمرو بن عكرمة، قال: أصبحنا ليلة قتل الحسين عليه السلام بالمدينة، فإذا مولى لنا يقول: سمعنا البارحة منادياً ينادي ويقول: أيها القاتلون جهلاً حسيناً. الأبيات.

(٢) راجع مثير الأحزان ص (١٠٨)، وبحار الأنوار (٤٥/ ٢٣٥).

(٣) راجع مثير الأحزان ص (١٠٩)، ومناقب ابن شهراشوب (٥/ ٦٢)، والأبيات مرويّة بإختلافات في كثير من المصادر، وقال المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار (٤٥/ ٢٣٦): ذكر ابن الجوزي في كتاب النور في فضائل الأيام والشهور نوح الجن عليه عليه السلام فقالت:

لقد جئن نساء ... الجن يبكين شجيات

ويلطمن خدوداً ... كالدنانير نقيات

و يلبسن الثياب ... السود بعد القصبيات

❖ ورُوي مناقب ابن شهراشوب عن دعبل عن أبيه عن جدّه عن أمه سعدي بنت مالك الخزاعية، أنها سمعت نوح الجن على الحسين عليه السلام:

يا ابن الشهيدِ ويا شهيداً عمُّه … خيرُ العمومةِ جعفرُ الطيّارُ

عجباً لمصقولٍ أصابك حدُّه … في الوجه منك وقد علاك غبارُ[١]

❖ وفي كامل الزيارات بسنده إلى عبد الله بن حسان الكناني قال: بكت الجن على الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فقالت:

ما ذا تقولون إذ قال النبيُّ لكم … ما ذا فعلتم وأنتم آخرُ الأممِ

بأهل بيتي وإخواني ومَكرُمَتي … من بين أسرى وقتلى ضُرّجوا بدمِ[٢]

❖ وفيه بسنده إلى داود الرقي، قال: حدثتني جدّتي إن الجن لما قتل الحسين عليه السلام بكت عليه بهذه الأبيات:

يا عينُ جودي بالعبَر … وابكي فقد حقّ الخبَر

ابكي ابن فاطمةَ الذي … وردَ الفراتَ فما صدَر

الجنُّ تبكي شجوَها … لما أتى منهُ الخبَر

قُتلَ الحسينُ ورهطُه … تَعساً لذلك من خبَر

فلأبكينّك حُرقةً … عندَ العِشاءِ وبالسّحَر

ولأبكينّك ما جرى … عِرقٌ وما حمَلَ الشّجَر[٣]

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/٢٣٦)، ومناقب ابن شهراشوب (٤/٦٢).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٩٥)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٣٦)، وتروى الأبيات في أكثر من مصدر منسوبة لأم لقمان بنت عقيل رضي الله عنها مع أبيات أخرى.

(٣) راجع كامل الزيارات ص (٩٨)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٣٨).

❖ وفي أمالي الصّدوق بسنده إلى أم سلمة زوجة النبي ﷺ قالت: ما سمعت نوح الجن منذ قبض النبي إلاّ الليلة، ولا أراني إلاّ وقد أصبت بابني، وقالت: وجاءت الجنيّة منهم تقول:

ألا يا عينُ فانهملي بجُهدي فمن يبكي على الشهداءِ بعدي
على رهطٍ تقودُهُمُ المنايا إلى مُتجبّرٍ في ملكِ عبدِ[1]

❖ وفي مجالس المفيد عن شيخ من بني تميم كان يسكن الرّابية قال: سمعت أبي يقول: ما شعرنا بقتل الحسين عليه السلام حتى كان مساء ليلة عاشوراء، فإني لجالس بالرابية ومعي رجل من الحيّ فسمعنا هاتفاً يقول:

واللهِ ما جئتُكم حتى بَصُرتُ بِهِ بالطفِّ منعفرَ الخدّينِ منحورا
وحولَه فتيةٌ تُدمى نحورُهم مثلَ المصابيحِ يُطفونَ الدُّجى نورا
وقد حَثثتُ قلوصي كي أصادفهم من قبلِ أن تتلاقى الخرّدُ الحورا
فعاقني قدرٌ واللهُ بالغُهُ وكان أمراً قضاهُ اللهُ مقدورا
كان الحسينُ سراجاً يُستضاءُ به الله يعلمُ أني لم أقُلْ زورا
صلّى الإلهُ على جسمٍ تضمّنه قبرُ الحسينِ حليفِ الخيرِ مقبورا
مجاوراً لرسولِ اللهِ في غرفٍ وللوصيِّ وللطيّارِ مسرورا

فقلنا له: من أنت يرحمك الله؟

قال: أنا وآلي من جن نصيبين، أردنا مؤازرة الحسين عليه السلام ومواساته بأنفسنا

---

(١) راجع أمالي الصدوق ص (١٣٩)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٣٩) و (٦٠/٦٥)، وروضة الواعظين (١/١٧٠)، والمناقب (٤/٦٢)، وروى المجلسي رحمه الله في بحاره عن المناقب القديم بسند مثله، وفيه: ألا يا عين فاحتفلي بجهد.

فانصرفنا من الحج فأصبناه قتيلاً.[١]

❖ وفي كامل الزيارات بسنده إلى أبي زياد القندي قال: كان الجصاصون يسمعون نوح الجن حين قتل الحسين بن علي عليه السلام في السّحر بالجبانة، وهم يقولون:

مسَحَ الرّسولُ جبينَهُ فلَهُ بريقٌ في الخدودِ
أبواهُ في عليا قريشٍ جدُّه خيرُ الجدودِ[٢]

❖ وفيه بسنده إلى علي بن الحزور قال: سمعت ليلى وهي تقول: سمعت نوح الجن على الحسين بن علي عليه السلام وهي تقول:

يا عينُ جودي بالدّموعِ فإنّما يبكي الحزينُ بحرقةٍ و توجّعِ

---

(١) راجع أمالي المفيد ص (٣٢٠)، وبحار الأنوار (٢٣٩/٤٥)، وأمالي الطوسي ص (٩١).
وتروى نفس الأبيات في كامل الزيارات ص (٩٤) بسند الميثمي قال: خمسة من أهل الكوفة أرادوا نصر الحسين بن علي عليه السلام فعرّسوا بقرية يقال لها شاهي، إذ أقبل عليهم رجلان، شيخ وشاب، وسلّما عليهم، فقال الشيخ: أنا رجل من الجن، وهذا ابن أخي، أراد نصر هذا الرجل المظلوم، فقال لهم الشيخ الجني: قد رأيت رأياً، فقال الفتية الإنسيون: وما هذا الرأي الذي رأيت ؟ قال: رأيت أن أطير فآتيكم بخبر القوم فتذهبون على بصيرة، فقالوا له: نعم ما رأيت، قال: فغاب يومه وليلته، فلمّا كان من الغد إذا هم بصوت يسمعونه ولا يرون الشخص وهو يقول: والله ما جئتكم حتى بصرت به. إلى آخر الأبيات.
فأجابه بعض الفتية من الإنسيين يقول:

اذهب فلا زال قبر أنت ساكنه إلى القيامة يسقى الغيث ممطورا
و قد سلكت سبيلا كنت سالكه وقد شربت بكأس كان معزورا
وفتية فرّغوا لله أنفسهم وفارقوا المال والأحباب والدّورا

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٩٤)، وبحار الأنوار (١٤٧/٤٥)، وراجع كشف الغمّة (٥٧/٢)، ومناقب ابن شهراشوب (٣٩٠/٣).

يـا عـينُ ألهـاكَ الرّقـادُ بطيبـةٍ مـن ذكـرِ آلِ مـحمّدٍ وتوجـعِ
باتـت ثلاثـاً بالصّـعيدِ جسـومُهُم بينَ الوحوشِ وكلُّهم في مصرعِ[١]

تعاقب الأصداء البشريّة بعد المقتل

تلقّى أهل الأرض خبر مقتل الإمام الحسين عليه السلام باهتمام بالغ، وتفاوتت ردود أفعالهم تجاهه بين الدّهشة والعجب والحزن، وحدّثنا التّاريخ كذلك عمّن فرح وابتهج في يوم مقتله، وذلك حديث نطوي الكشح عنه، فهي ظواهر شاذّة بعيدة عن الدّين والإنسانيّة!!

وكانت الأصداء عند شيعة أهل البيت عليهم السلام أكثر رنّة وإثارة، لما يحتلّه الإمام الشهيد عليه السلام من مكانة قدسيّة في النفوس، فانفجرت براكين أحزانهم عن أنهار من الدّموع السّاخنة، وتجدّدت عليهم آلامهم بفقد أصحاب الكساء جميعاً، وأحسّوا بوخز الضّمائر، وطوّقهم شعور بالغبن والتقصير في النصرة، وجاشت في نفوسهم مشاعر مضطربة أسفرت عن معارك طاحنة.

فهم بين مصدوم بوقوع الحادث، فيزيد بالغ في سرعة إنهاء وقعة الطّف، فلم تتسنّ للكثيرين الفرصة لنصرته، وفي التأريخ ذكرٌ لأخبار هؤلاء وتأسّفهم.. وبين منتظر لأمر الإمام زين العابدين عليه السلام الخلَف والعصمة للنّاس بعد أبيه عليه السلام، فأمرُه هو المتّبع، وفي التأريخ ذكرٌ لمراجعة هؤلاء له عليه السلام وإعراضه عنهم.. وبين من فقد توازنه بالنّهوض لطلب ثأره دونَ حسابٍ للعواقب!!

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٩٥)، وبحار الأنوار (٤٥/ ٢٤١).

لم تتَمَالك عُصبة مؤمنة نفسَها تجاه هذا الخبر الفظيع ، فحملت السّلاح للشّهادةِ دونَ ثأره ، وهؤلاء الذين عُرِفوا بالتوّابين ، وسنستقصي سيرتَهم بعد مقتل الإمام الحسين عليه‌السلام .

وأثّر المصرع في كلّ أصقاع الخلافة الإسلاميّة وأحدث هزّة عنيفة فيها ، وترامت أطراف التداعيات المترتّبة على القضيّة بكلّ أبعادها ، وكان مقتله المبرّر لاجتياح العصيان والفوضى وترهّل السّلطة الأمويّة !! ودخولها في نفق مظلم جرّها إلى دواهي كبيرة كفيلة بتصدّع الدّولة وتفتيت قوّتها !!

لقد كان لمصرع الإمام الحسين عليه‌السلام بهذه الصورة المأساوية نتائج خطيرة جداً ، إذ عاش كثيرٌ عقدة الذنب بمرارة ، ولم يحسب المسؤول الأول عن المجزرة حسابَ ردود الفعل المتتابعة في أرجاء الدّولة ، وأثبت من خلال هذه الجريمة قصر نظره ، فبدَت الدّولة عاجزة عن صدِّ تيارِ الثّورة الذي عمّ مختلف مناطقها.

أمّا الحجاز فقد كانت تغلي على مرجل من النكير ، فالمدينة مسرح أول انتفاضة ضد السّيادة الأمويّة ، فهي معزولة عن الأمويّين بحكم إستبعادها كعاصمة للخلافة وبنوعيّة العمّال المنتدبين فيها ، وتلك عوامل تثير النقمة والعزلة ، ثمّ جاءت حادثة كربلاء الدّامية ففجّرت سيلاً من المشاعر السّاخطة المتأجّجة بالغضب وأطلقت النفوس من عقالها.

وحاول يزيد يائساً تدارك الحال في المدينة بالتلويح بأمواله حيناً وبالتهديد أحياناً أخرى ، وعقد زعماؤها في المسجد مؤتمراً واتخذوا فيه قراراً بخلع يزيد ومبايعة عبد الله بن حنظلة الأنصاري ، وقرّروا الهجوم على عناصر البيت الأموي المجتمعين في دار كبيرهم مروان بن الحكم ، فطردوهم من المدينة ، وأخرجوا بذلك

عاصمة الإسلام الأولى عن السيادة الأموية[١].

وسرعان ما اتّخذ سفّاك الدّماء يزيد بن معاوية قرار ضرب الثورة بالشدة، فأوكل إلى مسلم بن عقبة - أحد جبابرة العرب - وأد أعدائه في الحجاز، فوصل بجيشه المدينة وضرب حولها الحصار، وجابهه أهلها بشجاعة وخندقوا حول مدينتهم استعداداً للحرب، ولم تصمد المدينة طويلاً أمام جيشه، فسقطت في موقعة الحرة عام ٦٣ هـ فأباح حرمتها أياماً ثلاثة!![٢].

واستتم بنو أميّة إخضاع المدينة.. فانتقل العُصيان إلى مكة المكرّمة، إذ شهدت تحرّكاً أكثر عنفاً وضراوة بإعلان عبد الله بن الزبير رفضه الإعتراف بخلافة يزيد، مستثمراً مشاعر النّاس الصّاخبة بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام لصالح طموحه، وإن كان قد بدأ في تحرّكه قبل مقتله، وكان وجود الإمام عليه السلام من أهم معوّقات بلوغ ابن الزبير غاياته، مع المكانة العظيمة التي احتلها الإمام الحسين عليه السلام في نفوس الجماهير، فإنّه عليه السلام لم يدع لغيره أي مجال للمنافسة.

ولقد حلّ الإمام عليه السلام في مكّة وكان من أثقل النّاس على ابن الزبير، وطالما قد رمى إلى إقناع الإمام الحسين عليه السلام بالإسراع في مغادرة الحجاز، قائلاً: " لو كان لي في الكوفة مثل شيعتك ما عدلت عنها "[٣].

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير (٤/٤٤)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٤).

(٢) راجع أنساب الأشراف للبلاذري (٤/٤٣)، وتاريخ اليعقوبي (٢/٢٥٠)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٢٥٨).

(٣) راجع البداية والنهاية (٨/١٦٠)، وتجد الوقائع في تاريخ الطبري (٦/١٨٩)، وفيه: عرف - أي ابن الزبير - أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبداً ما دام الحسين بالبلد وأن حسيناً

واستثمر ابن الزبير مقتل الحسين عليه السلام أقصى استغلال، ووظّف الغضب الذي فجرته كربلاء لصالح طموحه الشخصي، وتحرّكت قوى بني أميّة لقمعه، وحوصرت مكّة بقيادة الحصين بن نمير السكوني، وتحصن ابن الزبير في الكعبة وسدّ المنافذ، واستنكر المسلمون إقدام يزيد على غزو مكة، واشتد سخطُهم حين أخذت مجانيق جيشه برمي قذائفها جهة الكعبة!![1].

وفي غمرة هذه الأحداث تأتي الأنباء ناعية يزيد، وتوقّفت العمليّات الحربية في مكّة سنة ٦٤ هـ، فحاول الحصين إقناع ابن الزبير بالذهاب إلى الشام للبيعة ورفض ابن الزبير عرضه ذلك، وانتهت خلافة يزيد الذي لم تدم لأكثر من ثلاثة سنين، قتل في أولها الإمام الحسين عليه السلام، وأباح في ثانيتها المدينة المنوّرة، وهتك في ثالثتها مكّة المكرّمة !!

أمّا العراق فكان مسرح الرفض لسيادة بني أميّة، وظهرت فيه تداعيات مقتل الإمام الحسين عليه السلام سريعاً بصورة واضحة، فقد اتّخذت البصرة قرارها ببيعة وال لها وعمّت الفوضى العارمة البلدة ففشل في إدارتها، فكتبوا لابن الزبير يبايعونه لينتدب لهم رجلاً يتولّى الأمر ويدفع عنهم خطر الخوارج، فبعث إليهم الحارث حتى جاء مصعب بن الزبير بعد ذلك فشهدت البصرة بعض الهدوء[2].

أمّا الكوفة فقد خيّم عليها شعور خاص بالتقصير والخذلان في أعقاب مصرع

أعظم في أعينهم وأنفسهم منه وأطوع في الناس منه.

(١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/٥٢).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٢٤)، والبداية والنهاية لابن كثير (٨/٢٣٨)، والأخبار الطوال للدينوري ص (٢٨٠).

الإمام الحسين عليه السلام، وزاد شعورُهم غلياناً مع وطأة السياسية الأمويّة القائمة على كسر شوكة ميولهم العلوية، وواصل عمرو بن حريث طريقة عبيد الله بن زياد فيها، فاتخذوا قرارَهم بطرد ابن حريث وتولّية عامر بن مسعود مكانه، وكتب أهلها لابن الزبير بذلك فأقرّه في منصبه، فخرج العراق بأهمّ مراكزه المدنيّة من هيمنة السيادة الأمويّة.

ولم تكن دمشق وهي عاصمة الخلافة الأموية بعيدة عن التداعيات المترتّبة على المقتل، فقد كان الوضع محرجاً بعد تنازل معاوية الثاني عن عرش الخلافة في ظروف غامضة، ممّا هيّأ لاندلاع أزمة عنيفة في وجه النظام الأموي كادت أن تقضي عليه[1].

ومن جهة أخرى تفاقم التطاحن بين القبائل بشكل خطير، ودارت بينها حروب طاحنة وحرّك الأمويّون أطرافهم فيها، ورصد التاريخ تلك الأخبار، واستطاع الفرع المرواني الأخذ بزمام الخلافة منذ ذلك اليوم وحتى سقوط الخلافة الأموية.

ظهور التوّابين في الكوفة

الكوفة هي عاصمة الأحداث وبؤرة الغلَيان، ومنها انطلق التوّابون لأخذ الثأر عندما استُفزّ أهلُها بعودة ابن زياد إليها دون أن يندى له جبين أو ترتعش كفّاه لهول ما اقترف أو يدخل في روعه الندم، متجاهلاً بُركان مشاعر السّخط، فوقف على منبر الكوفة محاولاً تسويغ ما جرى في كربلاء بالهجوم على سيّد الشهداء

(١) راجع تاريخ الدولة العربية لفلهوزن ص (١٦٦).

عليه السلام واصفاً إياه بالكذاب ابن الكذاب!![1].

لقد حجبه صلفه عن ميزان الأمور بموازينها، فاقترف هذا الخطأ في الكوفة !! البلد الأكثر تحسّساً بالنسبة لهذا الحدث !! وبعد ثقل كواهل أهلها بمرارة الندم، فهم من دعوه عليه السلام في كتبهم وهم من قصّر في نصرته، وهم من فقد بشهادته القائد والرّمز والآمال والطموح.

وكان لابد من مخرج لمحنة أهل الكوفة، ولابدّ من تصحيح الموقف الذي ألحق بهم العار والشّنار، واتّحد النّاس في تلك المشاعر الملتهبة، فليس من الصّعب التفافهم تحت مظلّة قائد يقودهم لتفجير غضبهم في وجه السلطة الأموية، فتشكّلت جماعات يجمعها هذا الهدف، وكانوا يجتمعون وينقدون ذاتهم ويحاسبون أنفسهم على التقصير الذي بدى منهم تجاه إمامهم عليه السلام، ثمّ راحوا يتشاورون في كيفية تكفير الذنب !!

قال الطبري: " لما قتل الحسين بن علي تلاقت الشيعة بالتلاوم والتّندّم، ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسين إلى النصرة وتركهم إجابته، ومقتله إلى جانبهم، ولم ينصروه، ورأوا أنّه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلاّ بقتل من قتله أو القتل فيه "[2].

وتصدّر خمسة من كبار زعماء الشّيعة تلك الحركة، وعلى رأسهم سليمان بن صُرَد الخزاعي رضي الله عنه، والمسيّب بن نجبه الفزاري، وعبد الله بن سعد بن نفيل

---

(١) راجع أنساب الأشراف للبلاذري (٤/ ٦٤).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/ ٤٧).

الأزدي، وعبد الله بن وال التميمي، ورفاعه بن شداد البجلي، وتجد هذه الأسماء متردّدة في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام، فهم من أصحابه ومؤيّديه.

وبعيداً عن مراقبة السُّلطة قاد هؤلاء حملة من الإعلام المضاد للأمويّين، وتشكّلت نواة جيش يربو على مئة شخص حملوا التوبة شعاراً، إنطلاقاً من الآية: ﴿**فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾[1].

ونمّت الحالة عن اجتماعات أفصحوا فيها عن شعورهم بهول المأساة وفداحتها وإحساسهم بالذنب، ودعوا إلى الإسراع باتخاذ مواقف الإنتقام من المسؤول عن المقتل من الأمويين والمتواطئين، ووطّنوا النفوس على فراق الأهل والمال في سبيل تحقيق ذلك الهدف، طلباً للتوبة والمغفرة، ولم يكن قادة الحركة يسعون وراء مطلب خاص أو مكسب شخصي، ولم يطلبوا السلطة، فبالغوا في نكران الذات في ردّة فعل واضحة إزاء مقتل الحسين عليه السلام، وكان الخمسة المتولّون قيادة الحركة من الشّيوخ وكان أصغرهم قد ناهز الستين.

وعمل التوّابون على استمالة زعماء الكوفة وجماهيرها، وكتبوا إلى شيعة البصرة والمدائن وسائر المناطق، وكتب أمير التوّابين " سليمان " إلى عامل المدائن سعد بن حذيفة بن اليمان: " أما بعد، فإن الدّنيا دار قد أدبر منها ما كان معروفاً، وَأقبَل منها ما كان مُنكراً، وأصبَحت قد تشنأت إلى ذوي الألباب، وأزمع بالتّرحال منها عباد الله الأخيار، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بجزيل مثوبة عند

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٤٨/٧).

الله لا يفنى.. إن أولياء الله من إخوانكم وشيعة آل نبيكم نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيهم الذي دُعي فأجاب، ودعا فلم يُجب، وأراد الرجعة فحبس، وسأل الأمان فمنع، وترك الناس فلم يتركوه، وعدوا عليه فقتلوه، ثم سلبوه وجرّدوه ظلماً وعدواناً وغرّة بالله وجهلاً. فلمّا نظروا اخوانكم وتدبروا عواقب ما استقبلوا، رأوا أن قد خطأوا بخذلان الزكي واسلامه وترك مواساته والنصر له خطأ كبيراً، ليس منه مخرج ولا توبة دون قتل قاتليه، أو قتلهم حتى تفنى على ذلك أرواحهم "[١].

ويمثّل الكتاب عيّنة واضحة تضمّ الخطوط العريضة للحركة، وكان وقعه مؤثراً على شيعة المدائن والكوفيين النّازحين إليها، فاستجابوا فوراً للدّعوة، وجاء ردّ عامل المدائن: " أما بعد، فقد قرأنا كتابك وفهمنا الذي دعوتنا إليه من الأمر الذي عليه رأى الملأ من إخوانك، فقد هُديت لحظّك ويُسّرت لرُشدِك، ونحنُ جادّون مُجِدّون مُعِدّون مُسرجُونَ مُلجِمُونَ، ننظر الأمر ونستمع الداعي، فإذا جاء الصّريخ أقبلنا ولم نعرج إن شاء الله "[٢].

ولم يختلف حماس شيعة البصرة عن حماس شيعة المدائن، وجاء جواب المثنّى بن محربة العبدي من البصرة طافحاً بنفس المشاعر، واتسعت دعوة التوابين بين المطالبين بدم الإمام الحسين عليه السلام وكان يجيبهم القوم بعد القوم، والنفر بعد النفر من الشيعة وغيرهم.

ولّما بلغ أهلَ الكوفة خبرُ هلاك يزيد والتطوّرات السياسية في دمشق غُمروا

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٥٠).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٥١).

بجوٍّ من الإرتياح تشفّياً بهلاك الطّاغية وتداعي قوَى الخلافة، وزادتهم الأحداث المُتعاقبة عزماً في تغيير صورة الحكم القائم، فأعلن البعضُ الرّغبة بخروج الدّعوة من السريّة إلى العلنيّة ومباشرة الحرب ضدّ الأمويين، إلاّ أن سليمان أدرك بكياسته عجلة هؤلاء، وقال: " رويداً لا تعجلوا، إني قد نظرت فيما تذكرون، فرَأيتُ أن قتلةَ الحسين هم أشرافُ أهل الكوفة، وهم المطالبون بدمِهِ، ومتى علموا ما تُريدون وعَلِمُوا أنّهم المطلوبون كانوا أشد عليكم"[1].

وكان التّريث في صالح الحركة بعد هلاك يزيد وربكة النظام، إذ تضاعفت إستجابة المشاركين بالدّعوة وساعد ذلك على إعلان الحركة، فتحوّلت الكوفة إلى مركز للنّشاط السّياسي بمختلف المظاهر وعمَّت الحالة مجتمع الكوفة.

ثُمَّ أعلَنت الثّورة وهاجم الكوفيون دار الإمارة وطردوا ممثّل ابن زياد، وسُلّمت السلطة فيها إلى عامر بن مسعود فدان بالولاء لابن الزبير، ومع أنّ الكوفيّين لم يقنعهم ذلك إلاّ أنّ الضّرورة اقتضت الإغضاء عن ذلك[2].

ولّما رأى الأمويّون رياحَ الثّورة الحجازية تهب بشكل عاصف على العراق أسرعوا في التودّد لابن الزبير لضمان مصالحهم، فأظهر التوّابون استنكافهم من ذلك، فأهدافهم لا تلتقي مع ابن الزبير، لكنّ بسط نفوذه على العراق أخّر إعلانهم ذلك، فقد ارتبطت الكوفة بالحجاز وتقبّل الشيعة الأمر بفتور وتحفّظ، وسرعان ما صارت الكوفة إحدى ولايات الخلافة الزبيرية.

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٥٢/٧).

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٤٨/٨).

الظهور الأوّل للمختار الثقفي

وتوالت أحداث مهمّة في الكوفة أدّت إلى خلخلة الجبهة الشّيعيّة، ففي حين يبسط ابن الزبير نفوذه فيها يظهر فيها - بصورة مفاجأة - المختار بن أبي عبيد الثقفي[١].

ولستُ أنوي تقييم هذه الشّخصيّة المثيرة للجدَل، فالتّحقيق يقتضي الإطناب والبَسط، إلاّ أنّ الذي يُمكن قولُه أنّ المختار أعَدَّ نفسَه ليكونَ رُكناً في الثّورة الحُسينيّة، وكانت حركته في الكوفة بداعي تهيأة المناخ فيها للثّورة، إلاّ أنّ الوالي الأموي أودعه السِّجن في ثُلّة من أقطاب الشّيعة، فسُجن حتّى توسّط له صهره عبد الله بن عمر لدى الخليفة يزيد[٢].

والتحم المختار في قوّة ابن الزبير في الحجاز والحقد يملأ قلبه على الأمويّين، وسُرعان ما تبَدّد هذا الإنسجام، إذ أنّ المختار مستقلٌّ في المطامح ولن يلتقي مع ابن الزبير إلاّ في القليل، فَقَفل عائداً إلى الكوفة ليتصدّر واجهتَها، فجاءَهم رافعاً شعار الثّأر للإمام الحُسَين عليه السلام الذي هو شعارُهم الذي جنّدوا من أجله الكوفة!!

وساعدَه في بسط نفوذه دعم محمّد بن الحنفيّة رضي الله عنه، فقامت دعوته منطلقة من الحجاز إلى الكوفة باسم ابن الحنفيّة[٣].

وبقيت شخصيّته تحت ظلّ شخصيّة قائدِها سليمان بن صُرَد، وشكّ الكثير في

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٥٣/٧)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢٤٨/٨).

(٢) راجع تاريخ العرب السياسي (١١٤ - ١١٥)، والخوارج والشيعة لفلهوزن ص (١٩٨)، وتاريخ اليعقوبي (٢٥٨/٢)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢٤٩/٨).

(٣) راجع تاريخ اليعقوبي (٢٥٨/٢)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٦٤/٧).

صحّة علاقة دعوته بابن الحنفية، ولم يمنعه ذلك من عرض برنامجه الدّعوي مشيراً إلى بصيرة حركته، مُلمّحاً إلى علاقته ببَيت الإمامة، فقال: " إن سليمان ليس له بصَر بالحرب، ولا تجربة بالأمور، وإنما يريد أن يخرجكم فيقتلكم ويقتل نفسه، وأنا أعمل على مثال قد مُثِّل لي، وأمرٍ قد بُيِّن لي، فيه عزّ وليّكم، وقتل عدوّكم وشفاء صدوركم، فاسمعوا قولي وأطيعوا أمري "[1].

ولم تؤثّر حمَلاته على التوّابين وانقلب نشاط المختار عليه، وشعَر جماعة ابن الزبير بخطره على أهدافهم، فكتب البعض إلى عامل المدينة يحذّرونه من المختار وأهدافه في الكوفة، ونصحوه بتخليده في السّجن حتى يستقيم أمر الناس[2].

وأُقحَم المختار إلى السجن مرّة أخرى ليراقب مسرح الأحداث من وراء قضبانه، وصرّح بمباركته تحرك سليمان، وحثّ على إعلان ثورة الكوفة، وكان يردّد على مسامع زائريه تأكيده على الثأر من قتلة الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: " أما ورب البحار، والنخيل والأشجار، والمهامه والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتُلَنّ كل جبّار، بكلّ لدن خطار، ومُهنّد بتّار، في جموع من الأنصار، ليسوا بميل أغمار، ولا بعزّل أشرار، حتى إذا أقمت عمود الدين، وزايلت شعب صدع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين، وأدركت بثأر أولاد النبيين، لم يكبر عليّ زوال الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا أتى "[3].

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن الأثير (٤/ ٧٢).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/ ٦٥)، والبداية والنهاية لابن الأثير (٤/ ٧٣).

(٣) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/ ٦٦)، والبداية والنهاية لابن الاثير (٤/ ٧٣).

إنطلاقة التوّابين في الكوفة

صعّد التوّابون جهودَهم وجابوا الكوفة وأسواقها لعرض السّلاح وتحريك الأجواء واستثارة الجماهير ودعوة المتطوّعين، حتى حلّت سنة ٦٥ هـ فخرَجت دعوتُهم إلى حيّز التنفيذ الحاسم، وإن كان يعوزهم العدد، فرُدّدت الشعارات: "من أراد الجنة فليلتحق بسليمان في النخيلة.. من أراد التوبة فليلتحق بسليمان"، فارتفع العدد مع تصعيد الحملات الدعائية إلى أربعة آلاف مقاتل[١].

وهو عددٌ كبير في مجتمع متخلخل أثّرت عليه الأحداث وشتّتت كلمته، وأعلن سليمان أن الهدف الأوّل هو رأس عبيد الله بن زياد المسؤول المباشر بعد هلاك يزيد، قائلاً: " لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضي فيه حكمي، هذا الفاسق ابن الفاسق عبيد الله بن زياد، فسيروا إلى عدوكم مع الله، فإن يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية، فتنظرون إلى كل من شرك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تغشموا، وأن تستشهدوا فإنما قاتلتم المحلين، وما عند الله خير للأبرار، لأحب أن تجعلوا حدكم وشوكتكم بأول المحلين، ولو قاتلتم أهل مصركم ما عدم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه أو رجلاً لم يكن يريد قتله، فاستخيروا الله وسيروا "[٢].

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن الاثير (٧٤/٤)، وقال ابن كثير (٢٥١/٨): أنّ عدد المتطوعين بلغ نحو عشرين ألفاً.

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٦٨/٧)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٧٤/٤).

وارتأى التوّابون أن تكون الشّام هدف حملتهم التي يعدّون لها، وتأكّد لهم ضرورة ضرب رأس الأفعى دون محاسبة الأشخاص، فغادروا الكوفة في الخامس من ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ إلى النخيلة لتلتقي وفود المتطوّعين في موعد مُحدّد، وأقام سُليمان أيّاماً ثلاثة فيها، وقد انخفض العدَد الذي التزم الخروج كثيراً، ولم يتجاوزوا الأربعة آلاف مقاتل أو أقل من ذلك !!

ولم يؤثّر ذلك على العزائم الثّابتة، ولم يفكّروا بسوى الهدف الذي خرجوا من أجله، وخطب فيهم سليمان رضي الله عنه في هذا الظّرف العصيب، وفجّر فيهم الحماسة والشّجاعة، وغادَر سُليمان النّخيلة بجيشه إلى كربلاء، حاملين إلى قبر سيّد الشهداء عليه السلام آلامَهم بكل تَفَجُّع، وكان لقاء المستغفرين في حضرة صاحب الشّفاعة، فنحَروا ذاتهم وأناهم وطموحاتهم الشخصيّة عند منحر الإمام الحسين عليه السلام ولم يرغبوا في العيش بعده، وجدّدوا ميثاقهم الذي جمعهم عنده، بعد أن استنشقوا عبير الشهادة الحسيني الطري في ساحة مقتله ومصرعه !!

وكلّهم يقول: " اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبيّنا، وقد أسأنا وأخطأنا، فاغفر لنا ما قد مضى من ذنوبنا، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم، اللهم ارحم الحسين، الشهيد ابن الشهيد، وارحم إخواننا الذين حصنّوا أنفسهم معه بالشهادة، اللهم إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ".

وقد حاول أمير الكوفة الزبيري جاهداً ثني التوابين عن نيّتهم مطالباً بتأخير موعد الحركة، ولكنّ المنطق الذي يحرّك التوّابين لا يلتقي مع منطق الأمير، ولهذا فإنّ سليمان رضي الله عنه أتمّ قراءة كتابه بتنهيدة ثمّ تمثّل:

أرى لكِ شكلاً غيرَ شكلي فأقصِري عن اللومِ إذْ بُدّلتِ واختَلَفَ الشّكلُ[١]

وكان قد غادر بأصحابه كربلاء ووصَل هَيْت، فأجابَه برِسَالة مُختصرة يخبره بعزمه على المسير للثأر، وأدرك أميرُ الكوفة أنّه أرسل إليه كتابه عبَثاً، فالتفت لمن حضَره يقول وكأنه يسّر إلى نفسه: " استمات القوم ورب الكعبة، وأول خبر يأتيكم عنهم بأنهم قُتلوا بأجمَعِهم، والله لا قُتِلوا حتى يكثر القتل بينهم وبين عدوهم "[٢].

أمّا التوّابون فقد باتوا يوماً وليلة عند قبر الإمام الحسين عليه السلام ثمّ غادروه إلى الأنبار ومنها إلى القيّارة وهيت، وتجنّبوا السّير عبر الصّحراء، واتخذوا طريق الجزيرة، وتوالت أنباء جيش كبير للأمويين يزحف من دمشق، ولم تتأثّر خطتهم العامة بهذا النّبأ، وجرت إتصالات بين سليمان وبين زفر الكلابي أمير قرقيسيا المعارض للأمويّين، وكان قد أمر بإغلاق المدينة تحسّباً للظروف، فقابله المسيّب نائب سُليمان وشرَح له أبعاد الحركة فأبدى تُعاطفاً واستعداداً لمساعدتهم[٣].

ولم يزوّدهم بأكثر من الغذاء رغم تعاطفه معهم وعداوته للأمويين، وربّما لأنّه وجدَهم يغامرون دون وجود فرصة في النجاح، لكنّه خرج لمواكبتهم خارج المدينة، فحُملت إليه أنباء وجود عبيد الله بن زياد في الرقّه على رأس جيش ضخم، وبصحبته خمسة من كبار قادة الأمويين، وهم الحصين بن نمير السكوني

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٧٢).

(٢) راجع الفتوح لابن الأعثم الكوفي ص (٢٦٠).

(٣) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٧٢ - ٧٤)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/٧٥).

وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري وأدهم بن محرز الباهلي وربيعه بن مخارق الغنوي وجبله بن عبد الله الخثعمي[١].

وأخذ زفر يلحّ على ضيوفه بالتروّي والرجوع إلى قرقيسيا لتوحيد الجبهة، إلاّ أن التوّابين لم يهتزّوا لأنباء ذلك الجيش الضخم وأصروا على متابعة المسير، فقد وطّنوا أنفسهم على الشّهادة طوال خمس سنين، لكن زفر الذي يئس من إقناعهم بالرّجوع نصحهم نصيحة عسكريّة مهمّة.. وقال لهم: " إني للقوم - الأمويين - عدو، وأحب أن يجعل الله عليهم الدائرة، وأنا لكم واد، أحب أن يحوطكم الله بالعافية، إن القوم قد فصلوا من الرقة فبادروهم إلى عين الوردة، فاجعلوا المدينة في ظهوركم، ويكون الرستاق والماء والمادة في أيديكم، وما بيننا وبينكم فأنتم آمنون منه، فاطووا المنازل، فوالله ما رأيت جماعة قط أكرم منكم، فإني أرجو أن تسبقوهم، وإن قاتلتموهم فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنوهم، فإنهم أكثر منكم، ولا آمن أن يحيطوا بكم، فلا تقفوا إليهم فيصرعوكم، ولا تصغوا إليهم، فإني لا أرى معكم رجّالة ومعهم الرجّالة والفرسان وبعضهم يحمي بعضاً، ولكن ألقوهم في الكتائب والمقانب، ثم بثّوها فيما بين ميمنتهم وميسرتهم، واجعلوا مع كل كتيبة أخرى إلى جانبها، فإن حُمل على إحدى الكتيبتين رحلت الأخرى فنفست عنها، ومتى شاءت كتيبة ارتفعت ومتى شاءت كتيبة انحطت، ولو كنتم صفاً واحداً فزحفت إليكم الرجالة فدفعتم عن الصف انتفض وكانت الهزيمة[٢].

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٧٣)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/٧٥).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٧٣ - ٧٤)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/٧٦).

وكانت نصائح زفر منهجاً سديداً لجيش التوّابين، فساروا في إتجاه عين الوردة حسب الخطة حتى وصلوها واستراحوا قليلاً، وأخذ سليمان ﷺ في تنظيم المقاتلين إستعداداً لمواجهة الجيش القريب، وقسّم مقاتليه إلى مجموعات صغيرة تقوم بالهجمات على أطراف الجيش الأموي لتصديعه وهزّه.

معركة عين الوردة

أصبح الإشتباك وشيكاً بين الطّرفين، ووقف سليمان ﷺ بين رفاقه خطيباً قُبيلَ المعركة ليذكّرهم بأساسيّات الحركة ويضع الخطّة البديلة إذا أصيب هو أو أحد قادته، فقال: ".. فقد أتاكم الله بعدوّكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل والنهار تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ولقاء الله مُعذَرين، فقد جاؤوكم بل جئتُمُوهُم أنتم في دارهم وحيّزهم، فإذا ألقيتُمُوهم فاصدقوهم واصبروا ان الله مع الصابرين.

لا تقتُلوا مُدبراً ولا تُجهِزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم إلاّ أن يقاتلكم بعد أن تأسروه أو يكون من قتلة إخواننا بالطّف (رحمة الله عليهم) فان هذه كانت سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل الدعوة "[١].

وشقّت في ذات الوقت طلائع جيش بني أميّة طريقَها نحو قرقيسيا بقيادة عبيد الله بن زياد لتصفية معارضة العراق، ولكن ثقة القائد كانت في غير محلّها هذه المرّة، فهذه المهمّة هي آخر مهامّه في خدمة النظام الأموي، ولمّا بلغته معلومات تحرّك التوّابين باتّجاه عين الوردة حوّل سيره إليهم ليفترسهم بفتكه، وتناقلت الرّسل في ذات الوقت خبر موت الخليفة مروان وتعيين ابنه عبد الملك في شهر

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٤/٧)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٧٦/٤).

رمضان سنة ٦٥ هـ، وواصل الجيش زحفه السّريع إلى معسكر التوابين.

وتواجَهَت القوّتان غير المتكافئتين كمّاً وكيفاً، وبدى تفوّق الأمويّين الذين جاوزوا العشرين ألفاً واضحاً، وقد وُزِّعَت عناصره إلى مُقدّمة ومؤخّرة وقلب وجناحين، أمّا التوّابون فقد شكّلُوا خَطاً واحداً للتصدّي بقيادة سُليمان، يعاونه عبد الله بن سعد بن نفيل على الميمَنة والمُسيّب بن نجبة على الميسرة[1].

وبدأ استعداد الجيش الأموي السّريع لسحق هذا الجيش الصّغير، وحاول ابن زياد مفاوضة التوّابين على الإستسلام، وقَبل سليمانُ محاورةَ أعدائه لوقف القتال مُشترطاً شرطاً واحداً، وهو تسليمه عبيد الله وقتلة الإمام الحسين عليه السلام[2].

وقُوبل شرطُه بالرّفض المحتّم فأصبحت الحرب وشيكة الوقوع، وبدأت المناوشات فعلاً، فتصدّى أربعمئة فارس بقيادة المسيّب للأمويّين فأوقعوا فيهم هزيمة قاسية، وفقد الجيش الأموي الكثير من رجاله رغم التفاوت الكبير بين القوّتين، ويرجع ذلك لمستوى الحماس الملتهب عندَ التوّابين ولوقوع الإختلاف بين شرحبيل والحُصَين على القيادة العليا للجيش الأموي[3].

وكان ذلك إيذاناً بوقوع الحرب الفعليّة، فاندفع التوّابون من مواقعهم بقيادة سليمان بن صُرَد رضي الله عنه والتحموا مع قوات الحُصَين الأمويّة التي تفوقهم كثيراً في العدد في جمادي الأولى سنة ٦٥ هـ، وبدى وضع التوّابين معزّزاً جدّاً ومعنويّاتهم

---

(١) راجع تاريخ خليفة (١/٣٣١)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٧٥).

(٢) راجع العراق في العصر الأموي ض (١٧٠)، وأنساب الأشراف للبلاذري (٥/٢١٧).

(٣) راجع البداية والنهاية (٨/٢٥٣)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٧٥)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/٧٦).

مرتفعة، وكانت نداءات سليمان ﷺ تزيد من ضراوة المعركة: " يا شيعة آل محمد، يا من يطلبوا بدم الشهيد ابن فاطمة، أبشروا بكرامة الله عز وجل، فوالله ما بينكم ودخول الجنة والرّاحة من هذه الدّنيا إلاّ فراق الأنفس والتوبة والوفاء بالعهد "[١].

وعبّر التوّابون بعنف عن تخلّيهم عن الحياة واستعدادهم للقتل بتكسير أغمدة السّيوف إبّان المعركة، وتقدّموا إلى القتل بشجاعة خارقة، واستمرّت المعارك على مدَى ثلاثةِ أيّام والتوّابون يحقّقون نجاحات مذهلة على أطراف ومقدمات الجيش الأموي ممّا أربكه وأفقده كثيراً من مقاتليه.

وبدأ التوّابون القتال في اليوم الأوّل بهجومٍ عنيف على طَرَفي الجيش الأموي، فتراجع مهزوماً تاركاً وراءَه الكثير من القتلى والجرحى، فخلّفَت هذه الهزيمة الإستياء العميق في نفس ابن زياد وأفقدته السّيطرة على أعصابه فاتّهم بعض القادة بالتّخاذل والتّقصير[٢].

واستؤنف القتال في اليوم الثاني وقد عزّز الأمويّون مواقعَهم واستفادوا من أخطائِهم، فانعدم التكافؤ بين القوّتين بشكلٍ ظاهر، لكن حماس التوّابين إلى الشّهادة نَسَفَ عوامِلَ التفوّق الأموي، وأُثخن الفريقان قتلاً وجراحاً دون نتيجة حاسمة لأيّ من الطّرفين.

وكان اليوم الثالث هو الأهم في معارك عينِ الوردة، إذ أطبق الأمويّون بكل

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٥٤/٨)، والخوارج والشيعة ص (١٩٥)، والفتوح لابن الأعثم الكوفي.

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٦/٧)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٢٥٤/٨).

إمكانيّاتهم على التوابين بعد سقوط مقاتليهم في اشتباكات اليومين الماضيين، فأُحيطوا من كل جانب بهم، ولم يضعف التوّابين عنف العدوّ وشراسة الموقف، وظلّوا متماسكين في جبهة واحدة يقاتلون قتالَ المستَميت، وتحاشى عدوّهم الإلتحام المباشر بهم، فاعتمَد الأمويّون على السّهام في النّيل منهم، وتمكّنوا بذلك من كسر شوكتهم حتّى تفتّتت قوّتهم[1].

وراح صوت القائد سليمان رضي الله عنه يدوّي وسط المعمعة ويخترق القلوب: "عباد الله، من أراد البكور إلى ربّه، والتوبة من ذنبه، والوفاء بعهده فإليّ "[2].

وهذه آخر الكلمات التي صدرت من القائد قبل أن يفد على الإمام الحسين عليه السلام وينظمّ في أصحابه البررة رضي الله عنهم، ولمّا أوشك على الشّهادة رماه يزيد بن الحصين بسهم فأوقعه قتيلاً، فاستشهد وله ثلاثٌ وتسعون سنة[3].

ولمّا قُتل سليمان رضي الله عنه تسلّم الرّاية نائبه المسيّب بن نجبه رضي الله عنه الذي لم يختلف في صموده عن قائده، حتّى وصفه بعض من رآه في المعركة: " ما رأيت أشجع منه إنساناً قط، ولا من العصابة التي كان فيهم، ولقد رأيته يقاتل قتالاً شديداً، ما ظننت أنّ رجلاً واحداً يقدر أن يبلى مثل ما أبلى، ولا ينكأ في عدوه مثل ما نكأ "[4].

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٧٦)، ومروج الذهب (٣/٩٤)، وإمبراطورية العرب ص (١٣٥).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٧٦).

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٨/٢٥٥).

(٤) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٧٦ - ٧٧).

وسُرعان ما سقَط المسيّب ﷺ صريعاً، وتبعه بقيّةُ القوّاد وأكثر المقاتلين، وانتهت القيادة إلى رفاعة بن شداد، فأصدر أوَامرَه سرّاً للبقيّة الباقية بالإنسحاب، إلاّ أنّ فئة قُدّرت بمئة وثلاثين مقاتلاً أصرت على الشهادة، فظلّت تقاتل حتى أُبيدت، وانسحب الباقون تحت جُنْحِ الظّلام، فقد شكّل القائد فرقة من سبعين فارس لإشغال العدوّ حتّى يتم الإنسحاب، وأمر بهدم الجسور وراء المقاتلين.. وتم التراجع بنجاح، واستطاع باقي التوابين الإنسحاب عن ميدان المعركة، وصاروا في أمان من مطاردة الأُمويّين[1].

وعاودت الأبطال المنسحبين ذكريات القتال وحرّكهم شعورٌ مضاعف بالرّغبة في الثأر، وتجدّد شعورهم بالذنب حيال ما جرى، ففكّروا بمعاودة القتال حتّى الشّهادة، فتمكّن القائد من إقناعهم بالإنسحاب للكوفة[2].

وكانت رحلة العودة مليئة بالمتاعب، وكان فيهم الجرحى، وحاول أمير قرقيسيا التّخفيف عنهم بإرسال الغذاء والأطبّاء لّما بلغوه، فأقاموا عنده ثلاثة أيام وانصرفوا بعدها إلى هيت، وتفجرت أحزانهم مجدّداً حين التقوا إخوانهم القادمين من المدائن بقيادة سعد بن حذيفة بن اليمان وهم يزحفون للقتال معهم، لكنّهم وصلوا متأخّرين، فكان اللقاء حزيناً جدّاً، ولم يخفّف حزنه إلاّ افتراقهم عائدين إلى مدنهم[3].

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٨/٢٥٤)، وإمبراطورية العرب ص (١٣٦).

(٢) راجع إمبراطورية العرب لجون جلوب ص (١٣٦).

(٣) راجع الفتوح لابن الأعثم الكوفي، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٨٠)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/٧٨).

ورجع التوّابون إلى الكوفة وكانت أخبار بطولاتهم قد سبقَتهُم إليها، والنّاس بين مُعجَب وحزين على رحيل نُخْبَة الشّيعة وأعيانها، فما شارفوا المدينة حتّى هرع النّاس لاستقبالهم، ويقدمهم الأمير الزبيري.

الظهور الثاني للمختار الثّقفي

كان رجوع بقيّة التوابين هو الذي أشعل فتيل حماسة المختار وهو رازحٌ وراء القضبان، فأرسل إليهم من سجنه: " أبشروا، فقد قضيتم ما عليكم، وبقي ما علينا، ولن يفوتنا منهم من بقي إن شاء الله ".

ثمّ كاتب المختار القائد العائد مبشّراً إيّاه بالنصر القريب، وعاهده على إكمال مسيرة سليمان والتوابين رضي الله عنهم، فهو الأجدر بتحقيق النصر والثأر عند نفسه، وكتب للعائدين منهم: " أما بعد، فمرحباً بالعصبة الذين عظم الله لهم الأجر ورضي فعلهم حين قتلوا، أما وربّ البيت ما خطا خاط منكم خطوة ولا ربا ربوة إلاّ كان ثواب الله أعظم من الدنيا، إن سليمان قضى ما عليه وتوفّاه الله وجعل روحه مع أرواح النبيين والصدّيقين والشّهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون، إني أنا الأمير المأمور والأمين المأمون، وقاتل الجبارين، والمنتقم من أعداء الدين، المقيد من الأوتار، فأعدّوا واستعدّوا وأبشروا، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدم أهل البيت والدفع عن الضعفاء وجهاد المحلين "[١].

---

(١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/ ٧٨).

ويمكننا أن نقول أنّ المختار ظهر في الكوفة في وقت مناسب، إذ لا تزال فكرة الإنتقام قائمة في النّفوس فزادها مصير التوّابين حُرقة وهيجاناً، إلاّ أنّ الجمهور ينتظر شعاراً مقنعاً للإنضواء تحته، وأهدافاً تحقّق البديل للأمويّين ولا تكتفي بالإستماتة والشّهادة، وكان المختار يصبو لتحقيق البديل !!

واستطاع الشّيعة توظيف نتائج معارك التوّابين لصالح قضيّتهم بحنكة، مسجّلين الموقف كنجاح سياسي لهم، لأنّ الحركة قد بلغت غاياتها المطلوبة، مضيفة صفحة مشرقة من النّضال إلى قائمة مكارمهم، فرغب جمهور الكوفة بالثّورة بعد تعميق كراهية النّظام الأمويّ وأصبحت مسرحاً للتحرك ضدّ النظام.

وقد أدّى غياب رموز الشّيعة بعد استشهادهم إلى فراغ الزعامة، في عهد يصعب فيه الإتّصال بالإمام علي بن الحسين عليه السلام.. وهو ظرف ساعد المختار في بسط نفوذه في القلوب، فتحرّك من بين قضبان المعتقل وكتب لصهره عبد الله بن عمر ليتوسّط مجدّداً عند أمير الكوفة ليفرّج عنه.

وتم إخلاء سبيله بشرط تجميد نشاطاته السياسية، ولكنّه لم يلتزم بذلك وسُرعان ما سخر من شروطهم، وقال: " ما أحمقهم حين يرون أنّي أفي لهم بأيمانهم هذه، أما حلفي لهم بالله فإنه ينبغي لي إذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها أن أدع ما حلفت عليه وآتي الذي هو خير وأكفّر يميني، وخروجي عليهم خيرٌ من كفّي عنهم "[1].

وصادف أن غادر أمير الكوفة قصر الإمارة معزولاً، فتحلّل المختار تلقائياً من

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٩٤).

عهوده معه، إذ لاحظ ابن الزبير أنّ في عامله ضعفاً لا يناسب خطورة المرحلة، فعيّن مكانه عبد الله بن مطيع القرشي وهو من أشد النّاس ولاءً له[١].

وخرج المختار من سجنه ليواجه الأحداث، ولم يتردّد في اتخاذ موقف التحرّك قبل رصد الوالي الجديد لنشاطاته، فأعلن نفسَه ثائراً باسم محمد بن الحنفية رضي الله عنه وادّعى أنّه اتفق سراً معه على الدعوة له في الكوفة، فشكّك بعض أهل الكوفة في هذا الأمر، وانتدبوا وفداً لمقابلة ابن الحنفيّة رضي الله عنه للوقوف على حقيقة الزّعم، لكنّه لم يعطهم جواباً حاسماً في ذلك الظرف العصيب، بيد أنّه بارك حركته، فقال للوفد الكوفي: " إنّا لا نكره أن ينصرنا الله بمن شاء من خلقه "[٢].

ويبدو أن المختار كان قد اتصل بالإمام علي بن الحسين عليه السلام وباحثه بأمر الدّعوة له في العراق ولم يلق استجابة منه، فانصرف إلى محمد بن الحنفية رضي الله عنه، وأميل شخصيّاً إلى مباركة الإمام عليه السلام لحركته رغم التحفّظات، فهو في ظرف يصعب عليه مباركة مثل ذلك علناً، ولا أظنّ أنّ ابن الحنفيّة رضي الله عنه يستقل بمباركته حركة المختار دون الرّجوع لإمام زمانه عليه السلام، وإنّ موقفه عليه السلام بعد ظفر المختار ينمّ عن مباركة لحركته بل يدلّ على غاية الرّضا.

وعلى كلّ حال، فإن شيعة الكوفة تفاعلوا مع موقف ابن الحنفية رضي الله عنه من المختار رغم عدم وضوحه، وشهدوا تحولاً نحو المختار، فتصدّر الزّعامة بعد فرض نفسه حتّى على رموز الكوفة، ووجد الكلّ فيه القيادة الصالحة لمتابعة نشاط

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٩٠).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٨/٢٦٥).

الحركة، فانتشرت الحملات الدعائية في الكوفة وأحيائها لكسب تأييد النّاس للمختار والبيعة له[١].

وتردّد إبراهيم بن مالك الأشتر النّخعي رضي الله عنه في الإنضمام لجانبه - وهو أحد كبار شيعة الكوفة المعروفين بشدّة ولائه للبيت العلوي - وأُخمّن أن يكون إبراهيم يطمح إلى وضوح الرّؤية في شرعية الحركة، وقد كان ممتنعاً عن الدّخول حتّى في جماعة التوّابين، وكان على اتّصال مباشر بابن الحنفية رضي الله عنه، لكنّ ذلك لم يمنع المختار من الإلحاح عليه حتّى إقناعه بالإعتراف به والبيعة له، ويرجّح أن يكون ذلك بإيحاء من ابن الحنفيّة رضي الله عنه[٢].

ويعني انضمام إبراهيم إلى المختار مكسباً كبيراً لهذه الحركة، وسرعان ما صار قائدها العسكري الأول، وأحد أركان الإنقلاب المزمع ضد الحكم الزبيري في الكوفة، وقد حُدّدت ساعة الوثبة في يوم معيّن من سنة ٦٦ هـ، وكانت التقارير ترتفع لوالي الكوفة الجديد من قائد شرطته مُحَذّرةً من إنقلاب يعدّه المختار، ونشر الوالي رجاله في بعض أحياء الكوفة لإفشال المخطّط، إلاّ أنّ ذلك ساهم في تعجيل انفجار ثورة المختار وتقديم موعدها يومين[٣].

فقد كان ابن الأشتر في طريقه لمنزل المختار ومعه مئة من جنده فاعترض طريقه صاحب الشرطة، فطعنه إبراهيم برمحه طعنة أودت بحياته، وكانت هذه

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٦٤/٨).

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٦٨/٨)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٩٨/٧ - ٩٩).

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٩١/٤) و (٢٦٦/٨)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٨٩/٤)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (١٠٠/٧).

الحادثة إشارة بدء الحركة، فاستولى المختار وابن الأشتر على الموقف وهُزم الوالي مُغادراً قصر الإمارة متخفّياً، وتقهقر داعموه بسُقوط إمارته[١].

ونَجَحَت ثورةُ المختار الثّقفي، وتحقّقت أهدافه باستلام الحكم في الكوفة، دون إسراف في إراقة الدّماء، وقد طلَب بعضُ الأشراف الأمان فأجيبوا إليه، وأخرج الوالي من مخبئه مُبعَداً إلى البصرة، فخضعت الكوفة بكلّ فئاتها للمختار، فاعتلى منبرَ جامعِهَا ليقول: " تبايعوني على كتاب الله، وسنّة نبيّه، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المحلّين، والدفاع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا، وسلم من سالمنا، والوفاء ببيعتنا، لا نقيلكم ولا نستقيلكم "[٢].

غير أنّ المختار الذي استولى على السلطة بهذه السهولة واجه صعوبة في الإحتفاظ بها وسط دائرة الصراعات في العالم الإسلامي، والتي نقلت صراعها بكلّ معناه إلى العراق، فأنظار الأمويّين مركّزة على تطوّر أحداث الكوفة، وابن الزبير الذي يسيطر على جنوب العراق يراقب التطوّرات.. وقد بايع الأشراف المختار مكرهين فلزم الحذر منهم، ولم يفتقر المختار إلى الكياسة والحزم فتظفّرت مخطّطاته بالنّجاح في ذلك الحين.

إلاّ أنّ الذي أثقل على المختار هو خبر وصول عبيد الله بن زياد بجيشه إلى الموصل، فبدأ في الإستعدادات العسكرية لمواجهة أشد أعدائه خصومة، وفي سبيل تأخير زحف العدوّ للكوفة أرسل جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل فتلقّى طلائع الجيش

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/١٠٠ - ١٠٣)، والبداية والنهاية لابن كثير (٨/٢٦٧).

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٨/٢٦٨)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/٩٥)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/١٠٨ - ١٠٠).

الأموي وتمكّن بعد يومين من تحقيق إنتصار كبير، لكن وفاة القائد المسن المريض في ليلة نصره قد أثّرت تأثيراً سيّئاً على معنويات الجنود، فأخذوا في التراجع إلى الكوفة.. فاقتحمت الكوفة أخبار انسحاب الجند مضمومٌ إليها إشاعات هزيمة الجيش، فأمر المختار قائده ابن الأشتر بالتوجه في سبعة آلاف مقاتل ليحول دون توغّل ابن زياد في العراق[1].

وبخروج ابن الأشتر من الكوفة كان خروج الأمور عن توازنها، وكأنّ وجوده كان عائقاً دون تفرّق أهلها، فانتفض الأشراف مع خلو الكوفة منه، وشجّعهم على ذلك تضارب مصالحهم الإقتصادية والسياسية وخوفهم من فتك المختار، فهو الذي لا ينسى قتلة الإمام الحسين عليه السلام والمعينين عليه، فتآمروا مع بعض فئات المجتمع الكوفي والموالي في سبيل إسقاط المختار[2].

وانطلقوا مسلّحين وحاصروا قصر الإمارة، وخاض أنصار المختار في سبيل الذبّ عن قائدهم معارك ضارية، وتمكّن المختار من الصّمود ولم يفقد توازنه، وفاوَضَ المتمرّدين كسباً للوقت، وكتب لابن الأشتر يُعلمه بشأن المؤامرة[3].

وجرّ ابن الأشتر أذياله للكوفة مُسرعاً، فبلَغَت حماسة الشّيعة بعودته أقصى درجاتها، وقد ارتفعت صرخات التوابين " يا لثارات الحسين " ممّا أثار الحفائظ

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (١١٣/٧ - ١١٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢٦٩/٨)، والخوارج والشيعة ص (٢١٨).

(٢) راجع تاريخ العرب السياسي ص (١١٧).

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٧٠/٨)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٩٨/٤).

على الأشراف المشاركين في مقتل الإمام الحسين عليه السلام ، فأتاحت الأجواء الفرصة لإسراع المختار في الثأر من قتلة الإمام عليه السلام وتتبّعهم في أنحاء العراق[١].

فوفّق الله تعالى المختار لهذا التوفيق العظيم، وشفى الله بحركته صدور المؤمنين، وأدخل الرّاحة على أهل البيت عليهم السلام ، فظفر بالكثيرين من قتلة سيّد الشّهداء عليه السلام فأوقع فيهم قتلاً، وفيهم عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوش[٢].

واستطاع المختار بقوّة ابن الأشتر أن يخمد تمرّد الأشراف، ثم شقّ ابن الأشتر طريقه مجدّداً إلى الموصل ليواجه جيش عبيد الله بن زياد، واشتبك الجيشان عند نهر الخازر في ملحمة عظيمة، واستطاع ابن الأشتر أن يشكّل فرقة تمكّنت من اختراق العدو مستهدفة عبيد الله بن زياد لقتله، وقد نجحت في قتله وقتل كبار قوّاده، ممّا أدّى إلى تشتيت القرار وهزيمة الجيش الأموي[٣].

وكان وقع مقتل ابن زياد على النفوس عظيماً، وبلغ صدى هلاكه لشيعة العراق والحجاز فاستقبلوه بحالة من البهجة والسّرور، واحتز ابن الأشتر رأس ابن زياد وحمله إلى الكوفة ليضعه في نفس المكان الذي وضع فيه رأس الإمام الحسين عليه السلام عندما كان ابن زياد والياً على الكوفة!!

وبلغ المختار بذلك قمة نجاحه ومجده، وأفاق المختار من سكرة النصر حين فوجئ بمصعب بن الزبير يزحف بجيشه نحو الكوفة، وكان قد أرسل من قبل أخيه

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (١٢٠/٧).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (١٢٠/٧)، وامبراطورية العرب ص (١٥٣ - ١٥٤).

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري (١٤٤/٧).

أميراً على البصرة سنة ٦٧ هـ[١].

واستعدّ المختار لمواجهة مصعب بإمكانيات محدودة، وكان ابن الأشتر لا يزال بالموصل، فاشتبك الجيشان في حروراء، وبرز تفوّق الزبيريّين بشكل ملحوظ، وتراجع أنصار المختار فتتبّعهم جنود ابن الزبير، وبلغت أنباء هزيمتهم للمختار وكان معتصماً في قصر الإمارة.

فخرج يطلب الموت بعد اشتداد وطأة الحصار، وقال لأصحابه وهو خارج إلى القتال: " إنّ الحصار لا يزيدنا إلاّ ضعفاً، فانزلوا بنا نقاتل حتى الليل ونموت كِرَاماً " فقُتل بعد مقاومة بُطوليّة، فرحمة الله عليه[٢].

ولم تقف تداعيات أصداء مقتل الإمام الحسين عليه السلام بعد كلّ هذه الأحداث، وظلّت الكوفة مسرحاً للكبت والنشر، وظلّ قصر الإمارة هذا يشهد رؤوس القادة حيث شهد رأس الإمام الحسين عليه السلام.. " وقال عبد الملك بن عمير: رأيت رأس الحسين عليه السلام بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة، ثمّ رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار، ثم رأيت المختار بين يدي مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدي عبد الملك، فقيل له: كم كان بين أوّل الرؤوس وآخرها ؟ قال: إثنتا عشرة سنة !! "[٣].

ومضى المختار رحمه الله بعد أن دحرج رؤوس قتلة الإمام الحسين عليه السلام بين يديه

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٨٠ ، ٨١)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/١١٢).

(٢) راجع الخوارج والشيعة ص (٢٢٩)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/١١٣) و (٨/٢٨٨)، وقد استفدت في سرد هذه القصّة الكاملّة من جملة من المصادر التأريخيّة، وقد استنعنتُ بكتاب التوابين تأليف الدكتور إبراهيم بيضون في سرد رواية الأحداث وتسلسلها كاملة.

(٣) راجع المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي (٢/١٣٤).

وشفى في قتلهم صدور المؤمنين، ففي أمالي الطوسي عن المدائني أنّ ابن الأشتر بعث برأس ابن زياد إلى المختار وأعيان من كان معه، فقدم بالرؤوس والمختار يتغدّى، فألقيت بين يديه، فقال: "الحمد لله ربّ العالمين.. وضع رأس الحسين بن علي عليه السلام بين يدي ابن زياد وهو يتغدّى، وأتيت برأس ابن زياد، وأنا أتغدى !!

قال: وانسابت حيّة بيضاء تخلّل الرؤوس حتى دخلت في أنف ابن زياد وخرجت من أذنه، ودخلت من أذنه وخرجت من أنفه، فلمّا فرغ المختار من الغداء قام فوطأ وجه ابن زياد بنعله، ثم رمى بها إلى مولى له، وقال: إغسلها فإني وضعتها على وجه نجس كافر، وخرج المختار إلى الكوفة، وبعث برأس ابن زياد ورأس حصين بن نمير، ورأس شرحبيل بن ذي الكلاع إلى محمد بن الحنفية بمكة وعلي بن الحسين عليه السلام يومئذ بمكة.

وكتب إليه معهم: " أما بعد، فإني بعثت أنصارك وشيعتك إلى عدوّك يطلبونه بدم أخيك المظلوم الشهيد، فخرجوا محتسبين محنقين أسفين، فلقوهم دون نصيبين، فقتلهم ربّ العباد، والحمد لله ربّ العالمين الذي طلب لكم الثأر، و أدرك لكم رؤساء أعدائكم فقتلهم في كل فج وغرّقهم في كل بحر، فشفى بذلك صدور قوم مؤمنين وأذهب غيظ قلوبهم ".

وقدموا بالكتاب والرؤوس إليه، فبعث برأس ابن زياد إلى علي بن الحسين عليه السلام فأدخل عليه وهو يتغدّى، فقال علي بن الحسين عليه السلام: أُدخلت على ابن زياد (لعنه الله) وهو يتغدّى ورأس أبي بين يديه، فقلت: " اللهم لا تمتني حتى تريني رأس ابن زياد وأنا أتغدّى " فالحمد لله الذي أجاب دعوتي، ثم أمر فرُمي به.

فحُمل إلى ابن الزبير، فوضعه على قصبة فحرّكتها الريح فسقَط، فخرجت

حيّة من تحت السّتار فأخذت بأنفه، فأعادوا القصَبة فحرّكتها الريح فسقط فخرجت الحية، فأزمت بأنفه، ففعل ذلك ثلاث مرات، فأمر ابن الزبير فألقي في بعض شعاب مكة.

قال: وكان المختار رحمه الله قد سُئل في أمان عمر بن سعد بن أبي وقاص فآمنه على أن لا يخرج من الكوفة، فإن خرَج منها فدمُه هدر، فأتَى عمرَ بن سعد رجلٌ فقال: إني سمعت المختار يحلف ليقتلن رجلاً والله ما أحسبه غيرك، فخرج عمر حتى أتى الحمام، فقيل له: أ ترى هذا يخفى على المختار !! فرجع ليلاً فدخل دارَه، فلمّا كان الغد غدوت فدخلت على المختار وجاء الهشيم بن الأسود فقعد، فجاء حفص بن عمر بن سعد، فقال للمختار: يقول لك أبو حفص أين لنا بالذي كان بيننا وبينك ؟

قال: اجلس، فدعا المختار أبا عمرة فجاء رجل قصير يتخشخش في الحديد، فسارّه ودعا برجلين.. فقال: إذهبا معه، فذهب، فوالله ما أحسبه بلغ دار عمر بن سعد حتى جاء برأسه.

فقال المختار لحفص: أ تعرف هذا ؟ قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون !!

قال: يا أبا عمرة، ألحقه به، فقتله.

فقال المختار رحمه الله: عُمَر بالحسين، وحفص بعلي بن الحسين، ولا سواء.

واشتد أمر المختار بعد قتل ابن زياد، وأخاف الوجوه.. وقال: لا يسوغ لي طعام ولا شراب حتى أقتل قتلة الحسين بن علي عليه السلام وأهل بيته، وما من ديني أترك أحداً منهم حيّاً، وقال: أعلموني من شرك في دم الحسين عليه السلام وأهل بيته؟ فلم يكن يأتونه برجل فيقولون إن هذا من قتلة الحسين أو ممن أعان عليه إلاّ قتله.

وبلغه أن شمر بن ذي الجوشن (لعنه الله) أصاب مع الحسين إبلاً فأخذها، فلمّا قدم الكوفة نحرَها وقسّم لحومَها، فقال المختار: أحصوا لي كل دار دخل فيها شيء من ذلك اللحم فأحصوها، فأرسَل إلى من كان أخذ منها شيئاً فقَتَلَهم وهدَم دُوراً بالكوفة.

وأُتِيَ المختار بعبد الله بن أسيد الجهني ومالك بن الهيثم البداني من كندة وحمل بن مالك المحاربي فقال: يا أعداء الله، أين الحسين بن علي؟ قالوا: أُكرهنا على الخروج إليه!! قال: أَفَلا منَنتُم عليه وسقيتُموه من الماء؟ وقال للبداني: أنت صاحبُ بُرنُسِهِ، لعنَكَ الله؟ قال: لا. قال: بلى!!

ثم قال: اقطعوا يديه ورجليه ودعوه يضطرب حتى يموت فقطعوه، وأمر بالآخرين فضُربت أعناقهما، وأتي بقراد بن مالك وعمر بن خالد وعبد الرحمن البجلي وعبد الله بن قيس الخولاني فقال لهم: يا قتلة الصالحين، أَ لا ترون الله بريء منكم، لقد جاءَكم الورس بيوم نحس، فأخرجهم إلى السّوق فقتلهم.

وبعث المختار معاذ بن هانيء الكندي وأبا عمرة كيسان إلى دار خولّي بن يزيد الأصبحي، وهو الذي حمل رأس الإمام الحسين عليه السلام إلى ابن زياد، فأتوا داره فاستخفى في المخرج، فدخلوا عليه فوجدوه قد ركب على نفسه قوصرّة، فأخذوه وخرجوا يريدون المختار، فتلقّاهم في ركب، فردّوه إلى داره وقتله عندها وأحرقه.

وطلب المختار شمر بن ذي الجوشن، فهرب إلى البادية، فسعى به إلى أبي عمرة فخرج إليه مع نفر من أصحابه، فقاتلهم قتالاً شديداً فأثخنته الجراحة، فأخذه أبو عمرة أسيراً وبعث به إلى المختار، فضرب عنقه وأغلى له دهنا في قدر

فقذفه فيها فتفسّخ، ووطأ مولى لآل حارثة بن مضرب وجهه ورأسه.

ولم يزل المختار يتبع قتلة الحسين عليه السلام وأهله حتى قتل منهم خلقاً كثيراً وهرب الباقون، فهدم دورهم، وقتلت العبيد مواليهم الذين قاتلوا الحسين عليه السلام وأتوا المختار فأعتقهم(١).

وفيه بسنده إلى المنهال بن عمرو، قال: دخلت على علي بن الحسين عليه السلام منصرفي من مكة فقال لي: يا منهال، ما صنع حرملة بن كاهل الأسدي؟ فقلت: تركته حيّاً بالكوفة؟ قال: فرفع يديه جميعاً ثم قال عليه السلام: اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ النار!!

قال المنهال: فقدمت الكوفة وقد ظهر المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وكان لي صديقاً، فكنت في منزلي أياماً حتى انقطع الناس عنّي وركبت إليه، فلقيته خارجا من داره، فقال: يا منهال لم تأتنا في ولايتنا هذه، ولم تهنّئنا بها، ولم تشركنا فيها، فأعلمته أني كنت بمكة، وأني قد جئتك الآن.

وسايرته ونحن نتحدّث حتى أتى الكناس، فوقف وقوفاً كأنه ينظر شيئاً، وقد كان أخبر بمكان حرملة بن كاهل، فوجّه في طلبه، فلم يلبث أن جاء قوم يركضون وقوم يشتدّون، حتى قالوا: أيّها الأمير، البشارة، قد أخذ حرملة بن كاهل، فما لبثنا أن جيء به، فلمّا نظر إليه المختار قال لحرملة: الحمد لله الذي مكّنني منك.

ثم قال: الجزّار الجزّار، فأُتي بجزّار. فقال له: إقطع يديه، فقطعتا، ثم قال له: إقطع رجليه، فقطعتا. ثم قال: النّار النّار، فأتي بنار وقصب، فألقي عليه،

---

(١) راجع أمالي الشيّخ الطوسي ص (٢٤٤)، وبحار الأنوار (٤٥/٣٣٧).

فاشتعل فيه النار. فقلت: سبحان الله !! فقال لي: يا منهال، إن التسبيح لحسن، ففيم سبّحت !!

فقلت: أيّها الأمير، دخلت في سفرتي هذه منصرفي من مكة على علي بن الحسين عليه السلام فقال لي: يا منهال، ما فعل حرملة بن كاهل الأسدي ؟ فقلت: تركته حيّاً بالكوفة، فرفع يديه جميعاً فقال: اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حر الحديد، اللهم أذقه حر النار !! فقال لي المختار: أسمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول هذا ؟ فقلت: والله لقد سمعته يقول هذا.

قال: فنزل عن دابّته، وصلّى ركعتين، فأطال السّجود، ثم قام فركب وقد احترق حرملة، وركبت معه وسرنا فحاذيت داري، فقلت: أيها الأمير، إن رأيت أن تشرّفني وتكرمني وتنزل عندي وتحرّم بطعامي، فقال: يا منهال، تُعلمني أن علي بن الحسين عليه السلام دعا بأربع دعوات فأجابه الله على يدي ثم تأمرني أن آكل، هذا يوم صوم شكراً لله عز وجل على ما فعلته بتوفيقه، وحرملة هو الذي حمل رأس الحسين عليه السلام[1].

أصداء المقتل وأهل البيت عليهم السلام

هذه صورٌ تمثّل تداعيات أصداء مقتل الإمام الحسين عليه السلام على الصّعيد البشري، وكان الأثر الكبير للمقتل من نصيب عائلته وأسرته الكريمة التي شهدت

---

(١) راجع أمالي الشيّخ الطوسي ص (٢٣٨)، وبحار الأنوار (٣٣٢/٤٥)، وقول العرب تحرّم بطعامه، ذلك لأن العرب إذا أكل رجل منهم من طعام غيره حصلت بينهما حرمة وذمّة يكون كل منهما آمنا من أذى صاحبه.

الوقعة بتفاصيلها المشجية، وفيهم نساء الإمام عليه السلام وبناته وعياله وأخته الحوراء زينب عليها السلام، وعلى رأس تلك القائمة الإمام علي بن الحسين عليه السلام، فهو الذي امتشق حسام الصّبر وحمل المسؤولية فور سقوط والده صريعاً على صعيد كربلاء، خصوصاً وإنّه الأعرف بمقام أبيه عليه السلام وعظمة منزلته، فتضاعف جزعه لذلك، وقد شهد تلك الوقائع بنفسه، وهي كما تراها لا زالت مفجعة بعد كلّ هذه القرون الماضية !!

وشهد الإمام عليه السلام أحزان البيت العلوي، وكان في مقدّمة الموكب الذي ضمّ كرائم الوحي وربائب الرّسالة، وعاين بنفسه سبيَها وتقريعها، ودخل معها في مجالس الجائرين، وشهد أعظم المصائب، وجال بثقل الإمام الحسين عليه السلام بعد قتله مُرغَماً من بلد إلى بلد، وقد أمضّته العلل والهموم والغموم.

وشهد أحزان النّسوة الطّاهرات، وعاين النكسة التي ألّمت بهذا البيت الرّفيع، ولم يمرّ أهل بيت في تاريخ الدّنيا بحادث يشبه هذا الحادث الذي مرّ على أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، ولم تشهد الدّنيا شبيهاً لهذه المأساة، فهو مصرع أمّة !! وكان عليه السلام أحقّ النّاس بالتوجّع والتفجّع والجزع على أبيه عليه السلام فهو أكثر النّاس معرفة بمقامه السّامي.

ورُوِيَ عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: ما امتشطت فينا هاشمية، ولا اختضبت، حتى بُعث إلينا المختار برؤُوس الذين قَتَلوا الحسين عليه السلام[1].

فبعد رحلة مُضنية ومعاناة صعبة خلّف فيها جسد أبيه عارياً على رمضاء

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/٣٤٤)، ورجال ابن داود ص (٥١٣)، ورجال الكشي ص (١٢).

الطّف، ليرحل مع العائلة للمثول بين يدي عبيد الله بن زياد في الكوفة، ومن الكوفة إلى الشّام حيث المثول بين يدي الطّاغية يزيد بن معاوية، ومن الشّام إلى كربلاء حيث تقضي النسوة أوطار التفجّع ووداع الأحبّة.. عاد إلى المدينة المنوّرة وقد خلَت ربوعُها من خامس أصحاب الكساء عليهم السلام فأظلمت بفقده، فأرسل بِشْراً لينعى حسيناً عليه السلام لأهل يثرب، قائلاً:

يا أهلَ يثربَ لا مقامَ لكم بها قُتِلَ الحسينُ فأدمعي مدرارُ
الجسمُ منهُ بكربلاءَ مُضرّجٌ والرّاسُ منهُ على القناةِ يدارُ

وشكّلت عودة الإمام عليه السلام إنعطافة في أسلوب الخطاب العلوي وتجديد الرّؤية تجاه الأحداث المتسارعة والمستجدّات في الساحة الإسلاميّة، والكلّ يترقّب التكليف الشّرعي المنبثق عن بيت النبوّة والإمامة، وبرجوعه تبدأ مرحلة مهمّة من ردّة الفعل المدروس المهيأ لها جيّداً، لتأسيس مظاهر الدّين بصورة تتماشى مع الحدث الضخم الجديد، ولابدّ من تأصيل شعائر الحزن والجزع ليعرف القاصي والدّاني قصّة الإمام الحسين عليه السلام ويتلمّس أبعادها، ولا يبقى لجاهل عذرٌ على مرّ الأزمان والعصور!!

لقد عاد للبكاء والحزن والجزع على سيّد الشّهداء عليه السلام ممزوجاً في كل نشاطاته المرتقبة، فانغمست سيرته بالحزن، وانعكس ذلك على الدّعاء، فكانت الصحيفة السجّاديّة المعبّر عنها بزبور آل محمّد صلى الله عليه وآله، وعلى تلاوة القرآن، فلم يُرَ في الأئمة عليهم السلام أجمل منه صوتاً.. فهو إمام الحزن الحسيني.

ويثير التعجّب والنظر خبر اعتزاله عليه السلام عن النّاس بعد مقتل أبيه وكرهه لمخالطتهم بعد مصرع أبيه، فقد روى السيّد بن طاووس رحمه الله مُسنداً إلى الإمام

الباقر عليه السلام أنّه قال: كان أبي علي بن الحسين عليه السلام قد اتخذ منزله من بعد مقتل أبيه الحسين بن علي عليه السلام بيتاً من شعر، وأقام بالبادية، فلبث بها عدّة سنين، كراهية لمخالطة الناس وملاقاتهم، وكان يصير من البادية بمقامه بها إلى العراق زائراً لأبيه وجدّه عليهما السلام ولا يشعر بذلك من فعله[1].

ويبدو أنّ الإمام عليه السلام كان في شغل شاغل عن النّاس بعد مقتل أبيه عليه السلام، وربّما قصد البعد عن السّاحة السّياسيّة لعلمه بتداعيات وأصداء مقتل أبيه عليه السلام التي ستهتزّ بها البلاد، ولابدّ أن تنعكس إرهاصاتها على الحجاز والعراق ومراكز الحدث المهمّة، ففضّل أن يكون بعيداً عنها ليتمكّن من تشييد شعائر الحزن الحسينيّة الخالدة، ويعرب عن قمّة حزنه وجزعه على أبيه عليه السلام بالإعتزال، وهي رسالة يفقهها العالم الإسلامي وتغنيه عن مئات الخطب الحماسيّة الكفيلة بتأجيج المشاعر.

---

(١) فرحة الغري ص (٤٣)، وإقبالالأعمال ص (٤٧٠)، وبحار الأنوار (٢٦٦/٩٧)، وفي نفس الخبر: قال محمد بن علي عليه السلام فخرج عليه السلام متوجها إلى العراق لزيارة أمير المؤمنين وأنا معه، وليس معنا ذو روح إلاّ الناقتين، فلمّا انتهى إلى النّجف من بلاد الكوفة وصار إلى مكان منه فبكى حتى اخضلت لحيته بدموعه، ثم قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا أمين الله في أرضه. إلى آخر الزيارة المعروفة.

قال جابر: قال لي الباقر عليه السلام: ما قال هذا الكلام ولا دعا به أحد من شيعتنا عند قبر أمير المؤمنين عليه السلام أو عند قبر أحد من الأئمة عليهم السلام إلاّ رفع في درج من النور وطُبع عليه بخاتم محمد صلى الله عليه وآله وكان محفوظاً له حتى يسلم إلى قائم آل محمد عليه السلام فيتلقى صاحبه بالبشرى والتحية والكرامة إن شاء الله تعالى.

وخرج الإمام عليه‌السلام من عزلته ليكسر طوق الصّمت برفع راية شعائر الحزن، مركّزاً لواء البراءة من الظالمين جنباً إلى جنب لواء الإمامة، متأسّياً بذلك بجدّته الصدّيقة الزّهراء عليها‌السلام لمّا واصلت ليلَها بنهارها بالبكاء!

فرُوِيَ أنّه عليه‌السلام بكى عشرين سنة، وما وُضع بين يديه طعام إلاّ بكى، حتى قال له مولى له: جُعلت فداك يا ابن رسول الله، إنّي أخاف أن تكون من الهالكين!! قال: ﴿**إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ**﴾ إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلاّ خنقتني العبرة[1].

ولمّا قيل له: أما آن لحزنك أن ينقضي؟ فقال: ويحك، إن يعقوب النبي عليه‌السلام كان له إثنا عشر ابنا فغيّب الله واحداً منهم فابيضّت عيناه من كثرة بكائه عليه واحدودب ظهره من الغم، وكان ابنه حيّاً في الدنيا، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمّي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي، فكيف ينقضي حزني[2].

---

(١) راجع مناقب ابن شهراشوب (١٦٥/٤)، وبحار الأنوار (٢٨٠/١٢) و(١٥٥/٤٣) و(١٠٨/٤٦ و١٠٩) و(٨٦/٧٩)، وأمالي الصّدوق ص (١٤٠)، والخصال (٢٧٢/١)، وروضة الواعظين (١٧٠/١) و(٤٥٠/٢)، ووسائل الشيعة (٢٨٠/٣)، وكشف الغمّة (٤٩٨/١).

(٢) راجع مناقب ابن شهراشوب (١٦٥/٤)، وبحار الأنوار (١٤٩/٤٥) و(٦١/٤٦ و١٠٨) و(١٦١/٧٥)، والخصال (٥١٧/٢)، وأعلام الدين ص (٣٠٠)، واللهوف ص (٢٠٩)، ومسكّن الفؤاد ص (١٠٠) ووسائل الشيعة (٢٨٢/٣).

وروي في مناقب ابن شهراشوب (١٦٦/٤)، وبحار الأنوار (١٠٨/٤٦): قيل إنه بكى حتى خيف على عينيه، وكان إذا أخذ إناء يشرب ماء بكى حتى يملأها دمعاً، فقيل له في ذلك،

ورُوِيَ في كامل الزيارات أنّه أشرف مولى لعلي بن الحسين عليه السلام وهو في سقيفة له ساجد يبكي، فقال له: يا علي بن الحسين، أ ما آن لحزنك أن ينقضي، فرفع رأسه إليه، فقال: ويلك - أو ثكلتك أمّك - والله لقد شكا يعقوب إلى ربّه في أقل ممّا رأيت حين قال: ﴿**يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ**﴾ وإنه فقد ابناً واحداً، وأنا رأيت أبي وجماعة أهل بيتي يذبحون حولي.

وكان علي بن الحسين عليه السلام يميل إلى ولد عقيل، فقيل: ما بالك تميل إلى بني

فقال: وكيف لا أبكي، وقد مُنع أبي من الماء الذي كان مطلقاً للسباع والوحوش. وقيل له: إنك لتبكي دهرك، فلو قتلت نفسك لما زدت على هذا !! فقال: نفسي قتلتها وعليها أبكي.

وروي في الخصال (١/٢٧٢)، وبحار الأنوار (١٢/٢٦٤) و (٤٣/١٥٥) و (٤٦/١٠٩) و (٧٩/٨٦)، وأمالي الصّدوق ص (١٤٠)، ووسائل الشيعة (٣/٢٨٠)، وكشف الغمّة (١/٤٩٨) مرفوعاً إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: البكّاؤون خمسة، آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد وعلي بن الحسين عليه السلام، فأمّا آدم فبكى على الجنة حتى صار في خديه أمثال الأودية، وأمّا يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره وحتى قيل له: ﴿**تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ**﴾ وأما يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذى به أهل السجن، فقالوا: إما أن تبكي بالنهار وتسكت بالليل، وإما أن تبكي بالليل وتسكت بالنهار، فصالحهم على واحد منهما.

وأما فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تأذى بها أهل المدينة، وقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى المقابر، مقابر الشهداء، فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف. وأما علي بن الحسين عليه السلام فبكى على الحسين عشرين سنة، أو أربعين سنة، وما وُضع بين يديه طعام إلاّ بكى، حتى قال له مولى له: جعلت فداك يا ابن رسول الله، إنّي اخاف عليك أن تكون من الهالكين !! قال: ﴿**إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ**﴾ إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلاّ خنقتني لذلك عبرة.

عمّك هؤلاء دون آل جعفر ؟ فقال : إني أذكر يومهم مع أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام فأرقّ لهم[1].

وهذه حقبة تأريخية مهمّة في تاريخ الإمامة، تمثّل المِفصل في إنعطافة الخطاب الدّيني إلى لحن الحزن، وتعبّر عن توجّه الأئمة عليهم السلام إلى بيان الدّموع بديلاً عن بيان الكلمة في الدّعوة، والهدف هو توظيف المصيبة الرّاتبة في تخليد الحزن وإيصاله إلى الأجيال القادمة، في رسالة تنطوي على أحزانهم عليهم السلام مضافاً إليها كلمتهم الطيّبة.

وإذا كان وصول الكلمة الطيبة إلى الأجيال القادمة محفوفاً بالمصاعب، فإنّ وصول الدّمعة بتأثيراتها العاطفيّة العاقلة وخلود الحزن صعبٌ مستصعب، إلاّ أنّ الإرادة الإلهيّة كانت فوق كلّ الإعتبارات، وهي التي ضمنت نماء العطاء الحسيني وتجدّد الأثر الكبير، وجاء مسعى الأئمة الطاهرين عليهم السلام في هذا الإتّجاه قويّاً ومُحكماً، فتحقّق ذلك الهدف..

سيبدو للقاريء الكريم بوضوح كيف التحمت الجهود وتوزّعت الأدوار فنجحت الثّورة الحسينيّة، واحتلّ الإمام زينُ العابدين عليه السلام دور المكمّل لقضيّة أبيه الشّهيد عليه السلام، فلولا الشُّعلة التي أوقدَها بأحزانه وآلامه لما وصلت إلينا جذوتها المشتعلة ..

---

(١) راجع كامل الزيارات ص(١٠٧)، وبحار الأنوار ص(٤٦ / ١١٠)، ومستدرك وسائل الشيعة ص (٢ / ٤٦٦).

وهكذا فقد اتحدت أدوار الأئمة المتعاقبين عليهم السلام في إضرام وقدة الحزن والجزع كما مهّد الإمام الحسن عليه السلام لها أيضاً في هدنته مع معاوية.. فكانت انطلاقة ثورة الحسينية محفوفة بجهود النبي صلى الله عليه وآله وسلم والحجج الطاهرين عليهم السلام جميعاً، سعياً لتخليد القضية بتأسيس مظاهرها وتشييد أصدائها، وتعظيم شعائرها.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

❧❧❧ ❧❧❧


مبحث

الشعائر الحسينية

الشعيرة الأولى: الحزن

الشعيرة الثانية: البكاء

الشعيرة الثالثة: المجالس

الشعيرة الرابعة: إنشاد الشعر

الشعيرة الخامسة: الزيارة

الشعيرة الأخيرة: شعائر الجزع

الشّعائر في اللغة والدين

نحن بحاجة ماسّة إلى فقه المصطلحات القرآنية، خصوصاً إذا استخدمنا بعضَها في مقاصدنا العلميّة، فيتحتّم علينا التّحقيق في منشأها وأصلها اللغوي والتثبّت من إمكان حملها في الوجه المقصود، فربّ مصطلح دارج في جهة لا علاقة له بها بحسب الواقع، والعكس صحيحٌ أحياناً، ومن تلك المصطلحات التي ينبغي الوقوف عليها وبيان المناسبة فيها: " الشّعائر الحُسينيّة ".

يقول الجوهري في الصّحاح: الشعائر أعمال الحج، وكل ما جعل عَلَما لطاعة الله تعالى، وقال الأصمعي: الواحدة شعيرة.

وفي القاموس المحيط: شَعائِرهُ مَعالِمُه التي نَدَبَ اللّهُ إليها وأمَرَ بالقيامِ بِها.

وقال الطّريحي رحمه الله في مجمع البحرين: " قوله تعالى: ﴿**وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ أي جعلناها لكم وجعلناها من شعائر الله لكم، فيها خير: أي ما من ظهرها وبطنها، وإنما قدّر ذلك لأنّه في المعنى تعليل لكون نحرها من شعائر الله، بمعنى أن نحرها مع كونها كثير النفع والخير وشدة محبة الإنسان من مال من أدل الدلائل على قوة الدّين وشدة تعظيم أمر الله، قوله: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ أي هما من أعلام مناسكه ومتعبداته، قوله: ﴿**لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ**﴾.

قال الشيخ أبو علي: اختلف في معنى شعائر الله على أقوال، منها لا تحلّوا حرمات الله ولا تتعدّوا حدوده، وحملوا الشعائر على المعالم، أي معالم حدود الله وأمره ونهيه وفرائضه، ومنها أن شعائر الله مناسك الحج، لا تحلوا مناسك الحج فتضيّعوها، ومنها أن شعائر الله هي الصفا والمروة والهدي من البدن وغيرها.

ثم حكى قول الفراء: كانت عامة العرب لا ترى الصفا والمروة من الشعائر، ولا يطوفون بينهما، فنهاهم الله عن ذلك، ثم قال: وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، ومنها لا تحلّوا ما حرّم الله عليكم في إحرامكم، ومنها أن الشّعائر هي العلامات المنصوبة للفرق بين الحل والحرام نهاهم الله تعالى أن يتجاوزوها إلى مكة بغير إحرام إلى غير ذلك، ثم قال بعد استيفاء الأقوال: وأقواها الأوّل ".

وعند استقصاء كلمات أهل اللغة نخلُصُ إلى أنَّ الشّعائر تصدق في كل ما جُعِلَ عَلَما لطاعة الله تعالى ومظهراً لقوّة الإسلام وأهله، وكلّ ما صار شعاراً عُرف به أهل الدّين، فشعائر الحج المصطلحة تعدّ من أقوى الدّلائل على قوة الدّين وشدّة تعظيم أمر الله تعالى وأهم سبل إلفات النظر إلى الدّين، فالحج من مصاديق شعائر الإسلام الجليّة، ومن هذا المنطلق فإنّ الشّعائر هي معالم الدّين التي تضمّ فرائضَه وأمره ونهيه.. وكلّ ما من شأنه أن يتّصف بهذه الصّفات فهو مصداقٌ لشعائر الله تعالى.

ومعلومٌ أنّ الدّين هو مجموع الأحكام الواصلة إلينا بالطّريقين المعصومين المعبّر عنهُما بالثَّقَلَين، أمّا الأوّل فهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والثّابت وصولُه إلينا بالتّواتر القطعي.. والثاني هو سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام الذين ثبتت إمامتهم عقلاً ونقلاً ووجب طاعتهم واتّباعهم.

وأيّ مَعلَم ديني يشكّل ظاهرة في الإسلام يُؤَسّس من هذين الطريقين فهو شعار ديني مقدّس، يجب حفظه والذبّ عنه، ويصدق ذلك في جملة الأحكام المعلومة التي أصبحت سمَة المسلم وعلامة إسلامه، وخصوصاً تلك التي تؤكّد جانب المظهر والإستعراض والشّعار وتعكس قوّة الوجود، كالشّهادتين مثلاً، فهي تنمّ عن أصول الدّين وفروعه بشكل مجمل، ومجموع تلك المظاهر تسمّى " شعائر ".

ولّما أن كان التشيّع ومذهب أهل البيت عليهم السلام هو فكر الإسلام الأصيل من غير زيادة أو نقصان فقد إتّسم بمظاهر وشعارات خاصّة هي شعائر الإسلام أصلاً، إلاّ أنّه نُسبت إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام تمييزاً لها عن سائر أطياف أهل الإسلام ومدارس الفكر الإسلامي الذين ارتضوا غير أهل البيت عليهم السلام حجّة في الدّين، وقدّموا الصّحابة على القرابة، ورفضوا النّص الصحيح الصّريح الجلي في آل محمّد صلى الله عليه وآله، ولم يلتزموا بشعائر أهل البيت عليهم السلام مع أنّها دينٌ يدان به، علماً أنّ كثيراً منها ثابتٌ في مصادر أهل السنّة والجماعة متواترٌ عن النبي صلى الله عليه وآله الأسوة القدوة، غير أنّهم أهملوها لا لحجّة إلاّ لكونها السّمة والمظهر والشّعار لشيعة أهل البيت الأبرار رضي الله عنهم الذين وفّقهم الله تعالى لرفعه في حين زهد الآخرون فيه.

وبينما قد منّ الله سبحانه على شيعة أهل البيت عليهم السلام بحمل هذه الأمانة وشرح صدرهم لرفع هذا الشّعار فإنّ في بعض المنتسبين للتشيّع من سلبه الله تعالى توفيق قبوله، وفات هؤلاء أنَّ من أهم شعارات المذهب الحق الشّهادة الثّالثة لأمير المؤمنين عليه السلام بالولاية وقد زهد فيها بعض من يسعى لمماشاة أهل الخلاف.

والذي يراه عامّة الفقهاء أنّ الشّهادة الثّالثة قد احتلّت منزلة الشّعار من

المذهب، وصارت سمة للشّيعة الإماميّة في كلّ زمان ومكان ورمز ولائهم وسرّ قوّتهم، وبالتّالي فإنّها لازمة وإن لم تكن جزءاً واجباً في الأذان، أقول هذا بغَضّ النّظر عن ورودها في الأثر.

ويخطر ببالي رواية مهمّة أرغب في تثبيتها منقولة عن كتابٍ قديم لا يزال مخطوطاً في المكتبة الظاهرية بدمشق إسمه " السُّلافة في أمر الخلافة " وهو من تأليف الشيخ عبد الله المراغي، أحد أعلام علماء السنّة في القرن السابع الهجري، وفيه روايتان، مضمون الأولى: أنّه أذّن سلمان الفارسي رضي الله عنه فرفع الصّحابة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه زاد في الأذان " أشهد أن علياً ولي الله " فجبههم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتوبيخ والتأنيب، وأقرّ لسلمان هذه الزيادة.

ومضمون الثّانية: أنهم سمعوا أبا ذر الغفاري بعد بيعة الغدير يهتف في الأذان بالشّهادة لأمير المؤمنين عليه السلام، فرفعوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهم: أ ما وعيتم خطبتي يوم الغدير لعلي بالولاية !! أما سمعتم قولي في أبي ذر: " ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذر الغفاري " إنكم لمنقلبون بعدي على أعقابكم[1].

لقد فات بعضُ دُعاة التّقريب هؤلاء أنّهم يزهدون شيئاً شيئاً فيما شيّده الأئمةُ الطّاهرون عليهم السلام بدمائهم وكابدوا الأمرّين في تثبيته وتأسيسه، وأنّهم تاجروا في

---

(١) راجع كتاب سياسة الحسين عليه السلام للمرحوم الشّيخ عبد العظيم الرّبيعي الذي نقل هذا المضمون عن كتاب السلافة، واقرأ ما كتبه العلاّمة المحقق السيّد عبد الرزاق المقرم رحمه الله حول الشهادة الثالثة في كتابه " سر الإيمان "، وقد أُلّفت في الآونة الأخيرة كُتبٌ مستقلّة في الشهادة الثالثة.

أغلى وأعظم البضائع الربّانية وبخسوها حقّها، ولعلّ الأقلّ سوءً في هؤلاء الذي يخفت ولا يجهر بها! وأحسن منه الذي يعلنها في الإقامة ويكتُمُها في الأذان!! وقد رضي هؤلاء أن يكونوا الطّرف المتنازل عن عقائده وشعائره في سبيل أهواء زائفة أو حطام دنيا زائلة!! فثبّتنا الله تعالى على القول الثّابت.

وكيف كان، فإنّ الشّهادة الثّالثة من أهم شعائر شيعة أهل البيت عليهم السلام جنباً إلى جنب الشعائر الحسينيّة التي أسّس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام مبادءَها وأَوْرَوا وَقْدَتَها وسَعَوا إلى خلودها وكان سعيهم مشكوراً وعملهم مقبولاً نامياً، فتمكّنت من نفوس الشيعة بشكل معجز، ونقلها الأوّلون للآخِرين.

ولم تخلُ بعض مظاهرها من نقد هؤلاء وغيرهم أيضاً، وقد تعرّض المؤالفون والمخالفون لمظاهر الولاء في أيّام عاشوراء، بمسمّى النّقد تارة، والتصحيح والتنزيه تارة أخرى، وكانت مساعي بعضهم محق الشّعار الذي ضمن الله سبحانه وتعالى بقاءه وخلوده، حيث قال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾.

ففي كامل الزيارات بالإسناد إلى قُدامة بن زائدة عن أبيه قال: قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: إنه لما أصابنا بالطف ما أصابنا وقُتل أبي عليه السلام وقُتل من كان معه من ولده وإخوته وسائر أهله، وحُملت حرمُه ونساؤُه على الأقتاب يراد بنا الكوفة، فجَعَلت أنظر إليهم صرعى ولم يواروا فيعظم ذلك في صدري، ويشتد لما أرى منهم قلقي، فكادت نفسي تخرج، وتبيّنَت ذلك مني عمّتي زينب بنت علي الكبرى.

فقالت: ما لي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي؟

فقلت: وكيف لا أجزع وأهلع وقد أرى سيّدي وإخوتي وعمومتي وولد عمّي وأهلي مضرّجين بدمائهم مرمّلين بالعراء مسلبين لا يُكفّنون ولا يُوارون، ولا يُعرّج عليهم أحد، ولا يقربهم بشر، كأنهم أهل بيت من الدّيلَم والخزَر!!

فقالت: لا يجزَعنّك ما ترى، فو الله إن ذلك لعهد من رسول الله إلى جدك وأبيك وعمك، ولقد أخذ الله ميثاق أناس من هذا الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماوات، أنهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرّقة فيوارونها وهذه الجسوم المضرّجة " **وينصبون لهذا الطّف علَماً لقبر أبيك سيد الشهداء لا يَدرُس أثرُه ولا يعفو رسمُه على كرور الليالي والأيّام، ولَيَجتَهِدَنَّ أئمةُ الكفر وأشياع الضّلالة في محوِهِ وتطميسِهِ، فلا يزداد أثره إلاّ ظهوراً وأمره إلاّ علواً** ".

ثمّ اقتصّت عليه عليه السلام خبرَ العهد المعهود وخبر أمّ أيمن رضي الله عنها إلى أن بلغت إلى إخبار جبرئيل عليه السلام بمقتل الإمام الحسين عليه السلام وقوله للنبي صلى الله عليه وآله: " ثم يبعث الله قوماً من أمّتك لا يعرفهم الكفار لم يشركوا في تلك الدماء بِقَول ولا فعل ولا نيّة فيوارون أجسامهم ويقيمون رسماً لقبر سيد الشهداء بتلك البطحاء، يكون علما لأهل الحق وسبباً للمؤمنين إلى الفوز، وتحفّه ملائكة من كل سماء، مائة ألف ملك في كل يوم وليلة، ويصلّون عليه ويسبّحون الله عنده، ويستغفرون الله لزوّاره، ويكتُبون أسماء من يأتيه زائراً من أمتك متقرّباً إلى الله وإليك بذلك وأسماء آبائهم وعشائرهم وبلدانهم، ويوسمون في وجوههم بميسم نور عرش الله: " **هذا زائر قبر خير الشهداء وابن خير الأنبياء**" فإذا كان يوم القيامة سطع في وجوههم من أثر ذلك الميسم نورٌ تغشى منه الأبصار، يدُلّ عليهم ويعرفون به.

وكأني بك يا محمد بيني وبين ميكائيل، وعليٌّ أمامَنا ومعنا من ملائكة الله ما لا يُحصى عددُه، ونحن نلتقط من ذلك المَيْسَم في وجهه من بين الخلائق حتى ينجّيهم الله من هول ذلك اليوم وشدائده، وذلك حكم الله وعطاؤُه لمن زار قبرك يا محمّد أو قبر أخيك أو قبر سبطيك لا يريد به غير الله جلّ وعز، وسَيَجِدُ أناسٌ ممن حقّت عليهم من الله اللعنة والسَّخط أن يُعَفُّوا رسمَ ذلك القبر ويمحوا أثرَه، فلا يجعل الله تبارك وتعالى لهم إلى ذلك سبيلاً.

قال زائدة: ثم قال علي بن الحسين عليه السلام بعد أن حدثني بهذا الحديث: خذه إليك، أما لو ضربت في طلبه آباط الإبل حولاً لكان قليلاً[٢].

إنّ الشعائر الحسينيّة أقوى من تحدّى المبطلين ومساعيهم الخرقاء، لأنّ أساسها الإسلام القوي المتين المنصور بقدرة ربّ العالمين، وقد دعى جلّ شأنه إلى النّفر لأهل البيت عليهم السلام والتمسّك بحجزتهم والدّعوة إليهم، فقال تعالى: ﴿**إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾. فإن أَبَينا نَصْرَهم إستبدلنا الله تعالى بأقوامٍ غيرِنا، والله غنيّ عن العالمين، أو عذّبنا عذاباً أليماً وهو القادر على ذلك، وأيّ عذابٍ أشدّ من العذاب الذي تشهده الأمّة اليوم بعد تفرّقها وفشلها واختلافها وذهاب ريحها، وقد استحقّت ذلك بتخلّفها عن شعائر دينها !! ولو أنّها إلتزمت بها وبما ترمي إليه من أصول الدّين لسادت الأرض وحالفها النصر وما ردّت لها راية.

وممّا يثير الدّهشة أن يتخلّف بعض بني الإسلام عن رفع شعار الإمام الحسين

---

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٢٦٥)، وبحار الأنوار (١٨٣/٤٥)، وقد أوردنا شيئاً قليلاً من الخبر.

عليه السلام بينما يرفعه الوثنيّون وأبعد النّاس عن الإسلام، ولقد رفع الزعيم الهندي المهاتمة غاندي الإمام الحسين عليه السلام شعاراً إذ قال: " **تعلّمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر** ".. فقل لي: أين غاندي من الإمام الحسين عليه السلام !؟ وأين الهندوسية من الإسلام !؟ وهل هذا هو الدّرس الذي فَهِمَهُ فاستطاع بِهِ إحكامَ قبضته على قلوب الملايين من الشعب الهندي !؟

وأقول جازماً أنّه لم يكن ليحقّق كل هذا النّجاح لولا تأثره بالإمام الحسين عليه السلام وتمكّنه من أعماقه ووجدانه، الأمر الذي غضّ المسلمون عنه طرفهم فاستعبدهم عدوّهم وصارت أمجادهم مجرّد ماضٍ ولّى في غابر الزّمن.

كان غاندي حرّاً في فكره فانتصر، لا يحدّ ثقافته دينٌ عن حكمة، ولا تصدّ نظره عقدةٌ عن حقيقة، وقد كتبوا في سيرته أنّه كان يخصّص وقتاً من يومه للتدبّر في القرآن الكريم، فهو يستوحي تعاليمَه ويسترشد من أدبه، وهذا أمرٌ يفرضه التأثّر بروح سيّد الشّهداء عليه السلام على أيّة حال.

وراح شاعر النصارى بولس سلاّمة يُدَوّي في رثاء الإمام الحسين عليه السلام ضمن ملحمته الكبرى التي بلغت ثلاثة آلاف بيت سمّاها " عيد الغدير " وفيها يتغنّى بمجد بطل الإنسانية أبي الحسين أمير المؤمنين عليه السلام.

ويقول الكاتب المسيحي انطون بارا: " الثّورة التي فجّرها الحسين بن علي عليه السلام في أعماق الصدور المؤمنة والضمائر الحرة هي حكاية الحرية الموؤودة بسكّين الظلم في كل زمان ومكان وجد بها حاكم ظالم غشوم، لا يقيم وزنا لحريّة إنسان، ولا يصون عهدا لقضية بشريّة، وهي قضية الأحرار تحت أي لواء

انضووا، وخلف أيّ عقيدة ساروا "[٣].

كيف وصل صوت الإمام الحسين عليه السلام إلى هؤلاء الأحرار فانضووا تحت رايته، وواجهوا نور برهانه بحريّة فهداهم إلى سرّ من أسرار نصره وهيمنته، وساقهم إلى الخير! وكيف لم تحجزهم إنتماءاتهم عن إعلان إعجابهم بعطائه وجوده! إنّني لا أشكّ لحظة في أن بلوغ هؤلاء ذلك الصّوت المقدّس لم يكن إلاّ بفضل الشّعائر الحسينيّة.

ونحن نرى كلّ ملة ونحلة تستعرض طقوسها وشعائرها الدّينيّة لتُسمع البشريّة فكرَتها ومقالَتها، فاليهود لهم مظاهرُهم الخاصّة التي تنقل وسائل الإعلام بعضاً منها، والنّصارى لهم طُقوسهم التي يُعرفون بها، وهذا صليبهم في كل مكان يعكس وجودهم ورؤيتهم الدّينية، وكذا الحال بالنسبة إلى سائر الأديان الأخرى والمذاهب والتكتّلات، فإنّ لكلّ منها طابع ولون خاص، وللمسلمين ما يميّزهم عموماً في شعاراتهم.. ولشيعة أهل البيت عليهم السلام كذلك شعائرهم الخاصّة المغروسة في أعماق وجدانهم، والتي إتّسموا بها وصارت سمة لهم يعرفون بها.

والخبير يدري أنّ لكل أمّة طقوساً تنكرها الأمم الأخرى، بل واعتادت بعضُ الأمم على طقوس تثير استغراب الأمم الأخرى وتحرّك اشمئزازها، بل وتعدّ في بعض الأحيان نوعاً من الجنون والسّفه، ومثيرات العجب كامنة في خصوصيّات كلّ أمّة أو حضارة، فهي مقتضيات كلّ بيئة وشؤونها، كما أن الأمم تختلف

---

(٣) راجع الحسين في الفكر المسيحي للكاتب المسيحي انطون بارا ص ٢١ الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ الكويت.

كذلك في اللغة واللباس وسائر مظاهر الحياة، وتُقاس قوّة طقوسها بحسب قوّة إيمانها بقضيّتها، ويكون حرصها على الشّعار بقدر تعبئتها النفسية وصلة الطقوس بوجدانها الدّيني.

ونستطيع أن نجزم أنّه لا مثيل للشعائر الحسينية في المِلَل والنّحل الأخرى من جميع الحيثيّات والأبعاد، فقد أحكم الدّين تأسيسها وأرجع أمرها - كما دلّت النّصوص - إلى عموم الحزن والبكاء والإبكاء، ولم يحبس الأئمة الطّاهرون عليهم السلام إظهار الأحزان في شاكلة معيّنة خاصّة، بل أطلقوا عليهم السلام عنان الحزن بحسب البيئة والطّبيعة في نصوص عامّة، فلكلّ أمّة أن تعبّر عن حزنها بما تألف وتعرف وتعتاد، ولكلّ بيئة أن تَبكي وتُبكي بأسلوبها المألوف عندها، وليس لنا أن نستنكر ذلك عليها ما دامت تعبّر عن حزنها بطريقتها الإنسانيّة مواساة لأهل البيت عليهم السلام.

وعلى هذا فإنّها في كلّ الأحوال مشيِّدَةٌ لأصل الإسلام ومَباني دعوته، وقد أرسى أهل البيت عليهم السلام قواعدَها امتشاقاً لحسام الرّفض وإنكار المنكر، وتشييداً للحبّ والأمر بالمعروف، وشحذاً للنفوس الطّافحة بالولاء العلوي، وتجديداً للبيعة بالولاء والطّاعة لأولى الأمر عليهم السلام الذين فرَض الله سبحانَه طاعتَهم، واستعداداً للبذل في نصرتهم، وتعبأة للأنفس بالإنتظار لفرج آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولم يجعلوا عليهم السلام عذراً لأحد في التخلّف عنها تحت أيّ ظرف كان، وعدّوا التخلّف عن ركب الشعائر الحسينيّة جفاءً لا مبرّر له، ولم يُسقطوها في أحلك الظروف وأعصبها، لأنّها تمثّل الخيطَ الباقي للإسلام بعد استحكام قبضة الجور، وبها تُحفظ معالم التوحيد والنبوّة والإمامة، فأجمع أهل العلم على وجوب رفع هذا الشعار وإحياء الشّعائر الحسينيّة على كلّ مؤمن، واعتبروا إحياءها في أحلك

الظروف واجباً عينيّاً وفي بعض الأحيان كفائيّاً.

إنّ النصوص الصّادرة في أشدّ الظروف وأعنفها على الأئمة عليهم السلام تدعو إلى إظهار الشّعار الدّيني، رغم ما فعله العبّاسيّون من القتل والفتك والإبادة.. إلاّ أنهم عليهم السلام شدّدوا على تشييدها وإحيائها.. روَى الشّيخ المفيد رحمه الله في المزار عن أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام أنه قال: علامات المؤمن خمس، صلاة الإحدى والخمسين، وزيارة الأربعين، والتختّم في اليمين، وتعفير الجبين، والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم[٤].

ليُذكّر الإمامُ عليه السلام بوجوب التمسّك بالمظاهر الخاصّة التي صارت سمة يُعرف بها أتباع أهل البيت عليهم السلام، يعرفون بها في طقوسهم وعباداتهم مهما كانت صعوبة الظروف، ويؤكّد من بينها على زيارة جدّه الإمام الحسين عليه السلام في يوم الأربعين مهما كانت العوائق، ليعلم الشيعة أنّ الإسلام النبوّي والتشيّع العلوي ولدا يوم سقوط الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، وبسقوطه ارتفعت راية الإسلام تزينها الولاية مطرّزة بدماء الشّهادة !! فلا مناص من الزّيارة ولو على الخوف، ولابدّ من الوقوف على تربته الطّاهرة مهما كلّف الأمر !!

ولقد حمل الشّيعة هذا اللواء في حُلوِهم ومُرّهم ورخائهم وشدّتهم، في كلّ زمان ومكان، حتّى أمكننا الجزم أكيداً وبعد اتّصال العالم البشري إعلاميّاً أنّه لم

---

(٤) راجع كتاب المزار، باب فضل زيارة الأربعين ص (٥٣)، وتهذيب الأحكام (٥٢/٦)، ووسائل الشيعة (٥٨/٤) و (٨١/٥) و (٤٧٨/١٤)، وبحار الأنوار (٢٩٢/٧٩) و (٧٦/٨٢) و (٣٤٨/٩٥) و (١٠٦/٩٨ و ٣٢٩)، وإقبال الأعمال ص (٥٨٩)، وروضة الواعظين (١٩٥/١)، وعوالي اللآلي (٣/٤).

يبقَ أحدٌ لم يبلغه الإسلام والولاية وصوت الإمام الحسين عليه السلام ، ولم يبق مستضعف يحتجّ على الله تعالى فيقول أنّه لم يسمع باسم الإمام الحسين عليه السلام .. ولم يعرف من هو عليه السلام ؟ هذا بفضل تأكيد هذه الشّعائر المقدّسة ، وتشييد الدّعوة إلى الله سبحانه عن طريق نشر ظلامة وليّه الإمام بالحق عليه السلام .

الشّيعة الإمامية ويوم عاشوراء

كان مقتل الإمام الحسين عليه السلام في اليوم العاشر من شهر محرّم الحرام من سنة ٦١ هـ ، في الشهر الذي كان أهل الجاهليّة يحرّمون فيه القتال ، فهَتَك بنو أميّة حرمة الشّهر وحرمة النبوّة وحرمَة الإمامة ، وتعدّوا حدودَ الله تعالى بقتل سيّد شباب أهل الجنة عليه السلام فصار شهرُ هَمّ وغمّ إلى يوم القيامة !!

روى الشيخ الصدوق رحمه الله بإسناده إلى الإمام الرّضا عليه السلام أنّه قال : " إن المحرّم شهر كان أهل الجاهليّة يحرّمون فيه القتال ، فاستحلّت فيه دماؤنا ، وهُتكت فيه حُرمتُنا ، وسُبيَ فيه ذرارينا ونساؤُنا ، وأُضرمت النّيران في مضاربنا ، وانتُهب ما فيها من ثقلنا ، ولم تُرع لرسول الله حرمة في أمرنا.

إن يوم الحسين أقرح جفونَنا ، وأسبَل دموعَنا ، وأذلّ عزيزَنا بأرضِ كربٍ وبلاء ، أورَثتنا الكربَ والبلاءَ إلى يوم الإنقضاء ، فعلى مثل الحسين فليَبْك الباكون فإنّ البكاء عليه يحطّ الذّنوب العظام "(٥).

---

(٥) راجع أمالي الصدوق ص (١٢٨)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٨٣)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٥)، وإقبال الأعمال ص (٥٤٤)، وروضة الواعظين (١/١٦٩)، ومناقب ابن شهراشوب (٤/٨٦).

ومنذُ ذلك الحين وطقوس الحزن وشعائر العزاء الحسينيّة في نماء وتطوّر، تزيد حرارتها ولا تنقص أبداً، وتجدّد ذكراه في كلّ مناسبة أو ذكرى، وتشتد حرارة الأحزان مع تجدّد شهر المحرّم ويوم عاشوراء من كلّ عام جديد !!

كذَبَ الموتُ فالحسينُ مُخلّد   كلّما أُخْلِقَ الزّمانُ تجدّد

ويجدّد الشّيعة هذا الشّعار بكلّ عشق ومودّة دون سأم أو كلل أو ملل، فمعرفة الإمام الحسين عليه السلام مكتومة في بواطنهم، ولم يحفظ حرمةَ النبي صلى الله عليه وآله في آله عليهم السلام غيرهم، فزادهم الله تعالى شرفاً وعزّاً، وربّما مرّ كثير من المسلمين على يوم عاشوراء مرور الكرام، ولا يهتزّ لبعضهم جفن لأحزان العترة النبويّة، في اليوم الذي بكت فيه السماء والأرض !!

ومن دواعي الأسف أن يشاكل بعض المسلمين في أفعالهم أفعال النواصب عن علم أو جهل، فبعضهم يؤخّرون أفراحهم وأعراسهم حتّى حلول يوم العاشر للتبرّك به، والبعض يعلنون صيامه ويدعون إلى الإفطار الجماعي إحياءً لسنن بني أمية في هذا اليوم، فقد صام أعداء الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء شكراً لله تعالى، وأهون المسلمين حالاً الذين لا يعبأون بحلول يوم العاشر أو ذهابه أصلاً، فحياتهم ومعائشهم على وضعها المعتاد، وإذاعات الدّول الإسلامية وقنواتهم وسائر الفضائيات تبثّ الغناء والطّرب وبرامج التّرفيه كما هو حالها في سائر الأيّام، والأحرى أن تبُثّ فيه القرآن الكريم تفاعلاً مع أحزان النبي صلى الله عليه وآله في هذا اليوم الحزين إذا لم تبُث قصّة المقتل.

والحقُّ أن كثيراً من أهل السنّة والجماعة يحزنون في هذا اليوم ويرتادون مجالس سيّد الشّهداء عليه السلام مواساةً لنبيِّهم صلى الله عليه وآله ويشاركون الشّيعة شعائرَهم،

وهو أمرٌ أدركوا حُسنَه بوجدانهم وفطرتهم، ولا زلنا نرَاهم في مجالس بلدنا وسائر دول الخليج العربي والعراق التي تفتح أبوابها للجميع.

والمفترض أنّ الحزن على الإمام الحسين عليه السلام هو سمَة جميع أهل الإسلام في يوم مقتله، فهو شهيد الإسلام والتوحيد والقرآن والنبوّة، والحزن هو أقلّ ما يمكن فعله في هذا اليوم مواساةً للنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام قربةً إلى الله تعالى، ناهيك عن الوظائف والسّنن الواردة في الأثر عن العترة الطّاهرة في خصوص يوم عاشوراء.

وظائف الشيعة يوم عاشوراء

يوم عاشوراء بالنسبة إلى الشّيعة يومٌ استثنائي جدّاً، يخرجون فيه عن سيرتهم المعتادة، ويتبدّل حالهم إلى حال آخر، وتظهر عليهم سمات الحزن سريعاً، وتتوزّع أدوارهم بشكل منظّم ومنسجم، فهم أشبه بخليّة النّحل في أوج نشاطها، فيتبادلون مظاهر العزاء تلقائيّاً، وينشغلون في إعداد المآتم والمواكب، ويتفرّغ بعضهم لإعداد الطّعام لعامّة طلاّب البركة.

فهم في حركة دؤوبة ومستمرّة، وتستهويهم زيارة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء المقدّسة أو العكوف في المأتم الحسيني.. شابَ الكبيرُ على هذه السّيرة وشبّ عليها الصغير، وهم على استعداد لسكب الدّموع متى تحين فرصة ذكر المقتل، الذي يُعدّ استماعه جوهر الوظائف في يوم عاشوراء عند الشّيعة، فينتشرون في المآتم والحسينيّات والمساجد لتجديد الذكرى وإجراء الدّموع، وتمتلأ المآتم وبعض البيوت - التي تصبح مآتماً - بالمعزّين، فيوم عاشوراء هو ربيع المآتم الحسينيّة.

ولستُ أهدف في هذا العنوان إلى تصنيف وظائف الشّيعة بحسب وقوعها.. ولكنّ الهدف هو تصنيفها بحسب صدورها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في نطاق سيرتهم وأقوالهم، فأفعال الشيعة مُشجيةٌ تفيض على البيان، وأفاض التاريخ القريب والبعيد في هذا القصد، ومقصودُنا بيانُ ما صدر من أهل البيت عليهم السلام من الأوامر في يوم عاشوراء، وما عيّنوه لشيعتهم من الوظائف في هذا اليوم، بغضّ النّظر عن الشّعائر الحسينية والمظاهر التي أضيفت إليها بحسب النّصوص العامّة.

١. تلاوة المقتل الحسيني:

إنّ تلاوة المقتل الحسيني وسيرة الإمام الحسين عليه السلام وأحداث يوم عاشوراء في هذا اليوم من أهمّ الوظائف التي لقّنها الأئمة عليهم السلام شيعَتهم، وكذلك الإستماع إلى المقتل مع الحزن والبكاء والتفجّع والنّدبة والجزع، وقد ورَدت هذه المضامين في أكثر من خبَر.

منها ما رواه الشّيخ في المصباح بسنده إلى صالح بن عقبة عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: من زار الحسين بن علي عليه السلام في يوم عاشوراء من المحرم.. إلى أن قال: ثم ليندب الحسين عليه السلام ويبكيه، ويأمر من في داره ممّن لا يتّقيه بالبكاء عليه، ويقيم في داره المصيبة بإظهار الجزع عليه[٦].

٢. تبادل التّعازي:

ومن الوظائف الواردة تعزية الشّيعة بعضهم بعضاً عند اللقاء يوم عاشوراء،

---

(٦) راجع مصباح المتهجد ص (٧٧٢)، وكامل الزيارات ص (١٧٥)، وبحار الأنوار (٢٩٠/٩٨)، ووسائل الشيعة (٥٠/١٤)، ومستدرك الوسائل (٣١٥/١٠)، والبلد الأمين ص (٢٦٩).

بقولهم: **"أعظم الله أجورَنا بمصاب الحسين، أو بمصابنا بالحسين عليه السلام، وجعلنا وإيّاكم من الطّالبين بثاره مع وليّه الإمام المهديّ من آل محمّد عليه السلام"**.

ووَرَدَ في ما رواه الشّيخ في المصباح بسنده إلى صالح بن عقبة عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: وليُعَزّ بعضُهُم بعضاً بمصابهم بالحسين عليه السلام.. قلت: فكيف يعزّي بعضُنا بعضاً؟ قال: تقولون **"أعظم اللهُ أجورَنا بمصابنا بالحسين، وجعلنا وإيّاكم من الطالبين بثأره مع وليه الإمام المهدي من آل محمد عليه السلام"**(٧).

٣. الحزن والبكاء:

ورد في أكثر من خبر عنهم عليهم السلام ما يؤكّد أنّ الحزن والبكاء من أهم وظائف الشّيعة في هذا اليوم، ففي عيون أخبار الرضا عليه السلام بسنده إلى علي بن الحسن بن علي بن فضال عن أبيه عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه جعل الله عز وجل يوم القيامة يوم فرحه وسروره وقرت بنا في الجنان عينه(٨).

٤. التشبّه بأصحاب المصائب:

ومن الوظائف الواردة في هذا اليوم هو الكون على هيئة أصحاب المصائب، الذين شغلتهم المصيبة عن تحسين هندامهم ومظهرهم، وعادة ما يكون صاحب

---

(٧) راجع مصباح المتهجد ص (٧٧٢)، وكامل الزيارات ص (١٧٥)، وبحار الأنوار (٩٨/٢٩٠)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٠)، ومستدرك الوسائل (١٠/٣١٥)، والبلد الأمين ص (٢٦٩).

(٨) راجع عيون أخبار الرضا (١/٢٩٩)، وعلل الشرائع (١/٢٢٧)، وروضة الواعظين (١/١٦٩)، وأمالي الصدوق ص (١٢٩)، وإقبال الأعمال ص (٥٧٨)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٨٤) و (٩٥/٣٤٤) و (٩٨/١٠٢)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٠).

المصيبة كاشف الذّراعين، ومحلّل الأزرار.

ورَوَى الشيخ رحمه الله في المصباح بسنده إلى عبد الله بن سنان قال: دخلتُ على سيدي أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام في يوم عاشوراء فألقيته كاسفَ اللون ظاهرَ الحزن، ودموعُه تنحدر من عينيه كاللؤلؤ المتساقط.. وقال فيما قال: يا عبد الله بن سنان، إنّ أفضل ما تأتي به في هذا اليوم أن تعمد إلى ثياب طاهرة فتلبسها وتتسلّب، قال: وما التسلب ؟ قال: تحلّل أزرارك، وتكشف عن ذراعيك كهيئة أصحاب المصائب[٩].

كما يمكن أن نستفيد من الأخبار الواردة في باب آداب التعزية في سياق التعزية بمصاب الإمام الحسين عليه السلام، وفيها أنّه ينبغي لصاحب العزاء أن يُلقي رداءَه ويكتفي بالقميص حتّى يُعرف فيُعزّى، كما في علل الشّرايع بسنده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ينبغي لصاحب المصيبة أن لا يلبس الرّداء، وأن يكون في قميصٍ حتى يُعرف، وينبغي لجيرانه أن يُطعموا عنه ثلاثة أيام[١٠].

وهي سيرة مطّردة في أهل البيت عليهم السلام، فقد فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك في جنازة سعد بن معاذ رضي الله عنه حيث ألقى رداءه وتبعه محتفياً، وفعل الإمام الصّادق عليه السلام ذات الفعل عند موت ولده إسماعيل رضي الله عنه، وأيّ مصيبة أعظم من مصيبة إمامنا الحسين عليه السلام، وأيّ رزء في الإسلام أعظم من رزئه، وأيّ شخصيّة أعزّ على القلوب من شخصيّته !! فهي الأجدر بالحزن والجزع بكلّ المعايير والمقاييس،

---

(٩) راجع مصباح المتهجد ص (٧٨٢)، وبحار الأنوار (٣٠٣/٩٨)، ووسائل الشيعة (٩/٨)، ومستدرك الوسائل (٢٨٠/٦).

(١٠) راجع علل الشرائع (٣٠٧/١)، وبحار الأنوار (٧١/٧٩).

وينبغي إظهار غاية الجزع في هذا اليوم الذي رُؤي فيه رسول الله ﷺ يُبدي قمّة الحزن والجزع.

٥. ترك السعي في الحوائج:

ومن الوظائف التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام في هذا اليوم ترك المعاملات الدّنيويّة كالبيع والشّراء وأشباه ذلك، وعدم الخروج والسعي في الحوائج، وعدم إدّخار حاجات البيت فيه، فإنّه يوم نحس.

ورَوَى الشّيخ في المصباح الخبر الصّحيح بسنده إلى صالح بن عقبة عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: وإن استطعت أن لا تنتشر يومَك في حاجة فافعل، فإنّه يوم نحس لا تُقضى فيه حاجة مؤمن، فإن قُضيت لم يبارَك ولم يَرَ فيها رشداً، ولا يدَّخِرَنَّ أحدُكم لمنزِله فيه شيئاً، فمن ادّخر في ذلك اليوم شيئاً لم يُبَارَك لَهُ فيما ادّخَرَهُ ولَم يُبَارَك له في أهله[11].

ورُوِيَ في أمالي الصدوق بسنده إلى أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة، ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه جعل الله عز وجل يوم القيامة يوم فرحه وسروره، وقرّت بنا في الجنان عينه، ومن سمّى يوم عاشوراء يوم بركة وادّخر فيه لمنزله شيئاً لم يبارك له فيما ادّخر، وحُشر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد (لعنه الله)

(١١) راجع مصباح المتهجد ص (٧٧٢)، وكامل الزيارات ص (١٧٥)، وبحار الأنوار (٢٩٠/٩٨)، ووسائل الشيعة (٥٠/١٤)، ومستدرك الوسائل (٣١٥/١٠)، والبلد الأمين ص (٢٦٩).

إلى أسفل درك من النار[١٢].

٦. زيارة الحسين عليه السلام عن قُرب أو بُعد:

ويُستحبّ في يوم عاشوراء زيارة سيّد الشّهداء عليه السلام استحباباً مؤكّداً، سواء كان عن قربٍ أو بُعدٍ، وخصوصاً السّلام عليه بالزّيارة المأثورة المخصوصة في يوم عاشوراء، فقد ورد ذلك في نصوص كثيرة صحيحة.

منها ما رُوِيَ في كامل الزيارات بسنده إلى حريز عن أبي عبد الله عليه السلام: من زار الحسين عليه السلام يومَ عاشوراء وجبَت له الجنة[١٣].

وفيه عنهم عليهم السلام: من زار الحسين عليه السلام يومَ عاشوراء كان كمن تشحّط بدمه بين يديه[١٤].

وفيه بسنده إلى زيد الشحام عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: من زار الحسين عليه السلام ليلة النصف من شعبان غفر الله له ما تقدم من ذنوبه وما تأخّر، ومن زاره يوم عرفة كتب الله له ثواب ألف حجّة متقبّلة وألف عمرة مبرورة، ومن زاره يوم عاشوراء فكأنما زار الله فوق عرشه[١٥].

---

(١٢) راجع أمالي الصّدوق ص (١٢٩)، وبحار الأنوار (٢٨٤/٤٤) و (٣٤٤/٩٥) و (١٠٢/٩٨)، وإقبال الأعمال ص (٥٧٨)، وروضة الواعظين (١٧٠/١)، وعلل الشرائع (٢٢٧/١)، وعيون أخبار الرضا (٢٩٩/١)، والمناقب (٨٦/٤).

(١٣) راجع كامل الزيارات ص (١٧٤)، كتاب المزار ص (٥٢)، مصباح المتهجد ص (٧٧٢).

(١٤) راجع كامل الزيارات ص (١٧٤)، بحار الأنوار (١٠٥/٩٨)، ومستدرك الوسائل (٢٩٢/١٠).

(١٥) وفي بعض النسخ: (في عرشه)، راجع كامل الزيارات ص (١٧٤) و (١٨٢)، ووسائل

وفيه مسنداً إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: من زار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء من المحرم حتى يظل عنده باكياً لقي الله تعالى يوم القيامة بثواب ألفي ألف حجة، وألفي ألف عمرة، وألفي ألف غزوة، وثواب كل حجة وعمرة وغزوة كثواب من حج واعتمر وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومع الأئمة الراشدين (صلوات الله عليهم أجمعين).

قال الرّاوي: جُعلت فداك، فما لمن كان في بعد البلاد وأقاصيها ولم يمكنه المسير إليه في ذلك اليوم ؟

قال: إذا كان ذلك اليوم برز إلى الصحراء أو صعَد سطحاً مرتفعاً في داره وأَوْمَأَ إليه بالسّلام واجتهد على قاتله بالدعاء، وصلى بعدَه ركعتين، يفعل ذلك في صدر النهار قبل الزوال، ثم لينـدب الحسين عليه السلام ويبكيه ويأمر من في داره بالبكاء عليه، ويقيم في داره مصيبته بإظهار الجزع عليه، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضاً في البيوت، وليعزّ بعضهم بعضا بمصاب الحسين عليه السلام فأنا ضامن لهم إذا فعلوا ذلك على الله عز وجل جميع هذا الثواب[١٦].

٧. سقي الماء:

ومن وظائف الشيعة الجليلة يومَ عاشوراء سقي الماء للعطاشى باسم الإمام

الشيعة (١٤/٤٦٩)، ومستدرك الوسائل (١٠/٢٩٢)، وبحار الأنوار (٩٨/٩٣ و ١٠٥)، والفقرة الأخيرة من الحديث تجدها في مسار الشيعة للشيخ المفيد ص (٤٤).

(١٦) راجع مصباح المتهجد ص (٧٧٢)، وكامل الزيارات ص (١٧٥)، وبحار الأنوار (٩٨/٢٩٠)، ووسائل الشيعة (١٤ / ٥٠)، ومستدرك الوسائل (١٠ / ٣١٥)، والبلد الأمين ص (٢٦٩).

الحسين عليه السلام فهو مستحبٌّ في نفسه، وقد دلّت رواية على استحبابه عند قبره الشّريف ومشهده المنيف، خُصوصاً إذا ما ضمَمْنا مناسبةَ شهادته عطَشاً وكان الشّارب زوّاره والمعزّين والباكين عليه، فإنّه من أعظم القربات إلى الله تعالى.

فقد رُوِيَ في كامل الزيارات عن محمد بن أبي يسار - أو سيّار - المدائني بإسناده قال: من سقى يوم عاشوراء عند قبر الحسين عليه السلام كان كمن سقى عسكر الحسين عليه السلام وشهد معه(١٧).

٨. إطعام المُعزّين:

ومن وظائف الشيعة الجليلة يوم عاشوراء إطعام المعزّين المنشغلين بالعزاء والمأتم باسم الإمام الحسين عليه السلام، وتهيأة ما يقوّيهم في أداء وظائفهم في هذا اليوم، وإتاحة فرصة التبرّك بسفرة سيّد الشّهداء عليه السلام أمام الجميع، سواء الأغنياء أو الفقراء.

أمّا في عموم الإطعام فقد رُوِيَ في أمالي الطوسي بإسناد إلى هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما مات جعفر بن أبي طالب أمر رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام أن تتّخذ طعاماً لأسماء بنت عميس وتأتيها ونساؤها ثلاثة أيام، فجرَت بذلك السنّة، أن يصنع الطّعام لأهل الميت ثلاثة أيام(١٨).

وأمّا في خصوص الإطعام في عزاء ومأتم الإمام الحسين عليه السلام فرُوِيَ في

(١٧) كامل الزيارات ص (١٧٤)، بحار الأنوار (١٠٥/٩٨).

(١٨) راجع أمالي الطوسي ص (٦٥٩)، والكافي (٢١٧/٣)، وبحار الأنوار (٥٤/٢١) و (٨٢/٧٩ و ٨٣)، ووسائل الشيعة (٢٣٦/٣)، ووسائل الشيعة (٣٦٤/٢٤)، والمحاسن (٤١٩/٢).

المحاسن بإسناد إلى عمر بن علي بن الحسين، قال: لمّا قتل الحسين بن علي (صلوات الله عليه) لبس نساء بني هاشم السواد والمسوح، وكُنّ لا يشتكين من حرّ ولا برد، وكان علي بن الحسين يعمل لهن الطعام للمأتم[١٩].

٩. لعن قاتله:

ومن أعظم الوظائف والقربات إلى الله تعالى في يوم عاشوراء الإبتهال إلى الله بلعن قاتله والمعين على قتله ومن رضي بفعلهم إلى يوم القيامة، والبراءة منهم ومن جريمتهم الكبرى، ونصوص الزّيارة المأثورة في خصوص يوم عاشوراء تكاد تطفح بذلك، ويعلم من ذلك أهميّة اللعن في هذا اليوم.

رُوِيَ في عيون أخبار الرضا عليه السلام بإسناد إلى الريّان بن شبيب قال: دخلت على الرضا عليه السلام في أول يوم من المحرم فقال: يا ابن شبيب، لقد حدثني أبي عن أبيه عن جده عليه السلام أنه لما قتل جدي الحسين صلى الله عليه وآله وسلم أمطرت السماء دماً وتراباً أحمر، يا ابن شبيب، إن بكيت على الحسين حتى تصير دموعك على خديك غفر الله لك كل ذنب أذنبته صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً، يا ابن شبيب، إن سرّك أن تلقى الله عز وجل ولا ذنب عليك فزر الحسين عليه السلام، يا ابن شبيب، إن سرك أن تسكن الغرف المبنية في الجنة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فالعن قتلة الحسين[٢٠].

---

(١٩) راجع المحاسن (٤٢٠/٢)، وبحار الأنوار (١٨٨/٤٥) و (٨٤/٧٩)، ووسائل الشيعة (٢٣/٣).

(٢٠) راجع عيون أخبار الرضا (٢٩٩/١)، وبحار الأنوار (٢٨٥/٤٤ و ٢٩٩) و (١٠٢/٩٨)، ووسائل الشيعة (٤١٧/١٤ و ٥٠٢)، وإقبال الأعمال ص (٥٤٤) وقد اختصرنا الخبر.

وفي أمالي الصدوق بإسناد إلى داود بن كثير الرقّي قال: كنت عند أبي عبد الله عليه‌السلام إذا استسقى الماء، فلمّا شربه رأيته وقد استعبر واغرورقت عيناه بدموعه، ثم قال: يا داود، لعن الله قاتل الحسين، فما أنغص ذكر الحسين للعيش، إني ما شربت ماءً بارداً إلاّ وذكرت الحسين، وما من عبد شرب الماء فذكر الحسين عليه‌السلام ولعَن قاتله إلاّ كتب الله له مئة ألف حسنة، ومحا عنه مئة ألف سيّئة، ورفع له مئة ألف درجة، وكان كأنّما أعتق مئة ألف نسمة، وحشره الله يوم القيامة أبلج الوجه[٢١].

١٠. الإمساك عن الطّعام والشّراب:

من المستحبّات الأكيدة الإمساك عن الطّعام والشّراب في يوم عاشوراء، ثمّ الإجتزاء بطعام أصحاب المصائب والعزاء دون اللذيذ من الأطعمة، ويختلف هذا الإمساك عن الصّوم المروي عند أهل السنّة كلّ الإختلاف، لأنّ الإمساك عندنا - وإن عُبّر عنه بالصّوم - فهو تشبّهٌ بأهل العزاء والمصائب، وأما الصّوم المروي عندهم فأصله أمويٌّ محض، ومنشأه التبرّك بيوم مقتل الإمام عليه‌السلام شكراً لله تعالى على ظفر الأمويّين به، ونصوصهم متهافتة متناقضة فيه، وقد عالجنا أحاديثهم وردَدْناها في بحث مستقل أسميناهُ " لا تصوموا عاشوراء " فراجع.

واشتهر بين أصحابنا بلا خلاف صوم يوم عاشوراء على وجه الحزن، كما في

---

(٢١) راجع أمالي الصدوق ص (١٤٢)، والكافي (٣٩١/٦)، ووسائل الشيعة (٢٧٢/٢٥)، وبحار الأنوار (٣٠٣/٤٤) و (٤٦٤/٦٣)، وروضة الواعظين (١٧٠/١)، كامل الزيارات ص (١٠٦)، والمناقب (٨٧/٤). وفي لفظ كامل الزيارات: " وحشره الله تعالى يوم القيامة ثلج الفؤاد ".

جواهر الكلام ورياض المسائل، وفي الغنية دعوى الإجماع عليه، وبه صرّح المحقّق في المعتبر والشرائع، وكذلك العلاّمة في المنتهى والإرشاد تبعاً لشيخ الطّائفة في التّهذيب، جمعاً بين النصوص الآمرة لصومه والنّصوص النّاهية عنه.

وقد ناقش بعض المتأخّرين في هذا الجمع، إذ لا شاهد ولا قرينة ترشد إليه، والنصوص الآمرة والنّاهية تأبى الحمل على ذلك أصلاً، فلا يمكن المصير إلى قول المشهور من استحباب صيامه حزناً، بل لابدّ من القول باستحباب صومه أو القول بالنهي عنه ولو على الكراهة !!

وكيف كان، فإنّ صومه تبرّكاً يستلزم الخروج من الدّين، وأمّا صيامه لخصوصيّة اليوم فإنّ أخباره موهونة بموافقتها النّواصب والأمويّين وإن كان فيها المعتبر من جهة السّند، فلا بدّ من حملها على التقيّة، ويكفيها وهناً خلوّ الكافي منها وإعراض الشّيخ الكليني ﵀ عنها مع أهمّية الموضوع، واكتفائه ﵀ بنقل أخبار النهي عن صومه شاهد على ما نرمي إليه، وكذلك الشّيخ الصدوق ﵀ فإنّه أعرض عن ذكرها في الفقيه، وهو يكشف عن إعراض قدماء أصحابنا عنها وهذا كاف في سقوطها عن الإعتبار.

وأمّا صومُه لا على وجه الخصوصيّة بما أنّه يوم من أيّام السّنة فمشهور أنّه لا مانع منه، لعموم ما دلّ على استحباب الصّوم في نفسه بلا معارض.

وقد ذهب العلاّمة المحدّث الشّيخ يوسف البحراني ﵀ إلى حرمة الصوم في يوم عاشوراء مطلقاً، كصوم يومي العيدين، موافقةً للنّصوص النّاهية، وقد ذهب إلى أن ضعف سندها منجبر بعمل الأصحاب، واحتجّ باقتصار الكليني ﵀ والصّدوق ﵀ على هذه الأخبار دون الأخبار الآمرة به، ثم استظهر عمل

الأصحاب برواية المصباح النّاهية عن صومه.

ثمّ أتمّ البحراني رحمه الله استدلاله قائلاً: قال في جامع المقاصد: صومه ليس صوماً معتبراً شرعاً، بل هو إمساك بدون نيّة الصّوم، لأنّ صومه متروك كما وردت الرواية، فيستحب الإمساك فيه إلى بعد العصر حزناً، وصومه شعار بني أميّة سروراً بقتل الحسين عليه السلام.

وذهب صاحب المسالك إلى أنّ صومه ليس صوماً معتبراً شرعاً، بل هو إمساك بدون نيّة الصوم، لأنّ صومه متروك كما وردت به الرواية، ومعنى قول الصّادق " صمه من غير تبييت، وافطره من غير تشميت، وليكن فطرك بعد العصر " هو ترك المفطرات انشغالاً بالحزن والمصيبة.

وروي في الإستبصار بالإسناد إلى نجية بن الحارث العطار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن صوم يوم عاشوراء ؟ فقال: صوم متروك بنزول شهر رمضان والمتروك بدعة. قال نجيّة: فسألت أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك من بعد أبيه ؟

فأجابني بمثل جواب أبيه، ثم قال: أما إنه صيام يوم ما نزل به كتاب ولا جرت به سنة إلا سنة آل زياد بقتل الحسين عليه السلام.

وجاء في وسائل الشيعة، حيث سأل عبيد بن زرارة أبا عبد الله عليه السلام عن صوم يوم عاشوراء ؟ فقال: من صامه كان حظّه من صيام ذلك اليوم حظّ ابن مرجانة وآل زياد، قال: قلت: وما كان حظهم من ذلك اليوم ؟

قال: النار، أعاذنا الله من النار ومن عمل يقرب من النار.

وقد ذهب الآية السيّد الخوئي رحمه الله إلى كراهة صيام يوم عاشوراء، وصرّح بذلك في كتاب الصّوم في قوله: " المكروه منه: بمعنى قلة الثواب ففي مواضع أيضا

منها صوم عاشوراء" .

وقد صدر الأمر من الإمام جعفر الصّادق عليه السلام لأصحابه في يوم عاشوراء بالإمساك عن الطعام والشّراب إلى وقت العصر دون تبييت نية الصيام كما تقدّم مواساة لعطش العترة عليه السلام في يوم أحزانهم وآلامهم، ففي مصباح المتهجّد بسند إلى عبد الله بن سنان قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام يوم عاشوراء ودموعه تنحدر على عينيه كاللؤلؤ المتساقط، فقلت: مم بكاؤك ؟

فقال: أ في غفلة أنت ؟ أما علمت أن الحسين عليه السلام أصيب في مثل هذا اليوم!

فقلت: ما قولك في صومه ؟

فقال لي: صمه من غير تبييت، وأفطره من غير تشميت، ولا تجعله يوم صوم كاملا، وليكن إفطارك بعد صلاة العصر بساعة على شربة من ماء، فإنه في مثل ذلك الوقت من ذلك اليوم تجلّت الهيجاء عن آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٢٢].

إنّ هذه جملة من الواجبات والوظائف الشخصيّة التي سنحت في الخاطر بموارد صدورها عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، وهي التي لا تسقط عن شيعتهم ومحبّيهم في كلّ الأحوال، وهي النُّويّات المختصرة التي غرسها أئمتنا عليهم السلام لإرساء شجرة الشّعائر الحسينيّة الكبرى التي تأخذ طابع الوظيفة الجماعيّة العامّة، وتعتمد على وظائف الأفراد مجتمعين، وتُعَدُّ في بعض الظروف من الواجبات الكفائيّة التي لا تسقط مهما كلّف الأمر.

---

(٢٢) راجع بحار الأنوار (٤٥/٦٣ و ٩٨/٣٠٣ و ٣٠٩)، ووسائل الشيعة (١٠/٤٥٨)، والمستدرك (٧/٤٢٤ و ٥٢٥)، والإقبال ص (٥٦٨)، ومصباح المتهجّد ص (٧٨٢).

وقد أرسى أئمة أهل البيت عليهم السلام شجرة الشّعائر الحسينيّة بالنّصوص الكافية والحجج الشّافية، ونسج الشّيعة الأبرار على منوال أئمتهم عليهم السلام بفقه نوراني، وفهموا الدّرس الذي جاهد الأئمة عليهم السلام من أجل إيصاله وكابدوا الشدّة والعناء، وأدركوا العمومات الواردة في النصوص فَهمَ الفقيه العارف، وأجادوا نشر الدّرس بكلّ إتقان ومسؤوليّة.

نعم، لقد فقه الشّيعة عموم دلالة " من بكى أو أبكى " وعموم دلالة " الجزع " فابتكروا ما يواكبون فيه عصرهم وبيئتهم من مظاهر الحزن والبكاء والجزع، فأحسنوا نشر ظلامة أهل البيت عليهم السلام وإحياء أمرهم بجميع سبل الدّعاية المتاحة التي تليق بقضيّتهم، وكان الله تعالى وراء ذلك.

الإنهزاميّة تجاه استهزاء المبطلين

الإلتزام بوظائف الحزن على مستوى الأفراد والإحتفاظ بالشعائر الحسينيّة على مستوى الجماعة إنّما يقومان على مدى التديّن الذي عليه الفرد والمجتمع، ويزداد التمسّك بالشّعار حسب قوّة التديّن، ويتلازم التديّن مع قوّة الشخصيّة وصلابة الموقف، فيحتفظ المؤمنون الأقوياء بالشّعارات الديّنيّة ويبذلون من أجلها الغالي والرّخيص، وهم أبعد ما يكونون عن الإنهزاميّة والتردّد في رفع الشّعار!!

أمّا الإستحياء في تجسيد الشّعائر الحسينيّة فهو كاشف عن ضعف الدّين والإنهزام في النّفوس، وكأنّ ضحك واستهزاء العدوّ مناطٌ شرعيٌّ في معرفة صحّة وفساد الأعمال أو العقائد!! وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أكثر النّاس صموداً أمام سخرية أعدائه المُبطلين الذين لجأوا إلى هذا السّلاح الضعيف

بعد عجزهم عن مواجهة النّبي ﷺ في دعوته مواجهةً علميّة، وبعد أن اجتاح باطلَهم بشعائر دينه الجديد ومظاهر عبادته !!

أ لم يسخر اليهود من أذان المسلمين! أ لم يضحكوا من صوت بلال وقالوا أنّه غراب ينعق ! أ لم يسخر الكفّار من السّجود فقالوا: "كيف ندخل في دين يأمرنا أن نرفع أستنا على رأسنا! أ لم يستخفّوا بكّل المظاهر والمراسم الإسلاميّة!

ولم يجد المُبطلون على مرور الأيّام ذريعة للطّعن في الحقّ إلاّ الإستهزاء والضّحك، وهذا السّلاح هو مطيّة الضّعفاء في كلّ زمان ومكان، ولم يكن الشّيعة بعيدين عن طنين هؤلاء، لكنّهم بعناية الله تعالى استطاعوا أن يواجهوا كيد هؤلاء الضعفاء بالعضّ بالنواجذ على هذه الشّعائر الحسينية حتّى تمكّنوا من إيصالها لأجيالهم وتعاقبوا على حمل الشّعار بإيمانٍ وقوّة وشدّة.

إنّ شيعة أمير المؤمنين عليه السلام الذين لم يؤثّر فيهم الحديد والنّار والسجن والقتل أصلب وأقوى من أن يتأثّروا بصيحات المستهزئين أو الفقاعات البرّاقة المؤقّتة أو الكلمات المزبرجة أو العقول التائهة، وهم واعون للدّعايات التي يطلقها هؤلاء بغرض الوقوف في وجه التيّار الحسيني الهادر، وأثبتَت الأيّام والليالي خيبةَ مساعي هؤلاء مهما اجتهدوا في إطفاء وهج شمس الإمام الحسين عليه السلام.

وسيأتي دعاء الإمام الصّادق عليه السلام لزوّار الإمام الحسين عليه السلام: "**اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم خروجهم فلم ينههم ذلك عن النّهوض والشّخوص إلينا خلافاً عليهم، فارحم تلك الوجوه التي غيّرتها الشّمس، وارحم تلك الخدود**

التي تقلّب على قبر أبي عبد الله عليه السلام "[٢٣].

ورَوَى السيّد ابن طاووس رحمه الله في فرحة الغري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: "يا علي.. من عمّر قبوركم وتعاهدها فكأنما أعان سليمان بن داود عليه السلام على بناء بيت المقدس، ومن زار قبوركم عدل ذلك ثواب سبعين حجة بعد حجة الإسلام وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته أمّه، أبشر وبشّر أولياءك ومحبّيك من النعيم وقرة العين بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولكن حثالة من الناس يعيّرون زوّاركم كما تعيّر الزّانية بزناها، أولئك شرارُ أمّتي لا نالتهم شفاعتي ولا يردون حوضي "[٢٤].

وما قيمة المستهزئين أنفسهم حتّى يعير لهم العقلاء اهتماماً، ولو كان لهؤلاء قيمة لعرفوا وجه الحق، واتّبعوا أهل البيت عليهم السلام ودانوا بالولاية لهم، وليس من العقل ولا الحكمة أن يتأثّر العاقل من كلمة من يتربّص به، فشأن أعداء الشّعائر الحسينيّة أن يشجّعوا التوافه ويضحكوا من العظائم، فهم يهزأون بنقاط القوّة التي تنطوي عليها الشعائر كي يزهّدون أهل الحق فيها فيبقون ضعفاء لا قوّة لهم، فيتخلّون شيئاً فشيئاً عن مكمن قوّتهم وسرّ نصرهم.

لقد اختار الله تعالى أقواماً لا يتخاذلون لحمل هذه الأمانة العظمى، وسيبقون ما مشت ظلالهم على الأرض يحفّون إسم الإمام الحسين عليه السلام ويبذلون النّفس

---

(٢٣) راجع بحار الأنوار (٨/٩٨)، ووسائل الشيعة (٤١١/١٤)، ومستدرك الوسائل (٢٣١/١٠).

(٢٤) راجع فرحة الغري ص (٧٧)، وتهذيب الأحكام (٢٢/٦ و ١٠٧)، ووسائل الشيعة (٣٨٣/١٤)، ومستدرك الوسائل (٢١٥/١٠)، وإرشاد القلوب (٤٤١/٢)، والصراط المستقيم (٢٠٩/١)، وكتاب المزار ص (٢٢).

والنفيس فداءً للإبقاء على هذه الشّعائر، ولقد بشّرت عقيلة الطالبيّين زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام بشيعة الإمام الحسين عليه السلام الصّامدين لّما رأت جزع الإمام زين العابدين عليه السلام حينَما مرّ على جسد أبيه الإمام الحسين عليه السلام فأحزنه ما رأى، فقالت له:

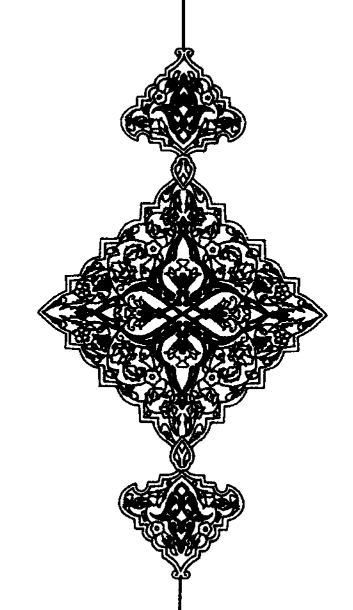
" لا يجزعنّك ما ترى، فو الله إن ذلك لعهد من رسول الله إلى جدك وأبيك وعمك، ولقد أخذ الله ميثاق أناس من هذا الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماوات، أنهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرقة فيوارونها وهذه الجسوم المضرجة، وينصبون لهذا الطف علما لقبر أبيك سيد الشهداء لا يدرس أثره ولا يعفو رسمُه على كرور الليالي والأيّام، وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلالة في محوه وتطميسه، فلا يزداد أثره إلاّ ظهوراً وأمره إلاّ علواً "[٢٥].

ﮎﮎﮎ ﮎﮎﮎ

---

(٢٥) راجع كامل الزيارات ص (٢٦٥)، وبحار الأنوار (٤٥/١٨٣).

الشعيرة الأولى
الحزن





الحزن

الحُـزْن - بالضـمّ فالسّـكون - هـو أشـدُّ الهـم، والحَـزَن - بفتحـتَين - ضـدّ السّـرور، والمعـني ببحثنـا المعنـى الأوّل، وهـو شـعور قلـبي بـاطني يتفـاوت قـوّة وضعفاً، وقد أدرج الثعالبي في فقه اللغة عـدّة مفـردات في قائمـة الحـزن في أبـواب متفرّقة من كتابه، فالكمَد حزنٌ لا يُستطاع إمضاؤه، والأسى واللهف حـزنٌ علـى الشيء يفوت، والوجوم حزنٌ يُسكت صاحبه، والأسف حزنٌ مع غضَب.

وواضحٌ أنّ الحزن يُعرّف بتعاريف مـختلفة بحسب قوّته وضعفه وظهـوره مـن كتم القلب، فبالمظاهر الصّادرة عـن الإنسـان وانطباعاتـه يمكـن تشـخيص مسـتوى الحزن ومسمّاه، ويضمّ معنىً نفسيّاً جامعـاً يظهـر علـى قسـمات الوجـه وحركـات الجـوارح وينطبـع علـى تصـرّفات الإنسـان، والـذي يعنينـا في موضـوع الشّـعائر الحسينيّة هو ظهوره من كتم القلب وإظهاره بصورة واضحة كشعار مـن شـعارات المذهب قد ندب إليه الدّين كما سيتّضح قريباً.

ويعدّ الحزن - في حدّ ذاته - عموماً في الفكر الـدّيني شـيءٌ ممـدوح، وينطـوي على مكارم نفسيّة عدّة، فاستشعار الحزن مقرّبٌ إلى الله تعالى، ومفتاح إلى هدايـة القلب، وروي عن أحدهم عليه السلام: إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله علـى

نفسه فاستشعر الحزن وتجلبَب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه[١].

فالحزن شأن العبّاد وفيه رقّة مندوبة في القلب، والإتّصاف به شأن المؤمن الكامل، ولا يخلو منه في أحواله، ورُوِيَ في كتاب التمحيص عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: قرأتُ في كتاب علي عليه السلام إن المؤمن يُمسي ويُصبح حزيناً، ولا يصلح له إلاّ ذلك[٢].

ودار الدّنيا محفوفة بموجبات ومقتضيات الحزن الدّائم، فقد رُوِيَ في وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر: يا أبا ذر، الدّنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، وما أصبح فيها مؤمنٌ إلاّ حزيناً، فكيف لا يحزن المؤمن وقد أوعده الله جل ثناؤه أنه وارد جهنّم، ولم يعده أنه صادرٌ عنها، وليلقّين أمراضاً ومصيبات وأموراً تغيظه، وليُظلمنّ فلا ينتصر، يبتغي ثواباً من الله تعالى، فما يزال فيها حزيناً حتى يفارقها، فإذا فارقها أفضى إلى الرّاحة والكرامة[٣].

ويُرشدنا الخطابُ الدّيني إلى حِكَم بالغة تمهّد بل تختصر علينا سبيل التدبّر، فإذا ما لاحظنا الدّنيا وجدنا أن في كلّ لذّة منها غصّة، وفي كلّ فرحة حزناً، وروي في كتاب عيون الحكم للواسطي عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف الدّنيا: وُصل رخاؤها بالبلاء، وجُعل بقاؤها إلى الفناء، فرحها مشوب بالحزن، وآخر همومها إلى الوهن[٤].

---

(١) راجع بحار الأنوار (٢/٥٧).

(٢) بحار الأنوار (٦٩/٧١).

(٣) راجع بحار الأنوار (٧٤/٨٠).

(٤) بحار الأنوار (٧٠/١٠٩).

وقال الشّافعي:

أحسنتَ ظنّكَ بالأيّامِ إذ حَسُنَت ... ولم تَخَف سوءَ ما يأتي به القدَرُ

وسالمتكَ الليالي فاغتررتَ بها ... وعندَ صفوِ الليالي يحدثُ الكدرُ

وإنما يكون الحزن ممدوحاً إذا أفضى إلى صلاح الدين، أمّا إذا كان على الدّنيا وحطامها الزّائل فإنّه حزنٌ مذموم، لأنّه سخَطٌ على قضاءِ الله سبحانه، ففي تفسير العياشي مرفوعاً إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: مكتوبٌ في التّوراة " من أصبح على الدنيا حزيناً فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً، ومن أصبح يشكو مُصيبةً نزَلَت به فقد أصبح يشكو الله تعالى "[٥].

وأخذت الأحاديث بأنظارنا إلى أهميّة الحزن ونزول الوحي به، فمن المناسب أن نقرأ القرآن الكريم في حزن وبكاء، فقد رُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: إن القرآن نزل بالحزن، فإذا قرأتموه ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا[٦].

وإذا كان الحزن قد رافق الوحي في تنزيله فقد روى الكليني رحمه الله ما يفيد أنّ الله تعالى رغب إلى مناجاته بالصّوت الحزين أيضاً، ففي الحديث القدسي: يا عيسى شمّر، فكُلُّ ما هو آت قريب، واقرأ كتابي وأنت طاهر، وأسمعني منك صوتاً حزيناً[٧].

ويكون الأولياء عليهم السلام وأحباب الله تعالى في أحزانهم أقرب إليه، مهما كانت موجبات ومقتضيات الحزن، فربّما ابتلاهم ليرفع درجاتهم فيكون حزنهم محبوباً

---

(٥) بحار الأنوار (١٩٦/٦٩).

(٦) راجع بحار الأنوار (١٩١/٨٩).

(٧) بحار الأنوار (٢٩٣/١٤).

عنده، فهو تأثّر الرّاضي بالمصيبة، الذي لا يشكو ربّه ولا يسخط على قضائه.

قال تعالى في حالات يعقوب النبي عليه السلام: ﴿**ثم تَوَلّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ**﴾ يعني عميت من البكاء ﴿**فَهُوَ كَظِيمٌ**﴾ أي محزون، والأسف أشدّ الحزن.

وسُئِلَ أبو عبد الله عليه السلام: ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف؟

قال: حزن سبعين ثكلى بأولادها[٨].

إرث الحزن

الحزن في الأسرة النبويّة إرث كريم ورثه الأئمة عليهم السلام عن جدّهم النبي صلى الله عليه وآله، واختطّ رسول الله صلى الله عليه وآله بقلبه خطوطه العريضة وأوصاهم بالصبر الجميل، وشحذ سلاح الحزن والدّمعة كضمان يتدارك به الشّطر الباقي من هذا الدّين الذي ستأتي الأهواء على معالمه، فهي عبادة أرسى دعاماتها ووضع أساسيّاتها، بعد أن أنذر وحذّر من العبثِ بسنّته، وتتكرّر في هذه الأمّة دواهي الأمم الماضية، ولابدّ حينئذٍ من مسعفٍ يضمن الإبقاء على قانون الشّرع الأقدس، ويحفظ خلود قضيّة الإمام الحسين عليه السلام التي حفظت دينه غضّاً طريّاً.

فكرّس صلى الله عليه وآله محرّكات العاطفة ومهيّجات القلب وفعّلها لربط عامّة المسلمين بشخصه الكريم صلى الله عليه وآله وبأهله الطيّبين عليهم السلام، فالحزن لحزنه يُشعر المؤمنين بآهاته وآلامه، فيقتربون من قلبه الكئيب، ويذوبون في مشاعره وأحاسيسه وعواطفه الطّاهرة، وهو سبيل الترقّي للكون معه في أقرب العبادات طريقاً إلى الله تعالى.

---

(٨) راجع بحار الأنوار (١٢/٢٤٢) عن تفسير القمّي.

ويؤسفني أنّ التّاريخ النبوي مليئٌ بالحُزن والكمَد، وصفحاته تغصّ بالأهات وتئنّ من المصائب وتصرخ بالكروب وتعجّ بالأحزان، وقد كان من آخر ما تفوّه به نبيّنا الكريم ﷺ هو قوله لأهل بيته عليهم السلام: أنتم المستضعفون بعدي!!

فأعدّ نبيّ الإسلام ﷺ أجواء الأحزان في محيط أهل بيته عليهم السلام وربّاهم على مواجهة حزونة المسيرة، ومرّنهم على سلوك طريق ذات الشوكة، فأَلِفوا همّه وذابوا في ذاته، ووَرِثُوا أحزانه على سيّد الشّهداء عليه السلام باعتباره الشّعار والدّثار، فهو حامل راية قضيّتهم وشاهد إستضعافهم وبرهان مظلوميّتهم.

نعم.. لقد حزن جدّهم ﷺ وأبوهم وأمّهم وعمّهم عليه السلام على سيد الشّهداء عليه السلام قبل مقتله بعهد طويل، ثم إشتد حزن أولادهم بعد مقتله الأليم، فالمصاب بعد وقوعه أشدّ وقعاً منه قبل وقوعه، إذ أنّ وقوع المأساة أدعى للحزن الكبير وأكثر تحريكاً للمشاعر، فأثّرت بانعكاساتها المشجية على النّاس بجميع أصنافهم وطبقاتهم، وعمّت بأصدائها وتأثيراتها على الخطباء والعلماء والشّعراء والرّثاة.

ولقد ورث أهل البيت عليهم السلام الدّور المقدّس الذي بدأه أبوهم الرّسول ﷺ بمصابه وآلامه وآهاته ودموعه، وأعلنوا قضيّة الإمام الحسين عليه السلام قضيّتهم الكبرى، فهي تنطوي على جملة حسراتهم وآهاتهم، وهي العنوان الأمثل المعبّر عن سلسلة لا متناهية من الظّلامات، وتضمّ في مطاويها كلّ الحقوق والإلتزامات الإنسانيّة المهدرة، بعد أن افترضها الجليل سبحانه وأكّدها وأحكم ميثاقها على هذه الأمّة كرامة لنبيّها الكريم ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

ولقد خطى أهل البيت عليهم السلام خطوات جبّارة في سبيل رفع شعيرة الحزن وتكبّدوا في سبيل تثبيتها عناء المواجهات، حتّى حازت مساعيهم على النّجاح

العظيم، وتكلّلت جهودهم بالظفر والنّصر المؤزّر، واستطاعوا إرساء معالم قضيّة الإمام الحسين عليه السلام وتأصيل مختلف أبعادها، وتمكّنوا من تجذير مفرداتها بشكل يحافظ على طراوتها وحرارتها على مرور الليالي والأيّام.

ولقد سعوا عليهم السلام بقضيّتهم إلى حيث الخلود، وضمن الله سبحانه نجاح مسعاهم الكريم ومباركة جهودهم، وها نحن نشهد ثمار غرسهم المبارك بعد كلّ هذه المدّة الطويلة، وها هم الشيعة يبذلون الرّوح والمال والغالي والنفيس في سبيل رفع راية الأحزان اليوم، وها هي ميازيب الدّموع الحسينية لم تجف ولم تنضب في يوم واحد، وستبقى العيون تُجري دموعها أنهاراً أسَفاً على الإمام الذي قضى إلى جانب الفرات عطَشاً، وسيبقى الحزن الكبير متجدّداً بخلفيّاته على مختلف الأصعدة.

وكانت رغبة الأئمة الطاهرين عليهم السلام ببثّ الأحزان ونشرها نافذة في الضّمائر، وحاكمة على القلوب الحرّة، فاستجابت لدعوتهم الأمم الموفّقة جيلاً بعد جيل، وكانت الإستجابة مشفوعة بمكانتهم المعنويّة المتمكّنة في النفوس الطيّبة، فهم ورثة جدّهم صلى الله عليه وآله وخلفاؤه والعلماء من بعده، والمطهّرون من الرّجس والدّنس والعيب تطهيراً، وهم سفن النّجاة ومشاعل الهدى في دنيا الضّلال، ولا يخامر مؤمنٌ شكّ في كونهم الأدرى بخصوصيّات بيت النبوّة، فبيتهم مهبط الوحي وفي حُجُراتهم نزل الرّوح الأمين، وهم أحقّ النّاس بمنهجه صلى الله عليه وآله وشريعته وأولى النّاس بمواصلة طريقته والنّسج على منواله.

فتضافرت جهودهم عليهم السلام لإحياء المؤسّسة الحسينيّة، وتبادلوا المواقف لتخليدها وإبقائها، وأثّرت الحادثة في نفوسهم عليهم السلام بالغ الأثر، وطفَت أحزانُهم

وأحزان سائر العلويين على صفحات التأريخ فغطّتها بالحزن والأسى، وراحوا يُبدون لوعَتَهم عليه في سرّهم وعَلَنهم، وفي محافلهم الرّسمية ومجالسهم الخاصة على حدّ سواء، وفي دورهم وأنديتهم.

وكان للأئمة الطاهرين عليهم السلام من ولد الإمام الحسين عليه السلام النصيب الأوفى من الحزن والجزع لمصابه، وقد نقل الرّواة أخبار بكاء وحزن الإمام زين العابدين عليه السلام الكثير، وكانت قصصه محرّكة للشجون حقّاً، إذ بكى على أبيه مدّة أربعين سنة، وكذا حال أولاده من الأئمة عليهم السلام، وتتجدّد أحزانهم في شهر المحرّم وحتّى في باقي المناسبات، وكذلك في الأعياد، فقد أثّرت الحادثة عليهم تأثيراً كبيراً فأذكوا جذوة أحزانها لتبقى مشتعلة إلى آخر يوم من أيّام الدنيا.

قال بعض العلماء: أمَا إنّهم - أي الأئمة عليهم السلام - بكوا على الحسين وعدّوا مصيبته أعظم المصائب وأمروا شيعتهم ومواليهم وأتباعهم بذلك وحثّوا عليه واستنشدوا الشعر في رثائه وبكوا عند سماعه وجعلوا يوم قتله يوم حزن وبكاء، وذمّوا من اتخذه عيداً وأمروا ترك السعي فيه في الحوائج، وعدم ادخار شيء فيه..

فالأخبار مستفيضة عنهم، تكاد تبلغ حد التواتر، رواها عنهم ثقات شيعتهم ومحبّيهم بأسانيدها المتصلة إليهم[٩].

ولك أن تعرف أهل البيت عليهم السلام وتؤمن بإمامتهم بهذا البرهان الواقعي المشيد، فأَيْمَانُهم المباركة محلّ توفيق وتسديد الله تعالى، وخلود الحزن الحسيني بهذا الشّكل الذي أرسوه إعجازٌ لا ينكره إلاّ جاحد، وهم الذين قاموا بتشييده

---

(٩) راجع إقناع اللائم للسيد محسن الأمين العاملي ص (٩٣).

عبر توظيف المؤثرات الفاعلة، ملاحظين محيط جزيرة العرب بخصوصيّاته ومميّزاته، واستثمروا كلّ الطّاقات المتاحة لتثبيته وخلوده، وحرّكوا المؤثّرين على المجتمع في سبيل ذلك، فوظّفوا الرّثاة والشّعراء لاستثارة الشعور الإنساني من جهة وأماقي المحبّين من جهة أخرى، ورغّبوا في زيارة سيّد الشّهداء عليه السلام لشدّ الأواصر به وبمبادئه، ولكي يبقى شيعته على ارتباط وثيق دائم بعاصمة الحزن الحسيني.

وهم الذين جنّدوا النفوس والجهود والأموال في سبيل إبقاء مظاهر الولاء والحزن بمنهجيّة مُتقنة، وأخبارهم وأحاديثهم في هذا الصّدد تلهب بلوعة المصاب، ونسجوا في ذلك على منوال جدّهم النبي صلى الله عليه وآله، فقَفَوا سيرته بإحيوا الأحزان على سيّد الشّهداء عليه السلام بمناهج عدّة، تماشت مع هدي النبوّة، حتّى اتسمت مظاهر الحزن الحسيني بسمة الشعيرة الدّينيّة وأخذت طابعها الخاص، فاصطلح عليها الخواص والعوام "الشّعائر الحسينيّة"، وسوف نأتي عليها تباعاً إن شاء الله تعالى، وتعدّ جميعها أثافي الحزن الواجب على الإمام الحسين عليه السلام.

حزن العلويين

إنّ الأحزان الكربلائية قد لفّت راية البشر والفرح في بيت علي وفاطمة عليهما السلام بعد واقعة الطّف، وتسربل بنو هاشم سربال الحداد رجالاً ونساءً، وبقيت صور الحادثة الدّامية شاخصة أمام ناظر الصّغير والكبير منهم، وأثّرت الواقعة على نفوسهم فاشتعلت بنيران الحزن والمصاب.

ورُوِيَ في البحار عن المرزّباني بإسناده إلى الإمام جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام أنه قال: ما اكتحلت هاشميّة، ولا اختضبت، ولا رُئي في دار هاشمي

دُخان خمس حجج، حتى قتل عبيد الله بن زياد[١٠].

ورُوِيَ فيه بالإسنادِ إلى السيّدة فاطمة بنت علي ﵁ أنّها قالت: ما تحنّأت امرأة منّا، ولا أجالت في عينها مروداً، ولا امتشطت، حتّى بعَث المختار رأس عبيد الله بن زياد[١١].

إن أحزان الأسرة العلويّة هي اللون الغالب على صفحات تاريخهم ﵈ تُجلّلتها بالحزن والسّواد، وضمّت أخبار ثواب البكاء على مصاب الإمام الحسين ﵇ الحديث على أحوال العترة وأحزانها بعد الحادثة، ممّا يركّز أنّ سرّ الثّواب الجزيل يكمُن في مواساة العترة الطّاهرة، كما في هذا الخبر ذي المضامين العالية..

رُوِيَ في كامل الزيارات بالإسناد إلى زرارة أنّ الإمام الصّادق ﵇ قال: . وما اختضبت منّا امرأة، ولا ادّهنت، ولا اكتحلت، ولا رجّلت، حتى أتانا رأس عبيد الله بن زياد، وما زلنا في عبرة بعده، وكان جدّي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه، وإن الملائكة الذين عند قبره ليبكون فيبكي لبكائهم كل من في الهواء والسماء من الملائكة.

إلى أن قال: وما من عين أحبّ إلى الله ولا عبرة من عين بكت ودمعت عليه، وما من باك يبكيه إلاّ وقد وصل فاطمة ﵍ وأسعدها عليه، ووصل رسول الله ﷺ، وأدّى حقّنا، وما من عبد يُحشر إلاّ وعيناه باكية، إلاّ الباكين على جدي الحسين ﵇ فإنّه يُحشر وعينه قريرة والبشارة تلقّاه، والسرور بيّن على وجهه، والخلق في الفزع وهم آمنون، والخلق يعرضون وهم حداث الحسين

(١٠) راجع بحار الأنوار (٤٥/ ٣٨٦).

(١١) راجع بحار الأنوار (٤٥/ ٣٨٦).

عليه السلام تحت العرش وفي ظل العرش، لا يخافون سوء يوم الحساب[١٢].

فلا زالت أحزان العترة عليهم السلام في اضطرام دائم وتجدّد مستمر، وكانت لوعاتهم على الإمام الحسين عليه السلام ولم تزل هي المظهر الأساس في سيَرهم، ولم يقتصر أئمة أهل البيت عليهم السلام على مناسبة خاصّة لإسبال الدّمع وإبداء الجزع في هذا المصاب، بل كانت دموعهم تنهمر في مواسم الحزن المقترنة بالحادثة كما تنهمر في غيرها، غير أنّ أحزانهم تشتدّ في شهر المحرّم، ولقد بكوا حتّى أبكوا، وأمروا شيعتهم بالبكاء، ولكلّ منهم عليهم السلام مظهر خاصٌ في هذا الصّدد، من زين عبّادهم عليه السلام وحتّى مهديّهم المنتظر عليه السلام.

إلاّ أنّ المُلفت للأنظار أنّ الأئمة عليهم السلام سلكوا سبلاً محكمة رغم صعوبة الظروف في سبيل إذكاء الحزن والمصاب، وعملوا على تصوير المأساة بآلامها المحرقة، وبيّنوا إنعكاساتها المؤلمة على نفوسهم وكم خلّفت من الحسرات والأسى في صدورهم، حتى مزجوا ذكر الله تعالى بآهاتهم الحسينية، ونقل الرّواة أشجى المشاهد عن حالات الأئمة عليهم السلام في هذا الإتّجاه، وسنمرّ على صور أحزانهم تباعاً.

حزن الإمام السّجاد عليه السلام

إمتاز حزن الإمام علي بن الحسين عليه السلام على أحزان سائر الأئمة الطاهرين عليهم السلام بالشجاء المرير، لكونه الشّاهد الذي وقف على مصرع أبيه سيّد الشّهداء عليه السلام والشهداء من أهل بيته وأصحابه الميامين عليهم السلام وتجرّع غصص بلائهم وغموم

(١٢) راجع كامل الزيارات ص (٨١)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٠٧)، ومستدرك الوسائل (١٠/٣١٣).

أرزائهم وآلام مصائبهم المفجعة، وعاين الوقعة بكل تفاصيلها وصورها المؤلمة، وقاسى من بعد هول الحادثة مرارة الأسر والذّل، فلم تنقطع عبرته ما دام حياً.

ورُوِيَ في المناقب: أنّه عليه السلام بكى حتى خيف على عينيه، وكان إذا أخذ ماءً بكى حتى يملأها دمعاً، فقيل له في ذلك، فقال: كيف لا أبكي وقد مُنع أبي من الماء الذي كان مطلقاً للسّباع والوحوش، وقيل له: أنك لتبكي دهرك فلو قتلت نفسك لما زدت على هذا، فقال: نفسي قتلتها وعليها أبكي[١٣].

وفيه أيضاً: أنّه كلّما جاء وقت الطعام وفتحت مصاريع الأبواب للناس ووضع طعامه بين يديه دمعت عيناه، فقال له أحد مواليه ذات مرة: يا ابن رسول الله، أما آن لحزنك أن ينقضي؟ فقال له زين العابدين: ويحك أن يعقوب عليه السلام كان له اثنا عشر ابناً، فغيّب الله واحداً منهم، فابيضت عيناه من الحزن وكان ابنه يوسف حياً في الدنيا، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي وقوماً من أنصار أبي مصرّعين حولي، فكيف ينقضي حزني!![١٤].

وفي روضة الواعظين: عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: عاش علي بن الحسين أربعين سنة وما وضع طعام بين يديه إلاّ وبكى، حتى قال له مولى له: جعلت فداك، يا ابن رسول الله، إني أخاف أن تكون من الهالكين، قال عليه السلام: إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون، إني لم أذكر مصرع

---

(١٣) راجع مناقب ابن شهراشوب (١٦٦/٤)، وبحار الأنوار (١٠٨/٤٦).

(١٤) راجع مناقب ابن شهراشوب (١٦٥/٤)، وبحار الأنوار (١٠٨/٤٦)، ووسائل الشيعة (٢٨٢/٣)، واللهوف ص (٢٠٩)، ومسكن الفؤاد ص (١٠٠).

بني فاطمة إلاّ خنقتني العبرة[١٥].

ورُوِيَ في الوسائل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه بكى على أبيه الحسين عليه السلام أربعين سنة صائماً نهاره قائماً ليله، فإذا أحضر الإفطار وجاء غلامه بطعامه وشرابه فيضعه بين يديه، فيقول: كُل يا مولاي، فيقول: قتل ابن رسول الله جائعاً، قتل ابن رسول الله عطشاناً، فلا يزال يكرّر ذلك ويبكي حتى يَبل طعامه من دموعه، ثم يمزج شرابه بدموعه، فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل[١٦].

ورُوِيَ في بحار الأنوار عند ذكر شعر الإمام زين العابدين عليه السلام هذه الأبيات:

نحنُ بنوا المصطفى ذوُوا غُصصٍ يجرعُها في الأنامِ كاظمُنا
عظيمةٌ في الأنامِ محنتُنا أوّلُنا مُبتلى وآخرُنا
يفرحُ هذا الورى بعيدِهِم ونحنُ أعيادُنا مآتمُنا
والناسُ في الأمنِ والسّرورِ وما يأمنُ طولَ الزمانِ خائفُنا
وما خُصِصنا به من الشّرفِ الطائلِ بينَ الأنامِ آفتُنا
يحكُم فينا والحكم فيهِ لنا جاحدُنا حَقّنا وغاصبُنا[١٧]

---

(١٥) راجع روضة الواعظين (٢/ ٤٥٠)، ومناقب ابن شهراشوب (٤/ ١٦٥)، وبحار الأنوار (٤٦/ ١٠٨)، وقصص الأنبياء للجزائري ص (١٧٥)، وكامل الزيارات ص (١٠٧)، ومكارم الأخلاق ص (٣١٥).

(١٦) راجع وسائل الشيعة (٣/ ٢٨٢ و ٢٥/ ٢٧٨)، وبحار الأنوار (٤٥/ ١٤٩)، واللهوف ص (٢٠٩)، والمجالس السنية للسيّد محسن الأمين ص (١٤٦).

(١٧) راجع بحار الأنوار (٤٦/ ٩٢)، عنه المناقب (٤/ ١٥٦)، وأعيان الشيعة (٤/ ٢٤٩).

حزن الإمام الباقر عليه السلام

تنص أخبار الطّف على حضور الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام في كربلاء، فقد شهد الواقعة الدّامية وهو في سنّ الطفولة، وكان مع جملة نساء الإمام الحسين عليه السلام وأطفاله في السّبي، إلاّ أنّ أخبار أحزانه مُقتضبة جدّاً، ونلاحظ شحّ أخبار بكائه بالنسبة إلى أخبار سائر الأئمة عليهم السلام، فقليلاً ما يذكر المؤرّخون ذكر إقامة المآتم والنياحات العلنية على عهده.

والسرّ في ذلك ضيق الظّرف الذي عاشه عليه السلام، وشدّة ضغوط الأمويّين عليه وعلى آله وأصحابه، فلقد عاني المقرّبون من آل علي عليه السلام في زمانه معاناة شديدة، لكنّ صعوبة تلك الظروف لم تعق تأكيد القضيّة الحسينيّة وإظهار أحزانها، فقد عمد أهل البيت عليهم السلام في هذه الحالات إلى إقامة المآتم في بيوتهم الخاصة وراء الأستار الكثيفة، ولم يحضرها سوى خاصّتهم.

وكانت أحزان مولانا الباقر عليه السلام على مصاب جدّه عليه السلام كأحزان أبيه عليه السلام وسائر أولاده وعترته، فهم جميعاً يستشعرون الحزن كلّما هل هلال المحرم، وكانت تفد عليهم عليهم السلام وفود من الشّعراء لتجديد تلك الذكرى، وقد ألقوا الرّوائع من شعرهم الخالد وتنافسوا في هذا الصّدد، وازدهر فنُّ رثائه في أحلك الظروف، وظل شعرهم خالداً رغم مرّ العصور.

ونقل المؤرّخون أن الشاعر العربي الكميت بن زيد الأسدي - وهو من شعراء العصر الأموي، والمتوفّى في سنة ١٢٦ هـ - قد جعل معظم قصائده في مدح بني هاشم وذكر مصائب آل الرسول عليهم السلام حتى سمّيت قصائده بالهاشميات، وقال

أرباب التراجم أنّه كان ينشد معظمها في مجالس الإمام الصادق عليه السلام وأبيه محمد الباقر عليه السلام وجدّه علي بن الحسين عليه السلام[١٨].

ونقل المؤرّخون أنّ الكميت الأسدي قدم المدينة وأنشد الإمام محمد الباقر عليه السلام الشّعر، فلمّا بلغ قوله:

وقتيلٌ بالطّفِّ غُودِرَ منهمُ　　بينَ غوغاءَ أمّـةٍ وطُـغامِ

بكى الإمام، ثم قال: يا كميت، لو كان عندنا مال لأعطيناك، ولكن لك ما قال الرسول لحسان بن ثابت: لا زلت مؤيداً بروح القدس ما ذببت عنا أهل البيت[١٩].

وفي الكافي عن الكميت بن زيد الأسدي، قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال: واللّه يا كميت لو كان عندنا مال لأعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله لحسّان بن ثابت: لن يزال معك روح القدس ما ذببت عنّا[٢٠].

وروي في كامل الزيارات بالإسناد إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: من زار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء من المحرم حتى يظل عنده باكياً لقي الله تعالى يوم القيامة بثواب ألفي ألف حجّة، وألفي ألف عمرة، وألفي ألف غزوة، وثواب كل حجة وعمرة وغزوة كثواب من حج واعتمر وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومع الأئمة الراشدين صلوات الله عليهم أجمعين.

---

(١٨) راجع كتاب نهضة الحسين ص (١٥٢).

(١٩) راجع الكثير من تلك الأخبار بمصادرها في كتاب الشيعة والحاكمون ص (١٢٦).

(٢٠) راجع الكافي (١٠٢/٨)، وبحار الأنوار (٢٦٦/٣٠ و ٣٤١/٤٦)، ووسائل الشيعة (٥٩٤/١٤).

فقيل له: جُعلت فداك، فما لمن كان في بعد البلاد وأقاصيها، ولم يمكنه المسير إليه في ذلك اليوم؟

قال: إذا كان ذلك اليوم برز إلى الصحراء أو صعد سطحاً مرتفعاً في داره وأومأ إليه بالسلام واجتهد على قاتله بالدعاء وصلى بعده ركعتين، يفعل ذلك في صدر النهار قبل الزوال، ثم ليندب الحسين عليه السلام ويبكيه ويأمر من في داره بالبكاء عليه ويقيم في داره مصيبته بإظهار الجزع عليه، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضاً في البيوت وليعزّ بعضهم بعضاً بمصاب الحسين عليه السلام فأنا ضامن لهم إذا فعلوا ذلك على الله عز وجل جميع هذا الثواب.

فقيل له: جُعلت فداك، وأنت الضّامن لهم إذا فعلوا ذلك والزعيم به؟

قال: أنا الضامن لهم ذلك والزعيم لمن فعل ذلك.

فقيل له: فكيف يعزّي بعضهم بعضاً؟

قال: يقولون: عظم الله أجورنا بمصابنا بالحسين عليه السلام وجعلنا وإياكم من الطّالبين بثأره مع وليه الإمام المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله، فإن استطعت أن لا تنتشر يومك في حاجة فافعل، فإنه يوم نحس لا تقضى فيه حاجة، وإن قضيت لم يبارك له فيها ولم ير رشداً، ولا تدّخرن لمنزلك شيئاً فإنه من ادخر لمنزله شيئاً في ذلك اليوم لم يبارك له فيما يدّخره، ولا يبارك له في أهله، فمن فعل ذلك كتب له ثواب ألف ألف حجّة وألف ألف عمرة وألف ألف غزوة، كلها مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان له ثواب مصيبة كل نبي ورسول وصدّيق وشهيد، مات أو قتل منذ

خلق الله الدنيا إلى أن تقوم الساعة[٢١].

حزن الإمام الصادق عليه السلام

الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أكثر الأئمة الطاهرين عليهم السلام حزناً وبكاءً ونياحةً على جده الشهيد عليه السلام من حيث النقل، وكان له الشطر الأكبر من المرويّات في هذا الباب، والسرّ في هذه الظّاهرة يرجع لانشغال الدّولة الأمويّة عن أهل البيت عليهم السلام باضطراباتها السّياسيّة وضعفها وإشرافها على السقوط، إذ تداعت في هذه الفترة أركان سلطتها وآل أمرها إلى التبدّد والضّعف الشّديد، فعاصر عليه السلام عهد التحوّل السّياسي من الدّولة الأمويّة إلى العبّاسية، واستغلّ انشغال الدّولتين لصالح قضيّته، وتوالت الرّوايات والأخبار في وصف بكائه ونحيبه وتواترت، وملأت بطون كتب التاريخ وأسفار الحديث بشكل واضح ومكثّف.

رُوِيَ في كامل الزيارات بالإسناد إلى أبي بصير، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام أحدّثه، فدخل عليه إبنه، فقال له: مرحباً، وضمّه وقبّله، وقال: حقّر الله من حقّركم، وانتقم ممّن وتركم، وخذل الله من خذلكم، ولعن الله من قتلكم، وكان الله لكم وليّاً وحافظاً وناصراً، فقد طال بكاء النّساء وبكاء الأنبياء والصدّيقين والشهداء وملائكة السّماء، ثم بكى وقال: يا أبا بصير، إذا نظرت إلى

(٢١) راجع كامل الزيارات ص (١٧٤)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٩)، ومستدرك الوسائل (١٠/٣١٥)، والبلد الأمين ص (٢٦٩)، ومصباح الكفعمي ص (٤٨٢)، ومصباح المتهجد ص (٧٧).

ولد الحسين أتاني ما لا أملكه بما أتى إلى أبيهم وإليهم.

يا أبا بصير، إن فاطمة عليها السلام لتبكيه وتشهق، فتزفر جهنم زفرة لو لا أن الخزنة يسمعون بكاءها وقد استعدّوا لذلك مخافة أن يخرج منها عنق أو يشرد دخانها فيحرق أهل الأرض فيحفظونها ما دامت باكية، ويزجرونها ويوثقون من أبوابها مخافة على أهل الأرض، فلا تسكن حتى يسكن صوت فاطمة الزهراء، وإن البحار تكاد أن تنفتق، فيدخل بعضها على بعض، وما منها قطرة إلاّ بها ملك موكل، فإذا سمع الملك صوتها أطفأ نارها بأجنحته وحبس بعضها على بعض مخافة على الدنيا وما فيها ومن على الأرض، فلا تزال الملائكة مشفقين يبكونه لبكائها ويدعون الله ويتضرعون إليه ويتضرع أهل العرش ومن حوله وترتفع أصوات من الملائكة بالتقديس لله مخافة على أهل الأرض، ولو أن صوتا من أصواتهم يصل إلى الأرض لصعق أهل الأرض وتقطعت الجبال وزلزلت الأرض بأهلها.

قلت: جُعلت فداك، إن هذا الأمر عظيم !!

قال: غيره أعظم منه ما لم تسمعه.

ثم قال لي: يا أبا بصير، أ ما تحب أن تكون فيمن يسعد فاطمة عليها السلام ؟

فبكيت حين قالها، فما قدرت على المنطق، وما قدر على كلامي من البكاء، ثم قام إلى المصلّى يدعو، فخرجت من عنده على تلك الحال، فما انتفعت بطعام وما جاءني النوم وأصبحت صائما وجلاً حتى أتيته، فلما رأيته قد سكن سكنت

وحمدت الله حيث لم تنزل بي عقوبة[٢٢].

وروي في كامل الزيارات بالإسناد إلى أبي عمارة المنشد، قال: ما ذكر الحسين عليه السلام عند أبي عبد الله عليه السلام في يوم قط فرُأي أبو عبد الله عليه السلام متبسّماً في ذلك اليوم إلى الليل، وكان عليه السلام يقول: الحسين عليه السلام عبرة كل مؤمن[٢٣].

حزن الإمام الكاظم عليه السلام

ونلاحظ عند البحث والتحرّي شحّ المرويات المنقولة لنا عن حزن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، والسّر يرجع إلى اشتداد الوطأة العبّاسيّة وسياستها الشديدة مع كل ما يمتّ للعلويّين بالصّلة، إذ بالغوا في الحرب ضدّ بني فاطمة الزّهراء عليها السلام جاهدين لمحق هذا الشّعار، وكانت مرحلة صعبة ومهمّة في تاريخ العترة وطقوسهم المحبّبة، فهي معركة وجود!

لقد عاصر عليه السلام أعتى حكّام بني العبّاس على الإطلاق، وعايش نشاط الدّولة الجديدة الفتيّة، واستواء الرشيد على كرسي الحكم، وصبر على جفوتهم وكظم على ظلمهم، حتّى بلغ الحال أن قضى - وهو شيخ الطّالبيّين وإمام الأمّة - زهرة عمره الشريف في زنازينهم، ينقل من سجن إلى سجن، وتوالت عليه كروب الغربة والفقد وبُعد الأهل ومعاناة السجن، حتّى قُبض في سجن هارون

(٢٢) راجع كامل الزيارات ص (٨٢)، وبحار الأنوار (٢٠٨/٤٥)، ومستدرك الوسائل (٣١/١٠).

(٢٣) راجع كامل الزيارات ص (١٠١ و ١٠٨)، وبحار الأنوار (٢٨٠/٤٤)، ومستدرك الوسائل (٣١٢/١٠).

الرشيد مظلوماً مسموماً مهتضماً.

ولقد طُمرت - في تلك الفترة العاتية - أصواتُ العترة في غياهب السجون، وزُجّ بالعلويّين في أقسى المحابس وأبعدها عن نور الشّمس، ونُكّل بالعترة النبويّة شرّ تنكيل، وتقرّب القادة والزّعماء والولاة والسّعاة إلى الرّشيد ووزرائه بدماء بني علي وفاطمة عليهما السلام، وكم قدّمت رؤوسهم إلى هارون تُحَفاً في أيّام النّوروز، حتّى ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت، وكان بطن الأرض لهم خير من ظهرها.

ومع كلّ هذا الصّلف العاتي والسيرة الظّالمة فقد حافظ الشيعة الأبرار على إرث الحزن، وضمّوا الشعائر الحسينية في قلوبهم البارّة، وأذكَوا شعلة الأحزان على سيّد الشهداء عليه السلام بكلّ أمانة وقوّة، ولم يمنعهم الظّرف الذي حجب إمامهم عنهم من رفع هذا الشّعار، فقد أحيوا أحزانهم وجدّدوا مصابهم به في قعر بيوتهم أسوة بإمامهم عليه السلام.

ونقل الإمام الرّضا عليه السلام لنا صورة مشجية عن أحوال أبيه الإمام الكاظم عليه السلام في شهر المحرّم، وهي عُمدة النّصوص في أحزانه على جدّه المظلوم عليه السلام.

ورَوَى الشيخ الصدوق رحمه الله بإسناده إلى إبراهيم بن أبي محمود قال: قال الإمام الرضا عليه السلام: كان أبي عليه السلام إذا دخل شهر المحرم لا يُرى ضاحكاً، وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه، ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام[٢٤].

---

(٢٤) راجع أمالي الصدوق ص (١٢٨)، وبحار الأنوار (٢٨٤/٤٤)، ووسائل الشيعة (٥٠٥/١٤)، وإقبال الأعمال ص (٥٤٤)، وروضة الواعظين (١٦٩/١).

حزن الإمام الرضا عليه السلام

وتعود في عهد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام الأحزان ظاهرة معلنة كسابق عهدها، وقد امتلأت كتب التاريخ والحديث بأخبار حزنه على جده الإمام الحسين عليه السلام، ولدى النظر يبدو لي أنّ الإمام عليه السلام إنّما قَبِل ولاية العهد الشّكليّة لينهض بعلوم أهل البيت عليهم السلام وشعاراتهم التي حاول طمسها حكّام الجور وطغاة الأمّة، ولقد شيّد عليه السلام العلم النبوي في فترة ولايته للعهد بشكل ظاهر، فالروايات المرويّة عنه عليه السلام كثيرة جدّاً في مختلف الأبواب، ولا تظهر عليها ملامح التقيّة إلاّ نادراً.

وقد رفع الإمام الرضا عليه السلام شعار الأحزان وأعلن وجده على جدّه الحسين عليه السلام وهو متربّع على هرم السّلطة وولاية العهد التي قبلها مرغماً، واستقبل الشعراء والرّثاة والمنشدين في بيت الحكم، وسنواجه قريباً خبر دعبل بن علي الخزاعي رحمه الله الذي أنشد تائيّته العصماء في محضره الشريف.

وتتميّز المرويّات الصّادرة عن الرضا عليه السلام حول المقتل بحرارة خاصّة، وتظهر عليها سِمَة الحزن الكبير، وتنطوي على تفاصيل مهمّة جدّاً.. منها ما رواهُ الشيخ الصدوق رحمه الله بأسناده إلى إبراهيم بن أبي محمود، قال: قال الإمام الرّضا عليه السلام: إن المحرّم شهر كان أهل الجاهليّة يحرّمون فيه القتال، فاستحلّت فيه دماؤنا، وهُتكت فيه حُرمتُنا، وسُبيَ فيه ذرارينا ونساؤُنا، وأُضرمت النّيران في مضاربنا، وانتُهب ما فيها من ثقلنا، ولم تُرع لرسول الله حرمة في أمرنا.

إن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلّ عزيزنا بأرض كرب

وبلاء، أورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الإنقضاء، فعلى مثل الحسين فليبك الباكون فإنّ البكاء عليه يحطّ الذّنوب العظام.

ثم قال عليه السلام: كان أبي إذا دخل شهر المحرّم لا يُرى ضاحكا وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيّام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسين صلى الله عليه[(٢٥)].

ويستعرض الإمام الرّضا عليه السلام في خبر آخر المأساة بعمقها التاريخي والمأساوي، ويُبيّن مدى تأثيرها على أهل البيت عليهم السلام، ويؤكّد عظمة شهر المحرّم وفظيع من انتهك فيه من حريمهم المقدّسة.

ورَوَى بإسناد يرفعه إلى الريّان بن شبيب، قال: دخلت على الرّضا عليه السلام في أول يوم من المحرم، فقال لي: يا ابن شبيب أصائمٌ أنت ؟

فقلت: لا !!

فقال: إن هذا اليوم هو اليوم الذي دعا فيه زكريّا ربّه عز وجل، فقال: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾. فاستجاب الله له، وأمر الملائكة فنادت زكريّا وهو قائم يصلي في المحراب: ﴿**أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى**﴾ فمن صام هذا اليوم ثم دعا الله عز وجل استجاب الله له كما استجاب لزكريّا عليه السلام.

ثم قال: يا ابن شبيب، إن المحرّم هو الشّهر الذي كان أهل الجاهلية فيما مضى يحرّمون فيه الظلم والقتال لحرمته، فما عرفت هذه الأمّة حرمة شهرها ولا

---

(٢٥) راجع أمالي الصدوق ص (١٢٨)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٨٣)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٥)، وإقبال الأعمال ص (٥٤٤)، وروضة الواعظين (١/١٦٩)، ومناقب ابن شهراشوب (٤/٨٦).

حرمة نبيّها، لقد قتلوا في هذا الشّهر ذريّته، وسبوا نساءه، وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك أبَداً.

يا ابن شبيب إن كنتَ باكياً لشيء فابك للحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فإنّه ذُبِحَ كما يُذبح الكبش، وقُتِل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً، ما لهم في الأرض شبيهون.

ولقد بكت السّماوات السّبع والأرضون لقتله، ولقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره، فوجدوه قد قتل، فهم عند قبره شعث غبر إلى أن يقوم القائم، فيكونون من أنصاره، وشعارهم يا لثارات الحسين.

يا ابن شبيب، لقد حدثني أبي عن أبيه عن جدّه أنّه لما قتل جدي الحسين أمطرت السّماء دماً وتراباً أحمر.

يا ابن شبيب، إن بكيت على الحسين حتى تصير دموعك على خدّيك غفر الله لك كل ذنب أذنبته صغيرا كان أو كبيرا، قليلا كان أو كثيرا.

يا ابن شبيب، إن سرَّكَ أن تلقى الله عز وجل ولا ذنب عليك، فزُر الحسين عليه السلام.. يا ابن شبيب، إن سرّك أن تسكن الغرف المبنية في الجنّة مع النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فالعن قتلة الحسين.

يا ابن شبيب، إن سرّك أن يكون لك من الثّواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين فقل متى ما ذكرته: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

يا ابن شبيب، إن سرّك أن تكون معنا في الدّرجات العُلى من الجنان، فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا، فلو أن رجلاً تولّى حجراً لحشره الله معه

يوم القيامة[٢٦].

حزن أبناء الرّضا عليه السلام

أكّد لنا التاريخ أنّ الأئمة الطاهرين عليهم السلام الذين خلفوا الإمام علي الرّضا عليه السلام عُرِّفوا به بين عامّة النّاس، وكان يُدعى واحدُهم بابن الرضا، نظراً لشهرته عليه السلام وانتشار إسمه كوليّ للعهد في البلاط العبّاسي، ويُعدّ تسنّمه الجبري لهذا المنصب آخر ظهور قويّ للإمامة على السّاحة السّياسيّة أو الإجتماعيّة، ثمّ ينحدر مستوى الظّهور والبروز من بعد ذلك إلى أقصى صور البُعد عن السّاحة.

وتوالى الحكّام من بني العبّاس على كرسيّ الخلافة محمّلين بأعباء التجربة التي أودت بشخصيّة المأمون السّياسية، فعمل التّالون له على إقصاء آل علي عليه السلام ومنابذة ساداتهم الأئمة عليهم السلام وعزلهم عن المجتمع بكلّ عزم وجد، وبالغ أسلافهم في حرب الشعائر المتّصلة بالعلويّين، وتفنّنوا في بناء السّدود بين الأمّة والأئمة عليهم السلام حتّى أقصوهم عن حواضر الدّولة الإسلاميّة ونفوهم إلى أقصى القُرى.

وفي هذا الظرف الصعب نهض الأئمة الطاهرون عليهم السلام بأعباء شعائر الحزن على جدّهم الإمام الحسين عليه السلام بعناء كبير، واستغلّوا المتنفّسات البسيطة ليقولوا كلمتهم في أحلك الظروف وأعتاها، فعمل الإمام محمّد بن علي الجواد عليه السلام، وولده الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام، وولده الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام على تقوية الشعائر تبعاً للسياسة التي كان يمارسها الخلفاء

---

(٢٦) راجع عيون أخبار الرضا عليه السلام (١/٢٩٩)، أمالي الصدوق ص (١٢٩)، إقبال الأعمال ص (٥٤٤)، بحار الأنوار (٤٤/٢٨٥) و (٩٨/١٠٢) ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٢).

العباسيون وسلطاتهم تجاه شيعتهم الأبرار، فكانوا يقيمونها سرّا في الأعم الأغلب، وتارة تُمنع حتّى إذا كانت سرّاً !!

فلمّا صاهر المأمون العبّاسي الإمام الجواد عليه السلام وزوّجه ابنته أم الفضل تساهل في أمر أحزان العلويّين على الإمام الحسين عليه السلام، فقد كانت المجالس تقام في دور العلويين علناً دون أي ضغط، واستمرت هذه الحالة إلى عهد المعتصم الذي كان يسعى لمراعاة شعور العلويين والموالين لآل البيت عليهم السلام، فكان يسمح لهم بإقامة المناحات الحسينية في دورهم وخارجها سراً وعلناً.

ثم تشدّد الحكّام الذين خلَفوا المعتصم في أمر الشعائر الحسينية، وضيّقوا الخناق على الأئمة الطاهرين عليهم السلام وشيعتهم ومواليهم، ومنعوهم من إقامتها بكل وسيلة، غير أنّ الشيعة الذين لم يقيموا العزاء علناً لم يمتنعوا عن إقامتها سراً في دورهم.

وينقل التّاريخ أنهم كانوا يسدلون الأستار على الأماكن التي كانوا يقيمون فيها شعائر الحزن، سواء كانت في دورهم أو عند قبور الأئمة الطاهرين عليهم السلام، وكانوا يقصدون قبر الإمام الحسين عليه السلام بكربلاء، وقبر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في النجف الأشرف، وقبري الإمامين الجوادين عليهما السلام في الكاظميّة وهو المكان المعروف وقتها بمقابر قريش، وعند التحرّي نجد أنّ أخبار إقامة الشّعائر الحسينيّة على عهد الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام شحيحة جدّاً.

حزن الإمام المنتظر عليه السلام

الإمام صاحب الزّمان عليه السلام هو وارث الحزن الحسيني، وتالي الإمام زين

العابدين عليه السلام في حزنه وبكائه، إن لم يكن معه في رتبته، فهو الوليّ ثأر جدّه عليه السلام وحامل راية تِرتِه، والثّائر الذي يملأها قسطاً وعَدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً، والأخبار تصرّح بأنّ المنطَلَق في نهضته بعد مكّة والمدينة.. كربلاء !!

يعيش المولى صاحب الزّمان عليه السلام في غيبته في أشجى حالات الحزن والمصيبة والوجد والكمَد، ومصاب جدّه الشهيد عليه السلام شاخصٌ أمام ناظره، ولا شكّ في أنّ أفضل المقرّبات إليه الحزن على جدّه عليه السلام والبكاء عليه.

ورَوَى المحدّثون زيارتين جليلتين عنه عليه السلام تُعرب عن كمده، أمّا الأولى فإنّه عليه السلام يزور فيها الشّهداء شهيداً بعد شهيد، ويذكر أسماءَ من استُشهد بين يدي جدّه عليه السلام، وأمّا الثّانية فإنّه عليه السلام يُبدي فيها أحزَانه ولواعجه تجاه المصيبة التي تصغر عندها مصائب الدّنيا، وفيها يستعرض بعض المشاهد المؤلمة ضمن مسلسل الأحداث المهيّجة الواقعة على مسرح الطّف، وهي كفيلةٌ بإذكاء لوعة الحزن الحسيني وشبّ لوعته على مرور الليالي والأيّام، ويكفينا أن نمر ببعض فقراتها.

فلقد قال تالي السلف ومعدن الشرف عليه السلام: " السلام على المرمّل بالدماء، السلام على المهتوك الخباء، السلام على خامس أصحاب أهل الكساء، السلام على غريب الغرباء، السلام على شهيد الشهداء، السلام على قتيل الأدعياء، السلام على ساكن كربلاء، السلام على من بكته ملائكة السماء ".

ويقول عليه السلام: " السلام على الجيوب المضرّجات، السلام على الشّفاه الذابلات، السلام على النفوس المُصطلمات، السلام على الأرواح المختلسات، السلام على الأجساد العاريات، السلام على الجسوم الشّاحبات، السلام على الدّماء السّائلات، السلام على الأعضاء المقطّعات، السلام على الرؤوس

المشالات، السلام على النسوة البارزات ".

ويقول عليه السلام : " السلام على القتيل المظلوم، السلام على أخيه المسموم، السلام على علي الكبير، السلام على الرضيع الصغير، السلام على الأبدان السليبة، السلام على العترة القريبة، السلام على المجدّلين في الفلَوات، السلام على النازحين عن الأوطان، السلام على المدفونين بلا أكفان، السلام على الرؤوس المفرقة عن الأبدان ".

ويقول عليه السلام : " السلام على من هُتكت حرمتُه، السلام على من أريق بالظلم دمُه، السلام على المغسّل بدم الجراح، السّلام على المجرع بكاسات الرّماح، السلام على المُضام المستباح، السلام على المنحور في الورى، السلام على من دفنه أهل القرى ".

ويقول عليه السلام : " السّلام على المقطوع الوتين، السلام على المحامي بلا معين، السلام على الشيب الخضيب، السلام على الخد التريب، السلام على البدن السليب، السلام على الثغر المقروع بالقضيب، السلام على الرأس المرفوع، السلام على الأجسام العارية في الفلوات، تنهشها الذئاب العاديات، وتختلف إليها السباع الضّاريات ".

ويقول عليه السلام : " السّلام عليك، سلام العارف بحرمتك، المخلص في ولايتك، المتقرب إلى الله بمحبتك، البريء من أعدائك، سلام من قلبه بمصابك مقروح، ودمعه عند ذكرك مسفوح، سلام المفجوع الحزين، الواله المستكين ".

ويقول عليه السلام : " سلام من لو كان معك بالطفوف، لوقاك بنفسه حد السيوف، وبذل حشاشته دونك للحتوف، وجاهد بين يديك، ونصرك على من

بغى عليك، وفداك بروحه وجسده، وماله وولده، وروحه لروحك فداء، وأهله لأهلك وقاء.

فلئن أخّرتني الدّهور، وعاقني عن نصرك المقدور، ولم أكن لمن حاربك محارباً، ولمن نصب لك العداوة مناصباً، فلأندبنّك صباحاً ومساءً، ولأبكينّ لك بدل الدّموع دماً، حسرة عليك وتأسّفاً، على ما دهاك وتلهّفاً، حتّى أموت بلوعة المصاب، وغصّة الإكتئاب ".

ويقول عليه السلام: " قد عجبت من صبرك ملائكة السماوات، فأحدقوا بك من كل الجهات، وأثخنوك بالجراح، وحالوا بينك وبين الرواح، ولم يبق لك ناصر، وأنت محتسب صابر، تذب عن نسوتك وأولادك، حتى نكسوك عن جوادك، فهويت إلى الأرض جريحاً، تَطَؤُك الخيول بحوافرها، أوتعلوك الطّغاة ببواترها، قد رشح للموت جبينك، واختلفت بالانقباض والإنبساط شمالك ويمينك، تدير طرفاً خفيّاً إلى رحلك وبيتك، وقد شُغلت بنفسك عن ولدك وأهاليك.

وأسرع فرسُك شارداً، إلى خيامك قاصداً، محمحماً باكياً، فلمّا رأين النّساء جوادك مخزيّاً، ونظرن سرجَك عليه ملويّاً، برزن من الخدور، ناشرات الشعور، على الخدود لاطمات، الوجوه سافرات، وبالعويل داعيات، وبعد العزّ مذللات، وإلى مصرعك مبادرات، والشّمر جالس على صدرك، ومولغ سيفه على نحرك، قابض على شيبتك بيده، ذابح لك بمهنده، قد سكنت حواسك، وخفيت أنفاسك، ورفع على القناة رأسك ".

ويقول عليه السلام: " وسُبي أهلك كالعبيد، وصفّدوا في الحديد، فوق أقتاب المطيّات، تلفح وجوههم حر الهاجرات، يساقون في البراري والفلوات، أيديهم

مغلولة إلى الأعناق، يطاف بهم في الأسواق ".

ويقول عليه السلام: " فقام ناعيك عند قبر جدك الرسول صلى الله عليه وآله، فنعاك إليه بالدمع الهطول، قائلا: يا رسول الله، قتل سبطك وفتاك، واستبيح أهلك وحماك، وسبيت بعدك ذراريك، ووقع المحذور بعترتك وذويك، فانزعج الرسول، وبكى قلبه المهول، وعزّاه بك الملائكة والأنبياء، وفجعت بك أمّك الزهراء، واختلف جنود الملائكة المقرّبين، تعزّي أباك أمير المؤمنين، وأقيمت لك المآتم في أعلى علّيين، ولطمت عليك الحور العين، وبكت السّماء وسكانها، والجنان وخزانها، والهضاب وأقطارُها، والبحار وحيتانها، والجنان ووُلدانها، والبيت والمقام، والمشعر الحرام، والحل والإحرام "(٢٧).

ولدى التأمّل في هذا النّص الشريف نعرف أنّ أحزان المولى صاحب الأمر عليه السلام تفوق أحزان الجميع على مصاب جدّه عليه السلام، خصوصاً بعد التأمّل في قوله: " فلأندبنّك صبَاحاً ومساءً، ولأبكينّ لك بدَلَ الدّموع دماً، حسرةً عليكَ وتَأسُّفاً، على ما دهاك وتلهّفاً، حتّى أموت بلوعة المصاب، وغصّة الإكتئاب ".

أمّا الشّيعة فإنّهم اختزلوا هذه الصّور المؤلمة التي نفَثَها مصدور الأئمة عليهم السلام وولي ثأرهم، وتلقّوا تكليفهم بالبكاء والحزن من إمام زمانهم بتلقائيّة، وعرفوا على رغم كل الصّعاب وتحت وطأة أشدّ الظروف في زمني الحضور والغيبة أنّ

(٢٧) راجع بحار الأنوار (٣١٨/٩٨ - ٣٢٢) ضمن الزّيارة المرويّة عن النّاحية المقدّسة على صاحبها آلاف التحية والصلاة والسّلام، ولنا شرحٌ على فقراتها، نسأل الله تعالى بمنّه وكرمه أن يلهمنا الخير والصواب في إتمامه، ويوفّقنا لنيل عناياته ومراضيه وأداء حقوقه، وأن يجمعنا تحت لوائه المنصور، وأن يعجّل فرجه ويطيل في عمره الشريف، ويشركنا في دعائه.

أئمتّهم الأبرار عليهم السلام قد أمروهم بنشر الحزن وإقامة الشعائر الحسينية عند القدرة بحسب سعة الظّرف، وتناقلوا الأدوار وتبادلوها تبعاً لأئمتهم عليهم السلام.

وكان لهذه النّصوص الشريفة الأثر البالغ في تعبأة نفوس الشيعة على مرور الليالي والأيّام، فأخذَت هذه المحفّزات دورَها وقامت بتأثيرها المطلوب، فترجمها الموالون والمحبّون أدواراً يُظهرون فيها ولاءهم لساداتهم عليهم السلام عبر مظاهر الحزن المختلفة، كمجالس العزاء والبكاء ومواكب العزاء واللطم وكتابة الشّعر وإنشاده وكتابة الكتب والمقالات، وغير ذلك ممّا ثبت رُجحانه وجزيل الثواب عليه، حتّى صار الحزن على الإمام الحسين عليه السلام صرحاً قائماً بذاته، تزول الليالي ولا يزال، من صارعه صرعه، ولا تقوى قوّة مهما اشتدّت أن تنال شيئاً من عظمته، وهكذا ينمّي ربّنا أعمال المتّقين المخلصين حين يتقبّل منهم.

ويجدر بنا التأمّل والوقوف على هذا الحديث الذّهبي الذي رواه شيخ الطائفة رحمه الله بالإسناد إلى أبان بن تغلب، عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام قال: نَفَسُ المهموم لظُلمِنَا تسبيح، وهمُّهُ لنَا عبادة، وكتمانُ سرّنَا جهادٌ في سبيل الله.

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: يجب أن يكتب هذا الحديث بالذّهب[٢٨].

---

(٢٨) راجع أمالي الطوسي ص (١١٥)، وبحار الأنوار (٢/٦٤) و (٤٤/٢٧٨)، والكافي (٢/٢٢٦)، وأمالي الشيخ المفيد ص (٣٣٨)، وبشارة المصطفى ص (١٠٥).

وقال العلامة المجلسي رحمه الله في بيان الحديث ما حاصله: نفس المهموم لنا: أي المتفكر في أمرنا الطالب لفرجنا، أو المغتم لعدم وصوله إلينا، المغتم لمظلوميّتنا، تسبيح: أي يكتب لكل نفس ثواب تسبيح، وهمّه لنا: أي اهتمامه بخروج قائمنا وسعيه في أسبابه ودعاؤه لذلك عبادة، أي ثوابه ثواب المشتغل بالعبادة، وكتمان سرنا جهاد: لأنه لا يحصل إلا بمجاهدة النفس.

وفيه يُفصح الإمام عليه السلام عن حقيقة مقام المؤمن المكتئب لمصابهم، فهو في منزلة الملائكة المسبّحين المنزّهين الذين لا يفترون عن تسبيحهم لله تعالى، وهو في ضيافة الله تعالى تماماً كالصّائم الذي استجمع شرائط الصّيام فاستحق بأنفاسه بلوغ درجة التسبيح الملائكي في شهر رمضان، لقول المصطفى صلى الله عليه وآله : " أنفاسكم فيه تسبيح " .

فآهات المهموم المحزون لما ارتُكب في حقّهم عليهم السلام تسبيحٌ بحمد الله تعالى وقدسه وتنزيهٌ له ممّا لا يليق، وهمّه لهمّهم عليهم السلام عبادة مقدّسة، فالمهموم لهم في مقام العبّاد المتمحّضين للعبادة له عزّ وجل.

ولقد احتل هذا الخبر وأمثاله محلّ الأساس في وجدان الشيعة، فانطلقوا من حيث شاء الأئمة عليهم السلام ، وفَقه شيعة أهل البيت عليهم السلام أكبر الدّروس الحسينية من تلك الأخبار ولم تمنعهم غيبة وليّهم عليه السلام عن تشييد هذا الشّعار بكلّ جدٍّ وحزم، رغم ضيق الظّروف وتعرّضهم للمخاطر وتضافر الزّمان عليهم، فجزاهم الله تعالى خيراً عن أئمتهم الأبرار عليهم السلام ووفّقنا الله للسيّر على خُطاهم، وحشرنا معهم ورزقنا توفيق الإستقامة على منهاجهم، ووَفّقَنا لأداء حقوقهم ونيل مرضاتهم، وأمدّ أجيالَنا القادمة بتسديداته وعناياته، وزاد في شرفنا بهم في الدُّنيا والآخرة، إنّه سميع الدّعاء.

شعيرة المأتم

يرتبط الحزن بطبيعة الحال بالمأتم، وهو المجلس الذي يعدّه أهل المصائب لتعديد مصائبهم، وتتداخل هذه الشعيرة في شعيرة المجالس، إلاّ أنّي أعتقد أن المآتم

هي المجالس التي عرفها العرب وأقامها الأئمة عليهم السلام قبل أن تتطوّر إلى ما هي عليه اليوم، وهي المقتصرة على جانب الحزن والمصيبة دون أيّ ضميمة أخرى.

واهتمّ أهل البيت عليهم السلام بوسيلة المأتم كقناة إعلامية دارجة يتأثّر بها العرب في نشر ظلاماتهم وإلفات النظر إليهم، ووجّهوها لإحياء أمرهم، ورُوِي في عيون الأخبار بسنده إلى الوشاء أن الإمام الرّضا عليه السلام قال له: إني حيث أرادوا الخروج بي من المدينة جمعت عيالي فأمرتهم أن يبكوا عليّ حتى أسمع، ثم فرّقت فيهم اثني عشر ألف دينار، ثم قلت: أما إني لا أرجع إلى عيالي أبداً[٢٩].

ورُوِيَ في الكافي بسنده إلى يونس بن يعقوب عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: قال لي أبي: " يا جعفر، أوقف لي من مالي كذا وكذا لنوادب يندبني عشر سنين بمنى أيّام منى[٣٠].

والهدفُ من ذلك ليس مجرّد ذرف الدّموع، فقد اختار الموسم والمكان ليصل صوتُهُ إلى أقصى عدد ممكن من المسلمين، فيبعثهم للسؤال عن سبب البكاء وعن شخصيّة المبكي عليه، ولكي يتفرّق النّاس راجعين لديارهم محمّلين بأنباء ظلامة أهل البيت عليهم السلام ومصيبتهم بشكل لا يمكن للسلطات الحاكمة مكافحته !!

وأخذت المآتم الحسينيّة طابع الرمزيّة التي تنطوي على عموم رزايا أهل البيت عليهم السلام ومحنهم، وانطلَقَت منذ اليوم الأوّل لسقوطه على تراب كربلاء، وكانت

---

(٢٩) راجع عيون أخبار الرضا (٢١٨/٢)، وبحار الأنوار (٥٢/٤٩ و ١١٧)، وإعلام الورى ص (٣٢٥)، والخرائج والجرائح (٣٦٣/١)، ودلائل الإمامة ص (١٧٦)، وكشف الغمة (٣٠٥/٢)، والمناقب (٣٤٠/٤).

(٣٠) راجع الكافي (١١٧/٥)، وتهذيب الأحكام (٣٥٨/٦)، ووسائل الشيعة (١٢٥/١٧).

الشّام " عاصمة الحكم الأموي " المهد الذي احتضن مآتم الأسرة النبويّة في بداياتها، فقد ذكر أبو مخنف: أن يزيد (لعنه الله) أمر بأن يُصلب الرأس على باب داره وأمر بأهل بيت الحسين عليه السلام أن يدخلوا داره، فلمّا دخلت النسوة دار يزيد لم يبق من آل معاوية ولا أبي سفيان أحد إلاّ استقبلهن بالبكاء والصراخ والنياحة على الحسين عليه السلام وألقين ما عليهن من الثياب والحلي وأقمن المأتم عليه ثلاثة أيام(٣١).

وظلّت كربلاء عاصمة المأتم الحسيني الأولى التي يقصدها الشيعة لتجديد الأحزان والأشجان، ومنها انتشرت أصداء الحزن إلى سائر البقاع التي تدين بولاء أهل البيت عليهم السلام، ففي حديث عبد الله بن حمّاد البصري عن الإمام الصّادق عليه السلام: بلغني أن قوماً يأتونه من نواحي الكوفة أناساً من غيرهم، ونساء يندبنه، وذلك في النصف من شعبان، فمن بين قارئ يقرأ وقاص يقص ونادب يندب وقائل يقول المراثي.

فقلت: نعم، جعلت فداك، قد شهدت بعض ما تصف.

فقال: الحمد لله الذي جعل في الناس من يفد إلينا، ويمدحنا ويرثي لنا، وجعل عدوّنا من يطعن عليهم من قرابتنا وغيرهم، يهدّدونهم، ويقبحون ما يصنعون(٣٢).

وسيأتي في شعيرة المجالس استيفاء الحديث حولها وتطوّرها إلى ما هي عليه اليوم، فالمآتم الحسينية التي عقدها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام هي النويّات الصغيرة

(٣١) راجع بحار الأنوار (١٤٣/٤٥).

(٣٢) راجع كامل الزيارات ص (٣٢٥)، ووسائل الشيعة (٥٩٩/١٤)، وبحار الأنوار (٧٣/٩٨).

التي امتدّت جذورها اليوم في أعماق واقع الشيعة ووجدانهم، وقد هيأ إبداع الشّعراء والرّثاة والخطباء لبلوغ الذروة المأمولة من مشروع المأتم الحسيني.

شعيرة لبس السّواد

وأصبح السّواد في أيّام عاشوراء من جملة شعائر الحزن الواضحة التي تلازم الشّيعة في لباسهم وراياتهم ومجالسهم ومواكبهم، فاللون الأسود هو لون الحزن القاتم الذي يتّشح به المحزونون، وبطبيعته يرمز إلى المأتم، ومجرّد النظر إليه موجب للإنقباض والكآبة، واعتاد أهل المصائب على ارتدائه كعلامة ملفتة يُعرفون بها، وهي عادة قديمة وجذورها ممتدّة قبل الإسلام، ولم تختصّ بالمسلمين وحدهم، فالألوية والشرائط السّوداء علامة الحزن أو الكارثة في أغلب الحضارات، وهو تعبير يدركه شعور الإنسان.

ووَرث الشيعة هذه الشعيرة الحسينية وأخذت طابع المظهر في أيّام أحزانهم على الإمام الحسين عليه السلام، فهم يرفعون الرّايات السّوداء، ويكسون المآتم والحسينيّات وربّما بعض البيوت بالقماش الأسود مع هلال المحرّم، تعبيراً عن تفجّعهم وحزنهم واكتئابهم، وللسّواد إيحاء خاص في نفوسهم، وانعكاس مخصوص على أرواحهم، فهو يمتاز على البكاء بالدّوام، وطبيعي أن يُستحب في عزاء الإمام عليه السلام بناءً على العمومات الواردة في تجديد العزاء، وصيرورته من جملة الشّعائر الرّاجحة على سيّد الشّهداء عليه السلام.

ووَردت رواياتٌ تنهى عن لبس السّواد مطلقاً، محمولة على الكراهة، وهي منصرفة إلى جعل السّواد شعاراً على نحو ما فعل فرعون ويفعل القس

والرّهبان، وكما فعل بنو العبّاس، فهي تكرّه لبس السّواد باعتباره شعاراً لأعداء الله تعالى، لا لمصيبة أو كما فعل الأئمة عليهم السلام وشيعتهم، ووردت جملة كبيرة من الرّوايات تؤكّد لبس النبي صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام للسّواد في موارد الحزن وغير الحزن.

وأورد المرحوم الفقيه المحدّث الشّيخ يوسف البحراني رحمه الله في الحدائق تلك الرّوايات النّاهية ثمّ عقّب عليها بقوله: " ولم يستبعد استثناء لبس السّواد في مأتم الحسين عليه السلام من هذه الأخبار لما استفاضت به الأخبار من الأمر بإظهار شعائر الأحزان عليه ".

وأثبت النقل ارتداء العترة له حزنا على الإمام الحسين عليه السلام بحضور الإمام زين العابدين عليه السلام، ففي المحاسن بسنده إلى عمر بن علي بن الحسين قال: لما قُتل الحسين بن علي (صلوات الله عليه) لبس نساء بني هاشم السواد والمسوح، وكنّ لا يشتكين من حر ولا برد، وكان علي بن الحسين يعمل لهن الطعام للمأتم(٣٣).

وظلّ السّواد شعاراً واضحاً من شعائر المحرّم عند أهل البيت عليهم السلام حتّى وصل إلينا بالسيرة المتّصلة، وعُرف به شيعة الآل في أيّام عاشوراء، ويبدو أنّهم كانوا يلبسونه من أول المحرّم ولا ينزعونه إلى اليوم التاسع من شهر ربيع الأوّل.

وروَى السيّد ابن طاووس رحمه الله في الإقبال بسنده إلى الإمام الرّضا عليه السلام في حديث يُبيّن فيه فضل اليوم التّاسع من ربيع: " هذا يوم الإستراحة، ويوم تنفيس الكربة، ويوم الغدير الثاني، ويوم تحطيط الأوزار، ويوم الخيرة، ويوم رفع

---

(٣٣) راجع المحاسن (٢/٤٢٠)، وبحار الأنوار (٤٥/١٨٨) و (٧٩/٨٤)، ووسائل الشيعة (٣/٢٣٧).

القلم، ويوم الهدو، ويوم العافية، ويوم البركة، ويوم الثارات، ويوم عيد اللّه الأكبر، ويوم يستجاب فيه الدعاء، ويوم الموقف الأعظم، ويوم التوافي، ويوم الشرط، **ويوم نزع السواد**(٣٤).

ودلالة الحديث ظاهرةٌ في لبس السّواد إلى ما قبل اليوم التّاسع من ربيع الأوّل، وهي سيرة لازالت مطّردة عند أعلامنا وعلمائنا، وقد عدّ العلاّمة الفاضل السيّد محمّد رضا الحسين الحائري في كتابه القيّم " نجاة الأمّة " أسماء عدّة من العلماء الأعلام ممّن قال باستحباب لبس السّواد في أيّام عاشوراء، كما أورد أسماء عدّة منهم من الملتزمين بالسّواد طيلة شهري المحرّم وصفر والفاطميّة(٣٥).

شعيرة الإطعام

أخذ الإطعام في يوم عاشوراء صورة الظّاهرة والشّعار في أيّام عاشوراء وسائر المناسبات المرتبطة بشهادة الأئمة عليهم السلام، وعُرِفَ الشّيعة بهذه الشعيرة الحسينيّة، وأصبح قصد المآتم للتبرّك بالطّعام سُنّة جارية في أيّام المجالس، وفي بلادنا يعتمد الشّيعة في طعامهم على الحسينيّات، ومعهم كثيرٌ من أهل السنّة.

وارتبطت هذه الشعيرة بالحزن ومقتضى المصيبة من حيث المنشأ، فعادة ما

---

(٣٤) راجع إقبال الأعمال ص (٤٦٤)، وبحار الأنوار (١٢٦/٣١)، ومستدرك الوسائل (٣٢/٣).

(٣٥) راجع كتاب النجاة للحائري ص (٩٥ و ٩٦)، وعدّ من القائلين بالإستحباب: المحدّث الشيخ يوسف البحراني رحمه الله في الحدائق، والمرحوم الفاضل الدربندي رحمه الله في أسرار الشهّادة، والشّيخ النوري رحمه الله في مستدرك الوسائل، وغيرهم.. وعدّ من الملتزمين بلبس السّواد طيلة الشّهرين والفاطميّة: الإمام السيد محسن الحكيم رحمه الله، والآية الميرزا مهدي الشيرازي رحمه الله، والفقيه السيّد أبو القاسم الخوئي رحمه الله، وغيرهم.

ينشغل أهل العزاء عن الطّعام وإعداده بالأحزان والمأتم، ولابدّ وفقاً للآداب التي سنّها الإسلام من تصدّي من يحمل مهمّة الإطعام في هذا الظّرف، وبما أنّ الشّيعة في أيّام عاشوراء في مأتم وعزاء وبكاء، وهم مشغولون عن إعداد الطّعام بالمصيبة، فيتصدّى بعض الأخيار لإعداد الطّعام وتقويتهم على الشّعائر، مضافاً لما في تناوله من التبرّك بالطعام المعدود باسم الإمام الحسين عليه السلام، فيأكل منه الفقراء والأغنياء على حدّ سواء.. وأصبح الإطعام من لوازم المأتم الحسيني، وبه تنتظم دائرة العزاء، وهو من وظائف الشيعة الجليلة التي قدّمنا الكلام فيها.

ووَرَد في عموم الإطعام ما رُوِيَ في أمالي الطوسي بإسناد إلى هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما مات جعفر بن أبي طالب أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة عليها السلام أن تتّخذ طعاماً لأسماء بنت عميس وتأتيها ونساؤها ثلاثة أيام، فجرت بذلك السنة، أن يصنع لأهل الميت ثلاثة أيام طعام[٣٦].

ورُوِي في الكافي مسنداً إلى حريز عن زرارة أو غيره قال: أوصى أبو جعفر عليه السلام بثمانمئة درهم لمأتمه، وكان يرى ذلك من السُّنّة، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: اتخذوا لآل جعفر طعاماً فقد شُغلوا[٣٧].

---

(٣٦) راجع أمالي الطوسي ص (٦٥٩)، والكافي (٢١٧/٣)، وبحار الأنوار (٥٤/٢١) و (٨٢/٧٩ و ٨٣)، ووسائل الشيعة (٢٣٦/٣)، ووسائل الشيعة (٣٦٤/٢٤)، والمحاسن (٤١٩/٢).

(٣٧) راجع الكافي (٢١٧/٣)، وقد وردت الرّواية بألفاظ متفاوتة ومتطابقة في وسائل الشيعة (٢٣٧/٣ و ٢٣٨)، ومستدرك الوسائل (٣٧٩/٢)، وبحار الأنوار (٥٥/٢١ و ٦٣) و (٢١٥/٤٦) و (٨٣/٧٩)، والجعفريات ص (٢١١)، وشرح نهج البلاغة (٧/١٥)، وعوالي

ورُوِيَ في الكافي مسنداً إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ينبغي لجيران صاحب المصيبة أن يُطعموا الطّعام عنه ثلاثة أيّام[٣٨].

ويُعلم من ذلك أنّ تكفّل الإطعام لأصحاب المصائب من آداب الإسلام التي حثّ عليها، وأمّا في خصوص الإطعام في عزاء ومأتم الإمام الحسين عليه السلام فقد مرّت قريباً رواية المحاسن بإسناد إلى عمر بن علي بن الحسين..

قال: لمّا قُتِلَ الحسين بن علي (صلوات الله عليه) لبس نساء بني هاشم السَّواد والمسوح، وكنّ لا يشتكين من حرّ ولا برد، وكان علي بن الحسين عليه السلام يعمل لهن الطعام للمأتم[٣٩].

وتأمّل معي في هذا الخبر لترى مكمن العجب! فإنّ الإمام زين العابدين عليه السلام يقوم بنفسه بإعداد الطّعام ليقوّي نساء أهل البيت عليهم السلام على البكاء والعزاء! ويؤدّي ذلك إلى عظمة هذه الوظيفة وجلالة شأنها، وبفعله عليه السلام تطوّر الحال إلى أن أخذ اليوم عنوان الشعيرة الحسينيّة، وعُرف الشّيعة به في كلّ بلد.

ورُوِيَ في الكافي بسنده إلى مصقلة الطحّان أنّه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لمّا قتل الحسين عليه السلام أقامت امرأته الكلبية عليه مأتماً وبكت وبكين النساء والخدم حتى جفت دموعهن وذهبت، فبينا هي كذلك إذا رأت جارية من جواريها تبكي ودموعها تسيل فدعتها، فقالت لها: ما لك أنت من بيننا تسيل

اللآلي (١٥/٤)، والمحاسن (٤٢٠/٢).

(٣٨) راجع الكافي (٢١٧/٣)، ووسائل الشيعة (٢٣٧/٣).

(٣٩) راجع المحاسن (ج٢/ص٤٢٠)، وبحار الأنوار (ج٤٥/ص١٨٨) و (ج٧٩/ص٨٤)، ووسائل الشيعة (ج٣/ص٢٣).

دموعك ؟ قالت: إني لّما أصابني الجهد شربت شربة سويق، قال: فأمرت بالطعام والأسوقة فأكلت وشربت وأطعمت وسقت، وقالت: إنما نريد بذلك أن نتقوى على البكاء على الحسين عليه السلام(٤٠).

ولا شكّ أن سقي الماء له فضل كبير، ويتأكّد استحبابه عند قبر الإمام الحسين عليه السلام وقد مرّ ذلك، وأوردنا رواية المدائني: " من سقى يوم عاشوراء عند قبر الحسين عليه السلام كان كمن سقى عسكر الحسين عليه السلام وشهد معه " وأصبح السقي اليوم للماء وغيره من مظاهر الشيعة في شهر المحرّم أيضاً، ومن الشعائر الحسينية المهمّة، ويتبرّع المؤمنون للتصدّي لذلك ويبذل الأخيار الجهد والمال في سبيل الإبقاء على هذه المظاهر.

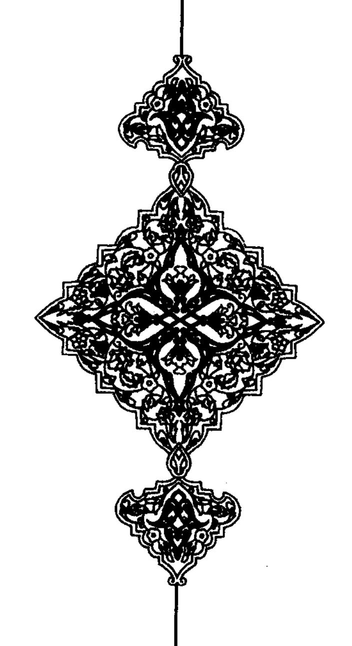
وتعتمد شعيرة الإطعام والسّقي وسائر الشعائر الحسينيّة على إنفاق الشيعة الأبرار ونذوراتهم بشكل كبير، ولم يستقم أمر هذه المظاهر كلّها لولا بذل الأسخياء قربة لله تعالى وتقرّباً إلى أهل البيت عليهم السلام، وتعتمد الحسينيّات في إطعامها وفي إدارة برامج العزاء على صِلة الطيّبين لأئمتهم عليهم السلام والنّذور التي أصبحت اليوم تشكّل صندوقاً مستقلاً لدعم مسيرة العزاء وشعائر المذهب.

---

(٤٠) راجع الكافي (٤٦٦/١)، ومستدرك الوسائل (٣٣٨/١٦)، وبحار الأنوار (١٧٠/٤٥).
وتتمّة الخبر: وقال عليه السلام: وأهدي إلى الكلبية جوناً لتستعين بها على مأتم الحسين عليه السلام فلمّا رأت الجون قالت: ما هذه ؟ قالوا: هدية أهداها فلان لتستعيني بها على مأتم الحسين عليه السلام فقالت: لسنا في عرس، فما نصنع بها، ثم أمرت بهن فأخرجن من الدار، فلمّا أخرجن من الدار لم يحس لها حس كأنما طرن بين السّماء والأرض ولم ير لهن بعد خروجهن من الدار أثر.

الشعيرة الثانية

البكاء



البكاء

البكاء حالةٌ تبلغها النفس البشريّة حين يبلغ بها التأثّرُ درجةً أعلى من أن يَفِيَ بها القولُ، فيفيض الدّمعُ ليؤدّي ما لا يؤدّيه القول ليُطلِق الشّحنة العاطفيّة الحبيسة من التأثّر العميق العنيف، والبكاء عنوان النفس الصّادقة، وترجمان الشعور الرّاقي، ورشحة الروح الرقيقة، والحقيقة التي ترقى على الرّياء والتصنّع.

القَولُ يكذبُ تارةً وَ يخونُ   لكنَّ دمعيَ صادقٌ مأمونُ

ولا يمكن لعاقلٍ أن يذمّ بكاء الحزن أو ينهى عنه، لأنّه أمر غير اختياري أصلاً، كما أنّ بكاء الفرح كذلك، وذكر ابن حجر من فوائد الحديث: أنّ البكاء الذي يجلبه الحزن غيرُ مذمومٍ، وأنّ المرء قد لا يملك دمعَه إذا غلب عليه الغيظ، وفيه ما رُكّب في الإنسان من الأسف؛ على فَوْت ما فيه نفعُهُ وما يحتاج إليه[1].

ولم يختلف العرب عن غيرهم من بني الإنسان في لوازم الإنسانيّة وطبائعها، بل ويمكننا القول بأنّهم زادوا على غيرهم بفيض الوجدان وحنين الشعراء ولواعج الرّثاء، فهرعوا إلى البكاء تعبيراً عن مشاعرهم عند فقْدانِ الأحبّة والخِلّان ومُفارَقة الأوطانِ أو تذكُّرِ سالفِ الأزمانِ..

---

(١) راجع فتح الباري (٦/٣٢١).

قال امرؤ القيس:

قِفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فحَوْمَلِ
وإنّ شفائي عَبْرَةٌ لو سفحتُها وهل عند رَسْمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ
كأنّي غداةَ البَيْنِ يومَ تحمّلوا لدى سَمُراتِ الحيِّ ناقفُ حَنْظَلِ
ففاضتْ دموعُ العينِ مِنّي صَبابَةً على النّحر حتى بلّ دمعيَ محمَلي[(١)]

والبكاءُ تعبيرٌ إنساني نبيلٌ، يُفصح عن شعورٍ أصيلٍ، يحبّ الإنسان إبداءه، فقد ذُكر أنّه دخل المنصور قصراً فرأى في جداره مكتوباً:

وما ليَ لا أبكي بعينٍ حزينةٍ وقد قُرِّبتْ للظاعنينَ حمولُ

وتحته مكتوبٌ: " إيه إيه". فقال المنصور: " أيّ شيءٍ إيه إيه ؟ فقال له الربيع: إنه لّما كتب البَيْتَ؛ أحبّ أن يُخبِر أنه يبكي. فقال له: قاتله اللهَ، ما كان أظرفَه. فكان هذا أول ما ارتفع به الربيع[(٢)].

وهو تعبير طبيعي يضطر إليه الإنسان بطبعه، ويُغنيه في بعض المواطن عن بسط وصف شعوره الكامن في باطن نفسه، وقد نظم القُشَيري في هذا المعنى فقال:

لو كنتَ ساعةَ بيْنِنا ما بَيْنَنَا وشهدتَ كيف نُكَرِّرُ التوديعا
أيقنتَ أنّ من الدّموع محدِّثاً وعلمتَ أنّ من الحديث دُموعا[(٣)]

---

(١) راجع جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص (١١٧) بتحقيق علي محمد البجاوي، وقال أبو زيد: الناقف: الذي يشقّ الحنظل؛ فتدمع عينه من مرارته، والصبابة: رقّة الشوق.

(٢) راجع جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص (١٩٠) بتحقيق علي محمد البجاوي.

(٣) راجع طبقات الشافعيّة الكبرى للسبكي (١٦١/٥)، وذكر ابن خلّكان في الوفيّات أنّ البيتين

ويبكي الإنسان لأغراض تقتضي ذلك، ويعكس بالدّمع شيمته ونفسه ومعالي شأنه وسموّ غاياته، أو عكس ذلك، فقد يذرف دموعه وفاءً مثلاً، وقال الأصمعي: إذا أردتَ أن تعرف وفاءَ الرجل ووفاءَ عهده، فانظر إلى حنينِه إلى أوطانه، وتشوّقِه إلى إخوانِه، وبكائِهِ على ما مضى من زمانِه[1].

وذكروا أنّ متمّم بن نُوَيْرَة - أخا مالك الذي قتله خالد بن الوليد - كان لا يمرّ بقبرٍ ولا يُذكَرُ الموتُ بحضرته إلاّ قال: يا مالك، ثم فاضتْ عَبْرتُه، وفي ذلك يقول:

وقالوا أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَه ... لقبرٍ ثوى بين اللِّوى فالدّكادكِ

فقلتُ لهم إنّ الأسى يبعث البكا ... ذَرُوني فهذا كلُّه قبرُ مالكِ[2]

وقد يذرف دموعه شوقاً وحنيناً، فالبكاء بريد العشاقِ ورسول الأشواق، وما أحسن قول علي بن أفلحَ في هذا الباب:

هذه الخيفُ وهاتيك مِنى ... فترفَّقْ أيها الحادي بنا

واحبسِ الرّكبَ علينا ساعةً ... نندب الرَّبْعَ ونبكي الدِّمَنا

فَلِذا الموقفِ أعددنا البُكا ... ولِذا اليومِ دُموعٌ تُقتَنَى

زمَناً كان وكنّا جيرَةً ... يا أعادَ اللهُ ذاك الزَّمَنا[3]

لذي القرنين بن حمدان، وكان القشيري يتمثّلهما، وقال: كان أبو القاسم القشيري كثيراً ما يُنشد لبعضهم. وفيّات الأعيان (٣/٢٠٧).

(١) راجع المجموع المنتخَب من المواعظ والأدب ص (٢٣٦).

(٢) راجع الزهرة لابن أبي داود (٢/٥٣٩).

(٣) راجع مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، لابن الجوزي ص (١٢٩).

وقال المتنبّي :

لا تَعْــذلِ المشــتاقَ في أشــواقِهِ   حتـى يكـون حَشـاكَ مـن أحشـائِهِ
إنّ القتيــلَ مضــرَّجاً بدموعِــهِ   مثـلُ القتيـلِ مضـرَّجاً بدمائِـه[1]

وقد يذرف دموعه حُزناً وشكاية، أو فرحاً وسروراً، كما حكى القرآن الكريم حالة المؤمنين الذين تفيض عيونهم بالدّمع تلهّفاً إلى نعيم الله تعالى، وبهجة من عندهم لانكشاف الحق، وفي ذلك يقول تعالى في كتابه: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾.

وقد يذرف دموعه مكراً وخداعاً وتصنّعاً، كما نقل القرآن الكريم في قصّة يوسف عليه السلام، إذ قال في خصوص أخوته: ﴿**وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ**﴾ وهو بكاءٌ مذموم، وقيل إن الدّمع المصنوع لا يخفى، وقيل :

إذا اشــتبكتْ دمــوعٌ في خُــدودٍ   تَبَــيَّنَ مَــنْ بَكَــى مِمَّــنْ تَبَــاكَى

وقد يذرف دموعه بين يدي ربّه الكريم، إنابة إليه وأوبة إلى رحمته، وخوفاً من شديد نكاله، ولقد كان بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يذرفون الدّموع بين يديه حين يعظهم، وهذا البكاء ثمرةُ العلمِ النافع، وقد قال سبحانه فيهم: ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا**﴾.

وقد يذرف دموعه ندماً على ما فرّط في جنب الله تعالى، وفي هذا المعنى شطّر الصنعاني أبيات المتنبي فأحسن:

---

(١) راجع ديوان المتنبي (١/ ٦).

القلبُ أعلمُ يا عذولُ بدائهِ ... ما غيرُ داءِ الذنبِ من أَدْوائِهِ

والذنبُ أَوْلَى ما بكاه أخو التُّقى ... وأحقُّ منكَ بدمعِهِ وبمائِهِ

مَن ذا يلوم أخا الذنوبِ إذا بكى ... إنّ الملامةَ فيه مِن أعْدائِهِ

وقد يذرف دموعه تحسّراً على فوات الخير، كما وصف الله تعالى بعض أصحاب نبيّه ﷺ فقال: ﴿**إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ**﴾ فإنّ بكاءهم تحسّراً لما فاتهم من الجهاد والخير.

ومن هذا الباب بكاء ابن عباس رضي الله عنه تحسُّراً على وصيّة النبي ﷺ فقد روى عنه ابن المسيّب أنه قال: يوم الخميس، وما أدراك ما يوم الخميس، ثم بكى حتى خضب دمعُهُ الحصباءَ، وقال: لما حُضِر رسول الله ﷺ وفي البيت رجالٌ، فقال النبي ﷺ: هلمُّوا أكتبْ لكم كتاباً لن تضلّوا بعده، فقال بعضهم: إنّ رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرِّبوا يكتبْ لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلمّا أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: قوموا[1].

قال عبيد الله بن عبد الله: فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرزيّة كلَّ الرزيّة ما حال بين رسول الله وبين كتابه[2].

---

(١) راجع لهذا اللفظ كتاب المغازي من فتح الباري (٨/٤٧٧).

(٢) راجع لهذا اللفظ كتاب العلم من فتح الباري (١/٢٨١).

وقد يذرف دموعه بدافع إنساني محض، كما يبكي رحمة وشفقة على ما يقتضي ذلك، ورُوي في الصحيحين حديث أسامة بن زيد، ومفاده أنّ رسول الله ﷺ رُفِع إليه ابنُ ابنتِه وهو في الموت، ففاضتْ عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله ؟ قال: هذه رحمةٌ جعلها الله تعالى في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء..

ومن ذلك بكاء التعزية، مثل قول الخنساء ترثي أخاها صخراً:

ولولا كثرةُ الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي

وما يبكون مثلَ أخي! ولكنْ أعزّي النفسَ عنه بالتأسّي[1]

ومن ذلك بكاء الحزن على ذهاب الأخيار، وقد عنون بعض أهل الحديث أبواباً في كتبهم بذهاب الصّالحين، ففي البخاري عن أنس بن مالك: أنّ النبي ﷺ نعى جعفراً وزيداً قبل أن يجيء خبرُهم، وعيناه تذرفان[2].

وبكت مولاتنا فاطمة عليها السلام حينما أخبرها النبي ﷺ بقُرب أجله، فقد قالت عائشة: دعا النبي ﷺ فاطمة في شكواه الذي قُبض فيه، فسارّها بشيءٍ فبكتْ، ثم دعاها فسارّها بشيءٍ فضحكتْ، فسألنا عن ذلك، فقالت: سارّني النبي ﷺ أنّه يُقبض في وجعه الذي تُوُفّي فيه فبكيتُ، ثم سارّني فأخبرني أنّي أوّل أهله يتبعه فضحكتُ[3].

---

(١) راجع الزهرة لابن داود (٢/٥٨٤).

(٢) راجع فتح الباري ٧/٣٣٨. وسيأتي الخبر قريباً مع مصادره الأخرى، وإنّما قدّمناه وغيره لمحلّ الشّاهد.

(٣) راجع فتح الباري (٨/٤٨١).

ومن ذلك بكاء الوفاء للعظماء.. ومرّ في مقدّمة كتابنا خبر مرور النبي ﷺ بنساء عبد الأشهل وهنّ يبكين هَلْكَاهُنّ يومَ أُحُد، وقوله ﷺ: لكنّ حمزةَ لا بواكيَ له، ومجيء نساء الأنصار يبكين حمزة.

وقد قال مالك بن الرّيب في يائيّته المشهورة:

تذكّرتُ من يبكي عليَّ فلم أجِدْ ... سوى السيف والرمح الرّدينيِّ باكيا

وبالرّمل منّا نسوةٌ لو شهدنني ... بَكَيْنَ وفدّيْن الطبيبَ المداويا

فمنهنّ أمّي وابنتاي وخالتي ... وباكيةٌ أخرى تهيج البواكيا[1]

تشريع البكاء

نُقدّم إلمامة خاطفة نتعرّف فيها على نظرة الإسلام في البكاء على الميت، إذ قد يتوقّف البعض في تشريعه وقد يحرّمه بعضٌ آخر، وللنّاس أن يحلّلوا ويحرّموا على أنفسهم كما يشتهون، غير أنّه ليس لهم أن ينسبوا ذلك إلى الدين وإلى شريعة سيّد المرسلين ﷺ، وللقاريء الكريم أن يحكم بحكمه بعد أن وقوفه على أحاديث بكاء النّبي ﷺ على الإمام الحسين عليه السلام في كتابنا " الدّمعة السّاكبة " وذلك قبل مقتله لخصوصية القضيّة، وسنورد ما يثبت بكاءه ﷺ على الأموات عموماً.

فالبكاء تعبير إنساني طبيعي للحزن، نابع من الذّات، لا يتحكّم فيه أبداً، وهو انعكاس توجّع داخلي، وغدّة الدّمع موجودة عند الإنسان وبعض الحيوانات الأخرى.. ويعرف الباكي تماماً أنّه لا يعيد ببكائه الميّت الذي فقده، ولا يستردّ بدموعه حتّى بعضه، لكنّه يعكس حزنه لا إراديّاً بالبكاء، يتنفّس من خلاله

---

(١) راجع جمهرة أشعار العرب ص (١٤٣).

ويروّح عن روحه الواجدة، ويخفّف عن نفسه به، ويزيح ثقل الكبت والوجوم والحبس النّفسي بذرف عبراته.

ولستُ أهتدي إلى سّر حساسيّة بعض النّاس من البكاء عموماً، مع ورود فعل النّبي ﷺ والصّحابة الكرام، خصوصاً وأنّا نفترض خلوّه من الجزع المُخل بالإيمان، بل مع اشتماله على القصود والأهداف السّامية، من الإعتبار والتفاعل مع المكارم والفضائل، ومع أنّ الأحاديث الواردة في بكاء النّبي ﷺ على المتوفّى وحثّه على ذلك كثيرة جدّاً، وقد ذكرنا طائفة كثيرة في كتابنا هذا، وسنورد هنا بعضها.

❖ بكاؤه ﷺ عند وفاة إبنه إبراهيم:

في صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وابن ماجه واللفظ للأول، قال أنس: دخلنا مع رسول الله ﷺ وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله ؟!

فقال ﷺ: إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلاّ ما يُرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[1].

❖ بكاؤه ﷺ على قبر أمّه:

في صحيح مسلم ومسند أحمد وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجة واللفظ

---

(١) راجع صحيح مسلم (٤٠٨) كتاب الفضائل، باب رحمته بالصبيان والعيال ح (٢)، وسنن أبي داود (١٩٣/٣) كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، وسنن ابن ماجة (٥٠٧/١) كتاب الجنائز، باب (٥٣) ح (١٥٨٩)، والبخاري (١٥٨/١) كتاب الجنائز، باب قول النّبي ﷺ: وإنا بك لمحزونون. ورياض الصالحين ص (٣٦٣-٣٦٤).

للأوّل، عن أبي هريرة، قال: زار النّبي ﷺ قبر أمّه فبكى وأبكى من حوله[١].

❖ بكاؤه ﷺ شهداء مؤتة:

في صحيح البخاري: أن النّبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم.

وقال ﷺ: أخذ الرّاية زيد، فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان[٢].

❖ بكاؤه ﷺ عمّه الحمزة:

في طبقات ابن سعد ومغازي الواقدي ومسند أحمد وغيرها واللفظ للأول: أنّه لما سمع رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد البكاء من دور الأنصار على قتلاهم، ذرّفت عينا رسول الله ﷺ وبكى، وقال: لكن، حمزة لا بواكي له.

فسمع ذلك سعد بن معاذ، فرجع إلى نساء بني عبد الأشهل فساقهن فدعا لهن وردّهن، فلم تبك امرأة من الأنصار بعد ذلك إلى اليوم على ميت إلاّ بدأت بالبكاء على حمزة، ثم بكت على ميّتها[٣].

---

(١) راجع صحيح مسلم (٢/٦٧١) كتاب الجنائز، باب (٣٦) ح (١٠٨)، ومسند أحمد (٢/٤٤١)، وسنن أبي داوود (٣/ ٢١٨) كتاب الجنائز باب زيارة القبور ح (٣٢٣٤)، وسنن النسائي (٤/ ٩٠) كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر المشرك، وسنن ابن ماجة (١/ ٥٠١) كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة قبور المشركين ح (١٥٧٢).

(٢) راجع صحيح البخاري (٢/ ٢٠٤) كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب خالد، والبداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٢٥٥)، والسنن الكبرى للبيهقي (٤/ ٧٠)، وأنساب الأشراف (٢/ ٤٣)، وشرح ابن أبي الحديد (١٥/ ٧٣).

(٣) راجع ترجمة حمزة في طبقات ابن سعد (٣/ ١١) طبعة صادر، وأكثر تفصيلاً منه في مغازي

❖ بكاؤه ﷺ سبطه:

جاء في صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن النسائي واللفظ للأول: أن إبنة النّبي ﷺ أرسلت إليه: أن ابناً لي قبض فأتِنا فقام ومعه سعد بن عبادة ورجال من أصحابه، فرُفع إلى رسول الله ﷺ ونفسه تتقعقع، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا !!

فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرّحماء[1].

فهذه مجموعة تمثّل بعض الأحاديث المروية عن سيد البشر ﷺ وتؤكّد جواز البكاء، بل هي تدلّ على استحبابه في بعض المواطن، نصّت على فعله ﷺ وتقريره وأمره بالبكاء، خلافاً لمن روى أحاديث في تحريمه والنّهي عنه على الميّت، فإنّها أحاديث متهافتة، لا تصمد أمام معول النّقد، مضافاً لتعارضها مع الأدلّة الكثيرة في مقابلها، وهي تدلّ على رجحان البكاء على الميت.

→ الواقدي (١/٣١٥ - ٣١٧)، وإمتاع الأسماع (١/١٦٣)، ومسند أحمد (٢/٤٠)، وتاريخ الطبري (٢/٥٣٢) ط مصر، وسيرة ابن هشام (٣/٥٠)، وأورده ابن عبد البر بايجاز ضمن ترجمة حمزة من الإستيعاب، وأورده ابن الأثير باختصار أيضاً بترجمته من أسد الغابة.

(١) راجع صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النّبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، واللفظ له، وكتاب المرضى، باب عيادة الصبيان (٤/٣) وفي (٤/١٩١)، وكتاب التوحيد، باب أن رحمة الله قريب من المحسنين، وفي صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٢/٦٣٦) ح (١١)، وفي سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٣/١٩٣) ح (٣١٢٥)، وفي سنن النسائي (٤/٢٢) كتاب الجنائز، باب الأمر بالاحتساب والصبر، ومسند أحمد (٥/٢٠٤ و ٢٠٦ و ٢٠٧).

البكاء على الحسين عليه السلام

عرفتَ أنّ البكاء على الميّت أمرٌ راجحٌ قطعاً، وخصوصاً إذا ساقت إليه المقاصد الحسنة، كالإعتبار بالموت، وإظهار الحبّ للميت، ومواساة أهل الميّت في مصابهم به، وهو تعبير إنساني جُبل عليه الإنسان وطُبع عليه.

ومن هذا المنطلق فإنّه يتعيّن حكم البكاء بحسب العناوين والأدلّة المُحكّمة، فقد يترقّى من الرّجحان إلى الإستحباب، ومن الإستحباب إلى الإستحباب المؤكّد، كما هو الحال في البكاء على الإمام الحسين عليه السلام، إذ أنّ البكاء عليه راجحٌ قطعاً، ومستحبٌّ مؤكّدٌ، دلّ على ذلك البرهان الذي لا ينكره إلاّ مكابر، وشُفِعَ ذلك بالسيرة النبويّة العطرة التي فصّلناها في كتابنا "الدّمعة السّاكبة" وسيرة الإمامة الهادية كما بيّنّا وسنبيّن.

مضافاً إلى اشتمال البكاء الحسيني على قصود مهمّة، وضمّه لغايات سامية، وانطوائه على جملة كبيرة من المنافع الدينيّة، ومجموعُها يُحتّم استحبابه المؤكّد، ويمكننا أن نقول من بعد ذلك أنّ البكاء عليه عليه السلام مندرجٌ تحت عناوين عدّة..

الأول: بكاء الإعتبار بالموت، وما ينطوي عليه ذلك من معاني الزّهد في الدّنيا والعمل للآخرة، والتفكّر في أحوال الماضين الذين مضوا عن هذه الحياة وغابت أعيانُهم ولم يخلّفوا على مسرح الحياة غير أعمالهم الصالحة.

الثّاني: بكاء تكريم الشّهيد في سبيل الله تعالى، الذي كرّمه الله وشرّفه وأعطاه الخلود والذكر الجميل، بالشّكل الذي يقتضي التفاعل مع فكره وعطائه وهدفه والسّعي إلى إحقاق الحقّ الذي من أجله استُشهد.

الثالث: بكاء تحقيق الأمر بالمعروف، الذي قُتل من أجله وقصداً لتشييده،

خصوصاً بعد أن أضحى البكاء عليه عليه السلام اليوم من أقوى سُبُل الدّعوة إلى الله تعالى والإسلام، وطريقاً لمعرفة الأصول الإعتقادية وتشييد الإعتقاد بها.

الرّابع: بكاء إنكار المنكر، ورفض الظُّلم والإستبداد، وتقبيح عمل الظّالمين والطُّغاة، وما ينطوي عليه ذلك من تشييد لروح الشجاعة والصمود والوقوف في وجه المجرمين وقول كلمة الحق أمام السُّلطان الجائر، والتفاعل ضد ما أنكره الإمام الحسين عليه السلام على بني أميّة.

الخامس: بكاء القربة إلى الله تعالى، عبر التوحّد مع نفوس أوليائه الطاهرين عليهم السلام والإنغماس في نورانيّتهم، والتّشبّه بأوضاع العارفين، والتألّم على ما هُتك من حزب الله تعالى، والتوجّع لما صدر في حقّ أولياء الله سبحانه وأمنائه على الدّين، وطلباً لنيل قبوله سبحانه وتعالى.

السّادس: بكاء القرب من الإمام الحسين عليه السلام، إذ أنّ بكاءه يقتضي الإنصهار والإندكاك في ذاته الشريفة، وهو أمر محبوب، إذ أنّه عليه السلام هو الأقرب من روح رسول الله صلى الله عليه وآله ونفسه، وهو حبيبه الذي قال فيه: حسينٌ منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً.

السابع: بكاء الحب والولاء لأهل البيت عليهم السلام، الذين ندب القرآن الكريم ودعى إلى حبّهم ومودّتهم، ونصّ على عالي مقامهم، إذ اعتبروا أن قضية الإمام الحسين عليه السلام هي قضيّتهم الأولى، وأكّدوا على إحياء أمرهم بالبكاء عليه، واعتبروا ذلك أداءً لحقوقهم، فلا يَتقرّب المؤمن بالله تعالى بشيء إليهم كما يتقرّب لهم بالبكاء على الإمام الحسين عليه السلام، ولا شكّ أنّه عليه السلام الطريق الأقصر أمام الخلق للإرتباط بأهل البيت عليهم السلام.

الثامن: بكاء تشييد روح الإيمان والإباء، بدافع الإمتزاج بروحه الطّاهرة وهديه وسيرته، والتأسّي برفضه إعطاء الذليل لعبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية، واختياره إباء الضّيم ومواجهة الموت الكريم على هوان العبوديّة، فإنّ الله تعالى لم يرخّص للمُؤمن في أن يذلّ نفسه على كلّ حال، وحقيق على من يتأثّر به عليه السلام أن يأبى الضيم ويرغب في معالي الأمور.

التاسع: بكاء الإئتمار لأمر النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام الذين بالغوا في التأكيد على البكاء عليه، ودلّ على ذلك فعلهم وأمرهم وتقريرهم، وعند التحقيق نجد أنّ أحاديث فضل البكاء والإنشاد والزيارة الواردة عنهم تفوق أحاديث بعض العبادات المهمّة كما لا يخفى على البصير، بما لا يدع مجالاً للشكّ في صدورها عنهم، وفي تأكّد إستحباب البكاء عليه عليه السلام.

العاشر: بكاء مواساة أهل البيت عليهم السلام في أحزانهم، وهو واجبٌ يفرضه حبّهم ومودّتهم والتوجّع لمصابهم، فإنّهم قد بكوا الإمام الحسين عليه السلام ولفتوا الأنظار ببكائهم عليه، وصدر منهم جميعاً ذلك، من نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله وحتّى الإمام المهدي المنتظر عليه السلام.

إلى سائر الوجوه الأخرى التي يمكن تصوّرها في المقام، كبكاء النّصرة للمظلوم بحزن القلب والدّمع، وفي سيرة النبي صلى الله عليه وآله حديثٌ شيّقٌ في البكاء نورد مثالاً منه من باب التأكيد والتبرّك.

إذ أخرج الحافظ الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين بإسناد مرفوع إلى أمّ الفضل بنت الحارث، أنّها دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله إنّي رأيت حلماً منكراً الليلة.

قال: وما هو ؟ قالت: إنّه شديد !! قال: وما هو ؟ قال: كأنّ قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري ! فقال رسول الله ﷺ: رأيت خيراً. تلد فاطمة إن شاء الله غلاماً فيكون في حجرك.

فولدت فاطمة الحسين فكان في حجري كما قال رسول الله ﷺ. فدخلت يوماً إلى رسول الله ﷺ فوضعته في حجره ثم حانت منّي إلتفاتة فإذا عينا رسول الله ﷺ تهريقان من الدّموع !

قالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، ما لك ؟ قال: أتاني جبرئيل عليه السلام فأخبرني أنّ أمتي ستقتل إبني هذا !! فقلت: هذا !! فقال: نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء[1].

ثواب البكاء الحسيني

تلقّى الأئمة الطاهرون عليهم السلام إرثاً من الأحزان عن رسول الله ﷺ كما تلقّوا عنه العلم وسائر الكمالات والفضائل، إلاّ أنّهم عليهم السلام قنّنوا مظاهر الحزن وحفّزوا النفوس لبقائه وخلوده، وسلكوا سُبلاً غاية في التأثير، أهمّها وصف ثوابه الجزيل

(١) أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (١٧٦/٣) وقال: هذا حديث صحيح، على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كما أخرجه البيهقي بصوره المختلفة في دلائل النبوّة (٤٦٨/٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والخوارزمي في المقتل (١٥٩/١)، وابن الأثير في البداية والنهاية (٢٠٣/٦)، والسيوطي في الخصائص (١٢٦/٢)، وقريب منه ما أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٩/٩)، وابن الصبّاغ المالكي في الفصول المهمّة، وابن حجر في الصواعق المحرقة، والمتقي الهندي في كنز العمّال، وهذا المعنى مستفيض في كتب الحديث.

وأجره العظيم، فهم العلماء وورثة العلم والدين، وبيّنوا للنّاس فضل البكاء على الإمام الحسين عليه السلام، فضمنوا خلود الحزن وبقائه بمغريات إجراء الدّمع، وأهمّها وصف ثوابه الجزيل إلى آخر الأبد.

❖ روَى الشيخ الصدوق رحمه الله بإسناده إلى علي بن الحسن بن فضال، عن أبيه قال: قال الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام: من تذكّر مصابنا وبكى لما ارتكب منّا، كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذُكّر بمصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيى فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب[1].

يُبيّنُ الإمام الرضا عليه السلام في هذا الخبر الثواب الجزيل على البكاء من خلال مؤثر ومهم، هو تذكّر المصاب، وإنّما يتم التذكّر باستحضار صور الأحداث ومشاهد الأحزان في الخاطر، وبالتّالي يكون الحزن والبكاء.

فالإطّلاع على تلك المشاهد التاريخيّة المؤلمة من خلال قراءة الكتب أو إستماع الرّثاة والخطباء مقدّمة مهمّة لحصول التذكّر المفضي إلى البكاء المستحب، ولا بدّ من تحصيل ذلك والإستزادة منه، فبقدر الإطّلاع على أحوالهم ومصائبهم ومعرفة مقاماتهم يكون التأثّر لهم قطعاً، فيستحق المؤمن حينئذٍ أن يكون معهم عليهم السلام في درجتهم يوم القيامة، لتوحّده معهم بتفاعله مع قضاياهم.

وكذا الحال في من عرّض نفسَه لتذكّر مصابهم عليهم السلام باختياره الجليس الصالح الذّاكر لهم، أو بحضوره في مجالس ذكرهم عليهم السلام فإنّه يستحق بتذكّره وبكائه

(١) راجع أمالي الشيخ الصدوق رحمه الله ص (٧٣)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٧٨).

السّرور يوم القيامة، اليوم الذي يبكي فيه الضّاحكون في الدّنيا غالباً، ويُنعّم بحياة القلب، ولم يمت قلبه أبداً.

❖ رَوَى السيّد ابن طاووس رحمه الله عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام قال: من ذكَرَنا أو ذُكرنا عنده فخرج من عينه دمع مثل جناح بعوضة غفر الله له ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر(١).

يؤكّد الإمام الصّادق عليه السلام هنا على أنّ من ذكرهم أو تعرّض إلى ظرف يتذكّرهم فيه استحق غفران الذنوب العظام، فالبكاء - بحسب هذه النصوص - يساوغ التوبة في إسقاط الذنوب، إذ فتح الدّين باسم الإمام الحسين عليه السلام باباً من أبواب الرّحمة الواسعة، بأقلّ الممكن من الدّمع، المعبّر عن مقداره بجناح البعوضة لغفران الذنوب وإن كانت مثل زبد البحر !!

❖ رَوَى ابن قولويه في كامل الزيارات عن ابن خارجة عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام قال: قال الحسين بن علي: أنا قتيل العبرة، قتلت مكروباً، وحقيق على الله أن لا يأتيني مكروب قط إلاّ ردّه الله وأقلبه إلى أهله مسروراً(٢).

يُبيّن الإمام الصادق عليه السلام هنا ثمرة مهمّة من ثمار البكاء والحزن له عليه السلام وهو إتيانه وقصده، ويعتبر طابع الحزن من أوّل أسرار الجاذبية الكبرى التي وهبَها وليّه الإمام الحسين عليه السلام، فصار كعبة وموئلاً لوفود الزائرين والمكروبين الذين شاء الله تعالى لهم ألاّ يرجعوا من عنده إلاّ بالسّرور والفرج وقضاء الحاجات الدّنيوية

(١) راجع اللهوف ص (١٠)، وبحار الأنوار (٤٤/ ٢٧٨).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٠٩)، وثواب الأعمال ص (٩٨)، وبحار الأنوار (٤٤/ ٢٧٩) و (٩٨/ ٤٨)، ووسائل الشيعة (١٤/ ٤٢٢).

والأخرويّة.

❖ روى القمي في تفسيره بالإسناد إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي دمعة حتى تسيل على خدّه بوأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً، وأيّما مؤمن دمعت عيناه دمعاً حتى يسيل على خدّه لأذىً مسّنا من عدونا في الدّنيا بوأه الله مبوأ صدق في الجنة، وأيّما مؤمن مسّه أذى فينا فدمعت عيناه حتى يسيل دمعه على خدّيه من مضاضة ما أوذي فينا صرف الله عن وجهه الأذى وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار[١].

وهنا يؤكّد الإمام زين العابدين عليه السلام على أنّ الباكي لما مسّهم من عدوّهم ولو بالدّمعة الواحدة، هو من الخالدين في الجنّة، ثمّ يعطف عليه السلام على هذا الدّاعي داعي البكاء من مضاضة الأذى الذي لحقهم بسبب ولائهم ومودّتهم عليهم السلام والإرتباط بهم، فإنّ الله تعالى يجازيهم عن صبرهم وتحمّلهم، ويعصمهم من الأذى ويغمرهم برضوانه ويجنّبهم النّار ويعصمهم من موارد غضبه.

❖ روى ابن قولويه بإسناده إلى الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال: إن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع، ما خلا البكاء على الحسين بن علي عليه السلام فإنه فيه مأجور[٢].

---

(١) راجع تفسير القمي (٢/٢٩١)، وثواب الأعمال ص (٨٣)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠١)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٩١).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٠٠)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٩١)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٧).

ويعدّ هذا الحديث من الأصول المهمّة المعتبرة في أبواب الشّعائر الحسينية، فهو القاعدة المحكّمة في مظاهر الولاء الصّادرة من محبّي أهل البيت عليهم السلام، فقد ندّد الإمام الصادق عليه السلام بكلّ أنواع الجزع، وتضمّن الخبر مدح الصّبر ورغّب المؤمنين بالتزامه ومنع من مجاوزته إلى ما يخالفه من الأقوال والأفعال، فالصّبر من الإيمان كالرّأس من الجسد، والجزع نقيض الصّبر.

إذ أنّ البكاء المرفوض في الخبر هو المقترن بالجزع كما هو واضح، فهو مكروه في شريعة الإسلام، وتصل بعض مظاهره إلى الحرمة، لكن الإمام عليه السلام استثنى الجزع بكلّ ضروبه ومظاهره على الإمام الحسين عليه السلام، ولم يكتفِ بالحكم بجوازه، بل أكّد على إستحبابه واستحقاق مرتكبه الأجر والثواب من الله تعالى.

إذ يتبدّل حكم الجزع في هذا المقام من الكراهية إلى الإستحباب مطلقاً، وعلى ذلك فقهاء الطّائفة (أعلى الله كلمتهم) وإن استلزم ضرراً غير معتد به، كالضّرب على الرأس أو الوجه أو الصّدر أو جزّ الشعر أو شقّ الثوب أو اللطم على الجسد، إلى غير ذلك من الأمور التي تصدر عادة من الجازع، وإن بلغ بالضّرب واللطم حدّ الإحمرار والسّواد والإدماء والجرح على تفصيل يأتي إن شاء الله تعالى.

ويدخل تحت هذا العموم كثير من الشعائر الحسينية والعادات المتّبعة المصاحبة لبعض المواكب العزائية بوضوح وجلاء، وواضحٌ أنّ في الكثير من حالات الجزع ومظاهره على الإمام الحسين عليه السلام تحقّقٌ لعنوان الإبكاء المستحب في نفسه.

❖ رَوَى ابنُ قولويه في كامل الزيارات عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه

قال: لكل شيء ثواب، إلاّ الدّمعة فينا[1].

والمراد من الحديث الشريف أنّ الله تعالى قد عيّن لكلّ عبادة من العبادات ثواباً معيّناً، وجعل إزاء كلّ عمل جزاءً خاصّاً، وهذا مذكورٌ معروفٌ في أحاديث ثواب الأعمال، من قبيل: من قال " لا إله إلاّ الله " غرست له شجرة في الجنّة، وأمثال ذلك..

إلاّ أن جزاء الدّمعة الجارية على مصاب أهل البيت عليهم السلام غير محدود أبداً، ولا يعلم ثوابها إلاّ الله سبحانه، فهو القادر على إحصاء الأجر الكبير للدّمعة الواحدة، وبذلك يتعيّن أنّ البكاء عليهم عليهم السلام من أفضل العبادات قطعاً.

❖ روى ابن قولويه أيضاً بإسناد يرفعه إلى زرارة أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: يا زرارة، إن السماء بكت على الحسين أربعين صباحاً بالدم، وإن الأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد، وإن الشمس بكت أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة، وإن الجبال تقطّعت وانتثرت، وإن البحار تفجّرت، وإن الملائكة بكت أربعين صباحاً على الحسين عليه السلام.

وما اختضبت منّا امرأة ولا ادّهنت ولا اكتحلت ولا رجّلت، حتّى أتانا رأس عبيد الله بن زياد، وما زلنا في عبرة بعده، وكان جدّي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه، وإن الملائكة الذين عند قبره ليبكون فيبكي لبكائهم كل من في الهواء والسماء من الملائكة.

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠٦)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٨٧) وفيه: (لكل سرّ ثواب)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٩٧).

ولقد خرجت نفسُه عليه السلام فزفرت جهنم زفرة كادت الأرض تنشق لزفرتها، ولقد خرجت نفس عبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية فشهقت جهنم شهقة لو لا أن الله حبسها بخزانها لأحرقت من على ظهر الأرض من فورها، ولو يؤذن لها ما بقي شيء إلاّ ابتلعته، ولكنها مأمورة مصفودة، ولقد عتت على الخزان غير مرة حتى أتاها جبرئيل فضربها بجناحه فسكنت، وأنها لتبكيه وتندبه وأنها لتتلظى على قاتله، ولولا من على الأرض من حجج الله لنقضت الأرض و أكفأت بما عليها، وما تكثر الزلازل إلاّ عند اقتراب الساعة.

وما من عين أحب إلى الله ولا عبرة من عين بكت ودمعت عليه، وما من باك يبكيه إلاّ وقد وصل فاطمة عليها السلام وأسعدها عليه، ووصل رسول الله صلى الله عليه وآله وأدّى حقّنا، وما من عبد يحشر إلاّ وعيناه باكية إلاّ الباكين على جدي الحسين عليه السلام فإنه يحشر وعينه قريرة والبشارة تلقاه والسرور بيّن على وجهه، والخلق في الفزع وهم آمنون، والخلق يعرضون وهم حداث الحسين عليه السلام تحت العرش وفي ظل العرش لا يخافون سوء يوم الحساب.

يقال لهم: ادخلوا الجنة، فيأبون ويختارون مجلسه وحديثه، و إن الحور لترسل إليهم: أنا قد اشتقناكم مع الولدان المخلدين، فما يرفعون رؤوسهم إليهم لما يرون في مجلسهم من السرور والكرامة، وإن أعداءهم من بين مسحوب بناصيته إلى النار، ومن قائل ما لنا من شافعين ولا صديق حميم، وإنهم ليرون منزلهم وما يقدرون أن يدنوا إليهم ولا يصلون إليهم، وإن الملائكة لتأتيهم بالرسالة من أزواجهم ومن خدّامهم على ما أعطوا من الكرامة، فيقولون نأتيكم إن شاء الله، فيرجعون إلى أزواجهم بمقالاتهم فيزدادون إليهم شوقاً إذا هم

خبّروهم بما هم فيه من الكرامة وقربهم من الحسين عليه السلام فيقولون: الحمد لله الذي كفانا الفزع الأكبر وأهوال القيامة ونجّانا مما كنا نخاف، ويُؤتون بالمراكب والرّحال على النّجائب فيستوون عليها وهم في الثناء على الله والحمد لله والصلاة على محمد وآله حتى ينتهوا إلى منازلهم[١].

أقول في مقام التعليق على هذا الحديث: أنّني لو صرفتُ كلّ العمر في فقه هذا الحديث الشريف لقصرتُ عن بلوغ بعض محتواه، فإنّ فيه الكثير من المقاصد الجليلة، لكنّه لا يسقط الميسور بالمعسور.

فالإنسان المؤمن مأمور بالبكاء والحزن على سيّد الشهداء عليه السلام تماشياً مع كلّ أجزاء الكون الرّحب وذرّاته التي بكت عليه أيضاً، فالسّماء والأرض والشمس والجبال والبحار والملائكة، وحتّى جهنّم، مخلوقات لله تعالى نالت شرف أداء هذا الفرض المحبوب، ألا وهو البكاء عليه..

وينسجم الإنسان المؤمن مع هذه المنظومة الكونيّة ويواكبها بحزنه وبكائه عليه عليه السلام انسجامه مع تسبيح الكون بما فيه ممّا يُرى وممّا لا يُرى، قال تعالى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾.

ثمّ يُبدي الإمام عليه السلام حافزاً مهمّاً من محفّزات البكاء، ويُبيّن حال بني هاشم بعد الواقعة، وإذا كان حال الأئمة عليهم السلام معلوماً من خلال الأخبار الواردة، فإنّه يأخذنا إلى بيان حال نساء بني هاشم، فقد هَجَرنَ لذّة الحياة وعشن في قمّة

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٨١)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٠٦)، ومستدرك الوسائل (١٠/٣١٣).

حالات الجزع، وحرّمن على أنفسهنّ الحياة الإعتيادية التي تعيشها المرأة، من الخضاب والدّهن والكحل وترجيل الشعر، وبقين على هذه الحالة المفجعة، حتّى جيء لهنّ بخبر المختار الثقفي، ولا زلن في حزن وبكاء على الإمام الحسين عليه السلام.

ويصف الإمام الصادق عليه السلام حال جدّه الإمام علي بن الحسين عليه السلام بعد ذلك، فلا يزال حليف الحزن والبكاء، مظهراً قمّة الجزع، إلى درجة أنّ النّاس صاروا يبكون رحمة وشفقة عليه !!

وبعد تلك المقدّمات يصف الإمام عليه السلام ثواب البكاء على المولى عليه السلام، ويؤكّد على أن تلك العيون الباكية محبوبة عند الله تعالى، وأنّ هذا البكاء بكاء صلة للنبي الكريم صلى الله عليه وآله وابنته الطّاهرة فاطمة عليها السلام، وإنّ مصير هؤلاء الباكين الأمن يوم الفزع الأكبر، ومحشرهم تحت العرش بجوار الإمام الحسين عليه السلام فطوبى لهم وحسن مآب.

وتستوقفني جملة مهمّة وردت ضمن جُمَل الخبر.. وهي "إن أعداءهم من بين مسحوب بناصيته إلى النار "والمقصودون هم أعداء الباكين على الحسين عليه السلام !!

فإنّ الإمام الصادق عليه السلام لّما بيّن الفضل الكبير للباكين على جدّه عليه السلام عطف القول إلى بيان مصير أعدائهم المشنّعين عليهم في دار الدنيا، المؤذين لهم، المحاربين لشعائر مولانا الحسين عليه السلام بأيّ نحو من الأنحاء، بمنعها أو التشكيك فيها أو إثاره الشّبه في المجتمع لزعزعة المؤمنين تجاهها.

وفي هذا الحديث تحذير جدّي ومخيف، ينبغي أن يقف عليه هؤلاء العابثون بالنّار المحرقة، وليحذروا من عاقبة أمرهم قبل أن تكويهم لواهبها، فإنّ مصيرهم إلى جهنّم، وإن أتعبوا أنفسهم واجتهدوا رجاء بلوغ السراب الذي يحسبونه من

ظمئهم ماءً، فسبيل الجنّة مشروط بالإمام الحسين عليه السلام.

❖ رَوَى أيضاً بإسناده إلى مسمع بن عبد الملك كردين البصري قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا مسمع أنت من أهل العراق؟ أما تأتي قبر الحسين عليه السلام؟

قلت: لا، أنا رجل مشهور عند أهل البصرة، وعندنا من يتبع هوى هذا الخليفة، وعدوّنا كثير من أهل القبائل من النصّاب وغيرهم، ولست آمنهم أن يرفعوا حالي عند ولد سليمان، فيمثّلون بي.

قال لي: أفما تذكر ما صنع به؟

قلت: نعم. قال: فتجزع؟

قلت: إي والله، وأستعبر لذلك، حتى يرى أهلي أثر ذلك عليّ، فأمتنع من الطعام، حتى يستبين ذلك في وجهي.

قال: رحم الله دمعتك، أما إنك من الذين يعدّون من أهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا ويخافون لخوفنا ويأمنون إذا أمنّا، أما إنك سترى عند موتك حضور آبائي لك ووصيّتهم ملك الموت بك، وما يلقونك به من البشارة أفضل، ولملك الموت أرق عليك وأشد رحمة لك من الأم الشفيقة على ولدها.

قال: ثم استعبر، واستعبرت معه.. فقال: الحمد لله الذي فضّلنا على خلقه بالرحمة، وخصنا أهل البيت بالرحمة، يا مسمع، إن الأرض والسماء لتبكي منذ قتل أمير المؤمنين عليه السلام رحمة لنا، وما بكى لنا من الملائكة أكثر، وما رقأت دموع الملائكة منذ قتلنا، وما بكى أحد رحمة لنا ولما لقينا إلاّ رحمه الله قبل أن تخرج الدمعة من عينه، فإذا سالت دموعه على خده فلو أن قطرة من دموعه سقطت في

جهنم لأطفأت حرّها حتى لا يوجد لها حر.

وإن الموجع لنا قلبه ليفرح يوم يرانا عند موته فرحة لا تزال تلك الفرحة في قلبه حتى يرد علينا الحوض، وإن الكوثر ليفرح بمحبّنا إذا ورد عليه حتى أنه ليذيقه من ضروب الطعام ما لا يشتهي أن يصدر عنه.

يا مسمع، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، ولم يستق بعدها أبدا، وهو في برد الكافور وريح المسك وطعم الزنجبيل، أحلى من العسل وألين من الزبد وأصفى من الدمع وأذكى من العنبر، يخرج من تسنيم ويمر بأنهار الجنان، يجري على رضراض الدّر والياقوت، فيه من القدحان أكثر من عدد نجوم السماء، يوجد ريحه من مسيرة ألف عام، قدحانه من الذهب والفضة وألوان الجوهر، يفوح في وجه الشارب منه كل فائحة حتى يقول الشارب منه: يا ليتني تُركت هاهنا لا أبغي بهذا بدلاً ولا عنه تحويلا.

أما إنك يا ابن كردين ممّن تروى منه، وما من عين بكت لنا إلاّ نعمت بالنظر إلى الكوثر، وسقيت منه من أحبّنا، وإن الشّارب منه ليعطى من اللذة والطعم والشهوة له أكثر ممّا يعطاه من هو دونه في حبّنا.

وإن على الكوثر أمير المؤمنين عليه السلام وفي يده عصاً من عوسج، يحطّم بها أعداءنا، فيقول الرجل منهم: إني أشهد الشهادتين !! فيقول: انطلق إلى إمامك فلان فاسأله أن يشفع لك. فيقول: تبرّأ مني إمامي الذي تذكره !! فيقول: ارجع إلى ورائك، فقل للذي كنت تتولاّه وتقدمه على الخلق فاسأله إذا كان خير الخلق عندك أن يشفع لك، فإن خير الخلق من يشفع حقيق أن لا يرد إذا شفع. فيقول: إني أهلك عطشاً. فيقول له: زادك الله ظمأ، وزادك الله عطشاً.

قلت: جعلت فداك، وكيف يقدر على الدنو من الحوض، ولم يقدر عليه غيره؟ فقال: ورع عن أشياء قبيحة، وكفّ عن شتمنا أهل البيت عليهم السلام إذا ذكرنا، وترك أشياء اجترى عليها غيره، وليس ذلك لحبّنا ولا لهوى منه لنا، ولكن ذلك لشدة اجتهاده في عبادته وتديّنه، ولما قد شغل نفسه به عن ذكر الناس، فأما قلبه فمنافق، ودينه النصب، وأتباعه أهل النّصب، وولاية الماضين وتقدمه لهما على كل أحد[1].

إنّ المعيار الديني الواقعي في تقييم الإنسان المؤمن هو الإمام الحسين عليه السلام، ويمكننا أن نقيّم كلّ الشخصيّات الدّينية وفق هذا المعيار الدقيق، ولو كانت في نظر المجتمع قمّة من القمم، أو حتّى لو قائداً أو مرجعاً أو رمزاً، فبمقدار دعمه وتفانيه في قضيّة الإمام الحسين عليه السلام يتعيّن مقامه عند الله تعالى والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الطاهرين عليهم السلام، وكذلك الكلام بالنسبة لسائر المعتقدات الخاصّة والموروثات المذهبيّة والمظاهر الولائية التي حثّ عليها أهل البيت عليهم السلام وأمروا شيعتهم بتشييدها، وأعطوهم الضّوء الأخضر في إنمائها وإحيائها بالعمومات التي ملأت كتب الأخبار.

وهذا المعيار الدّقيق في تقييم الأفراد ظاهرٌ بالتأمّل في روايات الشّعائر أيضاً، وهو بادٍ في مضامينها وذوقها، وللقاريء الكريم أن يستجليه من سائر النّصوص.

ومن أهم المظاهر التي اهتمّ بها الإمام الصّادق عليه السلام في سؤاله من مسمع في هذا الخبر زيارة قبره الشريف بكربلاء، فهو المظهر الأتم للولاء والمصداق الأوفى للمودّة،

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠١)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٨٩)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠).

ولّما تبيّن له عذره عن الزيارة سأله عن جزعه له عليه السلام ، واهتمّ بالبكاء عليه.

وأقرّه الإمام عليه السلام على تركه الزّيارة لعذر الخوف ظاهراً ، إذ أنّ أعظم الواجبات في الإسلام محكومة بحفظ النّفس والتقيّة ، والأولى أن نحمل سكوت الإمام عليه السلام على غير التقرير بالرّخصة ، إذ أنّ الأخبار واردة عنهم عليهم السلام باستحباب زيارة خصوص الإمام الحسين عليه السلام على الخوف وسيأتي ذكرها في شعيرة الزيارة إن شاء الله تعالى.

فإذا ترك مسمع زيارة الإمام الحسين عليه السلام لخوف أو تقيّة.. فإنّ الإمام الصّادق عليه السلام لم يجد له رخصة في ترك تذكّر مصابه عليه السلام وما صُنع به !! فسأله عن الجزع والبكاء ، لأنّها أوّل مظاهر التذكّر ، فأجابه مسمع بالإيجاب.

ويجب الوقوف التأمّل في سيرة أصحاب الأئمة عليهم السلام فإنّها كاشفة عن تربية الأئمة عليهم السلام لهم رضي الله عنهم ، فالبكاء بين الأهل سيرة مطّردة لأهل العصمة عليهم السلام ، وإشراك العائلة بالبكاء على الإمام عليه السلام عادة معلومة عند أهل البيت عليهم السلام ، ولهذا فإنّ مسمعاً كان يبكي حتّى يستبين البكاء والحزن في وجهه ويمتنع عن الطعام! وفي هذه الأجواء ينشأ الطّفل ويشبّ ويسفر إيمانه عن أمثال مسمع الموفّق بخدمة إمام زمانه ، وبهذه السيرة يترعرع النّشأ آلفاً مظاهر الولاية ، ومن أهمّها حبّ البكاء على الإمام الحسين عليه السلام ، ويُحاكي سيرة أبيه كعادة الأبناء ، تماماً كما يعلّم المسلم إبنه حبّ الصلاة قبل سنّ التكليف.

ويبدو من هذا الخبر أنّ الإمام عليه السلام كان مستعدّاً في كلّ حالاته لتذكّر المصاب فاستعبر باكياً لمرور ذكر مصاب جدّه عليه السلام ، ليؤكّد بعد ذلك على فضل البكاء عليه عليه السلام وكرامة الباكين عند الله عزّ وجل.

وأخبار فضل البكاء على الإمام الحسين عليه السلام كثيرة جدّاً، وكتب الشّيعة زاخرة بتصنيفها، وجلّها يؤكّد استحباب هذه العبادة، وقد جاوزت حدّ التواتر بقسميه اللفظي والمعنوي، وإنّنا في غنى عن النظر في أسانيدها والفحص عن أحوال رواتها، وفيها الصحيح والحسن والمعتبر والموثّق، ولا يمكن التشكيك في صدورها بالجملة عن أهل البيت عليهم السلام على كلّ حال.

وأخبار هذه العبادة مرويّة في كتب الشّيعة المعتبرة التي تعدّ أخبارها من الصّحاح عند قدماء علمائنا رحمهم الله من الإخباريين وغيرهم، وقد قال بصحّتها جمعٌ من العلماء المتأخّرين، فيلزم الإعتقاد بمضمونها بالجملة والإلتفات لمدلولاتها النورانيّة، وتحرّي البحوث المهمّة المتصلة بها على وجه الدقّة، فإنّ فيها فقه كثير وفوائد جليلة جمّة..

وقد مرّت الإشارة إلى بعض تلك الفوائد المهمّة عند التعليق على الأخبار الشريفة، ولا بدّ من الإشارة إلى بعض الفوائد المهمّة الأخرى على ضوء ما تقدّم.

البكاء والضرر

إنّ مقتضى هذه النصوص المتقدّمة استحباب البكاء مطلقاً، ويظهر من بعضها استحباب مواصلة البكاء على مصابهم عليهم السلام، فقد أثنوا على شيعتهم الذين شاركوهم بطول البكاء والحسرة، وعليه فإنّ البكاء مستحب حتّى مع استلزام الضّرر، من قبيل تقرّح جفون العين وتجريحها تأسّياً بالأئمة المعصومين عليهم السلام، فإنّ مصاب الإمام الحسين عليه السلام قد أقرح جفونهم، والقَرْح - بالفتح فالسّكون - هو الجراح، ومعلومُ أنّ تقرّح الجفون لا يكون إلاّ بعد البكاء المتواصل الطويل.

ويتعدّى مولانا الإمام المهدي عليه السلام ذلك الحد إلى البكاء دماً بدل الدّموع كما مرّ في ألفاظ زيارته، ويُحكى ذلك متواتراً عن الإمام زين العابدين عليه السلام ويُنقل في حالاته، وهو الذي قد شهد الوقعة في كربلاء الدّامية وقاسى آلامها، وقد استمرّ ببكائه على أبيه حتّى استُشهد، وقد نقلنا شطراً من أخبار جزعه فيما تقدّم، حتّى عُدّ في الأخبار أحد البكّائين الخمسة في تاريخ الأولياء.

وقد استَشهد الإمام السجّاد عليه السلام ببكاء نبي الله يعقوب عليه السلام على ولده يوسف عليه السلام، الذي جاوز بجزعه حدّ الضّرر قطعاً، كما جاء ذلك في نصّ القرآن الكريم: ﴿**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ، قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**﴾ وملاحظٌ أنّ الله تعالى لم يُعقِب ذلك بذم، كما أنّه يستحيل صدور القبيح من الأنبياء عليهم السلام.

والأسف هو أشدّ الحزن على ما فات، وابيضاض العين معناه فقد البصر، فإنّه عمي من شدّة حزنه وغمّه كما في التفاسير، والحرَض هو المرض والبلى وفساد الجسم والمشارفة على الهلاك، وكلّها أضرار معتدٌّ بها من غير شك.

ولا مجال للتمسّك بأدّلة حرمة الضرر والإلقاء في التهلكة، لحكومة هذه الأدلّة عليها، كما أنّه لا مجال للتمسّك بها في موارد جعل الأحكام الضرريّة، كالجهاد والزّكاة وأمثاله، فقد أُخذ في تشريعها معنى العناء والتحمّل والصبر على الأذى كما هو واضح.

والكلام نفس الكلام في سائر الشّعائر الحسينية المنصوصة عنهم عليهم السلام،

كشعيرة زيارة الإمام الحسين عليه السلام وما يُلحق بها، والكلام نفسه يجري في سائر الشّعائر الحسينيّة كاللطم والإدماء، فهي داخلة تحت عمومات نصوص الشّعائر الواردة، ولا شكّ أنّ الضرر مصاحبٌ لبعضها، إلاّ أنّها من مصاديق الجزع المرخّص به بل المندوب قطعاً، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

البكاء حال الصلاة

إنّ إطلاق النّصوص يقتضي إستحباب البكاء على الإمام الحسين عليه السلام وكذا سائر المعصومين عليهم السلام في كلّ حال مطلقاً، سواء كان ذلك في وقت الفراغ أو حال الإشتغال في عبادة أخرى.

ويُستحب البكاء على مصائب سيّد الشهداء عليه السلام حتّى في حال الصلاة، خصوصاً إذا كان البكاء قربة لله تعالى، أو لأجل قصد أخروي، وبهذا يتجلّى هدف كبير من أهداف إقامة الصلاة أصلاً، وتكون عبادة في عبادة، تماماً كقراءة الدّعاء المأثور في قنوت الصّلاة المستحبّة أو الواجبة، أو مطلق الذّكر الجائز أثناء الصّلاة مثلاً..

وقد قال جملة من الفقهاء أنّه لا فرق في ذلك بين البكاء رحمة وشفقة لما ارتكب الطغاة في حقّهم بدافع إنساني، وبين كونه قربة لله تعالى أو لأجل قصد أخروي، لأنّ بكاء الرحمة بحدّ ذاته محبوب عند الله تعالى، ويترتّب عليه الأجر والثواب، لكنّ من الفقهاء من اعتبر هذا البكاء **"الرّحمة"** من منافيات الصّلاة، وأكثر الفقهاء على القول بالإقتصار على القربة والقصود الأخرويّة.

والحق أن يُقال أن البكاء على سيّد الشّهداء عليه السلام لا يكون إلاّ قربة لله

تعالى، سواءً انطوى على بعض القصود الأخرويّة أو الدنيويّة، خصوصاً وإنّ الأخبار قد عَنونَت ذكرَه الشريف كمستحب في نفسه، فيكون ذكره الشريف عبادة على كلّ الأحوال.

وقد صرّح أكثر الفقهاء - من المتقدمين والمتأخّرين - بجواز البكاء على الإمام الحسين عليه السلام قربة لله تعالى أو لقصد أخروي، وعنونوا هذه المسألة في كتبهم الإستدلاليّة ورسائلهم العمليّة فراجع(١).

(١) صرّح عدّة من الفقهاء بجواز البكاء في الصلاة على الإمام الحسين عليه السلام ومصائب الآل عليهم السلام مطلقاً، واقتصر بعضهم على موارد القربة إلى الله سبحانه والحصول على الدرجات العالية ومرافقتهم عليهم السلام في الجنان، وقال بذلك المرحوم الشيخ جعفر الكبير آل كاشف الغطاء رحمه الله في كشف الغطاء، والعلاّمة الكرباسي رحمه الله في منهاج الهداية، والفقيه العقيلي النوري رحمه الله في وسيلة المعاد، والفقيه الهمداني رحمه الله في كتاب الصلاة من مصباح الفقيه، وظاهر الشيخ النجفي رحمه الله في جواهر الكلام، وهو المشهور بين الأصحاب لانصراف النصّ عنه.

وأفتى بذلك المرحوم الآية العظمى السيّد أبو القاسم الخوئي رحمه الله في منهاج الصالحين وفي المسائل المنتخبة في باب منافيات الصلاة، فراجع.

وراجع للفائدة بحوث الفقيه الآية الفاضل الدّربندي رحمه الله في كتابه الشهير أسرار الشهادة الذي وفقنا الله تعالى لتحقيقه وطبعه في ثلاثة مجلّدات، فإنّ فيه الكفاية في هذا الموضوع، وراجع كذلك كتاب نجاة الأمّة في إقامة العزاء على الحسين والأئمة عليهم السلام للعلاّمة المعاصر السيّد محمّد رضا الحسيني الحائري ففيه فوائد مهمّة، وكتاب الشعائر الحسينيّة في الميزان الفقهي للشّيخ عبد الحسين الحلي، المطبوع بتحقيق نزار الحائري.

كفّارة الذنوب

إن مقتضى النصوص الشّريفة يؤدّي إلى استحباب البكاء على سيّد الشهداء عليه السلام ، لكونه من كفارات الذنوب العظام وإن بلغت زبد البحر، الصغيرة منها والكبيرة، ويترتّب الجزاء للباكي وإن كان فاسقاً أو منافقاً أو حتّى كافراً، ويغفر الله ذنوب المذنبين بالبكاء من غير حاجة إلى التوبة كما هو ظاهر النّصوص.

ولم ينكر أحدٌ هذا الظّهور، لكّن البعض إستنكره واستبعده للزومه بعض المحاذير، منها دخول الكافر والمنافق وأصحاب الكبائر إلى الجنّة، أو إغراء الجهّال بالمعاصي والموبقات إتّكالاً على هذه العبادة، وهذا قابل للردّ.. إذ الظّاهر أنّ مصلحة بيان فضل البكاء في نفسه أهم من بيان دفع هذه المحاذير المتصوّرة، وإن كان لازمه الإغراء بالجهل المتوهَّم، لما يترتّب على بيان فضل البكاء الحسيني من حفظ الدين وبقاء شريعته وفضح أعدائه، وهي فريضة لا تتقدّمها فريضة بالفضل.

ومع هذا فإن الواجب على المؤمنين من محبّي سيّد الشهداء عليه السلام إجتناب المعاصي صغيرة وكبيرة، فقد قُتل سيّد الشّهداء عليه السلام لحفظ الدين وتثبيت شرائعه والذبّ عن أحكامه، والشيء الذي تؤكّده التعاليم الدينية هو أنّ المعاصي تسلب توفيق الخدمة من مرتكبها وتوجب قساوة القلب وتحجبه عن الإتصال بالأئمّة الأطهار عليهم السلام ، ولا بدّ من استحضار الهدف الذي استشهد من أجله الإمام عليه السلام حال البكاء ليتمّ الإنسجام مع أهدافه وغاياته.

وقد ردّ بعض المتسرّعين هذه الأخبار الجليلة جهلاً بها ودفعاً لهذين المحذورين، كما أنّه عمد آخرون إلى التأويل البعيد، وأمّا أحسنهم حالاً فهو الذي حملها على زمان صدورها، حيث كان ذكر الإمام الحسين عليه السلام محضوراً

والبكاء عليه ممنوعاً، وقال أنّها صدرت ترغيباً بالبكاء كشكل من أشكال الجهاد في تلك الظّروف المتصرّمة في ذلك الوقت.. وعليه فإنّ مدلولات هذه النّصوص مقصورة على تلك الأزمنة الماضية ولا تشمل سائر العصور، فهي لا تختصّ بعصرنا الحاضر، فالبكاء اليوم - بزعم البعض - لا يمحو الذنوب ولا يكفّرها ولا يستحق الباكي كلّ هذا الثّواب !!

وإن أعجب لشيء فعجبي من جُرأة البعض على الخوض في المعارف الدّينية، وعلى البتّ في المسائل الولائيّة بعيداً عن الإحتياط ومراعاة جانب الأئمة الأطهار عليهم السلام، وإن دهشتي لهؤلاء كيف يجدون طلاّباً لبضاعتهم الكاسدة، وهم بلاءٌ عظيم في كلّ زمان ومكان، ومن قال لهؤلاء البسطاء أنّ الإمام الحسين عليه السلام اليوم أو غير هذا اليوم لم يكن له عدو يمنع شيعته من البكاء أو يشنّع عليهم ويستهزء بهم، وأعداء الحسين عليه السلام موجودون في كلّ عصر وزمان، مع إشتداد عداوتهم في هذا العصر كما هو واضح ظاهرٌ عند أدنى تأمّل، والحرّ تكفيه الإشارة، على إشتداد مصيبتنا بغيبة إمامنا ووليّنا عليه السلام.

فالحقّ أن البكاء على الأئمة عليهم السلام عموماً وسيّد الشهداء عليه السلام خصوصاً هو من أرقى أنواع الجهاد في سبيل الله تعالى وحفظ الإسلام والدين في كلّ زمان، ومن أفضل وسائل الدعوة إلى الحق والفضيلة، ومن البديهي أن يترتّب عليه كلّ هذا الثواب، فهو سبب هداية الباكين وإن كانوا من الكافرين أو المخالفين أو المنافقين أو الفاسقين، وهو السبيل البيّن لقبول الإسلام والولاية، وقد دلّت على هذا المطلب نصوص عالية المضامين، وهي متضافرة متواترة.

ولا بدّ أن نضمّ إلى ذلك إستغفار ودعاء الأئمة الأبرار عليهم السلام الذي مرّ في حقّ

الباكين والزائرين، ودعاؤهم لا يتخلّف قطعاً، ولا بدّ أن يعود على كلّ الباكين بالنّفع والفائدة، فلا يحتاجون معه إلى التوبة والإستغفار من الذنوب بعد كون البكاء في نفسه سبب مستقل لغفران الذنوب صغيرة وكبيرة، وقد ورد في الأخبار مثل ذلك في خواص بعض الأعمال، ويمكننا القول أنّ البكاء على مصائب الأئمة عليهم السلام يمثّل توبة إلى الله تعالى على نحو الحقيقة، ورجوع إلى كرمه وعفوه، وتعرّض إلى رضوانه.

فسيّد الشهداء عليه السلام هو إمام الهدى وسفينة النّجاة، وصاحب التأثير الكبير على النفوس الإنسانيّة الحرّة، ولابدّ أن تنجذب له كلّ الأحرار بالحبّ والولاء والإنفعال، ومع البكاء عليه يكون التوحّد والإندكاك بشخصه، والتناغم مع مبادئه وأهدافه وغاياته، والتفاعل معه سبب يمنع دخول النّار، شأن البكاء شأن بعض الصّفات المحبوبة عند الله تعالى والتي تحجز المتّصفين بها عن دخول النّار، وإن كان صاحبها مستوجباً لها بكفر أو نفاق أو فسق، فتكون تلك الصفات مزيلة لتلك الموجبات.

ويدلّ على مرادنا الخبر الذي يرويه الشيخ الصدوق رحمه الله بسند صحيح بإسناد يرفعه إلى أبي عبيدة الحذاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أُتِيَ النّبي صلى الله عليه وآله بأسارى فأمَر بقتلهم خَلا رجلاً من بينهم.

فقال الرجل: بأبي أنت وأمّي يا محمّد، كيف أطلقت عنّي من بينهم؟

فقال: أخبرني جبرئيل عن الله عز وجل أن فيك خمس خصال يحبّها الله عز وجل ورسوله، الغيرة الشديدة على حرمك، والسخاء، وحسن الخلق، وصدق اللسان، والشجاعة، فلما سمعها الرجل أسلم وحسن إسلامه وقاتل مع رسول

الله ﷺ قتالاً شديداً حتى استشهد[١].

فإذا كانت هذه الصفات وأمثالها مانعة من القتل والعقوبة الدنيويّة فلماذا لا تكون مانعة من دخول النّار؟

ومثل مؤدّاه ما روي في الكافي الشريف بإسناد يرفعه عبيد الله بن الوليد الوصّافي، عن مولانا الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: إن مؤمناً كان في مملكة جبار فولع به فهرب منه إلى دار الشرك، فنزل برجل من أهل الشرك فأظله وأرفقه وأضافه، فلما حضره الموت أوحى الله عز وجل إليه: وعزتي وجلالي لو كان لك في جنّتي مسكن لأسكنتك فيها، ولكنها محرمة على من مات بي مشركاً، ولكن يا نار هيديه ولا تؤذيه، ويؤتى برزقه طرفي النهار، قلت: من الجنة؟ قال: من حيث شاء الله[٢].

فالإتصاف ببعض الصّفات وملازمة بعض الأعمال من أسباب حسن العاقبة والهداية وغفران الذنوب، وبمقتضى الأخبار التي مرّت يتقرّر أنّ البكاء على الإمام الحسين عليه السلام من أفضل تلك الأعمال، وفيه ما فيه من إحياء أمرهم عليهم السلام وبعث أهدافهم السّامية.

ولو أنّنا افترضنا عدم هداية هؤلاء الأصناف بعد بكائهم، أو أنّنا اشترطنا الإيمان لدخول الجنّة، فلا تنافي بين هذا الإفتراض ودعوانا، إذ ليس من المحتوم دخولهم الجنّة، كما أنّه لا مانع من عدم دخولهم النّار، فيكون حيث شاء الله كما

(١) راجع أمالي الصدوق ص (٢٧١)، وبحار الأنوار (١٨/١٠٨).

(٢) راجع الكافي (٢/١٨٨)، وبحار الأنوار (٨/٣١٥).

تقدّم في الخبر الأخير، فقد حرّم الله تعالى النّار على الباكين على الإمام الحسين عليه السلام كما هو ظاهر النصوص.

ويمكن أن نحمل وجوب دخول الجنّة على خصوص المؤمنين، وتحريم دخول النّار على الفاسقين، أمّا الكفّار فإنّهم يجازون في دار الدّنيا إذ ليس لهم من خَلاق يوم القيامة، ولا تصحّ عباداتهم ليُثابوا عليها يوم الجزاء، فيُعطيهم الله تعالى ما شاء من الخير في الدنيا.

سر الثّواب الجزيل

من المثير بالفعل أن يكون للبكاء على مصائب أهل البيت عليهم السلام عموما والإمام الحسين عليه السلام خصوصاً كلّ هذا الثواب الكبير، وفحوى الأخبار الشريفة تفضليه على سائر العبادات والأعمال، ويعتقد أكثر من عارفٍ بعلوم أهل البيت عليهم السلام أن السّر هو كون الحزن والبكاء محقّق وجود محبّة أمير المؤمنين عليه السلام في قلوب المؤمنين، ومظهر خاص لتجلّي الولاية عند الموالي، وكاشف عن معرفة راقية بهم عليهم السلام قد انطوت عليها ضمائر الباكين.

ومن الثّابت في محلّه أنّه ليس في حبّهم وموالاتهم ومعرفتهم عذر لأحد، وقد افترض الله حبّ عليّ أمير المؤمنين عليه السلام على جميع أهل السماوات والأرضين، والله تعالى سائلهم عن ذلك يوم القيامة، وهذا من ضروريّات المذهب الحق، كما أنّه من ضروريّات الدين عند الإنصاف والترفّع عن العصبيّة المقيتة، وقد دلّت نصوص الأحاديث عند المسلمين على ذلك.

وروى الكراجكي في كنز الفوائد حديثاً يرفعه إلى سلمان الفارسي، قال: كنّا

عند النبي ﷺ في مسجده، إذ جاء أعرابي فسأله عن مسائل في الحج وغيره.

فلمّا أجابه قال له يا رسول الله، إن حجيج قومي ممّن شهد ذلك معك أخبرنا أنك قمت بعلي بن أبي طالب عليه السلام بعد قفولك من الحج، ووقفته بالشجرات من خم، فافترضت على المسلمين طاعته ومحبّته وأوجبت عليهم جميعاً ولايته، وقد أكثروا علينا من ذلك، فبيّن لنا يا رسول الله أ ذلك فريضة علينا من الأرض لما أدنته الرحم والصّهر منك، أم من الله افترضه علينا وأوجبه من السماء؟

فقال النبي ﷺ: بل الله افترضه وأوجبه من السماء، وافترض ولايته على أهل السماوات وأهل الأرض جميعاً، يا أعرابي، إن جبرئيل عليه السلام هبط علي يوم الأحزاب وقال إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: إني قد افترضت حب علي بن أبي طالب ومودتّه على أهل السماوات وأهل الأرض فلم أعذر في محبته أحداً، فمُر أمّتك بحبّه، فمن أحبه فبحبّي وحبّك أحبّه، ومن أبغضه فببغضي وبغضك أبغضه، أما إنه ما أنزل الله تعالى كتابا ولا خلق خلقاً إلاّ وجعل له سيداً، فالقرآن سيد الكتب المنزلة، وشهر رمضان سيد الشهور، وليلة القدر سيّدة الليالي، والفردوس سيد الجنان، وبيت الله الحرام سيد البقاع، وجبرئيل عليه السلام سيّد الملائكة، وأنا سيد الأنبياء، وعلي سيد الأوصياء، والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، ولكل امرئ من عمله سيّد، وحبّي وحبّ علي بن أبي طالب سيد الأعمال، وما تقرب به المتقربون من طاعة ربهم.

يا أعرابي، إذا كان يوم القيامة نصب لإبراهيم منبر عن يمين العرش، ونصب لي منبر عن شمال العرش، ثم يدعى بكرسي عال يزهر نوراً فينصب بين المنبرين، فيكون إبراهيم على منبره، وأنا على منبري، ويكون أخي علي

على ذلك الكرسي، فما رأيت أحسن منه حبيباً بين خليلين، يا أعرابي، ما هبط علي جبرئيل عليه السلام إلاّ وسألني عن علي، ولا عرج إلاّ وقال: اقرأ على عليّ مني السلام[1].

ولا يشكّ مؤمن بعد ذلك أن حبّ علي أمير المؤمنين عليه السلام من أفضل العبادات والأعمال، كما لا يشكّ في أنّ الله تعالى لم يعذر أحداً في حبّه، فإذا كان حبّه كذلك فإنّ مظهر صدق حبّه يكون بهذه الدّرجة من الفضل، وطبيعيّ أن يعد الله سبحانه عليه جزيل الثواب.

فإذا تأمّلنا في قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لمولانا سيّد الشهداء عليه السلام: أنت عبرة كلّ مؤمن ومؤمنة يا ولدي، وإلى قول سيد الشهداء عليه السلام: أنا عبر كل مؤمن ومؤمنة يا أبتاه؟[2]

ظهر لنا أن المراد من سؤاله عليه السلام أبيه عليه السلام هو: هل أنا مظهر حبّ المؤمن لك؟ وهل أنا الحجّة والدليل على إيمانه وموالاته لك؟ وهل الدّمعة عليّ كاشفة للتولّي لنا؟ وظهر لنا أنّ جواب ذلك بالإيجاب قطعاً، وكم من سائل عن أمره وهو عالم!!

ومن هنا تتضح أمور أخرى جليلة، منها ترتّب الثواب على الدمعة ولو كانت بمقدار جناح البعوض أو جناح الذباب، فهي من المؤمن كاشفة عن جوهره النفيس، ومحقّقة لعنصره السامي، وهي تكفي لبلوغ أعلى رتب الأجر والثواب

---

(١) راجع كنز الفوائد (٢/ ٢٣٧)، وتأويل الآيات الظاهرة ص (٨٣)، وشواهد التنزيل (١/ ٤٦٣)، وبحار الأنوار (٤٠/ ٥٥)، ومثله في الجواهر السنيّة للحر العاملي ص (٣٠٣).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٠٨)، وعنه بحار الأنوار (٤٤/ ٢٨٠).

لصدورها مع الولاية لأهل البيت عليهم السلام..

ويتّضح بذلك وجه أفضلية البكاء لمصائبهم عليهم السلام على سائر العبادات والأعمال، فالبكاء المفضّل هو إنعكاس ولاية أهل البيت عليهم السلام على مرآة النفس الطيّبة.

وقد يُقال أنّ هذا تعسّفٌ وتحكّم، إذ أنّ البكاء مندوبٌ، وقد فضّلته على سائر العبادات والأعمال مطلقاً، وفإنّه قد يستقيم تفضيله على المندوبات، إلاّ أنّ العبادات والأعمال فيها الواجبات، فكيف تقدّم المندوب على الواجبات !!

ولدى التّحقيق نجد أنّ دعوى تفضيل الواجب على المندوب وكونه ذلك قاعدة كليّة لا تصمد أمام النقد الدّقيق، ولو كانت قاعدة كليّة عقلية لما تطرّق لها التخصيص، وقد تطرّق في أكثر من حكم وحكم.

فمسلّم معروف أن إنظار المعسر وإمهاله واجب، وإبراؤه مندوب، والثاني أفضل من الأول، ومسلّم أنّ ردّ السلام واجب، والإبتداء به مندوب، والثاني أفضل من الأوّل، وهكذا..

ولا يُتوهّم من ذلك التقليل من قيمة الواجبات التي عليها قوام الدين، كالصلاة التي إن قُبلت قُبل ما سواها وإن رُدّت رُدّ ما سواها، وكذا سائر العبادات والواجبات، خصوصاً وأن سيّد الشّهداء عليه السلام قُتل في سبيل الذبّ عن هذه الأحكام، لكنّ الصّلاة وسائر الواجبات لا تنفع إلاّ إذا حازت الشّرائط الظّاهرية والباطنيّة، وأعني بالظّاهرية شرائط الصّحة المذكورة في الكتب الفقهيّة، وأعني بالباطنيّة الموالاة لأهل البيت عليهم السلام، ويستحيل أن يستوفي المؤمن تلك الشرائط الظّاهرة والباطنة للعبادات إلاّ إذا كان من أهل

الحزن والبكاء عليهم عليهم السلام والزّائرين لقبورهم.

فمن اتّصف بنور الولاية اتصف بكواشفها، والحزن على مصائبهم عليهم السلام والبكاء عليهم وزيارة قبورهم من أوّل كواشف التولّي لهم، وهي مظاهر متقدّمة - عند النّظر الدقيق - على سائر العبادات في الفضل والثواب.

فقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله في الخصال والعيون بإسناده إلى الفضل بن شاذان، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: لما أمر الله عز وجل إبراهيم أن يذبح مكان إبنه إسماعيل الكبش الذي أنزله عليه تمنى إبراهيم أن يكون قد ذبح ابنه إسماعيل بيده، وأنه لم يؤمر بذبح الكبش مكانه، ليرجع إلى قلبه ما يرجع إلى قلب الوالد الذي يذبح أعز ولده عليه بيده فيستحق بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب.

فأوحى الله عز وجل إليه: يا إبراهيم، من أحب خلقي إليك؟ فقال: يا ربّ ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ من حبيبك محمّد. فأوحى الله إليه: أ فهو أحب إليك أم نفسك؟ قال: بل هو أحب إلي من نفسي. قال: فولده أحبّ إليك أم ولدك؟ قال: بل ولده..

قال: فذبح ولده ظلماً على أيدي أعدائه أوجع لقلبك أو ذبح ولدك بيدك في طاعتي؟ قال: يا رب، بل ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي.

قال: يا إبراهيم، فإن طائفة تزعم أنّها من أمة محمد ستقتل الحسين ابنه من بعده ظلما وعدواناً كما يذبح الكبش ويستوجبون بذلك سخطي، فجزع إبراهيم لذلك وتوجّع قلبه، وأقبل يبكي.

فأوحى الله عز وجل: يا إبراهيم، قد فديت جزعك على ابنك إسماعيل لو

ذبحته بيدك بجزعك على الحسين وقتله، وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[1].

فمهما أتى المؤمن الكامل بعباداته على الوجه الأتم بشّرائطها الظّاهريّة والباطنيّة فإنّه لا يدّعي أنّ عبادته توازي ذبح الخليل عليه السلام ولده إسماعيل عليه السلام بيده فضلاً وثواباً، ومع هذا فإنّ مفاد الرواية يدل على أنّ الله تعالى أثاب نبي الله إبراهيم عليه السلام بجزعه على الإمام الحسين عليه السلام أكثر من مثوبته على ذبح ولده !!

هذا، ويمكن أن نقول أن الإمام المعصوم عليه السلام إذا نقل حكماً أو شبه حكم في أخبار الأنبياء السابقين عليهم السلام ولم يصرّح ببقاء الحكم وعدمه دلّنا ذلك على بقاء الحكم واستمراره، فأفضليّة الجزع في مصائب الإمام الحسين عليه السلام على سائر العبادات والأعمال الواجدة للشرائط أمر باق وجار في هذه الأمّة، وهو أفضل من أعمالنا عامّة ولو بلغت حدّ ذبح نبيّ ولده بيده بأمر الله تعالى.

البكاء والتباكي

نصّت النصوص الشريفة على استحباب التباكي، ورتّبت عليه نفس آثار البكاء، ويلجأ المؤمن إلى التباكي إذا تعسّر عليه البكاء وإسالة الدّمع، فيتشبّه بالباكي ويحاول أن يحاكيه مع استشعار حالته بهيَجان النفس واحتراق الفؤاد، فهو بكاءٌ متكلّف إن صحّ التّعبير، وهو أبعد ما يكون عن الرّياء أو التصنّع، لأنّه مقرونٌ بالتفجّع والتألّم على مصابهم عليهم السلام.

---

(١) راجع الخصال (٥٨/١)، وعيون أخبار الرضا (٢٠٩/١)، وبحار الأنوار (١٢٤/١٢) و (٢٢٥/٤٤)، وتأويل الآيات الظاهرة ص (٤٨)، وقصص الأنبياء للجزائري ص (١٢٦).

ومجموع النصوص دالٌّ على استحباب كلّ مظاهر الحزن المختلفة، ودالٌّ على إستحباب كلّ مصاديق الجزع على الإمام الحسين عليه السلام، وقد دلّت نصوص معنعنة مرويّة في الكافي والوسائل على خصوص التباكي، وأنّه قسيم البكاء في الأجر والثواب.. منها ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: إن لم تكن بك بكاء فتباك.

ورُوِيَ عنه عليه السلام أيضاً: إنّي أتباكى في الدّعاء وليس لي بكاء، قال: نعم، ولو مثل رأس الذباب[1].

والتباكي المطلوب يحمل على البكاء ويفضي إليه عادة، وداعيه عبادي كالبكاء تماماً، وهو بعيد عن الرياء الذي يبطل العمل، لأنّ الرياء يعني إشراك غير الله تعالى في العبادة والعمل، وأمّا التباكي فهو عملٌ مطلوبٌ في نفسه، وليس فيه إشراك أحد في العمل، ويمكن أن يقع الرياء من المتباكي كما يقع من الباكي، وكما يقع في سائر الأعمال.

وإذا افترضنا تنزّلاً - وهذا لا يصح - صدق الرياء عليه من جهة من الجهات فإنّه من مصاديقه المحمودة، سيّما إذا كان في مجالس سيّد الشهداء عليه السلام فإنّه باعث على تهيئة قلوب الحاضرين للحزن والبكاء، وسببٌ لإيقاد حرارة المصيبة في المجلس العام، وهذا عنوان - بحدّ ذاته - يرجّح التباكي..

فهو أشبه ما يكون بالصّدقة التي يتصدّق بها الإنسان علانية لتشجيع النّاس على العطاء وإفشاء عادة البذل والكرم في المجتمع، ونيّة مراعاته الآخرين لا تبطل صدقته أو عمله قطعاً، أو هو أشبه بالكذب للإصلاح بين مؤمنين، والأمثال غير

---

(١) راجع الروايتين في الكافي (٢/٤٨٣)، ووسائل الشيعة (٧/٧).

عزيزة في هذا الصدد.

رفع الصوت بالبكاء

تحفّظ البعض في مسألة الصّياح ورفع الأصوات عند البكاء في المآتم، واعتبره خروجاً عن التحضّر والذّوق والعصرنة، حتّى أنّ بعض المثقّفين همس إليّ في بعض المجالس قائلاً: إنّ صياح الباكين ضجيجٌ ضوضائي!!

إلاّ أنّه لا تعنينا هذه الثقافة التي تستنكره استنكار تحريم، وربّما يستشهد بعضهم بالآية الشريفة من سورة لقمان: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾، وقد فات هؤلاء أنّها في مقام الإرشاد إلى الآداب ومحاسن الأخلاق، وليست في مقام تأسيس تكليف أو حكم إلزامي في هذه الأمّة.

هذا، وقد اقتضت بعض العبادات لزوم رفع الصوت كما هو الحال في الأذان والتلبية والصّلاة على النبي ﷺ وهي مزعجةٌ للبعض، وقد جاء في أحاديث صحيحة عنهم عليهم السلام: أنّ رفع الصوت بالصلاة على النبي يذهب النفاق[1].

كما ورد في بعض الروايات عنهم عليهم السلام: أنّ رفع الصوت بالأذان في المنزل ينفي الأمراض ويكثر الولد[2].

وقد اشتهر أن أمير المؤمنين عليه السلام ليلة شهادته اعتلى المئذنة، ووضع سبابتيه

---

(١) راجع ثواب الأعمال ص (١٩٠).

(٢) راجع المقنع للشيخ الصدوق ص (٢٧)، والجامع ليحيى بن سعد الحلي ص (٧٣)، والدّعوات للراوندي ص (١١٦).

في أذنيه، ثم أذّن، وكان إذا أذّن لا يبقى في الكوفة بيت إلاّ اخترقه صوته.

فإنّ الشّارع لما استحب رفع الصّوت في هذه الموارد لم يشترط كون الصّوت حسناً أو غير مستنكرٍ، وصياح المعزّين في مجالس الإمام الحسين عليه السلام ليس بأرفع من قول الحُجّاج: لبيك قطعاً، وليس كلّ حاج حسن الصوت، وهذا هو حال النّاس سواء رثوا أم لبّوا، ولا دليل على منع رفعه بحال.

لكنّ الكلام في صياح النّساء بمسمع الرجال في مجالس الإمام الحسين عليه السلام بحاجة إلى وقفة متأنّية رغم ثبوت عدم الإشكال فيه في نفسه، وتوهّم بعض حرمته فاحتجّ بالخبر المشهور على الألسن " صوت المرأة عورة " لكنّنا عند التحرّي نخلُص إلى حقيقة مهمّة، وهي أنّ مصادرنا المعتبرة خالية من هذا القول أصلاً، علاوة على أنّ بروز أصوات المعزّيات لا يتنافى مع قاعدة مستفادة من الأخبار المعمول بها.

ويتكرّر هذا الوهم والإحتجاج بالنبوي المنسوب، إلاّ أنّنا لم نعثر عليه في كتب الحديث أصلاً، غير أنّه ذُكر في بعض المتون الفقهية، كشرائع الإسلام، وقد ردّ عليه جملة شرّاح هذا الكتاب، وادّعى كاشف اللثام الإجماع عليه، إلاّ أنّ التّتبع يردّه، ولم يعتن المتأخّرون بنقله للإجماع في هذا الأمر.

أمّا صاحب الجواهر فقد ردّه بالسّيرة المستمرّة من العلماء والمتديّنين القائمة على خلافه، وبالمتواتر أو المعلوم من كلام الزهراء عليها السلام وبناتها بحضور الأجانب، ومن مخاطبة النساء للنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام على وجه لا يمكن إحصاؤه، ولا تنزيله على الإضطرار لدين أو دنيا.

ثم قال: ولعلّه لذا وغيره صرّح جماعة كالكركي، والفاضل في المحكي عن

التذكرة وغيرهما ممّن تأخّر عنه كالمجلسي وغيره بجواز سماع صوتها، بل بملاحظة ذلك يحصل للفقيه القطع بالجواز[١].

نعم، ورد في أكثر من رواية أنّ النّساء عورة، كما في متن الرّواية التي رواها هشام عن الصادق عليه السلام: " النساء عي وعورة، فاستروا العورات بالبيوت، واستروا العيّ بالسكوت "[٢].

ولا ينبغي الخلط بين هذه الرّوايات وبين دعوى أنّ صوت المرأة عورة، فهذه الرّوايات صريحة في الأمر بالسّكوت لعيّها، لا لكونها عورة أو أن صوتها عورة، خصوصاً وقد صدر البكاء في الأخبار عن سيّدة النساء عليها السلام حتّى تأذّى منه أهل المدينة، كما في رواية الخصال، وظاهر هذا البكاء يفوق الحدّ الإعتيادي، وإلاّ لما أوجب قلق أعدائها، وقد روي أنّها عليها السلام في اليوم الثامن من وفاة أبيها خرجت وصرخت فتبادرت النساء، وخرجت الولائد والولدان، وضج الناس، وجاءوا من كل مكان، وأطفئت المصابيح، لكي لا تبين صفحات النساء[٣].

---

(١) راجع جواهر الكلام (٢٩ / ٩٨).

(٢) وهو لفظ مستفيض في روايات أهل البيت عليهم السلام، ففي الكافي (٥/٥٣٥) عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: النساء عيٌّ وعورة. وفي الفقيه (٣/٢٤٧) قريب منه، وفي أمالي الشيخ عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: النساء عيّ وعورات، فداووا عيّهن بالسكوت، وعوراتهنّ بالبيوت..

وفي الكافي (٥/٥٣٥) عن علي عليه السلام: لا تبدؤوا النساء بالسلام، ولا تدعوهنّ إلى الطعام، فإن النبي صلى الله عليه وآله قال: النساء عيّ وعورة، فاستروا عيّهن بالسكوت، واستروا عوراتهنّ بالبيوت.

(٣) راجع بحار الأنوار (٤٣/١٧٥)، وراجع لخبر بكائها وتأذّي أهل المدينة: الخصال للشيخ

ويُروى كذلك أنّ العقيلة زينب عليها السلام وسائر بنات أمير المؤمنين عليه السلام خرجن عند وفاته وجميع النساء، وقد شققن الجيوب، ولطمن الخدود، ووقعت الصيحة منهنّ، حتى جاء الناس يهرعون، وصاحوا صياحاً عظيماً، ارتجت له الكوفة بأهلها[1].

وأمثال هذه الحالات المرويّة غير عزيزة في وقائع يوم عاشوراء والطّف، فقد رويت متواترة في الكتب المعتبرة، وكان ذلك بحضور حجّة الله الإمام زين العابدين عليه السلام.

وغريب من بعد ذلك قول بعضهم: إنّه ولو افترضنا عدم تحريم الصياح في المآتم إلاّ أنّه يجب تنزيه المآتم عنه، لكونه معيباً شائناً، فإذ كان غير محرّم فما الوجه في وجوب تركه! ومعلومٌ أنّ غير المحرّم لا يجب تركه، وأيّ عيب أو شين في عمل أمر به الأئمة عليهم السلام وفعلوه! ولم يروه معيباً وشائناً!

نعم، المحرّم عند فقهائنا حرمة الإستماع لا غيره، خصوصاً مع التلذّذ والريبة، وبه قطع العلامة في التذكرة واستجوده الشّهيد الثاني وصاحبا الكفاية والمفاتيح وجلّ من تأخّر عنهم، أما التكلّم والسّماع بلا استماع من الرجل فليس بمحرم..

فالأخبار الصادرة عن الأئمة عليهم السلام وإن تضمّن بعضها النهي عن تكلم المرأة مع غير المَحرم عليها إلاّ أن أكثرها صريح بجوازه.

→

الصدوق (١/ ٢٧٣).

(١) راجع بحار الأنوار (٤/ ٢٩٣).

وجرت سيرة العلماء على التكلّم مع النساء من الصّدر الأول إلى زماننا بما يزيد على القدر الضروري، تبعاً لما تحقّق في السّيرة القطعية لأهل بيت العصمة عليهم السلام، وقد ورد في أكثر من خبر ثابت تكلّم النساء معهم عليهم السلام بمحضر أصحابهم بلا ضرورة، كخبر أبي بصير المروي في الكافي، قال: كنت جالساً عند أبي عبد الله عليه السلام فاستأذنت علينا أم خالد التي كان قطعها يوسف بن عمر، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أيسرّك أن تسمع كلامها؟

فقلت: نعم.. فأذن لها، وأجلسني معه على الطّنفسة، قال: ثم دخلت، فتكلّمت، فإذا هي امرأة بليغة[1].

وقد طفحت السيرة - كما تقدّم - بنياحة النّساء وبكائهنّ على حمزة بمسمع النبي صلى الله عليه وآله بل بأمره، والنياحة ليست بكاءً مجرداً مع الصوت فقط بل هي ندبة بمقاطيع من الشعر، تُلقيها النساء إنشاداً أو إنشاءً، وقد يتخلّل ذلك صياح وزعيق، كما قد يُعلم من صياح فاطمة الزّهراء عليها السلام على أبيها صلى الله عليه وآله، وصياح بناتها يوم قتل أمير المؤمنين عليه السلام.

نعم، حرّم بعض فقهائنا صياح المرأة على الموتى، ولكن لا لأن صوتها عورة، بل لأنه داخل تحت عنوان الجزع المحرّم، وقد قدّمنا الخبر الصحيح الصريح عن أئمة الهدى عليهم السلام وأنهم قالوا: كل الجزع والبكاء مكروه، سوى الجزع والبكاء على الحسين عليه السلام[2].

---

(١) راجع الكافي (٨/١٠١).

(٢) تقدّم الخبر، وقد رواه الشيخ في الأمالي (١/١٦٢) عن معاوية بن وهب عن الصادق عليه السلام،

ومعلومٌ أنّ أغلب عزاء الشّيعة ومظاهر حزنهم مظهر من مظاهر الجزع المندوب، وإذا كان كذلك، فلا ضير في أن تتجاوز النساء حدّ الحزن المتعارف حالها حال الرّجال، أسوة بعيالات الحسين عليه السلام اللواتي روي عن بعضهنّ في المرسل الذي صحّحه بعض العلماء أنّها لما لاح لها رأسه، نطحت جبينها بمقدم المحمل حتى سال دمها[1].

فإنّ ذلك من باب الجزع المندوب على سيّد الشهداء عليه السلام وإن استلزم منه إيلام نفسها بصورة لا تؤدّي إلى الهلاك أو المرض، فلا يدلّ دليلٌ على حرمته إن كان بهذا القدر قطعاً، وقد ترقّت الأخبار إلى أكثر من هذا القدر أيضاً، فالظاهر

←

ونقله الحرّ العاملي في الوسائل (١٠/٣٩٥) عن الشيخ أيضاً، عن معاوية بن وهب في حديث: أنه عليه السلام قال لشيخ: أين أنت عن قبر جدي المظلوم الحسين عليه السلام؟ قال: إني لقريب منه. قال: كيف إتيانك له؟ قال: إني لآتيه وأكثر، قال عليه السلام: ذاك دم يطلب الله به، ثم قال: كل الجزع والبكاء مكروه، ما خلا الجزع والبكاء لقتل الحسين.

وروى ابن قولويه في الكامل ص (١٠٠) عن أبيه، عن سعد، مسنداً إلى أبي حمزة عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: إن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع، ما خلا البكاء والجزع على الحسين عليه السلام فإنه فيه مأجور.

وفي خبر مسمع عن الصادق عليه السلام: أما إنك من الذين يعدّون من أهل الجزع لنا. كامل الزيارات ص (١٠١).

وفي ما رواه الشيخ في المصباح ص (٧١٤) مسنداً عن أبي جعفر عليه السلام في من يزور الحسين عن بعد في يوم عاشوراء: ويقيم في داره المصيبة بإظهار الجزع عليه.

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/١١٤)، وعوالم العلوم (١٧/٣٧٣)، والمنتخب للشيخ الطريحي (٢/٤٦٤) المجلس (١٠).

من الأخبار جواز الهلع أيضاً، وهو - بحسب اللغة - أفحش الجزع وأشدّه، والذي عليه نصّ خبر قدامة بن زائدة - وقد تقدّم - أن الإمام السّجاد عليه السلام قد صدر منه الهلع في قوله عليه السلام لعمّته: كيف لا أجزع وأهلع !! وقد أرى أبي وعمومتي وولد عمي صرعى لا يوارون، وقد روى المؤرّخون في إحدى صور هلعه أنّه عليه السلام كان إذا أخذ إناءً ليشرب يبكي حتى يملأه دمعاً[١].

ولو قال قائل أن رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن الرنّة في المصيبة، وورد أنّه " من أقام النواحة فقد ترك الصّبر " وورد مستفيضاً النّهي عن دعاء المرأة بالويل والثبور عند المصيبة، والأخذ بإطلاق هذه المضامين يحرّم على النساء رفع أصواتهنّ في عزاء الإمام الحسين عليه السلام.

فإنّا نقول أنّ الحرمة مختصّة بالنياحة والصّراخ على غير الإمام الحسين عليه السلام، وقد دلّت أخبار استحباب البكاء والجزع على هذا المطلب، ولا شكّ في أنّ الصياح عليه بهذا النحو شكل من أشكال الجزع المندوب، فلا يمكن إقامة أي دليل يدلّ على تحريم صياح النساء في المآتم الحسينية.

وقد قال صاحب الحدائق رحمه الله:

أنّ ظاهر أكثر الأصحاب الإعراض عن تلك الأخبار - أي أخبار النهي عن

---

(١) لقد تواترت النصوص في مسألة بكاء الإمام السجاد عليه السلام بشكل كبير، ونقل هذا الخبر وغيره في مناقب آل أبي طالب لابن شهراشوب، ونقله عنه في بحار الأنوار، وفي جلاء العيون، وتجدر الإشارة إلى أنّ النّص الموجود في النسخ المطبوعة من البحار والمناقب وجلاء العيون أن الإناء كان يمتلأ دمعاً وليس دماً، خلافاً لبعض الكتب المتأخّرة التي تذكر لفظ الدّم نقلاً عن نفس المصادر.

الرنّة والنائحة وأمثال ذلك - وتأويلها، وحملها على محمل آخر، كاشتمالها على شيء من المناهي أو الباطل، فإن القول بالتحريم مذهب كثير من أصحاب الحديث من الجمهور، وهو مردودٌ، وذكر نقلاً عن الجمهور - كما في المغني لإبن قدامة - أنّ الزّهراء عليها السلام قالت: يا أبتاه، من ربّه ما أدناه، يا أبتاه إلى جبرئيل أنعاه، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه[١].

وقد ذكر العلاّمة الشيخ الحلّي رحمه الله في شعائره وجوه الإعراض عن تلك المرويّات، فقال:

أولاً: بأن ذلك لا يقتضي إلاّ حرمة نفس الصّراخ، لا حرمة المآتم والتمثيلات التي يقع فيها ذلك، لأنه من الأمور الخارجة عن المآتم والتمثيل المقارنة لهما، والمحرّم الخارج المقارن لا يقتضي بوجه حرمة ما يقارنه..

وقد روى في الكافي صحيحاً عن زرارة قال: حضر أبو جعفر عليه السلام جنازة رجل من قريش، وأنا معه، وكان في الناس عطاء، فصرخت صارخة، فقال عطاء: لتسكتنّ أو لنرجعنّ، فلم تسكت، فرجع عطاء. فقلت لأبي جعفر عليه السلام: إن عطاء رجع لمكان صراخ الصارخة، فقال: امض بنا، فلو أنّا إذا رأينا شيئاً من الباطل مع الحق، تركنا له الحق، لم نقض حق مسلم[٢].

---

(١) راجع الحدائق النّاضرة للفقيه المحدّث الشيخ يوسف البحراني رحمه الله في باب أحكام الموتى من كتاب الطهارة (١٦٨/٤).

(٢) راجع الحديث في الكافي (١٧١/٣ - ١٧٢)، ونقل في الوسائل (٨١٨/٢) في أبواب تشييع الجنازة، وعطاء المذكور في الخبر كان من كبار بني أمية ومفتي بلاطهم.

وهذا من وضوح الدلالة على ما أشرنا إليه، بحيث لا يحتاج إلى تقريب.

وثانياً: بأن الصياح والصراخ إنما يكره أو يحرم على غير الحسين عليه السلام، وأما عليه فلا حرمة ولا كراهة، لأنه من مظاهر الجزع عليه وهو مندوب إليه، كيف وأعظم المعدودات في تحديد الجزع هو لطم الوجه والصدر والنواحة، وهذه الأخيرة مما طفحت الأخبار باستحبابها، وإلاّ لزم سد المآتم عامة.

أما لطم الخد فضلاً عن الصدر فقد دل على جوازه خبر خالد بن سدير عن الصادق عليه السلام، وفيه: ولقد شققن الجيوب، ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي عليه السلام وعلى مثله تلطم الخدود وتشقّ الجيوب[١].

هذا مضافاً إلى إطلاق قول الحجة عليه السلام في دعاء الندبة: فعلى الأطايب من أهل بيت محمد وعلي فليبك الباكون، وإيّاهم فليندب النادبون، ولمثلهم فلتذرف الدموع، وليصرخ الصارخون، ويضجّ الضاجّون، ويعجّ العاجّون[٢].

وفي حديث معاوية بن وهب عن الإمام الصادق عليه السلام: اللّهمّ ارحم تلك الصرخة التي كانت لنا[٣].

قال في القاموس: الصرخة الصيحة الشديدة.

وثالثاً: بأن هذه الشعائر العزائية التي يقع فيها صياح النساء بمسمع من

---

(١) راجع ما رواه الشيخ في التهذيب (٣٢٥/٨) عن خالد بن سدير.

(٢) راجع إقبال الأعمال ص (٢٩٥).

(٣) راجع كامل الزيارات ص (١١٧).

الرجال الأجانب قد عقدها الأئمة عليهم السلام في دورهم وأمروا بها، فقد روى الصّدوق في العيون أن دعبل بن علي لما أنشد الرضا عليه السلام تائيته المشهورة وانتهى إلى قوله:

أَ فاطمُ لو خلتِ الحسينَ مُجدّلاً   وقد ماتَ عطشاناً بشطِّ فراتِ
إذاً لِلطمتِ الخدَّ فاطمُ عندَهُ   وأجريتِ دمعَ العينِ في الوجناتِ

لطمت النساء، وعلا صراخ من وراء الستر، وبكى الرضا عليه السلام بكاءً شديداً حتى أغمي عليه مرتين(١).

ورَوَى أبو الفرج بسند معتبر:

أنه لما دخل السيد الحميري على الصادق عليه السلام، أقعد حرمه خلف الستر، ثم استنشده في رثاء جده الحسين عليه السلام فأنشده أبيات كثيرة قال - يعني راوي الحديث : فرأيت دموع جعفر تنحدر على خديه، وارتفع الصراخ من داره حتى أمره بالإمساك، فأمسك(٢).

وتعدّدت هذه المآتم التي تصرخ فيها النساء بمسمع من الإمام الصادق عليه السلام في ما يبدو، ورويت في غير قصة الحميري، وفي بعضها: فبكى الصادق عليه السلام وتهايج النساء، وتارة: فلما انتهيت بالإنشاد إلى.. صاحت باكية من وراء الستر: يا أبتاه.

ورُوِيَ في كامل الزّيارات عن أبي هارون المكفوف أنّه أنشد الإمام الصّادق

---

(١) سوف يأتيك الخبر مفصّلاً قريباً.

(٢) راجع الأغاني (٧/٧).

عليه السلام فبكى، واستزاد فأنشده، فبكى وتهايج النساء[1].

ورَوِي فيه بإسناده إلى عبد الله بن غالب قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فأنشدته مرثية الحسين بن علي، فلما انتهيت إلى هذا الموضع:

فيا ليلةً تسقو حسيناً بمسقاةِ الثّرى عفرَ التّرابِ

صاحت باكية من وراء الستر: يا أبتاه[2].

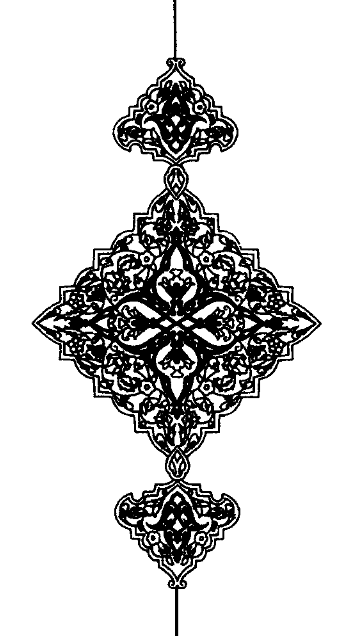
---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠٥ - ١٠٦)، وسيأتي الخبر في رمّته في الحديث عن الإنشاد.

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٠٦)، والروايات كثيرة في هذا الصّدد.

الشعيرة الثالثة

المجالس



المجالس

تتحدّر مجالس الإمام الحسين عليه السلام التي نشهدها اليوم عن تاريخ متسلسل حافل بالجهود المضنية، وترجع أصولاً إلى صدر الإسلام مروراً بعصور الأئمة الطاهرين عليهم السلام، حيث بذل الأئمة عليهم السلام أقصى الجهود في تدشين هذه المؤسّسة الضخمة ووضع معالمها الرّاسخة الأسس، فهي نبويّة الإنطلاقة، إلاّ أنّها تطوّرت بعد الشّهادة، وازدهرت في عهد الأئمة عليهم السلام.

ومثّلت مجالس العترة النبويّة الإمتداد الأصيل لمجالس النبي صلى الله عليه وآله، وكانت المعاهد والمدارس التي أسّسها منذ بعثته في قلب جزيرة العرب، وبها استطاع أن يقلب الموازين، وأن يحوّل الظّلمة الظّلماء إلى نور وضّاء يملأ سماء المشرق، فمجالسه صلى الله عليه وآله أساسها العلم والنور والهدى، شأنها زرع الأمان في النفوس وتشييد الإرتباط بالحق، وتربية مرتاديها على طاعة الجليل وتقواه والعمل الصّالح وتعظيم شعائر الله سبحانه.

وبها تأهّل الصّحابة لحمل أمانة العلم إلى الأجيال القادمة، ببسط مشاعل النّور والهدى وإتاحة فرص وأجواء التلقّي الرّوحي لاستقبال نور الله تعالى الذي يقذفه في قلب من أحب من أصحابه البررة رضي الله عنهم.

وتظافرت جهود أبنائه عليه السلام المضنية من بعده صلى الله عليه وآله وسلم، وعملوا على إعداد وتأهيل نسبة عالية من عيون المجتمعات عبر مجالسهم التي أثروها بالعلم والهدى، كما أنّهم رفعوا أقدار نفر آخرين بتعليمهم وتفقيههم، حتّى تخرّج الألوف من مدرستهم العظمى، مفتخرين بهذا الإنتساب المشرّف، وحملوا علومهم وهديهم إلى الملايين عبر تتالي الأجيال، بأمانة وصدق ورساليّة.

ونقل التأريخ صورة المستوى الرّفيع الذي وصلت إليه المجالس بعد أن كان العرب في تيه الجاهليّة المظلم، وبعد أن كانت مجالسهم ومنتدياتهم خاوية بالية، فأُهّلت لتحتضن أمّة متحضّرة تنافس الحضارات وتذبّ عن فكرها وأصالتها، بتبديد التصحّر والجفوة والقسوة والجهل، واستبدالها بالعلم والفكر النّاضج والأفق الواسع.

وتقول الصدّيقة الطّاهرة الزّهراء عليها السلام في خصوص هذا التحوّل: " وكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطأ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون الورق، أذلّة خاسئين، تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ من حولكم، فأنقذكم اللّه تبارك وتعالى بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم "[1].

فتوالت مسيرة العترة عليهم السلام تجدّد رسوم تلك المجالس وتذبّ في سبيل رفع مستواها، وتؤسّس مادّتها العلمية والرّوحيّة، وتفعّل من دورها في صياغة المجتمع وإصلاحه، وتفرّع على الأصول التي ابتدأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. فقد رقى أمير المؤمنين عليه السلام القمّة في أوّل مجلس يلتقي به برعيّته بعد قبول الخلافة.. وخرج إلى

---

(١) راجع بحار الأنوار (٢٩/٢٢٣).

المسجد متعمّماً بعمامة رسول الله ﷺ، لابساً بردته، متنعلاً نعله، متقلّداً سيفه، فصعد المنبر فجلس عليه متمّكناً، ثم شبك بين أصابعه، فوضعها أسفل بطنه، ثم قال: يا معاشر الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سَفَطُ العلم، هذا لُعاب رسول الله ﷺ، هذا ما زقّني رسول الله زقّاً زقّاً، سلوني، فإن عندي علم الأولين والآخرين، أما والله لو ثُنيَت لي وسادة فجلست عليها لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم، حتى تنطق التّوراة فتقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأفتيت أهل الإنجيل بإنجيلهم حتى ينطق الإنجيل فيقول صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم، حتى ينطق القرآن فيقول صدق عليّ ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ.

وأنتم تتلون القرآن ليلاً ونهاراً، فهل فيكم أحدٌ يعلم ما نزل فيه، ولو لا آية في كتاب الله عز وجل لأخبرتكم بما كان وما يكون وبما هو كائن إلى يوم القيامة، وهي هذه الآية: ﴿**يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ**﴾.

ثم قال عليه السلام: سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لو سألتموني عن أية آية، في ليل أنزلت، أو في نهار أنزلت، مكيّها ومدنيّها، سفريّها وحضريّها، ناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها، لأخبرتكم[1].

وفي الخصال بالإسناد إلى محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: حدثني أبي عن جده عن آبائه عليهم السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام علّم أصحابه في مجلس

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٠/ ١١٥) والخبر طويل.

واحد أربعمئة باب مما يصلح للمؤمن في دينه ودنياه[١].

وكان لأولاده الأئمة عليهم السلام حظّه عليه السلام من العلم، وبلغ برهان فضلهم القاصي والدّاني، ومجالسهم عامرة بالعلم والفضيلة، وروي عن أبي حمزة الثمالي أنّه: لما كانت السنة التي حج فيها أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام أقبل الناس ينثالون عليه، فقال عكرمة: من هذا؟ عليه سيماء زهرة العلم، لأجربنّه، فلمّا مَثُل بين يديه ارتعدت فرائصه وأسقط في يد أبي جعفر، وقال: يا ابن رسول الله، لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره فما أدركني ما أدركني آنفا.

فقال له أبو جعفر عليه السلام:

ويلك يا عبيد أهل الشام، إنك بين يدي **﴿بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾**[٢].

ونمت مجالس علمهم وتفرّعت بحسب ظروفهم التي عاشوها، وبلغت ذروتها في عهد الإمام جعفر الصّادق عليه السلام، بتأسيس أكبر المعاهد العلميّة في الإسلام، فقد روي عن الحسن بن علي الوشّاء أنّه قال: إني أدركت في هذا المسجد تسعمائة شيخ، كل يقول حدثني جعفر بن محمد[٣].

وفي بحار الأنوار مسنداً إلى علي بن إبراهيم عن أبيه، قال: استأذن على أبي جعفر عليه السلام قوم من أهل النواحي فأذن لهم، فدخلوا فسألوه في مجلس واحد

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/ ٥٢).

(٢) راجع بحار الأنوار (٤٦/ ٢٥٨).

(٣) رجال النجاشي ص (٣٩).

عن ثلاثين ألف مسألة فأجاب وله عشر سنين[١].

وفي التاريخ روايات مشرقة ومشرّفة تحكى مجالس الإمام الرّضا عليه السلام التي واجه فيها أرباب العلوم والأديان، وأخرى بين أصحابه، تنمّ عن علوّ كعب هذا البيت العظيم، وتؤكّد على عظمة المسيرة النبويّة التي تمّمتها الإمامة، فتربعت العترة على قمّة سنام المجد الأثيل.

وروي عن أبي الصلت الهروي: ما رأيتُ أعلم من علي بن موسى الرضا عليه السلام، ولا رآه عالم إلاّ شهد له بمثل شهادتي، ولقد جمع المأمون في مجالس له ذوات عدد علماء الأديان وفقهاء الشريعة والمتكلّمين فغلبهم عن آخرهم، حتى ما بقي أحد منهم إلاّ أقر له بالفضل، وأقر على نفسه بالقصور.

وكان موسى بن جعفر عليه السلام يقول لبنيه: هذا أخوكم علي بن موسى عالم آل محمد فاسألوه عن أديانكم، واحفظوا ما يقول لكم، فإني سمعت أبي جعفر بن محمد عليه السلام غير مرة يقول لي: إن عالم آل محمد لفي صلبك، وليتني أدركته، فإنه سمي أمير المؤمنين علي عليه السلام[٢].

المجالس دواوين العرب

خلّف العرب تراثاً ضخماً متميّزاً من الآداب والفوائد وأخبار الأيام والأساطير والشّعر، ونقل المؤرّخون الشيء الكثير من الإرث الأدبي المختص بهم، وقد بلغنا هذا الإرث الضّخم باعتباره نتاج مجالسهم ومنتدياتهم، ويجد

---

(١) راجع بحار الأنوار (٩٣/٥٠).

(٢) راجع بحار الأنوار (١٠٠/٤٩)، عن إعلام الورى، وقد اختصرناه.

الباحث والمتتبّع في نصوص أخبارهم من الآداب والفنون ما يبشّ النّفس ويريح الخاطر رغم صلف الجاهليّة وضياع الجاهليّين في تيهها الأسود من حيث الدّين والأخلاق عموماً، وتتجلّى في بعض نصوصهم الأدبية المنقولة وحالاتهم المرصودة بقايا الأخلاق الجريحة بخنجر الكفر والضلالة.

ولقد تفوّق العرب في مجالسهم على سائر الأمم بالجملة، وكان حظّهم الأوفى حتّى إذا ما قسناهم مع باقي الحضارات، وهذه حقيقة تفرض نفسها على الرغم من ضياع الكثير من تراثهم بسبب قلّة التدوين أو انعدامه أصلاً، فمجتمعهم بدائيّ أميّ، يعتمد في نشر عيون أدبه على النقل باللسان في الغالب وعلى منتديات الأدب ومجالسه والقصّاصين والشّعراء، فتبقى القصّة التّاريخيّة أسيرة تنميق القصّاصين وإضافاتهم ومبالغاتهم ممّا يُخرجها - بحسب العادة - عن الوضوح والصّدق والدقّة، وهذه نقطة ضعف كما ترى، إلاّ أنّها في نفس الوقت من أهم عوامل قوّة تلك المجالس، إذ أنّها حينئذ تكون المتنفّس الوحيد لتداول المواد واستعراض قدراتهم الأدبية.

ومن هذا المنطلق فإنّهم استغلوا أهمّ الفرص في عقد نوادي الأدب، حتّى أنّهم عيّنوا مواسم خاصّة يجتمع فيها الخطباء والأدباء في أيّام الجاهلية، ومنها شهر المحرّم الذي كانوا يسمّونه " المؤتمر " لأنّهم يأتمرون ويجتمعون فيه لتبادل الآراء والخطب وقد رصدت كتب التأريخ بعض تلك الملتقيات مطوّلة ومختصرة، وأعتقد أنّ عرب الجاهليّة أحسن حالاً ممّا عليه حالهم اليوم من هذه الجهة !!

كما أنّهم استغلّوا وفرة الحجيج إلى مكّة - أمّ القرى - فحوّلوا بعض دورها وأسواقها إلى ملتقى للشعراء والقصّاصين بصورة شكّلت ظاهرة متداخلة مع

مظاهر التّجارة العامرة فيها، خصوصاً في المواسم المعهودة عندهم.

وكانوا يولون الأولويّة الكبرى في منتدياتهم ومجالسهم العامّة تلك لتداول الأحداث المستجدّة المهمّة عندهم، ويتذاكرون أيام العرب ويقلّبون ذكرياتهم السّالفة، ويتذاكرون الأنساب بشكل مفصّل، ويرفعون من أقدار أقوام كما أنّهم يضعون من أقدار أقوام آخرين، ويستعرضون نفائس الشعر في أبواب الغزل والفخر والهجاء، وكانت تشكّل هذه العناوين مادة مجالس العرب الخاصّة.

وطبيعيٌّ جداً أن يكون لهم مجالس خاصّة مقتصرة على خواص النّاس، من عِلْيَة القوم مثلاً، أو مجالس صغيرة تجمع الشّعراء خاصّة، وقد نقل لنا التأريخ في أكثر من مورد صوراً لاجتماعات قريش، كما أنّ لكبّار قريش مجلس خاص في محلّ خاص أطلقوا عليه (دار الندوة)، وهي دار قصي بن كلاب جدّ نبيّنا الكريم ﷺ واشترطوا أن لا يحضرها إلاّ سادات مكّة وكبّارها، وشرطوا أن يبلغ عمر الحاضرين أربعين سنة وما فوق، وفيها يتداولون المستجدّات وخصوصيّات شؤونهم وأمور التجارة وربّما الأدب، وتعدّ الإجتماعات المنقولة في دار الندوة من أهم ملامح القيادة والتنظيم في المجتمع المكّي، وفيها تُتّخذ أهم الإجراءات وتُعالج المستجدّات.

قال الجوهري: " الندوة والنادي مجلس القوم ومُتَحدّثهم، ومنه سمّيت دار النّدوة بمكة، التي بناها قُصي، لأنّهم كانوا يندون فيها، أي يجتمعون فيها للمشاورة ".

وقد كانت مجمع كبّار مكّة، وفيها اتّخذوا قراراتهم في كلّ ظروفهم العصيبة والمصيريّة والمهمّة، وفي نصوص التأريخ صورٌ من تلك الإجتماعات.

منها: ما رواه الواقدي في أحوال عبد المطلب عليه السلام، لما أنفذ سيف بن ذي يزن - وكان من ملوك اليمَن - إبنه إلى مكة والياً من قبله، وتقدّم إليه باستعمال العدل والإنصاف، ففعل ما أمره به أبوه، ثم إن عبد المطلب دعا برؤساء قريش، مثل عتبة بن ربيعة، ومثل الوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي معيط، وأميّة بن خلف، ورؤساء بني هاشم، فاجتمعوا في دار الندوة، فلما قعدوا وأخذوا مراتبهم، فتكلم عبد المطلب وقال: اعلموا أني قد دبّرت تدبيراً. فقال المشايخ: وما دبّرت يا رئيس قريش وكبير بني هاشم؟ فقال: يا قوم، إنكم تحتاجون أن تخرجوا معي نحو سيف بن ذي يزن لتهنئته في ولايته، وهلاك عدوّه، ليكون أرفق بنا وأميل إلينا. فقالوا له بأجمعهم: نعم ما رأيت، ونعم ما دبّرت. قال: فخرج عبد المطلب ومعه سبعة وعشرون رجلاً على نوق جياد نحو اليمن[1].

ولم يَخْفَ بريقُ دار النّدوة حتّى بعد الإسلام، وكانت أهم اجتماعات المشركين وأعداء الإسلام فيها أيضاً، ويروى أنّ قريشاً اجتمعت فيها بعد بزوغ الإسلام وإتّساع حركة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وزيادة أتباعه، فقال لهم الوليد: إنكم ذووا أحساب وذووا أحلام، وإن العرب يأتونكم فينطلقون من عندكم على أمر مختلف، فأجمعوا أمركم على شيء واحد، ما تقولون في هذا الرجل؟

قالوا: نقول إنه شاعر، فعبس عندها، وقال: قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر. فقالوا: نقول إنه كاهن.

قال: إذاً يأتونه فلا يجدونه يحدّث بما يحدّث به الكهنة. قالوا: نقول إنه مجنون.

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٥/١٤٦).

قال: إذا يأتونه فلا يجدونه مجنوناً. قالوا: نقول إنّه ساحر.

قال: وما الساحر؟ فقالوا: بشرٌ يُحبّبون بين المتباغضين، ويُبغّضون بين المتحابين.. قال: فهو ساحر، فخرجوا فكان لا يلقى أحد منهم النبي ﷺ إلاّ قال: يا ساحر يا ساحر، واشتد عليه ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[1].

وروى المؤرّخون أنّ قريشاً اجتمعت في دار الندوة، وكتبوا صحيفة بينهم أن لا يؤاكلوا بني هاشم ولا يكلّمونهم، ولا يبايعونهم، ولا يزوّجونهم، ولا يتزوجوا إليهم، ولا يحضروا معهم حتى يدفعوا إليهم محمّدا فيقتلوه، وأنهم يد واحدة على محمد، يقتلونه غيلة أو صراحاً، فلمّا بلغ ذلك أبا طالب جمع بني هاشم ودخلوا الشّعب، وكانوا أربعين رجلاً، فحلف لهم أبو طالب بالكعبة والحرم والركن والمقام إن شاكت محمداً شوكة لأثبنّ عليكم[2].

ولّما ضاق بهم أمر النبي ﷺ وفاقت قوّته على نفذهم اجتمعوا في دار الندوة وكان إذ ذاك لا يدخل دار الندوة إلاّ من أتى عليه أربعون سنة، فدخلوا - أربعين رجلاً من مشايخ قريش - وجاء إبليس في صورة شيخ كبير، فقال له البواب: من أنت؟

قال: أنا شيخ من أهل نجد، لا يعدمكم مني رأي صائب، إني حيث بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل فجئت لأشير عليكم. فدخل إبليس، فلما أخذوا مجلسهم، تداولوا أمر النبي ﷺ حتّى خلصوا إلى فكرة قتله، والقصّة معروفة[3].

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٨/١٦٧).

(٢) راجع بحار الأنوار (١٩/١).

(٣) راجع بحار الأنوار (١٩/٤٧).

فدار النّدوة صورة لمجالس الرأي الخاصّة التي استخدمت فترة طويلة ضدّ الإسلام، وفي عيون أخبار التّاريخ صور عن مجالسهم العامّة المليئة بالقصود الأدبيّة على تشعّب أقسامها وأشكالها.

وكيف كان.. فإنّ مجالس العرب هي دواوينهم الأدبيّة وملتقياتهم الفكريّة وموسوعاتهم العلميّة وقنواتهم الإعلاميّة ومدارسهم العامّة والخاصّة، وفي كلّ ذلك الغث الكثير والسمين القليل، وتمثّل تلك المجالس نتاج حياتهم وروح عطاءاتهم، ومن هذا المنطلق فإنّ الإسلام لم يغفل هذه الظّاهرة العريقة التي تمكّن من تسخيرها فيما بعد بصورة حضاريّة رائدة، فحوّلها بتعليماته إلى مؤسّسة مقنّنة، وصاغ أسسها بتوجيهاته وهديه، وأصلح مفاسدها بتدّرج ومنهجيّة، وهذّبها بشكل كامل وملفت للنظر، وفعّل من دورها في بناء شخصيّة الفرد العلميّة والعقائدية.

الإسلام والمجالس

لقد بُعث النبي الكريم ﷺ في أوج نشاط الجاهليّة واستيلائها على الفكر والذوق والسلوك، وتسلّلت الأفكار الإسلاميّة الكريمة إلى ذلك المجتمع بخطوات مدروسة ومتتالية ومتأنّية، وتنقل المصادر أنّه ﷺ كان مُعرضاً عن حياتهم الجاهلية إعراضاً كاملاً، إلاّ أنّه كان الغائب الشّاهد، فقد كان يصل الرّحم، ويحضر بعض منتدياتهم النزيهة، ويشارك في بعض مجالسهم وأحلافهم التي أُبرمت لنصرة الحق، كحلف الفضول الذي شكّله بعض أعيان مكّة في مقابل حلف لعقة الدّم في قصّة مشهورة، وكانت هذه المشاركة منه ﷺ بمثابة الخطوة

الأولى على طريق تهذيب الميول وتطهير النفوس قبل بعثته الشريفة، وقد أضاف ﷺ بذلك قيمة أخلاقية عالية إلى تلك المجالس بالسموّ بأغراضها.

ولا شكّ في كون المجالس والمنتديات ظاهرة إجتماعية جديرة بالإهتمام، وطبيعتها كاشفة عن فساد أو صحّة الذوق العام، وهي تعكس وعي مرتاديها بشكل دقيق، ولابدّ من أن يُعمل الإسلام هديه وتعاليمه في تهذيبها من براثن الجاهليّة بالسموّ بأغراضها، بصورة تؤدّي إلى الدّين والعلم والهدى.

ثمّ عمل الإسلام - منذ صدر الإسلام - على دعم المواد المفيدة في المجالس العامّة والخاصّة، خلافاً لما تعوّده العرب في مجالس الجاهلية، وراح النبي ﷺ يجابه المادّة الخالية عن الفوائد العمليّة، التي لا تعود على النّاس إلاّ بتأجيج العصبيّات والإحن في النفوس، ويُجابه الخرافات والأساطير والموروثات الفاسدة، ويؤسّس لمادة بديلة تنهض بأمّته فتتمكّن من منافسة أعظم الحضارات.

ففي أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي الحسن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فإذا جماعة قد أطافوا برجل، فقال: ما هذا ؟ فقيل: علامة !! قال: وما العلامة ؟ قالوا: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية وبالأشعار والعربية. فقال النبي ﷺ: ذاك علم لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه[1].

ولقد ارتفعت تعاليم الإسلام لترقى بالأمّة فوق مستويات سائر الأمم في

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/ ٢١١).

طريق تطوير مجالسهم ومنتدياتهم، واهتم الدين بالأخلاق كأساس أوّل في تعاليمه، وعرض القرآن الكريم صوراً من المجالس المنحطّة ليتمّ معاكستها بالسلوك، واصفاً إيّاها بالمنكر، تشنيعاً لها وتأسيساً لخلافها في النفوس، وذم بتعاليمه بعض منتدياتهم وشرح أحوال أقوام ترسيخاً للآداب والأخلاق السامية.

وقال تعالى في وصف مجالس قوم لوط: ﴿**وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ**﴾ وقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنّهم كانوا يتضارطون في مجالسهم من غير حشمة ولا حياء، وقيل: إنهم كانوا يأتون الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً، وقيل: أن مجالسهم كانت تشتمل على أنواع المناكير، مثل الشتم والسخف والصفع والقمار وضرب المخراق وخذف الأحجار على من مر بهم، وضرب المعازف والمزامير وكشف العورات واللواط[1].

ولقد عني القرآن بأدق التفاصيل في مسألة الآداب والأخلاق في المجالس ليؤكّد قدسيّتها، ووضع لبنات الأساس في طريق تأسيس المجلس القدوة والمثال الذي يُحتذى، ورسّخ قدسية مجلس النبي صلى الله عليه وآله ونهى عن الإساءة في محضره الكريم، إذ قال تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ وبهذا فإنّه يؤدّب المتشرّفين بمجالسته على تأخير أقوالهم وأفعالهم عن قوله وفعله.

وقال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا قبل كلامه صلى الله عليه وآله، وكأنّ الآية تقول لهم: إذا كنتم جالسين في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله فسئل عن مسألة فلا تسبقوه بالجواب حتى يجيب صلى الله عليه وآله أولاً.

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢١٩).

ونهاهم عن رفع الصوت في محضره الشريف، فقال تعالى: ﴿**لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾ لأن في ذلك استخفاف به ﷺ وهو عين الكفر وفيه سوء الأدب الذي ينافي التعظيم المأمور به، وقال تعالى: ﴿**وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ**﴾ يأمرهم بغض الأصوات عند مخاطبتهم إياه في مجلسه، إذ يجب تعظيمه وتوقيره من كل وجه.. وتتوالى آيات القرآن الكريم في هذا الصدد[1].

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿**إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا**﴾ أنّ أصحابه كانوا يتنافسون على حضور مجلسه ﷺ، فإذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنّوا بمجالسهم عنده ﷺ، فأمرهم تعالى أن يفسح بعضهم لبعض.

وقيل: أنّ مجلس رسول الله ﷺ كان في الصُّفّة، وفي المكان ضيق وذلك يوم الجمعة، وكان ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء أناس من أهل بدر، وقد سُبقوا في المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فردّ عليهم ﷺ ثم سلّموا على القوم بعد ذلك فردّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينظرون إلى القوم فلم يفسحوا لهم.. فشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان، قم يا فلان، بقدر النفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرف الكراهية في وجوههم، وقال المنافقون للمسلمين: أ لستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس، فو الله ما عدل على هؤلاء، إن قوماً أخذوا مجالسهم، وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٧ / ٢٢).

أبطأ عنه مقامهم، فنزلت الآية[١].

لقد أرست تعاليم الإسلام جانبي الآداب والذوق العالي في المجالس بصورة ظاهرة، كقاعدة أساس لتلقّي المادّتين الدّينيّة والعلمية، والترقّي بجملة مرتادي تلك المجالس النبوية بتوجيه محتوى منتدياتهم.

وقد ورد عنهم عليهم السلام: لا تكونوا كجفاة الجاهلية، لا في الدين تتفقهون، ولا عن الله تعقلون، كقيض بيض في أداح، يكون كسرها وزراً، ويخرج حضانها شرّاً[٢].

الإسلام وتوجيه المجالس

أشرفت تعاليم الإسلام على أدقّ التفاصيل في تهذيب المجالس ولم تهمل جانباً من جوانبها، إلى درجة أن التعاليم الدينية وجّهت المسلمين حتّى في ضوابط اختيار الجليس !! في سبيل تقديس مادّة المجالس الدّينيّة والعلميّة.

ففي غوالي اللئالي أن النبي الكريم صلى الله عليه وآله قال: قال الحواريون لعيسى عليه السلام: يا روح الله من نجالس؟ قال: من يذكركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغبكم في الآخرة عمله[٣].

وفيه عن بعض الصادقين عليهم السلام: الجلساء ثلاثة، جليس تستفيد منه فالزمه، وجليس تفيده فأكرمه، وجليس لا تفيد ولا تستفيد منه فاهرب عنه[٤].

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٧/٢٥).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/٢١١).

(٣) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٣).

(٤) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٣).

ثمّ رغّبت التعاليم إلى مجالسة الفقهاء وأهل الدين، فهم الأقدر على التوجيه والإفادة، وبالتّالي فإنّ التلقّي عنهم من أفضل العبادات.. ورُوِيَ في أمالي الشيخ الطوسي بالإسناد إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: المتّقون سادة، والفقهاء قادة، والجلوس إليهم عبادة[١].

ورُوَيَ في عدة الداعي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال: جلوس ساعة عند العلماء أحب إلى الله من عبادة ألف سنة، والنظر إلى العالم أحب إلى الله من اعتكاف سنة في البيت الحرام، وزيارة العلماء أحب إلى الله تعالى من سبعين طوافاً حول البيت، وأفضل من سبعين حجة وعمرة مبرورة مقبولة، ورفع الله له سبعين درجة، وأنزل الله عليه الرحمة، وشهدت له الملائكة أن الجنة وجبت له[٢].

ورُوي في روضة الواعظين أن لقماناً قال لابنه: يا بنيّ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله عز وجل يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء[٣].

وفيه عن بعض الصحابة أنّه جاء رجل من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله إذا حضرت جنازة ومجلس عالم أيهما أحب إليك أن أشهد؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن كان للجنازة من يتبعها ويدفنها فإن حضور مجلس عالم أفضل من حضور ألف جنازة، ومن عيادة ألف مريض، ومن قيام ألف ليلة، ومن صيام ألف يوم، ومن ألف درهم يتصدق بها على المساكين،

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠١).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٤).

(٣) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٤).

ومن ألف حجة سوى الفريضة، ومن ألف غزوة سوى الواجب تغزوها في سبيل الله بمالك ونفسك، وأين تقع هذه المشاهد من مشهد عالم، أ ما علمت أن الله يطاع بالعلم، ويعبد بالعلم، وخير الدنيا والآخرة مع العلم، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل[١].

وروي في ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: مجالسة أهل الدين شرف الدنيا والآخرة[٢].

كما أنهم عليهم السلام قد نهوا عن الحضور في مجالس أعدائهم التي يُنتقصون فيها، وحذّروا من الكون في مواطن النقمة والعذاب الإلهي المعجّل، وتندرج المرويّات في هذا الباب في قائمة مكافحة الإعلام المضاد مقابل السلطة التي حكمت البلاد في تلك الأزمنة ووجّهت الإعلام في الإتجاه المناويء لأهل البيت عليهم السلام.

ففي الكافي بالإسناد إلى الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: ثلاثة مجالس يمقتها الله ويرسل نقمته على أهلها فلا تقاعدوهم ولا تجالسوهم، مجلساً فيه من يصف لسانه كذباً في فتياه، ومجلساً ذكر أعدائنا فيه جديد وذكرنا فيه رث، ومجلساً فيه من يصدّ عنّا وأنت تعلم.

قال: ثم تلا أبو عبد الله عليه السلام ثلاث آيات من كتاب الله كأنما كن في فيه أو قال كفّه ﴿**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ. وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ. وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا**

(١) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٤).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/ ١٩٩).

عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[١].

وفيه عن عبد الأعلى قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعدنّ في مجلس يُعاب فيه إمام أو ينتقص فيه مؤمن[٢].

مجالس الذّكر

يحتاج الإنسان المؤمن إلى بناء ذاته دينيّاً وعلميّاً وفكريّاً، إذ لا خير يرتجى من الجاهل بالدين والحلال والحرام، ومن هذا المنطلق فإنّ الأخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام حثّت على البناء الذّاتي بما لا مزيد عليه، وتوالت تعاليمهم في هذا الصدد حتّى كانت قمّة العصور الذهبية للعلم والتفقّه في زمن الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

فقد رُوي عنه عليه السلام في المحاسن عن إسحاق بن عمار أنّه سمعه يقول: ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام[٣].

وكما أن الإنسان المؤمن يحتاج إلى التفقّه والتعلّم فإنّه يحتاج في نفس الوقت إلى تذاكر الفقه والعلم، وتداوله وتحريك موادّه ليحصّنه من النسيان، ويحيي قلبه بالتذكّر، ومن هذا المنطلق حثّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام على إقامة مجالس الذكر، فإنّ في تكرار المادة المعلومة ترسيخ لها في النفس والذاكرة، وهي مجالس

---

(١) راجع بحار الأنوار (٢١٥/٧١).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢١٤/٧١).

(٣) راجع المحاسن (٢٢٩/١)، وعنه بحار الأنوار (٢١٤/١).

تؤكّد أهمية الفقه والعلم، ويرتادها العلماء والمتعلّمون على حدّ سواء، ومن هنا فإنّها تكتسب أهميّة قصوى، وقد توالت الأخبار في الحثّ على إحيائها.

ورُوي أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل يقول: تذاكر العلم بين عبادي مما تحيى عليه القلوب الميتة إذا انتهوا فيه إلى أمري[١].

ووَجّهت التعاليم الدّينية بعبقرية ظاهرة إلى تحويل كلّ الملتقيات الاجتماعية إلى مجالس ذكر للعلم، بل وحتّى الزيارات الاعتيادية التي لا يستغني عنها النّاس بطبعهم، ليترقّوا بعلومهم ونفوسهم.. فرُوي في كنز الكراجكي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: تزاوروا وتذاكروا الحديث، إن لا تفعلوا يدرس[٢].

وروي في جامع الأخبار عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا ذر، الجلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله من قيام ألف ليلة يصلى في كل ليلة ألف ركعة، والجلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله من ألف غزوة وقراءة القرآن كله. قال: يا رسول الله، مذاكرة العلم خير من قراءة القرآن كله !!

فقال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر.. الجلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله من قراءة القرآن كله إثنا عشر ألف مرة. عليكم بمذاكرة العلم، فإن بالعلم تعرفون الحلال من الحرام. يا أبا ذر، الجلوس ساعة عند مذاكرة العلم خير لك من عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها. والنظر إلى وجه العالم خير لك من عتق ألف

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٣).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢/١٥١).

رقبة[١].

ورُوِيَ في غوالي اللئالي بطريق صحيح عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إن الله عز وجل يقول لملائكته عند انصراف أهل مجالس الذكر والعلم إلى منازلهم: أكتبوا ثواب ما شاهدتموه من أعمالهم، فيكتبون لكل واحد ثواب عمله ويتركون بعض من حضر معهم فلا يكتبونه، فيقول الله عز وجل: ما لكم لم تكتبوا فلاناً؟ أليس كان معهم وقد شهدهم !! فيقولون: يا ربّ، إنه لم يشرك معهم بحرف، ولا تكلّم معهم بكلمة، فيقول الجليل جل جلاله: أ ليس كان جليسهم؟ فيقولون: بلى يا رب، فيقول: أكتبوه معهم، إنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم، فيكتبونه معهم، فيقول تعالى: أكتبوا له ثواباً مثل ثواب أحدهم[٢].

ورُوي في علل الشرائع عن يونس رفعه، أنّ لقماناً قال لابنه: يا بُني اختر المجالس على عينك، فإن رأيت قوما يذكرون الله عز وجل فاجلس معهم، فإنك إن تكُ عالماً ينفعك علمك ويزيدوك علماً، وإن كنت جاهلا علّموك، ولعل الله أن يظلهم برحمة فتعمك معهم، وإذا رأيت قوما لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإنك إن تك عالما لا ينفعك علمك، وإن تك جاهلاً يزيدوك جهلا، ولعل الله أن يظلهم بعقوبة فتعمك معهم[٣].

ويعني الحكيم بقوله: على عينك.. أي على بصيرة منك وفحص، فإن على قد تجيء بمعنى الباء، واحتمل المرحوم المجلسي رحمه الله أنّ المقصود: رجّحها على عينك،

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٤).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٣).

(٣) راجع بحار الأنوار (١/٢٠١).

ثم يشرع في بيان المجلس الذي ينبغي أن يختار على العين، وفي هذا الخبر تتجلّى أهميّة مجالس الذكر عموماً، للعالم والجاهل كما ترى، وفيه بيان وجه الفائدة لهما.

وتنعطف الروايات والأخبار عنهم عليهم السلام لتعبّر عن مجالس الذكر بالحلَق، ممّا يعكس الإستعداد والتهيئة لها والإهتمام بها، كأشبه ما تكون بالمدارس الخاصّة، وينطوي هذا التعبير على بيان جملة من الآداب الخاصة بتلك المجالس فتأمّل.

فرُوي في منية المريد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إذا مررتم في رياض الجنة فارتعوا، قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة ؟

قال: حلَق الذكر، فإن لله سيارات من الملائكة يطلبون حلَق الذكر، فإذا أتوا عليهم حفّوا بهم[1].

وقريب من ذلك ما روي في معاني الأخبار بإسناده إلى محمد بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن أبيه عن أبيه عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: بادروا إلى رياض الجنة.. فقالوا: وما رياض الجنة ؟ قال: حلق الذكر[2].

وحلَق الذكر هي المجالس التي يتذاكر فيها المؤمنون ما يقرّبهم إلى الله تعالى، سواء كان تعلّم الحلال والحرام، من قبيل كيف يشتري المسلم ويبيع ويصلي ويصوم وينكح ويطلق وأشباه ذلك على قانون الشّرع.. أو تلك التي يتذاكرون فيها علوم أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم ومناقبهم ومثالب أعدائهم،

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٤).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٢).

ويحيون أمرهم عليهم السلام ويتعرّضون إلى ذكر مصائبهم كما سيأتي.. أو مجالس الوعظ التي يتذاكرون فيها وعد الله سبحانه ووعيده، ويتشوّقون فيها إلى الجنّة ويخشون عذاب النّار.. أو مجالس العلم التي لا يمكن أن تكون إلاّ مقرّبة من الحقّ تعالى بدراسة نعمه وآلائه ومظاهر عظمته.

أهل البيت والمجالس

يتبادل أهل البيت عليهم السلام الأدوار في التبليغ، وتتوزّع مهام التوجيه فيما بينهم كما يتبادلون المكارم والفضائل، ويقتسمون مهام البناء الإنساني اقتساماً مُلفتاً، فقد هيّأ النبي صلى الله عليه وآله أرضيّة المجالس الإسلاميّة من جانب، وأشعل فتيل الحزن على أرزاء العترة عليهم السلام من جانب آخر، ثم نهجت العترة على هذا المنوال في الجانبين، وأثرى أهل البيت عليهم السلام جانب المأساة في مادّة المجالس، ووظّفوا مجالس الذكر لصالح قضيّتهم الكبرى، وأضافوا مادّة الحزن إلى باقي أهداف تلك المجالس فزادوا في رونقها وأمدّوها بوقود البقاء.

ورُوي في الغوالي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: تلاقَوا وتحادَثوا العلم، فإن بالحديث تجلى القلوب الرائنة، وبالحديث إحياء أمرنا، فرحم الله من أحيى أمرنا[١].

وفيه أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: تذاكروا وتلاقوا وتحدّثوا، فإن الحديث جلاء، إن القلوب لترين كما يرين السيف، وجلاؤها الحديث[٢].

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٢).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٣).

وفي أمالي الشيخ الطوسي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام أنّه قال لخيثمة: يا خيثمة، إقرأ موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم عز وجل، وأن يشهد أحياؤهم جنائز موتاهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم، فإن لقياهم حياة أمرنا، ثم رفع يده عليه السلام فقال: رحم الله امرأً أحيى أمرنا[1].

وفي أمالي الصدوق عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: من جلس مجلسا يُحيَى فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب[2].

وفي عيون الأخبار عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: من تذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيا فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب[3].

وفي أمالي الشيخ الطوسي عن معتب مولى أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول لداود بن سرحان: يا داود أبلغ موالي عني السلام، وأني أقول رحم الله عبدا اجتمع مع آخر فتذاكر أمرنا، فإن ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما اجتمع اثنان على ذكرنا إلاّ باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر، فإن في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس من بعدنا من ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا[4].

وفي بشارة المصطفى بالإسناد إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٠).
(٢) راجع بحار الأنوار (١/ ١٩٩).
(٣) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٠).
(٤) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٠).

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: زيّنوا مجالسكم بذكر علي بن أبي طالب[١].

وفي المحاسن بالإسناد إلى أبي عبد الله عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ذكرنا أهل البيت شفاء من الوعك والأسقام ووسواس الريب، وحبّنا رضى الرب تبارك وتعالى[٢].

وكانت هذه الرّوايات والأخبار ـ التي سرعان ما حملها الرّواة إلى أقصى النقاط التي يقطنها الشّيعة ـ الضوء الأخضر لرفع شعارهم وتجديد ذكرهم، عبر إحياء المحافل والمجالس، حتّى صارت سمَة تميّزهم عن غيرهم من المسلمين، وبذلك يحيون فيها أمر أئمتهم الطاهرين عليهم السلام.

ورحّب أئمة أهل البيت عليهم السلام بحركة الشيعة في هذا الإتّجاه، وأبدوا ارتياحهم تجاه تلك المجالس التي أدخلت السرور على قلوبهم في عصور الشدّة، وتحدّى الشّيعة الصعاب بحبّهم لهم عليهم السلام وزيّنوا المجالس بذكرهم، فتوّج الأئمة عليهم السلام صنائع شيعتهم بالقبول وعدّوا مجالس الشيعة سيّدة المجالس كلّها، كشفاً لمقامها عند الله تعالى، والرّوايات تعدّ هذه الفضيلة في فضائل الشيعة الكبرى.

وروي في تفسير فرات عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خرجت أنا وأبي ذات يوم فإذا هو بأناس من أصحابنا بين المنبر والقبر فسلّم عليهم، ثم قال: أما والله إني لأحب ريحكم وأرواحكم، فأعينوني على ذلك بورع واجتهاد، من ائتمّ بعبد

---

(١) راجع بحار الأنوار (٣٨/١٩٩).

(٢) بحار الأنوار (٢/١٤٥).

فليعمل بعمله، وأنتم شيعة آل محمد ﷺ، وأنتم شرط الله، وأنتم أنصار الله، وأنتم السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ، والسابقون الآخرون في الدنيا، والسابقون في الآخرة إلى الجنة، قد ضمنّا لكم الجنة بضمان الله وضمان رسول الله ﷺ وأهل بيته.

أنتم الطيبون، ونساؤكم الطيّبات، كل مؤمنة حوراء، وكل مؤمن صدّيق، كم مرة قد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لقنبر: يا قنبر، أبشر وبشّر واستبشر، والله لقد قبض رسول الله ﷺ وهو ساخط على جميع أمّته إلاّ الشّيعة، وإن لكل شيء شرفاً وإن شرف الدّين الشّيعة، ألا وإن لكل شيء عروة وإن عروة الدّين الشيعة، ألا وإن لكل شيء إماماً وإمام الأرض أرض يسكن فيها الشّيعة، ألا وإن لكل شيء سيّداً وسيد المجالس مجالس الشيعة، ألا وإن لكل شيء شهوة وإن شهوة الدّنيا سُكنى شيعتنا فيها.

والله لو لا ما في الأرض منكم ما استكمل أهل خلافكم طيبات رزقهم وما لهم فِي الِآخرة مِنْ نَصِيب، كلّ ناصب وإن تعبد واجتهد منسوب إلى هذه الآية: **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ عامِلَةٌ ناصِبَةٌ تَصْلى ناراً حامِيَةً تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾**، ومن دعي من مخالف لكم فإجابة دعائه لكم، ومن طلب منكم إلى الله حاجة فله مئة، ومن سأل مسألة فله مئة، ومن دعا بدعوة فله مئة، ومن عمل منكم حسنة فلا يحصى تضاعفها، ومن أساء منكم سيّئة فمحمد ﷺ حجيجه، يعني يحاج عنه، والله إن صائمكم ليرعى في رياض الجنّة، تدعو له الملائكة بالعون حتى يفطر، وإن حاجكم ومعتمركم لخاص الله، وإنكم جميعاً لأهل دعوة الله، وأهل إجابته، وأهل ولايته، لا خوف عليكم ولا حزن، كلّكم في الجنة، فتنافسوا في فضائل الدرجات.

والله ما من أحد أقرب من عرش الله تعالى بعدنا يوم القيامة من شيعتنا، ما أحسن صنع الله إليكم، والله لو لا أن تفتنوا فيشمت بكم عدوّكم ويعلم الناس ذلك لسلمت عليكم الملائكة قبلاً، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: يخرجون - يعني أهل ولايتنا - من قبورهم يوم القيامة مشرقة وجوههم، قرّت أعينهم، قد أعطوا الأمان، يخاف الناس ولا يخافون، ويحزن الناس ولا يحزنون.

والله ما من عبد منكم يقوم إلى صلاته إلاّ وقد اكتنفته ملائكة من خلفه يصلّون عليه ويدعون له حتى يفرغ من صلاته، ألا وإن لكل شيء جوهراً وجوهر ولد آدم - صلوات الله وسلامه عليه - نحن وشيعتنا[١].

وظاهر الأخبار أنّ الذي أعدّه الله تعالى للشيعة من الثواب على مجالس ذكر أهل البيت عليهم السلام والتي يبكون فيها على مصائبهم يفوق أمانيّهم، وسيُكرمهم بعقدها في الجنّة، كما دلّت هذه الرواية، إذ جُعل مجلس ذاكري أمير المؤمنين عليه السلام في ظلّ شجرة طوبى !!

ورُوي مسنداً عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لما نزلت ﴿**طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**﴾ قام مقداد إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، وما طوبى ؟ قال: يا مقداد، شجرة في الجنّة، لو يسير الراكب الجواد لسار في ظلّها ماءة عام قبل أن يقطعها، ورقها وقشورها برود خضر، وزهرها رياض، وأفنانها سندس وإستبرق، وثمرها حلل خضر، وطعمها زنجبيل وعسل، وبطحاؤها ياقوت أحمر وزمرد أخضر، وترابها مسك وعنبر، وحشيشها منيع والنجوج

---

(١) راجع بحار الأنوار (٧/٢٠٣).

يتأجج من غير وقود، يتفجّر من أصلها السلسبيل والرحيق والمعين، وظلّها مجلس من مجالس شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يألفونه ويتّحدثون بجمعهم[1].

(١) راجع بحار الأنوار (١٥١/٨)، والخبر طويل، وأحببت إيراده لأنّ فيه بيان مقام الشيعة يوم القيامة، وتتمّته: وبينا هم في ظلّها يتحدثون إذ جاءتهم الملائكة يقودون نجباء جبلت من الياقوت، ثم نفخ الرّوح فيها مزمومة بسلاسل من ذهب، كأنّ وجوهها المصابيح نضارة وحُسنا، وبَرُها خزّ أحمر ومرعزى أبيض مختلطان، لم ينظر الناظرون إلى مثله حُسنا وبهاءً، وذلل من غير مهلة، نجباء من غير رياضة، عليها رحال ألواحها من الدّر والياقوت المفضضة باللؤلؤ والمرجان، صفائحها من الذّهب الأحمر، ملبّسة بالعبقري والأرجوان، فأناخوا تلك النجائب إليهم، ثم قالوا لهم: ربّكم يقرؤكم السّلام ويراكم وينظر إليكم ويحبّكم وتحبّونه، ويزيدكم من فضله وسعته، فإنه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم.

قال: فيُحمل كل رجل منهم على راحلته فينطلقون صفّاً واحداً معتدلاً، ولا يمرّون بشجرة من أشجار الجنة إلاّ أتحفتهم بثمارها ورحّلت لهم عن طريقهم كراهية أن يثلم طريقتهم وأن يفرق بين الرجل ورفيقه، فلمّا دفعوا إلى الجبار جل جلاله قالوا: ربّنا أنت السلام ولك يحق الجلال والإكرام، فيقول الله تعالى: مرحبا بعبادي الذين حفظوا وصيّتي في أهل بيت نبيي ورعوا حقّي وخافوني بالغيب، وكانوا مني على كل حال مشفقين.

قالوا: أما وعزّتك وجلالك ما قدرناك حقّ قدرك، وما أدّينا إليك كل حقّك، فأذن لنا في السجود.قال لهم ربّهم: إني وضعت عنكم مؤنة العبادة، وأرحت عليكم أبدانكم، وطال ما أنصبتم لي الأبدان وعنتم الوجوه، فالآن أفضيتم إلى رَوحي ورحمتي، فاسألوني ما شئتم، وتمنّوا عليّ أُعطِكم أمانيكم، فإنّي لن أجزيَكم اليوم بأعمالكم، ولكن برحمتي وكرامتي وطَولي، وارتفاع مكاني، وعظم شأني، ولحبّكم أهل بيت نبيي. فلا يزال يرفع أقدار محبي علي بن أبي طالب عليه السلام في العطايا والمواهب، حتى أن المقصّر من شيعته ليتمنّى في أمنيته مثل جميع الدّنيا منذ يوم خلقها الله إلى يوم أفناها.

وللقاريء الكريم أن ينظر بإمعان فيدقّق في ربطهم عليهم السلام الوثيق بين الأمر

→

فيقول لهم ربّهم: لقد قصّرتم في أمانيّكم، ورضيتم بدون ما يحقّ لكم، فانظروا إلى مواهب ربّكم. فإذا بقباب وقصور في أعلى عليّين، من الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض، فلو لا أنها مسخّرة إذاً لَلَمعت الأبصار منها، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقري الأحمر يزهر نورها، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالرياش الأصفر، مثبوتة بالزمرد الأخضر والفضة البيضاء والذهب الأحمر، قواعدها وأركانها من الجوهر، يثور من أبوابها وأعراصها نور مثل شعاع الشمس، عنده مثل الكواكب الدريّ في النّهار المضيء، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور جنتان ﴿**مُدْهامَّتانِ فِيهِما عَيْنانِ نَضّاخَتانِ وفِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ**﴾.

فلمّا أن أرادوا أن ينصرفوا إلى منازلهم ركبوا على براذين من نور بأيدي ولدان مخلدين، بيد كل واحد منهم حكمة برذون من تلك البراذين، لُجُمُها وأعنّتُها من الفضة البيضاء، وأثفارها من الجوهر، فلمّا دخلوا منازلهم وجدوا الملائكة يهنئونهم بكرامة ربّهم، حتى إذا استقرّوا قرارهم قيل لهم: ﴿**فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ**﴾ ربّنا رضينا، فارض عنّا.

قال: برضاي عنكم وبحبّكم أهل بيت نبيي أحللتم داري، وصافحتكم الملائكة، فهنيئاً هنيئاً غير محذور، وليس فيه تنغيص، فعندها قالوا: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**﴾.

قال أبو موسى: فحدّثت به أصحاب الحديث عن هؤلاء الثّمانية، فقلت لهم: أنا أبرأ إليكم من عهدة هذا الحديث لأن فيه قوماً مجهولين، ولعلّهم لم يكونوا صادقين، فرأيت من ليلتي أو بعد كأنه أتاني آت ومعه كتاب فيه من مخول بن إبراهيم والحسن بن الحسين ويحيى بن الحسن بن فرات وعلي بن القاسم الكندي ولم ألق علي بن القاسم وعدة بعد لم أحفظ أساميهم كتبنا إليك من تحت شجرة طوبى، وقد أنجز ربّنا لنا ما وعدنا، فاستمسك بما عندك من الكتب، فإنّك لن تقرأ منها كتاباً إلاّ أشرقت له الجنة.

بإقامة المجالس.. وبين توجيه استغلالها لإحياء أمرهم وإثارة قضاياهم وتزيينها بأسمائهم عليهم السلام ولا سيّما اسم أمير المؤمنين عليه السلام كطريق لنشر الدّعوة الإسلاميّة.. وبين تركيزهم على جانب المصيبة فيها وضرورة البكاء على أرزائهم.

وتتركّز التوجيهات بصورة واضحة على رزيّة سيّد الشهداء عليه السلام ، فهي القضية الرّمز والمأساة الأم، فإن كانت ترمز إلى المصائب التي قبلها بوضوح فهي ترمز إلى المصائب التي بعدها أيضاً بنفس الوضوح.

فقضيّة كربلاء مِفصل قضاياهم عليهم السلام الحسّاسة والمصيريّة، واهتمامات العترة منصبّة عليها ومركّزة على كلّ أبعادها، ومن أهم طرق خلودها هو خلود هذه المجالس، ولهذا فإنّ المجالس الحسينيّة من أهم المظاهر الولائيّة والشّعائر التي حازت تأييداتهم، وتصدّى الإمام عليه السلام بنفسه لوضع حجرها الأساس، قصدَ تقنين منهجيّة المجلس الحُسيني، وترسيخ معالم منبر القضيّة بكلّ دقّة، لعلمه بنماء المؤسّسة الحسينية عن طريق المجالس واتّساعها، كما ويعتبر هذا منه عليه السلام تشريفاً لمقام الرّثاة والذّاكرين ما طلعت الشّمس والنّهار.

أوّل المجالس الحسينيّة

إنّ المحور الجامع الموجّه في مجالس الذّكر يدور في فلَك مصيبة الإمام الحسين عليه السلام ، إلى درجة أصبحت الرزيّة هي الطّابع الغالب لتلك المجالس، فالمصيبة هي لونُها المراد، وتوالت سائر الأغراض في سياق هذا الغرض، ولابدّ للإمام المعصوم نفسه أن يضع الحجر الأساس لمجلس الإمام الحسين عليه السلام ويُحكم تثبيت اللبنة الأولى لانطلاقة هذه المؤسّسة وفق المعايير الخاصّة التي سيتلقّاها الشيعة، فكان

أهل بيت النبوّة عليهم السلام هم أوّل من رثى الإمام الحسين عليه السلام بعد شهادته.

وكان أول من رثاه الله تعالى أول ما خلقه عليه السلام ، ثمّ أوحى إلى أنبيائه عليهم السلام تباعاً خبر شهادته، ولّما وُلد عليه السلام أنزل ملائكته لجدّه عليه السلام مهنّأة معزّية راثية، ورثاه جدّه صلى الله عليه وآله في أكثر من مورد وموطن، ورثاه مولانا أمير المؤمنين عليه السلام كذلك، ورثاه أخوه الإمام الحسن عليه السلام عند شهادته مسموماً، ورثاه جبرئيل عليه السلام عند مصرعه، وقد تقدّم ذلك في هذا الكتاب.

غير أنّ أوّل مجلس أقيم بعد شهادته عليه السلام هو الأرن في أسماع الشيعة والأكثر تأثيراً في وجدانهم، لأنّه المنهج القدوة الجامع لأهداف الإمامة، وهو الحاوي لأغراض المجلس المثالي النموذجي، وهو المجلس الأوّل للإمام الحسين عليه السلام ، ولابدّ أن يحذو الخطيب حذوه، فقد أقيم على منبر رقى أعواده الإمام زين العابدين عليه السلام وأرسى فيه أسس الخطابة الحسينية على النهج المطلوب.

فالخطبة التي ألقاها الإمام زينُ العابدين عليه السلام في الجامع الأموي بدمَشق بعد مصرع أبيه عليه السلام هي المحور التي يدور عليها سبك الخطابة الحسينية، وهي النواة التي يغرسها الشّاهد الأكبر على ذلك الحدث الأضخم في تاريخ الدّنيا والإمامة، كأوّل بيان صادر عن الأسرة النبويّة، وهو الإمام الذي نصّ عليه أبوه عليه السلام والحجّة من قِبَل ربّ العالمين، وقد تزاحمت عوامل أهميّة خطبته العظيمة، فجدير أن تُعتبر الأسوة والقدوة في منهاج الرّثاء الحسيني.

والخطبة جامعة لأغراض الدّعوة الإسلاميّة والرّثاء الحسيني معاً، ومانعة لسوى ذلك، وهي النّداء العام الأول في رثاء سيّد الشّهداء عليه السلام ، وقيل في وصفها: " أبكى منها العيون، وأوجل منها القلوب ".. إذ استهلّها بديباجة الحمد

لله والثناء عليه والصّلاة على نبيه ﷺ ، ويبدو أنّه ركّز في مستهلّها على الوعظ حتّى ألان الله تعالى القلوب بوعظه فتفجّرت العيون بالدّموع ، ثم شرع في بيان فضائل أهل البيت عليهم السلام ومناقبهم ، وعرّف شخصه الكريم بنسبه الشّريف المتّصل بأبيه وجدّيه وجدّتيه عليهم السلام وأطنب في فضائل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام على وجه الخصوص ، وأعتقد أنّه فعل ليزيّن مجلسه بذكره أولاً ، ولأنّ المشتوم في محفل يزيد هو أمير المؤمنين عليه السلام وليس غيره ثانياً.

ثم انتهى بصورة متوالية إلى غرضه الأول الذي يطوي عليه ، فخاض في ذكر التّعزية وعدّ رزايا أبيه المظلوم عليه السلام ، فعرّف نفسه لهؤلاء الجاهلين ، وعرّفهم علوّ مقامه ومقام أهل بيته عليهم السلام ، ثمّ رثى أباه الشّهيد عليه السلام ، فحوّل هدوء المجلس الساكن إلى ضجّة واحدة من البكاء والعويل.. والظّاهر أنّنا لم نحظ بمجموع خطبته الكاملة ، وهذا داعي الأسف الشديد ، فجاءت مقتضبة متفاوتة في النقل.

وإذا جمعنا شتات رواياتها عن مصدرين كان هذا نصّ رواية الخطبة :

في المناقب : أن يزيد (لعنه الله) أمر بمنبر وخطيب ليخبر الناس بمساوي الحسين وعلي عليه السلام وما فعلا ، فصعد الخطيب المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم أكثر الوقيعة في علي والحسين ، وأطنب في تقريظ معاوية ويزيد فذكرهما بكل جميل.

فصاح به علي بن الحسين عليه السلام : " ويلك أيها الخاطب ، إشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق ، فتبوأ مقعدك من النار ".

ثم قال علي بن الحسين عليه السلام : " يا يزيد ، إءذن لي حتى أصعد هذه الأعواد ، فأتكلم بكلمات لله فيهن رضا ، ولهؤلاء الجلساء فيهن أجر وثواب ".

فأبى يزيد عليه ذلك ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ، إءذن له فليصعد

المنبر، فلعلّنا نسمع منه شيئاً، فقال: إنه إن صعد لم ينزل إلا بفضيحتي وبفضيحة آل أبي سفيان !! فقيل له: يا أمير المؤمنين وما قدر ما يحسن هذا ؟

فقال: إنه من أهل بيت قد زُقّوا العلم زقّاً، فلم يزالوا به حتى أذن له، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم خطب خطبة أبكى منها العيون، وأوجل منها القلوب.

ثم قال: " أيّها النّاس أُعطينا ستّاً وفُضّلنا بسبع، أُعطينا العلمَ والحلم والسّماحة والفصاحة والشّجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفُضلنا بأنّ منّا النّبي المختار محمداً ومنّا الصّدّيق ومنّا الطيّار ومنّا أسد الله وأسد رسوله ومنّا سبطا هذه الأمة، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي.

أيّها الناس أنا ابنُ مكةَ ومنى، أنا ابنُ زمزمَ والصفا، أنا ابنُ من حمل الرُّكنَ بأطرافِ الرّدَا، أنا ابنُ خيرِ من ائتزرَ وارتَدى ، أنا ابنُ خيرِ من انتَعَلَ واحتَفى، أنا ابنُ خير من طاف وسعى، أنا ابنُ خيرِ من حجّ ولبى، أنا ابنُ من حمَلَ على البُراقِ في الهَوَاء، أنا ابنُ من أُسرِيَ به من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى، أنا ابنُ من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى، أنا ابنُ من صلى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمّد المصطفى.

أنا ابنُ علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا لا إله إلا الله، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وبايع البيعتين، وقاتل ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيين، وقامع الملحدين، ويعسوب المسلمين، ونور

المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكّائين، وأصبر الصّابرين، وأفضل القائمين، من آل ياسين، رسول ربّ العالمين.

أنا ابن المؤيد بجبرئيل، المنصور بميكائيل، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل المارقين والناكثين والقاسطين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخر من مشى من قريش أجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله ولرسوله من المؤمنين، وأول السابقين، وقاصم المعتدين، ومبيد المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، وناصر دين الله وولي أمر الله وبستان حكمة الله وعيبة علمه.

سمحٌ سخيٌ بهيٌ بهلولٌ زكيٌ أبطحيٌ رضيٌ مقدامٌ همامٌ صابرٌ صوامٌ مهذبٌ قوامٌ، قاطعُ الأصلاب، ومفرق الأحزاب، أربطهم عناناً، وأثبتهم جناناً، وأمضاهم عزيمة، وأشدهم شكيمة، أسد باسل، يطحنهم في الحروب إذا ازدلفت الأسنة وقربت الأعنة طحن الرحى ويذروهم فيها ذرو الريح الهشيم.

ليث الحجاز، وكبش العراق، مكيٌّ مدنيٌّ خيفيٌ عقبيٌ بدريٌ أحديٌ شجريٌ مهاجريٌ، من العرب سيّدها، ومن الوغى ليثها، وارث المشعرين، وأبو السبطين، الحسن والحسين، ذاك جدي علي بن أبي طالب ".

ثم قال عليه السلام: " أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيدة النساء "[1].

وفي رواية أخرى في نفس المناقب عن كتاب الأحمر، قال الأوزاعي: أنّه عليه السلام قال: " أنا ابن خديجة الكبرى.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/١٣٧)، عن المناقب.

أنا ابن المقتول ظُلماً، أنا ابن المجزوز الرأس من القفا، أنا ابن العطشان حتى قضى، أنا ابن طريح كربلاء، أنا ابن مسلوب العمامة والرداء، أنا ابن من بكت عليه ملائكة السماء، أنا ابن من ناحت عليه الجن في الأرض والطير في الهواء، أنا ابن من رأسه على السّنان يهدى، أنا ابن من حرمه من العراق إلى الشام تسبى ".

فلم يزل يقول: " أنا أنا " حتى ضج الناس بالبكاء والنحيب، وخشي يزيد أن يكون فتنة، فأمر المؤذن فقطع عليه الكلام.

فلما قال المؤذن: الله أكبر، الله أكبر.

قال علي عليه السلام: " لا شيء أكبر من الله ".

فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله.

قال علي بن الحسين عليه السلام: " شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي ".

فلما قال المؤذن: أشهد أن محمّداً رسول الله، إلتفت من فوق المنبر إلى يزيد، فقال: " محمدٌ هذا جدي أم جدّك يا يزيد؟ فإن زعمت أنه جدّك فقد كذبت وكفرت، وإن زعمت أنه جدّي فلم قتلت عترته " !![1].

وقرّرت الإرادة الإلهيّة أن يبذر الإمام زين العابدين عليه السلام نواة المجلس الحسيني في قعر محفل بني أميّة ومركز عاصمتهم، لتنطلق مسيرة الخير والنّماء من قلب الخلافة الأمويّة ومحيط عرشها، كما نشأ موسى عليه السلام في حجر فرعون وقصره وانطلق من أحضانه فقوّض بسلطانه حتّى ذراه أدراج الرياح !!

وليس من الصدفة أن يغرس الإمام زين العابدين عليه السلام وهو وليّ الثأر

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٧٤/٤٥)، عن المناقب لابن شهراشوب (١٦٨/٤).

ووريث المصاب والحزن نواة المجلس الحسيني، فهو الأجدر بهذه المهمّة، ولهذا فإنّ أحزانه وآلامه لم تَعُق هدفه الذي كان يرمي إليه، وبدى قويّاً صَلْباً وسَلَكَ نهجاً واضحاً ومُناسِباً يجمع بين العقل والعاطفة.. متسامياً على كلّ جراحه، مشمّراً عن ذراع الجدّ والعمل لإكمال الخطّ الذي شقّه والده عليه‌السلام بحزم وقوّة وثبات، وكأنّه يقول: لقد أدّى والدي الشهيد ما عليه وبقي الذي علينا.

وكانت كلماته السّاخنة التي أطلقها في محفل الطّاغية في قلب عاصمته السّوط المقرّع للظّالمين، كما أنّها النّهج البيّن والمحجّة المثلى لسالكي طريق الخدمة الحسينيّة على مرور الليالي والأيّام، فالأجدر أن يحذو حذوه الخطيب والشّاعر والرّاثي إذا رام التوفيق والقبول، فقد قنّن عليه‌السلام منهجيّة رثاء أبيه الشهيد عليه‌السلام بشكل متكامل يتناسب مع علو مقامه وفادح مصابه، بأداء يتكافأ مع الحادثة الأليمة.

وكانت مهمّة الإمام عليه‌السلام شاقّة ومتوالية، وحدّثنا الرّواة عن مجلس آخر أقامه في مسقط رأسه ووطنه المدينة المنوّرة، بعد عودته ولقاء المعزّين له بالبكاء والعزاء، وينبغي التأمّل في هذا النّص التّاريخي المهم، فهو يضعنا على نفس الخط الذي اختطّه في محفل الطّاغية، ويدلّل على ذات المنهجيّة.

رَوَى بشير بن حذلم: ... فلمّا قربنا منها - أي المدينة المنوّرة - نزل علي بن الحسين عليه‌السلام فحطّ رحله وضرب فسطاطه وأنزل نساءه، وقال يا بشير: رحم الله أباك، لقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟ قلت: بلى يا ابن رسول الله، إني لشاعر.. قال: فادخل المدينة، وانع أبا عبد الله..

قال بشير: فركبت فرسي وركزت، حتى دخلت المدينة، فلمّا بلغت مسجد

النبي ﷺ رفعت صوتي بالبكاء.. وأنشأت أقول:

يـا أهـلَ يثـربَ لا مقـامَ لكـم بهـا ... قُتـلَ الحسـينُ فـأدمُعي مـدرارُ

الجسـمُ منـهُ بكـربلاءَ مضـرّجٌ ... والـرأسُ منـهُ علـى القنـاةِ يُـدارُ

قال: ثم قلت: هذا علي بن الحسين مع عمّاته وأخواته قد حلّوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم، وأنا رسوله إليكم أعرّفكم مكانه، فما بقيت في المدينة مخدّرة ولا محجّبة إلاّ برزن من خدورهن، مكشوفة شعورهن، مخمّشة وجوههن، ضاربات خدودهنّ، يدعون بالويل والثبور، فلم أرَ باكيا أكثر من ذلك اليوم، ولا يوماً أمرّ على المسلمين منه.

فضربت فرسي حتى رجعت إليهم، فوجدت الناس قد أخذوا الطرق والمواضع، فنزلت عن فرسي وتخطّيت رقاب الناس حتى قربت من باب الفسطاط، وكان علي بن الحسين عليه السلام داخلاً ومعه خرقة يمسح بها دموعه، وخلفه خادم معه كرسي، فوضعه له وجلس عليه، وهو لا يتمالك من العبرة، وارتفعت أصوات الناس بالبكاء وحنين الجواري والنساء، والناس من كل ناحية يعزّونه، فضجت تلك البقعة ضجة شديدة، فأومأ بيده أن اسكتوا فسكنت فورتهم.

فقال عليه السلام: " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، باريء الخلائق أجمعين، الذي بَعُدَ فارتفع في السماوات العلى، وقَرُبَ فشَهِدَ النّجوى، نحمده على عظائم الأمور، وفجائع الدّهور، وألم الفجائع، ومضاضة اللواذع، وجليل الرّزء، وعظيم المصائب الفاضعة الكاظة الفادحة الجائحة.

أيّها الناس، إن الله - وله الحمد - ابتلانا بمصائب جليلة، وثلمة في الإسلام عظيمة، قُتل أبو عبد الله وعترته، وسبي نساؤه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان من فوق عامل السنان، وهذه الرزيّة التي لا مثلها رزية.

أيّها الناس، فأيّ رجالات منكم يسرّون بعد قتله، أم أيّة عين منكم تحبس دمعها وتضن عن انهمالها، فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسماوات بأركانها، والأرض بأرجائها، والأشجار بأغصانها، والحيتان ولجج البحار، والملائكة المقرّبون، وأهل السماوات أجمعون.

أيّها الناس، أيّ قلب لا ينصدع لقتله، أم أيّ فؤاد لا يحن إليه، أم أيّ سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام.

أيّها الناس، أصبحنا مطرودين مشرّدين مذودين، شاسعين عن الأمصار، كأنا أولاد ترك وكابل، من غير جرم اجترمناه، ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمة في الإسلام ثلمناها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين، والله لو أن النبي تقدم إليهم في قتالنا كما تقدم إليهم في الوصاية بنا لما ازدادوا على ما فعلوا بنا، فإنا لله وإنّا إليه راجعون، من مصيبة ما أعظمها وأوجعها وأفجعها وأكظّها وأفظّها وأمرّها وأفدحها، فعند الله نحتسب فيما أصابنا وما بلغ بنا، إنه عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ "[١].

وانطلقت مسيرة المجلس الحسيني كأوّل ظاهرة للشعائر الحسينيّة في سياق الحزن والبكاء، في صورة مؤسّسة واضحة المعالم، وكان لها شرف الإنطلاق على يد الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام، ثم جدّ الشّيعة في السّير على ذلك المنوال،

---

(١) راجع اللهوف للسيد ابن طاووس، عنه بحار الأنوار (١٤٧/٤٥).

وتابعوا ذات النهج بأصله وفحواه، وتلقّوا الرّسالة بمسؤوليّة كاملة، وحملوا ثقل الأمانة، ثمّ راح أئمة أهل البيت عليهم السلام يكملون تأسيس المسيرة المظفّرة، ويعمّقون أصولها في أعماق المجتمعات والنفوس.

مجالس حسينيّة خالدة

واجه أئمة أهل البيت عليهم السلام حرباً شعواء طاحنة، أخفاها أعداؤهم وأعلنوها تارة أخرى، وجهد أعدائهم الجهيد قتل مجالس الإمام الحسين عليه السلام ووأد نورها وإطفاء جذوتها، لأنّهم أدركوا أنّها رمز قضايا العترة عليهم السلام وشعار قوّة أمرهم، فأرادوا إبادتهم بقتل هذا الشّعار وإخماد صوت ظلامتهم، وكبح جماح تطوّرها ونمائها وتضخّمها وانتشارها، لكنّهم محالاً طلبوا !!

فأهل البيت عليهم السلام قوّة فوق القوى كلّها، والله تعالى من وراء نصرهم، فاستطاعوا الصّمود أمام تعاقب الأخطار وتطوّر المواجهات، وواجهوا أعتى الحروب وتحمّلوا أصعب المصاعب، حتى نجحت أهدافهم وتمكّنوا من إحياء شعائر الحزن والمحافظة على المجالس الحسينيّة حتّى وصلت إلينا بشموخ على هذه الشّاكلة المتميّزة، كأغلى أمانة تكتنفها صدور المؤمنين، يعرفون قدرها جيّداً، كي يسلّمونها بدورهم لمن يأتي بعدهم.

وقد مرّ عليك منقولاً عن فرحة الغري أن الإمام زين العابدين عليه السلام ضرب فسطاطاً خارج المدينة المنوّرة مدّة طويلة، والظّاهر أنّه اضطر لذلك لسوء الظروف الأمنيّة فيها وفي أقطار الإسلام.. لكنّ كتب التاريخ نقلت أن السيّدة زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام قد أذكت أوار المجالس الحسينية وأشعلت القلوب حزناً وأسفاً،

ممّا ألّب النّاس على بني أميّة، فخاف عمرو بن سعد الأشدق - والي يزيد على المدينة - انتقاض الأمر، فكتب إلى الأخير كتاباً يشكوا إليه الحال فيه، فكتب له يأمره بالتفريق بينها وبين النّاس، فأمر الوالي بإخراجها من المدينة[1].

ولقد أدرك الظالمون تأثير بكاء المظلوم على الأمّة وخطره على عروشهم الهشّة، وهذا هو السرّ الذي وقف وراء منع الصدّيقة الزّهراء عليها السلام من البكاء على أبيها النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته، فطلبوا من أمير المؤمنين عليه السلام أن يخيّرها بين البكاء ليلاً أو نهاراً، لأنّ بكاءها يشعرهم بأذى التقريع ويذكّرهم ببقاء عار هضمها وظلمها، الأمر الذي كان يؤرّقهم ويؤذيهم.

وكانت الظّروف السّياسيّة ملائمة لرفع الشّعار الحسيني، وموائمة لتحرّك الأئمة عليهم السلام العلني، فقوّة الأمويّين لم تَدُم طويلاً، وسرعان ما تلاشت هيبتُهُم وتقهقرت دولتُهُم، فاغتنم الأئمة عليهم السلام ظروف ضعف الدّولة الأمويّة وانتقال الخلافة إلى العباسيين فأذكوا جذوة التعزية الحسينية وأشعلوا فتيل حزنها من جديد وبكيفيّات متواضعة.. فإذا ما أجلنا نظرنا في سيَرهم وجدنا نماذجَ لمجالس الذكر المحبّذة عندهم المملوءة بالمقاصد الغنيّة، وفيها تتجلّى أغراضهم حيّة ومُعلنة، وتبدو فيها الأولويّات بصورة مختصرة حسب ما يحتمله ظرفهم، وتنامت المؤسّسة الحسينيّة شيئاً فشيئاً، حتّى وصلت إلى وضعها الرّاهن..

❖ أورد المرحوم المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار مسنداً إلى أبي هارون المكفوف، قال: دخلتُ على أبي عبد الله الصّادق عليه السلام فقال لي: أنشدني، فأنشدته.

---

(١) راجع أخبار الزينبات للنسابة العبيدلي ص (٢١).

فقال: لا، كما تنشدون وكما ترثيه عند قبره. فأنشدته:

أمــرُر علــى جــدثِ الحســينِ وقـــل لأعظُمِـــهِ الزكيّـــه

قال: فلمّا بكى أمسكت. فقال: مُر. فمررتُ. ثم قال: زدني. قال: فأنشدته:

يـا مـريمُ قـومي وانـدبي مـولاكِ وعلـى الحسـينِ فأسـعدي ببكـاكِ

قال: فبكى، وتهايج النّساء، فلمّا سكتن، قال لي: " من أنشد في الحسين عليه السلام فأبكى عشرة فله الجنّة، ثم جعل ينتقص واحداً واحداً حتى بلغ الواحد " فقال: " من أنشد في الحسين عليه السلام فأبكى واحداً فله الجنّة "، ثم قال: " من ذكره فبكى فله الجنّة "[1].

❖ رَوَى أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني مسنداً إلى علي بن إسماعيل التميمي، عن أبيه، قال: كنت عند أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام فأستأذن آذنه للسيد الحميري، فأمر بإيصاله، وأقعد خلف ستر، ودخل فسلّم وجلس، فأستنشده فأنشد قوله:

أمــرُر علــى جــدثِ الحســينِ فقـــل لا عظُمِـــهِ الزّكيّـــه

آ أعظُمـــاً لا زلـــت مـــن وطفـــاءَ ســـاكبةٍ رويّـــه

وإذا مـــرَرت بقـــبرِه فأطـــل بِـــهِ وَقـــفَ المطيّـــه

وأبـــكِ المطهّـــر للمطهّـــرِ والمطهّـــرةِ التّقيّـــه

كبكـــاءِ معولـــةٍ أتـــت يومـــاً لواحـــدِها المنيّـــه

(١) راجع بحار الأنوار (٢٥/٢٨٧/٤٤) عن كامل الزيارة، والوسائل (٤٦٥/١٠) ما يقرب منه، ونحوه في ثواب الأعمال.

قال: فرأيت دموع جعفر بن محمد عليه السلام تنحدر على خدّيه، وارتفع الصّراخ من داره حتى أمره بالإمساك فأمسك.

وتوالى النقل للمجالس والمآتم التي عقدها الإمام الصّادق عليه السلام، وقد سبق أن قلنا أنّ أكثر النصوص في هذا الباب مرويّة عنه عليه السلام.

❖ روى العلاّمة المجلسي رحمه الله أنه دخل جعفر بن عفان على أبي عبد الله الصّادق عليه السلام فقرّبه وأدناه، ثمّ قال له: يا جعفر.

قال: لبيك جعلني الله فداك.. قال: بلغني أنك تقول الشّعر في الحسين وتجيد.

فقال له: نعم جعلني الله فداك. فقال له: قُل..

فأنشدته، فبكى ومَن حوله حتى صارت الدّموع على وجهه ولحيته.

ثمّ قال: يا جعفر، والله لقد شهدت ملائكة الله المقرّبون هاهنا يسمعون قولك في الحسين عليه السلام، ولقد بكوا كما بكينا وأكثر، ولقد أوجب الله تعالى لك يا جعفر في ساعته الجنّة بأسرها وغفر الله لك.

ثمّ قال: يا جعفر ألا أزيدك ؟ قال: نعم يا سيّدي.

قال: ما من أحد قال في الحسين شعراً، فبكى وأبكى به إلاّ أوجب الله له الجنّة وغفر له[1].

وتعتبر هذه المجالس الحسينية المأثورة التي عقدها أئمة أهل البيت عليهم السلام الأصل والنموذج للمجالس المستقبلية، وتعدّ بمثابة رأس المال الكبير الذي سوف تعتمد عليه الشيعة في المؤسّسة الحسينية، فعمدتها الذكر وهدفها الإنشاد والرّثاء،

(١) راجع بحار الأنوار (٤٤/٢٨٢).

وليست المقاصد الأخرى كالوعظ والإرشاد والعلم إلاّ ضمائم راجحة لا شكّ في أهمّيتها، لكنّها ستكون ناقصة إذا خلت من ذكر مصيبة الإمام الحسين عليه السلام.

وبدت في أفق القضيّة الحسينية ظاهرة المنشدين في عصر الأئمة الأبرار عليهم السلام وتطوّرت تفاعلاتهم مع القضيّة، خصوصاً بعد تلقّي مشاركاتهم بالرّضا والقبول، وكان استناد المنشدين في ذلك راجعاً إلى أمرهم عليهم السلام وتشجيعهم، ووظيفة المنشدين المصطلح عليها عند البعض اليوم " المدّاحين " مهمّة ومقدّسة وجذورها ممتدّة إلى عصر الأئمة عليهم السلام، كما يقوم بدورها اليوم الخطيب الحسيني بأكمل وجه.

وكان الأئمة عليهم السلام قد وظّفوا المحبّين والمتميّزين لرثائهم، ليتم نشر القضيّة بأصدائها المحزنة، وأسندوا طريقة أدائها إلى الفنون المتعارفة والمتداولة، وعبر وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الزّمن، واستفادوا من لغة زمنهم في تعزيز الحزن، فيكون الرّثاء بالتدريج وظيفة مستقلّة قائمة بذاتها، ومهمّة تجتذب إليها المتميّزين.

وشاء الله تعالى لهذه البذرة الطيّبة الحياة والنّماء، فأنبتت واخضرّ عودها، ورست جذورها، وتطاولت أغصانها وأظهرت ثمارها، وتطوّر أداء المجلس الحسيني من بعد الرّثاء المحض إلى ضم الدّروس والمحاضرات.. ومسك الختام رثاء الحسين عليه السلام مماشاة للسبك المأثور.

وامتاز خدّام الإمام الحسين عليه السلام باحترام الأئمة عليهم السلام وتبجيلهم، وكانت هذه الفئة محلّ عناياتهم وعطفهم، ومُنيت بإرشاداتهم وتأييداتهم، فالرّثاة خطباء ورواديد هم ناشروا صوت الظلامة الصّارخة في أرجاء عواصم الإسلام، وهم الأقرب إلى المجتمع والأقدر على التأثير عليه في كل عصر، وهم ذاتهم الذين

يجابهون اليوم وسائل الإعلام بتطوّرها وتقدّمها بقدراتهم الجبّارة المتواضعة، ولا يخامرني شكّ في قدرتهم على محق أعداء القضيّة الحسينية وسحقهم رغم قِدم أساليبهم الكلاسيكية - كما يعبّر عنها البعض - وتطوّر وسائل الإعلام المضاد.

❖ رُوِيَ في كامل الزيارات بالإسناد إلى أبي عمارة المنشد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: يا أبا عمارة، أنشدني في الحسين عليه السلام، قال: فأنشدته فبكى، ثم أنشدته فبكى، ثم أنشدته فبكى، قال: فو الله ما زلت أنشده ويبكي، حتى سمعت البكاء من الدّار.

فقال لي: " يا أبا عمارة، من أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فأبكى خمسين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى أربعين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى عشرين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى عشرة فله الجنة، ومن أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فأبكى واحداً فله الجنة، ومن أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فبكى فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فتباكى فله الجنة "[١].

وهو عليه السلام القائل للفضيل بن يسار: " إن تلك المجالس أحبها فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيى أمرنا، يا فضيل مَن ذَكَرنا أو ذُكرنا عنده فخرج من عينيه مثل جناح الذباب غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر "[٢].

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠٥)، وبحار الأنوار (٢٨٢/٤٤)، وثواب الأعمال ص (٨٤)، ووسائل الشيعة (٥٩/١٤).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢٨٢/٤٤ و ٣٥١/٧١)، وثواب الأعمال ص (١٧٨)، ووسائل الشيعة (٢٠/١٢ و ٥٠١/١٤)، وبشارة المصطفى ص (٢٧٥)، وقرب الإسناد ص (٨)،

ورُوِيَ في المناقب خبر المجلس الذي عقده الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام المعروف بالعطاء والكرم، وفيه صورة من صور الكرم العلوي الذي سارت بآياته الرّكبان، وسترى كيف جاد عليه السلام بعطائه على راوية شعرٍ لأنّه روى الشعر في جدّه الإمام الحسين عليه السلام.

❖ فيُروى: أنّ المنصور تقدّم إلى موسى بن جعفر عليه السلام بالجلوس للتهنئة في يوم النيروز، وقبض ما يحمل إليه، فقال عليه السلام إنّي قد فتّشت الأخبار عن جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله فلم أجد لهذا العيد خبراً، وإنّه سنّة للفرس، ومحاه الإسلام، ومعاذ الله أن نحيي ما محاه الإسلام.

فقال المنصور: إنّما نفعل هذا سياسةً للجند، فسألتك بالله العظيم إلاّ جلست.

فجلس، ودخلت عليه الملوك، والأمراء، والأجناد يهنّئونه، ويحملون إليه الهدايا والتحف، وعلى رأسه خادم المنصور يحصي ما يحمل.

فدخل في آخر الناس رجل شيخ كبير السنّ، فقال له: يابن بنت رسول الله، إنّني رجل صُعْلُوك، لا مال لي، أتحفك بثلاث أبيات قالها جدّي في جدّك الحسين بن علي عليه السلام:

عَجِبتُ لمصقولٍ علاكَ فِرندُه ... يومَ الهَياجِ و قد علاكَ غبارُ

ولأسهُمٍ نفذتكَ دونَ حرائرٍ ... يدعون جدّكَ و الدّموعُ غزارُ

ألا تقضقضت السّهامُ وعاقَها ... عن جسمكَ الإجلالُ والإكبارُ

قال عليه السلام: قبلت حديثك، إجلس بارك الله فيك. ورفع رأسه إلى الخادم

→

والمستطرفات ص (٦٢٦).

وقال: إمض إلى أمير المؤمنين، وعرّفه بهذا المال، وما يصنع به. فمضى الخادم وعاد وهو يقول: كلّها هبةٌ منّي له يفعل به ما أراد. فقال موسى عليه السلام للشيخ: إقبض جميع هذا المال فهو هبة منّي لك[١].

تطوّر المجالس الحسينيّة

كان الإمام الصّادق عليه السلام يقول لبعض أصحابه: أبلغ مواليّ عني السلام، وأني أقول رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكرا أمرنا، فإن ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما اجتمع إثنان على ذكرنا إلاّ باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر، فإن في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس من بعدنا من ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا[٢].

ومن هذا المنطلق العقائدي الذي أسسته أيمان العترة عليهم السلام بإتقان انطلق شيعتُهُم بالحب والوداد ورغبة المواساة لهم وحملوا على عاتقهم إكمال المسيرة الحسينية وبذل النفس والنفيس في سبيل المحافظة عليها، ومن الطبيعي أن يشهد المنبر الحسيني مراحل متتابعة وحلقات متتالية من التطوّر والنّماء بحسب ما تقتضيه طبيعة العصور.

وتربّع المنشدون والنّائحون في الصدارة منذ تأسيس المجلس الحسيني، فهم أوائل القرّاء الحسينيين، وكذا الحال بالنسبة للمجالس النّسائيّة، إذ لمعت أسماء

---

(١) راجع المناقب لابن شهراشوب (٤/ ٣١٨ - ٣١٩).

(٢) راجع أمالي الطوسي ص (٢٢٤) بالإسناد إلى معتب مولى الإمام عليه السلام، والمخاطب في الخبر داود بن سرحان، وراجع وسائل الشيعة (١٦/ ٣٤٨)، ومستدرك الوسائل (٨/ ٣٢).

عدّة من النّائحات في العصر القديم، وتميّزوا رجالاً ونساءً بحسن الأداء والخبرة والإجادة لألحان الحزن، والحفظ لجيّد الشعر في هذا المجال، فالشّعر هو المادّة الأساسيّة التي تدور عليها رحى تلك المجالس، وتنامت هذه المادّة بشكل ظاهر بكثرة الشّعراء وتنوّع الأذواق، وتأصّل ترابط الشّعر بالمجلس الحسيني، وامتزج به وعُدّ أحد مكوّناته وعناصره.

ثمّ أضيف على مادة الشّعر مادة أخرى، ألا وهي القصص والأخبار المتّصلة بنفس الغرض، ولا يزال يُصطلح عليها " السّيرة الحسينية " حتّى اليوم، ولمع في هذا المضمار قصّاصون ومحدّثون يقومون بوصف الأحداث المؤلمة وسردها بطُرُق الحزن مع الإنشاد والإبكاء، وبهذه الطريقة يُحيي هؤلاء أمرَ أهلِ البَيت عليهم السلام ويبيّنون قصّة مقتل الإمام الحسين عليه السلام وتعمّر تلك المجالس.

ونستطيع الجزم بأنّ هذا التطّور في مادّة المنبر الحسيني ظهر في عصر الأئمة الأبرار عليهم السلام وتحت نظرهم، وبالتّحديد في زمن الإمام الصّادق عليه السلام، فإنّ بعض الشّيعة رغم بعدهم المكاني عنهم عليهم السلام تلقّوا الدّرس وفهموه بإكمال مسيرة البكاء والحزن والسّعي فيها إلى كمالها المنشود، مستخدمين كل وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الزّمن لإذكاء الدّمعة، ونقل المأساة بحرارتها إلى الأجيال بكلّ أمانة وصدق.

ورُوِيَ في كامل الزّيارات عن عبد الله بن حماد البصري أنّ الإمام الصّادق عليه السلام قال له: إن عندكم - أو قال في قربكم - لفضيلة ما أوتي أحد مثلها، وما أحسبكم تعرفونها كُنْهَ معرفتها، ولا تحافظون عليها، ولا على القيام بها، وإن لها لأهلاً خاصّة قد سُمّوا لها، وأعطوه بلا حول منهم ولا قوة، إلاّ ما كان من

صنع الله لهم، وسعادة حباهم الله بها، ورحمة ورأفة وتقدم.

قلت: جعلت فداك، وما هذا الذي وصفت لنا، ولم تُسَمّه ؟

قال: زيارة جدي الحسين بن علي عليه السلام فإنّه غريب بأرض غربة، يبكيه من زاره، ويحزن له من لم يزره، ويحترق له من لم يشهده، ويرحمه من نظر إلى قبر ابنه عند رجله في أرض فلاة، لا حميم قربه ولا قريب، ثم مُنع الحق وتآزر عليه أهل الردة حتى قتلوه وضيّعوه، وعرّضوه للسّباع، ومنعوه شرب ماء الفرات الذي يشربه الكلاب، و ضيّعوا حق رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيّته به وبأهل بيته، فأمسى مجفوّا في حفرته، صريعاً بين قرابته وشيعته بين أطباق التّراب، قد أوحش قربه في الوحدة والبعد عن جدّه، والمنزل الذي لا يأتيه إلا من امتحن الله قلبه للإيمان وعرّفه حقنا.

فقلت له: جعلت فداك، قد كنت آتيه حتى بليت بالسلطان وفي حفظ أموالهم، وأنا عندهم مشهور، فتركت للتقيّة إتيانه، وأنا أعرف ما في إتيانه من الخير..

فقال: هل تدري ما فضل من أتاه ؟ وما له عندنا من جزيل الخير ؟

فقلت: لا.. فقال: أمّا الفضل فيباهيه ملائكة السماء، وأما ما له عندنا فالترحّم عليه كل صباح ومساء، ولقد حدّثني أبي أنه لم يخل مكانه منذ قتل من مصلّ يصلي عليه من الملائكة، أو من الجن، أو من الإنس، أو من الوحش، وما من شيء إلاّ وهو يغبط زائره ويتمسّح به ويرجو في النظر إليه الخير لنظره إلى قبره عليه السلام.

ثم قال: " بلغني أن قوماً يأتونه من نواحي الكوفة، وناساً من غيرهم، ونساءً يَندُبْنَه، وذلك في النصف من شعبان، فمن بين قاريء يقرأ، وقاص

يقص، ونادب يندب، وقائل يقول المراثي ".

فقلت: نعم، جعلت فداك، قد شهدت بعض ما تصف.

فقال: الحمد لله الذي جعل في الناس من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا، وجعل عدوّنا من يطعن عليهم من قرابتنا، وغيرهم يهدّدونهم ويقبّحون ما يصنعون[1].

وكان مولانا الصّادق عليه السلام يُتابع بعناياته تلك المظاهر التي يُظهرها الشيعة والمحبّون في كربلاء المقدّسة على بعد المسافة بينه وبينهم، ويتحرّى أخبار العزاء في بقعة العزاء، وأجزم اليوم أنّ إمامنا صاحب الزّمان عليه السلام يتابع ويتحرّى أخبار زوّار جدّه عليه السلام ويشاركهم الحضور تحت قبّته السّامية، شأنه في ذلك شأن آبائه عليهم السلام في رعاية الشّعائر الحسينية - زاد الله في شرفها - ويدير رحى تطوّرها ويرعاها بدعائه وكرمه..

هذا، ودُوِّنَت - في تطوّر ملحوظ في تاريخ المجالس الحسينيّة - تلك القصص والأخبارُ المتلوّة في المجالس في كتب خاصّة، وعُرفت بالمقاتل، وكان كتاب مقتل الحسين عليه السلام هو مادة المجالس لفترة طويلة، ولا نزال ندرك بقايا هذه المرحلة في مجالس بلاد الخليج بشاطئيه وفي جنوب العراق، فإنّ المقتل يُقرأ في يوم عاشوراء على وجه الخصوص، وأضاف قرّاء التعزية له الشعر الرثائي وجوّدوا ألحان الحزن، لتتصدّر المادة القصصيّة الرّوائية، وتختتم برثاء الإمام الحسين عليه السلام شعراً.

وفي مرحلة قريبة أضيفت أشعار المناقب والفضائل إلى مادّة المجالس الأساسيّة، ثمّ أضيفت أخبار الفضائل والمناقب إلى مادّتها، مع بعض المراثي

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٣٢٥)، عن بحار الأنوار (٧٣/٩٨)، ووسائل الشيعة (٥٩/١٤).

النثريّة المصاغة ببيان مهرة الأدب العربي من عُشّاق المولى أبي عبد الله عليه السلام.

لقد تطوّرت القراءة الحسينيّة وشهدت في هذه النقلة النّوعية انعطافة كبيرة بانفتاحها على المواد الإضافيّة، ممّا يُطوّر في تأثيرها ويؤسّس لنموِّها، وقد أُلّفت وصُنّفت عبر الأزمان المتتالية بعض الكتب أو نُسخ المجاميع نتيجة لهذا التطّور الذي آل إليه المنبر، ككتاب " مثير الأحزان " للشّيخ ابن نما الحلّي، و " مثير الأحزان " للشيخ الجواهري، و " المنتخب في المراثي والخطب " للشيخ فخر الدّين الطريحي، و " الفوادح الحسينيّة " للشيخ حسين العصفور، وغيرها الكثير.

والمكتبات والحسينيّات الشيعية زاخرة بهذه النّسخ القديمة، وقلّ ما يخلو مأتم قديم من نسخة عتيقة متهرّأة من هذه النّسخ، ويظهرها أصحاب المآتم في المناسبات لتلاوتها بحسب السّبك القديم وألحانه المتوارثة قبل المجلس الحسيني.

ولقد جُبت هذه السّنة في مكتبة المرحوم الشّيخ كاشف الغطاء رحمه الله في النّجف الأشرف - ورأيت فيما رأيت - كثيراً من هذه النّسخ، المكتوبة أصلاً للتلاوة في المجالس، بأقلام العلماء والأدباء والرّثاة والخطباء، ويجمعها كلّها نظامٌ واحد، فهي مبوّبة ومتدرّجة على السيرة الحسينيّة، ومطعّمة بالشعر الفصيح، وربّما الشعر الشعبي، وفيها نثرٌ مسجّع، وفوائد مهمّة لا زال الخطباء يستفيدون منها.

ثم تطوّرت مادّة المجالس بشكل ملحوظ وسريع من بعد هذه الحقبة، فأضاف الرّثاةُ على مادّتها المتداولة نصوص كتاب نهج البلاغة، فصاروا يبدأون خطبهم بحكمة أو كتاب أو رسالة ممّا روي من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، ثم يخوضون في شرحها ويبيّنون ما يتعلّق بها من أحداث تاريخيّة وما يناسبها من القصص والشّعر، ويستغلّون ذلك في الوعظ وبيان بعض المسائل الدينيّة

العقائديّة والفقهيّة.. ومع هذه القفزة الكبيرة في تأريخ المجالس الحسينية نستطيع أن نعبّر عن الرّاثي بـ (الخطيب)..

فبعد الإنفتاح على هذا المنطلَق الواسع تتجدّد المطالب والمواد المتداولة على المنبر الحسيني بشكل سريع ومتطوّر، وتواكب مستوى العصر، وتُلبّي حاجة الزّمن، ولهذا فإنّا نلاحظ اليوم كيف يواكب المنبر الحسيني نهضة العصر الحديثة، وكيف ترقّى أداء المجلس بالشّكل الواضح، بعد الإنفتاح على العلوم العصريّة، فدوره اليوم دور المصلح والنّاقد والمقارن والمقتبس، وهو حاليّاً يعتمد على جميع العلوم الإنسانيّة.

ويتعرّض الخطيب اليوم إلى مختلف حقول الفكر المتداولة في ميادين العلم على اختلاف المشارب، ويمكننا أن نقول أنّ مادة المجلس الحسيني اليوم هي العلم، ويُعالج الخطيب الحسيني مختلف القضايا العلمية والفكرية والإجتماعيّة والسياسيّة والتربويّة والأخلاقية، إلى جانب الدّينيّة والعقائدية، بكلّ حريّة وانفتاح، فغالباً ما يكون ذلك على ضوء آية قرآنيّة، أو حديث نبوي، أو كلمة من كلمات العترة الطّاهرة، أو حتّى بيتٍ من أبيات الشّعر، وربّما مَثَلٍ سائر.

ويتمّ عرض البحوث المختلفة على ضوء النصّ المُصدّر بحسب سعة إطّلاع الخطيب، وبحسب جهده في تتبّع المعلومات والبحوث، وقد ظهرت كتب قيّمة في هذا العصر تحتوي نتاج جهد عدّة من الخطباء المبرّزين، وهي متوفّرة في المكتبات بشكل كبير، على مستوى الخطابة العربيّة والفارسيّة.. إلاّ أنّ أهم الكتب التي أُلّفت في هذا الصّدد فيما أعلم هي من تأليفات العلاّمة الخطيب الشيخ محمّد تقي الفلسفي رحمه الله، وقد دُوّنت عن محاضراته الفارسيّة وترجمت إلى العربيّة من بعد

ذلك، وفيها يعالج قضايا فكريّة وتربويّة واجتماعيّة بشكل باعث للفخر، فهو يجمع بين الثقافة الدينيّة والثّقافات الأخرى..

وقد برزت مجموعة مشرّفة من خطباء المنبر الحسيني من العرب الذين كتبوا نتاج تجربتهم وصارة عطائهم المنبري، رثاءً وفكراً، وأرى على أرفف المكتبة الشيعية اليوم كثيراً من المطبوعات الصادرة بغرض جمع تراث بعض الرّاحلين منهم، كالمرحوم الشيخ عبدالوهّاب الكاشي رحمه الله أو المرحوم الشيخ هادي الكربلائي رحمه الله أو المرحوم الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله.. وهذا بابٌ يؤدّي بنا إلى بحرٌ لا نهاية له ويتعسّر استقصاؤه..

وفي عصرنا الحاضر.. تربّع المرحوم الشّيخ أحمد الوائلي رحمه الله على عرش الخطابة الحسينيّة العربيّة، وكان المثال المحتذَى والقدوة للخطباء على مدى جيلين، إلاّ أنّه لم يخلّف مؤلّفاً في هذا الباب، ولم تُطبع محاضراته القيّمة تحت نظره كما طُبعت محاضرات الآخرين، وطُبعت له مجموعة من محاضراته بعد وفاته مبيّضةً من تسجيلاته الباقية، ولو كانت قد دُوّنت في حياتِه كان لها صدىً آخر..

هذا.. وتعتبر المجالس الحسينية اليوم القناة الأهم والأقوى للشيعة الإماميّة بالدّرجة الأولى.. وتُعدّ الوسيلة المُثلى لفقه الدّعوة الحسينيّة وإيضاح أبعادها وشرح جذورها، وينطوي في ذلك التّعريف بالإسلام وتعاليمه وكلّ خصوصيّاته وأبعاده، كما وأنّها سبيل المحافظة على الرّابطة القويّة بين المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام، ولا زالت تطبع على نفوس عامّة النّاس والمقيمين لها والحاضرين فيها أقوى الإنطباعات الدّينيّة والتربويّة الخاصّة..

حتّى أصبحَت مجالس الإمام الحسين عليه السلام شيئاً فشيئاً منتديات للعلم

والفكر الأصيل، وجامعات للفقه الإسلامي، ومعاهد للفكر الدّيني، ومنبراً للرأي الحر، ومراكز للتأهيل التربوي والمتابعة الرّوحية، وضمان الأمان والإستقرار وحياة المؤمنين وسلامتهم المعنويّة والروحيّة والنفسيّة.

ويتداول فيها الخطباء الأكفّاء القرآن والتّاريخ والشّعر والأدب، ومختلف العلوم الإنسانيّة، ويُعالج فيها مختلف القضايا الدّينية والفكرية، وهي التي تبعث النّفوس إلى التمسك بالعزّة والإباء، وتضمن الأمن والأمان في محيطها، وتبارك ساحتها، وتعزّز الضّمير الخيّر المتديّن المحبّ للمعروف المبغض للمنكر.

ولا بدّ أن ينتهي مطاف كلّ مجلس بالرّثاء، ومسك ختامه ذكر الإمام الحسين عليه السلام، الأمر الذي يضمن روحها وعنفوانها ويمدّها بأسرار الحياة والبقاء.

ويضمّ المجلس الحسيني اليوم مختلف الفوائد والعلوم الإنسانيّة، ويجمع في مادّته تفسير القرآن الكريم، إلى جنب الفقه والشريعة وعلوم الكلام والفلسفة، والتاريخ والأدب والشّعر وغير ذلك، ولا أبالغ حينئذ إذا قلّت أنّ المجالس الحسينيّة اليوم تعدّ موسوعة الإسلام الخالص، السّهلة المنال، والمتاحة في كلّ أقطار الإسلام وعلى مدار أيّام السّنة.

ويُنصب هذا الشّعار المقدّس لإحياء أحزان العترة النبوّية وأفراحهم على حدّ سواء، فتقام المجالس والمحافل في مواليد الأئمة ووفياتهم عليهم السلام، وتتكرّر إقامة المجالس الحسينيّة - كذلك - في مناسبات تأبين الشّخصيات وفي مجالس الفاتحة.

وتُحيى فيها المناسبات التاريخيّة على مدى أيّام السّنة، كالغزوات النبويّة والأحداث المهمّة التي تصدّرت تأريخنا، ولقد لبّى الشيعة رغبة أئمتهم عليهم السلام فأقاموا المجالس في بيوتهم على مدى أيّام السّنة، فأغلب البيوتات الشيعيّة والأُسر

الكبيرة لها يوم في الأسبوع تتّصل فيه بذِكْر الإمام الحسين عليه السلام وتحيي فيه أقرب المناسبات بحسب التاريخ، وهو عملٌ نصّ عليه أهل البيت عليهم السلام حينما حثّوا على التلاقي بالبيوت وإحياء أمرهم عليهم السلام، فاعتادت الشّيعة أن تفتتح البيوت الجديدة بمجلس حسيني للبركة، وتذكر الإمام الحسين عليه السلام في شهادة كلّ إمام من أهل البيت عليهم السلام، وتمثّل هذه المجالس الدّوافع المهمّة لنشر الإسلام والفكر النبوي وتثبيت خط أهل البيت عليهم السلام وترسيخه في النفوس.

هذا، ويتألّق أداء المجالس الحسينية ويتجلّى في أيام عاشوراء من شهر المحرّم، وأعني بها العشرة الأولى منه، ويقيم الشيعة المجالس المنظّمة والمعد لها سلفاً، حيث جوهر المصيبة والحزن والرّثاء، وفيها يتنافس المحبّون والموالون على نشر ظلامة أهل البيت عليهم السلام والدّعوة إليهم، ويشترك في هذه المجالس - كما هو الحال في بلدنا - عامّة المسلمين من غير فرق بين مذاهبهم.

وثمرة هذه المجالس ظاهرة على فكر مرتاديها، فحصيلتهم العلميّة والثّقافية في نماء وتطوّر، ولقد كنت ألتقي بدكتور مصري يحضر في بعض مجالس الكويت، وكان يقول لبعض الشّيعة: أنتم لا تعرفون قدر هذه المجالس!! إنّها جامعات كبرى مباركة، تُلقى فيها محاضرات مجّانيّة في الدّين والتاريخ والعلم والأدب، وهي مملوءة بالخير والبركة.. وكان يقول لي إذا أوشك موسم المجالس الرّاتبة على النهاية في آخر صفر: سنضيع بعد صفر!!

ومن الطّريف أنّ الشيعة بكلّ مستوياتهم الدّينيّة والفكريّة يحضرون مجالس الإمام الحسين عليه السلام وخصوصاً في العشرة الأولى من المحرّم، حتّى هؤلاء الذين لا يُعرفون بالتزام ديني أصلاً، وعادة ما يسوقهم حضورهم إلى الدّين والهداية،

ولقد حدّثني صديق عن طالب شيعي مشاكس في الجامعة، وله حظٌّ وفير من المعلومات، وكان يناقش أستاذه دائماً ويُحرجه بالإشكالات، فالتفت أستاذه الدّكتور إليه يوماً وقال له: عندي سؤال يحيّرني كثيراً !!

فقال الطّالب: ما هو؟ فقال: تُعجبني سعة اطّلاعك في العلوم الدينيّة والتاريخيّة، ويعجّبني أنّك لست من أهل المُطالعة والقراءة، فمن أين تأتيني بكلّ هذه المعلومات !! فتبسّم الطّالب وردّ عليه: أنا شيعيّ، وإنّ عندنا مدرسة نلتزم بحضورها في أيّام عاشوراء، وفيها نتعلّم كلّ شيء !!

دعوة تجديد المجلس الحسيني

قطعت المجالس الحسينية مراحل الإنشاء والتأسيس بشكل تدريجي مدروس، حتّى اجتازت بنجاح كبير مرحلة الفتوّة والصّبا إلى البلوغ والرشد، وقد حصّنها الأئمة عليهم السلام بمنهجيّتهم عن السقوط في داء الشيخوخة كبقيّة المؤسّسات الأخرى.. إذ عدّ البعض الشيخوخة أشد المراحل خطراً وتهديداً على المؤسّسات، وتنذر إذا ما حلّت بها بالجمود والموت البطيء، وتترشّح المناهج الفكرية للإصابة بهذا الدّاء بسبب التخلّي عن أدوات التّحديث للمنهج وأساليبه وأهدافه، والرّكائز الضامنة لدوام فتوّتها ومتانتها.

لكنّ البعض توهّم احتمال تعرّض المجالس الحسينيّة لهذا الخطر، وكان ذلك محلّ الكلام في السنين الأخيرة، ممّا حدى ببعض الأفواه أن ترتفع أصواتُها معلنة مطالب التحديث والتجديد تبعاً لعولمة العالم الإسلامي عموماً، بعد تسلّط المد الجارف المكتسح لهويّة الأمم والشعوب، ولا شكّ أنّه

ينبغي تجديد أدواة الإعلام الدّينيّة، لا من باب شيخوختها، وإنّما من باب عرض قضايانا بلسان العصر.

وينبغي التسليم بأنّ المجالس الحسينيّة اليوم تواجه غول الإعلام العالمي بدعاياته ومناهجه وتقنياته، إذ توظّف العولمة المعاصرة أدق الأدوات تأثيراً في إجراء عملية مسخ هويّة الأمّة بتوجيه سلاح الإعلام ضد ديننا وفكرنا وأخلاقنا، في حال غفلة المسلمين والمؤمنين وانشغالهم بالتوافه والسفاسف.

ولابدّ للأمّة أن تنهض بأعباء رسالتها في هذا الظرف الدّقيق، شاحذة الهمم لامتصاص الضّربات ومواجهة الإعلام واكتساحه بالفكر الدّيني الأصيل، ويتعيّن عليها في هذه المرحلة الحسّاسة أن تمتاز بقوّة التّحديث في مؤسّساتها الإعلاميّة، ومن أهمّها المجالس الحسينيّة، لتؤدّي دورها بثبات ورسوخ في وجه أعاصير العولمة العاتية.

إن الآمال معقودة على المجالس الحسينية في صيانة الهوية الإسلامية وتحصينها من الغزو العالمي، والآمال في محلّها قطعاً، وأصبحت الحاجة ملحة لاستغلال جميع قدرات الجيل الحاضر وطاقاته العلمية والفنية والمالية للنّهوض بأداء المنبر الحسيني، بصورة يتمكّن من الإبحار بالجيل الحاضر في عباب بحر التحدّيات والتّهديدات التي تستهدف تراثنا وفكرنا وهويتنا الإسلامية.

وأعتقد أنّ التّحديث المطلوب يقوم على أساس الموازنة بين الأصالة والحداثة، ولا بدّ من تشخيص معالم أصالة المجلس الحسيني قبل كلّ شيء، لضمان سلامة صيانته من العبث، فهو شعارٌ دينيٌّ مقدّس، وهذا فوق كلّ اعتبار، فيتعيّن تحديث أساليب إعلامه الفنيّة والتقنيّة والعلميّة كي يظهر بمظهر

العصر دون المساس بإطاره العام، وبهذا يمكن حماية التراث الضّخم الذي حقّقه في مسيرته الطّويلة، ويمكن صيانة رصيده الكبير بأمانة ونزاهة.

ولابدّ من تأصيل أنّ المؤسّسة الحسينيّة هي مؤسّسة الإسلام، وثورة الإمام الحسين عليه السلام هي شعار كلّ مسلم موحّد، وهي نهضة تجسّد الإسلام بكلّ معانيه وكافة أبعاده ونواحيه، وتمثّل كل جوانبه الأخلاقية والإجتماعية مضافاً إلى الموعظة والحكمة والتوحيد والعرفان والعقيدة، ممثّلة في الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه البررة وأهل بيته عليهم السلام، فهم أسوة المجتمع الإسلامي عبر الأجيال، مروراً بالطفل الرضيع وانتهاءً بالشيخ الكبير، والمرأة العجوز.

إنّ إبراز هذه الصّلة الوثيقة بين الإسلام المحمّدي والنهضة الحسينية من خلال قناة النّهضة الإعلامية لهو من أهمّ الوظائف المتعيّنة، وهو الدّور الأصيل للمجالس والخطابة الحسينية، ويتطلب تأصيل ذلك إحاطة شاملة من موجّهي دفّة هذه المجالس، وإدراكاً عميقاً لفكر الإسلام المنقول والمعقول، ودراية تامة لتاريخ وخصوصيّات النهضة، مع الإطلاع على أحداث العصر وعلومه، والخبرة المعمّقة بطبقات المجتمع وأطباعه وعاداته ومستواه الفكري والروحي، وهذه الفقرات هي العناوين الأولى التي تصوغ مؤهّلات وكفاءة الخطيب الحسيني.

والأصل الأصيل في المنبر الحسيني أن النّهضة الحسينية قد امتزجت وتداخلت بالرثاء والحزن والبكاء، فهما نسيجان متداخلان، وتكمن في ذلك أهميّة البعد العاطفي الذي يحتل الصّدارة، وهو قسيم البُعد الفكري والديني، وقد حرص أهل البيت عليهم السلام على إرساء هذا البعد الأصيل عبر العشرات من أحاديث الحث على الرثاء والحزن والبكاء، وقد مرّت بنا طائفة من أحاديثهم

عليهم السلام في هذا الخصوص.

وتمكن أهل البيت عليهم السلام بمنهج محكم دقيق من ضمان دوام حرارة يوم الطّف الخالد من خلال توظيف أقوى العواطف الإنسانية أثراً في لفت الإنتباه وإثارة فضول الغير نحو هذه الظلامة الصّارخة.

لقد أعمل الأئمة الأبرار عليهم السلام سلاحَ العاطفة الإنسانيّة في إنضاج الوعي الفكري وصقله، واستثمروا الدّور الوجداني العاطفي للحزن والبكاء للتأثير على توجيه التفكير إلى الحق والحقيقة، ووظّفوا البكاء والحزن لضمان دوام الوجدان الواعي.

فالتّحديث والتجديد قائمان على تأصيل الأصالة بلغة العصر، والإحتفاظ بالإطار العام للخطابة الحسينية كما صاغه الأئمة عليهم السلام، ونتصوّر ذلك نظريّاً بانتقاء طبيعة المواضيع المتناولة في مجالس الإمام الحسين عليه السلام عبر تخصّص الخطيب في إحدى حقول العلم، والسّعي إلى الموسوعيّة والإلمام بمختلف المعارف والعلوم، وبذلك يكون للمستمعين الدّور في الإختيار لنوعيّة المادّة بحسب الذّوق والرّغبة والحاجة.

ولابدّ من تطوير الجانب الفنّي للخطيب بصقل مهاراته وأساليبه في البيان، ليسيطر على ضبط إيصال الفكرة، ويُحكم إتقان فنون الرّثاء وطرق الإنشاد، ولابدّ أن يُتقن أساليب الخطابة بالإستفادة من العلوم ذات الصلة بالخطابة، فالرّثاء الشجي المؤثّر يعتمد على ثقافة النغم والإيقاع والمقامات وألحان الحزن، وهذه علوم قائمة بذاتها وتُعدّ من صلب اهتمام الخطيب الرّاثي.

ويمكن تحديث قناة الإعلام الحسينيّة بتوظيف وسائل الإعلام لبث ونشر

المجالس وإيصال صوت المنبر إلى أقصى نقطة ممكنة على سطح الأرض بكلّ اللغات، وما من شكّ في أنّ المنبر الحسيني يستطيع تحقيق الكثير في سبيل نشر الإسلام والمعارف الدّينيّة رغم صياغته التقليديّة، ولابدّ حينئذ من إلمام الخطيب بعلم الإتصال الجماهيري ليترقّى بأساليبه الخطابية ويرفع من مستوى أدائها لمجابهة الهجمة الثقافية الشرسة التي يشهدها عالمنا الإسلامي اليوم.

والهدف من ذلك هو توسيع دائرة المخاطبين بالخطاب الحسيني، وإيصال صوت الظلامة الصّارخة إلى أقصى حدّ ممكن، وتعدّي نطاق الموالين والتابعين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام إلى باقي المسلمين وغيرهم، بشكل فاعل يرتفع إلى مستوى المنافسة القويّة لوسائل الإعلام المعاصرة والمصادر الثقافية المختلفة التي تحدّد طبيعة الزاد الثقافي وعمقه للجيل الحاضر.

وأقول أخيراً: إن توسيع دائرة المستمعين والمستفيدين من المنبر الحسيني أمرٌ تعترضه كثير من العقبات والصّعوبات، وليس بالأمر السّهل قطعاً، إلاّ أن تحقيق ذلك يمكن من خلال التّخطيط المتقن والإعداد الجيّد مع حُسن الإختيار للوسائل الفاعلة والناجحة.

بين التجديد والتنزيه

تجديد المجالس الحُسينيّة وتحديثها ضرورة ملحّة، وتجدّدها عبر العصور وبلوغها هذه الصّورة الحاليّة يؤكّد لزوم تحديثها وتجديدها، إلاّ أنّه قد يُطلِق شعار التّجديد ويُراد به معنىً محضور، إذ تتعالى أصوات المنادين بتجديدها من القرباء والغرباء، من بعض العلماء وغيرهم، والمثقّفين وغيرهم، ولكلّ من هؤلاء وجهة

نظر، وتتوالى مطالب تطوير المنبر وأساليب طرحه.

فالتّطوير والتّجديد في المنهجيّة والأسلوب والطّرح مطلبان مهمّان كما مرّ، ولا يُنكر ذلك إلاّ مكابر، ولا أحسبني سأُلِمّ بالموضوع من كل جوانبه لتشعّب الكلام وطوله فيه، وحريٌّ أن يُعالج وأمثاله في كتاب مستقل على يد المُختصّين، إلاّ أنّني سأتناوله بالقدر الميسور.

فيمكن أن نتقبّل بشكل إيجابي جدّاً النقد الإيجابي الذي يقوّم عمل هذه المؤسّسة ويدفع عجلتها للحركة المثمرة، والذي ينطلق من الدّوافع الطيّبة ويهدف إلى تقوية أداء المنبر، ويرمي إلى زيادة تأهيله لحمل صوت الإمام الحسين عليه السلام بكلّ صفاء ونقاء، بصورة متناغمة مع ثورته الكبرى، ومتماشية مع أهدافه وغاياته، وغالباً ما يأخذ هذا النقد السليم طابع النّقد الذّاتي ويتّسم بسمة الإصلاح الدّاخلي، وهو أمرٌ حسنٌ ومهمٌ في حدّ ذاته.

ولا أرى أنّ من الحكمة أن نحفل بنقد غير أهل العلم والتقوى والذّوق السّليم ونعيرهم أسماعنا فيما يخصّ التّجديد والتّحديث في هذه القضيّة الحسّاسة، فقد تطوّر أداء المنبر بشكل طبيعيّ ومميّز من عصور الأئمة الطاهرين عليهم السلام إلى عصرنا الحاضر، وبذروا عليهم السلام نواة المجالس بشكل يؤهّلها إلى بلوغ هذا التضخّم المعاصر، ولا أشكّ لحظة في أنّ عنايات مولانا صاحب الأمر والزّمان عليه السلام الربّانيّة وراء صمود الشعائر الحسينية وقوّتها، وليس بقاء البكاء على سيّد الشّهداء عليه السلام بهذا الشكل إلاّ من المعاجز التي تدعونا إلى التفكّر في حالات أولياء الله تعالى عليهم السلام، فهي محفوفة وقائمة بعنايات الإمام عليه السلام، وهي سالمة من الشوائب ببركته، وبجهود نوّابه العلماء الأتقياء المؤهّلين لحمل أعباء الدّعوة في زمان غيبته عليه السلام.

وقد تصدّى علماء أتقياء حسينيّون منذ بداية تأريخ المنبر الحسيني وبروز ظاهرة المجالس إلى تنبيه الخواص والعوام على نقاط الخلل والثغرات التي تتنافى وشأن صاحب المجلس عليه السلام والأخطاء العلميّة أو الفكريّة المهمّة التي لا يمكن الإغضاء عنها، ولكن.. ليس من باب إصلاح المنبر الحسيني وتجديده !! ولكن من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المفضيان إلى إصلاح كلّ العبادات من الخلل، والمجالس الحسينية واحدة من تلك العبادات التي تحتاج إلى رقابة العلماء الأتقياء كسائر العبادات الأخرى.

ومكمن نقطة الضّعف فيما يبدو لي في تفاوت مستويات خطباء المجالس الحسينية، ممّا يضعّف من مستوى الأداء والعرض، ويرجع السّبب في ذلك إلى تنحّي العلماء المؤهّلين عن القيام بثقل هذه الأمانة، وتفريغ الأمكنة لمن لا يرقى للمستوى اللائق بحملها، وفي الكلام غُصّة وغصّة، ولقد عملت التيّارات والرّوافد عملها الدّؤوب وكرّست طاقاتها في تثبيت الكثير وتجاهل الكثير، وعمل البعض على فرض واقعٍ بالطّرق المُلتوية، لكن الأمر للحسين عليه السلام وفي يده تُدار دفّة توفيق الخدمة قطعاً، وهو مرآةُ عناية الله ولطفه..

إذ ينبغي تنزيه المجالس الحسينية من الأغراض الشّخصيّة وإن سمّوها مصالح إسلاميّة أو ضرورات مذهبيّة، بحسب ما تقتضيه الأهواء والتوجّهات، وكان ينبغي لدعاة الإصلاح أن يُعملوا جهودهم في هذا السبيل، لا أن يوجّهوا سهام نقدهم إلى مادّة المجالس ممّا يسبّب وهن وضعف الأداء والقبول.

مصادر حادثة الطف

لا تستغني عبادة دينيّة ولا طقس عقائديّ عن الرّقابة الذاتيّة في أيّ حال، فالعزاء الحسيني بكلّ شعائره عُهدة أدّى أمانتها نُخَبُ الآباء إلينا جيلاً بعد جيل، وقد ساقها الماضون إلى جيلنا بأبدع تنظيم، كما أنّنا نتعهّد تنظيمها بأحسن وجه كي نسوقها لمن يأتي بعدنا، وهي عُهدةٌ ننظّم شؤونها كما أنّنا نراقب مسيرتها تماماً، وبالرّقابة الذاتية نصونها من الشوائب التي تكدّر صفوها.

ويقف العلماء الأبرار بإرشاداتهم وراء مسيرة الشعائر الحسينية في كلّ جيل، وكلّنا في حاجة ماسّة إليهم في العصر الحاضر لتصحيح أيّ ميل عن الجادّة القويمة.

فالشّعائر الحسينيّة عموماً والمجالس منها خصوصاً عُرضة للشوائب التي تعكّر صفوها، تماماً كأكثر العبادات التي تلبس هذا الطّابع، وإنّ عبادة مثل المجالس بهذه الكثرة والإنتشار وتنوّع الروّاد واختلاف مستوى الخطباء والرّثاة والرواديد لا تخلو من ظواهر قد تحرّك المنتقدين، خصوصاً هؤلاء المتصيّدين الذين لا يرضون عنها حتّى إذا خلَت ممّا يُشين، وكم ظاهرة يُنكرها المسلمون يواجهونها في عبادة كعبادة الحج مثلاً، وكم تحتاج هذه العبادة إلى تعهّدهم ومراقبتهم بشكل دقيق.

ولقد تصدّى جملة من العلماء لتنزيه شعيرة المجلس الحسيني قديماً وحديثاً، وأثروا مادّة البحوث بالكتب والأمالي على مدى تاريخ الطّائفة، فجزاهم الله عن الإمام الحسين عليه السلام خير الجزاء، فلو لا كتابات الفقهاء في باب التفسير والحديث والفقه والعقائد والسّيرة لضاع علينا الكثير من تراثنا القيّم، ولو لا تصدّي رموز الطّائفة وأعلامها لكتابة قصّة مقتل الإمام الحسين عليه السلام وتحرير البحوث المترتّبة

عليها والتحقيق في تفاصيلها لغُمّ علينا.

ومن هذا المنطلق فإنّه ينبغي صيانة المنبر الحسيني بالإلتزام بالكتب المعتبرة، ففي متابعتها تتحصّن أسوار المجالس الحسينيّة من دخول الخرافة والكذبة إلى حدّ كبير، وتتوفّر اليوم كتبٌ معاصرة ومهمّة تمّ التحقيق فيها وألّمت بالحادثة من جميع أبعادها، منها كتاب مقتل الحسين عليه السلام للمرحوم العلاّمة السيّد عبد الرزّاق المقرّم رحمه الله وهو من أمتن الكتب في هذا الباب، وكتاب نفس المهموم للمحدّث الخبير الشيخ عبّاس القمّي رحمه الله، وكتاب مقتل الحسين عليه السلام لآية الله السيّد محمّد تقي بحر العلوم رحمه الله، وكتاب إكسير العبادات في أسرار الشّهادات، المعروف بأسرار الشّهادة [1] للفقيه الفاضل المرحوم الدّربندي رحمه الله، مضافاً إلى مجاميع معروفة، وأكثرها تعتمد في النقل عن الأصول المعتبرة.

وإنّ أهم وأقدم كتاب متاح صدر عن علمائنا رصَد فيه قصّة مقتل الإمام الحسين عليه السلام هو كتاب الملهوف على قتلى الطفوف للسيّد رضيّ الدّين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس رحمه الله، ولقد كتبه بعد وفرة من الكتب التي تناولت قصّة المقتل، ولم يبق منها اليوم غير الإسم، فبعضها أُتلف وبعضها حُرق وبعضها سُرق، ولم يصل منها إلاّ الشّيء القليل، إلى جانب الكتب التّاريخيّة المعروفة التي تعتبر من أهم مصادر المقتل في النقل.

ويمكن رصد أهمّ الكتب المكتوبة في قصّة مقتل الإمام الحسين عليه السلام قبل

---

(١) طُبع كتاب إكسير العبادات للفقيه الفاضل الدربندي في ثلاثة مجلّدات بتحقيقنا بالإشتراك مع الشيخ عبّاس ملاّ عطيّة الجمري قبل سنوات في بيروت وإيران، ويشغلني منذ سنوات مشروع صياغته الجديدة، سمّيتها " أسرار الشهادة" أعرض فيها استفاداتي من الكتاب.

كتاب السيّد ابن طاووس رحمه الله المتوفّى سنة ٦٦٤ هـ، وهي بحسب المؤلّفين:

(١) أبو القاسم الأصبغ بن نباته المجاشعي التميمي الحنظلي.

وهو من خاصّة أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ومن شرطة الخميس، عمّر بعد علي عليه السلام طويلاً، توفي بعد المائة، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام، واستظهر بعض المحقّقين أنه أوّل من كتب مقتل الحسين عليه السلام، والله أعلم[1].

(٢) أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سالم الأزدي الغامدي.

وهو شيخ أصحاب الأخبار بالكوفة ووجههم، روى عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام، وقيل: إنه روى عن أبي جعفر عليه السلام، ولم يصحّ. وزعم الكشي أنه من أصحاب أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام، والصحيح أن أباه كان من أصحاب علي عليه السلام، وهو لم يلقه. له كتاب مقتل الحسين عليه السلام.

ولم يشهد واقعة الطف، لكنّه ألّفه سماعاً من نقلة الأخبار وأهل الكوفة، والظّاهر أنّ كتاب مقتل الحسين عليه السلام الذي طُبع مؤخراً منسوباً إلى أبي مخنف ليس له قطعاً، ويرجّح كونه لبعض من تأخر عنه، واحتمل بعض المحققين أنه للسيد ابن طاووس، أخذه من مقتل أبي مخنف وزاد عليه ونقّص، ولم يصل إلينا من مقتل أبي مخنف سوى ما نقله الطبري في تاريخه عنه[2].

---

(١) راجع مقدّمة كتاب الملهوف على قتلى الطّفوف بتحقيق الشّيخ فارس الحسّون، وفيه يذكر أسماء المقاتل ص (٣٣). وراجع الفهرست ص (٣٧ - ٣٨) رقم (١٠٨)، والذريعة (٢٢/٢٣ - ٢٤) رقم (٥٨٣٨).

(٢) راجع رجال النجاشي ص (٣٢٠) رقم (٨٧٥)، والفهرست (١٢٩) رقم (٥٧٣)، والمعالم:

(٣) أبو أحمد عبد العزيز بن يحيى بن أحمد بن عيسى الجلودي.

وهو من أصحاب أبي جعفر عليه السلام، وشيخ جعفر بن قولويه. وله كتاب مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام[١].

(٤) أبو عبدالله - أبو محمد - جابر بن يزيد الجعفي.

وهو عربي قديم، لقي أبا جعفر الباقر وأبا عبد الله الصّادق عليه السلام ومات في أيامه سنة (١٢٨) هـ، وله كتاب مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام[٢].

(٥) عبدالله بن أحمد - محمد - بن أبي الدنيا.

وهو عامي المذهب، وله كتب كثيرة، توفي سنة (٢٨١) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام[٣].

(٦) أبو الفضل سلمة بن الخطاب البراوستاني الأزدورقاني.

وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام[٤].

(٧) أبو الحسن علي بن محمد المدائني.

→

(٩٣ - ٩٤) رقم (٦٤٩)، والذريعة (٢٢/٢٧) رقم (٥٨٥٩).

(١) راجع رجال النجاشي ص (٢٤٠ - ٢٤٤) رقم (٦٤٠)، والذريعة (٢٢/٢٥) رقم (٥٨٥١).

(٢) راجع رجال النجاشي ص (١٢٨) رقم (٣٣٢)، والذريعة (٢٢/٢٤) رقم (٥٨٤٠).

(٣) راجع الفهرست ص (١٠٤) رقم (٤٣٨)، والمعالم ص (٧٦) رقم (٥٠٦)، وسير أعلام النبلاء (١٣/٤٠٣).

(٤) راجع رجال النجاشي ص (١٨٧) رقم (٤٩٨)، والفهرست ص (٧٩) رقم (٣٢٤)، والمعالم ص (٥٧) رقم (٣٧٨)، والذريعة (٢٢/٢٥) رقم (٥٨٤٧).

وهو عامي المذهب، كتبه حسنة، توفي سنة (٢٢٤) هـ، له كتاب مقتل الحسين عليه السلام، أو السيره في مقتل الحسين[1].

(٨) أبو زيد عمارة بن زيد الخيواني الهمداني.

وله كتاب مقتل الحسين بن علي عليه السلام[2].

(٩) أحمد بن عبد الله البكري.

وله كتاب مقتل أبي عبدالله الحسين عليه السلام، وتوجد نسخة منه في مكتبة جامعة القرويين في مدينة فاس بالمغرب ضمن المجموعة رقم (٥٧٥/٣) باسم: حديث وفاة سيدنا الحسين[3].

(١٠) أبو جعفر محمد بن أحمد بن يحيى بن عمران بن عبد الله بن سعد بن مالك الأشعري القمي.

وهو المعروف بدبة شبيب، وله كتاب مقتل أبي عبدالله الحسين عليه السلام[4].

(١١) أبو عبيدة معمّر بن المثنّى التيمي.

وله كتاب مقتل أبي عبدالله الحسين عليه السلام، ويروي عنه السيّد ابن طاووس في كتاب الملهوف، توفي سنة (٢١٠) هـ[5].

---

(١) راجع الفهرست ص (٩٥) رقم (٣٩٥)، والمعالم ص (٧٢) رقم (٤٨٦).

(٢) راجع رجال النجاشي ص (٣٠٣) رقم (٨٢٧)، الذّريعة (٢٦/٢٢) رقم (٥٨٥٥).

(٣) راجع مقدّمة كتاب الملهوف للشيخ فارس الحسون ص (٣٥).

(٤) راجع رجال النجاشي ص (٣٤٨ - ٣٤٩) رقم (٩٣٩)، والذريعة (٢٧/٢٢) رقم (٥٨٦١).

(٥) راجع الذريعة (٢٨/٢٢) رقم (٥٨٧٣).

(١٢) هشام بن محمّد بن السّائب بن بشر بن زيد.

وهو العالم بالأيام، والمشهور بالفضل والعلم، وكان يختصّ بمذهبنا، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام[١].

(١٣) أبو المفضل نصر بن مزاحم المنقري العطّار.

وهو كوفي مستقيم الطريقة، توفي سنة (٢١٢) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام[٢].

(١٤) أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدي المدني البغدادي.

وهو صاحب كتاب الآداب، وتوفي سنة (٢٠٧) هـ، وله كتاب مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام[٣].

(١٥) أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي.

وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام[٤].

(١٦) محمد بن علي بن الفضل بن تمام بن سُكين.

---

(١) راجع رجال النجاشي ص (٤٣٤ - ٤٣٥) رقم (١١٦٦).

(٢) راجع رجال النجاشي ص (٤٢٧ - ٤٢٨) رقم (١١٤٨)، والفهرست ص (١٧١ - ١٨٢) رقم (٧٥١)، والمعالم ص (١٢٦) رقم (٨٥١)، والذريعة (٢٢/٢٩) رقم (٥٨٧٤)، والفهرست لابن النّديم ص (١٠٦).

(٣) راجع الذريعة (٢٢/٢٨) رقم (٥٨٦٩)، والفهرست لابن النديم ص (١١١)، والوافي بالوفيات (٤/٢٣٨).

(٤) راجع الفهرست ص (١٥٦ - ١٥٧) رقم (٦٩٥)، والمعالم ص (١١١ - ١١٢) رقم (٧٦٤)، والذريعة (٢٢/٢٨) رقم (٥٨٦٧).

وهو شيخ ابن الغضائري، وفي طبقة الشيخ الصّدوق، وكان ثقة عيناً صحيح الإعتقاد، جيّد التصنيف، وله كتاب مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام[١].

(١٧) أبو عبدالله محمد بن زكريا بن دينار الغلابي.

وهو مولى بني غلاّ، وكان وجهاً من وجوه أصحابنا بالبصرة، توفي سنة (٢٩٨) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام[٢].

(١٨) أبو جعفر محمد بن يحيى الطيّار القمي.

وهو شيخ أصحابنا في زمانه، وهو ثقة عين كثير الحديث، وله مقتل الحسين عليه السلام[٣].

(١٩) ابن واضح اليعقوبي أحمد بن إسحاق.

وهو الأخباري الشهير، صاحب تاريخ اليعقوبي، المتوفي بعد سنة (٢٩٢) هـ أو سنة (٢٨٤) هـ، وهو متأخر عن أبي مخنف، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام[٤].

(٢٠) أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الأحمري النهاوندي.

وهو متّهم، وكتبه سِداد، سمع منه القاسم بن محمد الهمداني سنة (٢٦٩) هـ، وله كتاب مقتل الحسين بن علي عليه السلام[٥].

---

(١) راجع رجال النجاشي ص (٣٨٥) رقم (١٠٤٦)، والذريعة (٢٨/٢٢) رقم (٥٨٦٨).

(٢) راجع رجال الجاشي ص (٣٤٦ - ٣٤٧) رقم (٩٦٣)، والفهرست لابن النديم ص (١٢١).

(٣) راجع رجال النجاشي ص (٣٥٣) رقم (٩٤٦).

(٤) راجع الذريعه (٢٣/٢٢) رقم (٥٨٣٣).

(٥) راجع الفهرست ص (٧) رقم (٩)، والمعالم ص (٧) رقم (٢٧)، ورجال النجاشي ص (١٩) رقم (٢١)، والذريعة (٢٣/٢٢) رقم (٥٨٣٤).

(٢١) إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال بن عاصم بن سعد بن مسعود الثقفي.

وأصله كوفي، وسكن اصفهان، وكان زيديّاً ثم انتقل إلينا، ومات سنة (٢٨٣) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام[١].

(٢٢) أبو الحسين الشافعي.

وهو صاحب المفيد في الحديث، ويروي عنه النجاشي بتوسط شيخه أحمد بن عبد الواحد بن عبدون، وله كتاب المقتل[٢].

(٢٣) ابن شهر آشوب

ينقل عنه أبو جعفر أمير الحاج الحسيني في شرح الشافية، وله كتاب المقتل[٣].

(٢٤) محمد بن الحسن بن علي الطوسي.

وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام[٤].

(٢٥) نجم الدين جعفر بن نجيب الدين محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله بن نما الحلّي.

وهو من علمائنا المعروفين، المتوفى سنة (٦٤٥) هـ، وله كتاب مثير الأحزان

---

(١) راجع الفهرست ص (٤ - ٥) رقم (٧)، والمعالم ص (٣) رقم (١)، ورجال النجاشي ص (١٦ - ١٧) رقم (١٩)، والذريعة (٢٢/٢٣) رقم (٥٨٣٥).

(٢) راجع الذريعة (٢٢/٢١ - ٢٢) رقم (٥٨٢٥).

(٣) راجع الذريعة (٢٢/٢٢) رقم (٥٨٢٧).

(٤) راجع الفهرست ص (١٥٩ - ١٦١) رقم (٦٩٩)، والمعالم ص (١١٤ - ١١٥) رقم (٧٦٦)، والذريعة (٢٢/٢٧) رقم (٥٨٦٣).

ومنير سبل الأشجان، في المقتل[١].

(٢٦) أبو عبيد القاسم بن سلاّر - سلام - الهروي.

توفي سنة (٢٢٤) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام[٢].

(٢٧) عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي.

توفي سنة (٣١٧) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام[٣].

(٢٨) عمر بن الحسين بن علي بن مالك الشيباني.

توفي سنة (٣٣٩) هـ، وله كتاب مقتل الحسين بن علي عليه السلام[٤].

(٢٩) ضياء الدين أبو المؤيد الموفق بن أحمد الخوارزمي.

وهو من علماء العامّة، توفي سنة (٥٦٨) هـ، وله كتاب مقتل الحسين، كبير في جزأين، وهو مطبوع.

(٣٠) أبو القاسم محمود بن المبارك الواسطي.

توفي سنة (٥٩٢) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام[٥].

(٣١) عزّ الدين عبد الرزاق الجزري.

توفي سنة (٦٦١) هـ، وله كتاب مقتل الشهيد الحسين عليه السلام.

(٣٢) سليمان بن أحمد الطبراني.

---

(١) راجع الذريعة (١٩/٣٤٩) رقم (١٥٥٩)، و (٢٢/٢٢).

(٢) راجع التحبير للذهبي (١/١٨٥).

(٣) راجع كشف الظنون (٢/١٧٩٤).

(٤) راجع معجم المؤلفين (٧/٢٨٢).

(٥) راجع إيضاح المكنون (٢/٥٤٠).

توفي سنة (٣٦٠) هـ، وله كتاب مقتل الحسين[١].

ويأتي بعدها على التوالي كتاب الملهوف في قتلى الطفوف للسيد علي بن موسى بن جعفر بن طاووس رحمه الله، المتوفّى سنة (٦٦٤) هـ، وله كتاب المصرع الشين في قتل الحسين، لكنّ كتاب الملهوف انتشر انتشاراً كبيراً، وأغلب المقاتل والكتب التاريخية التي صُنّفت بعده نقلت عنه، خصوصاً وأنّ أغلب الكتب التي تقدّمته لم يبق منها إلاّ الإسم، إلاّ قليل منها.

وتعتمد رواية المقتل على هذا الكتاب بشكل أساسي، وعلى الإرشاد للشيخ المفيد رحمه الله، وعلى كتب رواية أهل البيت وأخبارهم عليهم السلام، فأحداث عاشوراء مبثوثة فيها، كمصنّفات شيخ الطّائفة الطّوسي رحمه الله وخصوصاً الأمالي، وكذلك مصنّفات الشّيخ الصّدوق رحمه الله عموماً، وسائر كتب الحديث المتقدّمة والمتأخّرة، وقد جمع المولى المتبحّر العلاّمة الشيخ محمد باقر المجلسي رحمه الله وقائع المقتل من مختلف المصادر المهمّة التي وقعت في يده، وأدرجها في كتابه القيّم بحار الأنوار.

ويمكننا أن نعتبر اليوم كتاب بحار الأنوار موسوعتنا التي تغني المكتبة الشيعيّة بمختلف المعارف الخاصّة، الملمّة بسيرة أهل البيت عليهم السلام وتاريخهم، إذ أنّها تضمّ محتويات أهم المصادر المعتبرة المتقدّمة عليه، وقد حفظ العلاّمة المجلسي رحمه الله في بحاره تراث أهل البيت عليهم السلام من الضياع، وصانه من التّلف والتبدّد، فجزاه عنهم عليهم السلام وعنّا أفضل جزاء المحسنين.

---

(١) راجع ترجمته المطبوعة في نهاية المعجم الكبير، التي أفرد لها ابن مندة جزءً حافلاً، وعدّ في ص (٣٦٢) رقم (٣٩) هذا الكتاب له.

بحار الأنوار

الموسوعة الأكبر في المكتبة الشّيعيّة، المقدّمة في مختلف المعارف المتّصلة بأهل البيت عليهم السلام، المأخوذة من مختلف وشتّى المصادر المعتبرة والأصول التي انتهت إلى يدي جامع دررها المرحوم العلاّمة المجلسي رحمه الله، الملمّة بمأساة الإمام الحسين عليه السلام وسيرته العطرة، الأجمع لحوادث واقعة الطّف.

وإذا ما نظرنا في الجزء المختص بالإمام الحسين عليه السلام والواقعة واجهنا جهده المبذول في هذا الصّدد، فقد اعتمد رحمه الله على جملة من المصادر المهمّة التي انتهت إليه فأتمّ منها رواية المقتل، وهي على درجة عالية من الإعتبار، وأهمّها الملهوف للسيد رحمه الله والإرشاد للمفيد رحمه الله والمناقب لابن شهراشوب رحمه الله والإحتجاج للطبرسي رحمه الله ومثير الأحزان لابن نما رحمه الله ومقتل أبي مخنف والكامل لابن الأثير ومقاتل الطالبيين لأبي الفرج وتاريخ البلاذري.

واعتمد على جملة من كتب الحديث والرّواية، أهمّها الكافي للكليني رحمه الله والأمالي والتهذيب والمصباح للطوسي رحمه الله، وغيبة النعماني رحمه الله والخرايج للراوندي رحمه الله، والأمالي وعيون أخبار الرضا عليه السلام وثواب الأعمال وعلل الشرائع للصدوق رحمه الله، وتفسير علي بن ابراهيم رحمه الله وتفسير العياشي رحمه الله، ورجال الكشّي رحمه الله، وبصائر الدرجات للصفّار رحمه الله وكامل الزيارات لابن قولويه رحمه الله وإقبال الأعمال لابن طاووس رحمه الله ونوادر علي بن أسباط رحمه الله، وأمالي المفيد رحمه الله وقرب الإسناد للحميري رحمه الله، والمحاسن للبرقي رحمه الله والدّعوات للراوندي وقصص الأنبياء للراوندي رحمه الله.

واعتمد في رواية المقتل على كتاب محمّد بن أبي طالب ، وكتابه يضمّ خبر مقتل الإمام الحسين عليه السلام[1]، وهو كتابٌ قيّم.

وكذلك اعتمد في النقل على النّسخ الخاصّة التي كانت بحوزته، ولم يسمّ بعضَها، فقد نقل نصوصها تارة " عن بعض الرّواة " وعند التحرّي وجدنا أنّ تلك الأخبار التي لم يسمّ مصدرها موجودة في تاريخ الطبري، فيُحتمل قويّاً أن يقصده بقوله بعض الرّواة، ونقل تارة أخرى عن بعض الكتب، أو بعض كتب المناقب، أو قال: وجدت بخط بعض الأفاضل.

ولا يختلف أهل العلم في مكانة كتاب بحار الأنوار وأهمّيته، فهو الجامع لدرر المرويّات عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، وقد بذلَ الشيخ غاية الوسع في جمع الأخبار والأحاديث والرّوايات في مختلف أبواب المعارف الإسلاميّة، وعلّق على بعضها تعليقات هامّة جدّاً، وطعّم الكتاب بتنبيهات وتوضيحات غاية في الأهميّة، حتّى عُدّ اليوم من أهم المصادر المعتبرة على مستوى الطّائفة، والموسوعة الكبرى الأغنى في تاريخ التّصنيفات والتّأليفات.

هذه هي منزلة بحار الأنوار وإن استخفّ بها البعض ممّن جحد فضل هذا الأثر النفيس، ممّا أغرى بعض الكتّاب العصريّين للطّعن فيه جهلاً منهم بمقامه، بحجّة أنّ فيه غير الصّحيح، وكأنّ الشّيخ ادّعى أو التزم جمع الصّحاح من

---

(١) حصلتُ على نسخته المخطوطة من المحقّق المرحوم السيّد عبد العزيز الطباطبائي ، بواسطة أستاذنا المحقّق العلاّمة السيّد محمّد رضا الجلالي الحسيني الجلالي، والمخطوطة الأصل في مكتبة الشيخ النمازي المخطوطة في خوي، وقد استعنت بالكتاب لتحقيق بعض نصوص كتاب الأسرار للفاضل الدّربندي، وقد طُبع مؤخّراً باسم تسلية المُجالس وزينة المجالس في مجلّدين.

الأخبار فيه! وكأنّ في عالم الكتب كتاب يخلو من غير الصّحيح!

وينبغي أن يكون النقد علميّاً موضوعيّاً، أبعد ما يكون عن توجيه الهوى أو تحكيم الأذواق الخاصّة، فإنّه حين تَقصُر ألسنة البعض عن نقد الإسلام متمثّلاً في فكر أهل البيت عليهم السلام وجهوا سهامهم وسمومهم إلى العلماء الربّانيين الذين بذلوا وسعهم في حفظ تراث أهل البيت عليهم السلام والذبّ عنه.

حتّى قال بعض هؤلاء الذين يحسبون أنّهم يُحسنون صُنعاً:

وقد رأى البعض أن كتاب بحار الأنور الذي ألّفه شيخ الإسلام في أصفهان محمد باقر المجلسي (١٦٢٧م - ١٧٠٠م) في عهد الشاه سليمان والشاه حسين الصفوي، الذي ساعد على نشر التشيّع في إيران، كان أحد الكتب التي أساءت إلى التشيع أكثر مما نفعته، وذلك بسبب ما جُمع فيه من أخبار وروايات وأحاديث وقصص وحتى بعض الأساطير، دون أن يفرز غثها من سمينها، كما أشار إلى ذلك في مقدّمة كتابه، ووضعها في متناول أيدي العامة والبسطاء من الناس وخصوصاً بعض قراء المجالس الحسينية الذين أخذوا منه ما يروق لهم، دون تمحيص، واستخدموا ذلك وسيلة لإثارة العواطف، وتركوا ما هو مفيد وهام فيه[١].

---

(١) راجع كتاب تراجيديا كربلاء (سوسيولوجيا الخطاب الشيعي) لإبراهيم الحيدري ص (٤٦١) طبع دار السّاقي، سنة ١٩٩٩م.. ولقد سبَرت غور هذا الكتاب فألفيتُهُ قيّماً جدّاً، والجهد واضح فيه، فهو يجمع بين البحث العلمي والعرض التاريخي، إلاّ أنّني فوجئت لّما تخبّط في الباب الأخير منه عند الحديث عن محاولات استغلال وتشويه الشعائر الحسينيّة، فقد انحدرت قيمة الكتاب إلى المستوى الذي لا يليق بأوّله مطلقاً، ويبدو لي أنه أقحم نفسه في غير اختصاصه، ونسال الله له ولنا العافية.

إن هذا الكاتب قد أرسل كلامه على عواهنه إرسالاً ، من غير تحقيق ولا تدقيق ولا خوف من محاسبة ، ولو كان في معرض نقد كتاب غربي لتأدّب وتنمّق وبيّن وجوه دعواه بمسؤوليّة! وقد أمن وأمثاله العقوبة ، فأضحى تراثنا الزّاخر مرمىً لكلّ من هبّ ودبّ ، وقصُرت عزائمنا عن صد أيّ وليجة تقتحم حصننا ، فكثرت علينا الغوائل ، وتخطّفنا القريب والبعيد !!

فإنّه قد تمادى فعلاً حين رمى هذا الأثر النفيس الذي حفظ معارف أهل البيت عليهم السلام وجملة تراثهم ونشر فكرهم بالإساءة إلى التشيّع !! فإذا كان البحار قد أساء بزعمه إلى التشيّع فلست أدري أيّ كتاب أحسن إليه في نظره إذاً !!

وليته دلّنا على الأخبار والرّوايات والأحاديث والقصص التي لم تعجبه فيه ، وليته دلّنا على الأساطير التي زعم وجودها فيه لنفهم أبعاد نقده!! وهل يذنب المؤلّف رحمه الله أم يسقط كتابه عن الإعتبار إذا صار كتابه في متناول العامة والبسطاء أو قرّاء المجالس فأخذوا منه ما يروق لهم دون تمحيص واستخدموا ذلك وسيلة لإثارة العواطف ، فيا سبحان الله !! أيّ برهان عظيم هذا !! وهل سلم القرآن الكريم من كلّ ذلك حتّى يسلم كتاب بحار الأنوار !!

وكنت أتمنّى لو أنّه كان قد فرز الغثّ من السّمين ، حتّى يميّز الغث بزعمه فيعرّف قارئيه بطبيعة أفكاره ومنتهى أبعادها ، ولعلّنا ننتهي! فلعلّنا ندين الله تعالى ببعض هذا الغثّ فنهتدي من خلال حجّته! ولا يخامرني شكّ في أنّ ذنب هذا الكاتب وأضرابه في أعناق أقوام آخرين قلّدهم النّاس أديانهم ، ثمّ تردّدت هذه الكلمات في أفواههم وانتقلت إلى أمثال هذا الكاتب فراحوا يكرّرون كالبغبغاء كلماتهم !! من غير تفحّص أو تحقيق ، وسندلّل على ذلك.

أمّا علماؤنا الأبرار رحمهم الله فكانوا يُجلّون كتب الحديث إجلالاً كبيراً، ويتحاشَون الرّد على رواية مهما كان سبب الرّد، فإن لم يفقهوها أو لم يفهموها ردّوا علمها إلى أهلها عليهم السلام، فإنّ ترك العمل بها لا يعني الإستخفاف بها، أعوذ بالله تعالى من ذلك، وكانوا في غاية الإحتياط من هذه النّاحية، وقد نُقل في أحوال بعضهم رحمه الله أنّه كان يضع كتاب الحديث على رأسه ويُجلّه ويقول: " إنّ كتب الحديث الشّريف كالقرآن الكريم ينبغي احترامها ".

ورُوِيَ في بصائر الدرجات عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: أما والله إن أحب أصحابي إليّ أورعهم وأفقههم وأكتمهم لحديثنا، وإن أسوأهم عندي حالاً وأمقتهم إليّ الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروي عنّا فلم يعقله ولم يقبله قلبه اشمأز منه وجحده وكفر بمن دان به، وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج، وإلينا أسند فيكون بذلك خارجا من ولايتنا[1].

أسرار الشهادة

إن تعيين المصادر التي يجب الأخذ منها وتلك التي ينبغي طرحها من وظائف أهل الإختصاص، وإلاّ أفضى الحال إلى جرأة الكثيرين على توهين المصادر المعتبرة من دون وجه يُذكر، وهذا ما دعى بعض علمائنا من المتقدّمين والمتأخّرين للتصدّي إلى تنقيح المطالب سعياً لصيانة المنبر من التّشويه.

(١) راجع بحار الأنوار (٢/١٨٦).

أمّا الشيخ النوري رحمه الله [١] فقد كتب في اللؤلؤ والمرجان فصولاً في توجيه خطباء المنبر الحسيني، إذ يقول ما ترجمته: إنّ على الناقل أن ينقل عن ثقة مطمئن بنقله، وذلك بأن يكون متحرّزاً عن الكذب، بانياً على الصّدق، بحيث كان الصدق له ملكة أو عادة، حتى يكون معروفاً في ذلك بين من عرفه وعاشره، وأن لا يكون كثير النسيان والسهو، وأن يكون من أهل المعرفة والبصيرة[٢].

ونقل كتاب أمير المؤمنين عليه السلام للحارث الهمداني: ولا تحدّث الناس بكل ما سمعت، فكفى بذلك كذباً، ونقل قولهم عليهم السلام: ولا تحدّث إلاّ عن ثقة، فتكون كذاباً، والكذب ذل.. ثمّ قال: وحاصل مفاد جميع هذه الأخبار المعتبرة أنّ تكليف الناقل في مقام نقل أي أمر ديني أو دنيوي لغيره، بنفسه أو بواسطة أو وسائط، أو من كتاب، أن ينقل عن شخص ثقة يطمئن بنقله[٣].

فقد أوضح الشيخ النوري رحمه الله في طيّات كلامه الضّابطة في النقل، ويُعرف

---

(١) هو الشيخ حسين بن محمّد تقي بن علي محمّد بن تقي النوري الطبرسي رحمه الله، المولود في الثامن عشر من شوال ١٢٤٥هـ في طبرستان، وهو من أجلّة أعلام المذهب المحدّثين، وأغلب علماء الطّائفة المعاصرين ينتهون إليه في سلسلة الرواية المنتهية إلى أهل البيت، ولنا شرف الرواية بواسطته بإجازة آية الله العظمى المقدّس السيّد شهاب الدين المرعشي النّجفي رحمه الله. ولشيخنا النّوري تصنيفات مهمّة، من أهمّها: دار السلام فيما يتعلّق بالرؤيا والمنام، ومستدرك الوسائل ومستنبط المسائل.. توفّي رحمه الله في ٢٦ جمادى الثانية ١٣٢٠هـ، ودُفن بجوار مرقد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في النجف الأشرف.

(٢) راجع اللؤلؤ والمرجان ص (١٣٦ - ١٣٧) والكلام مُترجمٌ عن الفارسيّة.

(٣) راجع اللؤلؤ والمرجان ص (١٣٧ - ١٣٨).

من كلمات الجميع أنّ المناط هو الإطمئنان من مصدر موثوق، وهذا هو المقصود من الإعتبار الذي يُضاف إلى بعض الكتب دون غيرها فيُقال: " الكتب المعتبرة ".

ولا نختلف معه في صغيرة ولا كبيرة من ذلك، وسنبرهن على مدلول كلماته بالدليل الشّرعي، لكنّه رحمه الله شرَع بعد ذلك في نقد جملة من الحكايات والكتب، وقد تناول بالنقد عدّة من أعلام المذهب الذين شهد لهم القاصي والدّاني بالفقاهة والقُدس، وكان يجانب في نقده الدّقة أحياناً، ومع شديد الأسف فإنّ كتابه صار مصدراً لمن يأتي بعده في هذا الموضوع، وتابعه العلامة الشّيخ المطهّري رحمه الله بدقّة في كتابه الحماسة الحسينية من غير فحص أو تثبّت!

ولقد قيل أنّ لكلّ جواد كبوة، وقد كبى فرس خاتمة المحدّثين الشّيخ النوري رحمه الله في عدّة مواضع من كتابه، وتبعه المطهّري رحمه الله في ذلك حذو النعل بالنعل، فقد انتقدا بشدّة المرحوم الفقيه العلاّمة الدّربندي رحمه الله وقدحا في كتابه أسرار الشهادة الذي يعتبر من المصادر المتينة والمعتبرة، ومن المؤسف أنّ كلامهما صار مصدراً للطّعن في الكتاب عند الكثيرين من دون تثبّت تقليداً لهذين العلَمين.

ولن أطيل الكلام في ترجمة المرحوم الفاضل الشيخ الدربندي رحمه الله فالمصادر غنيّة بترجمته، ولنا مقدّمة ضافية على كتابه المذكور وفيها ترجمة وافية، فهو من العلماء الأتقياء ومراجع الدّين المعروفين بكربلاء المقدّسة، وله كتبٌ في الفقه والأصول والرّجال وغيرها من العلوم، وكان من المهتمّين بالشّعائر الحسينيّة كثيراً، ومن الخطباء المتفجّعين في أيّام عاشوراء، وحالاته معروفة في كتب التراجم.

ويكفي أن أورد فيه رحمه الله كلمات خاتمة المحدّثين المرحوم الشّيخ عبّاس القمّي

رحمه الله فهو الحجّة في التراجم، فقد قال في ترجمته:

الدّربندي: ملاّ آقا بن عابد بن رمضان علي بن زاهد الشّرواني الحائري، شيخ، فقيه، متكلّم، محقّق، مدقّق، جامع المعقول والمنقول، عارف بالفقه والأصول، كان من تلامذة شريف العلماء، وكان له في حب أهل البيت عليهم السلام سيّما سيّد الشّهداء عليه السلام مقامٌ رفيع، وتغيّر أحواله من اللطم والبكاء وغير ذلك من شدّة مصيبته على الحسين المظلوم عليه السلام في أيام عاشوراء مشهور..

يُحكى أنّه كان يعظّم كتب العلم سيّما كتب الحديث، وأنه كلّما أخذ تهذيب الشّيخ يقبّله ويضعه على رأسه ويقول: كُتُب الحديث مثل القرآن المجيد يلزم احترامه[1].

وقال في حقّه الآغا بزرك الطّهراني في الطبقات بعد ترجمة مُلمّة:

طال مكثه في كربلاء، فكان من أجلاّء العُلماء بها، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، كثير الحبّ لسيّد الشّهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام، أثّرت عليه وقعة الطّف بشكل كامل خاص، فكان من أجلها ثائراً وموتوراً، كثير التوجّع والبكاء واللطم والنّوح.

عاد أخيراً إلى إيران، فسكن طهران، وبقي مدّة كان فيها مثال العالم النّزيه، وهو أحد نماذج السّلف الصّالح الذين يحقّ لنا الإعتزاز بهم والإشادة بذكرهم[2].

كما أنّ له ترجمة مهمّة بقلم الإمام السيّد محسن الأمين رحمه الله في كتاب أعيان

---

(١) راجع الكنى والألقاب (٢/٢٢٨).

(٢) راجع طبقات أعلام الشيعة للآغا بزرك الطّهراني، الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة (١/١٥٣).

الشّيعة، وأخرى في قصص العلماء للتنكابني، وفي الأعلام للزّركلي، وفي قسم الأعلام من المُنجد، وكلّها تدلّ على جلالة قدره وعظمة منزلته.

وقد ألّف كتابه أسرار الشّهادة ورتّبه على أربعة وأربعين مجلساً، وقدّم له اثنتي عشر مقدّمة، وذيّلها بتذييلات وتذنيبات، وللكتاب خاتمة فيها مجالس عديدة، وضمّ بين دفّتيه مقامات وفوائد فقهية وأصولية ورجالية وعرفانية، تضمّنت مجالسه رواية مقتل الإمام الحسين عليه‌السلام من مختلف المصادر المعتبرة المعروفة، وقد عملنا على مقابلة نسخ الكتاب وإخراج مصادره من الكتب المعروفة، ولم يفُتنا إلاّ القليل منها.

وبما أنّ المرحوم الفاضل الدّربندي رحمه‌الله كان يعمل بمبنى الوجادة المعروف عند علماء الرّجال من النقل عن النّسخ المخطوطة العتيقة المنسوبة إلى مؤلّف معروف بعد الإطمئنان للنسبة، فإنّه نقل المجلس السّابع من أسراره عن نسخة عتيقة سقَطَت في يده منسوبة لشهاب الدّين العاملي رحمه‌الله، وصار ذلك سبباً للطّعن عليه وعلى كتابه، إذ نفى المحدّث النّوري رحمه‌الله نسبة هذه المخطوطة لشهاب الدّين العاملي أصلاً، بل أنّه نفى وجود كتاب مقتل للعاملي أصلاً، وأسقط بالتّالي بكلّ سهولة ويُسر كتاب الأسرار عن الإعتبار.. وتابعه الشّيخ المطهري رحمه‌الله في هذا النقد بكلّ تفاصيله، ولا أظن أنّه رأى محتوى الكتاب أو حتّى رأى غلافه.

لقد فات هذين العلمَين أن يتصفّحا كتاب الأسرار قبل هذا الحكم، كيف! والحكم يخصّ عالماً اتّفقت الكلمة واجتمعت على تأكيد علمه وفقاهته وتقواه وتعلّقه بسيّد الشّهداء عليه‌السلام، مضافاً لعمله بمبنى الوجادة الذي كان نقْله عن النسخة بناءً عليه، ولو كانا قد تصفّحا الكتاب من غير الإعتماد على الوسائط في

النقل لتمكّنا من تلافي هذه الكبوة.

يقول العلاّمة المطهّري رحمه الله: " يذكر الحاج نوري أيضاً أنه جاء يوماً أحد قرّاء التّعزية من أهل الحلّة إلى الحاج الشّيخ عبد الحسين الطّهراني، في الوقت الذي كنا فيه نحضر درس هذا الشيخ الكبير وأخرج قاريء التعزية المذكور من جيبه كتاباً باسم مقتل الحسين وعرضه على الشيخ للتأكّد من قيمة الكتاب ومدى صلاحه لقراء التعزية الحسينية، وكان كتاباً لا أول ولا آخر، سوى أنه ورد في موضع منه أن العالم الفلاني من أهل جبل عامل كان من تلامذة صاحب المعالم، فأخذ الشّيخ الطهراني رحمه الله الكتاب ليطالعه، وعندما ذهب فعلاً وطالع أحوال ذلك العالم اكتشف أنه لم يصدر عن العالم المذكور يوماً، ولا عرف عنه أنّه ألّف كتاباً بهذا الاسم، ثم أخذ يطالع الكتاب وإذا به يكتشف بأنه ليس سوى كتاب مملوء محشو بالأكاذيب.

فجاء إلى ذلك الواعظ الحلي وقال له: إيّاك أن تعرض هذا الكتاب مرّة أخرى على أحد، فإنه كتاب مملوء بالأكاذيب، ولا يجوز النّقل منه بتاتاً، وهو ليس من تأليف ذلك العالم المذكور أصلاً.

ويضيف الحاج نوري فيقول: عندما وقع هذا الكتاب بيد صاحب " أسرار الشهادة " قام بنقل كل مواضيعه كما هي دون استثناء "[١].

لقد جانب الشّيخ النوري رحمه الله الصّواب حين ادّعى أنّ العلاّمة الدربندي رحمه الله قد نقل كل مواضيعه كما هي دون استثناء! لأنّه نقل عنه فصلاً واحداً في مبارزات

---

(١) راجع الملحمة الحسينية (١/٤٣ - ٤٤).

الأصحاب عليهم السلام وشهادتهم، ضمن المجلس السّابع، هذا **أوّلاً**.

أمّا **ثانياً**: فإنّ المرحوم الدّربندي رحمه الله في أوّل تذييل على المجلس السّابع يستبعد صحّة نسبة هذا الكتاب للعاملي ويستظهر كذبها ووضعها ويؤكّد إرسال رواياتها، لكنّه نقلها للمناقشة على ديدن العلماء في الكتب العلميّة، وللوقوف على حقيقة الحال تحرّياً للحقيقة فإنّا ننقل كلامه بنصّه لنبرّي ساحة هذا العالم النّحرير من أيّ سوءٍ يُظنّ في حقّه، قال رحمه الله:

إعلم أن هذه النّسخة التي نقلت ما في هذا المجلس عنها إنّما هي ملك للسيد العلوي، من المعاصرين، اسمه السيد جعفر، وهو كأبيه وجدّه من قرّاء المراثي وذاكري مصائب آل محمّد صلى الله عليه وآله في مجالس الأعاظم ومآدب الأفاخم من أهل كربلاء، وهذا السيّد الجليل يحدّث عن أبيه وهو عن جدّه أنّ هذه النسخة إنّما هي من مصنّفات الشيخ الجليل شهاب الدّين العاملي، فهذه النسخة ليس في أوّلها ديباجة حتّى يعلم بسببها ما اسم المصنّف، ومع ذلك فهي غير تامّة، بل هي كراريس معدودة وأجزاء يسيرة.

إلى أن يقول: وكيف كان، فإنّ شذوذيّة وغرابة ما فيها - أي ما نقلنا عنها في كيفية شهادة سيد الشهداء وأقربائه - أظهر من أن يبيّن.

فهذا كما ترى يُستشم منه علامة الوضع وإمارة الكذب، وعدم صحّة الإنتساب - أي انتساب هذه النسخة - إلى من ينسب إليه، أي شهاب الدين العاملي، على أنّ أكثر ما فيها إنّما هو على نمط الإرسال والإطلاق، ولا سيّما ما نقلنا عنها في باب القتلى من أصحاب ابن سعد، بمعنى أنّه لم يذكر فيها المدرك

المستند القائل بذلك من العلماء وأصحاب المقاتل، وإن فيها من أسامي جماعة من الأنصار والأصحاب وأقرباء سيّد الشهداء غير موافق لما في الروايات وكتب أصحاب المقاتل، وبالجملة، فإنّي في حال هذه النسخة في شك وريب، بل إنّ إمارات الوضع والجعل فيها ليست في غاية الخفاء.

فإن قلت: إذا كان الأمر كذلك فلم نقلت عنها ما نقلت في هذا المجلس ؟ بل إنّ نقل أمثال ذلك في الكتب والمصنّفات قد يفضي إلى ترويج الأمور المجعولة الموضوعة التي لا أصل لها أصلاً، لأنّ مثل ذلك النّقل يوقع الإشتباه والتدليس، فيفضي ويؤدّي إلى ترويج الأمور الباطلة.

قلت: إنّ استشمام علامة الوضع بل الظنّ بإمارة الجعل والكذب ليس كالعلم والقطع بالوضع، فما لا يجوز نقله إلاّ بعد بيان حاله إنما هو الثاني لا الأول، غاية ما في الباب أن ما فيها يعدّ من الروايات الضعيفة، ولا ضير ولا غائلة في نقلها في أمثال المقام، وإن كان الراجح هو جانب عدم تطابقها للواقع، وأما قضية التدليس والإشتباه فهي لا تجري في المقام بعد شرح حقيقة الحال وبسط المقال في أن تلك النّسخة كانت كذلك وكذلك، وإن شئت البيان فقل إن روايات أمثال هذه النسخة تندرج تحت قسم الوجادة التي هي إحدى طرق تحمّل الروايات وأنقصها درجة وأحطّها منزلة عند العلماء، أي من علماء الأصول والرجال والدّراية.

ويمكن أن يقال: إن نقل أمثال ما في هذه النسخة على النمط الذي حقّقنا الحال فيه يشمله ما في جملة من الروايات، وإن كان ذلك على نحو من الفحوى والإلتزام، وذلك مثل ما في رواية السّكوني عن الصادق عليه السلام قال:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: إذا حدّثتم بحديث فأسندوه إلى الذي حدّثكم، فإن كان حقّاً فلكم، وإن كان كذباً فعليه، الحديث. ويمكن التأييد أيضاً بما في رواية ابن أبي عمير عن حسين الأحمسي عن الصادق عليه السلام قال: القلب يتّكل على الكتابة، الحديث[١].

والأمر أبين من الشمس وأظهر من الأمس بعد نقل كلامه رحمه الله، ولست أهتدي إلى عذر ألتمسه بعد ذلك لهذين العلَمين رحمه الله، فلقد تسبّبا بالطعن في كتاب الأسرار ونسبا مؤلّفه إلى التهاون أو التدليس.

ومرّ مبنى الشيخ النّوري رحمه الله، ومرّت كلمات العلاّمة الدّربندي رحمه الله تأكيداً على الإتحاد في المبنى ونفياً لاحتمال التنافي بينهما، إلاّ أنّ منشأ المشكلة هو الخطأ الذي وقع فيه النوري رحمه الله وتابعه عليه المطهري رحمه الله، ولا بدّ لنا من وقفة معه!

العلاّمة المطهّري!

إنّ ما يدهشُ اللبّ هو أنّ الشيخ المطهري رحمه الله راح في كتابه "الحماسة" يشيّد تلك المزاعم دون تحقيق، فقال ذامّاً كتاب روضة الشّهداء الذي ألّفه الكاشفي: إن مجالس الرّوضة المعروفة لدينا في إيران تعني قراءة كتاب "روضة الشهداء" للملا حسين الكاشفي، أي قراءة كتاب الأكاذيب والوضع والتحريف، ومنذ أن وقع هذا الكتاب بأيدي الناس لم يعد أحد يراجع أو يطالع حقيقة واقعة الطف[٢].

---

(١) راجع إكسير العبادات في أسرار الشهادات (٢/٣٠٥ - ٣٠٦) المطبوع بتحقيقنا.

(٢) راجع الملحمة الحسينية (١/٤٣).

وسيأتي الكلام في كتاب الكاشفي في نهاية هذا الفصل، إلاّ أنّه يعنينا هنا وصفه بالكذب والوضع والتحريف على الإطلاق، ثم يتابع كلامه فيقول: ثم بعد ذلك ظهر علينا قبل حوالي ستين أو سبعين عاماً المرحوم ملا آقا الدّربندي، وقام بجمع كتاب روضة الشهداء، مضيفاً إليه بعض القصص الأخرى، وألّف كتابه المعروف "أسرار الشهادة"، وإنني يجب أن أقول الحقيقة بأن محتويات هذا الكتاب تدفع الإنسان للبكاء على الإسلام(١).

ولدى التحقيق يتّضح بكلّ جلاء أن هذه الكلمات تضمّ عدّة دعاوى باطلة، فمحتوى كتاب "الأسرار" يغاير محتوى "روضة الشهداء" جملةً وتفصيلاً، والكتابان مختلفان من حيث التّبويب واللغة والمحتوى، ولم ينقل العلاّمة الدّربندي ﴿رحمه الله﴾ سطراً واحداً عن "الرّوضة" مطلقاً، بإشارة أو غير إشارة، ومصادر الأسرار واضحة ومذكورة فيه، إلاّ ما نقله عن الألسن بالإشارة منه إلى ذلك، أو ما نقله عن النسخة العتيقة كما نقلنا كلامه فيها.

ولدى الإمعان في "الحماسة" نقف على عبارات تتسم بالمبالغة والتسرّع والتقليد الخاطيء الذي لا يتناسب ومقام الشيخ المطهري ﴿رحمه الله﴾ قطعاً، حتّى بدا لنا أن الكتاب مؤلّفٌ أصلاً للحرب على الشعائر الحسينيّة وتضعيفها، ويُشمّ من عبائره الذّوق البعيد عن علمائنا الأبرار ﴿رحمهم الله﴾ في التعامل مع الأخبار والآثار، ولابدّ من المرور على بعض عبائره وقوفاً على الحقيقة..

يقول في الملحمة الحسينية: إننا وللأسف الشديد قد حرّفنا حادثة عاشوراء

---

(١) راجع الملحمة الحسينية (١/ ٤٣).

ألف مرة ومرة أثناء عرضنا لها ونقل وقائعها! حرّفناها لفظياً أي في الشكل والظاهر أثناء عرض أصل الحادثة، متن الحادثة، والحواشي المتعلقة بالحادثة، كما تناول التحريف تفسير الحادثة وتحليلها، أي إنّ الحادثة مع الأسف قد تعرّضت للتحريف اللفظي كما تعرضت للتحريف المعنوي[١].

ولا مشاحّة في صدق هذه الدّعوى ولا مكابرة، فالتحريف مرض الحوادث التاريخية الكبرى كلّها دون استثناء، لكنّه تدرّج من خلال هذه الدّعوى فترقّى إلى غيرها، بحشد المبالغات والدّعاوى الكبيرة التي لا تصمد أمام معول النقد، فقال: إن المادة المزوّرة والمدسوسة كثيرة للغاية، ولا يمكن حصرها بسهولة، وإذا ما أردنا جمع كل المآتم الكاذبة فأننا ربما سنحتاج إلى عدة مجلّدات ضخمة! [٢].

ثم يتابع فيقول: من الواجب أن نقيم المآتم على الحسين عليه السلام، أما المآتم التي تقام عليه اليوم فهي جديدة، ولم تكن هكذا فيما مضى، وذلك سبب كل تلك الأكاذيب التي ألصقت بحادثة كربلاء دون أن يفضحها أحد، إننا يجب أن نبكي الحسين عليه السلام ولكن ليس بسبب السيوف والرماح التي استهدفت جسده الطاهر الشريف في ذلك اليوم التاريخي، بل بسبب الأكاذيب التي ألصقت بالواقعة[٣].

وما أسرع أن ينحدر الخطاب إلى مستوى خطير جدّاً، فيشير بأصابع الإتّهام للعلماء والحوزات العلميّة وينسب إليهم كلّ هذه الأكاذيب، ويصرّح بتوجيه تهمته إلى مراكز التشيّع الأساسيّة! فيقول بعد سرد قصّة معيّنة: إن هذا العالم

---

(١) راجع الملحمة الحسينية (١/ ١٢).

(٢) راجع الملحمة الحسينية (١/ ١٢).

(٣) راجع الملحمة الحسينية (١/ ١٣).

الهندي تصور أن قراء التعزية الحسينية يبدأون بنشر الأكاذيب بعد أن يصلوا إلى الهند! ولا يدري أن المياه ملوّثة من رأس النّبع ! وأن مصدر المآتم الكاذبة هي كربلاء! والنجف! وإيران! أي مراكز التشيّع الأساسية نفسها! [(١)].

إنّه يطعن في الثّقل الذي يعتمد عليه المذهب، ويرمي مصادر الفكر النقيّة بالتلوّث! وهذا كلام لا يقبله عالمٌ أو منصفٌ، ولا يرضاه حتّى المطهري رحمه الله نفسه، ولا يسمح أن ينسب إليه فضلاً عن أن يطبع باسمه في حال من الأحوال، ونحن نُحاشيه ممّا لا يليق به، وها هو يخالف صريح الأخبار المتقدّمة من استحباب البكاء على الإمام الحسين عليه السلام في نفسه، ولا حاجة لإعادة الكلام في مدلولاتها، وينفي استحقاق الثواب على البكاء أصلاً! فيقول: أمّا الدموع التي تخرج من خلال العرض المأساوي ورسم المجزرة وتشريح الذّبح والمذبحة فلا تساوي شيئاً، حتى لو كانت بحراً من الدّموع! [(٢)].

وبناءً على ذلك فإنّي لست أدري، ولا المرحوم المطهري رحمه الله يدري، متى تساوي دموع الباكين شيئاً عند كاتب هذه الكلمات، وكيف يبكي المحبّون من دون العرض المأساوي الذي يتهكّم عليه ويسخر منه! هل حين يسرد الكاتبُ بحثاً فلسفيّاً دقيقاً!

ولقد طالعتنا هذه الأيّام شرذمةٌ لا حظّ لها من العلم إلاّ بعض المصطلحات الصحفيّة، تتلاعب في الكلمات المزبرجة والعناوين الغرّارة ولها

---

(١) راجع الملحمة الحسينية (١/ ١٣).

(٢) راجع الملحمة الحسينية (١/ ١٥).

طنين ورنين، تنادي بالدّمعة العلميّة، وتفلسف الأحزان البديهيّة بأعقد الأساليب، وتفسّر الدّمع بالفكرة المغلقة، وتركّب البسائط الواضحة، وهي دعاوى لم نألفها عن ساداتنا الطّاهرين عليهم السلام، وهذه زبدة القول في الرّد، وقد تقدّم الكلام في الحزن والبكاء بشكل مفصّل.

هذا، ويتسافل لحن الكلام شيئاً فشيئاً، ويتهادى ذات اليمين وذات الشمال، ويعارض المسلّمات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام فيقول: قد يقول البعض بأن الهدف من وراء ذلك كله مواساة سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام !! أليس أمراً مثيراً للسخرية ؟ فهل تحتاج الزهراء إلى المواساة بعد مرور ١٤٠٠ عاماً على المأساة، في الوقت الذي نعلم فيه جميعاً بأن اجتماع الحسين الشهيد والزهراء البتول أمر ينص عليه قول الحسين عليه السلام نفسه وهو من ضرورات الدّين أيضاً، فما معنى مثل هذا الكلام إذاً؟! وهل أن فاطمة الزهراء عندكم طفلة صغيرة حتى تظل تلطم وتبكي بعد ١٤٠٠ عام حتى نأتي نحن لنعزّيها ونأخذ بخاطرها ؟! هذا هو الكلام الذي يخرّب الدين[1].

وماذا يُقال بعد ذلك ردّاً على ما يعارض النّقل الصّريح عنهم عليهم السلام، ويفتقر إلى أدنى مستويات المراعاة والإحترام، ويسيء الأدب بصراحة وجرأة بالنّسبة إلى مولاتنا الصدّيقة فاطمة الزّهراء عليها السلام، وكان بالإمكان التدليل على المراد دون المساس بساحتها، وكان يمكن أن يُستغنى عن سَوق هذه الكلمات!

وهو يُنكر أن يكون بكاؤنا من باب التسلية والصّلة لمولاتنا الزهراء عليها السلام!

---

(١) راجع الملحمة الحسينية (١/ ٣٥).

وينكر كونها لا تزال تواصل البكاء على ولدها عليه السلام في عالمها الآخر! مع دلالة الأخبار في الكتب المعتبرة على تأكيد المطلبين بما لا مزيد عليه، ويكفي أن أشير إلى خبرين منها حذراً من الإطناب في الواضحات.

رَوَى ابن قولويه في كامل الزيارات عن زرارة عن الإمام الصّادق عليه السلام: وما من عين أحبّ إلى الله ولا عبرة من عين بكت ودمعت عليه، وما من باك يبكيه إلاّ وقد وصل فاطمة عليها السلام وأسعدها عليه، ووصل رسول الله وأدّى حقّنا[1].

وَرَوَى عن أبي بصير أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: يا أبا بصير، إن فاطمة لتبكيه وتشهق، فتزفر جهنّم زفرة، لو لا أن الخزنة يسمعون بكاءها، وقد استعدوا لذلك مخافة أن يخرج منها عنق أو يشرد دخانها فيحرق أهل الأرض فيكبحونها ما دامت باكية ويزجرونها ويوثقون من أبوابها مخافة على أهل الأرض، فلا تسكن حتى يسكن صوت فاطمة، وإن البحار تكاد أن تنفتق فيدخل بعضها على بعض، وما منها قطرة إلاّ بها ملك موكّل، فإذا سمع الملك صوتها أطفأ نارها بأجنحته، وحبس بعضها على بعض مخافة على الدّنيا ومن فيها ومن على الأرض.. فلا تزال الملائكة مشفقين يبكون لبكائها، ويدعون الله ويتضرّعون إليه، ويتضرّع أهل العرش ومن حوله، وترتفع أصوات من الملائكة بالتقديس لله مخافة على أهل الأرض، ولو أن صوتاً من أصواتهم يصل إلى الأرض لصعق

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٨١)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٠٧)، ومستدرك الوسائل (١٠/٣١٤).

أهل الأرض وتقلّعت الجبال وزلزلت الأرض بأهلها.

قلت: جعلت فداك، إن هذا الأمر عظيم. قال: غيره أعظم منه ما لم تسمعه! ثم قال: يا أبا بصير، أ ما تحب أن تكون فيمن يسعد فاطمة ؟ فبكيت حين قالها، فما قدرت على المنطق، وما قدرت على كلامي من البكاء، ثم قام إلى المصلّى يدعو وخرجت من عنده على تلك الحال[1].

وإن تعجب لشيء فاعجب من موجبات بكاء أبي بصير ﷺ وحزنه، فإنّها دواعي سخرية وتهكّم كاتب هذه السّطور!

ولا تتعجّب من بعد كلّ هذا أن تقرأ الأعجبَ من كلّ ذلك، فإنّه يقول أيضاً: "هناك قصة أخرى يذكرها الحاج نوري في كتابه أيضاً، حيث يقول فيها: إن أحد طلاب الحوزة الدّينية في النّجف وهو من أهل يزد، ذكر لي مرة ما حدث له وهو في الطريق إلى خراسان عبر الصحراء في إحدى رحلاته مشياً على الأقدام، إذ قال: كنت قد توقّفت في إحدى الليالي في قرية من قرى نيشابور، ولما كنت لا أعرف محلاً للإستراحة قرّرت الذّهاب إلى مسجد القرية، وفي تلك الليلة كان من المقرر أن يصعد الإمام إلى المنبر لوعظ الناس عن المناسبة الحسينية. ولما بدأ قاريء التعزية بالقراءة، وإذا بي أرى فرّاش المسجد يأتي بكمية من الحجر والحصى ويعطيها إلى الإمام القاريء الذي ما إن شرع بقراءة التعزية حتى أمر بإطفاء الأضواء وبدأ الحجر والحصى يتساقط على رؤوس الناس، ثم تعالت أصواتهم وارتفع صراخهم ونحيبهم، وبعد ذلك بقليل عادت الإنارة إلى المسجد، وانتهت

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٨٠)، وبحار الأنوار (٢٠٨/٤٥)، ومستدرك الوسائل (٣١٥/١٠).

التعزية، وعندها رأيت الناس يخرجون من المسجد وهم يبكون، وآثار الجراح على رؤوسهم، فعجبت كثيراً مما رأيت، وذهبت إلى إمام الجماعة وسألته عما جرى والهدف من وراء ذلك ؟!

فأجابني بأن هؤلاء الناس الذين شاهدتهم الآن قد عملت المستحيل حتى يبكوا على الحسين ففشلت !! مما دفعني في النهاية إلى اختيار هذا الأسلوب باعتباره الأسلوب الناجع الوحيد لإبكائهم حتى يكسبوا الأجر والثواب الكثير !! وهذا يعني أن الغاية تبرر الوسيلة "[1].

ويحتبس اللسان ويحير البيان في التعليق على هذه الحكاية التي أتعبت ناسجها وراويها وقاريها.. وكأنّ حادثة كربلاء تفتقر إلى الشّجى والأسى حتّى يُبكي هذا الإمام النّاس تألّماً على جراحاتهم! أم كيف يداوم النّاس في محفل يعلمون عاقبة أمرهم فيه! إن في القصّة أوّلاً وثانياً وعاشراً، وهي تشبه القصص التي يحيكها أعداء المذهب لتنفير النّاس عن الشعائر الحسينية فلا تزداد إلاّ انتشاراً وقوّة ورفعة.

إنّ ما تقدّم يؤصّل جزمي بأنّ هذه العبائر ليست للشيخ المطهّري رحمه الله قطعاً، فقد ألّف مجهولٌ كتابه بعد رحيله بزمن، جمعاً من أشرطة التسجيل، وقال جامعها أنّ ملقيها ألقى بعضها في المناسبات وبعضها في جلسات في البيوت، وبعضها أنصاف محاضرات أتمّ جامعها جملها وعباراتها النّاقصة! وطبعها باللغة الفارسيّة باسم "حماسي حسيني"، ثمّ ترجمها إلى اللغة العربيّة فيما بعد من دون مقدّمات الكتاب الفارسيّة !!

---

(١) راجع الملحمة الحسينية (١/٤٠).

وتجد اليوم كتاب الملحمة الحسينيّة على أرفف جميع المكتبات الشّيعيّة، وفي جميع البلدان، ويعد عند كثير من الباحثين المصدر الأوّل في تنقيح وتحقيق الشعائر الحسينيّة، والسّر في هذا الإنتشار أنّ هناك من يهمّه ثلم شعائر الإمام الحسين عليه السلام ودعم حتّى الأسلحة الموهومة في سبيل ثلمها، وأيسر الطّرق أن يدعم هؤلاء نشر كتابٍ لعَلَم من أعلامنا يدسّون فيه أهواءهم، وها هي عباراتهم لا تليق بأدنى طلبة العلم، فضلاً عن عالم مفكّر، وسنوافيك بعبارات أخرى قريباً.

وأحبّ أن أختم حديثي عن هذا الكتاب ومؤلّفه بكلمة العلاّمة المحقّق السيد جعفر مرتضى العاملي، بعد مناقشته لكتاب الملحمة الحسينية، فهو يقول:

إنّنا نكاد نطمئن إلى أن كتاباً هذه حالاته وتلك هي ميزاته ومواصفاته لا يمكن أن يرضى الشهيد السعيد العلامة المطهري بأن ينسب إليه، خصوصاً إذا قيس بسائر مؤلّفاته التي تتميّز بالإحكام والإنسجام.

ولو أنّه كان رحمه الله على قيد الحياة لم يرض بنشره وعليه اسمه، لأنّه - وهو بهذا الحال - يحطّ من مقامه العلمي الرّفيع، ويسيء إلى موقعه الثقافي المميز، ولكان قد زاد عليه وحذف منه وقلّم وطعّم وغيّر وبدّل الشيء الكثير[١].

روضة الشهداء

أعتقد أنّ الدّفاع عن السّيرة الحسينيّة والعاملين المأمونين عليها واجب حتمي ومهم، والتصدّي للشُّبه في هذا المجال ضروري جدّاً، بل هو حقّ على عواتقنا

---

(١) راجع كربلاء فوق الشبهات للعلاّمة السيّد جعفر مرتضى العاملي، وهو كتيّب قيّم يتعرّض لبعض محتويات الملحمة الحسينية ويخلص إلى هذه النتيجة.

يفرضه الإعتراف بالفضل لأهله، وكنت قد كتبت بعض الفصول في الدّفاع عن العلاّمة الدّربندي رحمه الله منذ عام ١٤١٤ هـ كي أدرجها في مقدّمة تحقيقنا على كتاب أسرار الشّهادة، ثم بدا لي أن أستشير أحد أساتذتي الأعلام في قم المقدّسة، فنصحني بالإعراض عن إدراجها في مقدّمة التّحقيق لأنّه ينبغي تجاهل الشّبه الضّعيفة وقتلها بهجرها، فمكانة كاتب الأسرار رحمه الله أعلى وأجل من إثارة الشّبه الواهية عليه في مقدّمة كتابه، فامتثلت كلامه وأعرضت.

لكنّه كثر السّؤال في هذا الصّدد في الآونة الأخيرة، وتعاضدت الرّايات على إثارة الشُّبَه في هذا العصر، فقرّرت أن أدرج ملاحظاتي ضمن هذا الكتاب.

ماذا أقول! وقد جمعني في يوم من الأيام مجلسٌ مع أحدِ الفضلاء فسألني عن كتاب "أسرار الشّهادة" وعن تحقيقه، فكنت أشرح له عملي فيه، حتّى وصلتُ في قولي إلى تخريج المصادر، فقال لي: وهل عثرت على مصدر لروايات الكتاب !!

فأيقنت من حينها بضرورة كتابة هذه السّطور انتصاراً لهذا العالم والكتاب المظلومَين، ولم تكن هذه الجرّة الأولى التي كسرت في الإسلام، فقد تناولت أيدي الإعتداء شخصيّاتَ علميّة أخرى..

ولابدّ لنا من الوقوف على الشّبه التي أوردها صاحب الملحمة حول الشيخ الكاشفي رحمه الله أيضاً، فإذا كنّا قد أسلفنا أنّه أسيء بحقّ العلاّمة الدّربندي رحمه الله فإنّه لم يسلم هذا الآخر من ذلك، ونسأل الله الرّحمة والرّضوان للجميع.

فقد أسقط الشيخ المطهّري رحمه الله كتاب روضة الشّهداء عن الإعتبار جملة وتفصيلاً، ونظراً للسُّمعة العلميّة التي يتمتّع بها فقد تابعه جمع من كتّاب العصر فردّدوا قوله، حتّى قفّاهم بعض الخطباء في كتاباتهم أو في خطبهم المنبريّة، وبين

يدي كتبٌ عدّة لكتّاب معروفين وغير معروفين كلّهم ردّدوا ما جاء في "الملحمة الحسينيّة" وأصل التّهم راجع إلى "اللؤلؤ والمرجان" للشيخ النّوري رحمه الله، فهو أوّل من طعن في كتاب روضة الشّهداء وكاتبه الكاشفي..

إنّ الشّيخ المطهّري رحمه الله طعنَ في كتاب الرّوضة في عدّة مواطن، فقد قال في موطن منها: " إن مجالس الرّوضة المعروفة لدينا في إيران تعني قراءة كتاب "روضة الشهداء" للملا حسين الكاشفي، أي قراءة كتاب الأكاذيب والوضع والتحريف، ومنذ أن وقع هذا الكتاب بأيدي الناس لم يعد أحد يراجع أو يطالع حقيقة واقعة الطف "[1].

وخلاصة طعنه عليه أنّ مؤلّفه سنّي المذهب ومتلوّن المعتقد، فهو سنّي عندما يزور هراة الأفغانيّة وشيعيّ متعصّب في مسقط رأسه سبزوار، هذا أوّلاً، وثانياً هو ينفرد بنقل عدّة من القصص والأساطير، ويذكر عدّة من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ومن أعدائه الذين ليس لهم وجود أصلاً، وبالتّالي فهو كتاب مخصّص للأكاذيب والتحريف والتزوير، ومع كلّ ذلك فقد صرف كتابه أنظار القرّاء عن الكتب المعتبرة واستأثر باهتمامهم.. ويمكننا أن نناقش هذا الكلام بحذافيره.

فقد ذكر العلماء - ومنهم المطهّري - أنّ الكاشفي رحمه الله كان من أهل سبزوار، وهي مسقط رأسه، وقد كانت في أيّامه إحدى مراكز التشيّع في بلاد فارس، وقد عُرفت بالتّعصّب لمذهب أهل البيت عليهم السلام، وهذا يقتضي أن يكون المولود فيها من المتعصّبين للمذهب على شاكلة أهلها، إلاّ أن يُقام دليلٌ على خلاف ذلك.

---

(١) راجع الملحمة الحسينية (١/ ٤٣).

وعند مراجعة كتب التّراجم نجد أنّ علماءنا الأعلام فصّلوا أحواله وعرّفوه بشكلٍ يثبت كونه من علماء الشّيعة الذين يُعتد عليهم ويؤخذ عنهم.

أمّا المحقّق الخبير العلاّمة الشّيخ عبّاس القمّي رحمه الله فإنّه يقول: " الكاشفي: العالم الفاضل المولى حسين بن علي البيهقي السّبزواري، واعظ جامع للعلوم الدينيّة، مفسّر محدّث متبحّر خبير، كان زوج أخت المولى عبد الرحمن الجامي، له مصنفات كثيرة، منها: جواهر التفسير ومختصره، وأنوار السّهيلي في تهذيب كليلة ودمنة، ألّفه باسم الأمير أحمد الشهير بالسهيلي، وأخلاق محسني فارسي كتبه باسم الشاه سلطان حسين ميرزا ابن بايقرا وولده محسن ميرزا، وقال في تاريخه:

أخلاق محسني بتمامي نوشته شد   تاريخ هم نويس (زأخلاق محسني)

وروضة الشهداء، وغير ذلك، ومن أشعاره قصيدة في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام منها هذان البيتان:

ذريتي سؤال خليل خدا بخوان   واز لا ينال عهد جوابش بكن ادا

كردد تورا عيان كه إمامت نه لايق است   آنرا كه بوده بيشتر عمر درخطا

وهذا يدل على تشيّعه، تُوفّيَ بهَرَاة، في حدود سنة ٩١٠ هـ "[1].

وترجمه الميرزا عبد الله الأفندي رحمه الله في رياض العلماء ترجمة مهمّة، وله ترجمة ضافية في مجالس المؤمنين، كما أنّ الإمام السيّد محسن الأمين رحمه الله أورد أحواله وكتبه وأقوال العلماء فيه مفصّلاً في أعيان الشّيعة، وكذلك الآغا بزرك

---

(١) راجع الكنى والألقاب للشيخ عباس القمّي (١٠٥/٣).

الطّهراني ﵀ في طبقات أعلام الشّيعة.

والكلّ رأى أنّ التشيّع واضح في قصائده ومصنّفاته وكلماته، وذكر العلماء أنّ له قصيدة فارسية يصرّح فيها بتشيّعه وفيها يستدل على عصمة الأئمة ﵈، ويظهر في نفس كتاب "روضة الشّهداء" تشيّعه، خصوصاً أنّه مؤلّفٌ ومصنّف على ترتيب كتب علماء الشّيعة، وفيه شرح وفاة النبي ﷺ والأئمة ﵈ ويركّز فيه على شهادة الإمام الحسين ﵇ والمقتل.

أمّا نسبة التسنّن فإنّها لحقتهُ لأنّه كان يدرج آراء أهل السنّة وأهل التصوّف في كتبه، وقد قال الميرزا عبد الله الأفندي ﵀ ردّاً على ذلك: أدرج في تفاسيره بل في غيرها من كتبه مسالك الصّوفيّة ومذاهب أهل السنّة، ولذلك يظن عدم تشيّعه، وتشيّعه عندي واضح[١].

ويقول الآغا بزرك الطّهراني ﵀: ومن الغريب استدلال البعض على أنّ الكاشفي كان حنفيّاً يشبه الشّيعة، لأنّه ألّف رسالة في الفقه الحنفي!![٢]

فالفرق بين عرض آراء الآخرين وذكرها وبين تبنّيها والعمل بها واضح، فلو عثرنا على كتاب لأحد أعلامنا وكان فيه آراء المخالفين هل يسوّغ لنا الطّعن فيه لمجرّد ذلك! فتأليف رسالة في فقه المخالفين لا يدلّ في حال من الأحوال على اعتناق مذهبهم، خصوصاً وإنّه لم يُقِم أحدٌ دليلاً ناهضاً على تسنّنه، وقطع من ذكره من الأعلام بتشيّعه، وربّما تكون منشأ التّهمة من صحبته للأمير مير شير

(١) راجع أعيان الشيعة (٦/١٢٢).

(٢) راجع طبقات أعلام الشيعة، القرن العاشر (٤/٦٩).

علي الذي كان على مذهب الحنفيّة والذي كان وزيراً في هراة، أو مصاهرته للجامي وهو من أعلام الصّوفيّة، وهذه قرائن تحرّك الشّكوك المحضة ولا توجب الظنّ بشيء فضلاً عن القطع به، خصوصاً مع قيام الحجّة بخلافها، وصحبته للأمير ومصاحبته وأمثال ذلك محمولة على المداراة كما هو ديدن علمائنا مع رؤساء عصرهم، والتاريخ بين أيدينا وحالاتهم معروفة.

ومع كلّ هذا، فلو قبلنا جدلاً تسنّن الكاشفي ﵀ فما الذي يُسقط كتابه عن الإعتبار أو يؤكّد كذبه وتلفيقه! ولماذا لا يعتبر من ضمن مصادر المقتل؟ حاله حال المصادر السنيّة التي تروي الحادثة وتؤكّد ظلامة أهل البيت ﵈، ومسلّم أنّ حوادث الطّف ليست توقيفيّة على رواة الشّيعة، والمقاتل أمامنا تعتمد في نقلها على الخوارزمي والطبري وابن الأثير وأبي مخنف، وهم من غير الشيعة قطعاً، فلماذا يرفض الشّهيد المطهّري ﵀ رواية هذا السنّي ويعتمد على أولئك السنّة!

أمّا إذا قال أنّ الضّابطة في نقل روايات الحادثة هي وثاقة الرّاوي فهل ثبتت لديه وثاقة الطبري وحميد بن مسلم وابن الأثير؟ وعلى ذلك فما وجه التفريق بين الكاشفي ﵀ وغيره! حتّى نقبل رواية هؤلاء ولا نقبل رواية الكاشفي !!

وكيف كان، فإنّ استدلال "الحماسة الحسينيّة" غير ناهض، ولا يصمد أمام أوّل مهبّ نقدي، أم كيف يُصار إلى إخراج عَلَم من أعلامنا عن التّشيّع لرواية خبر أو حتّى أخبار لا تروق له أو لغيره ﵀! إنّ هذا عجيب وغريب!

ومن الذي قال أن نقل رواية مكذوبة أو موضوعة في كتاب يؤدّي إلى إسقاطه بالجملة عن الإعتبار! فقد قيل أنّ كتاب سليم بن قيس الهلالي ساقط عن الإعتبار لوجود رواية مكذوبة فيه، مفادها أنّ محمّد بن أبي بكر وعظ أباه عند موته،

فاستبعد ذلك لصغر سنّه آنذاك.. فأجاب آية الله العظمى المحقّق السيّد أبو القاسم الخوئي ﵀ عن هذا القول: "وأما وعظ محمد بن أبى بكر أباه عند موته فلو صح فهو وإن لم يمكن عادة إلاّ أنّه يمكن أن يكون على نحو الكرامة وخرق العادة، وعلى ذلك فلا وجه لدعوى وضع كتاب سليم بن قيس أصلاً !!

وثانياً: إن اشتمال كتاب على أمر باطل في مورد أو موردين لا يدل على وضعه، كيف ويوجد ذلك في أكثر الكتب، حتى كتاب الكافي الذي هو أمتن كتب الحديث وأتقنها" [١].

الأخبار المكذوبة

ستعرف أنّ الضّابطة الشرعية في نقل الأحداث التاريخيّة تختلف عن الضّابطة المعتمدة في أبواب الأحكام الإلزاميّة، والقواعد المحكّمة في البابين مختلفة، وستتعرّف على الكذب الممنوع في باب التاريخ والحوادث، وبذلك يمكننا معالجة الدّعاوى بأدوات العلم وضوابطه من غير حاجة للتعويل على حكم الغير أو الأذواق فيها.

وكيف كان، فقد زعم البعض حصر تلك الأخبار المكذوبة المتلوّة في المجالس الحسينيّة، في حين ادّعى صاحب "الملحمة الحسينية" أنّه لن يستطيع حصرها لأنّها تستوعب المجلّدات! وهذا تعريض بجملة أخبار الحادثة وتصريحٌ بإسقاطها، سواء قُصد ذلك أو لم يُقصد، وعيّن بعضٌ تلك المرويّات المقطوعة الكذب !!

---

(١) راجع معجم رجال الحديث (٨/٢٥٥).

ولا أكابر فأنكر وجود المرويّات المقطوعة الكذب فيها بالجملة، فالطّف حادثة تاريخية كبيرة، وهي كغيرها.. فيها المرويّات الصحيحة كما أن فيها السقيمة، وشأنها في ذلك شأن سائر الحوادث التّاريخيّة، فقد يقوم بعض الخطباء بتلاوة بعض الأخبار الضعيفة لجهل أو ضعف علميّ أو قلّة إطّلاع أو حسن ظنّ أو اعتماد على السّمع مثلاً، إلاّ أنّه ليس كل الخطباء يتلو تلك الأخبار على المنابر.

فاللازم على العلماء تعيين المعتبر من غيره، والتّنبيه وصيانة المجالس من المخاطر والأخطاء، والتحذير من تلاوة معلوم الكذب، ولا تخلو حادثة مترامية الأطراف ومتعدّدة الجوانب كحادثة الطف من وجود الدّس والإختلاق، كما أنّه ليس كلّ النّاس يميّز بين الصحيح والفاسد بين الأخبار، ويتجلّى حينئذٍ دور النّخبة المتخصّصة الذين وظّفوا أنفسهم لخدمة العلم والتحقيق في تنقيح تلك الأخبار، بصدر واسع وحبّ وأبوّة ومسؤوليّة.

والأمر المُهم هو أنّنا لم نعهد من علمائنا التّشنيع على عموم الشّعائر بحجّة أنّ فيها بعض الكذب! بل نحاشيهم من هذه ذلك، لأنّ ذلك يُفضي إلى الوهن ويؤدّي إلى إضعاف الشّعار زاده الله عزّاً ورفعةً وعلوّاً، وسيرة علمائنا على عكس ذلك تماماً.. رغم مرور القضيّة الحسينيّة بأجواء ساخنة ساقت بعض الأعلام إلى آراء عجيبة وغريبة، ينبغي الوقوف عليها برويّة وحكمة، ونسأل الله تعالى للجميع حسن العاقبة والرّحمة.

وفي هذا السّياق عدّ السيّد محسن الأمين ﷺ أخباراً واعتبرها من الكذب المتلو في المجالس، ولا أدري ما هو مبناهُ في ذلك، لأنّها لا تقصر عن المراسيل التي يعتمدها هو وكافة العلماء في باب التّاريخ والمواعظ والسّنن، ولابدّ من الوقوف

عليها ومناقشتها بحيادٍ ورويّة، ، وإليك تلك الأخبار:

❖ حديث الطّيور:

إستبعد السيّد محسن الأمين رحمه الله حديث الطّيور البيض المعروف، وأنكره وقطع بكذبه، وقصّتها مرويّة في بحار الأنوار وعوالم العلوم، ونصّها:

رُوِيَ عن طريق أهل البيت عليهم السلام أنه لما استشهد الحسين عليه السلام بقي في كربلاء صريعاً، ودمه على الأرض مسفوحاً، وإذا بطائر أبيض قد أتى وتمسّح بدمه وجاء والدّم يقطر منه، فرأى طيوراً، فقال لهم: الحسين في أرض كربلاء في هذا الحرّ ملقى على الرمضاء، ضامئ مذبوح، ودمه مسفوح، فلمّا رأته الطيور، تواقعن على دمه يتمرغن فيه، وأن طيراً من هذه الطيور قصد مدينة الرسول وجاء يرفرف حول قبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله يعلن بالنداء: ألا قتل الحسين بكربلاء، ألا ذبح الحسين بكربلاء[(١)].

ومثله حديث الغراب الذي أعلم فاطمة بنت الحسين عليه السلام بقتله، ونصّه: لما قُتل الحسين بن علي عليه السلام جاء غراب، فوقع في دمه، ثم طار فوقع بالمدينة على جدار فاطمة بنت الحسين بن علي عليه السلام وهي الصّغرى، فرفعت رأسها، فنظرت إليه، فبكت بكاءً شديداً[(٢)].

---

(١) راجع عوالم العلوم والمعارف (١٧/٤٩٣ - ٤٩٤)، وبحار الأنوار (٤٥/١٩١ - ١٩٢).

(٢) راجع عوالم العلوم والمعارف (١٧/٤٩٠)، وبحار الأنوار (٤٥/١٧١) عن كتاب المناقب القديم، مسنداً، إلى المفضل بن عمر الجعفي، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام عن أبيه، عن علي بن الحسين عليه السلام، وراجع كتابه مدينة المعاجز (٤/٧٢ - ٧٣) بأسانيد مختلفة ومتون متقاربة من معجزاته عليه السلام، وكرّر نقله في مواضع مختلفة.

ولا أدري كيف تسنّت هذه النتيجة، إذ لا يمكن المصير إلى القطع بكذبها بحال، بل يمكن وضعها في دائرة الإحتمال والإمكان وإن استبعد عقلاً وقوعها، ووجه الإستبعاد صعوبة وصول الطّير المتمرغ بالدّم من كربلاء إلى المدينة، فضلاً عن وقوعه على جدران بيت فاطمة بنت الحسين عليها السلام.

ويرفع الإستبعاد بوجود حمام الرّسائل المعروف بالعراق والذي يمعن بالطّيران البعيد، وقال شهاب الدين المعمري في كتاب التعريف: " أن أصل هذه الطّيور من الموصل، وقد اعتنى بها الملوك الفاطميون إلى الغاية، وكانت الرسائل تعلّق بأرجلها وترسل، فتطير للمكان الذي أعتادته مهما بَعُد، فإذا أخذ الكتاب منها عادت إلى المحل الذي جاءت منه، مزودة بكتاب أيضاً أو غير مزودة ".

ويمكننا الجمع بين الرّوايتين بوجه وجيه، فنحتمل أنّ المقصود من هذه الطيور نوع من الغربان، أو أنّ الطّائر المتمرّغ لّما تمرّغ بالدّم والتّراب قَرُب لونُه من لون الغُراب، فاتّفق وقوعه على جدران بيت فاطمة عليها السلام.

ولماذا لا يُعدّ ذلك من المعجزات أو الكرامات الواقعة للإمام الحسين عليه السلام! والمحدّث السيّد هاشم البحراني رحمه الله عدّها في مدينة المعاجز ضمن معاجزه عليه السلام، وما المانع في ذلك! إلاّ أن ينكر المانعون خرق العادة للإمام عليه السلام أو يستبعدوا صدوره عن أصحاب الولاية عليهم السلام، ونحن ننزّه السيّد الأمين رحمه الله من ذلك.

❖ حديث تفقّد الثنايا:

وقطع رحمه الله بكذب حديث تفقّد الثّنايا المنقول في كتاب الدمعة الساكبة، وهو

من تأليف العلاّمة المحقّق السيّد محمّد باقر البهبهاني رحمه الله وهذا لفظه: " عثرت على أشياء أرسلها بعض معاصرينا في مؤلفاتهم، فأحببت ذكرها، وإن لم أقف عليها في الكتب، منها ما عن المفيد، قال: لما نزل الحسين عليه السلام في كربلاء كان أخصّ أصحابه وأكثرهم ملازمة له هلال بن نافع، سيّما في مظان الاغتيال، فخرج الحسين عليه السلام ذات ليلة إلى خارج الخيم حتى بعُد، فتقلد هلال سيفه وأسرع في مشيه حتى لحقه، فرآه يختبر الثنايا والعقبات والأكمات المشرفة على المنزل، ثم التفت إلى خلفه فرأى هلال، فقال: من الرجل ؟ هلال ؟

فقال: نعم، جعلني الله فداك، أزعجني خروجك ليلاً إلى جهة معكسر هذا الطاغي. فقال: يا هلال ! خرجتُ أتفقد هذه التلال مخافة أن تكون كنّاً لهجوم الخيل على مخيمنا يوم تحملون ويحملون، ثم فارق الإمام هلال ودخل خيمة أخته، قالت: أخي ! هل استعلمت من أصحابك نيّاتهم ؟ فبكى عليه السلام وقال: أما والله لقد بلوتهم وليس فيهم إلاّ الأشوس الأقعس.. إلى آخر الخبر "[1].

والمقصود بالمعاصر الذي ينقل عنه صاحب الدّمعة هو العالم العامل الشيخ حسن الملقّب بأبي قفطان [2]، فقد حُكِيَ أنّه رَوَى أحاديث كثيرة، منها حديث

---

(١) راجع الدمعة الساكبة (٢/٢٩١).

(٢) هو الشيخ حسن بن الشيخ علي بن نجم بن عبد الحسين السعدي الرباحي الدجيلي، الشهير بـ"قفطان"، وُلد في النجف الأشرف سنة ١٢٠٠هـ تقريباً، ودرس الفقه عند الشيخ علي كاشف الغطاء، والأصول عند الميرزا أبي القاسم القمّي صاحب "القوانين"، ثمّ حضر درس الشيخ محمّد حسن النجفي صاحب "الجواهر" حتّى أصبح من أخصّ تلامذته وأفاضلهم وأقربهم إليه.
راجع لترجمته: (طبقات أعلام الشيعة / الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة ص ٣٣٩).

"تفقّد الثنايا"، وحديث "أنا صاحب السيف الصقيل"، وحديث "أين ظلت مطيّتك يا حسان" عن مشايخ رواة من أهل الكوفة، وهم يروونها بدورهم عن آبائهم ومشايخهم.

وينبغي عدم الإسراع في نكران ما نجهله من الأخبار، فكم من روايات فقدناها، وكم من كتب راحت في الكوارث فضاعت رواياتها وأخبارها، والحق أنّ الروايات التي ينقلها أبو قفطان لا تقصر عن المراسيل المرويّة في الكتب القديمة عن حميد بن مسلم وهلال بن نافع، وبين زمان تأليفها وزمن رواتها أكثر من خمسمئة عام.

فلابدّ من التروّي في ردّ أمثال تلك المرويّات المنقولة عن العلماء المعروفين بالفقاهة والصّلاح، فالشّيخ حسن السّعدي ﵀ من كبار علماء الطّائفة، ومن أبرز تلاميذ الميرزا أبي القاسم القمي ﵀ صاحب القوانين في الأصول، والعلامة المحقق المدقق صاحب الجواهر ﵀ في الفقه، وهو فقيه وأديب، وله شعر كثير في رثاء سيد الشهداء ﵇، وله كتاب في مقتل الحسين ﵇ يتضمّن مراسيلَ غريبة على المسامع، وقد أخفاه في حياته تحرّجاً من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ بعض ما فيه لم يروه بلفظه، وتورّع عن النقل بالمعنى، وقد صاغه بشعره وأدبه، ونقل عنه السيّد البهبهاني ﵀ في الدّمعة السّاكبة كثيراً.

← وله عدّة مؤلّفات، منها كتاب في مقتل الإمام الحسين﵇، وقد أطراه ووثّقه كلّ من ذكره وترجَم له، منهم: المحدّث الميرزا حسين النوري، والسيّد حسن الصدر، والشيخ محمّد حرز الدين، والسيّد محسن الأمين، والشيخ الطهراني.

ولم يكن رحمه الله العالم الوحيد الذي يمتلك تلك الدّرر الخاصّة المرويّة بالطّرق الخاصّة في الأحاديث والحوادث التّاريخيّة، فلقد سمعتُ مشافهةً من بعض أعيان العلماء الأعلام مثل ذلك أيضاً، فقد حدّثني آية الله العظمى المقدّس السيّد المرعشي النّجفي رحمه الله [1] أنّه يروي بإسنادٍ متّصل إلى مشايخه بالإجازة بعض مشاهد الطّف التي لم تُطبع في كتاب ولم يَسمعها إلاّ خواصّ العلماء! كما أنّني سمعتُ من العلاّمة المحقّق السيّد عبد الزّهراء الخطيب رحمه الله أنّه يروي مجموعة نفيسة من أخبار يوم الطّف من طرقه الخاصّة، ومثلهما كثير من العلماء الأعلام.

وهؤلاء علماءٌ أجلاّء معروفون بالتثبّت والإحتياط، وقطعاً إنّ مراسيلهم التي يروونها لا تقلّ وزناً عن مراسيل المتقدّمين، فما هو وجه القطع بكذب مرويّاتهم

---

(١) هو المرجع الكبير السيّد أبو المعالي، شهاب الدين محمّد حسين ابن السيّد محمود ابن السيّد علي المرعشي النجفي، المنتهي نسبه إلى الإمام زين العابدين عليه السلام. وُلِد في العشرين من صفر ١٣١٥هـ بمدينة النجف الأشرف، كان رحمه الله آيةً في العلوم الدينية والفقه والأصول، وله إلمامٌ علم الطبّ القديم، وله باعٌ في علم النّسب، وهو إمام مشايخ الرّواية في هذا العصر، وقد تفضّل عليّ وأجازني بالرّواية بطرقه إلى أهل البيت عليهم السلام.. من أهم أساتذته: الشيخ محمّد حسين الغروي الإصفهاني "الكُمباني" رحمه الله والشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي رحمه الله والشيخ ضياء الدين العراقي رحمه الله والشيخ عبد الله المامقاني رحمه الله والسيّد علي الطباطبائي اليزدي رحمه الله والسيّد هبة الدين الشهرستاني رحمه الله والشيخ محمّد جواد البلاغي رحمه الله والسيّد حسن الصدر رحمه الله وآخرون. وتلمّذ على يده عدّة من العلماء الأعلام.. قال فيه الشيخ الطهراني رحمه الله في مصفى المقال: "وهو الفاضل المعاصر، الماهر في فنّ الرجال والأنساب والتاريخ وتراجم العلماء وأحوالهم وطبقاتهم، وطُرق مشيختهم وإجازتهم". وله مؤلّفات كثيرة ومهمّة.. تُوفّي رحمه الله في السابع من صفر ١٤١١هـ بمدينة قم المقدّسة ودُفن بمكتبته فيها.

ونقولاتهم! وما هو السّر في طرح الأخذ بها والأخذ بمراسيل المتقدّمين!

❖ حديث دفن السجاد عليه السلام أبيه :

وقطع رحمه الله بكذب حديث دفن الإمام السجاد عليه السلام لأبيه الإمام الحسين عليه السلام الذي نقله السيّد البهبهاني رحمه الله في كتاب الدّمعة السّاكبة عن بعض الكتب المعتبرة وهو كتاب أسرار الشّهادات [1].

وهي حادثة مشهورة، وتُحملُ على خصوصيّات الأئمة الطاهرين عليهم السلام وكرامتهم على الله تعالى، ومؤدّاها مبثوثٌ في الكتب المعتبرة.

ويؤيّد خصوص مورد الرّواية ما رواه الكشّي في رجاله عن الإمام الرضا عليه السلام المتضمّن تقرير الواقعة، وأن علي بن الحسين عليه السلام هو الذي دفن أباه عليه السلام صراحة، فقد ذكر ذلك في ترجمة ابن السراج وابن البطائني وابن المكاري في حديث طويل، وفيه: فقال له علي - يعني ابن أبي حمزة البطائني - : إنّا روينا عن آبائك أن الإمام لا يلي أمره إلاّ إمام مثله.. فقال له أبو الحسن عليه السلام : فأخبرني عن الحسين بن علي عليه السلام كان إماماً أو كان غير إمام ؟ قال: كان إماماً.. قال: فمن وَلِيَ أمرَه ؟ فقال: علي بن الحسين.. قال: وأين كان عليٌّ بن الحسين ؟ قال: كان محبوساً في يد عبيد الله بن زياد في الكوفة، خرج وهم كانوا لا يعلمون حتى وَلِيَ أمر أبيه، ثم انصرف.

فقال له أبو الحسن عليه السلام : إن هذا الذي أمكن عليّ بن الحسين أن يأتي من كربلاء فيَلي أمر أبيه فهو أمكن صاحب هذا الأمر أن يأتي بغداد فيلي أمر أبيه ثم

---

(١) راجع الدمعة الساكبة (٢/٣١٧).

ينصرف، وليس هو في حبس ولا في إساءة[١].

والقول المقابل لهذا هو القول بدفن بني أسد للإمام الحسين عليه السلام، وهو قول بعض القدماء، إلاّ أنّه يمكننا الجمع بين القولين، فيمكن حمل القول الثاني على معاونتهم للإمام السجاد عليه السلام في دفن أبيه عليه السلام، ومثل ذلك ما جاء في زيارة النّاحية المقدّسة: " السّلام على من دفنه أهل القرى "[٢].

وما يرد في كتب الحديث من هذا القبيل محمول على معاونة الإمام السّجاد عليه السلام في دفن أبيه عليه السلام، كرواية بحار الأنوار المنقولة عن مصباح الشيخ أبي منصور رحمه الله أنه دخل النبي صلى الله عليه وآله يوماً إلى فاطمة - حتّى قال: - وأما الحسين عليه السلام فإنه يُظلم، ويُمنع حقّه، وتُقتل عترته، وتطؤه الخيل، ويُنهب رحلة، وتُسبى نساؤه وذراريه، ويُدفن مرمّلاً بدمه، ويدفنه الغرباء. قال علي عليه السلام: فبكيت، وقلت هل يزوره أحد؟ فقال: يزوره الغرباء[٣].

وكذلك رواية الشيخ المفيد رحمه الله في الإرشاد، وفيها: ولما رحل ابن سعد خرج قوم من بني أسد كانوا نزولاً بالغاضرية إلى الحسين وأصحابه رحمهم الله فصلّوا عليهم،

---

(١) راجع رجال الكشي ص (٢٨٩)، وقد نصّت روايات أخرى على أنّ الإمام لا يلي أمره إلا إمام، إما ظاهراً وإما بطريق الخفاء، كما في بحار الأنوار (٢٧/٢٨٨ - ٢٩١) و (٤٥/١٦٩) وفيها أخبار تدل نصاً وتقريراً على ذلك.

(٢) جزءٌ من زيارة عاشوراء المعروفة بالناحية المقدسة، ذكرها الشيخ المفيد في كتاب المزار ص (١٦٥ - ١٧١)، ونقلها عنه في البحار (٩٨/٣١٧ - ٣٢٨)، وروينا بعض فقراتها في الكتاب.

(٣) راجع بحار الأنوار (٩٨/٤٤).

ودفنوا الحسين عليه السلام حيث قبره الآن[١].

والحجّة في المقام هي الرواية المعتبرة التي رواها الكشي رحمه الله، وقد أورد العلاّمة الفاضل الدّربندي رحمه الله في أسرار الشهادات خبراً يؤدّي إلى دفن السجاد عليه السلام جسد أبيه عليه السلام كما تقدّم.

وأورد شيخ الطّائفة الطّوسي رحمه الله في أماليه والشيخ الصّدوق رحمه الله في أماليه بأسانيد معتبرة خبراً مفاده أنّ النّبي صلى الله عليه وآله هو الذي دفن ولده الحسين عليه السلام.. فرويا عن الإمام الصّادق عليه السلام أن أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله أصبحت يوماً تبكي بكاءً شديداً، فقيل لها:ممّ بكاؤك؟ قالت: لقد قتل الحسين عليه السلام الليلة، وذلك أني ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله منذ مضى إلاّ الليلة، فرأيته شاحباً كئيباً.. فقلت: مالي أراك يا رسول الله شاحباً كئيباً؟ فقال: ما زلت الليلة أحفر القبور للحسين وأصحابه[٢].

---

(١) راجع الإرشاد ص (٢/١١٣)، ومثله في اللهوف ص (١٢٧).

(٢) راجع أمالي الشيخ الطوسي ص (١١٩)، وأمالي الصدوق (١/٨٩). وهذا المعنى متكرّر في كتب الحديث، وروي في المناقب لابن شهراشوب (٤/٥٥) أخباراً عن عدة طرق من الجمهور، وقد روي في أمالي الشيخ الصدوق (١/٣٢٢): عن أم سلمة: أنّها أصبحت تصرخ صراخاً عظيماً، وهي تقول: يا بنات عبد المطلب أسعدنني وابكينّ معي، فقد قتل سيدكنّ الحسين عليه السلام، فقيل لها: من أين علمت ذلك؟ فقالت: رأيت رسول الله شعثاً مذعوراً، فسألته عن شأنه، فقال: قُتل ابني الحسين وأهل بيته، فدفنتُهم، والسّاعة فرغت من دفنهم. وفيه (١/٣٢٣): عن ابن عباس في رواية ابن جبير عن أم سلمة أيضاً في حديث طويل جاء فيه قولها: فلما كانت الليلة القابلة رأيت رسول الله أغبر أشعث، فسألته عن شأنه، فقال: ألم

ومع أنّ الشّيخ النوري رحمه الله قد استقصى في كتابه "اللؤلؤ والمرجان" الأخبار المكذوبة ولم يحص فيها هذا الحديث مُجملاً ولا مفصّلاً، ولا حديث الطيور البيض، ولا الغراب الذي طار من كربلاء إلى المدينة، خلافاً للسيّد الأمين رحمه الله.

فيبدو أنّها في نظره كذبٌ ظاهر لا ينبغي السكوت عليه، غير أنّنا إذا حاكمنا كتبه عثرنا على الكثير من هذه الأخبار مع أنّه ينسب مثيلاتها إلى الكذب المحرّم في كتابه " تنزيه " الشعائر! ففي طيّ كتابه "المجالس السنيّة" أخبار ليس لها في المصادر المعتبرة عين ولا أثر، ولا حتّى في غيرها.

منها: قوله أن الإمام زين العابدين عليه السلام شاهد شمر بن ذي الجوشن يفري بسيفه وريدي الحسين عليه السلام حتى فصل رأسه المكرّم عن جسده !!

ومنها: وقوله أن الرّباب أخذت رأس الحسين عليه السلام ووضعته في حجرها، وقبّلته وقالت:

واحسيناً فلا نسيتُ حسيناً أقصدَتهُ أسنّةُ الأعداءِ[1]

ومنها قوله: بات أطفال الحسين عليه السلام في الليلة الحادية عشر جياعاً عطاشى.

ومنها قوله: كانت لحيته المباركة مخضوبة بالوسمة، كأنها سواد السبّج.

تعلمي أني فرغت من دفن الحسين وأصحابه.

(١) ذكر أبو الفرج في الأغاني (١٦/١٢٦) هذا البيت، ونسبه إلى عاتكة بنت يزيد بن عمرو بن نفيل، وليس للرباب، التي لم يؤثر عنها أنها وضعت رأس الحسين عليه السلام في حجرها ولا قبّلته، وإنما المروي لها خمسة أبيات في رثائه ما ذكره أبو الفرج في الأغاني (١٤/١٥٨)، منها:

إن الذي كان نوراً يستضاء به بكربلاء قتيلٌ غير مدفون

وقد ورد هذا الوصف ضمن مرسلة مسلم الجصّاص التي جاء فيها: "أتوا بالرؤوس يقدمهم رأس الحسين عليه السلام وهو رأس زهريٌ قمريٌ، أشبه الخلق برسول الله صلى الله عليه وآله ولحيته كسواد السّبج بها.. فالتفتت زينب عليها السلام فرأت رأس أخيها، فنطحت جبينها بمقدّم المحمل، حتى رأينا الدم يخرج من تحت قناعها، وأومأت إليه بخرقة "[1].

فبينا لا تروق له الرّواية المرسلة إذا احتجّ بها المطبّرون نراه يروي شطراً منها في كتبه! وهذا أمرٌ عجيب، فما هي الضابطة في ردّ هذه وقبول تلك؟

حقيقة زفاف القاسم

من الحوادث التاريخية الواردة في المصادر والمتلوّة على منبر الإمام الحسين عليه السلام والتي قطع عدّة بكذبها ووضعها هي زفاف القاسم في يوم عاشوراء، إذ وصفها البعض بالأسطورة الشّعبية وعبّر عنها آخرون بالخرافة، وبعضٌ تعصّب فأقام الدّنيا ولم يُقعدها في سبيل نفيها وتسفيه من يرويها!

وينبغي الإلمام بمصادرها ومناقشتها بناءً على أصول البحث، فهي مسألة لا يصحّ التقليد فيها أو ترديد كلمات الآخرين فيها دون بيّنة، ففي الضفّة الأخرى علماء أوردوها وقبلوها، ولابدّ من اعتماد دليل مقنع لترجيح طرف معيّن، ولا محلّ لقول البعض "لم يثبت عندي" أو "لا أساس له من الصحّة" دون تقديم ما يثبت دعواه، فالرّأي ليس فتوىً للمقلّدين، والنظريّات قابلة للتجديد والتبدّل

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/ ١١٤) وعوالم العلوم (١٧/ ٣٧٣).

بظهور البراهين والحجج، ولهذا فقد صُنّفت كتب في إثباتها وأخرى في نفيها[1].

وبين أيدينا من كتب المثبتين كتاب المنتخب ومدينة المعاجز وتحفة اللباب

---

(١) المثبتون لرواية زفاف القاسم عليه السلام يوم الطّف كُثُر، ويكفينا في تصنيفهم عدّ رواتها، كالعالم الشيّخ فخر الدّين الطريحي رحمه الله في المنتخب، والمحدّث الخبير السيّد هاشم البحراني رحمه الله في مدينة المعاجز، والنسّابة ضامن بن شدقم الشدقمي الحسيني في كتابه تحفة اللباب في ذكر نسب السادة الأنجاب، والعلاّمة الفاضل الدّربندي رحمه الله في أسرار الشهادة، والمولى الكاشفي رحمه الله في روضة الشّهداء.. وفي الذّريعة أسماء لكتب عدّة في إثباتها، ككتاب الحجج القاطعة في إثبات وقوع عرس القاسم بن الحسن عليه السلام، وكتاب الرد على التقرير الحاسم، المطبوع بالأردو للسيّد أبي الحسن علي بن نقي شاه الكشميري اللكنهوي، الذي كان تلميذ علي محمد بن السيد محمّد بن السيد دلدار علي النصير آبادي اللكنهوي، وكتاب دفع المغالطة، في مسألة عرس القاسم بن الحسن عليه السلام بكربلاء، للحكيم محمد كاظم اللكنهوي، وهو مطبوع بالأردو، ودقّ الخيشوم في جواز قراءة عرس القاسم المظلوم، لبعض علماء الهند، وهو رد على التقرير الحاسم، وكتاب القاسمية في تحقيق عرس القاسم بن الحسن عليه السلام، لتاج العلماء السيد علي محمد اللكنهوي المتوفى (١٣١٢) هـ.

أمّا النّافون فدوّنوا رأيهم في عدّة من تأليفاتهم، منها كتاب اللؤلؤ والمرجان للمحدّث الشيخ النّوري رحمه الله، وكتاب الملحمة الحسينيّة المنسوب للشيخ المطهّري رحمه الله، وكتاب منية الخطيب للسيّد شعاع فاخر، وكتاب تراجيديا كربلاء لإبراهيم الحيدري، والتقرير الحاسم لعرس القاسم للسيد ظهور حسين البارهوي اللكنهوي المتوفّى سنة (١٣٥٧) هـ، وكتاب قول صواب في نفي عرس القاسم للسيد ظهور الحسين، بلسان الأردو، وكتاب البيان المبرهن في عرس القاسم بن الحسن عليه السلام للسيد الحاج ميرزا علي بن السيد الحجة ميرزا محمد حسين المرعشي الحائري الشهير بالشهرستاني، المتوفى سنة (١٣٤٤) هـ وهو مطبوع، وكتاب جواب السؤال عن عرس القاسم عليه السلام للميرزا علي بن الميرزا محمد حسين الحسيني الحائري الشهرستاني المتوفى في (١٣٤٤) هـ.

وأسرار الشّهادة وروضة الشّهداء، ومن كتب النّافين اللؤلؤ والمرجان والملحمة الحسينيّة ومنية الخطيب وتراجيديا كربلاء، وقد كذّب الشيخ المطهّري رحمه الله الحادثة تبعاً للشّيخ النّوري رحمه الله وتبعهم أغلب الباحثين والنّاقلين، فيمكننا مناقشة حجّة النّافين من خلال كلمات الملحمة الحسينيّة فهي المرجع في هذا الصّدد.

وفيه: .. "إن وقائع المعركة التاريخية واضحة المعالم تماماً ومليئة بالفخر والعزة والمجد، ولكنّنا شوّهنا هذه الصّفحة التّاريخية المشرقة وارتكبنا خيانة كبرى بحق الإمام الحسين عليه السلام بحيث إنه لو ظهر إلى عالم الوجود المادي اليوم لاتّهمنا بقلب حقيقة الواقعة رأساً على عقب، ولقال: إنني لستُ ذلك الحسين الذي رسمتموه في خيالكم، وإن القاسم بن الحسن الذي صورتموه، وعلي الأكبر الذي رسمتموه في مخيّلتكم ليس هو ذاك الابن الأصيل من صلب الحسين، والأعوان الذين تتحدثون عنهم ليسوا بأعواني وأصحابي في يوم عاشوراء.

نعم فنحن قد صورنا القاسم ذلك العريس الذي لا همّ له إلاّ البحث عن زوجة ولا همّ لعمه أيضاً سوى تزويجه! فهل حاولتم مرة أخرى مقارنة هذا القاسم الذي اختلقتم شخصيته مع الشخصية التاريخية الحقيقية "(١).

وقال أيضاً: " الحاج نوري يذكر تحريفاً آخر أسوأ ممّا سبق، ويقول: تصوّروا في ذلك اليوم القائظ جداً من عاشوراء وتحت حرارة الشمس الحارقة وفي الوقت الذي لم يترك الأعداء فيه مجالاً لإقامة الصّلاة، وعندما أراد الإمام إقامة صلاة الخوف وقد أقامها بتلك العجلة المعروفة، فإنه لم يسلم من سهام الأعداء إلاّ بعد

---

(١) راجع الملحمة الحسينية (١/ ٢٤).

أن جعل اثنان من أصحابه من جسديهما مجنّاً يحميه، وقيل إنهما هلكا من كثرة الرّماح التي أصابتهما حتى انتهى من تأدية ركعتي صلاة الخوف.

ففي مثل هذا الجو الإستثنائي وفي تلك الحالة تصوروا الحسين وهو يطلب من أهله وأنصاره أن يقيموا له حفل عرس ليزوّج القاسم من إحدى بناته، وهي الرغبة التي لا يريد أن يحملها معه إلى القبر!!

تصوّروا - بالله عليكم - هذا الكلام الذي كثيراً ما يتردد على لسان بسطاء الناس الذي يتمنّون رؤية عرس ابنهم أو بنتهم قبل موتهم، فينسبونه إلى شخص كالحسين بن علي عليه السلام وهو في خضم المعارك، وفي ذلك اليوم التاريخي الذي لا مجال فيه حتى لإقامة الصلاة، يطلب رؤية عرس القاسم من إحدى بناته.

نعم أنهم يتقوّلون على الحسين بأنه يريد تزويج ابن أخيه من بنته وإقامة حفل زواج لهما مهما كان مصغراً في ذلك اليوم بالذات، لأنه قد يرحل من هذه الدنيا وبالتالي تذهب معه هذه الرغبة إلى عالم الآخرة!!

عرس القاسم!! وهل هناك من لم يسمع في كل تعزية من التعازي الحسينية بعرس القاسم، هذا العريس الشاب صهر الإمام الحسين في يوم عاشوراء!! إنه اختلاق محض لا وجود لأي أساس له في كل الكتب المعتبرة، لكنّه كما يكتب الحاج نوري فإنّ أول من أدخل هذه القصة في التاريخ الحسيني المزوّر هو الملا حسين الكاشفي في كتابه روضة الشهداء "[1].

(١) راجع الملحمة الحسينية (١/٢٠).

وتقدّم الكلام حول المولى الكاشفي رحمه الله وكتابه روضة الشهداء، وسنورد نصّ ترجمة الرّواية التي أوردها من كتابه الفارسي، ولا ننكر أنّ كتابه هو أقدم مصدر بين أيدينا قد روى الحادثة فيما نعلم، وعليه فيحتمل أن يكون هو مصدر المنتخب في النقل، كما يحتمل أن يكونا قد نقلا عن مصدر آخر، واعتاد الكاشفي رحمه الله في كتابه على صياغة الوقائع صياغة أدبيّة خاصّة مطعّمة بأبيات من الشعر والحماسة، فإذا حذفنا أبيات الشعر وعرّبنا روايته عن الفارسية يكون النصّ بهذا الشّكل:

يقول الرّاوي: لّما نظر القاسم بن الحسن عليه السلام إلى وجه أخيه الذي كان زهرة وادعة في الروض وقد ذبلت بشوكة تلك الحادثة الفتاكة تأوه وأقبل نحو عمه العزيز، وقال باكياً وقد احترق قلبه من نار الحسرة: يا مولاي، ويا إمام الكون، ليس لي طاقة بفراق الأقارب (الأحبة)، ولقد أنزلني الزمان من سرير بهجتي إلى تراب الغم والمصيبة، فأذن لي لكي أنفّس عن الغل الذي خلفه مقتل أخي، ولكي أجيب طلب أهل الضّلال بحد السنان.

فقال الإمام الحسين عليه السلام: يا عزيز عمه، إنك الذكرى من أخي، وأنت أنيس قلبي في هذه الصحراء، فكيف آذن لك وأضع حرقة فراقك في صدري، وخرجت أمّ القاسم من الخيمة مهرولة واحتضنت بيديها ولدها وصاحت: يا من حل محل قلبي ارفق بي، ولا تبتعد عن ناظري، ولأنك دواء لقلبي فكن دواء عيني.

والقصة: أن القاسم لم يحظ بإذن الحرب، وكان إخوة الحسين يتهيئون لخوض الحرب، فجاء القاسم إلى الخيمة ووضع رأسه على ركبتيه مهموماً، وحينها تذكر أن أباه قد ربط عوذة على ذراعه، وكان قد أخبره: حينما يكون

الغم عليك شديداً وأحاط بك اليأس فحل هذه العوذة واقرأها واعمل بما فيها.

فقال القاسم لنفسه: طوال فترة حياتي لم يصبني مثل هذا الحال، ولم يلم بي غم كهذا، لأقرأ هذا التعويذ وأفهم ما فيه، فحلّ العوذة من ذراعه وفضّها فرأى مكتوباً فيها وبخط يد الإمام الحسن عليه السلام: يا قاسم أوصيك إذا رأيت أخي وعمك الإمام الحسين عليه السلام في فلاة كربلاء، وقد ابتلي بأهل الشام الملعونين وأهل الكوفة الغادرين فانهض وضع رأسك عند أقدامه وابذل روحك رخيصة، وكلّما منعك من القتال معه فبالغ في طلبك وازدد في إلحاحك، فإن فداء الحسين عليه السلام مفتاح باب الشهادة وطريق لإدراك السعادة.

وحينما قرأ القاسم هذه الوصية لم يتمالك نفسه من شدة الفرح، فنهض من مجلسه على الفور وتوجه نحو الإمام الحسين عليه السلام وهو يقبل تلك العوذة حال تسليمها، وحينما نظر الإمام الحسين في تلك الرسالة، زفر وتأوّه وانتحب بصوت عال، ثم قال: يا بن الأخ، إن هذه وصية أبيك إليك، وأنت تريد العمل بها، وإن لي وصية أخرى منه لك، وإنني أريد العمل بها، فتعال معي إلى هذه الخيمة ونعمل بتلك الوصية.

ثم أخذ بيد القاسم إلى الخيمة وطلب إخوته عونا والعبّاس، وقال لأم القاسم: ألبسي القاسم ثيابه الجدد، وقال لأخته زينب: ائتيني بعيبة أخي في الحال، فأحضروه له، ففتح رأس الصندوق، وأخرج منه قباء ثميناً للإمام الحسن عليه السلام وألبسه القاسم، ووضع على رأسه عمامة الإمام الحسن عليه السلام بيديه المباركتين، وأخذ بيد البنت المسماة للقاسم، وقال: وإن هذه أمانة أبيك التي أوصاك بها، ولقد كانت عندي حتى هذه الساعة سلوة، ثم عقد البنت له،

ووضع يدها بيد القاسم وخرج من الخيمة.

وكان القاسم ممسكاً بيد زوجته ويبكي في وجهها، ثم يومىء برأسه نحو الأرض، وإذا به يسمع صيحة من جيش عمر بن سعد: هل من مبارز؟ رفع القاسم يده عن يد زوجته وأراد الخروج من الخيمة، فأمسكت زوجته بذيله وقالت: يا قاسم، ما الذي يدور في خلدك؟ وإلى أين أنت عازم؟ قال القاسم: يا نور عيني، إنني عازم على الميدان، وهمتي محاربة الأعداء، فاتركي ذيلي فإن عرسنا قد تأجل إلى الآخرة.

فقالت الزوجة: إنك تقول أن عرسنا قد تأجل للقيامة، فأين ألقاك في غد القيامة؟ وبأي علامة أعرفك؟ فقال: اطلبيني عند أبي وجدي، واعرفيني بهذا الكم المقطوع، ثم مد يده وقطع كمّه وخرج عن زوجته مسرعاً[1].

ويمكننا أن نقارن بين رواية "الرّوضة" وبين رواية "المنتخب" بشكل دقيق، والرّواية كما في المنتخب: "ونقل أيضاً: لمّا آل أمر الحسين إلى القتال بكربلاء وقتل جميع أصحابه ووقعت النّوبة على أولاد أخيه جاء القاسم بن الحسن وقال: يا عمّ، الإجازة لأمضي إلى هؤلاء الكفرة، فقال له الحسين عليه السلام: يا بن الأخ، أنت من أخي علامة، وأريد أن تبقى لأتسلى بك، ولم يعطه إجازة للبراز. حزين القلب، وأجاز الحسين إخوته للبراز ولم يجزه، فجلس القاسم متألّما، ووضع رأسه على رجليه، وذكر أن أباه قد ربط له عوذة في كتفه الأيمن، وقال له: إذا أصابك ألم وهمّ فعليك بحل العوذة وقراءتها وفهم

(١) راجع روضة الشهداء ص (٤٠٠).

معناها، واعمل بكل ما تراه مكتوبا فيها.

فقال القاسم لنفسه: مضى سنين علي، ولم يصبني من مثل هذا الألم، فحل العوذة وفضّها ونظر إلى كتابتها، وإذا فيها: يا ولدي قاسم، أوصيك إذا رأيت عمك الحسين عليه السلام في كربلاء وقد أحاطت به الأعداء، فلا تترك البراز والجهاد لأعداء رسول الله، ولا تبخل عليه بروحك، وكلّما نهاك عن البراز عاوده ليأذن لك في البراز لتحظى بالسعادة الأبدية.

فقام القاسم من ساعته، وأتى إلى الحسين عليه السلام وعرض ما كتب الحسن عليه السلام على عمه الحسين عليه السلام، فلمّا قرأ الحسين عليه السلام العوذة بكى بكاءً شديداً، ونادى بالويل والثبور، وتنفس الصعداء، وقال: يا بن الأخ، هذه الوصيّة لك من أبيك، وعندي وصية أخرى منه لك ولابد من إنفاذها، فمسك الحسين عليه السلام على يد القاسم وأدخله الخيمة، وطلب عوناً وعباساً، وقال لأم القاسم: ليس للقاسم ثياب جدد؟

قالت: لا. فقال لأخته زينب: إيتيني بالصندوق، فأتته به ووضع بين يديه، ففتحه وأخرج منه قباء الحسن، وألبسه القاسم، ولفّ على رأسه عمامة الحسن، ومسك بيد ابنته التي كانت مسماة للقاسم، فعقد له عليها، وأفرد له خيمة، وأخذ بيد البنت ووضعها بيد القاسم وخرج عنهما.

فعاد القاسم ينظر إلى ابنة عمه ويبكي، إلى أن سمع الأعداء يقولون: هل من مبارز؟ فرمى بيد زوجته وأراد الخروج، وهي تقول له: ما يخطر ببالك؟ وما الذي تريد أن تفعله؟ قال لها: أريد ملاقاة الأعداء فإنهم يطلبون البراز،

وأني أريد ملاقاتهم، فلزمته ابنة عمه، فقال لها: خلّي ذيلي، فإن عرسنا أخرناه إلى الآخرة !!

فصاحت وناحت وأنّت من قلب حزين ودموعها جارية على خدّيها، وهي تقول: يا قاسم، أنت تقول عرسنا أخّرناه إلى الآخرة، وفي القيامة بأي شيء أعرفك ؟ وفي أي مكان أراك ؟ فمسك القاسم يده وضربها على ردنه وقطعها، وقال: يا بنة العم، إعرفيني بهذه الردن المقطوعة، قال: فانفجع أهل البيت بالبكاء لفعل القاسم وبكوا بكاءً شديداً، ونادوا بالويل والثبور "[1].

أما النّص الذي ذكره النسّابة ضامن بن شدقم الشدقمي الحسيني رحمه الله المتوفى بعد الشيخ الطريحي رحمه الله بفترة قصيرة فهو التالي:

" قد حضر مع عمه الحسين عليه السلام وقعة الطّف، فاستأذنه في البراز، فقال له عليه السلام: يا بن أخي أنت لي من أخي علامة، فأريد أن تبقى لأتسلّى بك، فجلس مهموماً مغموماً واضعاً رأسه بين ركبتيه، حزين القلب باكياً.

فذكر أن أباه عليه السلام قد عقد له عوذة في عضده الأيمن، وقد قال له: يا بني، إذا أصابك ألم أو هم فحلّها واقرأها وافهم معناها واعمل بكل ما تراه مكتوباً فيها، فعند ذلك حلّها وقرأها، فهذا ما وجده مكتوبا فيها: يا ولدي يا قاسم أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإذا رأيت عمك الحسين عليه السلام بكربلاء وقد أحاطته الأعداء، فاطلب منه البراز ولا تترك الجهاد بين يديه على أعداء الله ورسوله وأعدائه، ولا تبخل عليه بروحك، فإذا نهاك فعاوده حتى يأذن لك لتحظى

---

(١) راجع منتخب الطريحي ص (٣٦٥)، عنه مدينة المعاجز للبحراني (٣/٣٦٦) المعجزة الرابعة والثمانون برقم (٩٣١ / ٩٣)، وأسرار الشهادة.

بالسعادة الأبدية.

فنهض القاسم إلى عمه وعرض عليه العوذة، فتنفس الصعداء، وقال له: يا بني، هذه وصية لك من أبيك، وعندي وصية أخرى منه لك، فلابد من إنفاذها، ثم نهض عليه السلام آخذا بيده وبيد أخويه عون والعباس ودخل بهم الخيمة، وأمر أخته زينب بإحضار الصّندوق، وفتحه واستخرج منه قباء أخيه الحسن عليه السلام وعمامته، فألبسهما القاسم وعقد له على ابنته، وأدخله عليها وخرج عنهما.

فجعل القاسم ينظر إليها وهو يبكي، فسمع القوم ينادون هل من مبارز؟ يا قوم ما من مبارز؟ إن القوم قد ذلّوا، فنهض مسرعاً يقول: إن هذا وقت البراز إلى القتال، ليس فيه أعراس ولا حطّة عقال، وسنلتقي إن شاء الله الواحد المتعال "[1].

وبين الروايات الثلاثة تفاوتٌ في بعض المفردات، إلاّ أنّها واحدة في اتحاد المؤدّى، ويحتمل أن يكون الأصل للكتابين العربيّين هو الروضة الفارسي، واختلافهما باللفظ يقوّي احتمال ترجمة النّص عنه أو عن مصدر فارسي آخر، كما يحتمل إعتماد المصادر الثلاثة على مصدر رابع مفقود.

وقد حامت حول هذه الرّواية إشكالات عدّة..

❖ لم تُنقل هذه الرواية عن كتاب قبل كتاب الطّريحي رحمه الله والمقاتل المشهورة خالية منها، ممّا يشكّك في صحّتها، ويمنع من الإعتماد عليها.

الجواب : إنّ خلو المقاتل منها لا يؤدّي إلى كذبها بحال، ومن يستطيع إدّعاء

---

(١) في تحفة اللباب في ذكر نسب السادة الأنجاب لضامن بن شدقم الحسيني رحمه الله ص (٢١٧).

استقصاء جميع كتب المقاتل والبحث فيها، ونحن نعلم جزماً بوجود كتب كثيرة كانت متاحة عند من سبقنا وهي مفقودة الآن، ولا زالت آلاف المخطوطات ترزح على أرفف المكتبات الخاصّة في شتّى الأماكن، وقد قيل إنّ " عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود "، ومن الطّبيعي أن ينفرد كلّ مصدر منها بنقل خاص، كما تتفاوت كتب الحديث بالنقل في ما بينها.

ويدري البصير أنّ أغلب كتب الحديث والتاريخ تنفرد ببعض الأخبار الخاصة فيها، بل وتنحصر بعض النصوص في كتاب منها لا توجد في غيرها، فلماذا لا تكون رواية زفاف القاسم عليه السلام من هذا القبيل؟ ولماذا يتسارع البعض للطّعن فيها دون سائر أخبار الأحاد الأخرى!

هذا بعد التسليم بجلالة الشّيخ الطريحي رحمه الله وتنزيهه عن الإختلاق والجعل، فمكانته تقوّي احتمال حيازته مصادر خاصّة لم تصل إلينا، كما نقلَ السيّد ابن طاووس رحمه الله في الإقبال عن كتب مفقودة لدينا اليوم، كالمرشد وكتاب النبوة للصدوق والأمالي للشيباني والرسالة العزية للمفيد والتعريف للصفواني، وبعض هذه المصادر كان موجوداً قبل ثلاثة قرون عند العلاّمة السيد هاشم البحراني رحمه الله ونقل عنها في كتابه مدينة المعاجز.. وقد عرفت أنّ الشيخ الطريحي رحمه الله لم ينفرد برواية زفاف القاسم بن الحسن عليه السلام، وقد رواها علَمَان آخران.

❖ وأشكل عليها بضعفها، وقيل أنّها موهونة بالإرسال.

الجواب: معلومٌ أنّ ضعف سند الرّواية وإرسالها لا يعني كذبها بحال، وكتبنا المعتبرة مملوءة بالمراسيل، وهذا سيّال على كلّ ما يرويه الشّيخ المفيد رحمه الله في

الإرشاد وابن طاووس رحمه الله في اللهوف، فكلّها مراسيل، وسنبيّن قريباً الضابطة في قبول الرّوايات والأخبار، وستعرف أنّ الرواية التاريخية لا يُنظر فيها إلى صحة السّند إن خلت من الخلل في مضمونها، بخلاف روايات الأحكام الإلزاميّة.

❖ زعم وضعها ودسّها في المنتخب..

الجواب: نعم، ادّعى السيّد المقرّم رحمه الله في مقتله أنّ رواية العرس مدسوسة في كتاب المنتخب وموضوعة عليه! فقال: "والشيخ فخر الدين الطّريحي عظيم القدر، جليل في العلم، فلا يمكن لأحد أن يتصوّر في حقه هذه الخرافة، فثبوتها في كتابه المنتخب مدسوسة في الكتاب، وسيحاكم الطريحي واضعها في كتابه "[1].

وزاد الشيخ ذبيح الله المحلاتي رحمه الله: " وما جعلوه سنداً لهم في الألسنة من أن الطريحي في منتخبه ينقل القصة عن غيره، فإنه - أي الطريحي - يقول: إن هذه القضية لم نظفر بها في الكتب المعتبرة والروايات المعتمدة، ولا شك أن هذه العبارة لها دلالة صريحة في أن الطّريحي نفسه لم يعتمد على ذلك النقل "[2].

وهي دعوى فارغة من البرهان، مستندةٌ إلى التخرّص المحض، خصوصاً وإنّ المولى الكاشفي رحمه الله كان قد نقل الرّواية في روضته قبل الطريحي رحمه الله بما يقرب من المئتين عاماً، ويحتمل أن يكون الطريحي رحمه الله قد نقلها من كتاب ترجم رواية العرس عن الرّوضة، كما يحتمل أنّه نقلها من كتاب آخر معتبر عنده، ونقلها ابن شدقم رحمه الله بعده بمدّة يسيرة، ولو احتملنا جدلاً دسّها فيه فما يضيرنا مع نقلها في

(١) راجع مقتل الحسين للمحقّق السيّد عبد الرزّاق المقرّم ص (٢٦٤) هامش (٤).

(٢) راجع فرسان الهيجاء (٢/ ٣١).

مصدر أقدم من المنتخب وورودها في مصدر آخر.

وأما دعوى الشّيخ الحلاتي رحمه الله فإنّها غريبة جدّاً، وقد نقلنا نص رواية المنتخب وليس فيها تلك العبائر التي نسبها إليه، والله أعلم.

❖ وأشكل بأنّها لم تُنقل قبل كتاب روضة الشّهداء ولا حتّى إجمالاً..

الجواب : هذا إشكال مبنيّ على مقدّمة مخدوشة، وهي أنّ تفاصيل حادثة كربلاء وصلت إلينا كاملة ولم يفتنا منها شيء، والحال أنّنا إذا ضَمَمنا مختلف المصادر إلى بعضها قد ننتهي إلى صورة متكاملة بعد سدّ ثغورها بإيصال ما تقطّع من سلسلتها، ومع هذا فيمكن أن نعثر على مصدر ينفرد ببعض التفاصيل التي لم تُذكر في المصادر التي بأيدينا، ومن غير الدّقّة أن يُقال " لم يَرد " أو " لم يُنقل "، إذ لا يمكن لباحث مهما بلغ توسّعه أن يدّعي الإطّلاع على جميع المصادر والكتب بتفاصيلها، وبالتّالي فإنّه لا يمكنه رمي ما رواه غيره بالكذب والبطلان.

وهذا يقوّي الإحتمال الوارد بكون الكاشفي رحمه الله قد عثر على بعض الكتب التي دوّنت الرّواية وقام بالنقل عنها، ولا يمكن الجزم بعدمه.

❖ وأُشكل بأنّ ناقل الرواية " الكاشفي رحمه الله " مشكوك في مذهبه ..

الجواب : قد قدّمنا الكلام في هذه النقطة، وذكرنا أقوال كبار العلماء فيه وجزمهم بتشيّعه، وهي دعوى لا تُسقط الكتاب على كلّ حال عن الإعتبار.

❖ وأُشكل بعدم الإنسجام بين أجواء العرس والأفراح وبين أجواء الأحداث الدّامية ليوم عاشوراء وترادف المصائب والمحن على الإمام الحسين عليه السلام.

الجواب : القصّة التي نقلتها المصادر لا تشتمل على أكثر من تنفيذ الإمام الحسين عليه السلام وصيّة أخيه الإمام الحسن عليه السلام، وليس فيها شيء من أجواء الفرح التي قد تُتَوهّم، ويمكن الإستغراب فيما إذا لم تُنفّذ وصيّة الإمام عليه السلام مع القدرة عليها وليس العكس، إذ لم يتجاوز العرس إلباسه عليه السلام لباس أبيه عليه السلام والعقد بينه وبين البنت المسماة له ووضع يده في يدها والخروج من الخيمة، ومن الواضح أنّ كلّ ذلك لا يتجاوز الدّقائق، مع مراعاة مقتضى الحرب.

وقد درَج أهل العزاء على استعمال تعبير العُرس في خصوص مصيبة القاسم عليه السلام في إشارة إلى إحدى الجهات المهيّجة للحزن فشاع هذا المصطلح، وإلاّ فالرّواية تصرّح بأنّه قد أُخّر إلى الآخرة، وهو تصريح أوضح بنفي حصول العُرس المتعارف في يوم الطّف، وأن الذي جرى كان مجرد عقد زواج.

❖ وأشكل بكونه عليه السلام لم يبلغ الحلم فكيف تصح نسبة الزواج إليه ؟

الجواب : وما المانع في ذلك؟ وقد اتّفق الفقهاء على صحّة تزويج الصبي والصبية إذا لم يصلا إلى سن البلوغ، وأن الصبيّة تكون زوجة للمتزوج بها سواء كان الزوج بالغا أم لا، وتترتّب عليهما أحكام الزّوجية كاملة، وللزّوج كلّ الإستمتاعات فيما عدا الوطأ، وعليه فإنّ هذا الإشكال مدفوع فقهيّاً.

وأمّا جواب الإشكال الوارد في بعض الكتب الفقهيّة من أنه لا ولاية للوصي في تزويج الصبي غير البالغ حتى مع نص الموصي بذلك على الأشهر، فهي مسألة خلافيّة استوى طرفا الخلاف فيها، وذهب إلى جوازها جمعٌ من الفقهاء، منهم الآيتين الشيخ محمد حسن النجفي رحمه الله في الجواهر والسيّد الخوئي رحمه الله.

❖ وأُشكل بكون بنات الإمام الحسين عليه السلام ثلاثة، وهن " فاطمة " وكانت تحت حُبالة الحسن المثنى و" سكينة " ولم تكن في حدّ الزواج و " رقية " وكانت صغيرة.

وقال الشيخ محمد تقي التستري رحمه الله : وما اشتهر من تزوجه فقصة، وليس للحسين عليه السلام إلاّ فاطمة واحدة، وقد زوّجها قبل من أخيه الحسن المثنّى[١].

وقال الشيخ ذبيح الله المحلاتي رحمه الله : ولا شك أن فاطمة بنت الحسين كانت زوجة للحسن المثنى، وكان زوجها حاضراً في كربلاء، فكيف يمكن أن يكون هناك أساس وأصل لهذا النقل ؟! ولم يكن للإمام الحسين عليه السلام في كربلاء بنت أخرى باسم فاطمة[٢].

الجواب : الإشكال مبنيّ على مقدّمة مخدوشة، وهي عدم صحة تزويج الصّغيرة، ويقابل هذا الرّأي عشرات الأدلة الفقهية التي تجيز ذلك!

مضافاً إلى وقوع الخلاف بين الأعلام في عدد بنات الإمام الحسين عليه السلام ، وأمّا الشيخ المفيد رحمه الله فيقول: " وسكينة بنت الحسين، وأمها الرباب بنت امريء القيس بن عدي، كلبية معدية، وهي أم عبد الله بن الحسين عليه السلام ، وفاطمة بنت الحسين عليه السلام وأمها أم إسحاق بنت طلحة بن عبد الله، تيميّة "[٣].

وأما ابن أبي الثلج البغدادي رحمه الله المتوفى سنة ٣٢٥ هـ فقد حددهن في كتابه

---

(١) راجع قاموس الرجال (٤٦٦/٨).

(٢) راجع فرسان الهيجاء (٣١/٢).

(٣) راجع بحار الأنوار (٣٢٩/٤٥) عن الإرشاد للشيخ المفيد رحمه الله.

تاريخ الأئمة في ثلاثة: زينب، وسكينة، وفاطمة[١]. وأيّده ابن شهراشوب رحمه الله في المناقب، وقال الطبرسي رحمه الله في تاج المواليد أنّهن اثنتين: فاطمة وسكينة، ومثله العلامة الحلي رحمه الله في المستجاد من الإرشاد، ونقل الأربلي رحمه الله في كشف الغمة أنه كان للحسين عليه السلام أربع بنات.

والإختلاف مطّردٌ كذلك في عدد أولاد بعض الأئمة عليهم السلام، واختُلف في عدد أولاد الإمام السجاد عليه السلام، فابن الخشاب رحمه الله قال أنّ له ثمانية أولاد وليس له بنات، ونقل الأربلي رحمه الله قولاً بأنه كان له تسعة أولاد ذكور ولم يكن له أُنثى، وقال ابن شهراشوب رحمه الله أنهم اثنا عشر، ثم نقل الاختلاف في بناته بين قائل بعدم وجود بنات له وقائل بوجود بنت واحدة اسمها خديجة، وقائل بوجود ثلاث بنات: فاطمة وعلية وأم كلثوم، ونقل الشيخ المفيد رحمه الله وجود قول بأن عدد أولاده أربعة عشر، عشرة منهم ذكور، والإناث أربعة، ونقل قولا آخر بأن عدد أولاده خمسة عشر ولدا[٢].

والتفاوت بين المصادر في عدد أولاد الإمام الحسين عليه السلام يتيح مساحة أكبر من احتمالات إمكان وجود بنت مسمّاة باسمه عليه السلام بينهنّ، وليس بين أيدينا ما ينفي وجود من بلغت سن الزواج بينهنّ غير فاطمة بنت الحسين عليه السلام، وظاهر بعض الأخبار خلاف ذلك.. ونقل السيّد المقرم رحمه الله أنّ الحسن بن الحسن بن أمير المؤمنين عليه السلام أتى عمّه الحسين عليه السلام يخطب إحدى ابنتيه فاطمة وسكينة، فقال

(١) مجموعة نفيسة ص (١٨).

(٢) راجع البحار ج٤٦ ص١٥٥.

له الإمام عليه السلام : أختار لك فاطمة، فهي أكثرهما شبها بأمي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، أما في الدين فتقوم الليل كله وتصوم النهار، وفي الجمال تشبه الحور العين، وأما سكينة فغالب عليها الإستغراق مع الله تعالى فلا تصلح لرجل[1].

وهذا يعني أنّ سكينة عليها السلام كانت في سنّ الزّواج قبل واقعة الطّف، وإلاّ لما خطَبها الحسن من أبيها، ولو لم تكن في سنّ الزّواج لذكر له الإمام الحسين عليه السلام ذلك، فيرتفع بذلك المحذور في زواج القاسم عليه السلام بسكينة عليها السلام في كربلاء من هذه الجهة، إلاّ أن بعض علماء النسب والتاريخ ذكروا أنها كانت زوجة لعبد الله الأكبر ابن الإمام الحسن عليه السلام أخ القاسم[2].

وليُعلم أنّني لستُ في صدد إثبات زواجه بأحدهنّ تحديداً، فرواية الزّفاف لم تذكر اسم البنت المسماة للقاسم حتى يوهنها كلّ ذلك، فربّما زوّجها أصغر بناته مثلاً، وقد أتاح الإختلاف في عددهنّ فرصة كافية لاحتمال وقوع القصّة.

❖ وقد يُقال أخيراً: ما هو الدّاعي أو الجدوى لتزويج الإمام الحسين عليه السلام ابنته المسمّاة بابن أخيه القاسم عليه السلام مع علمه الحتمي بشهادته..

الجواب : في الرّد على هذا السؤال وجوهٌ ..

. **منها**: أداء وصيّة أخيه الإمام الحسن عليه السلام وإدراكها بالقدر الممكن، ولو كان في ذلك الظرف العصيب، وهذا وجهٌ ظاهر حتّى في نفس الرّواية.

---

(١) راجع السيّدة سكينة ابنة الإمام الحسين عليه السلام ص (٤٣) عن إسعاف الرّاغبين للصبان الوارد بهامش نور الأبصار ص (٢٠٢).

(٢) راجع السيّدة سكينة ابنة الإمام الشهيد أبي عبد الله الحسين عليه السلام ص (١١٠).

. ومنها: أنّه عليه السلام يعلّمنا كيف نستثمر الحياة ما دمنا فيها، عبر منطق الدّين الذي يأمر بغرس فسيل النبت في الأرض وإن صاحت القيامة، فالزّواج أمر محبوب في نفسه وإن كان في ظرف عصيب، والمستحب مستحبٌّ في كلّ حال.

. ومنها: أنّه عليه السلام ربّما أراد أن يسمو بابن أخيه إلى عالي درجات الشّهادة، فإذا كانت صلاة المتزوّج مضاعفة فلا يبعد أن تكون سائر عباداته كذلك، وفي توجّع القاسم عليه السلام بترك زوجته وقصده حومة الميدان ما يرفع الله تعالى به درجته فوق درجته إن لم يكن متزوّجاً، وقد اختار الله تعالى له هذا المقام.

. ومنها: أراد الإمام عليه السلام لإبنته أن تكون له زوجة في الجنّة، وتقترن بسيّد من سادات شهداء أهل البيت عليهم السلام، فتحظى برتبته في الآخرة وتكون في منزلته.

ووجوهٌ أخرى وأخرى.. تظهر عند التأمّل، وبالتّالي فإنّ قصّة الزّفاف في دائرة الإمكان حتماً، وحجج القاطعين بالنفي ضعيفة واهية، ولا شكّ من جواز قراءة رواية الزّفاف في المجالس بل ترقّى عدّة من الفقهاء إلى الإفتاء باستحبابه!

أمّا آية الله العظمى السيّد محسن الحكيم رحمه الله فإنه استُفتي في إدخال زفّة القاسم عليه السلام في المجالس الحسينيّة ومعها الشموع والحنّاء والخضرة والغرض إشعال الحزن بالصياح والعويل واستدرار الدموع، فهل في ذلك مانع في نظره؟

فأجاب بما نصّه: بسم الله الرحمن الرحيم، وله الحمد، لا مانع من ذلك، وفيه تذكرة للمصاب الأليم، والخطب الجسيم، فإنا لله وإنا إليه راجعون[1].

---

(١) صدرت الفتوى في ٢٤ شعبان ١٣٨٧ هـ ،راجع فتاوى علماء الدين حول الشعائر ص (١٨٣).

فلا مجالٍ يبقى للشّبهة المنسوبة للشيخ المطهري رحمه الله حينئذ، وقد بالغت "الملحمة الحسينية" في نقد والأخبار المنقولة على المنابر الحسينية فأصابت في بعضها وجانبت الصّواب في بعضها الآخر، واعتمدت في أكثر نقلها على الشّيخ النّوري رحمه الله وأثنت عليه غاية الثّناء، لكنّ حتّى هذا الأخير لم يسلم من طعنها ونقدها أيضاً!

تقول الملحمة الحسينيّة أيضا :

"المرحوم الميرزا حسين النوري أعلى الله مقامه وهو أستاذ المرحوم الحاج الشيخ عباس القمي والمرحوم الحاج الشيخ محمد باقر البيرجندي والمرحوم الشيخ علي أكبر النهاوندي، والحاج النور هذا محدّث نادر ومتبحّر في فن الخطابة والحديث، وصاحب حافظة ذهنية قوية جداً، ورجل حماسي، يملأ قلبه الإيمان، وله ذوق رفيع، لكن بعض كتبه كما يقال لم تكن تناسب شخصيّته ولهذا تعرض إلى اللوم، غير أن كتبه بوجه الإجمال جيده، وخاصة كتابه المعروف باسم اللؤلؤ والمرجان وهو من الكتب الجيّده جدّاً بالرغم من حجمه الصّغير"[(١)].

ويعني ببعض كتبه رحمه الله التي لا تناسب شخصيّته كتاب فصل الخطاب الذي يتناول فيه موضوع تحريف القرآن الكريم، والذي اتّخذه البعض باباً للطّعن على المذهب، وهو عالمٌ جليلٌ، لكنّه سُرعان ما سُلّطَت عليه سكاكين النّقد في نفس الكتاب: "من المؤسف هنا أيضاً القول بأن الحاج نوري نفسه ينقل لنا رواية

---

(١) راجع الملحمة الحسينية ص (١٢).

محرّفة ومختلقة حول الإمام زين العابدين عليه السلام، وهي الرواية التي تقول بأنه لما لم يبق للحسين عليه السلام من أنصار قام الإمام بزيارة خيمة الإمام زين العابدين عليه السلام بغرض الوداع، فقال له زين العابدين عليه السلام: يا أبي العزيز !! إلى أين وصل بك المطاف مع هؤلاء ؟

أي إن الإمام زين العابدين عليه السلام كان يجهل حتى تلك اللحظة ما جرى لأبيه، فقال له: إنّها الحرب يا بني !!

فقال له زين العابدين: وماذا حلّ بحبيب بن مظاهر ؟ قال: قُتل، وزهير بن القين ؟ قال قُتل، وبرُير بن خُضير ؟ قال: قُتل، وأين القاسم بن الحسن ؟

قال: قُتل، وأين أخي علي الأكبر ؟

قال قُتل، وأين عمي أبو الفضل العباس ؟

قال قُتل.

إن هذه الرواية تحريف وكذب وتزوير!

فالإمام زين العابدين عليه السلام لم يكن إلى هذا الحد مريضاً وفاقداً للوعي والعياذ بالله، حتى يكون غير قادر على متابعة أخبار المعركة !!

إن التاريخ يكتب لنا بأنه عليه السلام وهو في تلك الحال قد ذهب لعمته زينب وقال لها: عمّتاه أعطيني عصاي وسيفي لأذهب وأقاتل دون الحسين، وأن الذي نقل هذا القول هو شخص الإمام زين العابدين عليه السلام نفسه "[1].

---

(١) راجع الملحمة الحسينية ص (٤٥).

إرسال أخبار الطف

من الحقائق المهمّة المسلّمة أنّ وقائع عاشوراء وأحداث الطف المشهورة لم تصل إلينا مسندة بل وصلت مرسلة، وحتّى تلك المرويّة في الكتب المعتبرة عن طرُق الشّيخ المفيد رحمه الله والسيد ابن طاووس رحمه الله وأمثالهما فإنّها مرسلة، وتنقل المصادر الأخبار عن ابن جرير الطبري عن أبي مخنف، وهذا الأخير لم يحضر الواقعة أصلاً، ويعتمد في النقل على هلال بن نافع وحميد بن مسلم وهلال بن معاوية وغيرهم ممّن شهد الحرب في الجيش المقابل للإمام الحسين عليه السلام.

ولا يمكننا من الناحية العلميّة أن نفرّق أو نرجّح بين مراسيل الشيخ المفيد رحمه الله في الإرشاد وبين منقولات المرحوم المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار وغيره من المجاميع، سواء كان النقل مرسلاً أو عن بعض الثقاة أو بعض أصحابنا أو عن بعض الكتب القديمة أو بعض الكتب المعتبرة وشبه ذلك، كما أنّه لا يمكننا التّفريق بين منقولات كتب المتقدّمين وبين منقولات كتب المتأخّرين، مثل الفقيه العلاّمة الدّربندي رحمه الله، أو الفاضل الأديب الشيخ حسن بن الشيخ علي السعدي رحمه الله[1].

وقد روى السعدي رحمه الله مراسيل عن رواة مشايخ أهل الكوفة وصاغ ألفاظاً لها من شعره، فما الذي يَقصُر بها عن أن تكون في مستوى مراسيل منتخب

---

(١) وقد تقدّم الكلام في ترجمة المرحوم الدّربندي رحمه الله، أمّا الشّيخ حسن السّعدي رحمه الله فهو من كبار العلماء الأدباء، وله شعر كثير في مدائح أعيان عصره ومراثيهم، ومراجعات أدبية خالدة مع السيد حيدر الحلّي، وقد أكثر من رثاء سيد الشهداء عليه السلام لكنّ شعره نادر الوجود، وله كتاب في مقتل الحسين عليه السلام وقد أخفاه في حياته تحرّجاً، لأن بعض ما فيه لم يروه بلفظه، وتورّع عن النقل بالمعنى وقد صاغه بشعره وأدبه. (وقد تقدّمت ترجمته بنحو آخر)

الطريحي والدّمعة الساكبة! وبأيّ وجهٍ نسقطها عن الإعتبار مع العلم بوثاقة ناقلها وراويها وعلوّ شأنه ومقامه، ومن يستطيع الجزم بكذب هذه المراسيل أو تلك!.

نعم.. بعضها غير معلوم الصّدق، وهذا يشمل كلّ الأخبار بلا استثناء، وشتّان ما بين معلوم الكذب وبين غير معلوم الصّدق، فلو التزم الخطباء بنقل الخبر المعلوم الصّدق بالطّرق الظّاهرية المتّبعة في الأصول والحديث لانسدّ باب النقل وبطل الإحتجاج بأقوال كل المؤرّخين، وذلك ما لا يلتزم به عالم ولا جاهل.

ولدى النظر في كتب الأخبار نجد أنّ ما درج عليه العلماء والخطباء في النقل ناشيء من فحوى الرّوايات الواردة عنهم عليهم السلام.. إذ روي أنّ سفيان بن السّمط قال للإمام الصادق عليه السلام: جعلت فداك، إن الرجل ليأتينا من قبلك فيخبرنا عنك بالعظيم من الأمر، فيضيق بذلك صدورنا حتى نكذّبه.

فقال الإمام له: أليس عنّي يحدّثكم؟ فأجاب سفيان: بلى. فقال الإمام: فيقول للّيل أنه نهار والنهار أنه ليل؟ فأجاب سفيان: لا.. فقال الإمام: رده إلينا، فإنك إن كذّبت فإنما تكذّبنا[1].

ورُوِيَ في قرب الإسناد عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: أما والله إن أحب أصحابي إليّ أورعهم وأفقههم وأكتمهم لحديثنا، وإن أسوأهم عندي حالاً وأمقتهم إليّ الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروي عنّا فلم يعقله ولم يقبله قلبه اشمأز منه وجحده وكفر بمن دان به، وهو لا يدري لعل الحديث من

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٨٧/٢).

عندنا خرج، وإلينا أسند فيكون بذلك خارجا من ولايتنا[1].

---

(١) راجع بحار الأنوار (٢/١٨٦). وقد روي عن أهل البيت عليهم السلام الكثير من هذه الرّوايات التي تحذّر من المسارعة إلى تكذيب الخبر المروي عنهم عليهم السلام، فقد روي في بحار الأنوار (٢/١٨٦) عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام: لا تكذبوا بحديث أتاكم به أحد، فإنكم لا تدرون لعلّه من الحق. وروي في بحار الأنوار (٢/١٨٦) عن علي المسناني عن أبي الحسين عليه السلام: لا تقل لما بلغك عنا، أو نسب إلينا: هذا باطل، وإن كنت تعرف خلافه.

وروي في بحار الأنوار (٢/١٨٦) عن بصائر الدرجات بالإسناد إلى أبي بصير عن أبي جعفر أو عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تكذّبوا بحديث أتاكم أحد، فإنكم لا تدرون لعله من الحق فتكذبوا الله فوق عرشه.

وروي في بحار الأنوار (٢/١٨٦) عن قرب الإسناد بالإسناد إلى علي السائي عن أبي الحسن عليه السلام أنه كتب إليه في رسالة: ولا تقل لما بلغك عنّا أو نسب إلينا هذا باطل، وإن كنت تعرف خلافه، فإنّك لا تدري لم قلنا وعلى أي وجه وصفة.

وروي في بحار الأنوار (٢/١٨٦) عن قرب الإسناد إلى أبي يعقوب إسحاق بن عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى حصّن عباده بآيتين من كتابه، أن لا يقولوا حتى يعلموا، ولا يردّوا ما لم يعلموا، إن الله تبارك وتعالى يقول: **﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾**.

وروي في بحار الأنوار (٢/١٨٨) عن علل الشرائع بالإسناد إلى أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام قال: لا تكذّبوا بحديث آتاكم مرجئي ولا قدري ولا خارجي نسبه إلينا، فإنكم لا تدرون لعله شيء من الحق فتكذبوا الله عز وجل فوق عرشه.

وروي في بحار الأنوار (٢/١٨٨) عن معاني الأخبار بالإسناد إلى عبد الغفار الجازي قال: حدّثني من سأله يعني الصادق عليه السلام: هل يكون كفر لا يبلغ الشرك؟ قال: إن الكفر هو الشرك، ثم قام فدخل المسجد، فالتفت إليّ وقال: نعم، الرجل يحمل الحديث إلى صاحبه فلا يعرفه فيرده عليه فهي نعمة كَفَرَها ولم يبلغ الشرك.

الضابطة في نقل الأخبار

يحاول البعض النيل من قوّة مجالس الإمام الحسين عليه‌السلام بشتّى الطّرق، ومن المؤسف أن يتمادى آخرون فيرمون الخطباء بالكذب، فهذه تهمّة سيّالة على الخطباء والعلماء جميعاً، لسكوتهم وعدم نهيهم عن المنكر، فعدم إنكارهم دليل على صدق تلك الأخبار عندهم.

ولابدّ من تحقيق الضّابطة الشرعية في نقل الأحاديث والأخبار بوضوح تام حسب الموازين الفقهية الدّقيقة بشكل لا يقبل الشّك، ولابدّ أوّلاً من تعريف الكذب المحرّم، إذ لا إشكال في أنّ الكذب في المجالس لا يكون إلاّ بقراءة الخطيب كلاماً من نفسه، صاغ ألفاظه أو حرّف معناه أو نسبه إلى غير قائله في حين لم يرد في رواية مسندة أو مرسلة ولا نُقل في كتاب معتبر، ومثله أن ينقل بقرائته كلاماً زوّره الغير وافتعله مع علمه أو ظنّه بذلك.

والحال أنّه لم يُعهد في الخطباء الحسينيين تزوير الأخبار ولا نقل الكذب، فهم ينقلون عن الرواة والمحدّثين الموثوق بهم أو غير المعلوم عندهم كذب حديثهم، وعهدة مثل هذه الأحاديث على راويها وليس على ناقل روايته، فلا يُحكم بكذب الخطيب حينئذٍ وإن كان المقروء كذباً واقعاً، فهو لا ينقل معلوم الكذب.

هذا.. والخطباء يرقون المنابر الحسينية ويتلون مختلف تلك الأخبار بكرة وعشيّاً

→

وروي في بحار الأنوار (٢/ ١٨٩) عن الأربعمائة، قال أمير المؤمنين عليه‌السلام: إذا سمعتم من حديثنا ما لا تعرفون فردّوه إلينا، وقفوا عنده، وسلّموا حتى يتبيّن لكم الحق، ولا تكونوا مذاييع عجلى.

من غير نكير أحدٍ من العلماء قديماً وحديثاً، ولو أنّ العلماء كانوا يرون ذلك كذباً لأُنكر عليهم، لكنّهم لم ينكروه لأنّه ليس بكذبٍ بحسب القواعد الشرعيّة.

ومن الأهمّية بمكان أن يُعلم أنّ مادّة السّيرة الحسينيّة لا تحتوي أحكاماً إلزامية حتّى يُنظر في سندها ويشخّص أنّه من قسم الصحيح أو الموثق أو الحسن، كما أنّها لا تحتوى حكماً غير إلزامي ليُصار إلى تحكيم أخبار التسامح في أدلة السّنن فيها، وإنّما هي أخبار من سنخ الرّخص وإن لم تكن رخصاً حقيقة.

فالقصص والمواعظ والفضائل والمصائب وأخبار الوقائع من سنخٍ واحد، وهي مختلفة عن أخبار الأحكام الشرعيّة ولا يجري عليها حكمها، وبالتّالي فإنّه لا يلزم التصحيح أو التسامح فيها ولا ينبغي النّظر في سندها، فيمكن نقلها إذا أمنّا الضرر منها ووافقت فطرة العقل ولم تخالفها ولم تصطدم بعقيدة أو مسلّمة.

إلاّ أنّ بعض علمائنا أجرى التسامح في هذه الأخبار، فنسب الشهيد الأول رحمه الله في الذكرى إلى أهل العلم التسامح في أخبار الفضائل[١]، كما أنّ الشهيد الثاني رحمه الله نسب في شرح الدّراية إلى الأكثر جواز العمل بالخبر الضعيف في القصص والمواعظ والفضائل، واستحسن ذلك، ما لم يبلغ الخبر في الضّعف حدّ الوضع والإختلاق[٢].

وقال الشّيخ الأعظم الأنصاري رحمه الله في التنبيه الرابع من رسالته في مسألة التسامح بعد نقل العبارة المتقدمة عن الشهيد الثاني: " المراد بالعمل بالخبر

---

(١) راجع ذكرى الشيعة ص (٦٨).

(٢) راجع الرعاية ص (٩٤).

الضّعيف في القصص والمواعظ هو نقلها واستماعها وضبطها في القلب وترتيب الآثار عليها، عدا ما يتعلق بالواجب والحرام.

والحاصل أن العمل بكل شيء على حسب ذلك الشيء، وهذا أمر وجداني لا يُنكر، ويدخل في ذلك حكاية فضائل أهل البيت ومصائبهم.

ويدخل في العمل، أي العمل بالخبر الضّعيف في الفضائل والمصائب وشبهها الإخبار بوقوعها، أي الفضائل والمصائب من دون نسبة إلى الحكاية على حد الاجتهاد بالأمور المذكورة الواردة بالطّرق المعتمدة، كأن يقال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول كذا، ويبكي كذا، ونزل على مولانا سيد الشهداء كذا وكذا، ولا يجوز ذلك في الأخبار الكاذبة، وإن كان يجوز حكايتها فإنّ حكاية الخبر الكاذب ليست كذباً، مع أنّه لا يبعد عدم الجواز إلاّ مع بيان كونها كاذبة.

ثم إن الدليل على جواز ما ذكرنا من طريق العقل، حسن العمل بهذه الأخبار مع أمن المضرة فيها على تقدير الكذب، وأما من طريق النقل فرواية ابن طاووس، والنبوي، مضافاً إلى إجماع الذكرى المعتضد بحكاية ذلك عن الأكثر "[1].

---

(١) راجع الرسائل الفقهية للشّيخ الأنصاري ص (١٥٨).

ومراده من رواية ابن طاووس ما رواه في الإقبال ص (٦٢٧) عن الإمام الصادق عليه السلام قال: من بلغه شيء من الخير فعمل به، كان له أجر ذلك، وإن لم يكن الأمر كما بلغه.

ومراده بالنبوي ما نسبه الشهيد الثاني في الرعاية ص (٩٤) إلى النبي صلى الله عليه وآله من طريق الفريقين من أنه صلى الله عليه وآله قال: من بلغه عن الله فضيلة فأخذها وعمل بما فيها إيماناً بالله، ورجاء ثوابه، أعطاه الله ذلك، وإن لم يكن كذلك.

وتقدّم أنّ الإخبار مع النسبة إلى الرواية ليس كذباً، وإذا كان الخبر كذباً فهو من الراوي وليس من النّاقل، وحكاية الخبر الكاذب ليست بكذب، بل نقل الكفر ليس بكفر، وإنّما يُشكلُ فيما إذا أُخبر بوقوع حادث بلا نسبة إلى روايه، إلاّ إذا اعتقد المخبر بوقوع الحادث ولم يعدّه كذباً، ورُوِيَ في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام: إذا حدّثتم بحديث فأسندوه إلى الذي حدّثكم، فإن كان حقاً فلَكُم، وإن كان كذِباً فعليه[1].

وقال الفقيه الشيخ زين العابدين المازندراني رحمه الله في كتابه ذخيرة المعاد: " هل يجوز في الفضائل والمصائب القراءة بلسان الحال ومقتضى شاهد الحال، أم لا ؟ وعلى تقدير الجواز، هل يجب الإشعار والإعلام بذلك أم لا ؟ وإذا نقل أحدٌ حكايات الفضائل من كتاب غير معتبر أو لسان بعض القرّاء، هل يجوز ذلك أم لا؟ وهل على القاريء إسناده أم لا ؟

الجواب: ذكر المصائب بلسان الحال جائز إذا كان مناسباً للإمام عليه السلام، ولابدّ من الإشعار والإعلام بكونه لسان الحال، وإذا نقل من كتاب معتبر أو غير معتبر

→

ومراده من إجماع الذكرى قول الشهيد فيها ص (٦٨): أخبار الفضائل يتسامح بها عند أهل العلم.

والمراد بالاعتضاد بالحكاية عن الأكثر، مما نقلناه عن الشهيد الثاني من أن الأكثر جوّزوا العمل بالخبر الضعيف في نحو القصص والمواعظ وفضائل الأعمال، لا في صفات الله وأحكام الحرام والحلال، وهو حسن ما لم يبلغ حدّ الوضع والاختلاق. كما في الرعاية ص (٩٤).

(١) راجع الكافي (١/٥٢).

لابدّ من الإسناد إلى الناقل، ولا حاجة إلى تعيين الكتاب المنقول عنه "[١].

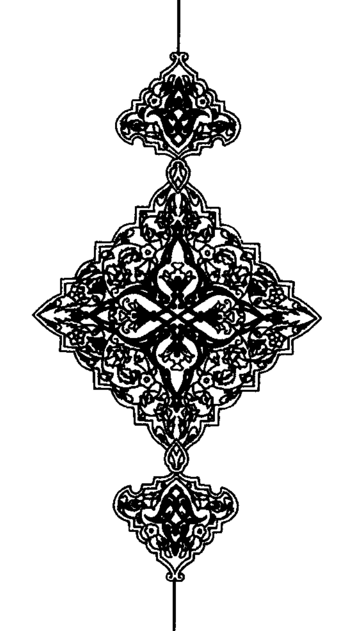
ومن هذا المنطلق فإنّه يُعلم الوجه فيما درج عليه علماؤنا وخطباؤنا قديماً وحديثاً من نقل الوقائع التاريخية مرسلة، إذ لا حاجة لتنقيح إسنادها أو النّظر فيها، فإذا نقل مؤرخ ما واقعة ما فلا يقال إنّها مكذوبة، لأنه لم يُسندها معنعنة إلى من شهد الواقعة، كما أنّه إذا نقل ناقلٌ الواقعة نفسها من ذلك الكتاب فلا يعدّ من ناقلي الكذب لمجرد نقله الخبر غير المسند.

ﮔﮔﮔ ﮕﮕﮕ

(١) راجع كتاب ذخيرة المعاد ص (٣٦٨ - ٣٦٩).

الشعيرة الرابعة

إنشاد الشعر





إنشاد الشعر

الحديث عن أهل البيت عليهم السلام حديث عن عاصمة مكارم العرب وجمجمة فضلها، بما تختزل هذه الأمّة من علم وأدب وشعر، فهم عليهم السلام المعدن الذي تتحدّر منه وشائج الفضائل والكرامات، وهم خُلاصة الإنسانيّة شرَفاً ورفعةً، فهم عليهم السلام الذين اختيروا من عين الكمال واصطُفوا من ذروة المجد الأثيل، فانتهت إليهم مكارم أسلافهم بشكل تلقائي وحازوا فضائل سلفهم، حيث لا يلحقهم لاحق ولا يسبقهم سابق!

أمّا الشّعر الذي يمثّل مرآة الأدب فإنّه لسانُ روح القدس في بيان فضلهم الباذخ، وهم من اصطفى الله خلقهم فتنشّبت أعراقهم على أفخر المزايا وأنقى السّرائر وأطهر الظّواهر والبواطن، فعلا عنصرهم فوق العناصر، وفاقت خلقتهم الخلق، فصلوات الله عليهم أجمعين..

في في الزّيارة الجامعة:

"طأطأ كل شريف لشرفكم، وبخع كل متكبّر لطاعتكم، وخضع كل جبار لفضلكم، وذلّ كل شيء لكم، وأشرقت الأرض بنوركم، وفاز الفائزون بولايتكم، بكم يسلك إلى الرضوان، وعلى من جحد ولايتكم غضب الرحمن.. بأبي أنتم وأمي ونفسي وأهلي ومالي، ذكركم في الذاكرين، وأسماؤكم في الأسماء، وأجسادكم في الأجساد، وأرواحكم في الأرواح،

وأنفسكم في النفوس، وآثاركم في الآثار، وقبوركم في القبور، فما أحلى أسماءكم، وأكرم أنفسكم، وأعظم شأنكم، وأجل خطركم، وأوفى عهدكم، وأصدق وعدكم "[١].

هم عليهم السلام حملةُ القرآن وسادة البيان وملوك اللسان، وقيل أنّ كلام الملوك ملوك الكلام، ولا غروَ أن تنتهي غايات الفصاحة والبلاغة عند أعتاب حقيقتهم، فهم أمراء الكلام، وهُداة دار السلام، وأئمة كلّ الأنام..

ويقول سيّد المتكلّمين أمير المؤمنين عليه السلام: "وإنّ اللّسان بضعة من الإنسان، فلا يسعده القول إذا امتنع، ولا يمهله النّطق إذا اتّسع، وإنّا لأمراء الكلام، وفينا تنشّبت عروقه، وعلينا تهدّلت غصونه"[٢].

اختير بيتهم عليهم السلام الطّاهر لتلقّي معجزة البيان، وجُعلوا عِدله في المقام، بعد أن اصطفوا عليهم السلام من جذوة العرب.. وروي عن نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله: "قسّم الله تبارك وتعالى أهل الأرض قسمين، فجعلني في خيرهما، ثم قسم النّصف الآخر على ثلاثة، فكنت خير الثلاثة، ثم اختار العرب من الناس، ثم اختار قريشاً من العرب، ثم اختار بني هاشم من قريش، ثم اختار بني عبد المطلب من بني هاشم، ثم اختارني من بني عبد المطلب" [٣].

وتحدّر الأئمة عليهم السلام من هذه السُّلالة، وخُلعت عليهم مكارم النبوّة وفضائل الإمامة، وانقادت لهم أزمّة الخلق، ورُوي عن سلمان رحمه الله أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال

---

(١) راجع بحار الأنوار (٩٩/١٣١).

(٢) راجع بحار الأنوار (٣٤/٢٢٤).

(٣) راجع بحار الأنوار (١٦/٣٢١).

لفاطمة: "أَ مَا علمت أن الله تعالى اختار أباك فجعله نبيّاً، وبعثه إلى كافة الخلق رسولاً، ثم اختار عليّاً، فأمرني فزوجتك إيّاه، واتخذته بأمر ربي وزيراً ووصيّاً. يا فاطمة، إن عليّاً أعظم المسلمين على المسلمين بعدي حقّاً، وأقدمهم سلماً وأعلمهم علماً وأحلمهم حلماً وأثبتهم في الميزان قدراً".

ثم قال: "إن عليّاً أوّل من آمن بالله عز وجل ورسوله من هذه الأمة، هو وخديجة أمّك، وأوّل من آزرني على ما جئت به.. يا فاطمة، إن عليا أخي وصفيّي وأبو ولدي، إن عليّاً أعطي خصالاً من الخير لم يعطها أحد قبله ولا يعطاها أحدٌ بعده، فأحسني عزاك واعلمي أن أباك لاحق بالله عز وجل".

ثم قال: "إن الله تعالى خلق الخلق فجعلهم قسمين، فجعلني وعليا في خيرهما قسماً، وذلك قوله عز وجل: ﴿**أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ**﴾.

ثم جعل القسمين قبائل، فجعلنا في خيرها قبيلة، وذلك قوله عز وجل: ﴿**وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ**﴾.

ثم جعل القبائل بيوتاً، فجعلنا في خيرها بيتاً، في قوله سبحانه: ﴿**إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾.

ثم إن الله تعالى اختارني من أهل بيتي، واختار عليّاً والحسن والحسين، واختارك، فأنا سيّد ولد آدم، وعلي سيّد العرب، وأنت سيدة النساء، والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، ومن ذريّتك المهدي يملأ الله عز وجل به الأرض

عدلاً كما مُلئت بمن قبله جوراً "[١].

فهم عليهم السلام سبيل الهداية ومشعل الظلمة وأنوار الأمم، ومنهم الحقّ والعلم والصّدق، وهم أصله وفرعه ومعدنه.. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "بنا يُستعطى الهُدى، ويُستجلى العَمَى، إنّ الأئمّة من قريش، غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاة من غيرهم" [٢].

وهم عليهم السلام عُروش القلوب والكعبة التي يهفو إليها سلطان الشعر ويطوف في رحابها الشّعراء، يحيطون بهم عليهم السلام كما يحيط الفراش بالضياء، يلتمسون من نورهم عليهم السلام وحي القوافي وتوجيه هُدى الشّعور، ولكلّ نجم منهم عليهم السلام شاعرٌ ينصره ويذبّ عنه، ممتطين بذلك فرس البيان، مصلتي سلاح اللسان، قابضين بزمام الشّعر المؤثّر في وجدان الأمة، موجّهين دفّة القول فيه، مُلهِمين في إثراء مادّته، حاثّين على قول الحق فيه.

وكانوا عليهم السلام يتألّفون الشّعراء معرفة بقوّة دورهم في التأثير، لأنّهم وسائل الإعلام المتاحة آنذاك، ويهتمّون حتّى بعصاتهم ومردتهم، فيتألّفونهم بالمال من أجل تطويعهم للحق وتجنيدهم لنصرة الدّين، مؤكّدين بذلك على أهميّة هذه المؤسسة، كونها القناة الإعلاميّة الكبرى التي تلازم الإنسانيّة وتؤثّر في وجدانها بعفويّة وعمق..

رُوِيَ أن الإمام الحسن عليه السلام أعطى شاعراً، فقال له رجل من جلسائه:

---

(١) راجع بحار الأنوار (٢٢/٥٠٢).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢٩/٦١٣).

سبحان الله، تعطي شاعراً يعصي الرحمن، ويقول البهتان! فقال: يا عبد الله، إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك، وإن من ابتغاء الخير اتقاء الشر[١].

ودفع الأئمة عليهم السلام الشّعراء والمنشدين ورغّبوهم في قول الحق، فامتدّت بمساعيهم هذه الشعيرة وتنامت أطرافها، وجاوزت في نجاحها سائر المؤسّسات الإنسانية في تاريخ الدّنيا، واعتمدت بالبقاء على نفسها واستمدّت الخلود من معنويّة قضيّتها الخاصة، حتّى أمكننا أن ندّعي اليوم بملء الفم أنّه لم يُرثَ شخصٌ في تاريخ الدنيا بأكثر ممّا رُثي به سيّد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه السلام.

وورَاء ذلك سرٌّ ظاهرٌ.. فألطاف الله تعالى وعنايته هي التي عانقت عطاء الشهيد ورفعته إلى علياء الخلود والمجد، وعطفت عليه القلوب والألسن الصّادقة، ومن وراء ذلك أيضاً ذلك الجهد الجبّار الذي تحمّله عليهم السلام، متمّمين نهجاً نبويّاً مباركاً، وهو الكفيل بإذكاء جذوة الحزن الحسيني.

الإسلام والشعر

إذا تصفّحنا تاريخ نّبينا الأكرم صلى الله عليه وآله ألفيناه يهتم بالشعراء ويستمع جيّد الشّعر ويستهويه البليغ منه، ويحبّ قول الحق فيه وإن صدر في زمن الجاهليّة الأسود، ويهتم بشعر الحكماء خاصّة ويعدّه من أرقى أنواع الشعر، وطالما كان يترصّد للجديد منه، فيسأل بني أياد مثلاً عن شعر الحكيم العربي الجاهلي قس بن ساعدة الأيادي، ويستحسن شعره ويلفت النظر إلى ما فيه من الحق والحكمة والعلم وإن

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٣/ ٣٥٨).

صدر في زمن الجاهلية الجهلاء.

رُوِيَ عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم بفناء الكعبة يوم افتتح مكة، إذ أقبل إليه وفد فسلّموا عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَنْ القوم؟ قالوا: وفد بكر بن وائل.. قال: فهل عندكم علم من خبر قس بن ساعدة الأيادي؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: فما فعل؟

قالوا: مات.. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحمد لله رب الموت ورب الحياة ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾.. كأني أنظر إلى قس بن ساعدة الأيادي وهو بسوق عكاظ على جمل له أحمر، وهو يخطب الناس ويقول: "إجتمعوا أيها الناس، فإذا اجتمعتم فأنصتوا، فإذا أنصتّم فاسمعوا، فإذا سمعتم فَعُوا، فإذا وعيتم فاحفظوا، فإذا حفظتم فاصدقوا، ألا إنّه من عاش مات، ومن مات فات، ومن فات فليس بآت، إن في السماء خبَراً، وفي الأرض عِبَراً، سقف مرفوع، ومهاد موضوع، ونجوم تمور، وليل يدور، وبحار ماء لا تغور.. يحلف قس ما هذا بلعب، وإن من وراء هذا لعجباً، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أَ رَضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟.. يحلف قس يميناً غير كاذبه أن لله ديناً هو خير من الدين الذي أنتم عليه"

ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "رحم الله قسّا، يحشر يوم القيامة أمة وحده".. قال صلى الله عليه وآله: هل فيكم أحد يحسن من شعره شيئاً؟ فقال بعضهم: سمعته يقول:

في الأوّلــــينَ الــــذّاهبينَ مــــن القــــرونِ لنــــا بصــــائر
لّمــــا رأيــــتُ مــــوارداً للمــــوتِ لــــيسَ لهــــا مصــــادر

و رأيــــتُ قــــومي نحوَهــــا تمضـــي الأكـــابرُ والأصـــاغر
لا يرجـــعُ الماضـــي إلـــيَّ ولا مـــن البـــاقينَ غـــابر
أيقنــــتُ أنّـــي لا مـــحالةَ حيـــثُ صـــارَ القـــومُ صـــائر[1]

ورَوَى الكلبي مسنداً إلى الجارود بن المنذر العبدي وكان نصرانيّاً فأسلم عام الحديبية وأنشد شعراً يقول:

يــا نــبيَّ الهــدى أتتــكَ رجــالٌ قطَعَــت فدفَــداً وأفــرَت جبــالا
جابــت البيــد والمهامَــةَ حتّــى غالَها من طوى السُّرى ما غالا
أخــبرَ الأولــونَ باسمــك فينــا وبأسمـــــاءَ بعــــدَهُ تتتــــالا

فقال رسول الله ﷺ: أَ فيكم من يعرف قس بن ساعدة الأيادي؟ فقال الجارود: كلّنا يا رسول الله نعرفه، غير أني من بينهم عارفٌ بخبره، واقفٌ على أثره.. فقال سلمان: أخبرنا.

فقال: يا رسول الله، لقد شهدت قسّا وقد خرج من ناد من أندية أياد إلى ضحضح ذي قتاد، وسمر وغياد، وهو مشتمل بنجاد، فوقف في إضحيان ليل كالشمس، رافعاً إلى السماء وجهه وإصبعه، فدنوت منه فسمعته يقول: " اللهم رب السماوات الأرفعة، والأرضين المرعة بحق محمد والثلاثة المحاميد معه، والعليين الأربعة، وفاطم والحسنين المسمعة، وجعفر وموسى التبعة، سمي

---

(١) راجع للخبر ولترجمته وجملة أخباره: كمال الدين (١/١٦٦-١٦٩)، وكنز الفوائد (٢/١٣٤-١٣٩)، والبحار (١٨/٢٩٣/٣)، والمنجد: قسم الأعلام ص (٤١٦) ط سنة ١٩٥٦م. وقد قدّمنا بعض أخبار قس بن ساعدة الأيادي في مقدّمة كتابنا هذا عند الحديث عن الأصداء السّابقة على مقتل الإمام الحسين عليه السلام تحت عنوان رواسب الأديان.

الكليم الضرعة، أولئك النقباء الشفعة، والطريق المهيعة، درسة الأناجيل، ومحاة الأضاليل، ونفاة الأباطيل، الصادقي القيل، عدد نقباء بني إسرائيل. فهم أوّل البداية، وهم نهاية النهاية، وعليهم تقوم الساعة، وبهم تُنال الشفاعة، ولهم من الله فرض الطاعة. إسقنا غيثا مغيثا".

ثم قال: ليتني مدركهم ولو بعد لأيٍ من عمري ومحياي.. ثم أنشأ يقول:

أقسمَ قسٌّ قسَماً ليسَ لَهُ مُكتّما
لو عاش ألفي سنةٍ لم يلقَ منها سأما
حتى يلاقي أحمداً والنقباءَ الحُكما
هم أصفياءُ أحمدٍ أفضلُ من تحتَ السّما
تعمى العُيونُ عنهمُ وهم ضياءٌ للعمى
لستُ بناسٍ ذكرَهم حتى أحلّ الرّجما

قال الجارود: فقلت: يا رسول الله، أنبئني أنبأك الله بخبر هذه الأسماء التي لم نشهدها وأشهدنا قس ذكرها ؟ فقال رسول الله ﷺ: يا جارود، ليلة أسري بي إلى السماء أوحى الله عز و جل إليّ أن سل من قد أرسلنا قبلك من رسلنا على ما بعثوا. قلت: على ما بعثوا ؟ قال: بعثتهم على نبوتك، وولاية علي بن أبي طالب، والأئمة منكما، ثم عرّفني الله تعالى بهم وبأسمائهم، ثم ذكر رسول الله ﷺ للجارود أسماءهم واحداً واحداً إلى المهدي عليه السلام.. قال لي الرب تبارك وتعالى: هؤلاء أوليائي، وهذا المنتقم من أعدائي، يعني المهدي.. فقال الجارود:

أتيتكُ يا ابن آمنةٍ رسولا لكي بك أهتدي النّهجَ السّبيلا

فقلتُ وكان قولُك قولَ حقٍّ وصدقٌ ما بدا لك أن تقولا
وبصّرتَ العما من عبدِ شمسٍ وكُلاً كانَ من شمسٍ ظليلا
وأنبأناكَ عن قسّ الأيادي مقالاً أنتَ طِلتَ بِهِ جديلا
وأسماءٌ عَمَت عنّا فآلت إلى علمٍ وكنتُ بها جهولا[1]

هذه ديباجة راقية توضح نوع الشعر الذي كان يحبّه النبي الأكرم ﷺ ويخلّده في الذاكرة، وهو المشتمل على الحكمة والحق، وهذا هو المفتاح والمدخل الذي نتعرّف من خلاله على مجالسه الأدبية الراقية التي كان الشعراء يتغنّون فيها بشرفه ويظهرون عظيم منزلته.

وكانت تدخل عليه ﷺ الوفود في مسجده وتنشده الشعر، ورَوَت الأخبار كيف قام كعب بن زهير بين يديه يشدو بمديحه والثّناء عليه التماساً للثواب وتعزيزاً لمكانته ومودّته في رائعة عصماء مطلعها:

بانت سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ مُتيّمٌ إثرَها لم يُفدَ مكبولُ

أمّا إذا حقّق ﷺ نصراً أو وقف موقفاً مشهوداً قام شاعره حسّان بن ثابت ليؤرّخه ويخلّده بشعره، محصّنا الحدث من النّسيان والنّكران، محاكياً سيرة العرب في تعاطي لغة العصر الدارجة في الدعوة إلى الله تعالى.

ومن هذا المنطلق فقد قام حسّان بن ثابت ليثبّت بشعره أهمّ الأحداث، فلمّا نصب النبيّ الأكرم ﷺ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام إماماً على الأمّة واستخلفه في يوم الغدير خلّده بشعره قائلاً:

---

(١) راجع مناقب ابن شهراشوب (١/٢٨٧)، عنه بحار الأنوار (٣٨/٤٣).

ينـــاديهمُ يـــومَ الغـــدير نبـــيُّهم بخـــمٍّ فـــأسمع بـــالنّبيِّ مُناديـــا

وإذا ما تعرّض النبي ﷺ لهجمة من عدوّه تصدّى للذبّ، وإذا هجاه أفّاكٌ انتفض حسّانٌ غيرةً عليه، رادّاً هجو المبطلين إلى نحورهم قائلاً:

هجـوتَ مُـحمّداً فـدفعتُ عنـه وعنـــدَ اللهِ في ذاك الجـــزاءُ

ونسج أئمّة أهل البيت عليهم السلام على هذا المنوال، مؤكّدين أهمّية هذه الظاهرة الإنسانية الجديرة بالدّفع الإيجابي، مع أنّ ظروفهم الإجتماعيّة كانت لا تسمح لهم بالإنطلاق، إلاّ أنّهم استطاعوا قول كلمتهم وإيصالها بسبل الإعلام المتاحة رغم الظروف العاتية ورغم صعوبة المرحلة.

ولكل منهم عليهم السلام شاعرٌ مؤمنٌ قديرٌ مؤيّدٌ بروح القدس، ولكلّ منهم كرمه الخاص في رعايته تجاه شاعره، فكان الإمام منهم عليه السلام يُغدق بالعطاء في سبيل نصرةالحق، ومن خلال ذلك يشترون مودّة البعداء من الشّعراء بالإحسان إليهم، وهم عليهم السلام من علّموا النّاس: أنّ النّفوس مجبولة على حبّ من أحسن إليها.

ومن أهم سبل تعزيز هذه الشعيرة وتفعيلها هو وصف الثّواب العظيم من الله تعالى عليها، وكان هذا بمثابة التوجيه الأساسي للحركة الأدبية الشّيعيّة، ويعقبه من غير فاصل توجيه الشّعراء إلى القضيّة الحسينية بالذّات باعتبارها الرّمز لكلّ قضايا أهل البيت عليهم السلام كما تقدّم، فهم يعقدون للشعراء حينئذٍ مأتماً خاصّاً، يُظهرون حزنَهم وجزَعَهم فيه.

عينيّة السيّد الحميري

في تاريخ الإنشاد والشّعر عيّنات مقدّمة ونماذج محبّبة لأهل البيت عليهم السلام، حاز

بعضها على رضا الأئمة عليهم السلام فسدّدتها يد الغيب بالقبول، فرغّب الأئمة عليهم السلام في حفظها والإهتمام بها، ويكشف ذلك خلوص نيّة ناظميها وكذلك قوّة سبكها من حيث أصول البلاغة واللغة، ونعرف أهميّة المطالب المطروقة عندهم عليهم السلام، فإنّ أمرهم بحفظها يعزّز قيمة المعلومات التاريخيّة والعقائدية المطروحة في القصيدة والقيَم والحقائق فيها، وهم يرغبون رفع مستوى شيعتهم من هذه الجهات.. وروي عن الإمام الصّادق عليه السلام: أعربوا كلامنا فإنا قوم فصحاء[1].

ورُوي عنه عليه السلام: كان أمير المؤمنين عليه السلام يعجبه أن يروي شعر أبي طالب وأن يدوّن، وقال: تعلّموه وعلّموه أولادكم فإنّه كان على دين الله، وفيه علم كثير[2].

وفي كتب الحديث عدّة قصائد اهتمّ بها أهل البيت عليهم السلام واحتفوا بها، ودعوا إلى حفظها لوجود الأهليّة الأكيدة فيها، من قبيل عينيّة السيّد إسماعيل الحميري رحمه الله التي اهتمّ بها الشيعة منذ زمن بعيد.. ورَوَى أبو الفرج في الأغاني قصّة إنشاد فضيل الرسان للقصيدة في محضر الإمام الصّادق عليه السلام ومطلعها:

لأمِّ عمروٍ باللّوى مربعُ طامسةٌ أعلامُهُ بلقعُ

قال: فسمعت النحيب من داره، فسألني لمن هي؟ فأخبرته أنها للسيد، وسألني عنه فعرّفته وفاته، فقال: رحمه الله.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٢/١٥١)، والكافي (١/٥٣).

(٢) راجع بحار الأنوار (٣٥/١١٥)، ووسائل الشيعة (١٧/٣٣١)، ومستدرك الوسائل (٦/١٠١)، وإيمان أبي طالب ص (١٣٠).

ورُوي في رجال الكشّي عن فضيل الرسان، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام بعد ما قتل زيد بن علي، فأدخلت بيتاً جوف بيت، فقال لي: يا فضيل، قتل عمّي زيد؟ قلت: نعم جعلت فداك. قال: رحمه الله، أما إنه كان مؤمنا، وكان عارفا، وكان عالما، وكان صدوقا، أما إنه لو ظفر لوفّى، أما إنه لو ملك لعرف كيف يضعها.. قلت: يا سيدي، ألا أنشدك شعراً.. قال: أمهل، ثم أمر بسُتور فَسُدِلَت، وبأبواب فَفُتِّحَت، ثم قال: أنشد فأنشدته:

لأمِّ عمـــروٍ بـــاللّوى مربـــعُ طامســـةٌ أعلامُـــهُ بلقـــعُ[1]

قال: سمعت نحيباً من وراء السّتر، وقال: من قال هذا الشعر؟

قلت: السيد ابن محمد الحميري..

فقال: رحمه الله.. فقلت: إني رأيته يشرب النبيذ.. فقال: رحمه الله! قلت: إني رأيته يشرب النبيذ الرستاق.. قال: تعني الخمر؟ قلت: نعم.

قال: رحمه الله، وما ذلك على الله أن يغفر لمحب علي عليه السلام[2].

وقال العلاّمة المجلسي رحمه الله: وجدت في بعض تأليفات أصحابنا أنه روى بإسناده عن سهل بن ذبيان قال: دخلت على الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في بعض الأيام قبل أن يدخل عليه أحد من الناس. فقال لي: مرحبا بك يا ابن ذبيان، الساعة أراد رسولنا أن يأتيك لتحضر عندنا! فقلت: لماذا يا ابن رسول

---

(١) وذكرت هذه الرّواية إثنا عشر بيتاً منها، وسيأتي في الرّواية التالية تمام القصيدة.

(٢) راجع رجال الكشي ص (٢٨٥)، ومستدرك الوسائل (١٠/٣٩٠)، وبحار الأنوار (٤٧/٣٢٥).

الله ؟ فقال: لمنام رأيته البارحة، وقد أزعجني وأرقني.. فقلت: خيراً يكون إن شاء الله تعالى.

فقال: يا ابن ذبيان، رأيت كأني قد نصب لي سُلّم فيه مئة مرقاة، فصعدت إلى أعلاه.. فقلت: يا مولاي أهنّيك بطول العمر، وربّما تعيش مئة سنة، لكل مرقاة سنة.. فقال لي عليه السلام: ما شاء الله كان.

ثم قال عليه السلام: يا ابن ذبيان، فلمّا صعدت إلى أعلى السلّم، رأيت كأني دخلت في قبة خضراء يرى ظاهرها من باطنها، ورأيت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً فيها، وإلى يمينه وشماله غلامان حسنان يشرق النور من وجوههما، ورأيت امرأة بهيّة الخلقة، ورأيت بين يديه شخصاً بهيّ الخلقة جالساً عنده، ورأيت رجلاً واقفاً بين يديه وهو يقرأ هذه القصيدة:

لأم عمرو باللوى مربع ..

فلمّا رآني النبي صلى الله عليه وآله قال لي: مرحبا بك يا ولدي يا علي بن موسى الرضا، سلّم على أبيك علي، فسلمت عليه، ثم قال لي: سلّم على أمك فاطمة الزهراء، فسلّمت عليها، فقال لي: وسلم على أبويك الحسن والحسين، فسلمت عليهما، ثم قال لي: وسلّم على شاعرنا ومادحنا في دار الدنيا السيد إسماعيل الحميري، فسلّمت عليه، وجلست، فالتفت النبي إلى السيّد إسماعيل فقال له: عُد إلى ما كنّا فيه من إنشاد القصيدة، فأنشد يقول:

لأمِّ عمروٍ باللّوى مربعُ طامسةٌ أعلامُهُ بلقعُ

فبكى النبي صلى الله عليه وآله، فلمّا بلغ إلى قوله: " ووجهه كالشمس إذ تطلع " بكى

النبي ﷺ وفاطمة عليها السلام معه، ومن معه، ولما بلغ إلى قوله:

قـالوا لـه لـو شـئتَ أعلمتَنـا	إلى مـن الغايـةُ و المفـزعُ

رفع النبي ﷺ يديه وقال: إلهي أنت الشاهد علي وعليهم إني أعلمتهم أن الغاية والمفزع علي بن أبي طالب، وأشار بيده إليه وهو جالس بين يديه عليه السلام.

قال علي بن موسى الرضا عليه السلام: فلمّا فرغ السيد إسماعيل الحميري من إنشاء القصيدة إلتفت النبي ﷺ إليّ وقال لي: يا علي بن موسى، إحفظ هذه القصيدة ومُر شيعتنا بحفظها، وأعلمهم أن من حفظها وأدمن قراءتها ضمنت له الجنة على الله تعالى، قال الرضا عليه السلام: ولم يزل يكرّرها عليّ حتى حفظتها منه، والقصيدة هذه:

لأمِّ عمـروٍ بـاللّوى مربـعُ	طامسـةٌ أعلامُـهُ بلقـعُ
تـروحُ عنـهُ الطّـيرُ وحشـيةً	والأُسـدُ مـن خِيفتِـهِ تَفـزعُ
برسـمِ دارٍ مـا بهـا مُـؤنسٌ	إلاّ صِـلالٌ في الثّـرى وُقَّـعُ
رقـشٌ يخـافُ المـوتُ نفثاتِهـا	والسّـمُّ في أنيابهـا مُنقَـعُ
لمـا وقفـنَ العـيسُ في رسمهـا	والعـينُ مـن عرفانـهِ تـدمعُ
ذكـرتُ مـن قـد كنـتُ ألهـو بـه	فبِـتُّ والقلـبُ شـجاً موجـعُ
كـأنَّ بالنّـارِ لمـا شـفّني	مـن حـبِّ أروى كبـدي تلـذعُ
عجبـتُ مـن قـومٍ أتـوا أحمـداً	بخطّـةٍ لـيس لهـا موضـعُ
قـالوا لـهُ لـو شـئتَ أعلمتَنـا	إلى مـن الغايـةُ والمفـزعُ
إذا توفّيـت وفارقتَنـا	وفـيهُمُ في الملـكِ مـن يطمـعُ
فقـال لـو أعلمـتُكم مفزعـاً	كنـتُم عسـيتُم فيـه أن تصـنعوا

صـنيعَ أهـلِ العجـلِ إذ فـارقوا ... هـــارونَ فـــالتَّركُ لـــه أودعُ
وفي الـــذي قـــال بيـــانٌ لمـــن ... كـــان إذا يعقـــلُ أو يســـمعُ
ثـــم أتتـــهُ بعـــدَ ذا عزمـــةٌ ... مـــن ربّـــهِ لـــيسَ لهـــا مـــدفع
أبلـــغ و إلاّ لم تكـــن مُبلغـــاً ... والله مـــنهم عاصـــمٌ يمنـــعُ
فعنـــدَها قـــامَ الـــنبيُّ الـــذي ... كـــان بمـــا يـــأمرُهُ يصـــدعُ
يخطـــبُ مـــأموراً وفي كفّـــهِ ... كـــفُّ علـــيٍّ ظـــاهراً تلمـــعُ
رافعَهـــا أكـــرم بكـــفٍّ الـــذي ... يرفـــعُ والكـــفُّ الـــذي يرفـــعُ
يقـــولُ و الأمـــلاكُ مـــن حولِـــهِ ... والله فـــيهم شـــاهدُ يســـمعُ
مـــن كنـــتُ مـــولاهُ فهـــذا لَـــهُ ... مـــولىً فلـــم يرضَـــوا ولم يقنعُـــوا
فـــاتّهموهُ وحَنَـــت مـــنهُمُ ... علـــى خـــلافِ الصّـــادقِ الأضـــلعُ
و ضـــلّ قـــومٌ غـــاظهم فِعلُـــهُ ... كأنّمـــا آنـــافُهُم تُجـــدعُ
حتّـــى إذا واروه في قـــبرِهِ ... وانصـــرفوا عـــن دفنِـــهِ ضـــيّعوا
مـــا قـــالَ بـــالأمسِ وأوصـــى بِـــهِ ... واشـــتروا الضُّـــرَّ بمـــا ينفـــعُ
وقطّعـــوا أرحامَـــهُ بعـــدَهُ ... فســـوفَ يُجـــزونَ بمـــا قطّعـــوا
وأزمعـــوا غـــدراً بمـــولاهُمُ ... تبّـــاً لمـــا كـــان بِـــهِ أزمعـــوا
لا هُـــم عليـــهِ يـــردُوا حوضَـــهُ ... غـــداً و لا هُـــو فـــيهُمُ يشـــفعُ
حـــوضٌ لَـــهُ مـــا بـــينَ صنعا إلى ... أيلـــةَ و العَـــرضُ بِـــهِ أوســـعُ
يُنصـــبُ فيـــهِ علَـــمٌ للهُـــدى ... والحـــوضُ مـــن مـــاءٍ لـــه مـــترعُ
يَفـــيضُ مـــن رحمتِـــهِ كـــوثرٌ ... أبـــيضُ كالفضّـــةِ أو أنصـــعُ
حصـــاهُ يـــاقوتٌ و مُرجانَـــةٌ ... ولُؤلـــؤٌ لم تَجنِـــهِ إصـــبَعُ

بَطحاؤُهُ مسكٌ وحافاتُهُ ... يهتزّ منها مونقٌ مُرِيعُ
أخضرَ ما دونَ الورى ناضرٌ ... وفاقعٌ أصفرَ أو أنصعُ
فيهِ أباريقٌ و قِدحانُهُ ... يذبُّ عنها الرّجُلُ الأصلعُ
يذبُّ عنها ابنُ أبي طالب ... ذبّاً كجربا إبلٍ شُرَّعُ
والعِطرُ و الرّيحانُ أنواعُهُ ... زاكٍ و قد هبّت به زعزعُ
ريحٌ من الجنّةِ مأمورةٌ ... ذا هبّةٍ ليسَ لها مرجِعُ
إذا دنَوا منهُ لكي يشربوا ... قيلَ لهم تبّاً لكم فارجِعوا
دونَكمُ فالتمسوا منهلاً ... يرويكُمُ أو مُطعِماً يُشبِعُ
هذا لمن والى بني أحمدٍ ... ولم يكن غيرَهُمُ يتبَعُ
فالفوزُ للشّاربِ من حوضِهِ ... والويلُ و الذّلُّ لمن يُمنعُ
والنّاسُ يومَ الحشرِ راياتُهُم ... خمسٌ فمنها هالكٌ أربعُ
ورايةٌ يقدِمُها حيدرٌ ... ووجهُهُ كالشّمسِ إذ تطلعُ
غداً يُلاقي المصطفى حيدرٌ ... ورايةُ الحمدِ لهُ ترفعُ
مولىً لهُ الجنّةُ مأمورةٌ ... والنّارُ من إجلالِهِ تفزَعُ
إمامُ صدقٍ و لهُ شيعةٌ ... يُروَوا من الحوضِ ولم يُمنَعوا
بذاكَ جاءَ الوحيُ من ربّنا ... يا شيعةَ الحقِّ فلا تجزعوا
الحميريْ مادحُكُم لم يزَل ... ولو يُقطّعْ إصبعٌ إصبعُ
وبعدَها صلّوا على المصطفى ... وصنوِهِ حيدرةُ الأصلعُ[1]

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٧/٣٢٨)، مستدرك الوسائل (١٠/٣٩٢). وقد أسقطنا من القصيدة

تائية دعبل العصماء

كانت رائعة الحميري رحمه الله عيّنة فاخرة في المدح، وينبغي لنا أن نختار أفضل عيّنة في الرّثاء، وليس أمامنا إلاّ أن نقف بانحناء أمام التائية العصماء التي أنشدها دعبل بن علي الخزاعي رحمه الله في محضر الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، فهي محفوفة بعناصر الأهميّة من كلّ جوانبها !! فقد استعرض دعبلٌ رحمه الله فيها مختلف المواضيع العقائدية والفكرية والسياسية ذات الصلة بأهل البيت عليهم السلام، وضمّت فضائل الآل ومثالب أعدائهم، في ديباجة نادرة وسبك متميّز، وهي المثال المحتذى للشعراء الشّيعة..

وربّما نجد في تراثنا الأدبي ما يقارب أو يتعدّى مستوى التّائيّة إلاّ أنّ السرّ في خلودها يكمن في قبول الإمام الرّضا عليه السلام لها وانشادها في محضره، علماً بأنّه عليه السلام لم يكن ليهتم بها كل هذا الإهتمام بعقد المجلس الخاص لها لولا كونها في رثاء جدّه الإمام الحسين عليه السلام والغرض هو البكاء وإسبال الدّموع على مصيبته.

وهذا هو الأمر الذي عرف الشّعراء والمنشدون فضله وأدركوا ثوابه، فصاروا

→

أربعة أبيات قبل بيت: " وراية يقدمها حيدرٌ ".

وأورد العلامة المجلسي رحمه الله في البحار هذه التوضيحات اللغوية: أم عمرو: يعبر به عن مطلق الحبيبة. واللوى: كإلى ما التوى من الرمل أو مسترقه. والمربع: منزل القوم في الربيع. والطموس: الدروس و الانمحاء. والبلقع: الأرض القفر الذي لا شيء بها. والعيس: مفعول لقوله وقفت و هو بالكسر الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة. وشجو: الهم و الحزن. قوله فالترك له أودع: أي إن كنت تصنعون مثل صنيعهم فالترك لهذا السؤال أودع لكم من الدعة بمعنى الراحة و الخفض.

يتقرّبون به إليهم، واستطاع دعبل أن يرقى من بينهم في رائعة بلَغت مبلغ الأنموذج الفريد الذي حضّ عليه الأئمة عليهم السلام في مجالس الذكر والإنشاد، فالغاية هي الرّثاء وهذا هو المهم.

إنّ النّاظر في أخبار أهل البيت عليهم السلام وآثارهم يفهم ضرورة تشييد الرّثاء بحرارته وشجوه وسبكه القديم المعهود، وضرورة المحافظة على أصالة الأهداف والمقاصد، فالبكاء هو هدف أساسي وجّه له الأئمة الطّاهرون عليهم السلام، أمّا الغايات الأخرى فهي ضمائم راجحة مهمّة، فيجب مجابهة فكرة التّجديد إذا طغت على هدف الدّمعة والنّدبة.

وإذا ما واجهت دعبلاً رحمه الله في تائيّته فإنّك أمام السيرة المأثورة، إذ تنقّل بين مواضيع فكرية وعقائدية في الصميم وتخلّص لندبة الزّهراء عليها السلام ورثاء الإمام الحسين عليه السلام وبارك الإمام الرّضا عليه السلام قوله وأُعجب بها، حتى بلغ افتتان دعبل بها أن كتبها على إحرامٍ وحجّ فيه وأوصى أن يكون كفنه بعد الموت!!

أمامَنا الآن عرض مجلس إنشادها المهيب، ولا بدّ أن نوصل ما انقطع من روايتين لنستوفي نبأ المجلس الجامع الذي رقاه دعبل رحمه الله في حضور الإمام عليه السلام..

في بحار الأنوار: عن أبي الصلت الهروي قال: دخل دعبل بن علي الخزاعي على الرضا عليه السلام بمرو، فقال له: يا ابن رسول الله إني قد قلت فيكم قصيدة، وآليت على نفسي أن لا أنشدها أحداً قبلك. فقال الرضا عليه السلام: هاتها.. فأنشد:

تجاوَبنَ بالأرنانِ و الزّفراتِ ... نوائحُ عُجمُ اللفظِ و النّطقاتِ

يُخبّرنَ بالأنفاسِ عن سرِّ أنفسٍ ... أُسارى هوىً ماضٍ و آخرَ آتِ

فأسعدنَ أو أسعفنَ حتى تقوّضَت ... صفوفُ الدُّجى بالفجرِ منهزماتِ

على العرصاتِ الخالياتِ من المهَا سلامُ شجٍ صبٍّ على العرصاتِ
فعهدي بها خُضرَ المعاهدِ مألَفاً من العَطِراتِ البيضِ والخَفِراتِ
ليالِيَ يُعدينَ الوصالَ على القِلى ويُعدي تدانينا على العزَباتِ
وإذ هُنَّ يلحظنَ العيونَ سوافراً ويستُرنَ بالأيدي على الوجَناتِ
وإذ كلُّ يومٍ لي بلحظيَ نَشوةٌ يبيتُ بها قلبي على نَشَواتِ
فكم حسراتٍ هاجَها بمُحسّرٍ وُقوفِيَ يومَ الجمعِ من عرفاتِ
أَلم ترَ للأيامِ ما جرَّ جورُها على النّاسِ من نقضٍ وطولِ شتاتِ
ومن دُولِ المستهزئينَ ومن غدا بهم طالباً للنّورِ في الظّلُماتِ
فكيفَ ومن أنّى بطالبِ زُلفةٍ إلى اللهِ بعدَ الصّومِ والصّلواتِ
سوى حبِّ أبناءِ النبيِّ ورهطِهِ وبغضِ بني الزّرقاءِ والعَبَلاتِ
وهندٍ وما أدّت سميّةُ وابنُها أولُو الكُفرِ في الإسلامِ و الفَجَراتِ
همُ نقضُوا عهدَ الكتابِ وفرضَهُ ومحكَمَهُ بالزّورِ والشّبهاتِ
ولم تكُ إلاّ محنةٌ كشفتهمُ بدعوى ضلالٍ من هنٍ وهناتِ
تُراثٌ بلا قُربى وملكٌ بلا هدى وحكمٌ بلا شورى بغيرِ هداةِ
رزايا أرَتنا خُضرةَ الأُفقِ حُمرةَ وردّت أُجاجاً طعمَ كلِّ فُراتِ
وما سهّلت تلكَ المذاهبُ فيهُمُ على النّاسِ إلاّ بيعةُ الفلَتاتِ
وما قيلَ أصحابُ السّقيفةِ جهرةً بدعوى تُراثٍ في الضّلالِ نَتاتِ
ولو قلّدوا الموصى إليهِ أمورَها لزُمّت بمأمونٍ على العَثَراتِ
أخي خاتمِ الرُّسلِ المُصفّى من القَذى ومُفترسِ الأبطالَ في الغمَراتِ
فإن جَحدوا كان الغديرُ شهيدَهُ وبدرٌ و أحدٌ شامخُ الهضَباتِ

وآيٌ مـن القُـرآنِ تُتلـى بفضـلِهِ وإيثـارُهُ بـالقوتِ في اللزبـاتِ
وعِـزٌّ خِـلالٍ أدركتـهُ بسـبقِها مناقـبُ كانـت فيـه مُؤتنفـاتِ
مناقـبُ لم تُـدرك بخيرٍ و لم تُنَل بشـيءٍ سـوى حـدّ القنـا الـذّرباتِ
نجـيٌّ لجبريـلِ الأمـينِ وأنـتُمُ عُكـوفٌ علـى العُـزّى معـاً و مَنَـاتِ

❖❖❖

بَكَيـتُ لرسـمِ الـدارِ مـن عرفـاتِ وأذريـتُ دمـعَ العـينِ بـالعبراتِ
وبانَ عُرى صبري وهاجت صبابَتي رسـومُ ديـارٍ قـد عفَـت وَعِـراتِ
مـدارسُ آيـاتٍ خلَـت مـن تِـلاوةٍ ومنـزلُ وحـيٍ مُقفِـرُ العرَصـاتِ
لآلِ رسـولِ اللهِ بـالخيفِ مـن منـى وبالبيـتِ و التّعريـفِ و الجَمَـراتِ
ديـارُ لعبـدِ اللهِ بـالخيفِ مـن منـى وللسـيّدِ الـدّاعي إلى الصّـلواتِ
ديـارُ علـيٍّ و الحسـينِ وجعفـرٍ وحمـزةَ و السّـجّادِ ذي الثّفنـاتِ
ديـارٌ لعبـدِ اللهِ و الفضـلِ صِـنوه نجـيِّ رسـولِ اللهِ في الخلَـواتِ
وسِبطَي رسـولِ اللهِ وابنَـي وصـيِّهِ ووارثِ علـمِ اللهِ و الحسـناتِ
منـازلُ وحـي الله ينـزلُ بينَهـا على أحمـدَ المـذكورِ في الصّلواتِ
منـازلُ قـومٍ يُهتَـدى بهُـداهُمُ فيُـؤمنُ مـنهم زلّـةُ العَثَـراتِ
منـازلُ كانـت للصّـلاةِ و للتُّقـى وللصّـومِ و الـتّطهيرِ و الحسـناتِ
منـازلُ لا تَـيمٌ يَحِـلُّ بربعهـا ولا ابـنُ صَـهّاكٍ فاتـكُ الحرمـاتِ
ديـارٌ عفَاهـا جـورُ كـلِّ مُنابـذٍ ولم تَعـفَ للأيـامِ و السّـنواتِ
قِفـا نَسـألُ الـدارَ الـتي خَـفَّ أهلُهـا متـى عهـدُها بالصّـومِ و الصّلواتِ
وأينَ الأُلى شَطّت بهم غُربةُ النّوى أفـانينَ في الأقطـارِ مُفترقَـاتِ

هـمُ أهـلُ مـيراثِ الـنّبيِّ إذا اعتـزوا ... وهـم خـيرُ سـاداتٍ و خـيرُ حُمـاةِ
إذا لم نُنـــاجِ اللهَ في صَـــلواتِنا ... بأسمـــائِهم لم يَقبـــلِ الصّـــلواتِ
مطـاعيمُ للأعسـارِ في كـلِّ مَشـهدٍ ... لقـد شُـرِّفُوا بالفضـلِ و البَركـاتِ
ومـا النّـاسُ إلاّ غاصـبٌ ومُكـذّبٌ ... ومُضـــطغنٌ ذو إحنَـــةٍ وتِـــراتِ
إذا ذكَـــروا قتلـــى ببـــدرٍ وخَيـــبرٍ ... ويـــومَ حـــنينٍ أســـبلوا العـــبراتِ
فكيـــفَ يُحبّـــون الـــنبيَّ ورهطَـــه ... وهُـم تركـوا أحشـاءَهم وَغِـراتِ
لقـد لاينُـوه في المقـالِ وأضـمَروا ... قُلوبـاً علـى الأحقـادِ منطويـاتِ
فـإن لم يكـن إلاّ بقُربـى مـحمّدٍ ... فهاشـمُ أولى مـن هَـنٍ و هَنـاتِ
سـقَى اللهُ قـبراً بالمدينـةِ غيثَـه ... فقـد حـلّ فيـه الأمـنُ بالبركـاتِ
نـبيُّ الهُـدى صـلّى عليـه مليكُـهُ ... وبلّـغَ عنّـا روحَـهُ التُّحَفـاتِ
وصـلّى عليـهِ اللهُ مـا ذرَّ شـارقٌ ... ولاحـت نجـومُ الليـلِ مُبتـدراتِ
أَ فـاطمُ لـو خلـتِ الحسـينَ مـجدّلاً ... وقـد مـاتَ عَطشـاناً بشـطِّ فُـراتِ
إذاً لَلطمـتِ الخـدّ فـاطمُ عنـدَهُ ... وأجريـتِ دمـعَ العـينِ في الوجنـاتِ
أَ فـاطمُ قـومي يـا ابنـةَ الخيرِ و اندُبي ... نجـومَ سمـاواتٍ بـأرضِ فَـلاةِ
قبـورٌ بكوفـانٍ و أُخـرى بطيبـةٍ ... وأُخـرى بفـخٍّ نالَهـا صـلَواتي
وأُخرى بـأرضِ الجوزَجـانِ مـحلُّها ... وقـبرٌ ببـاخَمرا لـدى الغَربـاتِ
وقـبرٌ ببغـدادٍ لـنفسٍ زكيّـةٍ ... تضـمّنَها الـرّحمنُ في الغرُفـاتِ
وقـبرٌ بطـوسٍ يـا لهـا مـن مصـيبةٍ ... ألحّـت علـى الأحشـاءِ بـالزّفراتِ
إلى الحشـرِ حتّـى يبعـثُ اللهُ قائمـاً ... يفـرّجُ عنّـا الغـمَّ و الكربـاتِ
علـيُّ بـن موسـى أرشـدَ اللهُ أمـرَهُ ... وصـلّى عليـهِ أفضـلَ الصّـلواتِ

فأمّـا الُمِضّـاتُ الـتي لسـتُ بالغـاً ... مبالغَهـا منّـي بكُنـهِ صـفاتِ
قُبـورٌ بـبَطنِ النّهـرِ مـن جنـبِ كـربلا ... مُعَرَّسُـهُم مِنهـا بشـطِّ فُـراتِ
تُوفُّـوا عُطاشـى بـالفراتِ فلَيـتني ... تُوفّيـتُ فـيهِم قبـلَ حـينِ وَفـاتي
إلى اللهِ أشـكو لوعـةً عنـدَ ذكـرِهم ... سَـقَتني بكـأسِ الثُّكـلِ والفَظَعـاتِ
أخـافُ بـأن أزدارهُـم فتَشـوقُني ... مصـارعُهم بـالجزعِ فـالنّخلاتِ
تَغشّـاهُم ريـبُ المنـونِ فمـا تَـرَى ... لهـم عقـرةٌ مغشـيّةٌ الحَجَـراتِ
خَـلا أنّ مـنهُم بالمدينـةِ عُصـبةٌ ... مـدينينَ أنضـاءٌ مـن اللزّبـاتِ
قليلـةُ زُوّارٍ سـوى أنّ زُوّراً ... مـن الضَّـبعِ والعُقبـانِ والرَّخمـاتِ
لهُـم كـلّ يـومٍ تُربـةٌ بمضـاجعٍ ... ثـوَت في نـواحي الأرضِ مُفترقـاتِ
تنكّبـتُ لأواءَ السّـنينِ جـوارَهم ... ولا تصـطليهم جمـرةُ الجمـراتِ
وقـد كـان مـنهم بالحجـاز وأرضِـها ... مغـاويرَ نحّـارونَ في الأزمـاتِ
حِمـىً لم تـزُره المُـذنبات وأوجـهٌ ... تُضـيءُ لـدى الأسـتارِ والظّلمـاتِ
إذا وردوا خـيلاً بسُـمرٍ مـن القنـا ... مسـاعيرُ حـربٍ أقحمـوا الغمـراتِ
فـإن فخَـروا يومـاً أتـوا بمحمـدٍ ... وجبريـلَ و الفرقـانِ و السـوراتِ
وعـدُّوا عليّـاً ذا المناقـبِ والعُلـى ... وفاطمـةَ الزّهـراءَ خـيرَ بنـاتِ
وحمـزةَ و العبّاسَ ذا الهـدي والتُّقى ... وجعفـراً الطيّـارَ في الحُجُبـاتِ
أولئـك لا ملقـوحُ هنـدٍ وحزبِهـا ... سمیـةَ مـن نَـوكَى و مِـن قـذِراتِ
ستُسـألُ تَـيمٌ عـنهُمُ و عـديُّها ... وبيعـتُهم مـن أفجـرِ الفَجَـراتِ
هـمُ منعـوا الآبـاءَ عـن أخـذِ حقهّـم ... وهُـمُ تركـوا الأبنـاءَ رهـنَ شـتاتِ
وَهُـم عـدَلوها عـن وصـيِّ مـحمّدٍ ... فبيعـتُهم جـاءَت عـن الغَـدَراتِ

ولــيّهمُ صــنوُ الــنّبيِّ مــحمّدٍ ... أبــو الحســنِ الفــرّاجُ للغمَــراتِ
ملامَـــك في آل الـــنبيِّ فـــإنهُم ... أحبــايَ مــا دامــوا و أهــلُ ثُقــاتي
تخيّــرتُهم رُشــداً لنفســيَ إنهُــم ... علــى كــلِّ حــالٍ خــيرةُ الخِيَــراتِ
نبَــذتُ إلــيهِم بــالمودّةِ صــادقاً ... وســلّمتُ نفســي طائعــاً لــوُلاتي
فيــا ربِّ زدنــي في هــوايَ بصــيرةً ... وزِد حــبَّهم يــا ربِّ في حسَــناتي
ســأبكيهُمُ مــا حــجّ للهِ راكــبٌ ... ومــا نــاح قُمــريٌّ علــى الشّــجَراتِ
وإنّــي لمــولاهُم و قــالٍ عــدوَّهم ... وإنــي لمحــزونٌ بطــولِ حيــاتي
بنفســيَ أنــتُم مــن كُهــولٍ و فِتيــةٍ ... لفَــكِّ عُتــاةٍ أو لحمــلِ ديــاتِ
وللخيــلِ لّمــا قيّــدَ المــوتُ خطوَهــا ... فــأطلقتُمُ مــنهُنّ بالــذّرباتِ
أُحبُّ قصيَّ الرّحمِ من أجلِ حبِّكُم ... وأهجُــر فــيكُم زوجَــتي و بنــاتي
وأَكــتُمُ حُبّــيكُم مــخافةَ كاشــحٍ ... عنيــدٍ لأهــلِ الحــقّ غــيرِ مُــواتِ
فيــا عــينُ بكّــيهِم وجــودي بعــبرة ... فقــد آنَ للتســكابِ و الهمــلاتِ
لقــد خفــتُ في الــدنيا وأيــامِ سَعيِها ... وإنــي لأرجــو الأمــن بعــد وفــاتي
ألم تــرَ أنــي مــذ ثلاثــونَ حجّــةً ... أروحُ و أغــدو دائــمَ الحســراتِ
أرى فيــأَهم في غيرهِــم متقسّــماً ... وأيــديَهم مــن فيــئهِم صــفراتِ
وكيفَ أُداوي من جوىً بيَ والجوى ... أميــةُ أهــلُ الكفــرِ و اللّعنــاتِ
وآلُ زيــادٍ في الحريــرِ مصــونةٌ ... وآلُ رســولِ اللهِ مُنهتكــاتِ
ســأبكيهِم مــا ذرَّ في الأفــقِ شــارقٌ ... ونــادى منــاد الخــيرِ بالصّــلواتِ
ومــا طلعــت شمــسٌ وحــان غروبُهــا ... وبالليــلِ أبكــيهم و بالغُــدُواتِ
ديــارُ رســولِ اللهِ أصــبحنَ بلقَعــاً ... وآلُ زيــادٍ تســكنُ الحُجُــراتِ

وآلُ رسولُ اللهِ تُدمى نُحورُهم ... وآلُ زيادٍ ربّةُ الحَجَلاتِ

وآلُ رسولِ اللهِ يُسبى حريمُهم ... وآلُ زيادٍ آمنوا السَّرِباتِ

إذا وُتِرُوا مدُّوا إلى واتريهُمُ ... أَكُفّاً عن الأوتارِ مُنقبضاتِ

فَلَولا الذي أرجوهُ في اليومِ أو غدٍ ... تَقَطّعُ نفسي أثرَهُم حَسَراتِ

خروجُ إمامٍ لا محالةَ خارجٌ ... يقومُ على اسم اللهِ والبركاتِ

يميّزُ فينا كلَّ حقٍّ وباطلٍ ... و يُجزي على النّعماءِ و النّقِماتِ

فيا نفسُ طيبي ثُمّ يا نفسُ فابشري ... فغيرُ بعيدٍ كلُّ ما هُو آتِ

ولا تجزعي من مُدّةِ الجَورِ إنني ... أرى قُوّتي قد آذنَت بثَباتِ

فَيا ربِّ عجّل ما أُؤمّل فيهُمُ ... لأشفيَ نفسي من أسى المِحَنَاتِ

فإنّ قرّبَ الرحمنُ من تلك مُدّتي ... وأخّر من عُمري و وقتَ وفاتي

شفيتُ ولم أترُكْ لنفسيَ غُصّةً ... ورَوّيتُ منهُم مِنصَلي وقناتي

فإني من الرّحمنِ أرجو بحبّهم ... حياةً لدى الفِردوسِ غيرَ تَباتي

عسى اللهُ أن يرتاحَ للخلقِ إنّهُ ... إلى كلِّ قومٍ دائمُ اللحظاتِ

فإن قلتَ عُرفاً أنكروهُ بمنكرٍ ... وغطّوا على التّحقيقِ بالشّبُهاتِ

تَقاصرُ نفسي دائماً عن جدالهم ... كفانيَ ما ألقى من العَبَراتِ

أحاولُ نقلَ الصُّمِّ عن مستقرِّها ... وإسماعَ أحجارٍ من الصّلداتِ

فحَسبيَ منهُم أن أبوءَ بغَصّةٍ ... تردّدُ في صدري و في لَهَواتي

فمِن عارفٍ لم ينتفع ومُعاندٍ ... تميلُ بهِ الأهواءُ للشّهواتِ

كأنّك بالأضلاعِ قد ضاقَ ذرعُها　　لِمَا حُمّلَت من شدّةِ الزّفَراتِ[1]

أحببت التبرّك بإيراد القصيدة كاملة فوصلتها من مصدريها، وأظنّ أن دعبلاً لم ينشدها كاملة في حضرة الإمام عليه السلام، فقد أعرض عن التشبيب الذي يتقدّم الرّثاء إجلالاً لمجلس الإمام عليه السلام، وهذا مروي في كتب الأدب، والأحرى أن يكون بدأها من قوله: " مدارس آيات " كما هو مفصّل في الرواية القادمة.

ونلاحظ أنّ الرواية السّابقة خالية من بيان ردّة فعل الإمام عليه السلام، أمّا رواية الشيخ الصدوق رحمه الله في عيون أخبار الرّضا عليه السلام عن الهروي فإنّ فيها وقفاته وكلماته التي أضفت بُعداً شجيّاً خاصّاً على القصيدة.. فقد قال:

دخل دعبل بن علي الخزاعي رحمه الله على أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام بمرو، فقال له: يا ابن رسول الله، إني قد قلت فيك قصيدة، وآليت على نفسي أن لا أنشدها أحداً قبلك.. فقال عليه السلام: هاتها فأنشده..

مدارسُ آياتٍ خلَت عن تلاوةٍ　　ومنزلُ وحيٍ مُقفِرُ العرَصاتِ

فلمّا بلغ إلى قوله:

أرى فيئَهُم في غيرهم مُتقسّماً　　وأيديَهم من فيئِهِم صفراتِ

فلمّا بلغ إلى قوله هذا بكى أبو الحسن الرضا عليه السلام وقال له: صدقت يا خزاعي.

فلمّا بلغ إلى قوله:

---

(١) راجع كشف الغمّة (٢/٣٢٧)، والعدد القويّة ص (٢٩١)، وبحار الأنوار (٤٩/٢٥١)، وتجد القصيدة محقّقة ومقابلة بنسخها في ديوان دعبل بن علي رحمه الله المطبوع بتحقيق الدّجيلي.

إذا وُتـروا مـدّوا إلى واتـريهمُ　　أكفّـا عـن الأوتـارِ مُنقبضـاتِ

جعل أبو الحسن عليه السلام يُقلّب كفيه، ويقول: أجل والله منقبضات.

فلمّا بلغ إلى قوله:

لقد خفتُ في الدّنيا وأيامِ سعيها　　وإنّي لأرجو الأمنَ بعدَ وفاتي

قال الرضا عليه السلام: آمنك الله يوم الفزع الأكبر. فلمّا انتهى إلى قوله:

وقـبرٌ ببغـدادٍ لـنفسٍ زكيّـةٍ　　تضـمّنَها الـرّحمنُ في الغُرُفـاتِ

قال له الرضا عليه السلام: أ فلا ألحق لك بهذا الموضع بيتين بهما تمام قصيدتك ؟

فقال: بلى يا ابن رسول الله !!

فقال عليه السلام:

وقـبرٌ بطـوسٍ يـا لهـا مـن مصـيبةٍ　　توقّـدُ بالأحشـاءِ في الحُرُقـاتِ

إلى الحشـرِ حتّـى يبعـثُ اللهُ قائمـاً　　يُفـرّجُ عنّـا الهـمَّ والكربـاتِ

فقال دعبل: يا ابن رسول الله، هذا القبر الذي بطوس قبر من هو ؟ فقال الرضا عليه السلام: قبري، ولا تنقضي الأيام والليالي حتى يصير طوس مختلف شيعتي وزوّاري، ألا فمن زارني في غربتي بطوس كان معي في درجتي يوم القيامة مغفوراً له.

ثم نهض الرضا عليه السلام بعد فراغ دعبل من إنشاد القصيدة، وأمره أن لا يبرح من موضعه ودخل الدار، فلمّا كان بعد ساعة خرج الخادم إليه بمئة دينار رضويّة، فقال له: يقول لك مولاي اجعلها في نفقتك، فقال دعبل: والله ما لهذا جئت، ولا قلت هذه القصيدة طمعاً في شيء يصل إليّ، وردّ الصّرة وسأل ثوباً من ثياب الرضا ليتبرك به ويتشرف به، فأنفذ إليه الرضا عليه السلام جبّة خز مع الصرة، وقال

للخادم: قل له خذ هذه الصّرة، فإنك ستحتاج إليها، ولا تراجعني فيها[1].

---

(١) راجع عيون أخبار الرضا (٢/٢٦٤)، وكمال الدين (٢/٢٦٤)، وإعلام الورى ص (٣٣٠)، وبحار الأنوار (٤٩/٢٣٩). ثم يواصل راوي الخبر في بيان الأحداث التي مرّ بها شاعرنا رحمه الله في طريق عودته إلى محلّ إقامته، وما واجه من مصاعب كلّها تعبّر عن أصداء تلك القصيدة العصماء. فيقول: فأخذ دعبل الصرة والجبة وانصرف، وصار من مرو في قافلة فلما بلغ ميان قوهان وقع عليهم اللصوص فأخذوا القافلة بأسرها، وكتفوا أهلها، وكان دعبل فيمن كتّف، وملك اللصوص القافلة وجعلوا يقسمونها بينهم، فقال رجل من القوم متمثلا بقول دعبل في قصيدته:

أرى فيأهم في غيرهم متقسماً وأيديَهـم من فيئهم صفرات

فسمعه دعبل، فقال لهم دعبل: لمن هذا البيت؟ فقال: لرجل من خزاعة، يقال له دعبل بن علي! قال دعبل: فأنا دعبل قائل هذه القصيدة التي منها هذا البيت! فوثب الرجل إلى رئيسهم، وكان يصلي على رأس تل، وكان من الشيعة وأخبره، فجاء بنفسه حتى وقف على دعبل، وقال له: أنت دعبل! فقال: نعم. فقال له: أنشد القصيدة.. فأنشدها، فحل كتافه وكتاف جميع أهل القافلة، وردّ إليهم جميع ما أخذوا منهم لكرامة دعبل.

وسار دعبل حتى وصل إلى قم، فسأله أهل قم أن ينشدهم القصيدة، فأمرهم أن يجتمعوا في المسجد الجامع، فلمّا اجتمعوا صعد المنبر فأنشدهم القصيدة، فوصله الناس من المال والخلع بشيء كثير، واتصل بهم خبر الجبّة، فسألوه أن يبيعها منهم بألف دينار، فامتنع من ذلك، فقالوا: له فبعنا شيئا منها بألف دينار، فأبى عليهم، وسار عن قم. فلما خرج من رستاق البلد لحق به قوم من أحداث العرب وأخذوا الجبة منه، فرجع دعبل إلى قم وسألهم ردّ الجبة عليه، فامتنع الأحداث من ذلك، وعصوا المشايخ في أمرها، فقالوا لدعبل: لا سبيل لك إلى الجبة، فخذ ثمنها ألف دينار، فأبى عليهم، فلما يئس من ردّهم الجبّة عليه سألهم أن يدفعوا إليه شيئاً منها، فأجابوه إلى ذلك وأعطوه بعضها، ودفعوا إليه ثمن باقيها ألف دينار.

وانصرف دعبل إلى وطنه، فوجد اللصوص قد أخذوا جميع ما كان في منزله، فباع الماءة دينار

الحث على الشّعر والإنشاد

ترادفت النّصوص الذهبيّة عنهم عليهم السلام وتواترت في باب بناء أبيات الشعر فيهم بما يكفي لعدّها عبادة مهمّة استحبّها الدّين استحباباً مؤكّداً ، حتّى بلغت حدّ التّواتر المعنوي، وإليك جملة منها.

❖ رَوَى الشيخ الصّدوق رحمه الله بإسناد يرفعه إلى الإمام الصّادق عليه السلام أنه قال: " من قال فينا بيت شعر بنى الله تعالى له بيتا في الجنّة "[١].

❖ رَوَي عن الإمام الصادق عليه السلام : " ما قال فينا قائل بيت شعر حتى يؤيّد بروح القدس "[٢].

❖ رَوَي عن مولانا الإمام الرضا عليه السلام : " ما قال فينا مؤمن شعراً يمدحنا به إلاّ بنى الله له مدينة في الجنّة، أوسع من الدّنيا سبع مرّات، يزوره فيها كل ملك

←

التي كان الرضا عليه السلام وصله بها من الشيعة كل دينار بماءة درهم، فحصل في يده عشرة آلاف درهم، فذكر قول الرضا عليه السلام إنك ستحتاج إلى الدنانير.

وكانت له جارية لها من قلبه محل فرمَدت رمداً عظيماً، فأدخل أهل الطب عليها فنظروا إليها، فقالوا: أما العين اليمنى فليس لنا فيها حيلة وقد ذهبت، وأما اليسرى فنحن نعالجها ونجتهد ونرجو أن تسلم، فاغتم لذلك دعبل غمّاً شديداً، وجزع عليها جزعاً عظيماً، ثم ذكر ما كان معه من فضلة الجبة، فمسحها على عيني الجارية، وعصّبها بعصابة منها من أول الليل فأصبحت وعيناها أصح مما كانتا قبل ببركة أبي الحسن الرضا عليه السلام.

(١) راجع عيون أخبار الرضا (١/٧)، عنه بحار الأنوار (٢٦/٢٣١/٣)، وراجع أسرار الشهادة بتحقيقنا (١/١٦٣).

(٢) راجع عيون أخبار الرضا (١/٧)، عنه بحار الأنوار (٢٦/٢٣١/٤)، رجال الكشي ص (٢٥٤)، الغدير (٢/٣، وراجع أسرار الشهادة بتحقيقنا (١/١٦٣).

مقرب، وكل نبي مرسل "[١].

والأخبار كثيرة في هذا الصدد، وهي تعد على الله تعالى بالجنّة، أو بناء بيت في الجنة، أو مدينة في الجنة، أو بالتأييد بروح القدس، فإذا فقهنا هذه المثوبات الموصوفة بالبديهة إلاّ أنّه يلزمنا الوقوف عند معنى التأييد بروح القدس، ويغمر أيّ باحث شعور بالتضائل حيال تلك الحقائق، إلاّ أنّه لابدّ من تقصّي بعض المعاني الواردة في الروايات الشريفة لفهم المراد..

وعند تحرّي الأمر ننتهي إلى حقائق عدّة، والروايات على ثلاثة طوائف، دلّت الأولى على إختصاص روح القدس بالنبي الأكرم ﷺ وأنّه جبرئيل عليه السلام، ودلّت الثّانية على إختصاصه بالنبي ﷺ والأئمة عليهم السلام وأنّه ملك أعظم من جبرئيل عليه السلام وهو ملازمٌ للأئمة عليهم السلام، أمّا الثالثة فقد دلّت على توسيع دائرة فيوضاته على الشعراء القائلين فيهم عليهم السلام ما داموا يقولون فيهم..

الطائفة الأولى:

رُوِيَ في تفسير قوله تعالى: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ**﴾ أنّه جبرئيل عليه السلام.. وكان النبي ﷺ يشير في مواطن إلى أخذه عنه، مشيراً إليه بهذه التسمية، من ذلك ما رواه القمّي في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: " يا أيها الناس إنه نفث في رَوْعي روح القدس، أنه لم تمت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها وإن أبطأ عليها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء شيء

---

(١) راجع عيون أخبار الرضا (١/٧)، عنه بحار الأنوار (٢٦/٢٣١/٥)، وراجع أسرار الشهادة بتحقيقنا (١/١٦٣).

مما عند الله أن تصيبوه بمعصية، فإن الله لا ينال ما عنده إلاّ بالطاعة "[1].

وجاء ذلك هذا المعني في أكثر من رواية، كالتي رُوِيَت عن أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله: ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ قال: هو جبرئيل عليه السلام، والقدس: الطاهر ﴿لِيُثَبِّتَ الله الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم[2].

الطّائفة الثّانية:

رُوِيَ في تفسير القمّي عند قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ قوله عليه السلام: روح القدس وهو خاص لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام[3].

ورُوِيَ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ فإنّه خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومع الأئمة عليهم السلام وهو من الملكوت[4].

ورُوِيَ في بصائر الدرجات عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: إن الأوصياء محدّثون، يحدثهم روح القدس ولا يرونه، وكان علي عليه السلام يعرض على

---

(١) راجع أصول الكافي (٨٠/٥)، وبحار الأنوار (٣٠/١٠٠)، ووسائل الشيعة (٤٥/١٧)، وبصائر الدرجات ص (٤٥٣).

(٢) راجع تفسير القمي (٣٨٩/١)، وبحار الأنوار (٢٢١/٩و٢٠٦/١٧و٤٩/٢٥).

(٣) راجع تفسير القمي (٢٥٦/٢)، وبحار الأنوار (٤٧/٢٥).

(٤) راجع أصول الكافي (٢٧٣/١)، وبحار الأنوار (٢٥٠/٦و٢٦٥/١٨)، وروي الخبر في بصائر الدرجات بأشكال مختلفة وألفاظ قريبة من هذا المعنى ومؤدّاها إلى نفس القصد.

روح القدس ما يسأل عنه فيوجس في نفسه أن قد أصبت بالجواب فيخبر فيكون كما قال[١].

ورُوِيَ في خبر ولادة مولانا الإمام المهدي عليه السلام أنّه لمّا دفعه الإمام العسكري عليه السلام للملك بعد ولادته.. فقال أبو محمّد: أستودعك الذي استودعته أم موسى، فبكت نرجس، فقال لها: اسكتي فإن الرضاع محرّم عليه إلاّ من ثديك وسيعاد إليك، كما رد موسى إلى أمه، وذلك قوله عز وجل: ﴿**فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ**﴾. قالت حكيمة: فقلت ما هذا الطائر؟ قال: هذا روح القدس الموكل بالأئمة عليهم السلام يوفقهم ويسدّدهم ويربّيهم بالعلم[٢].

الطّائفة الثّالثة:

دلّت على كرامة كبرى أكرم الله بها شعراء أهل البيت عليهم السلام خاصة، كشكل من أشكال التأييد والتسديد لهم، فالعرب كانوا يعتقدون أنّ للشعر شيطاناً ينطق على ألسنة شعرائهم إذا أبدعوا.. وقد أصابوا من جهة وأخطأوا من جهة، فأهل البيت عليهم السلام يؤكّدون أن القائل فيهم بالحق إنّما ينطق بروح القدس.

❖ رُوي عن الكميت بن زيد الأسدي، قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال: واللّه يا كميت لو كان عندنا مال لأعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله لحسّان بن ثابت: "لن يزال معك روح القدس ما ذببت عنّا"[٣].

---

(١) راجع بصائر الدرجات ص (٤٥٣)، وبحار الأنوار (٢٥/٥٧و٣٩/١٥١).

(٢) راجع بحار الأنوار (٥١/١٤).

(٣) راجع أصول الكافي (٨/١٠٢)، ورجال الكشي ص (٢٠٧)، وبحار الأنوار (٣٠/٢٦٦ و ٤٦/٣٤١ و ٤٧/٣٢٤) ووسائل الشيعة (١٤/٥٩٤).

وهذا هو السّر الذي يقف وراء خلود تلك القصائد واهتمام الأئمة عليهم السلام فيها، فإذا كان روح القدس هو النّاطق على ألسنتهم فإنّه يطفح عليها بالحقائق، ومن هذا الباب فقد امتازت تائية دعبل رحمه الله التي تقدّم الكلام فيها.

❖ رُوي في إكمال الدين عن دعبل بن علي الخزاعي يقول أنشدت مولاي علي بن موسى الرضا عليه السلام قصيدتي التي أولها:

مدارسُ آياتٍ خلَت من تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مقفرُ العرَصاتِ

فلما انتهيت إلى قولي:

خروجُ إمامٍ لا محالةَ خارجٌ يقومُ على اسم اللهِ والبركاتِ
يميّزُ فينا كلَّ حقٍّ وباطلٍ ويجزي على النّعماءِ والنّقماتِ

بكى الرضا عليه السلام بكاء شديداً، ثم رفع رأسه إليّ فقال لي: يا خزاعي، نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين، فهل تدري من هذا الإمام ومتى يقوم؟

فقلت: لا يا مولاي، إلاّ أني سمعت بخروج إمام منكم يطهّر الأرض من الفساد ويملؤها عدلاً كما ملئت جوراً. فقال: يا دعبل، الإمام بعدي محمّد ابني، وبعد محمد ابنه علي، وبعد علي ابنه الحسن، وبعد الحسن ابنه الحجة القائم، المنتظر في غيبته، المطاع في ظهوره، لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً[1].

---

(١) راجع عيون أخبار الرضا (٢/٢٦٥)، وكمال الدين (٢/٣٧٣)، وبحار الأنوار (٤٩/١٣٧ و ٥١/١٥٤)، وإعلام الورى ص (٣٣١)، والصراط المستقيم (٢/٢٣٠)، وكفاية الأثر ص (٢٧٧)، وكشف الغمّة (٢/٣٢٨)، ومستدرك الوسائل (٦/٣٩٤).

وهي كرامة عظيمة حَبَوها لشعرائهم عليهم السلام لا تعادلها كرامة أو حَبْوَة، تفضّل بها الله تعالى على شيعة أهل البيت عليهم السلام ، وهو بحدّ ذاته محفّزٌ لقول الحق فيهم عليهم السلام ، فالشعراء مهما بالغوا فإنّهم لن يبلغوا حقيقة فضلهم أو يدركوا منزلتهم.

فقد رَوَى الحِمْيَريّ في الدّلائل عن مالك الجهني أنّه سمع من أبي عبد الله الصّادق عليه السلام يقول: " قولوا فينا ما شئتم، واجعلونا مخلوقين "[1].

ورُوي في بصائر الدرجات عن كامل التمار أنّ الإمام الصّادق عليه السلام قال له: " يا كامل، إجعل لنا ربا نؤوب إليه وقولوا فينا ما شئتم "[2].

وقال شاعرهم عليهم السلام :

إليكُم وإلاّ لا تُشدّ الرّكائبُ	ومنكُم وإلاّ لا تُنال الرّغائبُ
وفيكُم وإلاّ فالحديثُ مزخرفٌ	وعنكُم وإلاّ فالمحدّث كاذبُ

وتسابق الشعراء والمنشدون في الإلتحاق بركب الفضيلة السائر الممسك بحجزة الدّين والنبوّة والإمامة، حتّى كان ديوان المدح والرّثاء المختص بأهل البيت عليهم السلام أكبر ديوان في تراث العرَب، ولّما كانت قضيّة الإمام الحسين عليه السلام الأولى في ميزان أهل البيت عليهم السلام فإنّه لم ترثِ البشريّة في تاريخها الطّويل أحد كما رثى الشعراءُ الإمامَ الحسين عليه السلام ، وديوان الرّثاء يكاد يطفح بشعر الرّثاء الحسيني، وقصائده في أغلب كتب التّاريخ والأدب.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٢٥/٢٨٩ و ٤٧/١٤٨).

(٢) راجع بصائر الدرجات ص (٥٠٧)، وبحار الأنوار (٢٥/٢٨٣).

النّظم والإنشاد

في النّصوص المتقدّمة حقائق فقهيّة مهمّة، منها أنّه لا فرق بين نظم الشّعر والإنشاد من حيث الفضل والثّواب، وكلّ له فضله، فالأخبار دالة على الإستحباب المؤكّد للرّثاء، ونصوصها متظافرة، وتسوقنا إلى أنّ الثّواب والأجر المستحقين والبشارة من الأئمة عليهم السلام تشمل النّظم كما تشمل الإنشاد على حدّ سواء.

حيث أنّهما لا ينفكّان أهميّة، وهما من بعض بمثابة الرّوح من البدن، وبهما حياة الرّثاء والإبكاء.. ونفهم حينئذٍ أنّ أكثر الشّعراء سعادةً ذاك الذي يوفّق لإنشاد قصيدته، إذ أنّه يُحرز الثواب من جهتين، ويدخل مداخل رضاهم عليهم السلام من بابين.

المدح والرّثاء

ولا فرق بين المدح والرّثاء من حيث الفضل والثّواب، والأدلة تسوقنا إلى انطباق النّظم والإنشاد على البابين، ومن الواضح أنّ فضيلة القول فيهم قائمة مدحاً ورثاءً.. إذ أنّ المناط في ذلك كون النظم فيهم عليهم السلام وصدوره قربة لله تعالى إحياءً لأمرهم، ولا يخفى على البصير أنّهم عليهم السلام قد عيّنوا الإنشاد حضاً للفرد الأحب إلى نفوسهم وبياناً للمصداق الأتم.

وربّما نستطيع القول أن الإستحباب يقوى في باب الرّثاء ويفضل على قسيمه المدح، فالمدح يذوب في عالم الرثاء، والرثاء يشتمله طبيعيّاً، وقد بيّنّا وجه ذلك في كتابنا " الدّمعة السّاكبة " عند كلامنا في تقديم الحزن على الفرح.

الفصيح والدّارج

ولا فرق بين نظم الشعر فصيحاً وبين نظمه باللهجة الدّارجة من حيث الفضل والثّواب، وكون الشّعر ظاهرة بشريّة لا تختص بمجتمع دون مجتمع يقتضي ذلك، والنّصوص عامّة تشمل الجميع، ولا تختص بلغة دون لغة ولا بلهجة دون أخرى، وهي تبيّن لنا أن أدلّة الثّواب والفضل تشمل كل صنوف الشّعر الذي يعرفه الإنسان، ولا تقصد اللغات دون اللهجات.

ولّما مرّت اللغة العربية بمراحل عدّة وشاع تداول اللهجة الدّارجة على ألسنة النّاس، حتّى طغت اللهجة على أصل اللغة وتعارف النّاس عليها في الكلام، وأَنِسُوا بكناياتها ومجازاتها وإغراقاتها.. فصارت هي الأقرب إلى أفهامهم من اللغة الأم، وبالتّالي فهي الأكثر تأثيراً على النفوس.. دلّت النّصوص على شمول اللغات واللهجات على حدّ سواء.

ومن هذا المنطلق راحت قوافل الشّعراء تهفو بكل لسان وبمختلف اللهجات الدّارجة تَتَسابق في القول في النّبي صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام مدحاً ورثاءً.. وتُكثر وتُبدع في رثاء مولانا الإمام الحسين عليه السلام.

المبالغات وألسنة الحال

لّما حضّ أئمة أهل البيت عليهم السلام على نظم الشّعر وحثّوا عليه فإنهم قد أخذوا بعين الإعتبار مقتضيات الشّعر الضّرورية، والكلّ يعرف أنّ الشّعراء لا يستغنون عن المبالغات والإغراقات في تصويرات شعرهم، حتّى قيل: " إنّ أعذب الشّعر أكذبه " في إشارة إلى هذا المعنى، فالشّاعر يستنطق الأحداث ويكلّم الجمادات

ويقول ويفصّل في ألسنة الأحوال، وأدواته المجازات والإستعارات، فإذا كان بالحدّ المعقول فإنّه لا يقع في أقسام الكذب المحرّم.

أمّا إذا كان النّظم يحتوي على إسناد قولٍ للمعصوم عليه السلام يُقطع بعدم صدوره فهو كذب محرّم، وقال الفقهاء أنه حرام ومبطل للصوم إن كان قد أُتِيَ في نهار الصّوم، وأمّا إن كان من باب مبالغات الشّعر وإغراقاته فلا يحرم.

ويفصّل المرحوم النّراقي في كتاب مستند الشيعة المطلب بشكل مبسوط، ويرى أن ما يتضمّن من الشعر نسبة قول أو فعل إلى أحد الأئمة عليهم السلام يقطع بعدم صدوره هو محرّم ومبطل للصّوم، لأنه من الكذب على الإمام عليه السلام إلاّ إذا كان داخلاً في باب مبالغات الشعر وإغراقاته[1].

وباب المبالغات والإغراقات واسع في الشّعر جدّاً، ويعتمد الشّعراء في تصويراتهم ووصفهم على الخيالً المحض، ويستنطق الأحياء والجمادات على حدّ سواء، كقول الشّاعر يصف حال الأفلاك عند سقوط الإمام الحسين عليه السلام:

وقَفَت لهُ الأفلاكُ حينَ هويِّه وتبدّلت حركاتُها بسكونِ

ولا يدخل في أبواب الكذب، وليس فيه قولٌ أو فعل منسوب إلى الأئمة عليهم السلام، وهو إغراق محض، وهذا أمرٌ قد لا يُقتصر على الشّعر فحسب، بل يمكن أن يتعدّى الشعر والشعراء فيقع من بعض الأدباء والكتّاب في بعض المقامات الأدبية، وربّما يتعدّى إلى القرآن الكريم كما ما هو عليه بعض الأعلام، وهذا لا يتنافى مع إعجازه.

---

(١) راجع مستند الشيعة (٢/١٠٩).

إذ ارتأى السيّد المرتضى رحمه الله في قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ نفي أن تكون النّملة قد تكلّمت فعلاً مع سليمان النبي عليه السلام، وحمل تلك الحكاية على لسان الحال، فأوّل الآية بأنها لما خافت من الضرر الذي أشرف النمل عليه، جاز أن يقول الحاكي لهذه الحال تلك الحكاية البليغة، لأنها لو كانت قائلة ناطقة ومحفوفة بلسان وبيان لما قالت إلا مثل هذا[1].

وليس السيّد علم الهدى رحمه الله ممّن يجازف بالقول أو يتسرّع، وينبغي التأمّل في كلامه والوقوف على مراده والتماس الوجه القريب فيه، وربّما يكون قد ذهب إلى هذا القول لأنّ النطق ليس من قابليّات النّملة، وليست هذه اللغة لغتها إن نطقت، وعلى كلّ حال فهو رأيه الخاص، وللعلماء الحق في قبوله أو ردّه.

ومن هذا الباب لا من غيره قول أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه في نهج البلاغة يصف الموتى: " لو استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية والرّبوع الخالية لقالت: ذهبوا في الأرض ضلاّلا ".

وأعذب كلام البلغاء والشعراء ما بُنِيَ على الإغراق والمبالغة، وأعذب تصويراتهم ما استنطقوا فيها الأحداث والحيوان والجمادات، كالأطلال والديار وما إلى ذلك، وأمثلة ذلك غير عزيزة في بابي الأدب والشّعر عموماً.

ومن هذا المنطلق هبّ شعراء أهل البيت عليهم السلام بمختلف الأذواق والأطياف والمستويات واللغات واللهجات لقول الشعر فيهم مدحاً ورثاءً، وتساوت كفّتاه في

---

(١) راجع المسائل الطرابلسية ضمن مجموع رسائل السيد المرتضى (١/ ٣٥٦).

ديوان الأدب الشيعي، وأعمل الشّعراء إغرقاتهم وأساليب بيانهم ووظّفوا خيالهم الجزل واللغة الخصبة لحكاية المأساة وألسنة الأحوال بأبلغ الصّور.

وأبدعت ريشة شعرائنا رحمهم الله في رسم الصّورة الحقيقيّة للفاجعة، ومن هؤلاء الأديب الأكمل السيّد حيدر الحلي رحمه الله الذي عُدّ من شعراء الطّف المجيدين المكثرين في رثاء الإمام الحسين عليه السلام، وفي إحدى روائعة يصف حالته بعد سقوطه في ساحة الحرب صريعاً على بوغاء كربلاء فيقول:

عفيراً متى عاينتهُ الكُماة	يختطفُ الرّعبُ ألوانَها
فما أجلت الحربُ عن مثلِهِ	صريعاً يجبّنُ شجعانَها
تريبَ المحيّا تظنُّ السّماءُ	بأنَّ على الأرضِ كيوانَها

فكما أن العيون تشخص إلى لمعان النّجوم في أفق السّماء وترقب حركتها وتستمتع بتلألؤها وتلاحظ نورَها.. خصوصاً إذا راقبت كوكب زحل البرّاق الذي تسميه العرب كيواناً.. فإنّ السّماء وهي تشخص إلى الطّف تظنّ زُحَلَها البرّاق يتلألأ على الأرض مع أنّ سراجَه الوضّاءتريب عفير.

ومثله الكثير من ألسنة الأحوال المتقنة، حتّى بلغ الحال معها أن ظُنّ أنّها ألسنة المقال، وتوهّم حتّى بعض الخطباء أنّها قول من حُكي عن لسانه القول، ونسب النّاس كثيراً من أبيات ألسنة الحال إلى الإمام الحسين عليه السلام وهماً وخطأً، وقد سارت أبيات الشيخ محسن أبو الحب الكبير رحمه الله في لسان حاله عليه السلام مسير المثل السائر، وأَلِفها كبار الشيعة وصغارهم:

وعَليّ أن أسعى إليكَ مقنطراً	فوقَ الثّرى وعليكَ أن تُرضيني
ورضايَ غُفرانُ الذّنوبِ لشيعةٍ	واعدتها الحُسنى و أنتَ ضَميني

هــذي رجــالي في رضــاكَ ذبــائحٌ ... مــا بــينَ منحــورٍ و بــينَ طعــينِ
(إن كــانَ ديــنُ مــحمّدٍ لم يَسـتقم ... إلاّ بقتلــي يــا ســيوفُ خُــذيني)

فظنّوا أنّه من قوله عليه السلام لانطباقه على واقع الحال..

وكـثيراً مـا يستشـهد الرّاثـون بشـعر بعـض الصّـوفية الرّقيـق لتجسـيد معنـى وتصويره وتقريبه، فهم يمتازون في باب الحبّ الإلهي بجزالة الشعر ورقّته، ولا مانع من استعارته والإستشهاد به تعزيزاً للشجى.. ومنه ما يستشهد من قول إبراهيم بن أدهم كلسان حال يحكي عشق الإمام الحسين عليه السلام لله تعالى ويصوّر هيامه في حبّه، فهو متطابق مع الواقع مطابقة ظُنّ معها كون القول له عليه السلام:

تركــتُ الخلــقَ طُــرّاً في هــواكَ ... وأيتمــتُ العيــالَ لكــي أراكَ
فلــو قطّعــتَني بالحــبّ إربــاً ... لمــا مــالَ الفــؤادُ إلى سِــواكَ

ولا ضيرَ في الإستشهاد كذلك بعيون الشعر المكنون في تراث العرب إذا ما وافق الحال، ففيه الغني بالبلاغة والرقّة والجزالة، ولا بأس في استعارة مقاماته البليغة، ومن ذلك حكاية لسان حال الإمام الحسين عليه السلام على مصرع ولده علي الأكبر عليه السلام بأبيات شعر تؤدّي حقّ رثائه وكأنّها ما صيغت إلاّ له، كما في قول هذه الأعرابية على قبر ولدها الوحيد:

كنــتَ السّــوادَ لنــاظري ... فعليــكَ يبكــي النّــاظرُ
مــن شــاءَ بعــدَكَ فليَمُــت ... فعَلَيــكَ كُنــتُ أُحــاذرُ

والسرّ في انتشار هذه الأبيات وقبول الذوق لها موافقتها لمقتضى الحال، ولهذا ظُنّ أنّها مأثورة عنهم عليهم السلام، ولا مانع من التعبير عن المصيبة بمقتضيات الشّعر المعهودة من ألسنة الحال والمبالغات شرعاً، ولو استقصينا أمثال ذلك في شعر

حسان والكميت والحميري ودعبل وغيرهم ممن أنشدوا بحضور النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام لفاق حد الإحصاء.

التغنّي بالمراثي

أثار بعض المتقدّمين والمتأخّرين شبهة تحريم الغناء في المراثي، وأدّى إلى احتياط البعض فيه، فلابدّ من الوقوف على هذه الشّبهة لرفعها من باب تتميم البحث وعرض العناوين المطروقة في الشعائر الحسينيّة.

والحق أنّ الفقهاء اختلفوا في الغناء من حيث الموضوع والحكم، والذي يمكن أن يُحكم بحرمته بحسب الصّناعة والقواعد هو المتيقّن كونه غناءً وليس غير ذلك، فرقّة الصوت وترخيمه وما يتداوله الذّاكرون في مآتم الإمام الحسين عليه السلام غير معلوم صدق الغناء عليه، بل هو معلوم العدم، وحضور العلماء على مرور الزّمان بلا تحاش وإمضاؤهم وعدم إنكارهم دليل على خروجه عن الغناء عندهم.

والإنصاف أن يُقال أنّ الأئمة عليهم السلام قد أخذوا الصّوت الحسن في مفهوم الإنشاد الذي رغّبوا إليه قطعاً، ودلّت النّصوص والأخبار الواردة عنهم عليهم السلام على أنّهم قدّروا استعمال ألحان الحزن عند الإنشاد، ويدلّ على ذلك ما تقدّم من قول الإمام الصّادق عليه السلام لأبي هارون: " **كما تنشدون** " يعني بالرّقّة.

وسواءً كانت عبارة " يعني بالرقّة " من قول الإمام عليه السلام أو قول الرّاوي فإنّها دالّة على المطلوب، لأنّها إن كانت من قول الرّاوي فهي الشّرح المؤكّد لكيفيّة الإنشاد وهيأته، وفهم الرّاوي مهمّ في المقام، وهو الأظهر من نصّ الرّواية.

هذا، وغير خفيّ أنّ الذي يتعاطاه المنشدون عادة ليس من الغناء المحرّم سواء

كان ذلك لإثارة السّرور أو الحزن، وعنون الفقهاء هذه المسألة بالذّات في كتبهم الفقهية وأثرَوها بالبحث، وصرّح المقدّس الأردبيلي رحمه الله والفاضل النّراقي رحمه الله بعدم حرمة الغناء في الرّثاء، واستدلاّ بعمل المسلمين في كل الأعصار والأمصار من غير نكير من زمن المشايخ إلى زمانهم[١].

وقال الفقيه الشيخ عبد الحسين الحلّي: " لا ريب في أن مجرّد مدّ الصّوت ورفعه ليس بغناء، فضلاً عن كونه محرّماً، كذلك مطلق تحسين الصّوت المتناول لمثل حسن جوهره ورخامته.. كيف، وقد كان الأئمة عليهم السلام أحسن النّاس أصواتاً بالقرآن، وكان عليّ بن الحسين عليه السلام يقرأ القرآن، فربّما مرّ به المار فيصعق من حسن صوته، والسقّاؤون يمرّون فيقومون ببابه يستمعون قراءته لحسن صوته، وكذا كان ولده أبو جعفر الباقر عليه السلام "[٢].

ووَرَد في أخبار أهل البيت عليهم السلام في أكثر من خبر مدح الصوت الحسن، خصوصاً في تلاوة القرآن الكريم، وعُدّ من الجمال، وروي كذلك عنهم عليهم السلام أنّه ما بعث الله نبياً إلاّ بالصوت الحسن[٣].

ورُوِيَ في أخبارهم عليهم السلام الترغيب في تحسين الصوت بقراءة القرآن، ففي

---

(١) راجع مجمع الفائدة والبرهان للمقدّس الأردبيلي (٨/٦١)، ومستند الشيعة للفاضل النراقي (٢/٣٤٣).

(٢) راجع الوسائل (٤/ ٨٥٩ و ٨٥٨)، والشعائر الحسينية في الميزان الفقهي للآية الشيخ عبد الحسين الحلي (١/ ٤٧)، وقد استفدنا من بحوث هذا الكتاب في تحرير مطالبنا.

(٣) راجع الكافي (٢/٦١٦)، وراجع مختلف أخبار هذا الباب في الكافي (٢/٦١٥).

بعضها: "إنّ لكل شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن" (١).

ورُوي في عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ قال: "أن تتمكّث، وتحسن به صوتك" (٢).

والكلام نفسه في مطلق ترجيع الصّوت، فلا دليل أو شاهد يؤدّي إلى الحكم بكونه غناءً، لا من العرف ولا من اللغة، ويؤكّد دعوانا الحديث المروي عند كافّة المسلمين عن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: " إقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وإيّاكم وألحان أهل الفسوق والكبائر، فإنّه سيجيء بعدي قوم يرجّعون القرآن ترجيع الغناء "(٣).

وفي الحديث دلالة ظاهرة على نفي مطلق الترجيع من الغناء، فالغناء المحرّم في القرآن هو المتضمّن ألحان أهل الفسق والكبائر، وهو المتداول في الملاهي، والحديث ينصّ على إخراج ألحان العرب من التّحريم، وهي طُرُقٌ وألحان معلومة ومعهودة متوارثة يعرفها أهلها.. والظّاهر أنّها لا تخلو من التّطريب والتّرجيع والتّحسين، وهذا واضح في كتب اللغة.

ففي الصحاح والقاموس والنّهاية: ومنه " إقرأوا القرآن بلحون العرب " وقد لُحّن في قراءته: إذا طرب وغرد، وهو ألحن الناس: إذا كان أحسنهم

---

(١) راجع الكافي (٢/٦١٥).

(٢) راجع الكافي (٤/٨٥٦).

(٣) هذه الرّواية بسندها كما في كتب أهل العامّة، وفي كتبنا: راجع الكافي (٢/٦١٤)، ورواه عن عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله.

قراءة وغناءً[١].

وبناءً على قول أهل اللغة فإنّ المحرّم من الغناء هو المستعمل عند أرباب الملاهي، لا مطلق غناء العرب، وفي كلا الغنائين تطريب وترجيع.

أمّا المحدّث الفقيه الشيخ يوسف العصفور ﵀ في الحدائق فإنّه حمل اللحن في هذا الحديث على اللغة، وليس على طُرُق العرب في أصواتهم، فيكون معنى الحديث: إقرأوا القرآن بلغة العرب، ويبدو أنّه أراد بذلك أن يُقرأ القرآن بلهجات العرب، والظّاهر أنّه ﵀ عمد إلى هذا الرّأي ظناً منه أن بقاء اللحن في معناه السّابق يوجب ظهور الخبر في جواز الغناء بالقرآن[٢].

أمّا الشّيخ الأعظم الأنصاري ﵀ في المكاسب فإنّه عدّ هذا الحمل خيالاً فاسداً، لأن مطلق اللحن سواء كان الترجيع أو التطريب ..إذا لم يكن لهوياً ليس بغناءً، وأن قوله ﷺ " إياكم ولحون أهل الفسق " نهيٌ عن الغناء[٣].

والحاصل أنّ للغناء كيفية خاصة من الترجيع معروفةٌ بين أهل الفسوق واللهو، وهي مستعملة دارجة في مجالسهم، ومن راجع الأخبار الدالة على حرمة الغناء بأسرها قطع بأن الحرمة من حيثيّة كونه لهواً وباطلاً، وهذا هو الرأي الذي خلُص إليه الشيخ الأنصاري ﵀ بعد البحث في مواضع متعدّدة من

---

(١) راجع النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢٤٢/١٤)، والقاموس المحيط (٣٧٤/٤)، والصحاح في اللغة (١٢٩٣/٤) وفيه الغرد - بالتحريك : التطريب في الصوت.

(٢) راجع الحدائق (١١٤/١٨).

(٣) راجع المكاسب المحرّمة (٢٨٠/٣).

المكاسب المحرّمة[١].

والمقصود كون الصوت بنفسه - مهما كانت مادته - صوتاً لهوياً يُناسبه اللعب بالملاهي والتكلّم بالأباطيل، ويناسب أهل الفسق والمعاصي، وهو حينئذ ترجيعهم الذي ورد النهي عن قراءة القرآن به، سواء كان هو الغناء كما هو الظاهر أو هو أخصّ منه[٢].

ولا يمكننا بحال أن نعتبر مطلق تحسين الصوت وترجيعه غناءً، خصوصاً وأنّ أغلب الأصوات المتّبعة والطّرق المعهودة في قراءة القرآن والخطب والمراثي لا تخلو من تحسين وترجيع للصوت، وهي تُقرأ على العلماء منذ قديم الزّمان وفي جميع الأمصار دون نكير منهم كما تقدّم.

وعلى كلّ حال، فقد استثنى بعض كبار الفقهاء الغناء في الرّثاء نظير استثنائه في الأعراس، كالآية الوحيد البهبهاني رحمه الله في محكيّ حواشي المسالك، والمحقّق الثّاني رحمه الله في جامع المقاصد، وبينما قالت طائفة بجواز الغناء في المراثي منعت طائفة أخرى صدق الغناء على المراثي أصلاً[٣].

ويظهر من المقدس الأردبيلي رحمه الله في مجمع الفائدة جواز الغناء في الرّثاء،

---

(١) راجع المكاسب المحرّمة (٣/٢٨١، ٢٨٧، ٢٣٥، ٢٩٥)، وللإطّلاع على الأخبار الدّالة على حرمة الغناء راجع وسائل الشيعة (١٢/٢٢٥ - ٢٣٢).

(٢) راجع المكاسب المحرّمة (٣/٢٨١).

(٣) راجع الموضوع مبسوطاً في: الشعائر الحسينية (١/٥٠)، وجامع المقاصد (٤/٢٣)، ومستند الشيعة للفاضل النراقي ص (٣٤٣).

وأشار في بحثه إلى أنّ هناك قائلاً بهذا القول قبله[1].

وكذلك هو قول تلميذه الفاضل السبزواري ﵀ في كفاية الأحكام، فقد جوّز الغناء في الرّثاء، وجوّزه كذلك في كل ما ليس بلهوٍ ولا باطل من قرآن ومناجاة[2].

وحكى الشيخ الأنصاري ﵀ في المكاسب عن بعض أهل عصره تقليداً لمن سبقه من الأعيان منع صدق الغناء في المراثي[3].

واستظهر الشّيخ الحلّي ﵀ في الشعائر أن يكون قصد الشّيخ الأعظم ﵀ بقوله " من سبق من أعياننا " الشّيخ جعفر كاشف الغطاء ﵀ في محكي شرح القواعد، فإنه حُكي عنه دعوى أنّ الغناء والرثاء متغايران متباينان موضوعاً وحُكماً، لا يطلق أحدهما على الآخر عُرفاً.

وقال ﵀ : " وهذا منه مبنيّ على أن لمواد الألفاظ دخلاً في كون الصّوت غناءً أو رثاءً، والتحقيق خلاف ذلك، وكيف كان، فقد قال هؤلاء المجوزون أنّ الأصل الجواز بعد قصور أدلة الحرمة عن الشمول لذلك، أما الإجماع فلانتفائه في محل الخلاف، مع كونه دليلاً لبّياً، وأما الأخبار فمع قصور إطلاقاتها معارضة بالمحكي عن قرب الإسناد عن علي بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام قال: سألته عن الغناء في الفطر والأضحى والفرح، قال: لا بأس ما لم يعص به "[4].

---

(١) راجع مجمع الفائدة والبرهان (٦١/٨).

(٢) راجع كفاية الأحكام ص (٨٦)، وزاد ولده ﵀ في كتابه مشارق الأنوار: رثاء أولاد الأئمة عليهم السلام وأصحابهم إذا قصد به الإبكاء والتحزين.

(٣) راجع المكاسب المحرّمة (٢٦٩/٣).

(٤) راجع قرب الإسناد ص (٢٩٤). ونصّ الرّواية كما في كتاب علي بن جعفر: لا بأس ما لم

وظاهر مراده بعدم العصيان هو عدم قيامه بكلام لهوٍ أو باطل أو بمزمار وآلة لهو وما شابه ذلك.

وذكر الشّيخ الأنصاري رحمه الله ذلك في المكاسب، وقال: " ولا يضر اشتمال الخبر على جواز الغناء في غير النّوح مما لا يقولون بجوازه فيه، ويحتمل أن يراد بالغناء في الجميع لحن العرب وترجيعهم، وهو ليس بغناء حقيقة "[1].

وقد عقد أعلام الطّائفة مباحث هذه المسألة في الكتبَ الفقهية الإستدلالية المبسوطة، وتجد بحثها مفصّلاً في تقريرات أستاذ الفقهاء والمجتهدين آية الله العظمى السيّد الخوئي رحمه الله ضمن كتاب مصباح الفقاهة، فإنّه قد ذكر الرّثاء في جملة المستثنيات من الغناء المحرّم، وفي نفس المبحث ينتهي إلى خروج المراثي عن أقسام الغناء موضوعاً لا حكماً لخلوّه من الطّرب، فراجع[2].

هذا، وقد أكّد المقدس الأردبيلي رحمه الله على جوازه في الرّثاء، وقال بأنه متعارف دائماً في بلاد المسلمين من زمن المشايخ إلى زمانه من غير نكير، وأيّد ذلك بما دلّ على جواز النّياحة بالغناء وأخذ الأجرة عليها، ثم ذكر أخبار جواز مطلق النّياحة الشاملة للغناء ومؤيداتها، وكذلك مؤيّدات جواز الغناء في الرثاء من أنّ تحريم الغناء للطرب، ولهذا قيّد بالمطرب، وليس في المراثي طرب، بل ليس فيها إلاّ الحزن.

يزمر به، بدلاً من: لا بأس ما لم يعص به. وهو أدلّ على المراد.

(١) راجع المكاسب المحرّمة (٣/٢٦٠ - ٢٦١).

(٢) راجع كتاب مصباح الفقاهة للتوحيدي، تقريراً لبحوث السيّد الخوئي رحمه الله (١/٣١٣).

إلى أن قال: " وبالجملة، عدم ظهور دليل على التحريم، والأصل، وأدلة جواز النياحة مطلقاً بحيث يشمل الغناء، بل إنّها لا تكون إلاّ معه، تفيد الجواز، والاجتناب أولى وأحوط "(١).

وعقّب عليه الفقيه الشيخ الحلّي ﵀ في الشعائر: " ويؤيّد هذا - وإن لم أذهب إليه وأختاره - خبر أبي هارون المكفوف: قال " قال لي أبو عبد الله: أنشدني في الحسين ﵇ فأنشدته، قال: أنشدني كما تنشدون، يعني بالرقة، فأنشدته: امرر على جدث الحسين.. " وخبره الآخر: " قال: دخلت على أبي عبد الله ﵇ فقال: أنشدني، فأنشدته، فقال: لا، كما تنشدون، وكما ترثيه عند قبره، فأنشدته.. " فإن قوله ﵇ في هذين الخبرين " كما تنشدون " يراد به - على الظاهر - كما تنشدون الشعر في ما بينكم بالألحان المهيّجة للبكاء المثيرة للحزن، ويومي إليه قوله في الخبر الأول " يعني الرقة " أي بترقيق الصّوت ومدّه والتمكّث فيه، فإن الصوت واللحن من الأمور المرقّقة للقلب، المعدّة له أن يتأثر بسرعة بتذكر الأحوال الذي لا يمكن إنكار سببية اللحن له ".

والمحصّلة هي جواز الغناء في المراثي، أو خروجه عن الغناء المحرّم، ومعنى الخبرين المتقدّمين هو ما يعرفه عامّة الشّيعة من غير تردّد، وقد شبّ عليه الصغير وشاب عليه الكبير، وعهدوه جيلاً بعد جيل، غير أنّه شُبّه على البعض فيه فتوهّم الخلاف، وتسرّع بعض فحرّم بعض مظاهر الرّثاء، ولا نلوم من قال ذلك من الفهاء بناءً على فهمه للأدلّة الشرعيّة، ولكنّنا نلوم من حمّلوا أذواقهم على الحكم

---

(١) راجع مجمع الفائدة والبرهان (٨/٦١-٦٢).

الشّرعي فوجّهوا النّصوص جهة رغبتهم سعياً منهم إلى إرضاء الآخرين .

ونقول مجدّداً.. إنّنا قد ألفنا مجالس الإنشاد والتّعزية المقامة على أهل البيت عليهم السلام ورأينا الخطباء والرواديد على المنابر والمنصّات وفي المواكب ولم نعهد منهم غناءً مُحرّماً، والأخبار صريحة بجواز هذا المقدار، ونحن نبرأ ممّا يشتمل على تراجيع أرباب الملاهي وإطرابهم أو ما يناسب مجالسهم فهو محرّم قطعاً، ونربأ كذلك بخدّام أهل البيت عليهم السلام من الوقع في محاذير الحرمة.

نعم.. طلعت علينا في الفترة الأخيرة طائفة من هؤلاء ممّن شيّدوا بسيرتهم هذه الشّبه، وصدر منهم ما لا يتناسب وشأن الطاهرين عليهم السلام ، وينبغي تنزيه هذه الوسائل التي شادها الأئمة عليهم السلام وعدم العبث بالأسس التي أكّدوها في كلماتهم، ويجب على الجميع الإحتياط ومراعاة شؤون هذه الوظيفة الجليلة، والترفّع عن أحوال أهل الغناء والفسوق في هيئاتهم ومظاهرهم وألحانهم، تنزيهاً للشعائر ممّا قد يشينها، ويجب على عامّة المؤمنين كذلك السّعي في التنبيه والتذكير والإصلاح في هذا المجال، فضلاً عن العلماء، والكلّ مكلّف بحماية هذه المظاهر.

والأعظم من ذلك أن يُشاد المحفل مدحاً أو رثاءً فلا يؤدّى فيه حقّهم عليهم السلام بل ولا يذكرون إلاّ قليلاً! وتشرّق قصائد بعضهم وتغرّب بعيدة عن فضائلهم ومصائبهم، والأشنع أن يورد بعضهم مآسي غير الأئمة عليهم السلام ، وقد تتوهّم أحياناً أنّك تسمع نشرة أخبار على إيقاع لطميّة مع أنّك في موكب عزائي!

ولا نُنكر على هؤلاء تضمين بعض المقاصد الأخرى في الرّثاء، فهي ضمائم راجحة ومُهمّة، إلاّ أنّنا ننكر سلخ العزاء الحسيني عن قصده ومنهجيّته وأصالته وفحواه في أيّ مظهر من مظاهره وشعائره، ويجب إعادة هؤلاء إلى الجادة القويمة.

شعيرة التمثيل

أصبح التمثيل من المظاهر التي لا تنفك عن تجديد ذكرى عاشوراء، وأضحت التشابيه جزءً لا يتجزّأ من الشّعائر الحسينية، وألفت الشيعة هذا النشاط في مواسم الحزن، وارتبطت به في بعض البلاد حتّى صار نشاطها الرئيسي في العشرة الأولى من المحرّم، ولا تزال هذه الشّعيرة تتصدّر الشّعائر في المدن والقُرى الإيرانيّة، ولا زالت ظاهرة قويّة في العراق والبحرين وبعض دول الخليج العربي، ويبدو أنّ هذه الشعيرة هي الرائدة حاليّاً عند شيعة تركيا.

وسواء عنينا بذلك العرض المسرحي في موضع محدود، الذي يأخذ طريقة الفصول المتعدّدة، أو التمثيل المتجوّل الذي يجوب الشّوارع، الذي يُكتفى فيه بالمظاهر المعبّرة والمشاهد المقتضبة، أو اللقطات الجزئيّة التي تُعرض أثناء الخطابة والمجلس الحسيني، فهي كلّها نشاطات راجحة وداخلة ضمن مفهوم العزاء العام على الإمام الحسين عليه السلام، وفي مشاهدها يتم تصوير وتقريب الأحداث الغابرة بوسيلة التمثيل وعرضها بأسلوب فنّي رائع، وهي الطريقة المثلى لتركيز الحدث وهي الوسيلة التي تتفوّق حتّى على شعيرة المجلس من هذه الحيثيّة، وبما أنّها تعتمد على تصوير الأحداث والتّشابيه والحكاية والوصف والرواية القصصيّة فقد آثرنا أن ندرجها ضمن شعيرتي الشّعر والإنشاد لانطباقها على الشعر من هذه الجهة.

وإنّ قضيّة كقضيّة كربلاء محمّلة بالعبر والمعاني والمواقف والأبعاد تطفح على الزّمان والمكان لابدّ لها من قنوات وصفيّة متعدّدة ومستمرّة، ولابدّ من إحياء أخبارها ورواياتها من جمود الأحرف وحبس الكتب وكتم السّطور، ومن المهم

تحريكها بالشكل المطلوب، وإنّ ذلك يحتاج إلى وعي بجوانب الحدث وجهد فني كبير يرقى إلى مستوى الواقعة ويرقى إلى الأسلوب العصري المتقدّم.

ويحتلّ التمثيل من بين وسائل التصوير محلاً مهمّاً، فالرؤية والمتابعة القصصية تتفوّق على القراءة والسّماع والإستماع، وعبرها يتمّ تصوير الدّروس الحسينيّة وتبسيطها ونقلها إلى قلوب الأحرار، وهي الأجدر باختراق الخواطر والثبات في القلب.

والرواية التمثيليّة عظيمة الأهميّة في الحضارات الأخرى، إلاّ أنّها لم تدخل إلاّ قريباً في دنيا العرب لتكون ضمن فنونهم، وهي تعكس الفكر والأخلاق والآداب والعادات، غير أنّ العرب لم يكن لهم همّة في هذا المجال، ولم يعرفوه إلاّ قبل منتصف القرن التاسع عشر، وربّما بعد ذلك.

وإن حاول بعض الباحثين في هذا المجال إثبات قدمه عند العرب، فاعتبر الكثير من الطقوس الإجتماعية ظواهر بدائيّة للمسرح، واعترف الجميع بأنّها لم تتطوّر إلى فن مسرحي كما هي في سائر أجزاء الأرض، والملفت في تاريخ العرب وجود مسرح " خيال الظّل "، فروي في الديارات أنّ دعبل الشّاعر هدّد إبناً لطبّاخ المأمون بالهجاء، فردّ عليه الإبن: والله إن فعلت لأخرجنّ أمّك في الخيال !! وهو أرقى مظهر تمثيلي كان يُعرف في ديار العرب، وهو تمثيل بوساطة الصّور التي يحرّكها اللاعبون، مضافاً إلى ما تعاطاه العرب من فنون الرّواية والحكاية والسّماجات التي كانت تُعرض على شكل مقاطع تمثيليّة هزليّة في أبلطة الحكّام

العبّاسيّين أيّام النوروز[١].

إلاّ أنّها ظواهر بدائيّة ليست بالمستوى المُنهج والعريق كما هي عند أمّة اليونان، وليست إلاّ بدايات لا أظنّ أنّها سترتقي لو لا وفود الفن من الخارج، وفي الباحثين العرب من لم يعتبر هذه الظواهر مسرحاً أصلاً، واعتُبر أوجه الآراء ما خلُص إليه الباحث جرجي زيدان من أنّ التمدّن الإسلامي خال من التمثيل إلاّ ما كان فيه من قبيل الشعائر الدينيّة **كتمثيل قتل الحسين عليه السلام عند الشيعة**[٢].

وكان قبل ذلك العرب بعيدون عن هذا الفن، ورأى زيدان أنّ السّبب في تقاعدهم عن فنّ التمثيل هو احتياجه لظهور المرأة على المسارح، وهم يتجافون ذلك بسبب الحجاب الواجب على المرأة في الإسلام، أو لبُعدهم عن الشّعر القصصي الدّارج في باقي الأمم، على أنّ أبا العلاء المعرّي وضع شيئاً كالدّراما "رسالة الغفران" تشبّه بالكوميديا وإن لم يقصد تمثيلها.

ثم تابع زيدان القول: ويظهر أنّ الشّيعة في بلاد فارس لم يبالوا بهذه الموانع في تمثيل مقتل الحسين عليه السلام في كربلاء، فإنّهم يمثّلون تلك الواقعة على المراسح في عاشوراء، وتبدأ هذه الرّواية بيوم خروج الحسين عليه السلام من مكّة وتنتهي بقتله، أو هو الفصل الأخير منها ويسمّونها " روز قتل " أي يوم المقتل، فهذا الفصل يمثّلونه يوم عاشوراء بحضور الشّاه ورجال دولته في ساحة كبيرة فيشخّصون الحسين عليه السلام

---

(١) راجع مقال " المسرح عند العرب قديماً " الدكتور علي الراعي، المطبوع ضمن كتاب العربي (١٨) المقال (١) سنة ١٩٨٨ م.

(٢) راجع مقال " المظاهر المسرحيّة عند العرب " الدكتور أحمد عُلبي، المطبوع ضمن كتاب العربي (١٨) المقال (٢) سنة ١٩٨٨ م، وقال: وهذا رأي نقرّ بوجاهته.

وشمر والعبّاس عليه السلام وجعفر وزينب وسكينة وكلثوم وليلى وعمر بن سعد وغيرهم، وكيفية الواقعة من أوّل النّهار إلى آخره ومقتل الحسين عليه السلام وأصحابه.

يفعلون ذلك في ساحة ينصبون فيها الخيام، عليها شارات الحداد، فيقوم شيخ يقرأ على النّاس حكاية مقتل الحسين عليه السلام بنغم محزن ولا يكاد يبدأ القراءة حتى تهيج عواطف السّامعين فيبكون ويندبون وينوحون، فيطوف عليهم شيخ بقطنة يلتقط دموعهم ثم يعصرها في قارورة تحفظ بها للإستشفاء، وقد وصف ذلك الإحتفال الرّحّالة "موريه" في رحلته الثّانية إلى فارس سنة ١٨١١ هـ[١].

ويظهر أنّ جرجي زيدان الذي اعتمد في نقل صورة المسرح الحسيني على الرحّالة " موريه " فاته أنّ الفُرس أيضاً كانوا لا يُظهرون النساء في تمثيل قصّة الحسين عليه السلام حالهم حال العرب، إلاّ أنّ الرّجال كانوا يتشبّهون بالنّساء فيها، وقد أجاز الفقهاء ذلك لأنّه ليس من التشبّه المحرّم وسيأتي بيان ذلك.

ويرجع اهتمام الفرس بالتمثيل الحسيني إلى وجود هذا الفنّ في حضارتهم، وتشيّعهم وتعلّقهم بهذه القضيّة بالذّات، وقد تعزّز ذلك بدعم الدّولة التي ساهمت في دفعها وعملت على توطيد مختلف الشعائر الحسينيّة، وكان التمثيل يجري بحضور كلّ حكّام الدّولة.

---

(١) راجع تاريخ آداب اللغة العربيّة لجرجي زيدان ج (١٤) من مجموعة مؤلّفاته الكاملة ص (١٥٤) طبع سنة ١٩٨٢ م، وعندي نسخة قديمة من كتابه طبع ١٩١٢ م وفيها صورة نادرة للتمثيل الحسيني في إيران، وهي ليست في الطّبعة الجديدة.. وتجد ذكريات الرّحالة " موريه " في رحلته الثّانية إلى فارس سنة ١٨١١ م في مجلّة الهلال المصريّة، السنة (١٨) ج (٨) ص (٤٦٦) أيار ١٩١٠ م، وفيها وصف الإحتفال بشكل يحرّك المشاعر ويهزّ الأفئدة.

ويقول الدكتور أحمد عُلبي : وهكذا فإنّ هذا التشخيص لا يمكن أن يُنسب إلى المجتمع العربي ، ونعتقد أنّه من الصعوبة بمكان إن لم يكن من المحال أن يجري نظير هذا الإحتفال في الوسط العربي ، اللهم إلاّ بسريّة وتكتّم ، وفي بقع شيعيّة الهوى ، خاصّة في العراق المتاخم لإيران ، وذلك لأنّ السلطة الأمويّة فالعبّاسية بعدها لم يكن ليروق لها أبداً أن تسمحا للمعارضة العلويّة بفرصة ثمينة تعرض من خلالها قضيّتها وتنافح عنها على نحو غير مباشر[(١)].

والظّاهر أنّ تمثيل موقعة كربلاء لم يبدأ إلاّ في القرن السادس عشر الميلادي في إيران الصّفوية ، وينسب التراث الشعبي الفارسي نشأته إلى الشاه " إسماعيل الصفوي " ثم شجّع الشاه " عباس الصّفوي " هذه الشعيرة.. ثمّ تابع حكّام فارس القاجاريّون تقليد تمثيل موقعة كربلاء ، وفي عهد أول شاه قاجاري " الآغا محمد خان " أصدر الفقهاء وعلى رأسهم الفقيه الفاضل القمي رحمه الله فتوى تشريعه.

وقد تخطّى الشّيعة كلّ العقبات ووظّفوا جميع فنونهم وإمكانيّتهم وخصائص بيئاتهم التّراثية لرفع اسم الإمام الحسين عليه السلام والتصدّي لهذا الشّعار ، حتّى تمكّنوا من تطوير هذه الحركة الفنيّة شيئاً فشيئاً فنمّت مؤخّراً عن ظهور أفلام عصريّة تحاول نقل فصول الحدث بوقائعه وأحزانه ، وقد بدت هذه الأعمال ملفتة وجذّابة لعظمة الموضوع ، إلاّ أنّي أرجوا أن تكون أكثر ضبطاً للنصّ ومنهجيّة ودقّة في المستقبل ، وأن ترقى بمستواها لتنافس أرقى أفلام العصر ، وبذلك تكون الشّيعة قد

---

(١) راجع مقال " المظاهر المسرحيّة عند العرب " الدكتور أحمد عُلبي ، المطبوع ضمن كتاب العربي (١٨) المقال (٢) سنة ١٩٨٨ م ، وهو مقال قيّم ، ويسعرض فيه الكاتب مظاهر أبعاد التمثيل الحسيني ونشأته في النبطيّة بلبنان.

أدّت دورها المطلوب من خلال هذه الشّعيرة المهمّة.

وأثار تعجّبي أنّي وضعت قلمي لأكتب في هذه الشعيرة باقتضاب، إلاّ أنّني حين واجهت المصادر رأيتُ مادّة تربو على الكتاب، ولكنّني سأجانب الإطالة مكتفياً بالمهم منه، فإذا ما استقصينا مادّة التمثيل في النصوص الشرعية وجدناها لائحة بشكل كافٍ لتأسيس التّشابيه الحسينية..

ولا يمكن تحريم التمثيل الحسيني مع وجود قاعدة أصالة الإباحة، ولم يرد في الشّريعة دليل يمنع عنه، وهو داخلٌ في مدلولات العمومات الكثيرة الحاثّة على إقامة الشّعائر الحسينيّة، من قبيل عموم "من بكى وأبكى وتباكى" و "أحيوا أمرنا"، ويمكن أن يُستفاد من عمل أسرة الإمام الصّادق عليه السلام حين أنفذوا رضيعاً للإمام عليه السلام وهو في مجلس المأتم تشبيهاً له برضيع الإمام الحسين عليه السلام، كما في الرّواية التي نقلها المرحوم الدّربندي رحمه الله في أسرار الشّهادة.

فلا كلام فيها من النّاحية الشّرعية، ويكفي كونها صارت ظاهرة من ظواهر الشّيعة في كثير من بلدانهم في عاشوراء لإثبات كونها من الشّعائر، إلاّ أنّ العلماء نبّهوا على حسّاسيّة التمثيل من جهات ينبغي مراعاة الحيطة فيها، كحفظ الموازين الدّقيقة في اختيار الأخيار والمؤمنين للقيام بأدوار الشخصيّات المقدّسة لأهل البيت عليهم السلام، والحذر من التجرأ وفتح الباب بإظهار ملامح المعصومين ووجوههم، وبعض الفقهاء المعاصرين يحرّمون تمثيل المعصومين عليهم السلام مطلقاً، والواجب الأهم هو حفظ مقامهم عليهم السلام وصيانة الحدث من الخدش أو التشويه.

ويبقى الكلام في إشكال تشبّه الرجال بالنساء، فهم يلبسون عادةً ما يجلّلهم بالسّواد من قرنهم إلى قدمهم فيبدو أحدهم للرائي أنّه امرأة، ولم يثبت في الشرع

تحريم ذلك، كما أنّه لا قائل بحرمته نصّاً أو ظهوراً.

والقدر المحرّم المعلوم من التشبّه في الشّرع هو تأنّث الرجل وعدّ نفسه امرأة بالتزيّي بزيّها، لا بمجرد اللباس، وقد جاء في أخبارنا مشتهراً أن أمير المؤمنين عليه‌السلام سيّر من البصرة إلى المدينة أربعين امرأة برفقة عائشة ألبسهنّ العمائم والمناطق والأردية والدّروع، وأمرهنّ بحمل السيوف والرّماح[1].

وقال الشّيخ الأعظم الأنصاري رحمه‌الله في المكاسب بعد ذكر الحديث النبوي المشهور "لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال": وفي دلالته عليه - يعني على حرمة مطلق التشبيه - قصور، لأن الظاهر من التشبّه تأنّث الذكر، وتذكّر الأنثى، لا مجرد لبس أحدهما لباس الآخر مع عدم قصد التشبيه، ويؤيّده المحكي عن العلل أن علياً عليه‌السلام رأى رجلاً تأنث في مسجد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال له: اخرج من مسجد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فإني سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول: لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال وهم المخنّثون، واللائي ينكحن بعضهنّ بعضاً.

ثم ذكر رحمه‌الله روايتين تدل إحداهما على كراهة أن يجرّ الرجل ثوبه تشبّهاً

---

(١) وفتوى تحريم أن يتأنّث الرجل ويعدّ نفسه امرأة بالتزيّي بزيّها، لا بمجرد اللباس، وإباحة ما دون ذلك، عليها معظم فقهائنا، فبهذا أفتى الميرزا القمي رحمه‌الله في جامع الشتات (٢/٧٥٠ و ٧٨٧)، والشيخ الأعظم الأنصاري رحمه‌الله في المكاسب (٢/١٩١)، والمحقق العلامة الميرزا محمد حسين النائيني الغروي رحمه‌الله في منشور له مطبوع وقد ذكره الشّيخ عبد الحسين الحلّي رحمه‌الله في كتابه الشّعائر الحسينيّة، والفقيه الشيخ عبد الله المامقاني النجفي رحمه‌الله في استفتاء له، تجده في كتاب فتاوى العلماء الأعلام في تشجيع الشعائر الحسينية ص (١٤) وفي الكتاب فتاوى أخرى مهمّة.

بالنساء، والأخرى على زجر رسول الله ﷺ عن التشبه بالنساء، وقال إن فيهما ظهوراً في الكراهة بقرينة المورد، وانتهى إلى أنّ الحكم بالتحريم لا يخلو عن إشكال[1].

وقال المحقق الميرزا القمي رحمه الله: المستفاد من الأخبار المانعة من تشبه الرجال بالنساء هو الخروج من زي أحدهما والدخول في زيّ الآخر، بحيث يعدّ الرجل نفسه من صنف النساء، وبالعكس، أما التشبه بامرأة خاصة في زمان قليل لغرض خاص فهو خارج عن منصرف الأخبار، واستطرد في أثناء كلامه تشبه رجل برجل، كتشبه أحد بالحسين عليه السلام وآخر بأحد أعدائه، واستوجه رجحان ذلك إذا كان المقصود به الإبكاء ونحوه من الأمور الراجحة، خصوصاً التشبه بالأعداء، لما فيه من قهر النفس وإذلالها، لطاعة الله بنفس التشبّه بهم[2].

وعدّ البعض تشبّه أحدٍ بالإمام الحسين عليه السلام توهيناً له، خصوصاً إذا لم يكن من أهل الصّلاح والشّرف، مع أنّ التوهين عنوان لا يتحقق بفعل دون قصده، حاله حال الظلم، خصوصاً أنّ المقصود بها الإبكاء على مصاب الإمام الحسين عليه السلام وحكاية واقعة المصيبة، وقال من أجاز أنّ الأولى أن يُختار الأخيار لتمثيل دور الإمام عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام، ولكنّ في الفقهاء الأعلام المعاصرين من قال بتحريم تمثيل المعصومين عليهم السلام مطلقاً، وهذا يقتضي الإحتياط والحذر.

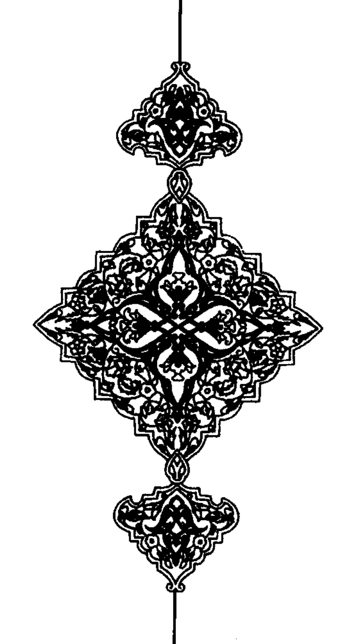
---

(١) راجع المكاسب المحرّمة (٢/١٨٩ و ١٩١).

(٢) أوردنا ملخّص ترجمة كلامه عن الفارسيّة عن كتاب الشّعائر الحسينيّة للفقيه الحلّي رحمه الله، وراجع جامع الشتات (٢/٧٨٧)، وعلى ذلك الفقيه الحائري المازندراني رحمه الله في ذخيرة المعاد ص (٣٦٨).

الشعيرة الخامسة

الزيارة



الزيــارة

أذَن الله تعالى أن تُرفع بيوتُ آل محمّد ﷺ ويُذكر فيها اسمه، وجعل محالّهم مطافاً لطلاّب البركة وملتمسي الرّحمة، فحَفّ المؤمنون بقبورهم الشريفة، وتحصّنوا في حصون الأمان والإيمان، والتجأوا إليهم في شعائرهم..

وأذَن الله تعالى أن تُفتح أبوابُ بيوت آل محمّد عليهم السلام بعد أن رفع منارها، وشرّف الله تعالى نُخبة من عباده بقصد هذه البيوت والدّخول في هذه البيوت الطّاهرة، وكرّمهم بالزيارة لها والتبرّك بآثارهم فيها، حتّى صارت الزّيارة من شعائر الدّين المهمّة لديهم، وخصوصاً زيارة الإمام الحسين عليه السلام فقد ورد في فضلها ما لم يرد في حقّ أيّ عبادة من العبادات.

وفتَح الأئمة عليهم السلام باب الرّحمة على مصراعيه حين ندَبوا إلى زيارة قبورهم المشرّفة، إذ أنّ للوقوف في مشاهدهم إشراقاتٌ خاصّة، يدركها من أدركها، وهذه نعمة سابغة حظى بها بعض المخصوصين بالكرامة من الأمّة، وحرَم بعضٌ انفسهم منها، بدواعي الخلاف والشُّبَه..

ولهؤلاء الذين توهّموا أنّ زيارة قبورهم بدعية مُحدثة في الدّين نقول: إنّ القرآن الكريم شيّد هذا المبدأ، رغم أنّه لم ترد آية صريحة في زيارة المشاهد المشرّفة وتشييدها، لكنّها وردت بمضمونها في القرآن الكريم.

وفي قصّة الكهف ـ التي استعرضناها في مقدّمة كتابنا ـ يقول تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾.. يستفاد من الآية وأجواء القصّة أن المسلمين الغالبين على الأمر وهم أصحاب فكرة التوحيد والمعاد والنشور هم أصحاب فكرة بناء المسجد على تلك القبور، وتُشعر الآية بإقرار ذلك لهم كما هو واضح، من غير نكير على فعلهم[١].

وبناءً عليه فإنّ قبور أصحاب الكهف صارت مزاراً يرتاده الموحّدون بارتيادهم المسجد، ومحلاّ لزيارتهم، وعُدّت قبورهم من أسبق الأمثلة تاريخيّاً بحسب تدوين القرآن الكريم على تعظيم القبور، ولم يُنكر عليهم ذلك.

وجاء مضمون زيارة القبور في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ فهي الآية التي تنهى رسول الله ﷺ عن القيام على قبور المنافقين.. والمراد من الصلاة هنا خصوص صلاة الميّت، ودلّ على ذلك سياقها وسبب نزولها، ومحل كلامنا في الآية قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ فقد ذهب كثيرٌ من المفسّرين إلى أنّ هذا الوقوف المنهي يتعدّى وقوف النبي ﷺ عند قبورهم وقت الدّفن، بل يقصد به كلّ وقت، سواءً للدفن أو الزيارة[٢].

---

(١) ولا يمكن أن يكون صاحب فكرة المسجد هذه من غير المسلمين والموحّدين قطعا كما هو بيّن، ولترجيح أن الذين غلبوا هم أهل التوحيد راجع: مجمع البيان للطبرسي (٥/٧١٠)، التفسير الكبير للفخر الرازي (١١/١٠٦)، فتح القدير للشوكاني (٣/٢٧٧)، تفسير الميزان للطباطبائي (١٣/٢٦٧).

(٢) راجع أنوار التنزيل للبيضاوي (١/٤١٦)، وروح المعاني للآلوسي (١٠/١٥٥)، وروح البيان

وتقريب الإستدلال: أنّ هذا النهي إذا ورد في شأن المنافقين أو من مات على الكفر كما هو صريح الآية، فهو في غيره غير منهي، فالوقوف على قبر المؤمنين جائز بمفهوم الآية قطعاً.. وما الذي يضرّ بدين المسلم إذا وقف على قبر أخيه بقصد زيارته والدعاء والإستغفار له، وهذا هو قصد النبي ﷺ في وقوفه على القبور التي وقف عليها.

وورد مضمون زيارة القبور في قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾**(١).

وكان المذنبون يأتونه ﷺ في حياته ويطلبون منه الإستغفار والشّفاعة، وكان يستغفر لهم، والآية ظاهرة في تكريمه ﷺ من هذه الجهة، ولا يمنع شيء من

للبروسوي (٣/٣٧٨).

(١) وفي مجمع البيان (٣/١٠٥)، وتفسير الرازي (٥/١٦٧ - ١٦٨) وكثير من التفاسير أنّ الآية بحسب السّياق تعني المنافقين في حادثة معيّنة، فقد ارتضوا التحاكم إلى الطاغوت فراراً من التّحاكم إلى النبي ﷺ ولو أنّهم جاؤوه ﷺ وأظهروا الندم على ما فعلهم وتابوا عنده واستغفروا الله واستغفر لهم ﷺ لتاب الله عليهم. وقيل إنّها نزلت في قوم من المنافقين عدّتهم إثنا عشر رجلاً، اجتمعوا على الكيد بالنبي ﷺ، ثمَّ دخلوا عليه لذلك الغرض فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره به. فقال ﷺ: إنّ قوماً دخلوا يريدون أمراً لا ينالونه، فليقوموا وليستغرفوا الله حتى استغفر لهم، فلم يقوموا.

فقال: ألا تقومون !! فلم يفعلوا، فقال ﷺ: قم يا فلان، قم يا فلان، حتى عدّ اثني عشر رجلاً، فقاموا، وقالوا: كنّا عزمنا على ما قلت، ونحن نتوب إلى الله من ظلمنا أنفسنا، فاستغفر لنا، فقال: الآن أخرجوا عنّي، أنا كنت في أول أمركم أطيب نفساً بالشفاعة، وكان الله أسرع إلى الإجابة.

سريان هذه الخصوصية فيه ﷺ بعد رحيله، فهو إمامٌ حيّاً وميّتاً كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام وقد قامت سيرة المسلمين على إتيان قبره وزيارته والإستغفار عنده وطلب الشّفاعة بين يديه.

والتزم العلماء استمرار خصوصيّات النبي ﷺ حتّى بعد رحيله، فالآية الشريفة: ﴿**لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ**﴾ حيّة كما أنّها في حال حياته، ويُستدلّ بها لخفض الصوت عند مرقده الشّريف[1].

---

(١) وقال السبكي في شفاء السقام للسبكي ص (٦٩ - ٧٠): " دلّت الآية على الحث على المجيء إلى الرسول ﷺ والإستغفار عنده واستغفاره لهم، وذلك وإن كان ورد في حال الحياة، فهي رتبة له لا تنقطع بموته، تعظيماً له ". وقال: " والآية وردت في أقوام معينين في حالة الحياة، فتعمّ بعموم العلّة كل من وجد فيه ذلك الوصف في الحياة وبعد الموت، ولذلك فهم العلماء من الآية العموم في الحالتين، واستحبّوا لمن أتى قبره ﷺ أن يتلو هذه الآية ويستغفر الله تعالى".

وروى: أنّه اجتمع مالك بن أنس مع أبي جعفر المنصور في الرّوضة الشريفة عند قبر النبي ﷺ وكان أبو جعفر قد رفع صوته هناك فاستنكر عليه مالك قائلاً: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإنّ الله تعالى أدّب قوماً فقال: ﴿**لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾ ومدح قوماً فقال: ﴿**إنّ الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله**﴾ وذمّ قوماً فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ**﴾ وإنّ حرمته ميتاً كحرمته حياً. فسأله أبو جعفر المنصور: أستقبل القبلة وأدعوا، أم استقبل رسول الله ﷺ !! فقال مالك: ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة ؟! بل استقبله واستشفع به فيشفّعه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً**﴾.

وأمّا النّصوص الواردة في زيارة النبي ﷺ للقبور فهي مستفيضة، تتفاوت عناوينها بين المشروعية والإستحباب، وهي مدعومة بفعل النبي ﷺ وقوله، والمعلوم أنّ الأصل في الأشياء الإباحة وليس الحضر، وقد أبيحت زيارة القبور إستمراراً لما عليه الشرائع السّابقة، وتقدّم بيان ذلك في آية الكهف، ويظهر من بعض أحاديث أهل السنّة ورود المنع المعلّل عن الزيارة بعد فترة الإباحة ثمّ الإباحة.

فقد أخرج مسلم قوله ﷺ: كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها[1].

والحديث ظاهر في الإباحة ثم الحضر ثمّ الإباحة، وفي حديث آخر مرويّ عن ابن عباس يذكر فيه النبي ﷺ علّة الحضر المؤقّت..

فيروى أنّه ﷺ قال:

"نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، ولا تقولوا هُجْراً"[2].

وفي ذيل الحديث ينزّه الزيارة من علّة الحضر ويرسّخ أدباً من آدابها، وقد تناول ﷺ غير هذا الحديث جملة من الآداب التربوية التي يرمي إليها الدّين بتشريعه لزيارة القبور..

من قبيل قول النبي ﷺ: " كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها

---

(١) راجع صحيح مسلم، كتاب الجنائز (٢/٣٦٦/١٠٧)، وسنن الترمذي (٣/٣٧٠/١٥٠٤)، والسنن الكبرى للنسائي (١/٦٥٣/٢١٥٩)، والمستدرك للحاكم النيسابوري (١/٥٣٠/١٣٨٥)، ومصابيح السنّة (١/٥٦٨/١٢٣٩).

(٢) راجع المعجم الكبير للطبراني (١١/٢٠٢/١١٦٥٣)، والمعجم الأوسط (٣/٣٤٣/٢٧٣٠)، ومجمع الزوائد للهيثمي (٣/٥٨).

فإنها ترق القلوب وتدمع العين وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هجراً "[١].

وفي لفظ آخر:

" كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا "[٢].

وفي لفظ آخر: " وتذكّر الآخرة "[٣].

وَرَوَى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ زار قبر أمّه ولم يستغفر لها، قال: أمرت بالزيارة ونهيت عن الإستغفار، فزورا القبور، فإنها تذكر الموت[٤].

وطالما كانت تتوق نفسه إلى زيارة قبر أمّه رضي الله عنها فاستأذن الله تعالى في زيارة قبرها فإذن له، فإنّ النفوس السّليمة تشتاق لصلة الأحبة أحياءً وأمواتاً، وتميل النفوس بطبعها إلى آثار الحبيب وما يرمز إليه، ومن الفطرة أن تتعهّد القلوب زيارة قبور أحبّائها بباعث ذاتي من صميم فضيلتها، ولن يخالف ذلك دين أساسه الفطرة أبداً، بل وضع الإسلام آدابها ونزّهها من محذوراتها، ولم

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال ج (١٥) ح (٤٢٥٥٥ و ٤٢٩٩٨).

(٢) راجع كنز العمال ج (١٥) ح (٤٢٥٥٢).

(٣) رواه ابن ماجة في السنن (١/ ٥٠١) ح (١٥٧١).

(٤) رواه مسلم في الصحيح (٢/ ٦٧١) ح (١٠٨)، وأحمد بن حنبل في المسند (١/ ٤٤٤)، وابن ماجة في السنن (١/ ٦٧٦)، وأبو داود في السنن (٢/ ٧٢)، والبيهقي في السنن (٤/ ٧٦)، والنسائي في السنن (٤/ ٩٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٧٦).

وإنّا وإن كنّا نتحفّظ بالنسبة لعدم استغفار النبي ﷺ لأمّه، ونجزم بإيمان آباء النبي ﷺ وأمّه عليها السلام ونقطع به، لقول الله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾. لكنّنا أوردنا الرواية من باب الإحتجاج في مقام تشريع الزّيارة ليس إلاّ، وبما أنّها مسّت ساحة النبي الكريم ﷺ فاقتضى التنويه.

يبلغنا منعٌ في سائر الأديان، فإذا منعه الدّين فإنما هو لمحذور يقتضي المنع، وقد نصّ عليه الحديث.

وورد في سيرته ﷺ زيارة القبور والوقوف عليها فضلاً عن مجرّد تشريعها، فرُوِيَ عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: أتاني جبرائيل فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم، قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ورحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون[1].

وَرَوَى ابن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يعلّمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول: " السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العاقبة[2].

ومن الغريب العجيب أن يحرّم البعض حتّى زيارة قبر النبي ﷺ، فيُحرم النّاس من نيل شرف الوقوف بين يديه، وحضّ البعض على الجفاء به!! رغم أنّ المتقدّمين من علماء أهل السنّة الأعلام كانوا قد شيّدوا زيارة قبره ﷺ ونصّوا على فضلها[3].

---

(١) راجع صحيح مسلم (٤٤/٧)، وسنن النسائي (٩١/٤).

(٢) راجع صحيح مسلم (٤٥/٧).

(٣) ونصّ جملة من علماء أهل السنّة والجماعة على فضل زيارة النبي ﷺ، ومنهم الإمام الغزالي في كتاب الحج من إحياء العلوم (١/٣٠٥ - ٣٠٦) فإنّه قال: " الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها، قال ﷺ: من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي، وقال ﷺ: من وجد سعة ولم يفد إليّ فقد جفاني ". إلى أن قال: " فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول

الله ﷺ في طريقه كثيراً، فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال: اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لي وقاية من النار، وأماناً من العذاب وسوء الحساب. ثم ذكر آداب الزيارة وصيغتها، كما ذكر زيارة الشيخين وزيارة البقيع بمن فيها، كزيارة قبر عثمان وقبر الحسن بن علي". ثم قال: " ويصلي في مسجد فاطمة رضي الله عنها ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وقبر صفية عمة رسول الله ﷺ، فذلك كلّه بالبقيع".

وقال القاضي عياض المالكي في شفاء السّقام في زيارة خير الأنام (٢/١٩٤ - ١٩٧): " وزيارة قبره ﷺ سنّة مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها. ثم ذكر عدة من أحاديث الباب، فقال: قال إسحاق بن إبراهيم الفقيه: وممّا لم يزل من شأن من حج المزور بالمدينة والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ والتبرك برؤية روضته ومنبره وقبره ومجلسه وملامس يديه ومواطن قدميه، والعمود الذي استند إليه ومنزل جبرئيل بالوحي فيه عليه".

وفي كتاب المدخل لابن الحاج (١/٢٥٧): قال الإمام القدوة ابن الحاج محمد بن محمد العبدري القيرواني المالكي بعد أن ذكر لزوم وكيفية زيارة الأنبياء والرسل عليهم السلام والتوسل بهم إلى الله تعالى وطلب الحوائج منهم. قال: " وأما في زيارة سيد الأولين والآخرين ﷺ فكل ما ذكر يزيد عليه أضعافه، أعني في الإنكسار والذل والمسكنة، لأنه الشافع المشفع الذي لا ترد شفاعته ولا يخيب من قصده، ولا من نزل بساحته، ولا من استعان أو استغاث به، إذ أنه ﷺ قطب دائرة الكمال وعروس المملكة". إلى أن قال: " فمن توسل به أو استغاث به أو طلب حوائجه منه، فلا يرد ولا يخيب لما شهدت به المعاينة والآثار، ويحتاج إلى الأدب الكلّي في زيارته ﷺ، وقد قال علماؤنا رحمهم الله: إن الزائر يشعر بنفسه بأنه واقف بين يديه ﷺ كما هو في حياته".

وجاء في كتاب الصارم المنكي في الرد على السبكي للحنبلي ص (٧) طبعة الأولى / القاهرة / المطبعة الخيرية: قال أبو عبد الله محمد بن أحمد الحنبلي المقدسي: " إن ابن تيمية ذكر في مناسكه: باب زيارة قبر النبي ﷺ: إذا أشرف على مدينة النبي ﷺ قبل الحج أو بعده، فليقل ما تقدم. إذا دخل استحب له أن يغتسل، نص عليه الإمام أحمد، فإذا دخل المسجد بدأ

برجله اليمنى، وقال: بسم الله والصلاة على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك، ثم يأتي الروضة بين القبر والمنبر فيصلي بها ويدعو بما شاء. ثم يأتي قبر النبي فيستقبل جدار القبر ولا يمسّه ولا يقبله، ويجعل القنديل الذي في القبلة عند القبر على رأسه ليكون قائماً وجاه النبي، ويقف متباعداً كما يقف لو ظهر في حياته بخشوع وسكون منتكس الرأس، غامض الطرف، متحضراً بقلبه جلالة موقفه ثم يقول: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا نبي الله وخيرته من خلقه، السلام عليك يا سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وقائد الغرّ المحجلين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، وأشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، ونصحت لأمتك، ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وعبدت الله حتى أتاك اليقين فجزاك الله أفضل ما جزى نبياً ورسولاً عن أمته اللهم آته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً ".

وقد صنّف الشيخ تقي الدين السبكي الشافعي كتاباً حافلاً في زيارة النبي الأعظم ﷺ وأسماه شفاء السقام في زيارة خير الأنام ردّاً على ابن تيمية، وفيه ص (٦٦ و ٧٩ و ٨٣ و ٨٤ و ١٠٠) قال: "لا حاجة إلى تتبع كلام الأصحاب في ذلك مع العلم بإجماعهم وإجماع سائر العلماء عليه، والحنفية قالوا إن زيارة قبر النبي ﷺ من أفضل المندوبات والمستحبات، بل تقرب من درجة الواجبات، وممن صرح بذلك منهم أبو منصور محمد بن مكرم الكرماني في مناسكه، وعبد الله بن محمود ". ثم قال: " وكيف يتخيل في أحد من السلف نهيهم من زيارة المصطفى ﷺ وهم مجمعون على زيارة سائر الموتى، فالنبي ﷺ وسائر الأنبياء الذين ورد فيهم أنهم أحياء، كيف يقال فيهم هذه المقالة ! وحكى عن القاضي عياض وأبي زكريا النووي إجماع العلماء والمسلمين على استحباب الزيارة ".

وقال أيضاً: " وإذا استحب زيارة قبر غيره ﷺ فقبره أولى لما له من الحق ووجوب التعظيم، ثم إنه استدل على أن السفر إلى الزيارة قربة بالكتاب والسنة والإجماع ". وقال: " الإجماع، إطباق السلف والخلف، فإن الناس لم يزالوا في كل عام إذا قضوا الحج يتوجهون إلى زيارته ﷺ، فمنهم من يفعل ذلك قبل الحج، هكذا شاهدناه وشاهده من قبلنا وحكاه العلماء عن

وظلّ مشهده الشريف محلاً لنزول السّائلين وباباً للخير والرّحمة، وتوالت سيرة المحبّين بقصده طبيعية على السجيّة، ورَوَى سفيان بن عنبر عن العتبي، وكلاهما من مشايخ الشافعي وأساتذته، أنه قال: كنتُ جالساً عند قبر رسول الله ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ وقد جئتك مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي، ثم بكى وأنشأ يقول:

يا خير من دفنت في القاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف[1].

ويروي أبو سعيد السمعاني عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أن أعرابياً جاء بعد ثلاثة أيام من دفن رسول الله ﷺ فرمى بنفسه على القبر الشريف وحثا من ترابه على رأسه وقال: يا رسول الله قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله ما وعينا عنك، وكان فيما أنزله عليك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي إلى ربي[2].

الأعصار القديمة، ومن ادعى أن هذا الجمع العظيم مجمعون على الخطأ فهو المخطيء ".

(١) راجع وفاء الوفا (١٣٦١/٤)، والدرر السنية لزيني دحلان ص (٢١).

(٢) راجع الجوهر المنظم لابن حجر، وذكره السمهودي في وفاء الوفا (٦١٢/٢)، وزيني دحلان

هذا هو فضل زيارة رسول الله ﷺ من غير شك، والأمر يجري في زيارة أفلاذ كبده وأهل بيته عليهم السلام أيضاً، ففضل زيارتهم من فضل زيارته، ويدرك المسلمون المنصفون ذلك بالوجدان، فآله عليهم السلام شركاؤه في كلّ الخصوصيّات إلاّ النبّوة بلوازمها، وقد قرنهم الله به ﷺ بالذكر والأذان والصلوات، وشرّفهم حيث شرّفه.

ويقرّ المؤمنون المحبّون أنّ تكريم أيّ واحد من أولاده الأطهار عليهم السلام إنّما هو تكريم له، وقد قال ﷺ: " إنّما يُكرم المرء في ولده " مضافاً إلى كونهم خلفاؤه وامتداده وحججه، والأهداف المترتّبة على زيارته مترتّبة على زيارتهم، ودلّت التجربة على كونهم الحصن لمن التجأ إليهم والوسيلة لقضاء الحاجات، وتعاهد الموفّقون زيارتهم، وهذه قبابهم عالية المنار أينما حلّوا.

وتواترت نصوصٌ كثيرة بوصف الثواب الجزيل المترتّب على زيارتهم والوقوف على عتباتهم المقدّسة، حتّى صُنّفت كتب في خصوص الزّيارة وثوابها وآدابها والمواقيت المفضّلة فيها، ويحتلّ الإمام الحسين عليه السلام من بينهم منزلة خاصّة من هذه الجهة، فزيارته مفضّلة على زيارة الجميع، وحثّ أهل البيت عليهم السلام على زيارته بنصوص تستدعي الدّراسة والتأمّل.

وينطوي الكلام على نشر خصوصيّة خصيصة في الإمام الحسين عليه السلام من حيث فضله ومصيبته، إذ عوّضه الله تعالى عن شهادته بتوجيه قلوب الشيعة التي جعلها الله تهوي إليه من كلّ حدب وصوب، طلباً للثواب والأجر الجزيل،

→ في الدرر السنية ص (٢١).

ورجاء سعادة الدّنيا والآخرة.

كربلاء المقدسة

عبير الشّهادة.. لها ذلك الشّذى الفوّاح والأريج الخلاّب على مسرح الحدث، والألق الجذّاب في محيط المشهد الدّامي بالجراح، ولدماء العترة الطّاهرة هيمنة على جذوة الأحاسيس والمشاعر، على الأخص في محيط المصرع الأبيّ الشّامخ، وعلى الدقّة في البقعة التي شرّفها سيّد الشّهداء عليه السلام بمهجته المراقة، والتي راح يلتقطها جدّه صلى الله عليه وآله من طفّ كربلاء صاعداً بها إلى السّماء، والتي قد خشعت لها أظلّة العرش!!

فمن كربلاء المقدّسة وشاطيء الطّف الإنطلاقة، ومنها سرّ البقاء والخلود، وفيها حرَارة الدّمعة، وفيها يكمن سرّ الحُزن والأسى، وفي ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إنّ لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبردُ أبداً"[1].

ويُدرك المحبّون الزّائرون أنّ للوقوف على ذلك الصّرح المهيب جذبةٌ قدسيّة ملكوتيّة، وانعكاسات حزينة تستوعبُ شغاف القلب.. فهذه هي التربة المقدّسة التي تشرّفت بجسَد خامس أصحاب الكساء عليه السلام فطابت وزكت، وطهُرت بعد أن تروّت بدمائه الطّاهرة، ولا زالت تعبُق بريح الكرامة ممزوجة بروح النبوّة والإمامة..

إمامُ الهدى سبط النّبوة والد الـ	ـأئمة ربُّ النهي مولىً له الأمرُ
أبوهُ الإمامُ المرتضى علمُ الهدى	وصيُّ رسول الله والصنوُ والصّهرُ

---

(١) راجع مستدرك الوسائل (١٠/٣١٨).

إمـامٌ بكتـهُ الإنـسُ والجـنُّ والسَّـما ... ووحشُ الفَلا والطّيرُ والبرُّ والبحرُ
لـهُ القبَّـةُ البيضـاءُ في الطّفِّ لم تـزَل ... يطـوفُ بهـا حُزنـاً ملائكـةٌ غُـرُّ
لــهُ تربــةٌ فيهــا الشّــفاءُ وقُبــةٌ ... يجابُ بهـا الـدّاعي إذا مسّـه الضُّـرُّ
وذُرّيــةٌ دريَّــةٌ منــه تســعةٌ ... أئمــةُ حــقٍّ لا ثمــانٌ ولا عشــرُ
أَ يُقتــلُ ظمآنــاً حســينٌ بكــربلا ... وفي كـلِّ عضـوٍ مـن أنامِلِـه بحـرُ
ووالدُه السّاقي على الحوض في غدٍ ... وفاطمـةٌ مـاءُ الفُـرات لهـا مهـرُ

فهذا قبر سيّد الشّهداء عليه السلام إمام المشهد الدّامي، وهو مقطوع الوريد، محزوز الرّأس، مرضوض الصّدر، وهذا خنصره المقطوع.. وهذا رضيعه الصّغير الملطّخ بالدّماء على صدره، وهذا ولده الشهيد علي الأكبر عليه السلام المقطّع بضربات السيوف وطعنات الرّماح عند رجليه..

فإذا وقَفت على الرّخامة الحمراء فأنتَ ممّا يلي رأسه الشريف.. أو لِنَقُل منحره الشّريف.. وإذا واجهت شبّاكه الفضّي رأيت الجلال والعظمة والكبرياء والشّمم بأجلى صوره وأروعه.. فإذا طفت ضريحه الأطهر قرأت عليه نقش الخلود مخطوطاً برائعة الجواهري:

فــداءً لمثــواك مــن مضــجعِ ... تنـــوّر بـــالأبلج الأروعِ
بــأعبق مــن نفحــات الجنــا ... نِ روحــاً ومــن مسـكها أضـوعِ
ورعيــاً ليومــك يــوم الطفــوف ... وســقياً لأرضــك مــن مصــرعِ
وحزنــاً عليــك بحـبس النّفـوس ... علــى نهجــك النيّــر المهيــعِ
وصــوناً لمجــدك مــن أن يُــذال ... بمــا أنــت تأبــاه مــن مُبــدعِ
فيــا أيّهــا الــوتر في الخالــدين ... فــذّاً إلى الآن لم يُشــفعِ

وياعضـــة الطّـــامحين العظـــام | للاهـــين عـــن غـــدهم قُنّـــع
تعاليـــتَ مـــن مفـــزعٍ للحتـــوف | فبـــوركَ قـــبرك مـــن مفـــزعِ
تلـــوذ الـــدّهور فمـــن سُـــجّدٍ | علـــى جانبيـــهِ ومـــن رُكّـــعِ
شممـــت ثـــراك فهـــبّ النســـيم | نسـيمُ الكرامـــة مـــن بلقـــعِ
وعفّـرتُ خـدّي بحيـث اسـتراح | خـــدٌّ تفـــرّى ولم يضـــرعِ
وحيـثُ سـنابك خيـل الطّغـاة | جالـــت عليـــه ولم يخشـــعِ
وخلـتُ وقـد طـارت الـذكريات | بروحـــي إلى عـــالمٍ أرفـــعِ
وطفـتُ بقـبرك طـوف الخيـال | بصـــومعة الملـــهم المُبـــدعِ
كـأنّ يـداً مـن وراء الضـريح | حمـــراء مقطوعـــة الإصـــبعِ
تمـدّ إلى عـالم بـالخنوع | والضـيم ذي شـرَق مُـترعِ
لتبـدل منـه جـديبَ الضـمير | بـآخرَ مُعشوشـبٍ ممـرعِ

وإذا مِلتَ إلى جهة رجليه الشّريفتين فإنّك ماثلٌ أمامَ أبطال تلك المعركة الكريمة، ومواجهٌ الضّريح الموحّد الأشرف الذي يضمّ عموم أهل بيته وأنصاره عليهم السلام المستشهدين بين يديه.. وفيه إخوته الأوفياء، وأولاده الغرّ، وبنو أخيه النّجباء، وبنو عمّه الأبرار، وأصحابه جميعاً.. فهم على مقربة منه.

قـد جـاوروه هاهنـا بقبـورهم | وقصـورُهم يـوم الجـزا متحاذيَـه

فإذا زُرتهم وخرَجت من الرّوضة الحسينية من جهة القبلة واجهت على ميمنتك قبر حبيب بن مظاهر الأسدي، فإنّه بوّابه المدفون إلى جواره منفرداً.. فإذا حاذيته فأنّك بإزاء حجرة المنحر " المذبح "، والبقعة التي قد باشر فيها الشّمر بن ذي الجوشن ذبحه فيها!!

فإذا ما التفتّ عن ميمنتك وليس بالبعيد عن الحرم الشّريف فإنّك مواجهٌ قبلة الأحزان ومركز الأنين والحنين، حيث يقع التلّ الزّينبي الحزين، الذي وقَفَت عليه ربيبةُ الخدر زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك اليوم الأسود، واستغاثت بأخيها الصّريع عليه السلام ووجّهت له النّداء الأخير، فأجابها فؤادُه المصاب بالسّهم المثلّث: "أُخَيّه زينب.. كسرتي قلبي، وزدتيني كرباً فوق كربي.. أُخَيّه عودي إلى الخيمة واحفظي لي عيالي وأطفالي !!

فإذا تمثّلت ذلك في خاطرك واستحضرت أصوات النساء والأطفال وهم يستغيثون في يوم كَثُر واترُه وقلّ ناصرُه لزمك الوقوف على بيوت أهل البيت عليهم السلام الحزينة ومعسكرهم الخالي الكئيب.. فإذا مشيتَ قبلة التلّ قابلك المخيّم وبيوت الأرامل والثّكالى، التي أحرقتها عساكر بني أميّة واستباحتها ظهيرة عاشوراء..

وإذا ما لمحتَ بطرفك الحرم الحسيني الشّامخ لَمَعَت أمامك قبّة ذهبيّة شمّاء تحاكي قبّة إمام الطّف عليه السلام، ولاح ما يخطف بصرَك، إنّه حرمٌ مهيب يحاكي إمام الطّف عليه السلام هيبةً ونوراً وجلالاً..

تسامت قبّة نوراء شبّت	كنار قرىً تدلّ على مضيف
تُغالبُ بالسّنا وهجَ الثريّا	وترمي الشمس داهية الخسوف
وترمق قبّة العبّاس دوماً	لجارتها على خجلٍ لطيف
تعاين قبة المولى حسينٍ	وتهمس نحوها همس الظريف
وتقتبس الضيا منها مناراً	وليس بنافذ جودُ الشّفوف
بيُمن إمامه انبسطت يداه	وأغرق جوده جودَ العَطوف

فإذا مشيتَ إلى ذلك الحرم المهيب وقطعتَ مقدار المسافة التي يبتعد فيها

الصّفا عن المروة فإنّك بين يدي عميد العسكر وحامل اللواء ومجمع العدد، إنّه أبو الفضل العبّاس بن أمير المؤمنين عليه السلام.. الذي اختار البقاء حيث وقع في المعركة، ليكون الأقرب إلى مشرعة الفرات، فهو ساقي عطاشى كربلاء إلى الأبد !!

فإذا دخلتَ حرمه الأمنع وواجهت ضريحه الأغر اجتذبتك روحٌ عملاقة إلى صميم الجود والفضيلة، وشعرت بهيبة شمّاء، وشموخ يرقى على عالم الدّنيا، وحيّتك يدٌ كريمة معطاءة "لكنّها قطيعة".. فأنت ماثلٌ أمام باب الحوائج، وإذا طفتَ شبّاكه الفضّي البهي قرأت عليه نقش الشّموخ والفضيلة، وقد كُتب عليه:

ضريحك مفزعنا الأمنعُ ... به كلّ نازلة تدفعُ
وبابك للخلق باب النجاة ... تلوذ بعزّته الروّع
أبا الفضل والفضل ينمى إليك ... فأنت لألطافه منبع
ويا بطل الطفّ هذا لواك ... على كلّ شاهقة يرفع
وهذا حسامك أنشودة ... بها ينتشي البطل الأروع
وجودك والسهم قد شكّ فيه ... شعارٌ لعليائه يخشع
وكفّاك مقطوعتا نعمة ... بها كلّ مكرمة تسجع
ورأسك يرفع فوق القنا ... هو الشّمس في أفقها تسطع
تعاليت من مجمع للجلال ... غوالي الجمال به تجمع
وقدّست من شاهد للإخاء ... بذكراه أدمعنا تهمع
ضريحك كعبة وفد الولاء ... إليه قوافله تسرع
لشيعتكم فيه يعلو الأنين ... لكم وتسيل به الأدمع

فإذا انصرفت من زيارته و حرمه ممّا يلي رجليه الشّريفتين لتقف على مقامي

كفيّه الشّريفتين، وإذا وقفت عندهما.. فإنّك لستَ بالبعيد عن نهر الفرات الذي قُتل كلّ هؤلاء السّادة المظلومون عليهم السلام بجواره، ولم يذوقوا منه قطرة، وهو مع هذا لا يزال يجري كما تجري الدّموع بجوار تلك القبور ليلاً ونهاراً..

فأيّ مأساة أكبر من هذه المأساة !! وأي رزيّة أعظم من هذه الرزيّة !! وأيّ مصيبة أعظم من هذه المصيبة !!

والمؤمنون في وقوفهم على هذه المشاهد يترقّون لأعظم التجلّيات، ويُؤهّلون أنفسهم للمثول في ساحة القرب من الله تعالى، بالإعتبار والتفاعل مع أوليائه الشّهداء، والتمازج بالعواطف العاقلة مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بمشاركته أحزانه وآهاته في أهل بيته عليهم السلام، وبتكثير سواد العترة عليهم السلام الذي حاول الطّغاة تبديده ومحوه يوم عاشوراء، قال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾.

وبالوقوف على تلك الصّروح يوطّن الإنسان نفسه على العطاء والبذل والمواساة والإلتزام الدّيني، وبه يعرف قيمة الدّين والكتاب والمقدّسات التي قيّمها مولانا سيّد الشّهداء عليه السلام بنفسه الطّاهرة ونفوس أهل بيته وأصحابه البررة، فيحافظ على أحكامه ويذبّ عن حياضه ويبذل الغالي والرّخيص في حمايته، ويجدّد عهده مع الله تعالى وأهل الله عليهم السلام بذلك.

فتتأتّى بالسّعي بينها مغانم كبرى لا تتأتى في أي عبادة أخرى، ولهذا فإنّ الأئمة من أهل البيت عليهم السلام لم يعذروا أحداً في ترك زيارته، وجاءت ألفاظهم توحي بالوجوب، بل تقطع به، وترجّحه على العبادات العظيمة الواجبة، وقد أفتى بعض الأعلام من المحدّثين الأخباريّين بوجوب زيارته عليه السلام في العُمر مرّة،

وحمل عامّة الفقهاء الآخرين تلك الأخبار على الإستحباب المؤكّد.

ثواب زيارة الحسين

لن أفي في هذه العجالة موضوع الزّيارة حقّه قطعاً، والأحرى أن يُكتب فيها كتابُ مستقل، بل كُتُب، إلاّ أنّه لابدّ من وقفة سريعة على نُخَبٍ من الرّوايات التي نقلَها الأعلام في مصنّفاتهم، كالشيخ المفيد رحمه الله في المزار وابن قولويه رحمه الله في كامل الزيارات والعلاّمة المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار، فالمرويّات في باب الزيارة بلغَت حدّاً يصعب معه استيفاؤها.

❖ رُوِيَ عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: " مُروا شيعتنا بزيارة الحسين بن علي عليه السلام، فإنّ زيارته تدفع الهدم والغرق والحرق وأكل السبع، وزيارته مفترضة على من أقر للحسين عليه السلام بالإمامة من الله عز وجل "[1].

❖ ورُوِيَ عن محمّد بن مروان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: " زوروا الحسين ولو كل سنة، فإن كل من أتاه عارفاً بحقه غير جاحد لم يكن له عوض غير الجنّة، ورزق رزقاً واسعاً، وأتاه الله بفرج عاجل، إن الله وكلّ بقبر الحسين أربعة آلاف ملك كلهم يبكونه ويشيّعون من زاره إلى أهله، فإن مرض عادوه، وإن مات حضروا جنازته بالإستغفار له والترحّم عليه "[2].

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٥١)، وبحار الأنوار (١/٩٨)، والفقيه (٥٨/٢)، وتهذيب الأحكام (٤٢/٦)، ووسائل الشيعة (٤١٣/١٤)، و الأمالي للصدوق ص (١٤٣)، وروضة الواعظين (١٩٤/١).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٨٦)، وبحار الأنوار (٢/٩٨).

❖ وروي عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل، قلت: جعلت فداك ما تقول فيمن ترك زيارته وهو يقدر على ذلك ؟

قال: " أقول إنه قد عق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعقنا واستخف بأمر هوله، ومن زاره كان الله من وراء حوائجه، وكفى ما أهمه من أمر دنياه، وإنه ليجلب الرزق على العبد، ويخلف عليه ما أنفق، ويغفر له ذنوب خمسين سنة، ويرجع إلى أهله وما عليه وزر ولا خطيئة إلاّ وقد محيت من صحيفته.

فإن هلك في سفره نزلت الملائكة فغسلته، وفتح له باب إلى الجنّة يدخل عليها روحها حتى ينشر، وإن سلّم فتح له الباب الذي ينزل منه الرّزق، ويجعل له بكل درهم أنفقه عشرة آلاف درهم وذخر ذلك له، فإذا حشر قيل له: لك بكل درهم عشرة آلاف درهم، وإن الله نظر لك وذخرها لك عنده "[1].

❖ ورُوِيَ عن عبد الرحمن بن كثير مولى أبي جعفر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: "لو أن أحدكم حج دهره ثم لم يزر الحسين بن علي عليه السلام لكان تاركاً حقاً من حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ حقّ الحسين عليه السلام فريضة من الله، واجبة على كل مسلم" [2].

❖ ورُوِيَ عن أبي بكر الحضرمي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: "من أراد أن يعلم أنه من أهل الجنّة فليعرض حبّنا على قلبه، فإن قبله فهو مؤمن،

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٢٨)، ووسائل الشيعة (١٤/٤٨١)، وبحار الأنوار (٤٥/١٧٢).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٢٢)، وبحار الأنوار (٩٨/٣)، وكتاب المزار ص (٢٧)، وتهذيب الأحكام (٦/٤٢)، ووسائل الشيعة (١٤/٤٢٨).

ومن كان لنا محبّاً فليرغب في زيارة قبر الحسين عليه السلام ، فمن كان للحسين عليه السلام زوّاراً عرفناه بالحب لنا أهل البيت ، وكان من أهل الجنّة ، ومن لم يكن للحسين عليه السلام زوّاراً كان ناقص الإيمان "(١).

❖ ورُوِيَ عن أبان بن تغلب قال: قال لي جعفر بن محمّد عليه السلام : يا أبان متى عهدك بقبر الحسين عليه السلام ؟

قلت: لا والله يا ابن رسول الله ، ما لي به عهد منذ حين.

قال عليه السلام : " سبحان ربّي العظيم وبحمده ، وأنت من رؤساء الشّيعة ، تترك الحسين لا تزوره ، من زار الحسين كتب الله له بكل خطوة حسنة ، ومحي عنه بكل خطوة سيئة ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. يا أبان بن تغلب لقد قتل الحسين صلوات الله عليه فهبط على قبره سبعون ألف ملك شعث غبر يبكون عليه وينوحون عليه إلى يوم القيامة "(٢).

❖ ورُوِيَ عن على بن ميمون الصايغ ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يا علي بلغني أن قوماً من شيعتنا يمرّ بأحدهم السّنة والسّنتان لا يزورون الحسين عليه السلام !! قلت: جعلت فداك ، إني أعرف أناساً كثيراً في هذه الصّفة..

قال: أما والله لحظّهم أخطأوا ، وعن ثواب الله زاغوا ، وعن جوار محمّد صلى الله عليه وآله تباعدوا ، قلت: جعلت فداك في كم الزيارة ؟ قال: يا علي ، إن قدرت أن تزوره في كل شهر فافعل. قلت: لا أصل إلى ذلك لأنّي أعمل بيدي ، وأمور

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٩٣) ، وبحار الأنوار (٤/٩٨) ، ووسائل الشيعة (٤٣٢/١٤).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٣٣١) ، وبحار الأنوار (٧/٩٨) ، ومستدرك الوسائل (٢٥٧/١٠).

النّاس بيدي ولا أقدر أن أغيب وجهي عن مكاني يوماً واحداً..

قال: أنت في عذر، ومن كان يعمل بيده، وإنّما عنيت من لا يعمل بيده ممّن إن خرج في كل جمعة هان ذلك عليه، أما إنّه ما له عند الله من عذر، ولا عند رسوله من عذر يوم القيامة. قلت: فإن أخرج عنه رجلاً فيجوز ذلك؟ قال: نعم، وخروجه بنفسه أعظم أجراً وخيراً له عند ربّه، يراه ربّه ساهر الليل له تعب النّهار، ينظر الله إليه نظرة توجب له الفردوس الأعلى مع محمّد وأهل بيته، فتنافسوا في ذلك وكونوا من أهله[1].

❖ ورُوِيَ عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لو يعلم الناس ما في زيارة الحسين من الفضل لماتوا شوقاً وتقطّعت أنفسهم عليه حسرات. قلت: وما فيه؟ قال: من أتاه تشوّقاً كتب الله له ألف حجّة متقبلة، وألف عمرة مبرورة، وأجر ألف شهيد، من شهداء بدر، وأجر ألف صائم، وثواب ألف صدقة مقبولة، وثواب ألف نسمة أريد بها وجه الله..

ولم يزل محفوظا سنته من كل آفة أهونها الشيطان، ووكل به ملك كريم يحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوق رأسه ومن تحت قدمه، فإن مات سنته حضرته ملائكة الرّحمة يحضرون غسله وأكفانه والإستغفار له ويشيعونه إلى قبره بالإستغفار له، ويفسح له في قبره مد بصره، ويؤمنه الله من ضغطة القبر، ومن منكر ونكير أن يروّعانه، ويفتح له باب إلى

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٢٩٥)، وبحار الأنوار (١٢/٩٨).

الجنّة، ويعطى كتابه بيمينه، ويعطى يوم القيامة نورا يضئ لنوره ما بين المشرق والمغرب، وينادي مناد: هذا من زوّار قبر الحسين بن علي شوقاً إليه، فلا يبقى أحد في القيامة إلاّ تمنّى يومئذ أنّه كان من زوّار الحسين بن علي عليه السلام[1].

❖ ورُوِيَ عن موسى بن القاسم الحضرمي قال: قدم أبو عبد الله عليه السلام في أوّل ولاية أبي جعفر فنزل النّجف، فقال: يا موسى اذهب إلى الطّريق الأعظم، فقف على الطريق فانظر فإنّه سيجيئك رجل من ناحية القادسية، فإذا دنا منك فقل له: هاهنا رجل من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله يدعوك فسيجيء معك.

قال: فذهبت حتّى قمت على الطّريق والحر شديد، فلم أزل قائماً حتى كدت أعصي وأنصرف وأدعه، إذ نظرت إلى شيء مقبل شبه رجل على بعير..

قال: فلم أزل أنظر إليه حتى دنا مني. فقلت له: يا هذا هاهنا رجل من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله يدعوك وقد وصفك لي، قال: إذهب بنا إليه. قال: فجئته حتى أناخ بعيره ناحية قريباً من الخيمة.. قال: فدعا به، فدخل الأعرابي إليه، فدنوت أنا فصرت على باب الخيمة أسمع الكلام ولا أراهما، فقال أبو عبد الله عليه السلام: من أين قدمت؟ قال: من أقصى اليمن، قال: فأنت من موضع كذا وكذا؟ قال: نعم أنا من موضع كذا وكذا، قال: فيما جئت هاهنا قال: جئت زائراً للحسين عليه السلام.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: فجئت من غير حاجة، ليس إلا الزّيارة؟

قال: جئت من غير حاجة، ليس إلاّ أن أصلّي عنده، وأزوره وأسلّم عليه، وأرجع إلى أهلي، قال له أبو عبد الله عليه السلام: وما ترون في زيارته؟ قال: نروي في زيارته إنا نرى البركة في أنفسنا وأهالينا وأولادنا وأموالنا ومعايشنا وقضاء

---

(١) راجع كامل الزّيارات ص (١٤٢)، وبحار الأنوار (٩٨/١٨)، ومستدرك الوسائل (١٠/٣٠٩).

حوائجنا، قال: فقال له أبو عبد الله عليه السلام: أفلا أزيدك من فضله فضلاً يا أخا اليمن؟ قال: زدني يا بن رسول الله، قال: إن زيارة أبي عبد الله عليه السلام تعدل حجّة مقبولة متقبّلة زاكية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتعجّب من ذلك، فقال: إي والله، وحجّتين مبرورتين متقبّلتين زاكيتين مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتعجب من ذلك، فلم يزل أبو عبد الله عليه السلام يزيد حتى قال: ثلاثين حجّة مبرورة متقبّلة زاكية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1].

❖ وقال العلامة المجلسي رحمه الله: وجدت بخط الشيخ محمّد بن على الجبعي نقلاً من خط الشّهيد رحمه الله، نقلا من مصباح الشيخ أبي منصور، قال: " روي أنه دخل النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً إلى فاطمة عليها السلام فهيّأت له طعاماً من تمر وقرص وسمن، فاجتمعوا على الأكل هو وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهما السلام فلما أكلوا سجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأطال سجوده ثم بكى ثم ضحك ثم جلس، وكان أجرأهم في الكلام علي عليه السلام.

فقال: يا رسول الله، رأينا منك اليوم ما لم نره قبل ذلك؟!

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إني لما أكلت معكم فرحت وسُررت بسلامتكم واجتماعكم فسجدت لله تعالى شكراً. فهبط جبرئيل عليه السلام يقول: سجدت شكراً لفرحك بأهلك؟ فقلت: نعم. فقال: ألا أخبرك بما يجري عليهم بعدك؟

فقلت: بلى يا أخي يا جبرئيل. فقال: أما ابنتك فهي أول أهلك لحاقا بك، بعد أن تظلم ويؤخذ حقّها، وتمنع إرثها، ويظلم بعلها، ويكسر ضلعها. وأما ابن

---

(١) راجع كامل الزّيارات ص (١٦٢)، وبحار الأنوار (٣٧/٩٨)، ومستدرك الوسائل (٢٦٩/١٠)، وثواب الأعمال ص (٩٣).

عمك فيظلم ويمنع حقه ويقتل، وأما الحسن فانه يظلم ويمنع حقّه ويقتل بالسّم. وأما الحسين فإنّه يُظلم، ويمنع حقه، وتقتل عترته وتطؤه الخيول، وينهب رحله وتسبى نساؤه وذراريه، ويدفن مرمّلاً بدمه ويدفنه الغرباء، فبكيت وقلت: وهل يزوره أحد؟ قال: يزوره الغرباء، قلت: فما لمن زاره من الثّواب؟ قال: يكتب له ثواب ألف حجة وألف عمرة كلها معك، فضحك[1].

❖ ورُوِيَ عن أبي الصباح الكناني قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن إلى جانبكم قبراً ما أتاه مكروب إلاّ نفس الله كربته وقضى حاجته، وإن عنده لأربعة آلاف ملك منذ قبض شعثاً غبراً يبكونه إلى يوم القيامة، فمن زاره شيّعوه، ومن مرض عادوه، ومن مات اتبعوا جنازته[2].

❖ ورَوَى ابن قولويه بسنده إلى زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما تقول فيمن زار أباك على خوف؟ قال: يؤمنه الله يوم الفزع الأكبر، وتلقاه الملائكة بالبشارة، ويقال له: لا تخف ولا تحزن، هذا يومك الذي فيه فوزك[3].

❖ وفيه عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يا معاوية، لا تدع زيارة قبر الحسين عليه السلام لخوف، فإن من تركه رأى من الحسرة ما يتمنّى أن قبره كان عنده، أ ما تحب أن يرى الله شخصك وسوادك فيمن يدعو له رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والأئمة عليهم السلام، أ ما تحب أن تكون ممّن ينقلب بالمغفرة لما مضى ويغفر له ذنوب سبعين سنة، أ ما تحب أن تكون ممن يخرج من الدنيا وليس عليه

---

(١) راجع بحار الأنوار (٩٨/٤٤).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٦٧)، وبحار الأنوار (٩٨/٥٦).

(٣) راجع كامل الزيارات ص (١٢٥).

ذنب يتبع به، أ ما تحب أن تكون غداً ممّن يصافحه رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

❖ وفيه عن محمد بن مسلم قال: قال لي أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام: هل تأت قبر الحسين عليه السلام؟ قلت: نعم، على خوف ووجل، فقال: ما كان من هذا أشد فالثواب فيه على قدر الخوف، ومن خاف في إتيانه أمن الله روعته يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وانصرف بالمغفرة وسلّمت عليه الملائكة، وزاره النبي صلى الله عليه وآله ودعا له وانقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسسه سوء، واتبع رضوان الله[2].

دعاء الصادق للزائرين

المحرّك الأوّل الذي يدفع الشيعة لزيارة الإمام الحسين عليه السلام هو المعرفة المكتومة في بواطنهم، وفي سبيل الولاء له يتحمّلون الأضرار وإن بلغت حدّ الموت، وحبّه في النفوس مقدّم على النّفس والأهل والولد، وهذا سرٌّ معجز يرقى على التفسير والتأويل، كخلود الحزن والبكاء عليه، ولا يشرحه إلاّ التفسير الغيبي المُسكت !!

ومن أعظم المحفّزات التي تدفع الشيعة لتجشّم العناء وتحمّل المصاعب بطيّ المسافات والصّبر على البلايا والمصاعب في طريق الزيارة إيمانهم بالثواب الجزيل الذي أعدّه الله تعالى لهم، ورغبتهم بالمواساة للعترة عليهم السلام والتقرّب إليهم بأحبّ الأعمال وأحبّها إلى نفوسهم، وبالتّالي فيشملهم دعاء أئمتهم عليهم السلام.

والأئمة عليهم السلام يعكفون على الدّعاء لزوّار مرقده الشّريف، ويبتهلون في طلب

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٢٦).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٢٦ - ١٢٧).

الرّحمة والمغفرة والرّضوان لشيعتهم الذين زهدوا في أبواب الدّنيا وأعرضوا عن الراحة والدّعة وطرقوا أبواب الآخرة وهاجروا إلى أولياء الله تعالى، ووقفوا على باب الرّحمة وميزاب الخير ومنبع الفيض والعطاء.

وتتكفّل الأخبار - ومنها هذه الرّواية الذّهبيّة الفريدة - بتعبأة القلوب وتهيأة النفوس بالشّوق وندبها إلى زيارته عليه السلام وإن كانت لا تُنال إلاّ بشقّ الأنفس !!

❖ رُوِيَ عن معاوية بن وهب قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وهو في مصلاّه، فجلست حتى قضى صلاته، فسمعته وهو يناجي ربه ويقول: " يا من خصّنا بالكرامة، ووعدنا الشّفاعة، وحملنا الرّسالة، وجعلنا ورثة الأنبياء، وختم بنا الأمم السّالفة، وخصّنا بالوصيّة وأعطانا علم ما مضى وعلم ما بقي، وجعل أفئدة من النّاس تهوي إلينا، إغفر لي ولإخواني وزوار قبر أبي الحسين بن علي (صلوات الله عليهما) الذين أنفقوا أموالهم، وأشخصوا أبدانهم رغبة في برّنا، ورجاءً لما عندك في صلتنا، وسروراً أدخلوه على نبيّك محمّد صلى الله عليه وآله وإجابة منهم لأمرنا، وغيظاً أدخلوه على عدوّنا، أرادوا بذلك رضوانك، فكافهم عنّا بالرّضوان، واكلأهم بالليل والنّهار، واخلف على أهاليهم وأولادهم، الذين خلفوا بأحسن الخلف، واصحبهم واكفهم شرّ كل جبّار عنيد، وكلّ ضعيف من خلقك أو شديد، وشرّ شياطين الإنس والجن، وأعطهم أفضل ما أملوا منك في غربتهم عن أوطانهم، وما آثرونا على أبنائهم وأهاليهم وقراباتهم.

اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم خروجهم فلم ينههم ذلك عن النّهوض والشّخوص إلينا خلافاً عليهم، فارحم تلك الوجوه التي غيّرتها الشّمس، وارحم تلك الخدود التي تقلّب على قبر أبي عبد الله عليه السلام، وارحم تلك الأعين

التي جرت دموعها رحمةً لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا، اللهم إني أستودعك تلك الأنفس، وتلك الأبدان، حتى ترويهم من الحوض يوم العطش".

فما زال (صلوات الله عليه) يدعو بهذا الدّعاء وهو ساجد، فلما انصرف قلت له: جعلت فداك، لو أن هذا الذي سمعته منك كان لمن لا يعرف الله، لظننت أن النار لا تطعم منه شيئاً أبداً، والله لقد تمنيت أني كنت زرته ولم أحج.

فقال لي: ما أقربك منه فما الذي يمنعك من زيارته؟ يا معاوية لا تدع ذلك.

قلت: جعلت فداك، فلم أدر أن الأمر يبلغ هذا كله.

فقال: يا معاوية، ومن يدعو لزواره في السّماء أكثر ممّن يدعو لهم في الأرض، لا تدعه لخوف من أحد، فمن تركه لخوف، رأى من الحسرة ما يتمنى أن قبره كان بيده، أما تحب أن يرى الله شخصك وسوادك فيمن يدعو له رسول الله ﷺ؟. أما تحب أن تكون غداً ممن تصافحه الملائكة، أما تحب أن تكون غداً فيمن يأتي وليس عليه ذنب فيتبع به؟ أما تحب أن تكون غداً فيمن يصافح رسول الله ﷺ[1].

كلّ هذا الثواب !!

يظنّ البعض أنّه يقسم رحمة الله سبحانه فيستكثر عطاءه، ويتشابه الأمر على البعض فيخلط بين الأمور، ويشتبه في درك موازين الثواب والعقاب، وطبيعي أن لا تنكشف أسرار ذلك بالقياس العقلي المحض، فالطّريق لثبوت الثّواب أو العقاب

(١) راجع بحار الأنوار (٩٨/٨)، ووسائل الشيعة (١٤/٤١١)، ومستدرك الوسائل (١٠/٢٣١).

على أيّ عمل هو النّقل، ويتعبّد المؤمن بما دلّت النّصوص الصحيحة على محبوبيّته عند المولى عزّ وجل، وما ثبت بنصّ الكتاب أو قول وفعل وتقرير النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أو أهل بيته المعصومين عليهم السلام.

ويثير ذلك سؤالاً هو: كيف تكون عبادة مثل البكاء على الإمام الحسين عليه السلام لها كلّ هذا الفضل والثواب !! أم كيف يكون مستحب كالزّيارة أفضل من واجب ركن كالحج !! وما هو تقريب ذلك ؟

تقريب ذلك بتقرير أنّ التّفاضل بين العبادات يأبى القياس أصلاً، ولا يثبت تفاوتها إلاّ بالدّليل الشّرعي الواضح، ودلّ النصّ الشّرعي على أنّ السّلام مستحبّ والردّ عليه واجب !! بينما قد يفهم الإنسان بعقله القاصر العاثر أنّ الإبتداء بالسّلام أهم من الردّ عليه، فوجوب الإبتداء به أولى من الرّد !! وكذلك القول في كثير من الأحكام الشّرعية، فإنّ الشّرع قد أمرنا بمسح ظاهر القدم في الوضوء، وقد يتوهّم الإنسان أنّ الأولى مسح باطنها، فهو الجزء الذي يواجه الأرض، وهو الذي يحتاج إلى التنظيف بحسب العادة !! ولا شكّ أنّ النّظافة مطلوبةٌ لكمال الصّلاة، ولكنّ التشريع أتى بخلاف ذلك.

ولا يعرف المصالح والمفاسد الواقعيّة غير المشرّع، فالفرق شاسع بين موازين الإنسان وموازين السّماء، سواء اهتدينا إلى غاياتها وأسرارها أم لم نهتدِ، فجهلنا لا يضرّ بمحبوبيّتها ومبغوضيّتها عنده تعالى ولا في أفضليّة عبادة على أخرى.

وفي مقامنا نلاحظ أنّ التفضيل غير ناظر لحيثيّة الوجوب والندب، بل هو من حيثيّة الثواب ومقداره عند الله سبحانه، ويتجلّى كرمه وجوده على عباده المتطوّعين، إذ لا عيب في إعطائه على المندوب أضعاف ما يعطي على الفرض.

ونقرأ في النصوص وعد الله تعالى على بعض العبادات التطوّعية أضعاف ما وعد على بعض الواجبات والفرائض، وذلك غير عزيز في كتب الشّيعة والسنّة، ففي باب قضاء حوائج الإخوان ورد ما يؤدّي إلى أنّه يفوق ثوابُه ثوابَ أهم الواجبات، خلافاً للقياس العقلي المحض.. وجاء عنهم عليهم السلام: من قضى لمؤمن حاجة كان أفضل من صيامه و اعتكافه في المسجد الحرام [١].

وفي الأمالي عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من قضى لأخيه المؤمن حاجة كان كمن عبد الله دهراً [٢].

وفي ثواب الأعمال عن إسحاق بن عمار، قال أبو عبد الله عليه السلام: يا إسحاق من طاف بهذا البيت طوافاً واحداً كتب الله له ألف حسنة، ومحا عنه ألف سيئة، ورفع له ألف درجة، وغرس له ألف شجرة في الجنة، وكتب له ثواب عتق ألف نسمة، حتى إذا صار إلى الملتزم فتح الله له ثمانية أبواب الجنة، يقال له ادخل من أيّها شئت!! فقلت: جعلت فداك، هذا كله لمن طاف!! قال: نعم، أ فلا أخبرك بما هو أفضل من هذا!! قلت: بلى. قال: من قضى لأخيه المؤمن حاجة كتب الله له طوافاً وطوافاً حتى بلغ عشراً [٣].

وربّما يحسب الإنسان بقصوره أنّ الحجّ والصّلاة أفضل وأكثر ثواباً من كلّ عمل مهما بلغ، وقد يظنّ أنّها هي التي تثقّل موازينه يوم القيامة بحيث لا تضاهيها عبادة، لكنّه وردت مضامين عن رسول الله صلى الله عليه وآله غير هذا، مثل: لا يثقّل الميزان

---

(١) راجع بحار الأنوار (٧١/٢٣٢).

(٢) راجع بحار الأنوار (٧١/٣٠٢).

(٣) راجع بحار الأنوار (٩٦/٣٠٢).

شيء كالصّلاة عليّ وعلى أهل بيتي.

ومسلّم عندنا عدم قبول الأعمال إلاّ بولاية أهل البيت عليهم السلام ، والولاية أفضل من جميع الأعمال وهي شرط قبولها ، وقال تعالى : ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ**﴾.

والكلام في العقوبات مثل الكلام في المثوبات ، فقد لا يتعقّل أن تكون الغيبة أشدّ من الزّنا ، والحال أن النص الشرعي ورد به !! وقد لا يُعقل أن عقوق الوالدين مساوغ للشرك بالله العظيم ، والحال أن النص الشرعي ورد به !!

ودلّت مضامين الأخبار الكثيرة الصّادقة على ترتّب المثوبات الجليلة على البكاء ، والإبكاء ، والتباكي ، وإنشاد الشعر والمراثي واستماعها ، وإقامة مجالس العزاء والحضور فيها ، والزيارة.. وبينها الصّحاح والموثّقات والمتواترة إجمالاً ، ولا يتطرّق لها الإنكار بالجملة بحال ، ولا يمكن التردّد أو الشك في صدورها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام .

فهي عبادات مستحبّة في نفسها من جهة ، ومن جهة أخرى هي داخلة تحت بعض العناوين الواجبة المهمّة مثل عنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواجبَين ، والقيام بها على وجهها الأكمل من أجلى صور إقامة المعروف وإنكار المنكر ، وفيها تشييد الجهاد في سبيل الله تعالى والحرب على أعدائه والتقبيح لسيرتهم.

وقد أمر الأئمة عليهم السلام بهذه العبادات بهدف تفاعل المؤمنين مع القضيّة الحسينيّة وحمل أهدافها ومبادئها وإحياء أمرها ، وتوطين النفس على التضحية

في سبيل رفع هذا الشّعار في العُسر واليُسر.. وحُكِيَ أنّ المتوكّل العبّاسي أمر بتحرير قبر الحسين عليه السلام وأصحابه عليهم السلام وكَرْبِ موضعه وإجراء الماء عليه وقتل زوّاره، وسلّط قوماً من اليهود حتى تولّوا ذلك، إلى أن قُتل المتوكّل، فأحسن المنتصر سيرته، وأعاد التربة في أيّامه.

أمّا الأئمة عليهم السلام فقد نجحوا في تحميل الشيعة أمانة النهضة الحسينية، فظلّ الإمام أبو الأحرار عليه السلام سوطاً يؤرّق قرارَ الظالمين، وشوكة في عيون الطغاة والجبارين، وسيبقى كذلك، وفي تعرّض الشيعة لذكراه محقٌّ للظلم وإقامة للدين والعدل والفضيلة.

ولا نشكّ حينئذ أنّ المثوبات والآثار المترتّبة على الشّعائر الحسينية مشروطة بمعرفتهم عليهم السلام ومشايعتهم، ونصّت نصوصٌ كثيرة على هذا المطلب، فلا يلزم من فضل الشّعائر إشكال إبطال التكاليف كما توهّم البعض حينئذٍ.

مواقيت الزيارة

في كتب الحديث مجموعة كبيرة من روايات زيارة الإمام الحسين عليه السلام، وقد صُنّفت أبواب كثيرة ضمن سياق مواقيت الزيارة وأزمنتها المخصوصة، وفي بعضها مواقيت تشتد فيها استحباب الزيارة، وسنكتفي بإيراد بعض تلك الرّوايات عن كتاب كامل الزيارات، وهي موجودةٌ في المصادر الأخرى..

❖ عن بشير الدهان، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ربما فاتني الحج فأعرّف عند قبر الحسين عليه السلام، فقال: أحسنت يا بشير، أيّما مؤمن أتى قبر الحسين عليه السلام عارفاً بحقه في غير يوم عيد كتب الله له عشرين حجة وعشرين عمرة

مبرورات متقبّلات، وعشرين غزوة مع نبي مرسل أو إمام عدل، ومن أتاه في يوم عيد كتب الله له مئة حجة ومئة عمرة ومئة غزوة مع نبي مرسل أو إمام عدل، ومن أتاه يوم عرفة عارفاً بحقه كتب الله له ألف حجة وألف عمرة متقبّلات وألف غزوة مع نبي مرسل أو إمام عدل، قال: فقلت له: وكيف لي بمثل الموقف؟ قال: فنظر إليّ شبه المغضب، ثم قال: يا بشير، إن المؤمن إذا أتى قبر الحسين عليه السلام يوم عرفة واغتسل في الفرات ثم توجه إليه كتب الله له بكل خطوة حجة بمناسكها، ولا أعلمه إلاّ قال: وغزوة[1].

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٦٩). وفيه: عن علي بن أسباط عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى يبدأ بالنظر إلى زوار قبر الحسين عليه السلام عشية عرفة، قال: قلت: قبل نظره لأهل الموقف؟ قال: نعم، قلت: كيف ذلك؟ قال: لأن في أولئك أولاد زنا وليس في هؤلاء أولاد زنا.

وفيه: عن عبد الله بن مسكان، قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله تبارك و تعالى يتجلى لزوار قبر الحسين عليه السلام قبل أهل عرفات ويقضي حوائجهم ويغفر ذنوبهم ويشفعهم في مسائلهم، ثم يأتي أهل عرفة فيفعل ذلك بهم.

وفيه: عن يونس بن يعقوب بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من فاتته عرفة بعرفات فأدركها بقبر الحسين عليه السلام لم يفته وإن الله تبارك وتعالى ليبدأ بأهل قبر الحسين عليه السلام قبل أهل عرفات، ثم قال: يخالطهم بنفسه، (وفي نسخة: يخالطهم في نفسه).

وفيه: عن يونس بن ظبيان، قال أبو عبد الله عليه السلام: من زار الحسين عليه السلام ليلة النصف من شعبان وليلة الفطر وليلة عرفة في سنة واحدة كتب الله له ألف حجة مبرورة وألف عمرة متقبلة، وقضيت له ألف حاجة من حوائج الدنيا والآخرة.

وفيه: عن بشير الدهان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: يا بشير أ حججت العام؟ قلت: جعلت فداك لا، ولكن عرفت بالقبر، قبر الحسين عليه السلام، فقال: يا بشير، والله ما

❖ عن جابر الجعفي قال: دخلت على جعفر بن محمد عليه السلام في يوم عاشوراء فقال لي: هؤلاء زوار الله وحق على المزور أن يكرم الزائر، من بات عند قبر الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء لقي الله ملطّخاً بدمه يوم القيامة كأنما قتل معه في عرصته، وقال: من زار قبر الحسين عليه السلام أي يوم عاشوراء وبات عنده كان كمن استشهد بين يديه(١).

❖ عن زيد الشحام عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: من زار الحسين عليه السلام ليلة النصف من شعبان غفر الله له ما تقدّم من ذنوبه وما تأخر، ومن زاره يوم عرفة كتب الله له ثواب ألف حجة متقبلة وألف عمرة مبرورة، ومن زاره يوم

← فاتك شيء ممّا كان لأصحاب مكة بمكة، قلت: جعلت فداك فيه عرفات، فسره لي !! فقال: يا بشير، إن الرجل منكم ليغتسل على شاطيء الفرات ثم يأتي قبر الحسين عليه السلام عارفاً بحقه فيعطيه الله بكل قدم يرفعها ويضعها مئة حجة مقبولة ومئة عمرة مبرورة ومئة غزوة مع نبي مرسل إلى أعداء الله وأعداء رسوله إلى أعدى عدو له، يا بشير أسمع وأبلغ من احتمل قلبه، من زار الحسين عليه السلام يوم عرفة كان كمن زار الله في عرشه.

وفيه: عن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من كان معسراً فلم يتهيأ له حجة الإسلام فليأت قبر الحسين عليه السلام وليعرّف عنده، فذلك يجزيه عن حجة الإسلام، أما إني لا أقل يجزي ذلك عن حجة الإسلام إلاّ للمعسر، فأما الموسر إذا كان قد حج حجة الإسلام فأراد أن يتنفّل بالحج أو العمرة ومنعه من ذلك شغل دنيا أو عائق فأتى قبر الحسين عليه السلام في يوم عرفة أجزأه ذلك عن أداء الحج أو العمرة وضاعف الله له ذلك أضعافا مضاعفة، قلت: كم تعدل حجة وكم تعدل عمرة ؟ قال: لا يحصى ذلك، قلت: مئة ؟ قال: ومن يحصي ذلك !! قلت: ألف !! قال: وأكثر، ثم قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٧٣).

عاشوراء فكأنما زار الله فوق عرشه(١).

❖ عن عبد الرحمن بن الحجاج أو غيره اسمه الحسين قال أبو عبد الله عليه السلام: من زار قبر الحسين عليه السلام ليلة من ثلاث ليال غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قلت: أي الليالي جعلت فداك؟ قال: ليلة الفطر، وليلة الأضحى، وليلة

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٧٤). وفيه: عن هارون بن خارجة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان النصف من شعبان نادى مناد من الأفق الأعلى زائري الحسين عليه السلام: ارجعوا مغفوراً لكم، ثوابكم على الله ربّكم ومحمّد نبيّكم.

وفيه: عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أحب أن يصافحه مئة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي فليزر قبر أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام في النصف من شعبان، فإن أرواح النبيين عليهم السلام يستأذنون الله في زيارته فيؤذن لهم، منهم خمسة أولو العزم من الرسل، قلنا: من هم؟ قال: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله.

وفيه: عن سالم بن عبد الرحمن عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من بات ليلة النصف من شعبان بأرض كربلاء فقرأ ألف مرة قل هو الله أحد، ويستغفر الله ألف مرة، ويحمد الله ألف مرة، ثم يقوم فيصلي أربع ركعات يقرأ في كل ركعة ألف مرة آية الكرسي وكّل الله تعالى به ملكين يحفظانه من كل سوء ومن شر كل شيطان وسلطان ويكتبان له حسناته ولا تكتب عليه سيئة، ويستغفران له ما داما معه ما شاء الله.

وفيه: عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من زار قبر الحسين عليه السلام في النصف من شعبان غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وفيه: عن يونس بن يعقوب، قال أبو عبد الله عليه السلام: يا يونس ليلة النصف من شعبان يغفر الله لكل من زار الحسين عليه السلام من المؤمنين ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، وقيل لهم استقبلوا العمل، قلت: هذا كله لمن زار الحسين عليه السلام في النصف من شعبان؟ فقال: يا يونس لو أخبرت الناس بما فيها لمن زار الحسين عليه السلام لقامت ذكور الرجال على الخشب.

النصف من شعبان[١].

❖ عن يونس بن ظبيان، قال أبو عبد الله عليه السلام: من زار الحسين عليه السلام ليلة النصف من شعبان وليلة الفطر وليلة عرفة في سنة واحدة كتب الله له ألف حجة مبرورة وألف عمرة متقبّلة، وقُضيت له ألف حاجة من حوائج الدنيا والآخرة[٢].

❖ عن بشير الدهان عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: من زار الحسين عليه السلام يوم عرفة عارفا بحقه كتب الله له ثواب ألف حجة وألف عمرة وألف غزوة مع نبي مرسل، من زاره أول يوم من رجب غفر الله له البتة[٣].

❖ عن بشير الدهان، قال أبو عبد الله عليه السلام: أيّما مؤمن زار الحسين عليه السلام عارفاً بحقه في غير عيد ولا عرفة كتب الله له عشرين حجة وعشرين عمرة مبرورات متقبّلات وعشرين غزوة مع نبي مرسل أو إمام عدل[٤].

❖ عن داود بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من زار قبر الحسين عليه السلام في كل جمعة غفر الله له البتة، ولم يخرج من الدنيا وفي نفسه حسرة منها، وكان مسكنه في الجنة مع الحسين بن علي عليه السلام، ثم قال: يا داود من لا يسره أن يكون في الجنة جار الحسين عليه السلام؟ قلت: من لا أفلح[٥].

❖ عن داود بن فرقد، قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما لمن زار الحسين عليه السلام

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٨٠).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٨١).

(٣) راجع كامل الزيارات ص (١٨١).

(٤) راجع كامل الزيارات ص (١٨٢).

(٥) راجع كامل الزيارات ص (١٨٣).

في كل شهر من الثواب ؟ قال: له من الثواب ثواب مئة ألف شهيد مثل شهداء بدر[١].

❖ عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان ليلة القدر فيها يفرق كل أمر حكيم نادى مناد تلك الليلة من بطنان العرش إن الله قد غفر لمن زار قبر الحسين عليه السلام في هذه الليلة[٢].

شعائر الزيارة

ترتبط بشعيرة الزيارة مجموعة مهمّة من الشعائر المحبّبة إلى نفوس أهل البيت عليهم السلام، وتدلّنا النصوص على أنّهم عليهم السلام ندبوا إلى تحريك أجواء كربلاء المقدّسة بالوفود على الإمام الحسين عليه السلام وعدّوا ذلك في حدّ ذاته شعيرة مستحبّة، وحثّوا على مظاهر خاصّة في مدينة الحزن المقدّسة، كالزّيارة بالمأثور ومراعاة الآداب والإغتسال بالفرات والمشي بسكون ووقار والتسبيح وذكر الله تعالى والدّعاء والصلوات، ورغّبوا في إحياء جميع شعائر الحزن المرتبطة بالإمام الحسين عليه السلام.

وقد أقرّ أهل البيت عليهم السلام كثيراً من الطقوس التي درج عليها الشيعة في كربلاء المقدّسة منذ قديم الزّمان، كالرّثاء والمدح وذكر المصيبة والقراءة والندبة وتوزيع الأطعمة والأشربة وأمثال هذه المظاهر التي لا تزال قائمة فيها بشكل واضح.

❖ رَوَى ابن قولويه بسنده إلى عبد الله بن حماد البصري عن أبي عبد الله عليه السلام: بلغني أن قوماً يأتونه من نواحي الكوفة، وناساً من غيرهم،

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٨٣).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٨٤).

ونساءً يندبنه، وذلك في النصف من شعبان، فمن بين قاريء يقرأ و قاص يقص، ونادب يندب، وقائل يقول المراثي.. فقلت: نعم جعلت فداك، قد شهدت بعض ما تصف. فقال: الحمد لله الذي جعل في الناس من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا، وجعل عدوّنا من يطعن عليهم من قرابتنا وغيرهم، يهدّدونهم ويقبّحون ما يصنعون[1].

فهذه مجموعة من الطّقوس المتعدّدة والعادات الجارية التي اعتاد عليها الشيعة وتوارثوها جيلاً بعد جيل هي محلّ رضا الأئمة عليهم السلام وتقديرهم.

شعيرة المشي للزيارة

ومن الشعائر التي درج عليها الشيعة وتوارثوها المشي إلى زيارة الإمام الحسين عليه السلام في المواقيت المستحبّة وغيرها، وعادة ما تنطلق مواكب المشي من مختلف مناطق العراق سيراً على الأقدام، وهم يحملون الرّايات السّوداء، وتستقبلهم المضايف والهيئات في طريقهم لتقديم الطّعام والشّراب والعون.

وقد عاينتُ هذه المظاهر العجيبة في أيّام عرفة سنة ١٤٢٥ هـ في طريقي من النّجف الأشرف إلى كربلاء المقدّسة، فرأيت العجب، أمّا هذه السّنة فقد تشرّفت في الأربعين لضم صوتي مع اصوات الزّائرين فرأيت من ذلك ما يفوق العجب، إذ كانت الجموع البشريّة تزحف مُشرعةً زلزالاً حسينيّاً يهدر إلى أرض الطّف، وكانت الألوف تقصد كربلاء مشياً على الأقدام إلى الطّف، وهذه الظّاهرة

---

(١) كامل الزيارات ص (٣٢٥)، وقد مرّ الخبر بمصادره.

معروفة في العراق ويسمّونها "پِيَاده" بالباء الفارسية المكسورة، وهي لفظة فارسيّة تعني المشي.

وارتسمت في ذاكرتي أثناء ملاحظتي لهذه الظّاهرة صورٌ لا أظنّ أنّني أنساها أبداً، فقد رأيت في سنة ١٤٢٥هـ في الماشين امرأة عجوزاً محدودبة الظّهر تمشي على هيئة الرّاكع وبيدها عصا، وهي تحثّ السّير إلى حرم الإمام الحسين عليه السلام، فطلب من برفقتي من سائق التكسي أن يوصلها معنا فردّ عليه: لن تقبل ذلك، لأنّها تؤدّي ذلك التزاماً منها حتّى تدخل كربلاء !! ورأيت كهلاً يحثّ السّير بقدم واحدة، وعكّازتيه تحت إبطيه !! فقلتُ في نفسي: أيّ سحر أثّر على كلّ هؤلاء ليسعون لهذه القبّة الشريفة؟

ورأيت امرأة قد وقفت في شارع القبلة في يوم عرفة، مقابل الحرم الحسيني الشّريف، وهي تقول للإمام الحسين عليه السلام مشيرة قولاً يعجز عن تصوير تأثيره أكبر الخطباء، إذ اشارت إليه بسبّابتها قائلة: جئتك مشياً يا أبا عبد الله، وبحثتُ عنك حتّى وجدّتك، ورجائي أن تبحث عنّي يوم القيامة فتجدني !!

وتجدر الإشارة أنّ أوّل من أسّس المشي في النصوص الشّرعية الواردة لقبر الإمام الحسين عليه السلام هو الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رحمه الله عند زيارته في يوم الأربعين، فهو القدوة في هذا المجال..

رُوِيَ في بشارة المصطفى عن عطية العوفي قال: خرجت مع جابر بن عبد الله الأنصاري رحمه الله زائرين قبر الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فلما وردنا كربلاء دنا جابر من شاطيء الفرات فاغتسل ثم ائتزر بإزار وارتدى بآخر، ثم فتح صرة فيها سعد فنثرها على بدنه، ثم لم يخط خطوة إلا ذكر الله.

حتى إذا دنا من القبر قال: ألمسنيه، فألمسته.. فخرّ على القبر مغشيا عليه، فرششت عليه شيئا من الماء، فأفاق ثم قال: يا حسين ثلاثا، ثم قال: حبيب لا يجيب حبيبه، ثم قال: وأنى لك بالجواب وقد شحطت أوداجك على أثباجك، وفرق بين بدنك ورأسك، فأشهد أنك ابن النبيين، وابن سيد المؤمنين، وابن حليف التقوى، وسليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء، وابن سيد النقباء، وابن فاطمة سيدة النساء، وما لك لا تكون هكذا وقد غذتك كف سيد المرسلين، وربيت في حجر المتقين، ورضعت من ثدي الإيمان، و فطمت بالإسلام، فطبت حيا وطبت ميتا، غير أن قلوب المؤمنين غير طيبة لفراقك ولا شاكة في الخيرة لك، فعليك سلام الله ورضوانه، وأشهد أنك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريا.

ثم جال ببصره حول القبر وقال: السلام عليكم أيها الأرواح التي حلت بفناء الحسين وأناخت برحله، أشهد أنكم أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتى أتاكم اليقين.

ثم قال: " والذي بعث محمّداً بالحق، لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه ".

قال عطية: فقلت لجابر: وكيف ؟ ولم نهبط واديا، ولم نعل جبلا، ولم نضرب بسيف، والقوم قد فرق بين رؤوسهم وأبدانهم، وأوتمت أولادهم، وأرملت الأزواج !!

فقال لي: يا عطية " سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: من أحب قوما حشر معهم، ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم، والذي بعث محمدا بالحق

نبيا، إن نيتي ونية أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه ".

ثم قال: خذوا بي نحو أبيات كوفان فلما صرنا في بعض الطريق فقال لي: يا عطية " هل أوصيك !! وما أظن أنني بعد هذه السفرة ملاقيك، أحب محب آل محمد ما أحبّهم، وأبغض مبغض آل محمد ما أبغضهم وإن كان صواما قواما، وارفق بمحب آل محمد، فإنه إن تزل لهم قدم بكثرة ذنوبهم ثبتت لهم أخرى بمحبتهم، فإن محبهم يعود إلى الجنة ومبغضهم يعود إلى النار "[1].

ولا يخامرني شكّ في أنّ جابراً قد زار الإمام الحسين عليه السلام بعلم أدّي إليه من رسول الله صلى الله عليه وآله في اليوم المخصوص، ففتح هذا الصحابي باباً أصبح اليوم من جملة الشّعائر والمظاهر الملفتة التّابعة للزيارة، وفي أخبار كتاب " كامل الزّيارات " ذكر كثير للنّصوص الدّالة على ثواب المشي لزيارته عليه السلام..

ومنها:

❖ ما رواه عن الحسين بن ثوير بن أبي فاختة أنّ الإمام الصّادق عليه السلام قال: يا حسين من خرج من منزله يريد زيارة قبر الحسين بن علي عليه السلام إن كان ماشياً كتب الله له بكل خطوة حسنة ومحي عنه سيئة، حتى إذا صار في الحائر كتبه الله من المصلحين المنتجبين، حتى إذا قضى مناسكه كتبه الله من الفائزين، حتى إذا أراد الإنصراف أتاه ملك فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله يقرئك السلام ويقول لك استأنف العمل فقد غُفر لك ما مضى.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٩٨/٩٥) عن بشارة المصطفى.

❖ ورواهُ عن أبي الصامت قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من أتى قبر الحسين عليه السلام ماشياً كتب الله له بكل خطوة ألف حسنة، ومحا عنه ألف سيئة، ورفع له ألف درجة، فإذا أتيت الفرات فاغتسل وعلّق نعليك، وامش حافياً، وامش مشي العبد الذليل، فإذا أتيت باب الحائر فكبّر أربعاً، ثم امش قليلاً، ثم كبّر أربعاً، ثم ائت رأسه فقف عليه فكبّر أربعاً، وصل أربعاً واسأل الله حاجتك.

❖ ورواهُ بسنده إلى علي بن ميمون الصائغ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يا علي زر الحسين ولا تدعه، قلت: ما لمن أتاه من الثواب ؟ قال: من أتاه ماشياً كتب الله له بكل خطوة حسنة ومحي عنه سيئة ورفع له درجة، فإذا أتاه وكّل الله به ملكين يكتبان ما خرج من فيه من خير، ولا يكتبان ما يخرج من فيه من شر، ولا غير ذلك، فإذا انصرف ودّعوه وقالوا: يا وليّ الله مغفوراً لك، أنت من حزب الله وحزب رسوله وحزب أهل بيت رسوله، والله لا ترى النار بعينك أبداً ولا تراك ولا تطعمك أبداً.

❖ ورَوَاهُ بسنده إلى أبي سعيد القاضي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من أتى قبر الحسين عليه السلام ماشياً كتب الله له بكل خطوة وبكل قدم يرفعها ويضعها عتق رقبة من ولد إسماعيل، ومن أتاه بسفينة فكفَت بهم سفينتهم نادى مناد من السماء: طبتم وطابت لكم الجنة.

والذي حتمله قويّاً أنّه حتّى المواكب الحسينيّة العزائيّة في شهر المحرّم ومواسم الحزن فإنّها تابعة في تأسيسها لشعيرة المشي إلى زيارته عليه السلام، وبلغت المواكب الحسينيّة اليوم درجة الشعيرة المستقلّة وتجذّرت وتصدّرت في مظاهر العزاء،

خصوصاً في العراق وإيران والبحرين[١].

التربة المقدّسة

تثير الزّيارة عندنا جملة من الإشراقات الخاصّة وتفجّر أمام أبصارنا حزمة من النّور الوضّاء ونقاط الضوء الحسينية، لنقف وقفة خشوع وتأمّل، وربّما ندرك بعد ذلك بعض قدسيّة هذه التّربة الزّاكية التي رغّب الأئمة عليهم السلام في الوقوف عليها، فهي التي حملها جبرئيل عليه السلام إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقبّلها !! أو قلّبها !! ليؤكّد مكانة هذه التّربة الجليلة التي احتضنت خامس أصحاب الكساء عليهم السلام وبضعة خير المرسلين وتروّت من دمائه الزّاكية..

إنّه امرٌ يدعو للتأمّل !! .. أن يحمل جبرئيل الأمين تربة سبطه عليه السلام إليه صلى الله عليه وآله وسلم ليشمّها ويقبّلها، ويقول له "هل لك إلى أن أُشمّك من تربته ؟" فيتقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عرضه بشوق وتلهّف، وتتأكّد بذلك قدسية التربة المشرّفة..

ونصّت المصادر من غير ترديد على قدسيّتها، وإن عزّ ذلك على البعض، إذ كيف تكون التربة المقدّسة خصوصيّة في ثرى أهل البيت عليهم السلام !!

وتلاحظ هذه المفارقة العجيبة في صفحات كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي الذي نقل نصّاً فيه خبر التّربة التي نزل بها جبرئيل عليه السلام، إلاّ أن النص تضمّن لفظ: "ثمّ استيقظ صلى الله عليه وآله وسلم وفي يده تربة حمراء، وهو يقبّلها !! ".. لكنّ ذلك عزّ

(١) راجع هذه الأخبار وغيرها في كامل الزيارات ص (١٣٢) وفي الباب روايات كثيرة، وهي مرويّة في البحار والمزار والوسائل.

على المحقّق الذي اعتنى بالطبعة حرّف ذلك وبدّل: "يقبّلها" إلى: "يقبّلها" وكتب في حاشية الكتاب: "تحرّفت بالمطبوع إلى يقبّلها" ولم يذكر اللفظ الوارد في أصل المخطوطة!!(١).

فالمحقّق الذي حرّف الكَلِمَ عن مواضعه يدرك الأبعاد الملازمة لتقبيل النبي ﷺ للتربة الحسينية الشريفة حتماً، لهذا عدل عن لفظة التقبيل ليتحاشى أبعادها، ولو أنّ تقليبها فيه محذورٌ أيضاً، وعلى كلا الوجهين تأسيس لشرف التربة وتأكيد لقدسيّتها..

ويكفي في بيان خصوصيّتها تلك اللآلئ المنثورة الواردة في كلام أهل البيت عليهم السلام التي تؤكّد فضلها، منها..

❖ ما في وسائل الشيعة، روي عن الإمام الصادق عليه السلام: السجود على طين قبر الحسين عليه السلام ينور إلى الأرضين السبعة، ومن كانت معه سبحة من طين قبر الحسين عليه السلام كتب مسبّحاً وإن لم يسبّح بها(٢).

❖ وفي مصباح المتهجّد، عن معاوية بن عمّار، قال: كان لأبي عبد الله عليه السلام

---

(١) راجع سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/٢٨٩) الطبعة السادسة، بتحقيق محمّد نعيم العرقسوسي ومأمون صاغرجي، وبإشراف شعيب الأرنؤوط، في ضمن ترجمة الإمام الحسين عليه السلام، كما ويمكنك مراجعة الطبعة القديمة (٣/١٩) في نفس الباب، لترى كيف تتبدّل الحقائق الواضحة ويُعبث بكلمات النبيّ الكريم ﷺ تحت لثام التحقيق، ولو تتبّعنا أمثال هذه التّغييرات لأمكننا جمعها في مصنّف مستقل، وقد أشرنا في تعليقة لنا إلى بعض موارد عبث هؤلاء بالسنّة المطهّرة، أعاذنا الله تعالى وعصمنا من الزلل، وألهمنا الرّشد.

(٢) راجع وسائل الشيعة (٥/٣٦٦)، ومستدرك الوسائل (٥٥٤).

خريطة ديباج صفراء فيها تربة أبي عبد الله عليه السلام ، فكان إذا حضرته الصلاة صبّه على سجّادته وسجد عليه ، ثم قال عليه السلام : إنّ السجود على تربة أبي عبد الله عليه السلام يخرق الحجب السبع[1].

❖ ورُوِيَ في إرشاد الديلمي أنّ الإمام الصادق عليه السلام كان لا يسجد إلاّ على تربة الحسين عليه السلام تذلّلاً لله واستكانة إليه[2].

إنّ هذه النّصوص الصّارخة بقدس التربة الزاكية وإن كانت غريبة على بعض المدارس الإسلاميّة من المذاهب الأخرى إلاّ أنّها واقعة في سياق الحديث الذي رواهُ أهل الحديث فيها ، وفي كتابنا " الدّمعة السّاكبة " مصادر الحديث مع بحث حوله ، غير إنّ أمّة الإسلام اليوم وقبل اليوم بعيدة عن دراسة حديث النبي صلى الله عليه وآله والتأمّل في مضامينه ، والنّاس أعداء ما جهلوا..

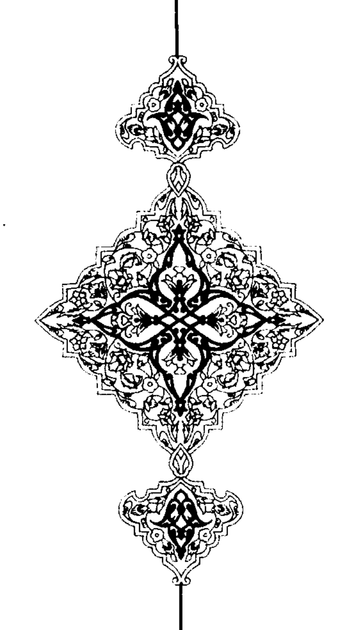
ويبدو : إنّ جبريل عليه السلام مدّ يده بقدرة الله تعالى إلى الطّف ، فقبض منها قبضةً فأعطاها النبي صلى الله عليه وآله ، وعرَضها عليه لكونه صاحب في هذه المصيبة العظمى كما أنّه هو المعزّى بهذه المصيبة ، ولطالما نزَل الوحي مسلّياً له في على هذا المصاب ، وكأنّ عرض التربة المشرّفة عليه صلى الله عليه وآله بطيبها الفوّاح نوعٌ من أنواع التسلية بمقتل ولده الإمام الحسين عليه السلام.

---

(١) راجع مصباح المتهجّد ص (٧٣٣)، ووسائل الشيعة (٣٦٦/٥)، وبحار الأنوار (١٥٣/٨٢).

(٢) راجع إرشاد القلوب (١١٥/١)، وسائل الشيعة (٣٦٦/٥)، بحار الأنوار (١٥٨/٨٢).

أخيرا
شعائر الجزع





شعائر الجزع

منذ أن استُشهد الإمام الحسين عليه السلام والشيعة مصابون بجرح غائر في أعماق الضمائر، ولو أُتيح لهم المجال لكانت أصداء أحزانهم النفسيّة لائحة على سلوكهم الشّعائري بصورة أكبر، فهم متمرّدون على الكبت، وفي تمرّدهم تكمن قوّة الشّعائر الحسينيّة، فضّلوا السّير على الدّرب الشّائك في سبيل الإبقاء على الحزن، وملكوا إرادتهم العملاقة ليعبّروا عن تألّمهم العميق لمصرع الإمام الحسين عليه السلام من خلال هذه الشّعائر!!

لقد أطلق الشّيعة العنان لأحزانهم بقوّة وعزم، ورقَت همّتهم على الزّمان والمكان، ولم يهتمّوا لهمس المانعين من الأقربين والأبعدين، فجابوا الأرض بأحزانهم، وبلَغ بفضلهم صوت الإمام الحسين عليه السلام للقاصي والدّاني، واعتمد كلّ فرد على إبداعه الشّخصي والنّوعي في نشر الظّلامة، وسخّر كلّ شعب تراثه وفنّه ومظاهر بيئته لإشعال أوار الحزن والإبقاء على وقدة الحزن الملتهبة.

فالنصوص الواردة عن الأئمة عليهم السلام لم تركّز على كيفيّة خاصّة للحزن، وكلّ المظاهر مندرجة تحت عناوين " الحزن " و " البكاء " و " الإبكاء " و " إحياء الذكر " و " إحياء الأمر "، ففَتَحت النّصوص باب العمومات على مصراعيه لتطبيق العناوين على مصاديقها، ويمكن من خلال ذلك توظيف كل ما من شأنه أن

يدخل تحت هذه العناوين فيكون من ضمن الشّعائر الحسينيّة، والعِصْمة في ذلك هو الرّقيب الأمين في زمان غيبة حجّة الله الأعظم عليه السلام، فالأمر لمراجع الدّين الفقهاء الذين اجتمعت الكلمة على علمهم وتقواهم وسلامة عقائدهم.

ويُستفاد من مجموع الرّوايات الواردة أنّ مختلف أنواع التألّم والتأثّر محبوبٌ في مصيبة الإمام الحسين عليه السلام، ونصّت الأخبار على جملة من الألفاظ التي تؤدّي هذا المؤدّى، وتجاوزت مفردات التألّم الخمسين مفردة، كاللطم واللدم المرويّان عن السيّدة زينب عليها السلام.. والهَلَع المروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام.. والعلع والقلق المرويّان في حديث أمّ أيمن رضي الله عنها.. وبكاء الدم المروي عن الإمام المهدي عليه السلام.. والجزع المروي في إخبار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الزّهراء عليها السلام بمصرع الإمام الحسين عليه السلام ومواضع أخرى متعدّدة.

وتوالت نصوصٌ واردة عن أهل البيت عليهم السلام مؤكّدة على تحقّق الجزع من بعض الأنبياء عليهم السلام وفيهم نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وكذا الأئمة الطاهرين عليهم السلام والصدّيقة الزّهراء عليها السلام وأسرة الإمام الحسين عليه السلام والبيت العلوي، وورد التأكيد على استحبابه على مصيبة الإمام الحسين عليه السلام.

الجزع في اللغة الرواية

الجزع هو نقيض الصّبر، وقال المحقق الطوسي رحمه الله أنّ الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه، وهو يمنع الباطن عن الإضطراب واللسان عن الشكاية

والأعضاء عن الحركات غير المعتادة[١].

وقال الراغب الإصفهاني: الصّبر الإمساك في ضيق، يقال: صبرت الدابة حبستها بلا علف وصبرت فلانا حلفته حلفة لا خروج له منها، والصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل أو الشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربّما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير، ويضادّه الجزع[٢].

وَرُوِيَ في جامع الأخبار أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: الجزَع عند البلاء تمام المحنة[٣].. ورُوِيَ في التمحيص عن عميرة أنّ الإمام الصّادق عليه السلام قال: اتقوا الله واصبروا، فإنه من لم يصبر أهلكه الجزع، وإنما هلاكه في الجزع أنه إذا جزع لم يؤجر[٤].. ورُوِيَ في دعوات الراوندي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: الجزع أتعب من الصبر[٥]..

ويمكننا بعد ذلك أن نقول أنّ الدّين الذي أمرنا بالصّبر ونهى عن الجزع عند المصيبة هو الذي أمرنا بالجزع على مصيبة الإمام الحسين عليه السلام خاصّة، فإذا كان الصّبر هو حبس النفس عن الجزع، فإنّ الجزع نقيض الصبر، بكلّ مظاهره وشؤونه، ووَرَدَ في بعض النصوص لفظ " الهلع " في قول الإمام زين العابدين

(١) راجع بحار الأنوار (٦٨/٦٨).

(٢) راجع بحار الأنوار (٦٨/٦٨).

(٣) راجع بحار الأنوار (٦٤/٢٣٥).

(٤) راجع بحار الأنوار (٦٨/٩٥).

(٥) راجع بحار الأنوار (٧٩/١٣١).

عليه السلام : " كيف لا أجزع ولا أهلع !! " والهلع أفحش الجزع !!

أمّا إذا قلنا باختصاص استحباب الجزع على الإمام الحسين عليه السلام فإنّنا لا ننفي استحبابه كذلك على الأئمة الطاهرين عليهم السلام ، ونستطيع الإستفادة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله رجحانه عليه أيضاً ، فرُوي أنّه عليه السلام قال على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ساعة دُفن : إن الصبر لجميل إلاّ عنك ، وإن الجزَع لقبيح إلاّ عليك ، وإن المصاب بك لجليل ، وإنه قبلَك وبعدَك لجلَل(١) .

أمّا الجزَع على الإمام الحسين عليه السلام فإنّه عنوان جامع كبير ، يدخل تحت مفهومه الكثير من مظاهر الحزن والشّعائر الحسينيّة المتعارفة ، فكلّ مظهر خالف الصّبر فهو جزَع ، ودوام الحزن وتجديد المأتم سنويّاً جزَعٌ قطعاً ، وبناءً على هذا فإنّ كلّ الشّعائر الحسينيّة داخلة في مفهوم الجزع بقدَر ما.

رُوِيَ في مسكّن الفؤاد عن جابر عن الإمام الباقر عليه السلام قال : أشدّ الجزع الصّراخ بالويل والعويل ولطم الوجه والصدر وجزّ الشعر ، ومن أقام النواحة فقد ترك الصبر وأخذ في غير طريقه ، ومن صبر واسترجع وحمد الله جل ذكره فقد رضي بما صنع الله ، ووقع أجره على الله عزّ وجل ، ومن لم يفعل ذلك جرى عليه القضاء وهو ذميم وأحبط الله أجره(٢) .

إلاّ أن هذا النهي لا يشمل مظاهر الحزن على الإمام الحسين عليه السلام ، فالجزع عليه بكل مظاهره مستحب ، والإنسان فيه مأجور ، ونستطيع أن نجزم بتواتر ورود الأمر بالجزع عليه عليه السلام ، وهذه بعض النّصوص :

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٣٤/٧٩).

(٢) راجع بحار الأنوار (٨٩/٧٩).

❖ رُوِيَ بأسانيد عدّة عن أئمة الهدى عليهم السلام أنهم قالوا: " كل الجزع والبكاء مكروه، سوى الجزع والبكاء على الحسين عليه السلام "[١].

❖ ورُوِيَ في الوسائل عن معاوية بن وهب في حديث: أنه عليه السلام قال الإمام الصّادق عليه السلام لشيخ: أين أنت عن قبر جدي المظلوم الحسين عليه السلام ؟ قال: إني لقريب منه. قال: كيف إتيانك له ؟ قال: إني لآتيه وأكثر، قال عليه السلام: ذاك دم يطلب الله به، ثم قال: " كل الجزع والبكاء مكروه، ما خلا الجزع والبكاء لقتل الحسين عليه السلام "[٢].

❖ وفي خبر مسمع عن الصادق عليه السلام: " أما إنك من الذين يعدّون من أهل الجزع لنا "[٣].

❖ ورَوَى الشيخ رحمه الله مسنداً عن أبي جعفر عليه السلام فيمن يزور الحسين عليه السلام عن بُعدٍ في يوم عاشوراء: "ويقيم في داره المصيبة بإظهار الجزع عليه"[٤].

❖ ورَوَى ابن قولويه عن الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال: " إن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع، ما خلا البكاء على الحسين بن علي عليه السلام فإنه فيه مأجور "[٥].

وتعتبر هذه الأخبار من أهم الأصول المحكّمة في باب الشّعائر الحسينية،

---

(١) تقدّم الخبر بمصادره ورواه الشيخ في الأمالي ١٦٢/١ عن معاوية بن وهب عن الصادق عليه السلام.

(٢) راجع وسائل الشيعة للحرّ العاملي (٣٩٥/١٠) عن الشيخ أيضاً.

(٣) راجع كامل الزيارات ص (١٠١).

(٤) راجع رواية الشيخ رحمه الله في المصباح ص (٧١٤).

(٥) راجع كامل الزيارات ص (١٠٠)، وبحار الأنوار (٢٩١/٤٤)، ووسائل الشيعة (٥٠٧/١٤).

وتشكّل القاعدة التي تأسّست عليها جملة من الشّعائر، أمّا الخبر الأخير وما يقربُ منه فقد ندّد الإمام الصادق عليه السلام فيه بكلّ أنواع الجزع، ومدح الصّبر ورغّب بالتزامه ومنع من مجاوزته بالأقوال والأفعال، لكنه عليه السلام استثنى الجزع بكلّ مظاهره على الإمام الحسين عليه السلام، وتجاوز تأكيد تشريعه إلى تأكيد استحبابه واستحقاق الأجر والثواب عليه.

وإذا ندب الشّرع إلى الجزع فإنّه ندب ما لا ينفكّ عنه من المظاهر، كالصّرخة وشقّ الجيب واللطم والإدماء!!

الصّرخة

الصّرخة هي الصوت الذي يصدره المتألّم، وهي التعبير الإنساني الطبيعي للتوجّع من شيء أصاب الصّارخ، كما أنّ هدوء المصاب من الصّبر على مصيبته، إلاّ أنّ الصّرخة خلاف الصّبر والتحمّل والإنطواء، فهي من مصاديق الجزع، وهي من مقتضيات مجالس العزاء ومآتم النّدبة والرّثاء التي أمر أهل البيت عليهم السلام إقامتها إحياءً لذكرى الإمام الحسين عليه السلام ونشراً لتوّجع النّفس عليه.

وتوارث الشّيعة في مجالسهم ومواكبهم الصّرخة والضجّة والنُّدبة على الإمام الحسين عليه السلام وهي من مظاهر جزعهم عليه.

ورُوِيَ في دعاء الإمام الصّادق عليه السلام لزوّار الإمام الحسين عليه السلام قوله: "وارحم تلك الخدود التي تتقلب على حضرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت

واحترقت لنا، وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا"[(١)].

ورُوِيَ في الإقبال ضمن دعاء النّدبة: "فعلى الأطايب من أهل بيت محمد وعلي صلى الله عليهما وآلهما فليَبْكِ الباكون، وإيّاهم فليندب النّادبون، ولمثلهم فلتُذرف الدّموع، وليصرخ الصّارخون، ويضجّ الضاجّون، ويعج العاجّون"[(٢)].

شقّ الجيب

الحقّ أنّ شقّ الجيب من ردود الفعل العفَويّة تجاه المصائب إذا ألحّت بالتأثير على صاحبها، وقد صدر من أهل العصمة عليهم السلام كما في الأثر، وهو من مصاديق الجزع المندوب على مصاب الإمام الحسين عليه السلام، فهو خلاف الصّبر، والأولى أن تُشقّ القلوب بدل الجيوب على رزئه العظيم.

ورُوِيَ في رجال الكشي وغيره بعدّة طُرُق أنّه خرج أبو محمد العسكري عليه السلام في جنازة أبي الحسن الهادي عليه السلام وقميصه مشقوق، فكتب إليه أبو عون الأبرش: من رأيت أو بلغك من الأئمة شقّ ثوبه في مثل هذا؟ فكتب إليه أبو محمد عليه السلام: يا أحمق وما يدريك ما هذا!! قد شقّ موسى على هارون عليه السلام[(٣)].

وصدَر شقّ الجيب عن نساء أهل البيت عليهم السلام وصُرّح به في الكتب التي اهتمّت بأحداث ما بعد الواقعة، ولا شكّ في أنّ أفعالهنّ حجّة في هذا المقام وفي

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١١٦)، وبحار الأنوار (٨/٩٨)، وبحار الأنوار (٥٢/٩٨)، وثواب الأعمال ص (٩٥).

(٢) راجع إقبال الأعمال ص (٢٩٧)، وعنه بحار الأنوار (١٠٦/٩٩).

(٣) راجع رجال الكشي ص (٥٧٢)، ووسائل الشيعة (٢٧٤/٣)، وبحار الأنوار (١٩١/٥٠) و (٨٥/٧٩)، وكشف الغمة (٤١٨/٢)، والمناقب (٤٣٥/٤).

غيره من حيثيّتين، أمّا الأولى فهي حضور الإمام زين العابدين عليه السلام الذي أقرّهنّ ولم ينكر عليهنّ ذلك، وأمّا الثّانيّة أنّه لا يُعقل صدور الفعل المحرّم منهنّ وهنّ ربائب بيت النبوّة والإمامة مهما جلّت المصيبة، وكنّ المعتمد عند الإمام الحسين عليه السلام في إكمال مسيرته فاقتضى كونهنّ في أعلى درجات الدقّة الشّرعية في الأفعال والأقوال.. فإذا كان الفقهاء يعدّون سيرة المتشرّعة من أقوى الأدلّة على إثبات الواجب والمحرّم لاتصاله بقول الإمام المعصوم عليه السلام وفعله، فهل يسوغ لنا أن نتردّد في شرعيّة فعل بنات أمير المؤمنين عليه السلام!!

فإذا كان كذلك فقد رَوَى الشيخ المفيد رحمه الله عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: إني جالس في تلك الليلة التي قتل أبي في صبيحتها وعندي عمّتي زينب تمرّضني، إذا اعتزل أبي في خباء له وعنده فلان مولى أبي ذر الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبي يقول:

يا دهر أف لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب وطالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل ... وكل حي سالك سبيل

حتّى قال عليه السلام: وأما عمّتي فلمّا سمعت ما سمعت.. فقالت: يا ويلتاه أَفَتُغتَصَبُ نفسك اغتصاباً فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسي، ثم لطَمَت وجهَهَا **وهوَت إلى جيبها وشقّته** وخرّت مغشيّة عليها[1].

ورُوِيَ في اللهوف أنّ السيّدة زينب لمّا رأت يزيداً ينكت ثنايا الحسين عليه السلام

---

(١) راجع الإرشاد (٢/٩٣)، وعنه بحار الأنوار.

أهوت إلى جيبها فشقّته ثم نادت بصوت حزين تفزع القلوب: يا حسيناه، يا حبيب رسول الله، يا ابن مكة ومنى، يا ابن فاطمة الزهراء سيدة النساء، يا ابن بنت المصطفى، فأبكت والله كل من كان في المجلس[1].

ووَرَدَ شقّ الجيوب في أكثر من موطن في حوادث يوم الطّف، وصدر عن نساء أهل البيت عليهم السلام عامّة، وفي بعضها: " بكى النسوة ولطمن الخدود **وشققن الجيوب** ".

وجاء النصّ بإباحة شقّ الجيب مطلقاً في رواية، إذ لم يعدّه الإمام عليه السلام من الجزع المنهي في سائر المصائب فيما يبدو، واستدلّ على جوازه بفعل نساء الإمام الحسين عليه السلام، وهذا دليل واضح على حجيّة فعلهنّ، وقد اتّفق الأصحاب على صحّة هذه الرّواية.

رَوَى الشيخ رحمه الله في التهذيب بسنده إلى حيان بن سدير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل شق ثوبه على أخيه أو على أمّه أو على أخته أو على قريب له ؟ فقال: لا بأس بشقّ الجيوب، فقد شقّ موسى بن عمران عليه السلام جيبه على أخيه هارون، ولا يشق الوالد على ولده، ولا زوج على امرأته، وتشق المرأة على زوجها.

إلى أن قال: **ولقد شققن ولطمن الفاطميات على فقد الحسين بن علي عليه السلام، وعلى مثله تُلطم الخدود وتُشق الجيوب**[2].

---

(١) راجع اللهوف ص (٨٣)، وبحار الأنوار (١٣٢/٤٥)، ومثير الأحزان ص (١٠٠).

(٢) راجع تهذيب الأحكام (٣٢٥/٨)، ووسائل الشيعة (٤٠٢/٢٢)، وعوالي اللآلي (٤٠٩/٣).

النياحة

التناوح في اللغة هو التقابل، ومنه سُمّيت النوائح، لأن بعضهن يقابلُ بعضاً في المأتم، والإسم النياحة.

وفي مجمع البحرين: في حديث خديجة، قالت: سمعت عمي محمد بن علي عليه السلام يقول: " إنما تحتاج المرأة في المأتم إلى النوح لتسيل دمعتها، فلا ينبغي أن تقول هجراً " يعني باطلا، وفيه إذن به مالم تهجر، ويؤيده ما روي أنه سُئل عن أجر النائحة فقال: لا بأس[1].

وظاهر بعض النصوص جواز الغناء في النياحة إن لم يتضمّن قول الباطل، ورُوِيَ في عوالي اللآلي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه نهى عن الغناء وعن شراء المغنّيات وقال: إن أجورهن من السُّحت، ولم يجوّز الغناء إلاّ في النياحة إذا لم تقل باطلاً، وفي حداء الزّمل، وفي الأعراس إذا لم يسمعها الرجال الأجانب ولم تغنّ بباطل[2].

أمّا اليوم فالنّياحة إحدى عوامل البكاء والإبكاء ومن مقوّمات مجالس الإمام الحسين عليه السلام، ولا شّك في كونها من مظاهر الجزع ومصاديقه عليه، وهو حيلة الحزين والحزينة إذا استبدّ بقلبهما المصاب والألم.

ورُوِيَ في كامل الزيارات بسنده إلى جابر عن الإمام محمد بن علي عليه السلام أنّه قال: لما همّ الحسين عليه السلام بالشّخوص إلى المدينة أقبلت نساء بني عبد المطلب

---

(١) راجع مجمع البحرين باب (نوح).

(٢) راجع عوالي اللآلي (١/٢٦١).

فاجتمعن للنياحة حتى مشى فيهن الحسين عليه السلام فقال: أنشدكن الله أن تبدين هذا الأمر معصية لله ولرسوله، قالت له نساء بني عبد المطلب: فلمن نستبقي النياحة والبكاء، فهو عندنا كيوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة ورقية وزينب وأم كلثوم!![1]

وقال الشيخ الكفعمي في المصباح: "أَ مَا يليق هذا الرزء العظيم أن تذهب عليه الأحلام.. أَ مَا يجب أن تشقق عليه القلوب فضلاً عن الجيوب من عدة الآلام، فأقيموا رحمكم الله المآتم والأحزان، والبسوا على هذا المصاب جلابيب النياحة والإمتحان!![2]

اللطم

إذا رزح الإنسان تحت وطأة المصيبة لم يكن له سبيل إلى نشرها إلاّ التعبير المناسب لمستوى مصيبته، فإذا عظمت فإنّها لا تزول بالتعبير اللفظي والبكاء، واحتاج الإنسان في نفثها إلى السلوكيّات الإنسانيّة العفَوَيّة في حالة الجزع.

ومن حقّ هؤلاء الذين لم يعرفوا الإمام الحسين عليه السلام ولم يشربوا من كأس محبّته ولم يحزنوا في مصيبته أن يتعجّبون من مظاهر العارفين المحبّين في أحزانهم عليه، فإنّ عرفانهم به وحبّهم المتجذّر في نفوسهم له دفَعَهم إلى لطم الصّدور والوجوه والرؤوس في المآتم والمواكب.

واللطم في اللغة هو الضرب على الوجه بباطن الراحة، وهو تعبير عَفَوي

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٩٦)، وبحار الأنوار (٤٥/٨٨).

(٢) راجع مصباح الكفعمي ص (٧٣).

عندما تستبدّ مصيبةٌ بالإنسان، وقد عمّ مظهر اللطم حتّى الحور العين في الجنّة، إذ ورَد هذا المعنى في زيارة مولانا صاحب العصر عليه السلام في زيارة جدّه الإمام الحسين عليه السلام: " وأقيمت لك المأتم في أعلى عليين، ولطمت عليك الحور العين "[1].

ويظهر من عبائر المقتل أنّ نساء أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام قد سبقن الحادثة باللطم توقّعاً لها، ففي اللهوف أنّه عليه السلام لما خطب إحدى خطبه، فسمعت بناته وأخته زينب عليها السلام كلامه فبكين وندبن **ولطمن** وارتفعت أصواتهن، فوجّه إليهن أخاه العباس وعليّا ابنه وقال لهما: سكّتاهن فلعمري ليكثرن بكاءهن!![2]

وفي اللهوف: **لما نظر النسوة إلى القتلى صحن وضربن وجوههن**، قال الرّاوي: فو الله لا أنسى زينب بنت علي عليها السلام تندب الحسين عليه السلام وتنادي بصوت حزين وقلب كئيب[3].

شعيرة الإدماء

واضحٌ أنّ الإدماء هو أتمّ مصاديق الجزع، ويتحقّق الإدماء بشدّة اللطم وخروج الدّم، أو بضرب السّلاسل على البدن أو جرح الرؤوس بالسّيوف ونحو ذلك، وغالباً ما يكون ذلك في مواكب خاصة، وربيع الإدماء يوم عاشوراء، ومناسبة إهراق الدّم في هذا اليوم واضحة، إذ تُسال مواساةً لدم الإمام الحسين عليه السلام الأطهر ومحاكاةً لحاله.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٩٨/٣٢٢).

(٢) راجع اللهوف ص (٨٧).

(٣) اللهوف ص (١٣٠).

فالـذين يـدمون أبـدانهم في يـوم عاشـوراء يوجّهـون البيعـة لـه عليه السلام بالفـداء والتضحية، وكأنّهم يقولون له عمليّاً: " **إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك، ولساني عند استنصارك، فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري** " وتبلغ رغبتهم بنصرته والشّهادة بين يديه درجة الإنصهار في آلامه، ويصلون إلى ذروة الإندكاك في جراحاته فيذبحون أناهم وشعورهم، وتشخص أمام أعينهم صورة الإمام الحسين عليه السلام فوّارة بالنّزيف، فيذوبون في أشجانها ويندكّون في جراحاتها، ولسانهم يردّد بحماسة الشّهداء:

إنّا جنودُكَ يا حسينُ وهذه ... أسيافُنَا ودماؤُنَا الحمراءُ
إن فَاتَنَا يومُ الطّفوفِ فهذه ... أرواحُنَا لكَ يا حسينُ فداءُ[1]

وينطلق الإدماء قبل كلّ شيء من مبدأ المواساة لأهل البيت عليهم السلام في دمائهم التي سفكت يوم عاشوراء وروّت تراب كربلاء، فدماء الأحرار تسيل موافقة لتلك الدّماء التي يزورها مولانا صاحب الزّمان عليه السلام ويخصّها بسلامه قائلاً: **"السّلام على الدّماء السّائلات"** !!

إنّ ممارسات الإدماء صاحبت مراسم المجالس والتّمثيل منذ عهد بعيد، وأرجعها البعض إلى حركة التوّابين، وهي دعوى تفقد المستند التاريخي، سوى بعض ما يردّده البعض من أنّ التوّابين جرّهم ندمهم إلى جلد الذّات والإنتقام من أنفسهم بأيّ صورة مهما كانت قاسية !! وهذه صورة تشوّه حركة التوّابين وتتجنّى على الحقيقة، وقد مرّت أخبارهم في هذا الكتاب، وإنّ حالتهم وإن

---

(١) يُنسب هذين البيتين للشهيد الآية السيّد حسن الشّيرازي رحمه الله.

كانت تلتقي ذوقاً مع شعيرة الإدماء إلاّ أنّ الجزم بالصّلة يفتقر إلى الدّليل، ولم يدوّن تاريخنا هذه المراسم إلاّ مؤخّراً، ولو كانت لبَانَت.

وقيل: بأنّ الإدماء وافدٌ على شيعة العرب، ولم تُعرف مراسمه في البلاد العربية إلاّ في القرن التاسع عشر الميلادي، وتشير بعض المصادر إلى وجود هذه المراسم في بعض أنحاء القوقاز الجنوبي منذ عام (١٦٤٠) م.

وقال آخرون: إنّ الظاهرة ترجع إلى روسيا أيام القياصرة، وقد قام رجلٌ إيراني بنقلها إلى الشيعة حين دُهش من طريقة التعبير عن الحزن لدى بلاد الرّوس، فمصيبة أهل البيت عليهم السلام أوْلى بهذا الأسلوب، ومن فارس انتقلت إلى سائر البقاع العربيّة.

وربّما يكون الأنسب بين الأقوال القول الذي يعزو نشأة الظّاهرة إلى السيد محمد الرضوي التبريزي، وهو رجل فارسيّ من أصل تركي، وعُرف بالحاج بكتاش، وكان داعيةً للإصلاح في بلاد الأتراك، فبلغ صدى دعوته السلطان العثماني الغازي مراد خان الأول الأشعري الذي أسّس الجيش الإنكشاري سنة (٧٣٦) هـ حسب تعليماته.

وتأسّست بأمره تكيّات في كل ثكنة عسكرية للتوجيه المعنوي والدّيني مرتبطة بالجيش، ثم انفصلت عنها وتحولت إلى تكيّات مستقلة على المسلك الصوفي جمعاً بين الذوق الشيعي والسنّي في كل البلاد العثمانية، وبقيَت في كثير من ثكنات الجيش والجحافل المقاتلة للجيوش الرّوسية في القوقاز.

إذ عانت الثكنات في تلك الفترة مشكلة عويصة تتمثّل في التدريبات بالسلاح الناري الحي المؤدّي لوفاة بعض المتدرّبين، ممّا أدّى إلى تردّد الجنود الشيعة والسنة

المتديّنين في المشاركة، وبما أنّ التدريب العسكري يستدعي التعوّد على الدم والموت فإن الجهات الدينية اقترحت قيام الجنود بنوع من حجامة الرأس المكشوفة "الفصد" فهي سُنّة نبويّة خالية من الإشكال الشّرعي، واختاروا أن يكون توقيت ذلك يوم عاشوراء..

ونجح هذا الأمر في تقوية قلوب الجنود فعلاً، وامتدّ التمرين الجديد إلى خارج حدود الجيش العثماني إلى المجاميع الدينيّة الشعبية المنفصلة عن الجيش الإنكشاري، وانتقل من القوقاز وأذربايجان وتبريز في نهاية القرن الثالث عشر إلى صالة البكتاشية في كربلاء المقدّسة ومنها إلى النجف الأشرف في سنة (١٨٩٠) م تقريباً، وكان التّطبير قبل ذلك موجوداً في مصر قبل سنة (١٨٧٠) م ومقصوراً على باحات مسجد رأس الإمام الحسين عليه السلام.

وتقول الرّواية: إنّ علماء الشّيعة فوجئوا بهذه الظّاهرة الجديدة التي ظهرت في المحيط الشيعي فاستدعوا إدارة الهيئات الدينيّة البكتاشية وسألوهم عنها، فأكّدوا لهم غرض التعبأة العسكرية بما لا يتعدّي مضمونه الحجامة، والقصد منه ربط الوجدان الشعبي بالإمام الحسين عليه السلام وذكره وتأكيد الإستعداد للفداء.. فاقتنع الفقهاء بعدم وجود دليل على تحريم ذلك، خصوصاً وأنّ الظّاهرة تضمّ بعض العناوين المحسّنة.

شيئاً فشيئاً.. احتلّت هذه الظّاهرة محلاً مقدّماً عند الشيعة حتّى صارت شعاراً يُعرفون به، وعرف العسكريّون والسياسيّون مدى كفاءة هذه الطريقة في تقوية القلوب وترسيخ الشجاعة، ولهذا فإنّ قوى الإحتلال الفرنسي والإنجليزي حاربتها بالإعدامات في العراق ولبنان، سعياً لإيقافها وخوفاً منها، وزاد ذلك في

الإصرار عليها.. أمّا الفرنسيون فانتهجوا أسلوب التشنيع على المطبّرين واتّهموا الشيعة بالتخلّف، ونشروا صوراً ومقالات للسُّخرية، ووصل تشنيعهم إلى مسامع بعض الفقهاء البعيدين عن خلفيّة ذلك فقالوا بالحرمة بالعنوان الثانوي، وثبت جملة العلماء على رجحانها، فظواهر المسيحيين في الكنائس التي يقومون فيها بتعذيب أنفسهم أولى بالتشنيع [١].

وتميل النّفس إلى هذه الرواية وإن كان فيها ما يقبل النظر، ويؤيّدها نقل أحد السّادة العلماء الفضلاء الذي حدّثني أنّه صادف وجوده في اسطنبول يومَ العاشر قبل بضعة سنين وأنّه شهد استعراضاً عسكريّاً يستعرض فيه الجنود إدماء أرؤسهم بالسيوف، ولا يزال هذا الإستعراض يتجدّد في كل عاشوراء !!

ولا يهمّ الأخذ والردّ في تاريخ الإدماء بعد ثبوت اتصاله بالشّعائر التي عُرف بها الشيعة أيّام المحرّم، ولا يضرّه أن يُنسب إلى التوّابين أو غيرهم بعد وروده في مرسلة الجصّاص التي رواها العلاّمة المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار عن كتاب معتبر..

قال العلاّمة المجلسي رحمه الله:

رأيت في بعض الكتب المعتبرة روي مرسلاً عن مسلم الجصّاص، قال: دعاني ابن زياد لإصلاح دار الإمارة بالكوفة، فبينما أنا أجصّص الأبواب وإذا أنا بالزعقات قد ارتفعت من جنبات الكوفة، فأقبلت على خادم كان معنا فقلت: ما

---

(١) إعتمدت في هذه الرّواية على بعض المقالات المنشورة على شبكة الإنترنت، وعلى مقال باسم "ظواهر اجتماعية شيعية يساء فهمها" من إحدى الشبكات الشيعيّة، وأضفت عليها بعض المعلومات التي سمعتها من بعض أهل العلم وغيرهم.

لي أرى الكوفة تضج !! قال: الساعة أتوا برأس خارجي خرج على يزيد، فقلت: من هذا الخارجي ؟ فقال: الحسين بن علي عليه السلام قال: فتركت الخادم حتى خرج ولطمت وجهي حتى خشيت على عيني أن يذهب، وغسلت يدي من الجص وخرجت من ظهر القصر، وأتيت إلى الكناس.

فبينما أنا واقف والناس يتوقعون وصول السبايا والرؤوس إذ قد أقبلت نحو أربعين شقة تحمل على أربعين جملاً فيها الحرم والنساء وأولاد فاطمة عليها السلام وإذا بعلي بن الحسين عليه السلام على بعير بغير وطاء، وأوداجه تشخب دماً، وهو مع ذلك يبكي ويقول:

يا أمّة السوء لا سقياً لربعكم	يا أمة لم تراع جدّنا فينا
لو أننا ورسول الله يجمعنا	يوم القيامة ما كنتم تقولونا

قال: صار أهل الكوفة يناولون الأطفال الذين على المحامل بعض التمر والخبز والجوز، فصاحت بهم أم كلثوم وقالت: يا أهل الكوفة إن الصدقة علينا حرام، وصارت تأخذ ذلك من أيدي الأطفال وأفواههم وترمي به إلى الأرض، كل ذلك والناس يبكون على ما أصابهم.

ثم إن أم كلثوم أطلعت رأسها من المحمل وقالت لهم: صه يا أهل الكوفة، تقتلنا رجالكم وتبكينا نساؤكم، فالحاكم بيننا وبينكم الله يوم فصل القضاء، فبينما هي تخاطبهن إذا بضجة قد ارتفعت، فإذا هم أتوا بالرؤوس يقدمهم رأس الحسين عليه السلام وهو رأس زهري قمري أشبه الخلق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولحيته كسواد السبج، قد انتصل منها الخضاب، ووجهه دارة قمر طالع، والرمح تلعب بها يميناً وشمالاً.

فالتفتت زينب عليها السلام فرأت رأس أخيها، فنطحت جبينها بمقدم المحمل حتى رأينا الدم يخرج من تحت قناعها، وأومأت إليه بحرقة وجعلت تقول:

يـا هـلالاً لمـا استتم كمـالا غالـه خسـفه فأبـدا غروبـا
مـا توهّمـت يـا شـقيق فـؤادي كـان هـذا مقـدرا مكتوبـا[١]

ورَوَاهُ المحدّث البحراني رحمه الله في عوالم العلوم أيضاً، وصحّحه العلاّمة شيخ الشّريعة رحمه الله، فقال: إنّه لا استبعاد فيه إلاّ من جهة ظهور الجزع منها وإيلام نفسها، والإيلام الغير المؤدّي إلى الهلاك لا دليل على عدم جوازه، والجزع مندوبٌ إليه ومرغّب فيه في كثير من الأخبار [٢].

وظاهر فتاوى كثير من العلماء الإعتماد على هذا الخبر المرسل في جواز الإدماء، وأفتى عامّة الفقهاء برجحانه واستحبابه لكونه أجلى مصاديق الجزع على الإمام الحسين عليه السلام، وعملاً بهذه الرّواية [٣].

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/١١٤)، وقد رُوِيَ في العوالم.. وقد أوردت الأبيات مختصرة.

(٢) راجع نصرة المظلوم للعلاّمة الشيخ حسن المظفّر ص (٦٨).

(٣) علّق المرجع المعاصر الآية السيّد محمّد صادق الرّوحاني (حفظه الله) على هذه الرّواية بقوله: " وأما ضرب السيدة زينب عليها السلام لرأسها بمقدمة المحمل، فبما أن زينب قد حازت من الصفات الحميدة ما لم يحزها بعد أمها أحد حتى حقّ أن يقال هي الصديقة الصغرى، هي في الحجاب والعفاف فريدة، وفي الصبر والثبات والتقوى وقوة الإيمان وحيدة، وفي الفصاحة والبلاغة كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام ولو قلنا بعصمتها لم يكن لأحد أن ينكر إن كان عارفاً بأحوالها في الطّف وما بعده، كيف ولولا ذلك لما حمّلها الحسين عليه السلام مقداراً من ثقل الإمامة أيام مرض السجاد عليه السلام، ولما أنابها السجاد عليه السلام نيابة خاصة في بيان الأحكام وجملة أخرى

فإذا قال العلماء باستحبابه من باب استحباب الجزع فالبرهان واضح وقد تقدّم، وإمّا إذا كان عملاً بهذه الرواية فقد يُشكل في حجيّة عمل السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليهما السلام، إلاّ أنّه يندفع الإشكال أن نطح جبينها كان بحضور الإمام زين العابدين عليه السلام الذي أقرّها ولم ينكر عليها ذلك، وكذلك بعدم إمكان صدور الفعل المحرّم منها عليها السلام وهي العالمة غير المعلّمة وربيبة النبوّة والإمامة، وهي الأجدر بالإلتزام الشرعي مهما جلّت المصيبة، خصوصاً وأنّ الإمام الحسين عليه السلام كان قد عوّل عليها في إكمال مسيرته فاقتضى كونها في أعلى درجات الدقّة الشّرعية في الأفعال والأقوال، واشتهر على ألسن خواص العلماء أنّ لها مرتبة العصمة الصغرى، وتقدّم الكلام في شرعيّة أفعال أسرة الإمام الحسين عليه السلام.

ويقول أستاذ الخطابة الحسينيّة الشّيخ هادي الكربلائي رحمه الله:

نشجّ منّا أرؤساً بالمُدى ... لرزء سبط المصطفى المرسلِ
حلّ لنا من أخته زينبٍ ... مذ رأسها شجّتهُ بالمحمل

ودلّت سيرة السلف الصّالح من علمائنا رحمهم الله على تقديس مواكب الإدماء واحترامها، وروَى آية الله المظفّر رحمه الله شطراً مشرّفاً قي كتابه "نصرة المظلوم" من

من آثار الولاية، كما في خبر رواه الصدوق في إكمال الدين، والشيخ في كتاب الغيبة مسنداً عن أحمد بن إبراهيم، فنفس فعلها دليل الجواز سيما مع تقرير الإمام السجاد عليه السلام". (تاريخ الفتوى ٢ جمادى ١ عام ١٤٢٣ هـ)..

نقلت هذه الفتوى من إحدى الشبكات المعتمدة، كما أنّي سألت السيّد شفَهيّاً وكان جوابه قريباً من هذا المؤدّى، وكنت قد سألت قبله أخاه الفقيه المرجع الرّاحل آية الله العظمى المرحوم السيّد محمّد الحسيني الروحاني رحمه الله فكان لا يتردّد في رجحان هذه الشعيرة.

سيَر آيات الله وأعلام الطّائفة في هذا المجال، فالمجدّد الشيرازي ﷺ كان يتبرّع بأكفان مواكب الإدماء من أمواله الخاصّة العائدة إليه من أملاكه في شيراز، ودلّت سيَر بقيّتهم على تأييدها بقوّة، وفتاوى العلماء واضحة ومعروفة ومطبوعة ومتوفّرة، ممّا يغنينا عن عرضها، وكلّها ترجّح وتحضّ على الجزع بكلّ صوره.

أمّا المعارضون لشعائر الجزع والإدماء فلهم قناعتهم ورأيهم، فإذا كانوا من المقلّدين فالأمر هيّن، إذ يجب على كلّ مكلّف الرّجوع إلى فقيهه المؤتمن الجامع للشّرائط، ولا يجوز التّشنيع على إخوانه المؤمنين الآخرين من مقلّدي غير فقيهه بحال من الأحوال، ولكلّ طريقه لثبوت الحكم الشّرعي، فالواجب الرّجوع فيها للفقهاء فقط، فإن دلّ عنوان ثانوي عارض على الحضر فالقولُ حينئذٍ هو قولُ الفقيه الجامع للشرائط دون غيره، ولابدّ من احترام آراء الجميع.

وأمّا إذا عارَض خجَلاً من استهزاء المبطلين ودعى للكف سعياً لإرضائهم، فهذه انهزاميّة يأباها منطق الشّعائر وضعفٌ لا يليق بشيعة أبي الأحرار عليه السلام، وقد قدّمنا تحت عنوان " الشّعائر الحسينيّة " الكلام في إستهزاء المبطلين.

وأمّا استبدالها ومسخها بأخرى، من قبيل ما نشاهده من مظاهر التبرّع بالدّم في يوم عاشوراء فإنّه عمل جيّد إلاّ أنّه أجنبي عن الشّعائر الحسينيّة[١].

---

(١) وقد وُجّه سؤال للمرجع الرّاحل الفقيه المقدّس آية الله العظمى الميرزا جواد التبريزي ﷺ: هل التبرع بالدم باسم سيد الشهداء عليه السلام داخل في عنوان العزاء؟ وما هو نظركم حول القيام ببعض الأعمال التي توجب دعوى المخالفين؟

فأجاب: بسمه تعالى، لا يرتبط التبرّع بالدم بعزاء سيد الشهداء عليه السلام والجزع على مصائبه، ولكن لا يهمّنا دعوى المخالفين فإن تُهَمَهُم لنا كثيرة، ويجب على المؤمنين التحفّظ على الجزع

وأمّا إذا عارضَ لعدم كفاية الأدلّة الشّرعية في رجحان ذلك فإنّه واهم، فالرّجحان هُو رأيُ جملة كبيرة من علماء السّلف ﵏ وجملة كبيرة من المعاصرين، بل صدر عن بعضهم القول بوجوب شعائر الإدماء في يوم عاشوراء،

← لمقتل سيد الشهداء وأهل بيته وأصحابه ﵈ فإن التأمل في هذه القضايا طريق مستقيم إلى الوصول إلى حقيقة مذهب الشيعة حفظهم الله من الشرور وكيد الأعداء، كما حفظهم على مدى العصور إلى يومنا هذا، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(تجد الفتوى بنصّها ضمن ملف الشّعائر على صفحة المرجع التبريزي في شبكة الإنترنت).

وبين يدي أكثر من فتوى للمراجع المعاصرين أيّدهم الله تعالى تؤكّد أنّ التبرّع بالدّم للمحتاجين أمر حسن، والتطبير في يوم عاشوراء أمر أحسن، لما فيه من مواساة للإمام الحسين ﵇ والصفوة من أهل بيته وأنصاره ﵈ لكونه من مصاديق شعائر الله تعالى التي اعتبر القرآن الكريم تعظيمها من تقوى القلوب، ولكونه من مظاهر الجزع المأمور به في الأحاديث الشريفة المعتبرة على مولانا سيد الشهداء ﵇.

ويبدو أنّ المرجع المعاصر آية الله العظمى السيّد صادق الشيرازي (حفظه الله) رأى الجمع بين الأمرين، ففي يوم عاشوراء يكون التطبير، وفي يوم ميلاد الإمام الحسين ﵇ يكون التبرع بالدم، للتوفيق بين الآراء وجمع الكلمة، فقرنَ الإمام الحسين ﵇ بالدم وليداً وشهيداً، وقام جملة من المؤمنين في كربلاء المقدّسة بحملة في شهر شعبان للتبرع بالدم للمحتاجين لمدة ثلاثة أيام ضمن احتفالاتهم بمولد الإمام الحسين ﵇ ومولانا العباس ﵇ والإمام السّجاد ﵇ كهديّة يقدّمون ثوابها له يوم ميلاده ﵇ كما ينزفون الدم يوم استشهاده.. وهي ظاهرة طيّبة ، فأعمال الخير مقرونةً بأهل البيت ﵈ جيّدة في الأيّام المنسوبة إليهم، ومبرّر التبرّع بالدّم في مولد الإمام الحسين ﵇ ليس إلاّ التوفيق وجمع كلمة المؤمنين ، كما أنّه لا مبرّر له في عاشوراء، فشعيرة الإدماء تبتني على الحزن والجزع والمواساة والمحاكاة، وهذه أمور لا تتحقّق في تبرع الدّم، ومرجع المكلّفين في ذلك إلى مراجعهم.

ولم يقُل فقيهٌ بحرمته بالعنوان الأوّلي أصلاً، ولكلّ دليله ومستنده الشّرعي.

وأقول أخيراً: أنّ الشعائر الحسينية أمانة في أعناقنا جميعاً، ولا ينبغي أن تتحوّل أيّ شعيرة منها إلى فتنة ينساق وراءها المجتمع الحسيني، فالشعائر عبادات وينبغي أن لا يُغفل شرط الإخلاص في أدائها، وليس من الدّين أو العقل أن نفسد عبادتَنا بإثارة الخصومات والخلافات، ما يتنافى مع وصايا أئمتنا عليهم السلام القطعيّة بالألفة ورصّ الصّف، ولابدّ من تقدير الخلاف واحترام آراء الفقهاء.

الإدماء والحجامة

كنت قد سمعت منذ زمان بعيد من أحد شيَبة الخطباء المتضلّعين [١] أنّ العقيلة زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام عالمة غير معلّمة، وكانت تهدف في نطح جبينها بجانب المحمل إلى فصد عرق معيّن في الرّأس، لو خرج منه الدّم ساعة الكبت النفسي العنيف أنقذ من الموت المحتّم !! ولم يلفت نظري هذا الموضوع في حينها كثيراً، غير أنّ الأمر بادرني عندما وضعت قلمي في هذا الفصل، وبدا لي الرّبط واضحاً بينه وبين الحجامة والفصد، ولا مبرّر للمشنّعين من غير الشيعة غير نكيرهم على جلّ الشعائر الحسينيّة، فالحجامة سنّة نبويّة متّفقة عند الجميع.

ولا يتردّد الشيعة ولا السنّة في استحباب الحجامة، فأحاديثهم متفقة على

---

(١) هو الخطيب الكبير الفاضل المرحوم الملاّ يوسف رحمه الله، الولد الأكبر لخطيب الخليج الأديب المرحوم الملاّ عطيّة الجمري رحمه الله، وكان آية في العلم والإطّلاع، وكان حافظاً لأحاديث أهل البيت عليهم السلام متمكّناً من شرحها بطريقة مميّزة، وفقدت السّاحة الحسينية بفقده كنزاً قيّماً، وقد ترجمته بنحو من الإلمام في مقدّمتي على ديوان أبيه المرحوم " **الجمرات الوديّة** " فراجع.

استحبابها، حتّى جوّزها بعض فقهاء السنة للمُحرِم، وتكون في الكاهل والأخدعين، وهما عرقان في جانبي العنق، والرأس، وفيها فوائد صحية كبيرة، وفصد الرّأس والتطبير متّحدان في الصورة.

ولا أعني أن يأخذ التّطبير مشروعيّته من الحجامة، ولكنّي أعني أنّ مشروعية الحجامة تنطبق على التطبير قهراً، وهذا يقرّب الصورة إلى أذهان المشنّعين عند التأمّل، ولا مانع من ضمّ عنوان الإستطباب لأغراض التّطبير المستحبّة.

فالفَصْد: هو قطع عِرْقٌ مخصوص وإخراج الدم منه، والحجامة: هي تشريط اللحم بموس حاد ومص الدّم بمحجمة خاصة، ولها أماكن متعددة من البدن، ومنها الرّأس، ويُروَى أنّه حجم النبي ﷺ رأسه وهو محرم لشقيقة ألّمت به، والخبر مروي عند الشّيعة والسنّة.

أمّا عند الشّيعة فقد رَوَى الشّيخ الصّدوق رحمه الله عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: احتجم النبي ﷺ في رأسه وبين كتفيه وفي قفاه ثلاثاً، سمّى واحدة النافعة، والأخرى المغيثة والثالثة المنقذة.

ورَوَى هذه الرّواية الأصرح في المقام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الحجامة على الرأس على شبر من طرف الأنف، وفتر بين الحاجبين، فكان رسول الله ﷺ يسميها بالمنقذة، وفي حديث آخر قال: كان رسول الله ﷺ يحتجم على رأسه ويسمّيها المغيثة أو المنقذة[1].

---

(١) راجع معاني الأخبار ص (٢٤٧)، وبحار الأنوار (١١٣/٥٩ و ١٢٧)، والخبران مرويّان ضمن الأخبار الكثيرة الواردة في الحجامة، وراجع وسائل الشيعة (١١٣/١٧ و ١١٤)، ومكارم الأخلاق ص (٧٦).

ورُوِيَ في الكافي عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: الحجامة في الرأس هي المُغيثة، تنفع من كلّ داء إلاّ السّام، وشبر من الحاجبين إلى حيث بلغ إبهامه، ثم قال عليه السلام: هاهنا[١].

وفي مفردتي "المغيثة" و "المنقذة" الواردتين عن النبي صلى الله عليه وآله أبعادٌ قد تفسّر لنا الغاية من نطح العقيلة زينب عليها السلام رأسها بمقدّم المحمل وتؤيّد الكلام المتقدّم، وهذا بُعدٌ جديدٌ في فقه هذه الرّواية، فهي عالمة غير معلّمة، وفهمة غير مفهّمة !!

وأمّا البخاري فَرَوَى بسنده إلى ابن بحينة، قال: احتجم النبي صلى الله عليه وآله وهو محرم بلحي جمل في وسط رأسه[٢].. وفيه بسنده إلى عبد الله بن بُحَينة: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله احتجم بِلَحْيِ جمل من طريق مكة وهو محرم في وسط رأسه[٣].

وفي حديث مرويّ عنه صلى الله عليه وآله: الحجامة في الرأس هي المغيثة، أمرني بها

---

(١) راجع الكافي (٨/١٦٠)، ووسائل الشيعة (١٧/١١٢)، وبحار الأنوار (٥٩/١٢٩).

ومثله عن كتب أهل السنة ما روي في فيض القدير في شرح الجامع الصغير للإمام المناوي، الجزء الثالث، فصل في المحلى بأل من حرف الحاء، الحديث (٣٧٨١): (الحجامة في الرأس هي المغيثة) أي تسمى المغيثة من الأمراض والأدواء (أمرني بها جبريل حين أكلت طعام اليهودية) يعني الشاة التي سمتها له زينب اليهودية بخبير وقالت: إن كان نبياً لم يضره وإلاّ استرحنا منه، قيل: قتلها وقيل: لا.

(٢) راجع صحيح البخاري، الجزء الأول، أبواب الإحصار وجزاء الصيد، وباب الحجامة للمحرم، الحديث (١٧٣٩).

(٣) راجع صحيح البخاري، الجزء الرابع، كتاب الطب، باب الحجامة على الرأس، الحديث (٥٣٧٣). وقال الأنصاري: أخبرنا هشام بن حسان: حدثنا عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله احتجم في رأسه.

جبريل حين أكلت طعام اليهودية[١].

وقال العسقلاني: قال الأطباء: إن الحجامة في وسط الرأس نافعة جداً، وقد ثبت أنه ﷺ فعلها كما في أول حديثي الباب وآخرهما، وإن كان مطلقاً فهو مقيّد بأولهما، وورد أنه ﷺ احتجم أيضاً في الأخدعين والكاهل، أخرجه الترمذي وحسنه وأبو داود وابن ماجه و صححه الحاكم[٢].

فإذا كانت الحجامة سنّة نبويّة مسلّمة، وكانت وسط الرّأس نافعة جدّاً، وهي المغيثة والمنقذة، فأيّ إشكال في الحجامة الجماعيّة عند المسلمين، أم بماذا يُشكل على الإدماء في العزاء الحسيني !! جزعاً عليه عليه السلام وإعلاناً للفداء بين يديه !!

---

(١) راجع الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي، المجلد الثالث، فصل في المحلى بأل من حرف الحاء، الحديث (٣٧٨١).. وفي صحيح البخاري، الجزء الرابع، كتاب الطب، باب الحجم من الشقيقة والصداع، الحديث (٥٣٧٤): عن ابن عباس: احتجم النبي ﷺ في رأسه وهو محرم من وجع كان به بماء يقال له لَحْيُ جَمَلٍ. وقال محمد بن سواء: أخبرنا هشام، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ احتجم وهو محرم في رأسه من شقيقة كانت به. وفي الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي، المجلد الثاني، الحديث (١٩٦٢): إن الحجامة في الرأس دواء من كل داء، الجنون والجذام، والعشا، والبرص، والصداع.
وفي موطأ الإمام مالك، المجلّدُ الثّاني، كتاب الحج، باب المحرم يحتجم، الحديث (٥٢٠): أنّ رسول اللّه ﷺ احتجم فوق رأسه وهو يومئذ محرم بمكان من طريق مكة يقال له: لَحيُ جَمَل. قال محمد: وبهذا نأخذ، لا بأس بأن يحتجم الرجل وهو محرم، اضطُرَّ إليه أو لم يُضطَرَّ، إلاّ أنه لا يحلق شعراً وهو قول أبي حنيفة.

(٢) راجع فتح الباري، شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني، كِتَاب الطِّبِّ، باب الْحِجَامَةِ عَلَى الرَّأْسِ.

الضّرر النّاجم عن الجزع

مفهوم الجزع ينطبق على كلّ شعائر الحزن الحسينيّة، ويصدق عليها بالمواصلة والمبالغة، ولاشكّ في أنّ تحقّق عنوان الجزع كاف في إثبات رجحان تلك الشّعائر، فإنّ مقتضى بعض النصوص استحباب مواصلة البكاء على مصابه عليه السلام، وأثنى الأئمة عليهم السلام على شيعتهم الذين شاركوهم بطول البكاء والحسرة، وهذه حالات من الجزع تستلزم الضّرر حتماً، ويصاحبها تقرّح جفون العين وتجريحها عادة، وقد استُحبّت تأسّياً بالأئمة عليهم السلام الذين تقرّحت جفونهم وتجرّحت.

ويتعدّى الإمام المهدي عليه السلام حد تقرّح الجفون إلى البكاء دماً كما مرّ، ويُحكى ذلك عن الإمام زين العابدين عليه السلام، ولمّا سئل عليه السلام احتجّ بفعل يعقوب النبي عليه السلام، إذ جاوز بجزعه وبكائه حدّ الضّرر قطعاً، وفي القرآن الكريم: **﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ، قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾**.

والأسف هو أشدّ الحزن على ما فات، وابيضاض العين معناه فقد البصر، فإنّه عَمِيَ من شدّة حزنه وغمّه كما في التفاسير، والحرَض هو المرض والبلى وفساد الجسم والمشارفة على الهلاك، وكلّها أضرارٌ معتدٌّ بها.

ولا مجال للتمسّك هنا بأدلّة حرمة الضّرر وإلقاء النّفس في التهلكة لحكومة هذه الأدلّة عليها، كما أنّه لا مجال للتمسّك بها في موارد جعل الأحكام الضرريّة، كالجهاد والزّكاة وأمثاله، فقد أُخذ في تشريع هذه الأحكام معنى العناء

والتحمّل والصّبر على الأذى كما هو واضح.

والكلام هو الكلام في الشّعائر المنصوصة، كشعيرة زيارة الإمام الحسين عليه السلام وما يُلحق بها، والكلام نفسه في مصاديق الجزع كاللطم والإدماء، وكلّها مظاهر داخلة تحت عمومات النّصوص الواردة، ولا شكّ في أنّ الضرر مصاحبٌ لبعضها، إلاّ أنّها من مصاديق الجزع المرخّص به بل المندوب قطعاً.

على أنّ الضّرر النّاجم عن شعائر الجزع ليس بالضّرر المعتد به، فالإدماء بالسّيوف لا يعدو نزف كميّة محدودة من الدم لا تضرّ بالجسم، وربّما نفعته مثلها مثل الحجامة والفصد، ولا يصل تأثير خروج الدّم إلى الإغماء أو المرض أو الموت كما يتصوّر البعض!!

وفي هذا الموضوع قال آية الله الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء رحمه الله في كتابه "المواكب الحسينية": قد بلغنا من العمر ما يناهز الستين، وفي كل سنة تقام نصب أعيننا تلك المحاشد الدمويّة، وما رأينا شخصاً مات أو تضرّر، ولا سمعنا به في الغابرين".

ولا ينهض الإحتجاج بقول الشهيد رحمه الله أن الإنسان منهي عن جرح نفسه وإتلافها[1]، فإنّ الشهيد قد نسب التحريم إلى القيل، وربّما يكون القائل ليس من فقهاء الإماميّة، ويبدو أنّه يعني الضّرر بحدوث مرض لا يتحمّل عادة، ومع هذا فإنّه لا دليل يدلّ على حرمته من العقل والنقل إذا لم يؤدّى إلى إتلاف النفس.. وأنت تجد في كثير من الأحكام الشرعية دلالةٌ على جواز الإيذاء

---

(١) راجع القواعد (١/ ٢٣١).

والإضرار بالنفس، منها في وجوب الختان على المسلم ولو طعن في السّن، إذ ورد في خبر السّكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال علي عليه السلام: " إذا أسلم الرجل اختتن ولو بلغ ثمانين"[1].

ومنها في استحباب ثقب أذني الغلام، ولا خلاف عليه في النص والفتوى، وقد أثبته الشّيخ النجفي رحمه الله في الجواهر بالإجماع بقسميه، مضافاً إلى السيرة، ومن النّصوص الواردة فيه خبر الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام - ما مضمونه - أنه لما ولد الحسن عليه السلام ثقب النبي صلى الله عليه وآله أذنيه، وكذلك لما ولد الحسين عليه السلام وكان الثقب في اليمنى في شحمة الأذن للقرط، وفي اليسرى في أعلاها للشّنف[2].

ومنها ثقب آذان النّساء وأنوفهن لتعليق الأقراط والشّنوف، وهي ما يعلّق في أعلى الأذن، والخزائم وهي الحُلَق التي تجعل في أحد جانبي المنخرين.

مُضَافاً إلى أنّه لم يرِد في الكتاب والسنّة لفظ إيذاء النفس وإضرارها موضوعاً لحكمٍ من الأحكام المحرّمة، والأدلّة الشرعية لا تتضمّن سوى حرمة إيذاء الغير سواء بالنص أو الإنصراف، وحكم العقل بحرمته ليس بتام الدّلالة، فغاية ما يمكن قوله قبح ظلم النفس عقلاً، وإذا نهض في دلالته دليلٌ على الحرمة فإنّه لا يعم كل أنواع الأذى والإضرار.

---

(١) راجع الكافي (٦/٣٧)، وفي جواهر الكلام: (٣١/٢٦١): ولا قائل بالفصل بين المسلم وبين الكافر إذا أسلم.

(٢) راجع الكافي (٦/٣٤)، وراجع الجواهر (٣١/٢٦٣)، وروي في الكافي (٦/٣٥) خبر مسعدة بن صدقة: أن ثقب أذن الغلام من السنة. ويدخل في هذا الباب خفض الجواري، فقد روي في الكافي (٦/٣٧) أن الختان سنّة، وأنه من الحنيفية، وأن خفض النساء مكرمة، وليس بواجب.

الإدماء والضرر

العقل يدرك الأشياء بالبديهة ويحكم عليها بالحسن والقبح، سواءً كان حكمه لذاتها أو لما يطرأ عليها من العناوين، واعتبار العقل مشرّعٌ للوجوب والحرمة تنزيل له فوق منزلته، إذ ليس من شأن العقل أن يحكم بوجوب شيء أو حرمته عقلاً أو شرعاً، بمعنى استحقاق الجزاء الأُخروي ثواباً وعقاباً، إلاّ اللهم في حالة كونه علّة تامة لحكم الشّرع، وهذا باب منسدٌّ في وجه العقل.

ولم تثبت الملازمة بين حكم العقل بالوجوب والتحريم وبين حكم الشرع بالوجوب والتحريم، وهو أقرب إلى الحكم على شيء بكونه ملائماً للطبع أو منافراً له، فالحكم العقلي لا يزيد على مجرد إدراك العقل حسن شيء أو قبحه، وهذا يعني أنّ حكمه بالوجوب أو الحرمة ممكن إذا لم يُعارض، وهذا المقدار من حكم العقل يقصر عن إثبات الوجوب والحرمة المصطلحة.

والحق أنّ دفع الضّرر عن النفس أمرٌ جبلّي فطري، وليس بحكم عقلي يتبع ملاكاً يخصّهُ أو يعمّه تبعيّة المعلول لعلته، ولذلك فإنّه يشترك فيه العاقل وغير العاقل، وهو من أصل مستودعات الخلقة، والكلّ يتحرز عن الوقوع في الضرر المقطوع أو المظنون.

فإذا عرفنا ذلك فإنّا نقول أنّ إدماء البدن بمجرده ليس ضرراً ولا مما يقطع أو يظن بكونه ضرراً، وإن سلّمنا بكونه إيذاءً وإيلاماً للنفس، فالإيذاء غير الضرر، وتجد العقلاء يقتحمون موارد الضرر المقطوع لأغراض كثيرة ولا يرون في تجاوزهم حدّ الفطرة والجبلّة قبحاً عقلاً..

ومن هذا المنطلق يتعرّض النّاس لخطر المهالك، ويخوض النّاس غمرات البحار للتجارة والمنفعة والرّياضة، ويرتكبون المحن الشاقة المضرة بالبدن، وربّما يكون هذا هو لحاظ الشهيدين عندما أفتيا في القواعد والتمهيد بجواز أن يسلّم الإنسان نفسه للقتل إذا أُجبر على إظهار كلمة الكفر !![1]

مع أن إظهار كلمة الكفر حفظاً للنفس جائزٌ بالإجماع، إلاّ أنّ هذه الفتوى تنظر إلى أهميّة إظهار عزّ الإسلام وتثبيت عقائد عامة النّاس من التزلزل.. وهذا هو مبدأ الشيعة الإماميّة في الإعتزاز بمذهبهم وتثبيت عقائدهم برفع راية أئمتهم عليهم السلام واجتماع كلمتهم والصّمود في سبيل إحياء شعائر الإمام الحسين عليه السلام..

ومن غايات الشيعة تمثيل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه مُثخنين بالجراح، قد سالت دماؤهم على ثيابهم المتخذة أكفاناً لهم، مفضّلين عناء المصيبة وتعب الشعيرة وألم الجراح على الراحة والدّعة، وهم يقطعون بالنجاة من الخطر، واثقون بالسلامة !!

قاعدة: لا ضرر ولا ضرار

لابدّ من عرض حُجّة محرّمي الإدماء، وكان يتقدّم المحرّمين السيّد محسن الأمين رحمه الله، الذي احتجّ على حرمة إيذاء النفس وإضرارها بقاعدة نفي الضرر، المستفادة من قوله النبي صلى الله عليه وآله: " لا ضرر ولا ضرار في الإسلام "[2].

---

(١) راجع القواعد (١/١٢٤).

(٢) ورد الحديث بهذا المضمون مرسلاً في تذكرة الفقهاء (١/٥٢٢)، وورد مسنداً بتعبير: " لا ضرر ولا ضرار " في وسائل الشيعة (١٧/٣١٩ و ٣٤١)، وورد بتعبير: " لا ضرر ولا ضرار على

وردّ آية الله الفقيه الشيخ عبدالحسين الحلّي ﵀ استدلاله بوجوه:

الأول: أن القاعدة المذكورة على ما استظهره المحققون من أدلتها على اختلاف تعبيراتهم إنما تنفي ما يوجب الضرر من الأحكام، بمعنى أن ما يكون منها ضرراً على أحد من الله أو من العباد منفي شرعاً وغير مجعول لله ولا ممضي عنده في أصل التشريع وبعده، وهذا كما ترى لا يقتضي إلاّ عدم جعل الأحكام الضررية ورفع الحكم المجعول إذا لزم منه الضرر، وأين ذلك من ثبوت الحرمة في مورد الضرر كما يدعيه المدعي !!

نعم، لو حمل لفظ " لا " في قوله: " لا ضرر " على نفي الحقيقة ادعاءً، بلحاظ نفي الحكم الثابت أو المناسب للضرر المنفي كما يذهب إليه شيخنا المحقق صاحب الكفاية كان اللازم الحكم بعدم جواز إدماء الرأس حيث يكون ضرراً، لا مطلقاً، وهذا أخص من المدعى إن تم مبناه.

لكن إدماء الرأس لما كان نفسه ضرراً عندهم فإنّه يلزمهم عدم صحة الإستدلال بالقاعدة على حرمته لخروجه عنها موضوعاً، ضرورة أن الحكم المنفي بنفي الضرر على هذا الرأي لا يعم الثابت للأفعال بما هي أمور ضرريّة، كالجهاد والزكاة، فضلاً عن نفس الضرر، لأن كون الشيء ضررياً أو ضرراً علة لنفي الحكم بالفرض، ولا يعقل أن يكون الموضوع في ظرف تحقّقه مانعاً عن ثبوت حكمه، على أن الحكم المناسب أو المتوهم لنفس الضرر هو الحرمة، ونفيها بالقاعدة ينتج ضد المدعى.

المؤمن " في الوسائل (١٧/ ٣٤١).

وليست القاعدة بمثبتة لحكم ما، وإنما هي من القواعد النافية للأحكام على جميع الآراء، غاية الأمر نفيها يلزمه الحكم بالحرمة في بعض الفروض، لا أن الحرمة هي مؤدّى نفس القاعدة.

نعم، لو حمل لفظ " لا " على النهي كما تفرّد به البدخشي وتبعه شاذ منّا لكان لما ذكر من التحريم وجه، لكن حمل " لا " على النهي غير وجيه لوجوه مبينة في غير هذا الموضع.

الثاني: أن القاعدة على المذهب المشهور في مدلولها مختصة بالإلزاميات، ولا تشمل المباحات والمندوبات، إذ أنّ رفع الحكم الذي يتأتّى من قبله الضرر للامتنان ولا منّة في رفع المندوبات، ومن ارتفاع الضرر موضوعاً مع الترخيص في الترك، كما يصرّح بذلك شيخنا المرتضى في رسالة الضرر، إذ يقول: " إن إباحة الضرر بل طلبه استحباباً ليس حكماً ضررياً، ولا يلزم من جعله ضرر على المكلفين ليكون مرفوعاً بالقاعدة "[١].

ومن أن الظاهر من أدلة القاعدة عدم كون جعل الشارع سبباً قريباً لإلقاء المكلّف في الضرر، وهو إنما يكون سبباً كذلك إذا كان حكمه إلزامياً، لأن الإلقاء في الضرر لو كان الحكم غير إلزامي يكون مستنداً إلى اختيار المكلّف، لا إلى جعل الشرع، ومن وقوع المندوبات الضررية بكثرة فائقة في الشرع، وذلك آية اختصاص القاعدة بغيرها.

وربما يزاد هنا وجه آخر، وهو أن كون عدم جعل الحكم الضرري إحداثاً

(١) راجع قاعدة نفي الضرر ص (٢٧٨).

وإبقاءً للإمتنان يقتضي جواز أن يؤذي الإنسان نفسه ويضرها بغير القتل، فإن منعه عن ذلك خلاف الإمتنان، بخلاف إضرار الغير، فإن في رفعه كمال المنة بانتظام أمر النوع.

الثالث: أن مذهب أصحابنا كافة كما يعلم من تتبع كلماتهم في الموارد المتفرقة، أن المرفوع بقاعدة الضرر في العبادات الضرر الشخصي لا النوعي الغالبي، بمعنى أن الحكم في مورده الخاص إذا لزم منه الضرر على شخص فإنّ الحكم يرتفع عنه، دون كلّيه، أي دون كل الأشخاص(١).

وهذا كلّه بناء على تحقّق الضّرر من الإدماء في الشّعائر الحسينيّة، والحقّ أنّه ليس مضرّاً لكافة النّاس، فإذا قلنا بالتحريم فيقتضي ألاّ نحرّمه مطلقاً، واللازم تحريمه في خصوص مورد الضّرر، والقول بأنّ الجرح نفسه ضرر قول غير دقيق، لأنّه قد يكون ضرراً وقد لا يكون، فلا يمكن للفقيه أن يجعل الضرر المتّفق من الجرح مناطاً لحكم وملاكاً لقاعدة مطردة في جميع الحالات.

فوظيفة الفقيه هي بيان الأحكام الكليّة، وليس تنقيح الموضوعات الجزئية، فضلاً عن أحكام جزئياتها غير المحصورة، وعادةً تخلو الأخبار الواردة من ذكر الجزئيّات، مثل الأضرار المختلفة الموجبة للإفطار مثلاً، فالشّرع قد أوكل ذلك إلى الإنسان نفسه، فقد رُوِيَ في خبر عمر بن أذينة أنّه قال: كتبت إلى أبي عبد الله عليه السلام أسأله ما حدّ المرض الذي يفطر فيه صاحبه والمرض الذي يدع فيه صاحبه الصلاة من قيام؟ فقال: بل الإنسان على نفسه بصيرة، وقال: ذاك

---

(١) راجع كتاب الشعائر الحسينية للآية العلاّمة الشيخ عبد الحسين الحلّي رحمه الله.

إليه، هو أعلم بنفسه[١].

وفي خبر سماعة، قال: سألته: ما حد المرض الذي يجب على صاحبه فيه الإفطار كما يجب عليه في السفر ؟ قال: هو مؤتمن عليه، مفوّض إليه، فإن وجد ضعفاً فليفطر، وإن وجد قوّة فليصم[٢].

ثم إنّ الكثير من فقهائنا صرّحوا بصحة العبادات الضرريّة إذا كان الضرر لا يؤدّي للموت أو المرض المزمن وشبهه من الأضرار التي يُعلم عدم جواز تحمّلها[٣].. وقد قال الشيخ الأعظم الأنصاري ﵀ بصحة جميع العبادات الضرريّة التي يعتقد المكلف عدم التضرر بها مع كونها مضرة في نفس الأمر، وتبعه بعض الأعلام في ذلك، فإذا صحّت العبادات المضرة واقعاً على الإطلاق، أو على بعض الوجوه، وكانت راجحة عندهم ومقربة لله تعالى، فلا يمكن أن يكون الإدماء محرّماً أو غير مندوب لمجرّد دعوى ضرريّته، إذ أنّ حاله حال سائر العبادات !!

ولهذا فقد أفتى علماؤنا بشرعية الإدماء في الجملة مع الضّرر، على أنّنا لا نسلّم بكون الإدماء المتعارف اليوم ضرراً أصلاً، وإنّما هو مجرّد إيذاء، والإيذاء غير الضرر، ولم يقوم دليل على حرمته.

ولإيذاء النفس وإضرارها له مراتب عدّة، أعلاها إزهاق النفس وأدناها

---

(١) راجع وسائل الشيعة (١٥٦/٧).

(٢) راجع وسائل الشيعة (١٥٧/٧).

(٣) وعلى ذلك أعلام الطائفة، كالعلامة الفقيه الشيخ آقا رضا الهمداني في كتابه " مصباح الفقيه " باب التيمّم، وفي تعليقته على رسائل المحقق الأنصاري في آخر رسالة أصالة البراءة.

القليل منه، والمراتب المتوسطة بينهما كثيرة، والأدلة الشرعية لا تقضي إلاّ بحرمة ما يكون إلقاءً للنفس بالتهلكة، أو الجناية عليها بقطع عضو، أو حدوث مرضٍ لا يُتحمّل في العَادة.

وأحكام العقول لا توجب تقبيح غير ما يكون ظُلماً للنفس، وليس جميع المراتب المتوسطة التي تنطبق عليها العناوين الرّاجحة من الظّلم القبيح شرعاً، فكيف إذا انطبق عليها عنوان الإبكاء والحزن والجزع لمصاب الحسين عليه السلام !!

وخلاصة القول أنّ إيذاء النّفس إذا وقع لغرض عقلائي دنيوي أو أُخروي فلا يصدق عليه الظُّلم قطعاً، وإلاّ لالتزمنا بحُرمة المهن المُجهدة للنفس والبدن، وهذا لا يقول به أحد، ولا دليلَ يدلّ على حرمة الإدماء حتّى إذا تجرّد عن أيّ غرضٍ عُقَلائي، وغاية ما يقال أنّه فعلٌ عبَثي، ولم يدل دليل على قبح أو حرمة الفعل الذي ليس للعقلاء فيه فائدة معتد بها.

أمّا إذا قيل أن الإدماء فعل وحشيّ مقزّز تنفر منه الطّباع أو أنّه أسلوب غير حضاري في التعبير عن الحزن في دنيا التطوّر والتقدّم !! فإنّ ذلك لا يعني الفقهاء من قريب أو بعيد، إذ لم يقم برهان عندهم على حرمة واحد من تلك العناوين إلاّ إذا خرجت عن جادّة الحدود الشرعية، فيمكن للفقيه المؤتمن أن يتحفّظ لطروء عنوان ثانوي على أصل الإباحة.

والفرق بين الإيذاء والإضرار واضح، ولا دليل على حرمة الإيذاء بجميع أنواعه، ومنه الإدماء المتعارف في الشعائر الحسينية، ويحرم من الإضرار ما يكون ظلماً للنفس بإلقائها في مهلكة وتعريضها للأمراض والآفات، ولا دليل على حرمة ما لم يُعلم ضرره، فضلاً عما يُشك في كونه مضراً.

إضرار النبي ﷺ نفسه بالعبادة

إنّ ورود إيذاء النفس والإضرار بها في تاريخ أهل البيت عليهم السلام ينعطف بمنحى البحث إلى طريق آخر.. فالأخبار تنصُّ على تورّم قدم النّبي ﷺ من القيام للعبادة، منها ما رواه علي بن إبراهيم رحمه الله في تفسيره عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان ﷺ يقوم على أصابع رجليه حتى تورم[(١)].

ورَوَى الشّيخ الطوسي رحمه الله في أماليه عن أبي جعفر عليه السلام عن الإمام السجاد عليه السلام: أن جدي رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فلم يدع الإجتهاد في العبادة حتى ورم الساق، وانتفخ القدم، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال له: أفلا أكون عبداً شكوراً!![(٢)].

ورُوِيَ في فتح الأبواب عن الزهري قول الإمام السجاد عليه السلام: كان رسول الله يقف للصلاة حتى تورم قدماه، ويظمأ حتى يعصب فوه[(٣)].

ورَوَى الطّبَرسي رحمه الله في الاحتجاج عن أبي الحسن موسى عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن علي عليه السلام قال: لقد قام رسول الله ﷺ عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه واصفر وجهه، يقوم الليل أجمع، حتى عوتب على ذلك[(٤)].

وهذا يدلّ على دوام القيام، ويلزم منه العلم عادة بحصول الورم، ويدلّ

---

(١) راجع تفسير علي بن إبراهيم القمّي (٢/٥٨).

(٢) راجع الأمالي (٢/١٨).

(٣) راجع فتح الأبواب ص (١٨)، وبحار الأنوار (٤٦/٥٧).

(٤) وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً، راجع بحار الأنوار (١٧/٢٥٧)، والخرائج (٢/٩١٧).

على تعمّده ﷺ في إجهاد نفسه للعبادة، وهذا واضح من انتفاخ السّاق وورم القدم، فإنّهما لا يتحقّقان دفعياً، ومع ظهور بداياته تدريجيّاً فإنّ الإقدام عليه لا يكون إلاّ عمداً.. ولو لم يكن عامداً لما كان ثمّة وجهٌ لمعاتبة الناس له بأنه قد غفر الله له، فلا يحتاج لإتعاب نفسه وإيذائها، ولا وجه لجوابه ﷺ لهم: أفلا أكون عبداً شكوراً !! ولا وجه لعتاب الله تعالى له بقوله: ﴿**طه ◆ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾ وهو عتاب إرفاقي على استمراره في فعل ما يشقّ على النفس.

ولا مجال لقبول دعوى اتفاقية ترتّب الورم على قيامه ﷺ من دون علمه به، لما روى في الإحتجاج والخرائج أنّه سأل بعض اليهود أمير المؤمنين عليه السلام وقال له: إن داود بكى على نفسه حتى سارت معه الجبال لخوفه، فقال عليه السلام: لقد كان كذلك، ومحمد أعطي ما هو أفضل من هذا. إلى أن قال: ولقد قام عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه، واصفّر وجهه يقوم الليل أجمع حتى عوتب على ذلك بقول: ﴿**طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾ بل لتسعد به[1].

ورُوِيَ في مجمع البيان أنه ﷺ كان يرفع إحدى رجليه في الصلاة ليزيد تعبه، فأنزل الله: ﴿**طه ◆ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾ فوضعها[2].

ورُوِيَ في الحدائق: أنه كان يقوم في الصلاة على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه إجهاداً لنفسه في العبادة، حتى عاتبه الله على ذلك عتاب رحمة،

---

(١) راجع الإحتجاج (١/٣١٥)، والخرائج (٢/٩١٦).

(٢) راجع مجمع البيان (٧/٤).

فقال: ﴿طه ◆ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[1].

والأخبار صريحة على قيامه ﷺ بشكلٍ يؤدّي للورَم، وكان يصدر منه هذا الفعل لإتعاب نفسه وإيذائها في العبادة، ومع هذا فإنّ الورم ليس ضرَراً، ويكمن الضّرر في ألمه الحاصل من حدوث الورم، ولابدّ أنّه ﷺ كان يشعر بالألم عند حدوثه وكان يطوي عليه.. ولابدّ أنّه ﷺ كان يعلم ما قدّر الله وقضى، بحسب تفسير قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ◆ إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ ومن ذلك تورّم قدميه، وإن أنكر منكرُ علمه بالطريق الخاص فإنّ علمه العادي يكفيه أيضاً كما تقدّم[2].

وفي تفسير القمّي عن أبي جعفر عليه السلام أنه " كان يقوم على أصابع رجليه حتى تورم "، وفي الكافي عنه عليه السلام: أنه " كان يقوم على أطراف أصابع رجليه، فأنزل الله ﴿طه ◆ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، وفي قرب الإسناد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه " كان يقوم ويرفع إحدى رجليه، فأنزل الله عليه ﴿طه ◆ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ فوضعها !![3].

---

(١) راجع الحدائق الناضرة (٦/٢٨)، وتمام الحديث: وكان يقسّم الليل أنصافاً، فيقوم في صلاة الليل بطوال السور، وكان إذا ركع يقال: لا يدرى متى يرفع، وإذا سجد، يقال: لا يدرى متى يرفع.. وفي مصباح الشريعة ص (١٧٠): كان رسول الله ﷺ يصلي حتى يتورم، ويقول: أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ أراد أن تعتبر به أمته، فلا يغفلوا عن الإجتهاد والتعب والرياضة.

(٢) وردت نصوص في شأن علمهم عليهم السلام في الكافي (١/٢٥٦)، والبصائر ص (٢٩٥).

(٣) راجع تفسير علي بن إبراهيم القمّي (٢/٥٨)، والكافي (٢/٩٥)، وقرب الإسناد ص (١٧١).

وقال صاحب الجواهر أنّ هذا القيام الشاق الذي اختاره رسول الله ﷺ هو أشق أفراد القيام وأحمزها، في حين لا يستقيم قولنا أنّه ﷺ كان لا يعلم بترتب الأذى عليه، وهو المعصوم من الزّلل.

فإن قلنا بأنّه ﷺ لم يعلم بترتب الورم على قيامه لزم جهله ووقوعه في الحرام جهلاً، وإن قلنا بعلمه - وهو الحق - لزم تشريع إيذاء النفس في العبادة، فلا يمكن الإلتزام بارتكابه الحرام عمداً.

فإن قيل باحتمال سهوه ﷺ في غير الأحكام أو جهله بالموضوعات، فإن أحداً لم يقل - والعياذ بالله - بفعله الحرام عمداً أو جهلاً أو سهواً أو خطأً أو اختياراً أو اضطراراً، قبل النبوّة وبعدها، واتفقت الإماميّة على عدم وقوع السهو منه ﷺ في المباحات والمكروهات وتنزيهه عن المباحات القادحة في الأدب كالأكل ماشياً وأمثال ذلك، ولا يسعنا مع كلّ هذا إنكار علمه ﷺ بعاقبة القيام في الصلاة المؤدي إلى فعل الحرام مع التزامنا بعصمته عن الإثم[1].

---

(١) هذا، وأمّا إذا سهى الشّيخ الصدوق رحمه الله فقال بإمكان نسبته إلى النبي ﷺ فإنّه قد تنصل عن هذه النسبة، ونسب الإسهاء إلى الله تعالى لنبيّه ﷺ لنوع من المصلحة، كما في كتابه "من لا يحضره الفقيه" (١/١٣٤)، والمصلحة هي أن لا يتخذه الناس رباً معبوداً، وأن يعرف الناس بذلك أحكام السهو، وأن لا يعيّر به بعضهم بعضاً، ولا يخفى ما في هذا الكلام من العي، فلو تمّت هذه العلة لأدت إلى جواز العيوب والعاهات عليه ﷺ وهذا ما لا يقوله أحد من أهل الإسلام، والحقّ والإنصاف أن نقول بسهو الشّيخ الصّدوق رحمه الله في نسبته السّهو لساحة النبي الأعظم ﷺ.

والذي يمكن قوله أنّ شيخ المحدثين رحمه الله كان يركن إلى أخبار مستفيضة في هذا المعنى وكان له العذر في الإعتماد عليها، وقد أُنكر عليه ذلك، وقال في حقّه الشّيخ المفيد رحمه الله في رسالة "عدم

وقد أضر ﷺ نفسَه بالجوع، فوضع حجر المجاعة على بطنه، وخرج من الدنيا خميصاً، وما شبع من خبز برّ قط، ورَوَى ذلك الشيخ الصّدوق رحمه الله في الأمالي وابن شهراشوب في المناقب وابن الجوزي والزمخشري في ربيع الأبرار وابن أبي الحديد في شرح النهج، وصرّح به النبي ﷺ في خطابه للمهاجرين والأنصار في آخر أيّامه فقال: " ألم أضع حجر المجاعة على بطني ؟ " فقالوا: بلى.

وكان ﷺ يجوع حتى يربط على بطنه الحجر، ويظمأ حتى يجفّ ريقه من شدة العطش، وكان يتحمل الجوع المفرط، وواضحٌ أنّ ربط الحجر لا يكون إلاّ للحاجة الماسّة إليه، وإلاّ كان ربطه رياءً، وكان يفعل ذلك مع قدرته على الشَّبع، وأمّا دعوى اضطراره ﷺ إلى الجوع الموجب للضّرر مجرّد احتمال، ويظهر من خطابه الذي يمتنّ على المسلمين فيه بربط الحجر اختياره في مكابدة الجوع في الغالب، ولو كان جوعه عن اضطرار لما كان لامتنانه عليهم وجه، وذكر المؤرّخون أن المسلمين قلّ زادهم أيام حفر الخندق، وأن النبي ﷺ ربط الحجر من الجوع على بطنه ثلاثة أيام، وهذا ليس من موارد الإمتنان لابتلاء المسلمين عامّة.

→ سهو النبي ص (٢٠): " أنه قد تكلّف ما ليس من شأنه، ولا هو من صناعته، ولا يهتدي إلى معرفته، ولو كان ممّن وفق لرشده لما تعرض لما لا يحسنه ".

وقد صدرت من السيد والشيخ والعلامة والشهيد وغيرهم رحمهم الله ردود كثيرة عليه رحمه الله وفي كلماتهم نكير شديد عليه، لأنّ القول بوقوع السهو منه ﷺ باطل بضرورة المذهب، إلاّ أنّ هذا الموضوع لم يبلغ حدّ الضّرورة في عصر الشّيخ الصدوق رحمه الله، ولم يكن قوله به مخالفاً الضرورة المذهبية، ولم يوجب قوله الفسق قطعاً، ولكنّ الكلام كلّ الكلام فيمن يخالف ضرورة المذهب بعد ثبوته.

إضرار الزهراء عليها السلام نفسها بالعبادة

رُوِيَ في بحار الأنوار عن المناقب عن الحسن البصري أنه قال: " ما كان في الدنيا أعبد من فاطمة عليها السلام كانت تقوم حتى تورم قدماها "[١].

فالعبادة التي تتورّم فيها القدمان من أفضل أنواع العبادة، فهذا لا يضرّ بعبادتها، فقد كانت عليها السلام تطيل القيام إلى درجة تورّم قدميها مع علمها بذلك.

ورُوِيَ بطرقنا أنها عليها السلام استَقَت بالقربة حتى أثّر في صدرها، وطحنت بالرحى حتى مَجُلَت يدَاها[٢].

والمَجَل في اليد هو صلابة الجلد وثخنه بمزاولة الأعمال الشديدة، ولا يكون ذلك إلاّ بعد شدائد متتالية، وروي في الخرايج عن سلمان رضي الله عنه أنّه دخل على فاطمة عليها السلام وكانت جالسة قدّامها الرحى تطحن بها الشعير، وعلى عمود الرحى دم سائل، والحسين عليه السلام في ناحية من الدّار يتضور من الجوع، فقال: يا بنت رسول الله، دبرت كفّاك وهذه فضة جالسة !! فقالت: " أوصاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تكون الخدمة لها يوماً ولي يوماً، فكان أمس يوم خدمتها "[٣].

وهذه أضرار عرّضت الصدّيقة عليها السلام نفسها لها، سواء في عبادة أو في خدمة بيتها الطّاهر، صلوات الله وسلامه عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٣/ ٨٤)، ومناقب ابن شهراشوب (٣/ ٣٤١) عن حلية الأولياء لأبي نعيم ومسند أبي يعلي.

(٢) علل الشرائع (٢/ ٣٦٩).

(٣) راجع الخرايج والجرائح ٢(/ ٥٣٠)، وفي نسخة: " والحسين في ناحية الدار يبكي "، ومعنى دبرت كفّاك: قرحت أو جُرحت.

إضرار السجاد عليه السلام نفسه

ثبت تاريخيّاً أنّ الإمام السجاد عليه السلام دائم السّقم والحزن، وقد كلّف نفسه الجهد بالعبادة، فقال فيه جابر الأنصاري رضي الله عنه : أنّه " يهلك نفسه اجتهاداً بالعبادة " وقالت فاطمة بنت علي عليها السلام : أنّه " شديد الإجتهاد بالعبادة " .. ورُوِيَ أنّ علي بن الحسين عليه السلام كان شديد الإجتهاد بالعبادة، نهاره صائم، وليله قائم، حتى أضرّ ذلك بجسمه، فقال له ولده الباقر عليه السلام : يا أبه، كم هذا الدأب ؟ فقال: " أتحبّب إلى ربّي لعلّه يزلفني "، ورَوِيَ عن الباقر عليه السلام : وبالإستدامة على العبادة المجهدة اصفر لونه من البكاء، ورمَصَت عيناه من السّهر، ودبرت جبهته، وانخرم أنفه من السجود، ووَرَمت ساقاه وقدماه من القيام للصلاة[١].

ورآه أبو حمزة الثمالي رضي الله عنه في فناء الكعبة يصلّي، فأطال الصلاة حتى جعل يتوكّأ مرة على رجله اليسرى[٢].

وكلّ هذه مشقّات يترتب عليها الإضرار بالنّفس، مثل تورّم قدمي النبي صلى الله عليه وآله، وكان السجّاد عليه السلام يعلم بتحقّق الضّرر قطعاً، فإنّه كان يقول لجابر رضي الله عنه : " لا أزال على منهاج أبويّ مؤتسياً بسنتيهما حتى ألقاهما "[٣].

---

(١) راجع لقول جابر رضي الله عنه المناقب (١٤٩/٩٤)، ولقول فاطمة عليها السلام المناقب (١٤٨/٤)، ولخبره مع الباقر عليه السلام المناقب (١٥٥/٤)، ولقول الباقر عليه السلام الإرشاد ص (٢٥٥) مسنداً عن سعيد بن كلثوم عن الصادق عليه السلام. ورَمِصَت عيناه : خرج منهما وسخ أبيض، وربّما يكون تصحيف " رمضت " بمعنى حميتا، ودبرت جبهته : حدثت قرحة أو جرحٌ في جبهته.

(٢) راجع الكافي (٥٧٩/٢).

(٣) راجع المناقب (١٤٩/٤).

وتقدّم كلام الإمام الباقر عليه السلام وجوابه عليه السلام عليه، ولم يُعترض عليه بأنّ فعله ذلك محرّم، أو لا يطاع الله من حيث يعصى !! ولقد بلغ من إضراره نفسه بالعبادة حدّاً كبيراً، وروي أنه كانت تسقط منه كل سنة سبع ثفنات من مواضع سجوده، ولذلك لقّب بذي الثفنات !![1].

ورُوِيَ في الخصال أنّه "كان على ظهره مثل ركب الإبل" .. ورُوِيَ في حلية الأولياء عن الزهري أنّه "كان على ظهره مجل"، والمَجل هو تصلّب الجلد من العمل، وعن عمرو بن ثابت: " كان على ظهره سواد "[2].

فإذا كان كذلك.. فإنّ إضرار الإمام السجّاد عليه السلام نفسه في العبادة إلى حدّ إثفان السجود جبهته مشرّعٌ لإضرار النفس في الشّعائر الحسينيّة، فلطم البدن حتّى الإسوداد والإدماء سائغٌ شرعاً للجازع على مصيبة الإمام الحسين عليه السلام.

وقد دأب الإمام عليه السلام على البكاء على أبيه عليه السلام ومزج الطعام والشراب بدموع عينيه، وقد صح وتواتر جزعه على أبيه، وأُفردت له أبواب في الكتب، حتى رُوِيَ في المناقب أنه إذا أخذ إناءً يشرب ماءً بكى حتى يملأه دمعاً !![3].

وكان عليه السلام يُنزل بنفسه أشدّ الآلام، حتى بكى بضعاً وعشرين سنة حتى خيف على عينيه من كثرة بكائه، وهذه أفعالٌ اختياريّة لا قهريّة، وقد اتّفقت كلمة الإمامية على عدم إمكان صدور فعل أو قول عن المعصومين عليهم السلام دون

(١) راجع الخصال (٢/٥١٨)، وفي القاموس: ذو الثفنات هو علي بن الحسين.

(٢) راجع الخصال (٢/٥١٧)، وحلية الأولياء (٣/١٣٦) وفي مطالب السؤول: "كانت آثار في ظهره".

(٣) راجع مناقب آل أبي طالب (٤/١٦٦)، وبحار الأنوار (٤٦/١٠٨).

اختيارهم وإرادتهم حتى إذا كان مباحاً، وأمّا في الإختيار فإنّ صدور المحرّم منهم ينافي العصمة، وأكثَرَ الإماميّة في تشييد عصمتهم وقالوا بها حتّى في حال النوم، حتّى قالوا أنه لا يتثاءب ولا يتمطّى(١).

فالإمام عليه السلام كان مختاراً في بكائه عالماً، ومن يعقل أمر بقاء حجّة الله بضعاً وعشرين سنة أسير الحزن والبكاء والجزع مسلوب الإختيار والإرادة ومغلوباً لدواعي البشرية، في حين أنّ غير المعصومين يصابرون النوائب ويتجلّدون عليها بغية الثواب، ولابد من الإعتقاد بكون الأئمة عليهم السلام مجرّدين عن الرغبات الطبيعية، وحبّهم خالص لله، وإذا أحبّوا غيره كان لحب الله له، ومرجع الأمر إلى محبة الله وحده، ومن هذا الباب إفراط يعقوب في حبّ يوسف دون أخوته، من غير منافاة لخلوص حبّه لربّه.. ولا شكّ في أنّ حبّ الإمام عليه السلام لأبيه عليه السلام لم يكن بداع قهري، وبالتّالي فإنّ بكاءه عليه تابع لداعي حبه له، وهو حب الله الخالص.

وفي هذا الصدد قال العلامة المجلسي رحمه الله في جلاء العيون: " إن بكاء المقرّبين بعضهم بعضاً ليس لأجل المحبة البشرية، بل لأغراض أُخر، والسجاد عليه السلام لما كان عالماً من أبيه ما يخفى على غيره، ويعلم أنه أحب الخلق إلى الله، وأن قتله

---

(١) وهذا خلافاً للعامّة حتّى في شأن النبي صلى الله عليه وآله، فإنّهم قد فصّلوا في العصمة، وبعضهم قال بها في الأحكام ونفاها عنه في الأمور الدّنيويّة !! ولقد قال بعض في حقّ النبي صلى الله عليه وآله أنّه يهجر! فراجع تاريخ ابن الأثير (١٢٢/٢)، والبخاري (٩/٥ و ٢٨) في كتاب المغازي، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٥١/٦)، ومسند أحمد بن حنبل (٣٢٤/١ و ٣٢٥ و ٣٣٦).
واستحقّ بنسبة الهجر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله لوم المسلمين واستنكارهم إلى هذا اليوم، لمجرد نسبته إليه صلى الله عليه وآله صدور لفظ دون اختياره، ومع أنّه لم ينسب له محرماً دون اختيار، فتأمّل.

سبب لضلالة الناس وضياع الدين منهم بقتل الإمام، بكى لذلك "[١].

ومع القول بقهريّة بكائه عليه‌السلام على أبيه عليه‌السلام نفي لدرك الثواب أصلاً، وهذا يعني أن أحدنا يستحق الثواب الجزيل ببكائه وتباكيه على الإمام الحسين عليه‌السلام، بينما لا يستحقّه الإمام السجاد عليه‌السلام الذي بكاه مدّة حياته !!

إضرار أهل البيت عليهم‌السلام أنفسهم

تحمّل أهل البيت عليهم‌السلام الجوع المفرط وصاموا ثلاثة أيّام طووا فيها إلاّ عن الماء، وقد تصدّقوا بطعامهم في الأيّام الثّلاثة على المسكين واليتيم والأسير، وكان لهم أن يطعموا ممّا تصدّقوا به، لكنّهم آثروا بالطعام من ليس هو بأولى به منهم يومئذ، وآذوا أنفسهم وأضرّوها في سبيل العبادة.

فأنزل الله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا**﴾ حتّى قال: ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ◆ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ◆ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا**﴾.

ورَوَى المفسّرون في قصّة النّذر أنّهم طووا ثلاثاً لم يطعموا سوى الماء، وأن النبي رأى الحسنين عليهما‌السلام بعد الثلاث يرتعشان من شدة الجوع كالفرخين، ورأى

---

(١) راجع كتاب جلاء العيون، وهو كتاب مؤلّف بالفارسيّة، وقد نقلنا ترجمة الفقرة من حاشية كتاب الشعائر الحسينية في الميزان الفقهي للآية العلاّمة الشيخ عبد الحسين الحلّي رحمه‌الله، وقد طبع الكتاب بتحقيق " نزار الحائري " وتعليقاته قيّمة جدّاً، وهي تكشف عن فضل محقّقه، وقد استعنّا بالكتاب والتعليق في تحرير كثير من مطالب هذا الكتاب، ونسأل الله تعالى أن يتقبّل منّا ومنهم.

فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها[(١)].

وحجّ الأئمة عليهم السلام مُشاة حتى تورّمت أقدامهم، مع تمكّنهم من الركوب، وقد حج الإمام السجاد عليه السلام ماشياً مع سقمه وضعف بدنه، رغبة في المشقة وإيذاء النفس، وفي رواية الشّيخ المفيد رحمه الله أنه سار في عشرين يوماً من المدينة إلى مكة، وحج الإمام الحسن عليه السلام ماشياً خمس وعشرين حجة والنجائب تقاد خلفه، وأن غلمانه وأصحابه ركبوا وأجنبوا نجائبهم خلفهم، وروى ذلك السنّة والشيعة[(٢)].

---

(١) تجد هذا في جلّ تفاسير المسلمين، وروى الفاضل الطبرسي ذلك في مجمع البيان (٩/٦١١)، والزمخشري في الكشاف (٤/٦٧٠). ورُوِيَ في الخرائج أن رسول الله صلى الله عليه وآله مضت عليه تلك الأيام والحجر على بطنه من الجوع أيضاً، وقد علم بحال أهل بيته وجوعهم، وأنه دخل في اليوم الرابع حذيفة والمقداد، فأطعمهم تمراً من جذع يابس.

ورُوِيَ في حديث طويل دخول النبي صلى الله عليه وآله وجابر الأنصاري رضي الله عنه على فاطمة عليها السلام، وأن النبي صلى الله عليه وآله لما دخل عليها رأى وجهها أصفر كأنه بطن جرادة، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: ما لي أرى وجهك أصفر؟ فقالت: يا رسول الله الجوع!!

وفي رواية المناقب عن تفسير الثعلبي: أن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل على فاطمة فرأى صفرة وجهها وتغير حدقتها، فسألها عن ذلك، فقالت: أن لنا ثلاثاً ما طعمنا شيئاً، وقد اضطرب عليّ الحسن والحسين من شدة الجوع، ثم رقدا كأنهما فرخان منتوفان، وكان النبي صلى الله عليه وآله نفسه لم يطعم شيئاً يومئذ منذ ثلاث. ورُوِيَ في الخرايج: عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله أقام ثلاثاً لم يطعم شيئاً، فطاف بيوت أزواجه وبيت فاطمة، فلم يجد.

وفي بحار الأنوار (١٦/٢٢٥) وصحيفة الرضا عليه السلام ص (١٥): أن فاطمة عليها السلام جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الخندق بكسرة من خبز فقال لها: أما إنها أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث.

(٢) راجع بحار الأنوار (٤٣/٣٩٩)، ومناقب ابن شهراشوب (٤/١٥٥)، مرويّاً عن حلية الأولياء.

ولا يخفى أنّ قود النجائب خلفه دليل على تمكّنه عليه السلام من الركوب، إلاّ أنّ رغبته في إيذاء نفسه دعته إلى ذلك. وورد الأمر نفسه في رواية بالنسبة إلى الإمام الحسين عليه السلام[(١)].

وكان مشيهم عليهم السلام موجب للضرر قطعاً، وكانوا على علم بالأذى النّاجم عن مشيهم، لما تقدّم، ولما روي في الكافي عن أبي أسامة عن الصادق عليه السلام أن الحسن عليه السلام خرج سنة إلى مكة ماشياً فتورمت قدماه، فقال له بعض مواليه: لو ركبت لسكن عنك هذا الورم. فقال: كلا، ولكن إذا أتينا هذا المنزل فإنه يستقبلك أسودٌ ومعه دهن، فاشتر منه ولا تماكسه[(٢)].

فتدّل الرّواية على تعمّده عليه السلام التعرّض للضّرر وعلمه بتورّم قدميه في العبادة، وكان يحتسب المشي المضر المؤذي طاعة لله تعالى، ويبدو من رواية الصدوق رحمه الله عن السجّاد عليه السلام " أن الحسن عليه السلام كان إذا حجّ حجّ ماشياً وربما مشى حافياً " أن المشي دأبه كلّما حج، وأنّ الحفاء إتّفاقي في مشيه إلى الحج، فربما احتفى وربّما لم يحتف.

تقرّح جفون الرضا بالبكاء

مر علينا حال حزن الإمام الرّضا عليه السلام وجزعه، ومرّت رواية الشّيخ الصدوق رحمه الله بسنده إليه عليه السلام أنه قال: " أن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٤/ ١٩٢).

(٢) راجع الكافي (١/ ٤٦٣).

دموعنا، وأذلّ عزيزنا "[١].. ودلالة الحديث تعمّ جميع أهل البيت عليهم السلام وتدلّ على تقريح جفون جملة المعصومين من أبناء الإمام الحسين عليه السلام وكان ذلك منهم حال الإختيار قطعاً، وإلاّ تنافى مع عصمتهم، وعقيدة الشيعة الإمامية على أن حجيّة الإمام ثابتة في كلّ حالاته[٢].

وربّما حمل بعض المتوهّمين قوله عليه السلام على المبالغة، إذ أنّها ليست من الكذب الذي يُنزّه عنه الإمام، وهو باب يدخل فيه الكثير من أقوالهم عليهم السلام، من قبيل قول الإمام الحجة عليه السلام: " لأندبنّك صباحاً ومساءً، ولأبكينّ عليك بدل الدموع دماً " فهي مبالغات سائغة !!

ولكنّ هذا القول منه عليه السلام لا يكون إلاّ على وجه الحقيقة، فما الوجه في المبالغة لو أراد بها شدة بكائه وكثرته، والمناسب للمبالغة أن يقول: " لأبكينّ بكاءً بدمع يغمر الأرض " أو " بكاءً يسيل كالأنهار" لا أن يقول " لأبكينّ دماً " !!

والذي يريده عليه السلام أنّه يبكي باحتراق وشدة إلى درجة تقرّح أجفانه من عظم المصيبة، فتمتزج الدموع بالدماء المتفجّرة من الأجفان المتجرّحة، فيصدق حينئذ قولنا أنّهم بكوا على جدهم دماً !!

---

(١) راجع أمالي الصدوق ص (١١١).

(٢) ودلّت على ذلك روايات وأخبار كثيرة مروية في بصائر الدرجات ص (٤٢٠) وما بعدها وذكرها المجلسي في البحار، ومؤدّى جلّها عدم صدور شيء منه بغير اختيار، حتى عند المرض والموت، حتى قالوا أنه لا يتثاءب ولا يتمطى، وأنّه إذا نامت عينه لا ينام قلبه.

امتناع العباس عن الماء

مولانا العبّاس بن أمير المؤمنين عليه السلام من فقهاء أهل البيت عليهم السلام واسم لامع في سماء النّصرة الحسينية، وفي فضله وعظمته نصوصٌ جمّة، وقد ثبت نقلاً أنّه أضر بنفسه حين رمى الماء من يده وهو على ما هو عليه من شدة الظمأ تأسّياً بعطش أخيه الإمام الحسين عليه السلام، فكان على الشّيعة أن يقتصّوا أثره ويقتدوا به[١].

وقد أُشكل على هذه الحجّة بعدم عصمة مولانا العباس عليه السلام، وهذا ممّا يحتاج إلى ردّ مجمل، فإنّنا حين نقول بأنّه ليس بواجب العصمة لا ننفي عنه العصمة بتاتاً، إذ أنّ العصمة مرتبة من الكمال يفيض بها الله بأسبابها الإختيارية تمنع من فعل المعصية مع القدرة عليها، وإلاّ لم يكن لصاحبها على الله ثواب ولا جزاء، وقد قال بعض العلماء بالعصمة بهذا المعنى لسلمان رضي الله عنه وبعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام على تفاوت درجاتهم، وأطلق عليها بعضٌ "العصمة الصغرى" من قبيل عصمة مولانا العبّاس عليه السلام.

أمّا العبّاس عليه السلام الذي رضع من ثدي الإيمان وترعرع في حجر أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ منه العلم زقّاً، وتتلمذ على أخويه الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام

---

(١) ونَفْضُ العبّاس عليه السلام يده من الماء يوم عاشوراء من المعاني المشهورةوقد رواها جملة من المصنّفين وأصحاب المقاتل، منهم العلامة المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار (٤١/٤٥)، وأرسله الشيخ الطريحي رحمه الله في موضعين من المنتخب (٤٣٠/٢)، ورواه السيد البهبهاني رحمه الله في الدمعة الساكبة ص (٣٢٠)، والمحدّث البحراني في عوالم العلوم (٢٨٤/١٧)، وذكره عدّة كبيرة من المتأخّرين في كتبهم ومقاتلهم، ومنهم السيد الأمين رحمه الله في "المجالس السنية" في المجلس (٦١) و (٦٣) و (١٢٧) و (١٤٢). وهذا المقدار كاف في صحة أية حادثة تاريخية كما تقدّم.

على مدى أربع وثلاثين سنة فإنّه الأولى بنيل مرتبة من مراتب العصمة من كلّ أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وإذا كان غير الإماميّة يقولون بعصمة الأقطاب والأبدال والأولياء بالمعنى المذكور فإنّ مولانا العبّاس عليه السلام فوقهم بالمرتبة قطعاً !!

ومن الظلم لشخصيّة العبّاس عليه السلام أن نعتبره مجرد فارس شجاع وسيم جميل وقائد ذي مناقب، وقد خرج مع أخيه للدين وللحميّة، وأنّه كان يفضل سائر الأصحاب بأخوّة الإمام الحسين عليه السلام !![1]. ولكن فضله لا يخفى على ناظر أو متتبع أبداً، ومجموع النصوص تشير إلى فقاهته وعلمه وعظمته وتنسّكه وعبادته وورعه، ورَوَى الصّدوق رحمه الله عن القاسم بن الأصبغ، عن المدايني أنه رأى رجلاً من بني أبان بن دارم وأخبره أنه قتل شاباً أمرد مع الحسين عليه السلام بين عينيه أثر السّجود، قال: والمقتول هو العباس بن علي عليه السلام[2].

---

(١) وقد درج الشيعة على سماع الخطباء يردّدون في يوم العباس عليه السلام هذه العبارة المشهورة: "كان العباس رجلاً وسيماً جميلاً، يركب الفرس المطهّم ورجلاه تخطان في الأرض" فلا ترتسم في أذهانهم إلاّ هذه الصّورة التي تقصر عن بلوغ حقيقة مقامه وعظمة منزلته وشرف محلّه !!
وهذا تنبيه أنبّه به نفسي وسائر إخواني خدّام منبر سيد الشهداء عليه السلام، فليس قصدي نكران هذه الصفة البهيّة المرويّة في مقاتل الطالبين ص (٥٦) وعوالم العلوم (١٧/ ٢٨٢)، ولكنّي أهيب بهم للتركيز على بيان مقام العبّاس بن أمير المؤمنين عليه السلام، وقد صدرت فيه الأوسمة الكبيرة من أهل العصمة عليهم السلام بقدر يكفيه منها وسام واحد لإثبات عظمته، وكفاه فخراً مخاطبة الإمام الصادق عليه السلام له: "لعن الله من جهل حقك واستخف بحرمتك" كما في كامل الزيارات ص (٥٦٦) ففيها دلالة على امتيازه على سائر الشهداء عليهم السلام إذ لم يرد في أحدهم مثل هذا النّص !!

(٢) ونقله أبو الفرج في مقاتل الطالبيين ص (٧٩)، ويروى أنّ القتل لم يقلّل في نوره وبهائه شيئاً،

وقد رَوَى الحديث عن أبيه عليه السلام وأخويه عليهما السلام، وكان أبوه يمتحن نباهته على صغره، فيبدي لأبيه غاية المعرفة، وروى المحدّث النوري في حاشية المستدرك عن مجموعة الشهيد الأول أن علياً عليه السلام أراد يوماً أن يدرّب العباس ويمرّنه على الكلام بين يديه، فقال له: قل واحد، فقال: واحد، فقال له: قل: إثنان، فقال: أستحي أن أقول إثنان باللسان الذي قلت به واحد، فأحنى علي عليه السلام عليه وضمّه وقبل ما بين عينيه.

وذكر الجزري في أسد الغابة أنّه عليه السلام شهد بعض المغازي ولم يأذن له بحرب، وكان عمره يومئذ أربع عشرة سنة، ولم يوفِ التاريخ بشخصيّته كما لم يفِ بأغلب العظماء، وحتّى أنّ تصانيف علمائنا الرجاليّة خالية من ترجمته لعدم وصول رواياته إليهم، والعذر أنّهم كانوا يرونه فوق ثنائهم عليه، حتّى قال الفقيه الشيخ محمد طه نجف رحمه الله في كتابه الرجالي: " إنه عليه السلام أجل من أن يذكر في عداد سائر الرجال، بل المناسب أن يذكر عند ذكر أهل البيت المعصومين عليهم السلام ".

ويكفي في التلويح بعصمته مخاطبة الإمام الصادق عليه السلام له في زيارته: " لعن الله أمة قتلتك، ولعن الله أمة ظلمتك، ولعن الله أمة استحلّت منك المحارم وانتهكت فيك حرمة الإسلام "[1].

← فقد كان وجهه كفلقة القمر ليلة البدر، وروي في " الحقائق الوردية " في وصفه: " كأن وجهه فلقة القمر ليلة البدر " وعمره على ما في كتاب االعمدة أربع وثلاثون سنة، وفي العوالم (٢٨٢/١٧): أنه كان وسيماً جميلاً، يركب الفرس المطهّم ورجلاه تخطان في الأرض، وكان يقال له " قمر بني هاشم " وكان شاباً أمرد، بين عينيه أثر السجود، وكان لواء الحسين معه.

(١) راجع المزار للشيخ المفيد ص (١٠٩).

ومعلومٌ إنّ حرمة الإسلام لا تنتهك إلاّ بقتل العظماء والمعصومين، وظاهر خطاب الإمام عليه السلام يشير إلى مقام كان قد بلغه مولانا العبّاس عليه السلام بالعلم والعمل يقرب فيه من درجات أهل العصمة عليهم السلام.

وقول الإمام السجاد عليه السلام: " وإن للعباس عليه السلام منزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة "[١].

وقول الإمام الصّادق عليه السلام له: " مضيت على بصيرة من أمرك مقتدياً بالصالحين ومتبعاً للنبيين"[٢] مشعرٌ بعصمته المكتسبة بالإجتهاد ولزوم الطّاعات واجتناب السيّئات، فمقترف الذنوب لا يقتدي بالصالحين !! ونحن ملزمون بحمل كلامهم عليهم السلام على الدّقة.

وقوله عليه السلام أيضاً كما رَوَى الدّاوودي في العمدة: " كان عمّنا العباس بن علي عليه السلام نافذ البصيرة، صلب الإيمان، جاهد مع أخيه الحسين عليه السلام وأبلى بلاءً حسناً حتى مضى شهيداً ".

فقد عرض عليه الأمان في ذلك اليوم العصيب فأبت صلابة إيمانه إلاّ الثبات على النصرة، فجاهد وواسى بنفسه، بعد إن قدّم أخوته أمامه إلى الموت ليُرزأ بهم ويحتسبهم، فيشتد حزنه ويعظم أجره، ويكون هو الطالب بدمائهم، لأنهم لا ولد لهم[٣].

---

(١) راجع أمالي الصدوق ص (٣٧٤)، والخصال (١/٦٨)، قاله الإمام علي بن الحسين عليه السلام عندما نظر إلى عبيد الله بن العباس.

(٢) راجع بحار الأنوار (٩٧/٤٢٧) و (٩٨/٢١٨).

(٣) ورد ذلك في أكثر من مصدر، ورواه الطبري بلفظ: " قال لأخوته: يا بني أمّي تقدموا حتى

وخُصّ من دون الجميع بقول الإمام الصادق عليه السلام: " فنعم الأخ المواسي " وقول الإمام السجاد عليه السلام: " رحم الله عمي العباس، فقد آثر وأبلى "[١].

وكلّ أنصار الإمام الحسين عليه السلام لهم فضل سابق، إلاّ أنّ مولانا العبّاس عليه السلام من بينهم قد ملك الماء يوم الطف فواسى وأبلى، وتحمّل العطش مواساة للإمام الحسين عليه السلام، فخصّه أهل البيت عليهم السلام بتلك الكلمات، ويبدو أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان قد أوصاه بمواساة الإمام الحسين عليه السلام.

ورَوَى الميرزا هادي الخراساني النجفي رحمه الله عن كتاب "عدة الشهور" أن أمير المؤمنين عليه السلام عند وفاته دعا العباس عليه السلام فضمه إليه وقبّل عينيه، وأوصاه وأخذ عليه العهد أنه إذا ملك الماء يوم الطف أن لا يذوق منه قطرة وأخوه الحسين عطشان[٢].

ورمى عليه السلام الماء من يده مسرعاً لإيصال القربة لأخيه الإمام الحسين عليه السلام

أرثكم، فإنه لا ولد لكم " وفي لفظ أبي مخنف: " أنه قدّم أخاه جعفر ليحوز ميراثه " وأظنّه خطأً إن لم يكن كذباً، فصدور مثل هذا الكلام عن مثل العباس عليه السلام بعيد جدّاً، وهو أجل من ذلك، مضافاً إلى ذلك أنّ وارث أخوته إذا لم يكن لهم ولد هو أمهم أم البنين عليها السلام، وليس العباس عليه السلام، وهذا لا يغيب عن أقلّ النّاس معرفة، فكيف بفقيه جليل القدر من فقهاء أهل البيت عليهم السلام، ولا يبعد أن يكون تصحيفاً، وربّما يكون الصحيح: " أرزأ بكم " أو أمثال ذلك.

(١) راجع قول الصادق عليه السلام في مزار المفيد ص (١٢١)، وبحار الأنوار (٩٨/٢١٨ و ٣٤٦)، وقول السجاد عليه السلام في الخصال (١/٦٨).

(٢) نقلته عن حاشية محقق كتاب الشعائر الحسينيّة للحلّي رحمه الله.

ليحفظ نفسه الكريمة، ولم يكن له أن يتمهّل مقدار شربة ماء، فكابد جهد الظمأ، كي لا يتأخّر لحظة عن إيصال الماء مقدمةً للواجب الأهم من حفظ نفسه.

ويظهر من الأدلّة الشّرعية أنّ إيثار الأخرين مقدّم على النفس ولو بلغ حدّ الضّرر، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ ورُوِيَ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال عليه السلام ضمن حقوق المؤمن: " أن لا تشبع ويجوع، ولا تروى ويظمأ، ولا تلبس ويعرى "[1].

ورَوَى غير واحد من المؤرّخين إيثار أبي ذر الغفاري رضي الله عنه في غزوة تبوك النبي صلى الله عليه وآله على نفسه، واحتمل العطش الشّديد وهو يحمل ماءً عذباً فأبى أن يذوقه حتى يشرب منه النبي صلى الله عليه وآله[2].

وتحقّق في كتابنا أمر الإمام الصادق عليه السلام الشيعة بالإمتناع عن شرب الماء يوم عاشوراء إلى ما بعد العصر بساعة، ونقلنا رواياته فيما تقدّم، ذلك مواساة للإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام، إذ قاسى وأهله وأصحابه شدّة العطش.

بل رُوِيَ عن أبي مخنف أن الحسين عليه السلام لما أقحم فرسه على الفرات وولجه وغرف منه غرفة ليشرب سمع صائح القوم يقول: يا حسين، أدرك خيمة النساء فقد هُتكت، فرمى الماء من يده وخرج، فإذا الخيمة سالمة[3].

---

(١) راجع الكافي (٢/١٦٩)، و الوسائل (٨/٥٤٤).

(٢) راجع تفسير علي بن إبراهيم (١/٢٩٤).

(٣) راجع بحار الأنوار (٤٥/٥١)، والمنتخب في جمع المراثي والخطب (١/٤٤١)، وعوالم المعارف والعلوم (١٧/٢٩٤).

بكاء الأنبياء

لم يكن أهل البيت عليهم السلام الجازعين الوحيدين في تاريخ الأولياء، فقد صدر من أنبيائنا عليهم السلام مثل ما صدر من الأئمة من الجزع على الإمام الحسين عليه السلام، وبلغ بهم جزعهم في شؤون متعدّدة حدّ الضرر، وفي خبر البكّائين الخمسة: " أن آدم عليه السلام بكى لفراق الجنّة حتى صار في خديه أمثال الأودية، وحتى ساخت أقدامه في الأرض التي غمرتها دموعه والأنهار، وأن يعقوب بكى لفراق يوسف حتى ابيضّت عيناه "[١].

ورُوِيَ أنّ الدّمع خدّ خدَّي يحيى بن زكريا عليه السلام حتى بانت للناظرين أضراسه، فوضعَت أمّه عليها لبداً يسترها ويشرب الدّمع المنحدر عليها[٢].

ورُوِيَ في شعيب عليه السلام أنه بكى حبّاً لله وخشية منه حتى عمي، فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي، فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي، فردّ الله عليه بصره، وعندما عوتب صرّح بكون بكائه حبّاً لله، فقال الله له: لهذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران عليه السلام[٣].

وكلّها آلام في العبادة، وهي بالغة حدّ إيذاء النفس، ويدلّنا ذلك على كونه في العبادة من أفضل الطاعات، وكلّ الأضرار المذكورة تفوق تقرح الأجفان قطعاً، وقد شكر الله سعيهم ونشر ذكرهم.

وتكرّر في أحاديث أهل البيت عليهم السلام وصف الشيعة بكونهم عمش العيون من

---

(١) راجع الخصال (١/٢٧٢).

(٢) راجع أمالي الصدوق ص (٣٣).

(٣) راجع علل الشرائع (١/٥٧) مختصراً.

البكاء، خمص البطون من الطّوى، ذَبْل الشفاه من الظمأ[1].

وصح عن المعصومين عليهم السلام تعمّد إضرار أنفسهم في عباداتهم، بتقريح أجفانهم وعمش عيونهم، ويمكن لنا الإستفادة من ذلك في موردنا، مضافاً إلى النصوص الدّالة على الجزع في خصوص مصيبة الإمام الحسين عليه السلام.

---

(١) العَمَش هو سيلان الدّمع من العين بصورة مستمرة تعيق صاحبها عن النظر، والخَمْص هو خلاء البطون من الطعام جوعاً، والطّوى هو الجوع، والذَبْل هو الجفاف واليبوسة.

نهاية المطاف

وفي نهاية بحث "الشعائر الحسينية" أستوقف القاريء الكريم لأعيد صياغة البرهان بقول مُختصر، وفذلكة القول أنّ الفقهاء لا يختلفون في إباحة جرح الإنسان نفسه وإخراج دمه بيده، ومع هذا فإنّه يكون واجباً في بعض الحالات كما لو توقّفت حياة الإنسان على إخراجه في الحجامة، وقد يكون محرّماً في بعض الحالات بطروء العناوين الثانوية عليه، كما لو كان موجباً لضرر خطير يؤدّي إلى مرض أو موت، وهذا كلّ شيء في المقام.

وأبدى الشيعة شعائر الإدماء قصد مواساة سيّد الشهداء عليه السلام وأصحابه، وتفجّعاً بمصابهم وتلهّفاً على رزاياهم، وقصد التشبّه بحالتهم التي كانوا عليها، والإشتراك معهم في جراحهم، وهو عنوانٌ مُحسّن كافٍ ليرتقي بالعمل إلى أقصى رتب الكمال والشرف.

وقد شرّع أهل البيت عليهم السلام المواساة بالحزن كما في قول الإمام الصادق عليه السلام: "**رحم الله شيعتنا، لقد شاركونا بطول الحزن والحسرة**" مواساةً لهم في طول حزنهم، وبالإمساك عن الطّعام والشّراب في يوم عاشوراء مواساة لهم في جوعهم وعطشهم، وبالإدماء مواساة لهم في أبدانهم التي أثخنت بالجراح.

وشرّع أهل البيت عليهم السلام مسّ أنواع الأذى فيهم، وروي في اللهوف عن الإمام السجّاد عليه السلام: **"أيّما مؤمن مسّه أذى فينا، صرف الله عن وجهه الأذى يوم القيامة وآمنه من النار"**[(١)].

وروي أنّ النبي صلى الله عليه وآله لما استوحش من عدم البكاء على عمه حمزة اجتمع نساء الأنصار يبكين على باب المسجد وقد ذهب ثلث الليل، فلما خرج النبي صلى الله عليه وآله ورآهنّ يبكين ويندبن عمه قال لهنّ: " ارجعن رحمكنّ الله، لقد واسيتنّ معي"[(٢)].

فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله يعتبر البكاء من المواساة له، فإنّ الإدماء أولى في صدق المواساة له، فهو أظهر مظاهر الجزع على الإطلاق وليس بعده إلاّ تلف النفس والضّرر المحرّم، ولقد واساه الأنبياء عليهم السلام منذ زمن بعيد، و " سالت دماؤهم موافقة لدم الإمام الحسين عليه السلام !!".

ورُوِيَ عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال: إن إسماعيل الذي قال الله عز وجل في كتابه: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا**﴾ لم يكن إسماعيل بن إبراهيم، بل كان نبيّاً من الأنبياء، بعثه الله عز وجل إلى قومه فأخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه، فأتاه ملك فقال: إنّ الله جل جلاله بعثني إليك فمُرني بما شئت، فقال: " **لي أسوة بما يصنع بالحسين** عليه السلام "[(٣)].

---

(١) اللهوف للسيد ابن طاووس ص (٩).

(٢) راجع مسكّن الفؤاد ص (١٠٨)، وقد تقدّم القول في ذلك.

(٣) راجع علل الشرايع (١/٧٧)، وبحار الأنوار (١٣/٣٨٨) و(٤٤/٢٤٣)، وكامل الزيارات ص (٦٤)، ووسائل الشيعة (٣/٢٦٥)، وقصص الأنبياء للجزائري ص (٣١١).

أمّا الذين ينهون عن الإدماء بحجّة الضرر فتكفينا كلمة الآية العلاّمة العلم الشّيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء ﵀ في دفع وهمهم، فهو يقول: " قد بلغنا من العمر ما يناهز الستين، وفي كل سنة تقام نصب أعيننا تلك المحاشد الدموية، وما رأينا شخصاً مات بها أو تضرر، ولا سمعنا به في الغابرين ".

وإذا تحقّق ضررٌ معتدٌ في حوادث نادرة فلا يمكن جعل تلك الحوادث مناطاً لحكم أو مِلاكاً لقاعدة، فوظيفة الفقهاء هي بيان الأحكام الكليّة، ولا يختلف فقيهان على حرمة الإدماء بالنسبة لمن يخاف الضرر على نفسه، ولكنّه لا يحرم على غيره، فإذا كان أهل هذه الشعيرة لا يخافون الضرر على أنفسهم فإنّها راجحة في حقّهم، ومستحبّة لطروء العناوين المتقدّمة.

وأمّا مسألة رجحان الإدماء في يوم العاشر فإنّها في مسألة في غاية الوضوح، وعلى ذلك أعيان فقهاء الطّائفة، وإن خالفهم مخالفٌ لطروء بعض العناوين الثانويّة فإنّه أمر راجع إلى تقليد المكلّفين كما تقدّم، ولكّل رأيُهُ ولا بأس..

وفي فتوى أستاذ الفقهاء والمجتهدين آية الله العظمى الشيخ محمد حسين النائيني ﵀ كفاية في المقام، فقد أعلن كبار مراجع الطائفة تأييدهم لها.

قال ﵀ : " لا إشكال في جواز اللطم بالأيدي على الخدود والصدور إلى حدّ الاحمرار والإسوداد، بل يقوى جواز الضرب بالسلاسل أيضاً على الأكتاف والظهور إلى الحدّ المذكور، بل وإن تأدّى كل من اللطم والضرب إلى خروج دم يسير على الأقوى، وأما إخراج الدم من الناصية بالسيوف والقامات فالأقوى جواز ما كان ضرره مأموناً، وكان من مجرّد إخراج الدم من الناصية بلا صدمة على عظمها، ولا يتعقب عادة بخروج ما يضر خروجه من الدم ونحو

ذلك، كما يعرفه المتدربون العارفون بكيفية الضرب، ولو كان عند الضرب مأموناً ضرره بحسب العادة، ولكن اتفق خروج قدر ما يضر خروجه لم يكن ذلك موجباً لحرمته، ويكون كمن توضأ أو اغتسل أو صام أمناً من ضرره ثم تبيّن ضرره منه "(٤).

وأعلن كبار مراجع الطّائفة تأييدهم لفتوى الشّيخ النائيني ﷺ..

قال آية الله العظمى السيّد محسن الحكيم ﷺ: " ما سطّره أستاذنا الأعظم في نهاية المتانة وفي غاية الوضوح، بل هو أوضح من أن يحتاج إلى أن يعضد بفتوى الوفاق "..

وقال آية الله العظمى السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي ﷺ: " ما أفاده شيخنا الأستاذ هو الصحيح "..

وقال آية الله العظمى الميرزا عبد الهادي الشيرازي ﷺ: " ما ذكره صحيح إن شاء الله تعالى "..

وقال آية الله العظمى السيّد محمود الشاهرودي ﷺ: " ما حرّر هنا شيخنا العلاّمة هو الحق المحقّق عندنا "(٥).

وفي الفقهاء المعاصرين (حفظهم الله) من ترقّى من الرّجحان والإستحباب إلى الوجوب، لوجوب الشّعائر الحسينية بالجملة، ومنهم الفقيه آية الله العظمى السيّد

---

(٤) راجع فتاوى الشعائر الحسينية ص (٢١) الطبعة السّادسة، والفتوى طويلة.

(٥) راجع فتاوى الشعائر الحسينية ص (٢٥) الطبعة السّادسة.

تقي الطباطبائي القمّي (حفظه الله) الذي ذهب إلى الوجوب الكفائي.

فقال: " إقامة العزاء على الإمام الحسين عليه السلام وتشييد المنبر وقصائد الرثاء والنياحة والضرب على الرؤوس والصدور وتأسيس الهيئات الحسينية وتسيير مواكب اللطم وضرب السلاسل ومواكب التّطبير وشدخ الرؤوس بالقامات على ما هو معروف ومتداول اليوم ليس جائزاً فحسب، بل هو جائز ومن الشعائر الدينية والسنّة النبويّة، بل هو واجب كفائي في الجملة في مثل هذه الظروف، وأما ما يثيره بعض المغفّلين ممّا يبعث الترديد وانحراف الأذهان فإنّه ليس بصحيح ونقله والتفوّه به في النّاس حرام "(٦).

ويُنقل أنّ العلاّمة الشيخ عبد الحسين الأميني رحمه الله كان يجلس يوم عاشوراء في صحن الإمام الحسين عليه السلام مع بعض علماء السنة ويشاهدون دخول المواكب، فدخل موكب طويريج بعُنفه في اللطم، فقال له أحدهم: هذا صحيح يا شيخ عبد الحسين؟ فسكت، ثم بدأت تدخل مواكب الإدماء، فجَنّ جنون المشايخ السنيّين وصاح أحدهم: وهل هذا صحيح يا شيخ عبد الحسين!! فأجابه: نعم وهذا صحيح، فأنتم بسبب هذه المراسم لم تستطيعوا إنكار شهادة الحسين عليه السلام وأفعال يزيد، ونحن اشتبهنا حين لم نجعل مراسم مثلها لعيد الغدير حتى لا تستطيعوا إنكاره!!(٧).

---

(٦) راجع فتاوى الشعائر الحسينية ص (١٨٢) الطبعة السّادسة. وهذه هي ترجمة بعض فتواه (دام ظلّه) عن الفارسيّة.

(٧) راجع القصة في المجلّد التّاسع من الإنتصار للشّيخ العاملي.

وبعد هذه الجولة الملمّة بأكثر جوانب البحث ليس أمامنا إلاّ أن ننتهي من حيث بدأنا من وجوب الدّأب على رفع هذا الشّعائر الحسينية المقدّسة بإيمان وأمانة، والمحافظة على جملة الشّعائر، المتصلة كنظام السلسلة، وعدم التفريط بمظهر من مظاهرها، والإجتماع تحت لواء الإمام الحسين عليه السلام.

ونسأل الله تعالى أن يمدّنا بتوفيقاته وعناياته لحمل هذه الأمانة العظيمة، لنكون من شيعة أهل البيت عليهم السلام الذين شاركوهم بطول الحزن والحسرة، ومن جملة المرحومين بهم عليهم السلام، وأن لا يفرّق بيننا وبينهم في الدّنيا والآخرة، وصلّى الله وبارك وسلّم على سيّد الخلق محمّد وآله الميامين المطهّرين.

تمّ الكتاب[8]
في يوم شهادة الإمام الصّادق عليه السلام
يوم الأربعاء ٢٥ شوّال ١٤٢٥ هـ

محمد

(٨) تمّت مراجعة الكتاب وتنقيحه وتصحيحُه للطبعة الثانية في يوم مولد السيدّة زينب عليها السلام الموافق السبت الخامس من جمادى الأولى لسنة ١٤٣٢ هـ، وأسأل الله أن يفرّق بيننا وبين ساداتنا عليهم السلام طرفة عين أبداً، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطّاهرين.

المحتويات

إهداء ٥
توطئة ٧

مبحث : المقدمة

الشهداء في عين الإنسانية ١٧
تكريم الرّاحلين في الإسلام ١٩
الحسين هو سيّد الشّهداء ٢٦
داعي خلود الحزن الحسيني ٤١
أعظم المصائب !! ٥٩
الإمام الثّالث بالنّص ٨٤
الأصداء السابقة على المقتل ١٠١
الأنبياء عليهم السلام ومصيبة الحسين عليه السلام ١٠٣
ما ورد في آدم عليه السلام ١٠٣
ما ورد في نوح عليه السلام ١٠٥
ما ورد في إبراهيم عليه السلام ١٠٧

ما ورد في إسماعيل عليه السلام ١٠٩
ما ورد في موسى عليه السلام ١١٠
ما ورد في إسماعيل بن حزقيل عليه السلام ١١٠
ما ورد في سليمان عليه السلام ١١٢
ما ورد في زكريا عليه السلام ١١٣
ما ورد في عيسى عليه السلام ١١٤
رواسب الدّيانات السّماوية ١١٦
مقتل الحسين في القرآن ١٢٥
أصداء المقتل في السيرة النبويّة ١٣٠
أصداء المقتل في سيرة الزّهراء عليها السلام ١٤٨
أصداء المقتل في السّيرة العلويّة ١٥٥
أصداء المقتل في السيرة الحسنيّة ١٦٤

الأصداء اللاحقة على المقتل ١٦٧
أصداء المقتل في عالم الغيب ١٦٩
تأثير المصيبة على المكوّنات ١٧٦
الجن وأصداء المقتل ١٨٨
تعاقب الأصداء البشريّة بعد المقتل ١٩٦
ظهور التوّابين في الكوفة ٢٠٠
الظهور الأوّل للمختار الثقفي ٢٠٥
إنطلاقة التوّابين في الكوفة ٢٠٧
معركة عين الوردة ٢١١
الظهور الثاني للمختار الثّقفي ٢١٦
أصداء المقتل وأهل البيت عليهم السلام ٢٢٩

مبحث: الشعائر الحسينية

الشعائر في اللغة والدين ٢٣٩

الشيعة الإمامية ويوم عاشوراء ٢٥٠

وظائف الشيعة يوم عاشوراء ٢٥٢

الإنهزامية تجاه استهزاء المبطلين ٢٦٥

الشعيرة الأولى: الحزن ٢٦٩

إرث الحزن ٢٧٤

حزن العلويين ٢٧٨

حزن الإمام السّجاد عليه السلام ٢٨١

حزن الإمام الباقر عليه السلام ٢٨٣

حزن الإمام الصادق عليه السلام ٢٨٦

حزن الإمام الكاظم عليه السلام ٢٨٨

حزن الإمام الرضا عليه السلام ٢٨٩

حزن أبناء الرّضا عليه السلام ٢٩٣

حزن الإمام المنتظر عليه السلام ٢٩٤

شعيرة المأتم ٣٠٠

شعيرة لبس السّواد ٣٠٣

شعيرة الإطعام ٣٠٥

الشعيرة الثانية: البكاء ٣٠٩

تشريع البكاء ٣١٧

البكاء على الحسين عليه السلام ٣٢١

ثواب البكاء الحسيني ٣٢٤

البكاء والضرر ٣٣٧
البكاء حال الصلاة ٣٣٩
كفّارة الذنوب ٣٤١
سر الثّواب الجزيل ٣٤٥
البكاء والتباكي ٣٥٠
رفع الصوت بالبكاء ٣٥٢

الشعيرة الثالثة: المجالس ٣٦٣
المجالس دواوين العرب ٣٦٩
الإسلام والمجالس ٣٧٤
الإسلام وتوجيه المجالس ٣٧٨
مجالس الذّكر ٣٨١
أهل البيت والمجالس ٣٨٥
أوّل المجالس الحسينيّة ٣٩٢
مجالس حسينيّة خالدة ٤٠١
تطوّر المجالس الحسينيّة ٤٠٨
دعوة تجديد المجلس الحسيني ٤١٧
بين التجديد والتنزيه ٤٢١
مصادر حادثة الطف ٤٢٤
بحار الأنوار ٤٣٤
أسرار الشهادة ٤٣٨
العلامة المطهّري ٤٤٦
روضة الشهداء ٤٥٤
الأخبار المكذوبة ٤٦٠

حقيقة زفاف القاسم ٤٧١
إرسال أخبار الطف ٤٩١
الضابطة في نقل الأخبار ٤٩٤

الشعيرة الرابعة: إنشاد الشعر ٤٩٩
الإسلام والشعر ٥٠٥
عينيّة السيّد الحميري ٥١٠
تائية دعبل العصماء ٥١٧
الحث على الشّعر والإنشاد ٥٢٨
النّظم والإنشاد ٥٣٤
المدح والرّثاء ٥٣٤
الفصيح والدّارج ٥٣٥
المبالغات وألسنة الحال ٥٣٥
التغنّي بالمراثي ٥٤٠
شعيرة التمثيل ٥٤٩

الشعيرة الخامسة: الزيارة ٥٥٧
كربلاء المقدسة ٥٧٠
ثواب زيارة الحسين ٥٧٦
دعاء الصادق للزائرين ٥٨٣
كلّ هذا الثواب !! ٥٨٥
مواقيت الزيارة ٥٨٩
شعائر الزيارة ٥٩٤
شعيرة المشي للزيارة ٥٩٥
التربة المقدّسة ٦٠٠

أخيرا: شعائر الجزع ٦٠٣
الجزع في اللغة الرواية ٦٠٦
الصّرخة ٦١٠
شقّ الجيب ٦١١
النياحة ٦١٤
اللطم ٦١٥
شعيرة الإدماء ٦١٦
الإدماء والحجامة ٦٢٦
الضّرر النّاجم عن الجزع ٦٣٠
الإدماء والضرر ٦٣٣
قاعدة: لا ضرر ولا ضرار ٦٣٥
إضرار النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه بالعبادة ٦٤٠
إضرار الزهراء عليها السلام نفسها بالعبادة ٦٤٥
إضرار السجاد عليه السلام نفسه ٦٤٦
إضرار أهل البيت عليهم السلام أنفسهم ٦٥٠
تقرّح جفون الرضا بالبكاء ٦٥٢
امتناع العباس عن الماء ٦٥٣
بكاء الأنبياء ٦٥٩
نهاية المطاف ٦٦١

